

الأمديني وآؤه الحكاميين

الدكتور حسن الشافعي
الأستاذ في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الْمَدِينَةُ
وَلَدَاؤُهُ الْكَلَامِ

الأمديني وآؤه الحكاميين

الدكتور حسن الشافعي
الأستاذ في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للمنشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها
عبد الفادر محمود البكار

الطبعة الأولى
١٩٩٨ م - ١٤١٨ هـ

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

مصر، القاهرة ١٢٠ شارع الازهر ص.ب ١١٦١ القومية

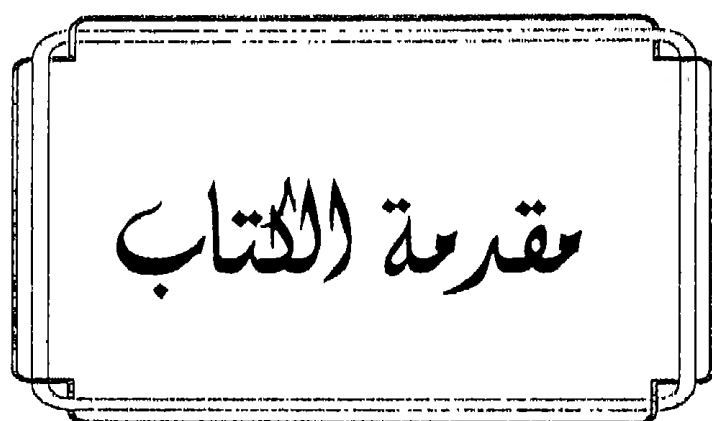
ت ٥٩٣٢٨٢ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٢٧٠٤٢٨٠ (٠٠٢٠٢) فاكس ٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)

الإهداء

إلى زوجتي

جزاها الله عنى وعن هذا العمل خير الجزاء .

المؤلف



مقدمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين ،
وأتباعهم من دعاة الحق في كل حين ، وبعد :

فقد يسر الله - تعالى - إصدار هذا الكتاب الذى مضى على إعداده نحو ثلث قرن ،
حيث كان - مع تحقيق كتاب " غاية المرام فى علم الكلام " - أول بحث جامعى يكتب عن
الأمدى المتكلم ، فى أواخر الستينيات من هذا القرن ، فصدر " غاية المرام " عن المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة فى مطلع السبعينيات ، بمسعى كريم من المرحوم الأستاذ
رشاد عبد المطلب الذى فقدته الدراسات التراثية فى العقد اللاحق ، فرحمه الله وجزاه عن خير
الجزاء وأوفاه . والآن تصدر الدراسة التى أجازتها حينذاك مع النص المحقق لجنة من قادة
الدراسات الإسلامية والفلسفية فى مصر ، هم المرحوم الأستاذ الدكتور / محمود قاسم عميد دار
العلوم الأسبق الذى تم البحث تحت إشرافه وتوجيهه ، والرحوم الدكتور / إبراهيم بيومى
مدكور رئيس مجمع اللغة العربية السابق ، وأستاذى الدكتور / يحيى هويدى مد الله فى عمره
وأمتعنا بنتاج فكره - وجزاهم الله جميعا خير الجزاء .

وقد حرصت ألا أدخل على نص البحث الأسمى أى تعديل إلا فى مواضع قليلة جدا ،
تعليقا على بحث أحدث يتصل بالأمدى ، أو إثارا لمرجع مطبوع كان مخطوطاً فى ذلك الحين
، أو تصويبا لخطأ وقعت فيه ، دون تغيير جوهرى ، لأقدم للمهتمين بالدراسات الكلامية نموذجا
من بحوث الستينيات الجامعية ، فقد ازدهرت هذه الدراسات واتسعت ، ومن واجبنا جميعا أن
نتعاون فى إحياء تقاليد الدراسة الراسخة وأدائها الرفيعة .

لقد كان هذا البحث عن الأمدى المتكلم فاتحة خير بحمد الله ، فصدرت بعده دراستان
فى جامعة الأزهر العريقة عن كتابه " أبكار الأفكار " ، وثالثة عن كلية البنات بجامعة عين
شمس عن " نظرية المعرفة عند الأمدى " ، وأخرى عن " الإمامة عند الأمدى " من الجامعة
الأمريكية فى بيروت ، واستمرت العناية بالامدى أصوليا فأصدر أحد الباحثين الأمريكيين
دراسة عن كتابه " الإحكام فى أصول الأحكام " ، ولكن البعد الثالث - وهو الجانب الفلسفى -
فى شخصيته لم يحظ بعد بما يستحق من اهتمام الأوساط العلمية فى الشرق أو الغرب ، ويرجع
ذلك إلى نقص المصادر التى مايزال أكثرها مفقودا من أعماله الفلسفية ، ولعل كتابه " المبين
فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين " الذى أصدرته محققا فى أوائل الثمانينيات ، وتفضل

بإصداره أيضا الدكتور عبد الأمير الأعسم مع دراسة ضافية عن المصطلح الفلسفى العربى - هو العمل الوحيد الذى خرج إلى أيدى الباحثين من تراث الأمدى الفلسفى .
وعسى أن يلقى هذا الكتاب " الآمدى وآراؤه الكلامية " ما لقيه صنوه " غاية المرام " من ترحيب الدارسين واحتفائهم على نحو يفوق ما توقعته ، فهو - على ما فيه من نقص بطبيعة الحال - يكمل حلقة كانت مفقودة فى تاريخ تراثنا الفكرى ، ويعرض آراء الأمدى فى إطار من تطور المذهب الأشعرى والفكر الكلامى بوجه عام ، ويعنى بمناهج البحث فى علم الكلام عنايته بالآراء والأفكار التى أثمرتها تلك المناهج المتطورة ، فضلا عن استقصائه البحث فى شخصية الأمدى العلمية وما خلفه من آثار ، وإثارته لبعض القضايا والمشكلات التى قد تدعو بعض الباحثين إلى متابعة البحث على نحو أفضل بما عساه يتيسر لهم من إمكانات ونصوص جديدة - بإذن الله - وهو سبحانه ولى التوفيق .

لقد رأيت من واجبى ، وقد كان هذا البحث أول عمل يتم بعد زواجى من السيدة الفاضلة التى تحملت معى عبء البحث فى التراث الكلامى والفلسفى ثلاث قرن من الزمان ، أن أهديه إليها ، وفاء وامتنانا لما تقدمه فى صمت لهذه الجهود التى أدعو الله أن تكون خالصة لوجهه ، نافعة لأمتنا الناهضة وأجيالها الصاعدة ، إنه سميع مجيب .
وبقى على أن أشكر كل ما أعانونى على إنجاز هذا البحث فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وخارجها ، وأخص بالذكر أخى وزميلي العالم السورى المتميز المرحوم الأستاذ محمد صالح الزركان الذى اقترح على النهوض به فى مطلع القرن الستينيات ، وكل من أسهموا فى إخراجه للناس وبخاصة الناشر السورى السيد / عبد القادر البكار صاحب دار السلام ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

حسن الشافعى

القاهرة

فى ١١ ربيع الآخر ١٤١٨ هـ

١٥ أغسطس ١٩٩٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

ولد أبو الحسن الآمدى فى منتصف القرن السادس الهجرى ، وامتدت حياته إلى نهاية الثلث الأول من القرن السابع تقريبا ، وهى فترة دقيقة من حياة العالمين العربى والإسلامى ، حفلت بأحداث هامة ، واتسمت بسمات خاصة فى المجالات السياسية والثقافية والدينية ، كان لها أثرها فى تكييف حياته ، واتجاهاته الفكرية ، بالإضافة إلى ما تتميز به الرجل فى جوهر شخصيته ومقوماته من خصائص ذاتية ، وربما كان ثمة جدوى فى بيان الظروف السياسية والثقافية والدينية للمنطقة التى عاش فيها الآمدى ، مع الإشارة إلى الأوضاع العامة للعالم الإسلامى حينذاك ، وهذا هو موضوع الفصل الأول من الباب الأول . ونأمل أن يكون فى ذلك عون على فهم حياته الخاصة ومشاركاته العامة ، وعلى تعرف معالم شخصيته المعنوية وإنتاجه العلمى ، ثم على درس منهجه الفكرى وبخاصة فى ميدان علم الكلام ، وتلك مهمة الفصول الثلاثة التالية من هذا الباب .

الباب الأول

سيف الدين الآمدى : عصره ، وحياته ، وثقافته
وإنتاجه ، ومنهجه .

ويشتمل على أربعة فصول :

الأول : عن عصره .

الثانى : عن حياته .

الثالث : عن ثقافته وإنتاجه .

الرابع : عن منهجه .

الفصل الأول

عصره

أولاً : من الناحيتين السياسية والاجتماعية :

كانت الخلافة العباسية ببغداد فى منتصف القرن السادس الهجرى تعيش أيام ضعفها، وتمثل سلطة روحية أكثر منها زمنية . وفى الأقاليم المختلفة ظهرت إمارات ودول مستقلة أو شبه مستقلة تتنازع النفوذ السياسى ، بينما كانت هناك أخطار خارجية شديدة تتهدد العالم الإسلامى كله : فمن الشرق جاء المغول عاصفة عاتية تحطم كل شىء فى طريقها ، ثم لا تلبث أن تطيح ببغداد نفسها ، فى منتصف القرن التالى . وفى الغرب كان الضعف السياسى والتفكك قد بدد قوى المسلمين فى الأندلس ؛ فأخذت بلادهم تسقط مدينة بعد أخرى . وفى القلب كان الصراع التاريخى بين الشرق والغرب المعروف بالحروب الصليبية محتدماً على أشده، يترقب حسماً فاصلاً لم يتحقق إلا فى نهاية القرن التالى .

وقد تكفلت المراجع التاريخية العامة ببيان هذه الظروف الدقيقة ، غير أن الصورة لا تكتمل إلا بالإشارة إلى حركات المقاومة والإفاقة التى نمت فى أحشاء هذا العالم المهدد، بهدف تجميع قواه ؛ وحشد طاقاته فى مواجهة هذه الظروف العصيبة . وقد كانت الدولة الأيوبية فى مصر والشام واحدة من هذه الحركات ، حيث نهضت فى المشرق العربى بالمسؤوليات التاريخية التى عجزت عنها الدولة الفاطمية التى أسقطها صلاح الدين الأيوبي (١) سنة ٥٦٦ هـ ، ثم واصل الكفاح حتى كانت موقعة « حطين »، وفتح بيت المقدس فى سنة ٥٨٣ هـ (٢)، بعد أن استولى عليه الصليبيون زمناً طويلاً ، وكان ذلك تنويجاً لكفاحه الرائع .

(١) ابن واصل .. جمال الدين بن محمد بن سالم : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، وتحقيق جمال الدين الشيال ط جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣ .

(٢) المقدسى .. شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ط مصر سنة ١٢٧٧ هـ / ٢٠٧٥ - ٨٥٠ / ١٠٠٠ .

وفي الغرب قامت دولة الموحدين الفتية بتجميع قوى المسلمين بالمغرب العربي ، وبنجدة مسلمى الأندلس ، وكانت موقعة «حفص الحديد» سنة ٥٩١هـ (١) ، بسين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أمير الموحدين ، والفونس ملك طليطلة ، ذات أثر كبير في دعم موقف المسلمين الخطير هناك . وفي المناطق الشرقية حمل السلطان «جمال الدين بن خوارزم شاه» لواء المقاومة بعد أبيه ضد المغول (٢) مما عرقل خطوات الزحف المغولي (٣) ، وأتاح للقوى الصاعدة في العالم الإسلامي أن تواجهه ، ثم تحتويه نهائيا بقيادة أمراء مصر من المماليك فيما بعد .

وقد كانت أقوى هذه الدول وأكثرها بلاء في مقاومة الغزاة ، بحكم موقعها وإمكاناتها، الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين ، على أنقاض الخلافة الفاطمية بمصر، وضم إليها إمارة أستاذه نور الدين بالشام ، واتخذ لها شعاراً من السنة وإحياء المفاهيم الإسلامية الأصيلة ، مع نزعة أشعرية واضحة تابعه عليها أكثر خلفائه من بعد ، بل كان هذا - أيضا - هو الطابع الغالب على الحركتين المشار إليهما آنفا في شرق البلاد الإسلامية وغربها .

وقد عاش الآمدى في ظلال هذه الدولة وأسهم في دعم المبادئ التي تعلنها وتنشرها ، واتصل ببعض رجالها فنعم بالتقدير والمودة أحيانا ، ولقى التقدير دون مودة أحيانا أخرى ، ومنى بالإعراض والاضطهاد أحيانا ثالثة ، وكان لهذا كله أثره على حياته الطويلة المضطربة الحافلة .. ولذا فقد يقتضى هذا - دون إيغال في التفاصيل - تقديم نبذة عن ظروف الدولة الأيوبية ورجالها الذين عاصروهم :

استولى نور الدين بن زنكى على دمشق عام ٥٤٩هـ بمعونة من أهلها (٤) ، فوضع

(١) ابن تغرى بردى : «النجوم الزاهرة» فى ملوك مصر والقاهرة ، ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٥هـ ٩٢/٦ ، ١١٢ ، ١٣٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ط السعادة مصر ١٣/٨٣ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١٢٣ ،

(٣) الجوينى (علاء الدين) : تاريخ جهانكشاي -- عربي عن الفارسية (ضمن رسالة ماجستير بآداب عين شمس) السيد سعيد جمال الدين ص ٩٩-١١١ ، ولعل ابن كثير فى البداية والنهاية يشير إلى كتاب الجوينى هذا بقوله : « وقد رأيت مجلدا جمعه الوزير ببغداد علاء الدين الجوينى فى ترجمته (أى جنكيزخان) ثم ينقل عنه ابن كثير بعض أخباره ... البداية والنهاية ١٣/١١٧ ، ١٦٨ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥/٣١٨ .

الأسس التي أتاحت لصلاح الدين أن يقوم بتوحيد مصر والشام فيما بعد^(١)، ولكى يتفرغ هذا الأخير لإدارة السياسة العليا وشئون الجهاد قام بتوزيع الأقاليم على أبنائه ورجال بيته^(٢)، فكانت مصر لولده العزيز، ودمشق لولده الأفضل، وحلب لابنه الملك الظاهر، وحماة للملك المنصور محمد الذى تولاها بعد أبيه تقي الدين عمر بن أخى صلاح الدين، وقد عاش الآمدى بهذه البلاد جميعا، وكانت له ببعض أمرائها صلات مختلفة سنتبينها عندما نستعرض وقائع حياته.

ولكن أمور الدولة الأيوبية أفضت فى أخريات القرن السادس إلى البيت العادلى^(٣)، فكانت مصر مع العادل أخى صلاح الدين ثم لولده الكامل، وأما دمشق - التى كان العزيز قد استولى عليها سنة ٥٩٢ هـ من أخيه الأفضل - فصارت أيضا إلى العادل ثم إلى ابنه الملك المعظم حتى سنة ٦٢٤ هـ، ثم قام بأمرها من بعده ابنه الناصر داود حتى أخرجه منها عمه الكامل سنة ٦٢٦ هـ وأعطاه الملك الأشرف موسى بن العادل حتى وفاة الآمدى بهاسنة ٦٣١ هـ، وإلى أن مات الكامل والأشرف كلاهما سنة ٦٣٥ هـ. وأما حماة فبقيت مع المنصور بن تقي الدين حتى مات فى سنة ٦١٧ هـ، كما ظلت حلب مع الملك الظاهر بن صلاح الدين حتى مات فى سنة ٦١٣ هـ، فصارت لابنه الصبى «العزيز» بوصاية أحد مماليك أبيه، وتلك هى البلاد التى قضى فيها الآمدى أعواما من حياته، ودرس فى مدارسها، وفيها ألف كتبه، وأهدى بعضا منها إلى عدة من هؤلاء الأمراء ذوى الاتجاهات المختلفة، كما سيتضح ذلك فى الفصل التالى.

وإذا كان الآمدى قد هبط بغداد وهى ما تزال - رغم ضعفها السياسى - مصدر إشعاع ثقافى وروحى، ثم انتقل إلى الشام أيام صلاح الدين الزاهرة، وعاش فى القاهرة فترة خصبة من حياته، فإن الرجل لم يمت حتى شهد مظاهر الشيخوخة تدب فى أوصال هذه الدولة الفتية، خاصة بعد وفاة العادل وابنه المعظم، فقد تزايد الخطر المغولى واقترب، إذ عبر القوم «جيحون» واستولوا على «غزنة» بعد قتال شديد مع السلطان «جلال الدين». كما استولى الفرنجية على دمياط فى سنة ٦١٥ هـ، وأخذوا «بيت

(١) انظر العرينى: «مصر فى عصر الأيوبيين» ٤٢ وما بعدها.

(٢) راجع فى هذا التقسيم وظروفه: البداية والنهاية ٦/١٣ وما بعدها.

(٣) راجع فى هذا التقسيم وظروفه: البداية والنهاية ٢٤/١٣ وما بعدها. وخاصة ٧١، ٩٣، ١٢١.

المقدس» مرة ثانية فى سنة ٦٢٦هـ ، فعظم ذلك على المسلمين جداً - كما يقول ابن كثير - بل إن التتار وصلوا إلى شمالى العراق وهددوا بغداد ، واستولوا على ماحول آمد من بلاد فى سنة ٦٢٨هـ ، أى قبل وفاة الآمدى بثلاثة أعوام (١) .

وقد عاش الآمدى العقدين الأخيرين من حياته الطويلة بين حماة ودمشق إذ غادر القاهرة متهما فى عقيدته بعد سنة ٦١٢هـ ، فنزل فى جوار المنصور صاحب حماة ، حيث قضى فى جواره بضع سنوات ، وفى حوالى سنة ٦١٧هـ انتقل إلى دمشق ليعيش بها أيام الملك المعظم عيسى (٢) ، وكان يقدر الآمدى وإن لم يكن يحبه ، ثم أيام ابنه الناصر داود ، وكان ذا نزعة فلسفية ، فواصل تشجيع الآمدى ، ثم حوصرت دمشق من الكامل وإخوته سنة ٦٢٦هـ وأخرج منها «الناصر» ، فسلمت للأشرف الذى عزل الآمدى عن التدريس ، وحرم الاشتغال بعلوم الأوائل ، إثر فتوى من «ابن الصلاح» شيخ المحدثين . وفى عهده ، الذى كان يعد من فترات ضعف الدولة ، انتهت حياة الآمدى رحمه الله سنة ٦٣١هـ (٣) .

وقد أعان هذه الدولة على انتصاراتها العسكرية وصمودها السياسى أحوال وتنظيمات اجتماعية واقتصادية مواتية فى مصر والشام ، برزت فيها قيادة العلماء ونما نفوذهم على العامة (٤) ، كما ظهرت مؤسسات اجتماعية وصحية لرعاية المرضى والعجزة والضعفاء والمسافرين لاتزال آثارها باقية إلى اليوم ، كالحوائق ، والييمارستانات ، والصيدليات ، والفنادق أو الخانات (٥) . وازدهرت المدارس وغلبت روح التصوف (٦) ، ونظمت الطرق الصوفية ، وكان ذلك بتشجيع صلاح الدين وأعوانه وخلفائه . وساعد الأمن والاستقرار والوحدة على ازدهار الزراعة والتجارة .

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٧٩ ، ٨٢ ، ٩١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ط دار الشعب سنة ١٩٦٩ مادة «الآمدى» .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ١٣ / ٢٤ ، والذيل على الروضتين لأبى شامة . ط أولى سنة ١٩٤٧ صفحات ١٥٤ ، ٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ٢٢٠ . (٤) أحمد بدوى : الحياة العقلية ٦٦ - ٦٨ .

(٥) ابن خلكان : الوفيات ٣ / ٢٧٢ ورحلة ابن جبير ص ١٥٨ ، ٢٧٠ والعربى : مصر فى عصر الايوبيين ٢١٠ - ٢٣١ .

(٦) مصطفى حلمى : ابن الفارض ١٣ ، ١٧ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ١٣٧ وأبو شامة : الذيل على الروضتين ١٢٥ - ١٢٧ .

إلا أن الخلافات بين أمراء البيت الأيوبي ، واضطراب الأحوال بعد وفاة صلاح الدين ، أدت إلى أزمات في الحياة الاقتصادية كما حدث أيام العادل في سنة ٥٩٧هـ^(١) ، غير أن هذا المجتمع كان ما يزال ماضيا إلى هدفه بقوة الدفع التي بثتها فيه حركة صلاح الدين وأستاذه نور الدين ، والانتصارات التي أنجزها والمؤسسات الثقافية والاجتماعية التي أرسيا قواعدها . ويبدو أن المجتمع المسلم حينذاك كان يعاني من ديبب الشيخوخة وبوادر الحمل التي غلبت عليه بعد ذلك ، ولولا خطر الغزو وجهود بعض السياسيين والعلماء الذين ظهروا في تلك المرحلة ، لما استطاع النهوض بمسئوليته التاريخية على النحو المشرف الذي تحقق له^(٢) .

ثانيا - من الناحيتين الثقافية والدينية :

يتفق الباحثون على أن هذه الفترة التي نتحدث عنها كانت فترة نهوض ثقافي ، رغم التشتت السياسي والمتاعب المختلفة التي كان يعانيها العالم الإسلامي^(٣) ، وسنلم - في إيجاز - ببعض مظاهر هذه النهضة وعواملها ، ونشير إلى موقف الدراسات المختلفة ، وخاصة الدراسات العقلية والكلامية - وهي التي برز فيها الآمدى - ثم نتبع ذلك بكلمة عن الأحوال الدينية لهذا العصر :

١ - من أهم الظواهر العلمية والثقافية في هذا العصر ظاهرة « المدارس » التي أخذت تنتشر في الشام ومصر ، وقد كان لصلاح الدين - وأستاذه نور الدين من قبل - الفضل في نقل نظام المدرسة كمؤسسة متخصصة للنشاط العلمي ولدراسة مذهب أهل السنة ، عن العراق ، حيث أقامها السلاجقة بإشراف وزيرهم « نظام الملك »^(٤) . والجديد في أمر هذه المدارس هو دعم كيائها بإلحاق خزائن الكتب بها^(٥) . وإرساء التقاليد

(١) النجوم الزاهرة ٦ / ١٧٣ حوادث سنة ٥٩٧ والزركان : فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٢ ، ٣ .

(٢) من أهم الوثائق في تصوير حالة المجتمع عندئذ وما ران عليه من بدع وخرافات وأمراض خلقية كتاب « تلبيس إبليس لابن الجوزي » صفحات ٩٤ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٠ ، ١٤٠ - ١٥٥ ومابعدا وانظرا أيضا البدوى : رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٢٤٤ ومابعدا .

(٣) انظر مثلا : محمد حلمي أحمد : الحياة العلمية في مصر والشام ص ١ ، أحمد بدوى : الحياة العقلية ص ٤٩ ومابعدا ومصطفى حلمي : ابن الفارض ص ١٤ ومابعدا ، وخدايش : الحضارة الإسلامية ص ١٧٠ .

(٤) حلمي : الحالة العلمية ص ٦ . (٥) بدوى : الحياة العقلية ٨٥ والنجوم الزاهرة ٦ / ١٣٢ .

والنظم العلمية فيها على نحو دقيق ، فالأساتذة «الصدور» ومعاونوهم المدرسون ، ثم المعيدون - ثلاثة أجيال متعاقبة من رجال العلم وشبابه تقوم على طلبة هذه المدارس^(١) ، والجميع يتلقون من الأوقاف المخصصة لكل مدرسة مايقوم بشئونهم .

ولقد أراد صلاح الدين بإنشاء المدارس مقاومة المذهب الفاطمى والقضاء على رواسبه وآثاره ، وبعث العقيدة الدينية كحافز معنوى فى صراعه ضد الصليبيين^(٢) ، وكذلك فعل أمراؤه وكبار رجال دولته^(٣) ، فأنشأوا المدارس ، وعينوا لها الأساتذة والمعيدين ، وقاموا بنفقات طلابها ، كل فى إقليمه أو بلده .

وتنبغى الإشارة هنا إلى ظاهرة جديدة بالتنويه فى ذاتها ، ولما لها من علاقة بحياة الآمدى أيضا : وهى قيام بعض هؤلاء الأمراء بإنشاء سلسلة من المدارس خارج أقاليمهم على مستوى الدولة كلها ، على نحو ما فعل الأمير تقي الدين صاحب حماة ، الذى أنشأ مدرسته التقوية بدمشق ، ومدرسة « منازل العز » بالقاهرة ... وهى المدرسة التى أقام بها الآمدى حين حضر من الشام - ومدرسته الكبرى بمدينة حماة^(٤) . ويبدو أن العادل أخا صلاح الدين - قد فعل مثل ذلك فأنشأ «العادلية» بالقاهرة وعادليات أخرى بدمشق وغيرها^(٥) .

على أن عناية صلاح الدين بالعلم والعلماء لم تقف عند حد الرعاية والتشجيع ، بل إنه وكثيرا من أمراء بيته اشتغلوا بطلب العلم ورواية الحديث ، وبرز بعضهم فى الفقه والأدب والشعر ، كالمملك المعظم ، والمملك الكامل ، والأمير المنصور صاحب حماة ، وأبيه

(١) الحياة العقلية ص ١٧ ومصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٢) بدوى : الحياة العقلية ص ٨٠ ، وابن الفارض ص ١٣ ، ١٤ .

(٣) محمد حلمى أحمد : الحالة العلمية ص ١٤ ومابعدها ، ومصر فى عصر الأيوبيين ٢١٩ ومابعدها .

(٤) الدارس فى تاريخ المدارس للنعمى ٢ / ٢١٦ .

(٥) انظر خطط المقرئى ٤ / ٩٥ ، ومصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٢٢ ، غير أن الدكتور جمال الدين الشبيل

حدد تاريخ إنشاء «عادلية الإسكندرية» التى نسخت بها نسخة غاية المرام للآمدى ، التى اعتمدت على

مصورة لها فى هذه الدراسة . بعام ٥٤٤هـ ، وقد أنشأها العادل بن السلار وزير الظاهر الفاطمى ، ولبس

العادل الأيوبي ، للحافظ السلفى وفقهاء الشافعية انظر المقالة الاولى بالمجلد ١١ من مجلة كلية الآداب

بجامعة الاسكندرية لعام ١٩٥٧م .

تقى الدين وغيرهم^(١) . وقد استعان خلفاؤه أيضا، في إدارة شؤون الدولة ، برجال اشتهروا بالعلم والأدب ، إلى جانب كونهم رجال دولة ، كالقاضي الفاضل وابن شداد والعماد الكاتب وابن سناء الملك وكوكبوري أمير إربل وأمثالهم^(٢) .

وحظيت العلوم الدينية باهتمام بالغ في هذا العصر ، من قراءات وفقه وتفسير وحديث وما يتصل بها من علوم اللغة ، ويدل على ذلك كثرة المدارس التي أنشئت لدراسة المذاهب الفقهية^(٣) ، وخاصة المذهب الشافعي ، والدور التي خصصت لعلم الحديث النبوي بالقاهرة ودمشق وحلب وغيرها^(٤) ، والمؤلفات في هذه العلوم التي ظهرت لعدد من العلماء والباحثين^(٥) .

ب- على أن العلوم غير الدينية كانت تحظى أيضا بالرعاية والتشجيع كالطب والفلك والتاريخ ، وقد حفل العصر بأعلام كبار في هذه العلوم ، سواء تخصصوا فيها أو كانت لهم أيضا مشاركة في العلوم الدينية ، كالعماد الأصفهاني صاحب «الفتح القدسي» ، وابن واصل صاحب «مفرج الكروب» ، وابن خلكان صاحب «الوفيات» ، والقفطي صاحب «إخبار العلماء» ، وابن شداد صاحب «تاريخ حلب» ، والنوادر السلطانية^(٦) وابن عساكر صاحب «تاريخ دمشق» ، والطوسي الفلكي المتكلم المعروف ، والمفضل الأبهري صاحب «درايات الأفلاك»^(٧) ، وابن النفيس الطبيب

(١) انظر بحث محمد حلمي أحمد : الحالة العلمية ، ص ١٤ وما بعدها ، والحياة العقلية ١٤٩ ، وابن الفارض ص ١٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٦ / ١٠٧ ، ١٥٦ وفيات الأعيان ٣ / ٢٧٢ ، والحياة العقلية ١٤٩ .

(٣) الحياة العقلية ص ١٩٩ ، ٢٠١ .

(٤) الحياة العقلية ص ٨٠ ، ٨٥ ، وابن الفارض ١٤ ، والمدارس للنعمي ٢ / ٢٠ ، ٢١ ، والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٢٨ .

(٥) وذلك مثل : المغني لابن قدامة ، وتفسير الرازي والسخاوي ، والمنظومة للشاطبي ، والترغيب والترهيب للمعزري ، والإحكام للأمدى ، ومختصر المنتهى لابن الحاجب ، ومؤلفات ابن معطي وابن مالك في النحو ، والبدیع لابن أبي الإصبع ، والمثل السائر لابن الأثير ، والخريدة للأصبهاني ، ولسان العرب لابن منظور . الخ . انظر ابن خلكان ٢ / ٤٥٢ ، والنجوم الزاهرة ٦ / ١٨٥ والحياة العقلية ٢١٨ ، ٢٤٢ ، ٢٧١ ، والحياة الأدبية ص ٢٠ وما بعدها .

(٦) الحياة العقلية ٢٧ ، ٣٨ ، ومقدمة الروضتين لمحققه الدكتور محمد حلمي أحمد ٨ ، ٩ والوفيات ٣ / ٢٧٢ .

(٧) معجم المؤلفين ١٢ / ٣١٥ .

العظيم صاحب « الموجز » و « شرح الكليات » ، وشيخه شرف الدين محمد عبد الله شيخ الطب بالديار المصرية المتوفى سنة ٥٩٢ هـ ، وابن البيطار صاحب « المفردات »^(١) .

جـ- وقد كانت هناك عوامل ساعدت على ركود الدراسات الفلسفية والعقلية : منها آثار حملة الإمام الغزالي على الفلاسفة^(٢) ، ومحاربة الفكر الشيعي^(٣) ، وغلبة التصوف ، وبعث الاتجاه السلفي من جانب آخر .

ومالت الدولة إلى مراقبة الحركة الفلسفية ، والتضييق عليها ، فأضيف إلى مهمة المحتسب « النظر في العقائد الدينية ومحاربة الفلاسفة والرافضة والمعتزلة والقدرية والدهرية . . »^(٤) ولكن السماحة وسعة الأفق التي عرفت لامراء الأيوبيين حالت دون تورط السلطة في إجراءات مشددة بهذا الصدد ، وربما كان أقصى ما حدث في هذا المجال هو قتل السهروردي بحلب سنة ٥٨٨ هـ « الذي كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسيمايا وأبواب النيرانجيات واستمال بذلك خلقا كثيرا »^(٥) وما كاد يحل بالآمدى فى القاهرة حين كتب محضر باستباحة دمه .

ومع ذلك فلم يقض على الدراسات العقلية ، فقد ظهر فى ذلك العهد أمثال ابن رشد وابن ميمون والسهروردي والرازي وغيرهم^(٦) .

ومن جانب آخر ، اختلطت الفلسفة بعلم الكلام حتى تكتسب حق البقاء ، كما نجده لدى الرازي والآمدى ، ولكن هذه المحاولة واجهت بعض الصعوبات كما يستفاد من كلام الرازي فى ختام كتابه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين)^(٧) .

(١) طبقات السبكي ١٢٩/٥ والحياة الأدبية ١٨... ٢٠ والحياة العقلية ٩٢، ٢٤٢، ٣٣٩ .

(٢) انظر ابن سينا بين الدين والفلسفة ٢١١ ، والحياة العقلية ٣٣٣ والتراث اليوناني فى الحضارة الإسلامية ص ١٣٦ .

(٣) انظر مثلاً الرياض للكرمانى ٢٣ ٣٨ ، دولة الإسماعيلية فى إيران لسعيد جمال الدين ص ٣٣ ، ٣٤ وفضائح الباطنية ص ٣٥ ، ٣٦ ، جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، والأبكار ٢/ ٢٥٠ ب .

(٤) الحياة العقلية ص ٤٨ . (٥) النجوم الزاهرة ٦/ ١١٤ ، ١١٥ .

(٦) انظر الزركان : فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٢ ، ٣ .

(٧) اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين للرازي ، بتحقيق النشار ص ٩١ ، ٩٣ .

كما تسربت الفلسفة - أيضا - إلى علم أصول الفقه عن طريق استخدام المنطق الصورى فى مناهجه^(١) ، وإلى غيره من العلوم الإسلامية كذلك .

فوجدنا فى هذا العصر من يجمع بين المنطق وأصول الفقه وأصول الدين فى مؤلف واحد^(٢) . بل وجدنا من النحاة واللغويين من يدرس المنطق والفلسفة ويعرف بهما^(٣) ، ومن يتولى القضاء فى مصر ، مكان العز بن عبد السلام ويعرف فى نفس الوقت بأنه فيلسوف^(٤) ، بل لقد حكى عن ابن الصلاح - صاحب الفتوى الشهيرة بتحريم دراسة الفلسفة والمنطق - أنه حاول دراستها أول الأمر على يد الكمال بن يونس شيخ هذه العلوم بمدينة الموصل ولم يوفق فى ذلك^(٥) .

ورغم هذا التزاوج والاختلاط ، فقد ظلت النظرة إلى علوم الأوائل والمشتغلين بها نظرة عدائية طوال هذا العصر^(٦) .

أما عن الدراسات الكلامية ، فقد زادت العناية بها ، وشجعها ذوو السلطان ، فقد قامت دولة الموحدين على أساس مذهب كلامى ، وعمل الأيوبيون على إحياء مذهب أهل السنة ، وكان للاحتكاك بين المسلمين والصليبيين أثره فى ظهور الجدل الدينى بين الفريقين ، وكان المتكلمون فى وضع أفضل من غيرهم للتصدى لهذا العمل^(٧) .

وكان علم الكلام قد اختلط بالفلسفة إلى حد كبير ، وتبدو كتب الرازى والآمدى نموذجاً واضحاً لهذا الكلام الجديد الذى عرف بكلام المتأخرين^(٨) ، والذى

(١) انظر الغزالى : القسطاس المستقيم ص ٦ ومابعدا ، والنقذ من الضلال ص ١٥٠ ، ١٥١ ومناهج البحث عند مفكرى الإسلام للنشار ص ٧٦ ومابعدا .

(٢) مثل كتاب (القواعد) لمحمد بن محمود بن محمد الاصفهاني - انظر الحياة العقلية ص ١٨٣ .

(٣) النجوم الزاهرة : ٦ / ٣٤٢ حيث يتكلم عن ابن الحجاز العالم اللغوى الضرير الذى غلبت عليه العلوم العقلية .

(٤) هو افضل الدين الخورنيجي - انظر ما سياتى عنه فى ص ١٣٥ .

(٥) انظر التراث اليونانى ١٥٨ .

(٦) انظر : الحياة العقلية ٣٣٧ إذ ينقل عن الادفوى فى وصف قنا « ولا يوجد فيها اجزم ولا برص إلا نادرا... ولا مجسم ولا معتزلى ولا فيلسوف » وص ٣٣٩ أيضا .

(٧) السابق ١٤٩ - ١٥٨

(٨) شرح : العقائد النسفية للتفتازانى ٥٣ ، ٦٠ ومقدمة ابن خلدون ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

اعتبر السيوطي - فيما بعد - دراسته محرمة ، ورجح أنه هو المقصود بأقوال الأئمة الذين حرموا علم الكلام ، كالشافعي وأحمد وغيرهما^(١) .

وقد أنشت المدارس الخاصة بعلم الكلام ، كالناصرية التي أنشأها صلاح الدين ، ودون ذلك في لوحة تأسيسها التي لا تزال محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، وقدم لنا العصر من أعلام المتكلمين أمثال الرازى سنة ٦٠٦ هـ والآمدى سنة ٦٣١ هـ ، وعبد اللطيف البغدادى سنة ٦٢٩ هـ والعز بن عبد السلام سنة ٦٦٠ هـ ، والطوسى سنة ٦٧٢ هـ وغيرهم^(٢) .

وإلى جانب هذا التطور فى علم الكلام واختلاطه بالفلسفة ، نجد ظاهرة بارزة أخرى ، وهى ازدهار المذهب الأشعرى ، وغلبته على سائر المذاهب الأخرى ، ويرجع ذلك إلى بعض الظروف السياسية ، فإن الدول التي كانت تتقاسم النفوذ فى العالم الإسلامى عندئذ ، كانت على مذهب أهل السنة والجماعة مع نزعة أشعرية واضحة ، كملكة خوارزم شاه فى الشرق ، والأيوبيين فى مصر ، والشام ، والموحدين فى المغرب ، وكان من قبل هؤلاء السلاجقة ، ودورهم بارزاً فى نشر المذهب السنى^(٣) ، هذا بالإضافة إلى طبيعة المذهب نفسه ، وتوسطه بين مبالغة المعتزلة فى التنزيه ، ونزوع الحشوية والحرفيين إلى التجسيم^(٤) ، بينما خفت صوت المذاهب الأخرى ، واختفى بعضها أو كاد .

وفى الوقت نفسه - وربما لنفس الأسباب - أصبح المذهب يضم بين دفتيه تراث المذاهب الإسلامية المختلفة ، وقد رأينا كيف اختلطت أبحاثه بتراث المدرسة المشائية الإسلامية^(٥) ، وأشار هنا إلى احتوائه لأحد المقومين الرئيسيين للاعتزال ، وهو مبدأ التنزيه للذات الإلهية ، والمواءمة بينه وبين نزعة الإثبات التي كانت غالبية على المذهب إلى

(١) إتمام الدراية لقراء النقاية للسيوطى على هامش مفتاح العلوم للسكاكى ص ٣ .

(٢) الحياة العقلية ص ٨٥ ، والنجوم الزاهرة ٦ / ٧٩ .

(٣) انظر سعيد جمال الدين : دولة الاسماعيليه فى إيران ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٤) انظر : خطط المقرئى ٤ / ١٨٤ ، ونشأة الفكر للنشار ١ / ٢٣١ ، ٢٣٢ ، والمهندون فى الإسلام ١١٩ - ١٣١ ورجال الدعوة والفكر فى الإسلام ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٥) انظر « فخر الدين الرازى وآراؤه » ٦١٠ - ٦٢٩ .

حد ما فى عهوده الأولى ، وهذا هو المبدأ المعروف بمبدأ «التوحيد» ، وقد لاحظ ابن تيمية هذا التطور فى المذهب الأشعرى ، ونوّه بالدور البارز لإمام الحرمين الجوينى فى هذا الصدد ، ونص على متابعة متأخرى الأشاعرة له ، كالرازى والآمدى^(١) ، وإيغالهم فى هذا الاتجاه ، وسيتبين - من دراستنا لموضوع التنزيه والتشبيه - أن هذا التطور قد بدأ على يد البغدادى من قبل^(٢) ، ولعل شخصية مؤسس المذهب نفسه ، كانت تحوى نزعتى الإثبات والتنزيه معا مما جعل هذا الصراع أو التطور داخل المذهب أمراً حتمياً .

أما بالنسبة للمبدأ الاعتزالى الآخر «العدل» فقد ظل الأشاعرة إلى حد ما أوفياء لمفهوم شيخهم فى الكسب ، وموقفهم من وحدة القدرة الفعالة فى الوجود ، وإن كنا نلاحظ منذ الباقلانى تعديلات لهذا المفهوم بلغت أوجهاً على يد الجوينى أيضاً كما سنوضح فى بحث هذه المسألة إن شاء الله^(٣) .

وهناك مظهر هام للتقارب بين هاتين المدرستين الكلاميتين فى أمر المنهج ، سيكون موضع دراسة فى الفصل الأخير من هذا الباب ، وسيتضح أن إنتاج الآمدى ، يمثل هذا التقارب المذهبى إلى حد كبير ، فى منهجه وآرائه أيضاً ، مما انعكس على موقفه من المعتزلة ، فراه يدفع عنهم تهمة الكفر والمجوسية والمروق من الدين فى «الابكار»^(٤) ، ويذود عنهم تحامل بعض أصحابه فى غاية المرام فى أكثر من موضع^(٥) ، وإن كانت عبارته فى مقدمته قاسية ، إذ يصفهم بالإلحاد^(٦) .

ومن آثار هذا التقارب ، أن ورث الأشاعرة وصّف «الموحدين» ، نجد هذا بوضوح عند أشاعرة المغرب من أتباع ابن تومرت حتى ليرميهم ابن تيمية - مع شيخهم - بالاعتزال^(٧) ، ويدفع الأشاعرة المتأخرون عنهم هذه التهمة ، ويؤكدون أنهم

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ٥ / ٧٢ ، ١٥٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٨٨ وبغية المرناد ١٠٧ ، وشرح العقيدة الاصفهانية ٧ ، ٨ .

(٢) انظر ماسياتى ص ٢٤ . (٣) انظر ماسياتى ص ٣٧٤ وما بعدها .

(٤) الابكار لوحة ٢ / ٢٤٢ب - ١٢٤٧ب ، ١٢٥٨ب .

(٥) انظر القسم الثانى ص ٩٥-٩٧ . (٦) انظر القسم الثانى ص ٤ .

(٧) انظر شرح العقيدة الاصفهانية ص ٢٠ ، وأيضاً محاضرة الدكتور هويدى عن ابن تومرت فى حلقة أبحاث هيئة التدريس بكلية دار العلوم ٥٠٠-٥٠٢ .

أشاعرة^(١) ، ونجد هذا الوصف عند ابن عساكر شيخ أشاعرة دمشق قبل الآمدى^(٢) ، وعلى لسان الملك الكامل عندما تدخل في الخلاف بين غلاة الحنابلة والأشاعرة في دمشق بعد وفاة الآمدى^(٣) .

ومن آثاره أيضا ، ذلك الخلاف الذي احتدم بين الأشاعرة وغلاة المشبتهين كالكرامية في المشرق ، ومتطرفي السلفية والحنابلة في بغداد والشام ومصر^(٤) ، ذلك الخلاف الذي اصطلى الرازي بناره^(٥) ، وعانى منه الآمدى في محنته الأخيرة كما سنرى ، وخاض غماره من بعده - في حزم وإصرار - تلميذه عز الدين ابن عبد السلام ، وألف من أجله رسالته « في الرد على الحنابلة »^(٦) وعقيدته التي نقلها السبكي في طبقاته^(٧) عن ابن العز نفسه ، والتي يناقشها ويرد عليها ابن تيمية في كتابه ، « نقض المنطق »^(٨) .

ولكن هذا الخلاف الأخير - على حدته - كان يبدو خلافا داخل إطار مذهب أهل السنة والجماعة ، فلم يحل دون شعور التضامن والتقدير المتبادل بين قادة السلفية المستنيرين^(٩) وبعض الأشاعرة ، ومنهم الآمدى الذي يقول في الأبرار : « وأما الفرقة الناجية - وهي الثالثة والسبعون - فهي ماكانت على ماكان النبي ﷺ وسلف الصحابة عليه ، على ماسبق من قوله ﷺ حين قيل له : من الفرقة الناجية ؟ فقال : هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي . وهذه الفرقة هي الأشاعرة والسلفية من المحدثين وأهل السنة والجماعة ، وذلك أنهم لم يخلطوا أصولهم بشيء من بدع القدرية والشيعة والخوارج

(١) طبقات السبكي ٥ / ٦١ ، ٧٠ .

(٢) تبين ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) طبقات السبكي ٥ / ٩٧ .

(٤) النظر فتاوى ابن تيمية ٥ / ٢٨٩ - ٢٨٧ وابن تيمية السلفي ص ١٤ ، ١٥ والاعتصام للشاطبي ٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٥) النجوم الزهرة ٦ / ١٣٤ ، ١٦٣ ، واعتقادات الرازي ٢٢ ، وبشان الكرامية والرازي انظر : روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر لابن الشحنة على هامش تاريخ ابن الاثير ١٢ / ١١٤ ، ١١٥ .

(٦) الخزانة التيمورية برقم ٣٠٨ .

(٧) طبقات السبكي ٥ / ٨٠ - ١٠٧ .

(٨) نقض المنطق ١١٨ - ١٥٥ .

(٩) الفتاوى ٥ / ٢٣٨ ، ٢٥٦ ونقض المنطق ١٠٠ - ١٦٠ حيث يصف ابن تيمية الاشعرى بأنه اقرب المتكلمين إلى

السنة ، وأنه مجاهد يرد على البدع ، وايضا ابن تيمية السلفي ٤٢ ، ٤٣ .

والمرجئة والتجارية والجبرية والمشبهة . . (١) ، بينما ظل الخلاف الرئيسي على أشده ضد هؤلاء الخارجيين على مذهب أهل السنة والجماعة ، وخاصة غلاة النُّفَاة كالفلاسفة ، والإسماعيلية (٢) من جانب وغلاة الحشوية ، والمشبهة ، كالكرامية وغيرهم (٣) ، من جانب آخر .

٢ - ومن السمات البارزة في الحياة الدينية لهذا العصر ، أمور أربعة ، أولها :

١ - التقارب المذهبي : ويبدو أن هذا التقارب بين الفرق ، الذي سبقت الإشارة إليه في الفقرة السابقة ، كان يمثل ظاهرة عامة في ذلك العصر ، وكان من مظاهره - عندئذ - دخول الاعتزال في بطن التشيع ، كما يلاحظ أستاذنا الدكتور على النشار (٤) وهي حركة بدأت منذ عصر الجبائي كما يحكى الأشعري في المقالات (٥) ، وحتى ليقول الرازي : « لم يبق في زماننا من سائر فرق المعتزلة إلا هاتان الفرقتان ، أصحاب أبي هاشم ، وأصحاب أبي الحسين البصري » (٦) . ويتمثل هذا الاختلاط بين التشيع والاعتزال في الطوسي شارح « الإشارات » وصاحب « التجريد » (٧) ، وابن أبي الحديد صاحب (٨) « نهج البلاغة » ، وهما معاصران للآمدي .

أما الفرق الغالية من الشيعة ، فقد أخذت تضمحل أو تتقارب مع أهل السنة والجماعة ، فإلاسماعيلية في مصر تدول دولتهم ويُحورون مذهبهم ليقترّب من الروح المصرية ، بل ينشعرون المدارس - في أخريات عهدهم - لدراسة الحديث والسنة (٩) . وأما الفرقة الغالية منهم من أتباع الحسن بن الصباح ، التي يقول عنها الرازي : « وإن كانت شجرة ملوك مصر « يقصد الفاطميين » قد انقطعت في زماننا إلا أن فتنة الحسن بن الصباح قائمة بعد (١٠) » ، فإنهم يبعثون إلى خليفة بغداد بأنهم قد تبرأوا من باطنيتهم ، وبنوا الجوامع والمساجد ، وأقاموا الجمععات ، وصلوا التراويح . وذلك بقيادة أميرهم « جلال

(٢) الأبيكار ٢/٢٤٧٧ .

(١) الأبيكار ٢/٢٥٧ . ب .

(٤) نشأة الفكر ١/٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٣) انظر ماسباتي في الفصل الرابع من هذا الباب .

(٦) اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين ص ٤٥ .

(٥) المقالات للأشعري ١/١٢٥ .

(٨) انظر ترجيح أساليب القرآن ٨٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

(٧) الإشارات والتنبيهات ، مقدمة المحقق سليمان

(١٠) اعتقادات فرق ... ص ٧٨ .

دنيا ص ١١٩ .

(٩) الحركة الفكرية في مصر لعبد اللطيف حمزة ص

الدين نوسلمان» أى المسلم الجديد، ثم على يد حفيده ركن الدين الذى قاوم النكسة إلى التحلل والإلحاد التى حدثت بعد وفاة جده جلال الدين ، والذى قاوم المغول حتى سقطت «الموت» فى يدهم سنة ٦٥٤هـ^(١) . وأيا كانت حقيقة هذا التطور ، فهو مظهر من مظاهر التقارب بين الفرق الدينية لذلك العهد .

غير أنه ينبغى الإشارة هنا إلى أن المذهب الإسماعيلى ، رغم تدهوره ، كان يمثل العدو السياسى لدولة الأيوبيين التى عاش الآمدى فى ظلالها ، ويبدو أن بعض المصريين المعتنقين لهذا المذهب حاولوا الانتفاض أحيانا ضد الحكم الأيوبي كما حدث فى أيام العزيز^(٢) ، هذا وقد ألف بعضهم فى نصرة هذا المذهب بعد سقوط حكمه فى مصر والشام بوقت ليس بالقصير^(٣) ، ومن هنا كانت العداوة مشتعلة ضد هذا المذهب كما يبدو فى اللهجة الشديدة التى يتكلم بها الآمدى عن الإسماعيلية فى «الابكار»^(٤) ، وكذا عن سائر الغلاة كالخطابية والجناحية والمنصورية والغرابية والحائطية والسبئية ، بينما يدفع عن باقى الشيعة - وعن سائر المخالفين لأهل السنة --- تهمة التكفير ، ويرى أنهم مبتدعة فقط ، ويسمىها «الشيعة المطلق»^(٥) .

٢- ومنها أيضا استقرار المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة وهيمنتها على التفكير الفقهى والحياة الدينية ، واختفاء ماعداها من المذاهب ، وغلبة روح التبعية والتقليد لتلك المذاهب الأربعة ، حتى لقد وُجّهت للعز بن عبد السلام تهمة القول بمذهب خامس^(٦) ، واضطر هو إلى الدفاع عن نفسه بأن الأئمة الأربعة ليسوا رسلا لا تجوز مخالفتهم^(٧) . وكان للمذهب الشافعى عندئذ الصدارة فى مصر والشام لمزيد العناية به^(٨) ؛ إذ كان كل ملوك الدولة الأيوبية منذ صلاح الدين يعتنقونه إلا المعظم عيسى صاحب دمشق ،

(١) النجوم الزاهرة حوادث سنة ٦٠٨ - ٦٠٣/٦ ، وأيضا تاريخ جهانكشاي «رسالة سعيد جمال الدين»

ص ٨٣ - ١٠٢ . (٢) البداية والنهاية ١٢ / ٣٣١ .

(٣) الاشارات ١ / ١١٩ والحياة العقلية ١٨٨ الذى يشير إلى كتاب ابن الاعز المتوفى سنة ٦١٠ تحقيق غيبة

المنتظر . (٤) الابكار ٢ / ١٢٤٧ ، ١٢٥٠ ، ب .

(٥) الابكار ٢ / ٢٥٨ ب . (٦) طبقات السبكي ٥ / ٩٣ .

(٧) الحياة العقلية ٢٠١ وانظر ايضا لتيمر باشا : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة ٧٧ - ٧٩ ،

٩٤ .

(٨) انظر حلمي : الحياة العلمية فى مصر والشام ص ٨ - ١٠ .

ولكن انتقال الآمدى من الحنبلية إلى الشافعية يرجع فيما يبدو إلى دوافع فكرية بحثة ، أثناء دراسته في بغداد قبل انتقاله إلى الشام أيام صلاح الدين ، ونحب أن ننبه إلى أن سيادة المذاهب الأربعة وغلبة التقليد لها في الفروع لم تحل دون انتفاضات للتحرر منها أحيانا ، كما سبق من العز ، وهو شيخ الشافعية ، وكما نُقل عن أبي شامة - صاحب «الروضتين» في التاريخ - أنه ألف كتاب «المدخل في الرد إلى الأمر الأول» يدعو فيه إلى عدم التقيد في الفتيا بآراء الأئمة الأربعة^(١) . وربما كان هذا تمهيدا للروح المتحررة التي ظهرت لدى ابن تيمية ومدرسته فيما بعده ، على أن الالتزام في ميدان الفروع الفقهية صحبه تحرر وسعة أفق في ميدان أصول الفقه ، فرأينا الآمدى يعتمد في تأليف كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» على كتب الغزالي والجويني وهما سنيان شافعيان ، وعلى كتابي الجبائي وأبي الحسين البصري في أصول الفقه وهما من شيوخ المعتزلة . ثم لم نلبث أن رأينا الجمع بين طريقة المتكلمين وطريقة الأحناف في الأصول على يد ابن الساعاتي - كما سنبينه في «الفصل الثالث» من هذا الباب - وهي روح تختلف عما ساد في مجال الفروع الفقهية من تعصب مذهبي وتقليد .

٣- ومن أهم الظواهر الدينية لذلك العهد ، غلبة روح التصوف وازدهار الحياة والفكر الصوفيين ، ويكفي أن نعدد الأعلام البارزين الذين عاشوا في ذلك العهد - ومازال أثرهم باقيا إلى اليوم في الأوساط الصوفية - كعبد الرحيم القنائي والسيد البدوي^(٢) والشاذلي في مصر الذي كان له أثره الواضح في العز بن عبد السلام وغيره من علماء مصر^(٣) ، والرفاعي^(٤) والجيلاني^(٥) والسهرودي^(٦) وغيرهم من قمم التصوف العالية بالعراق ، وكالشيخ عبد الله اليونيني الملقب بأسد الشام^(٧) ، وهؤلاء جميعا من شيوخ التصوف السني العملي الذي يعتمد على الكتاب والسنة ، وقلمنا نزع

(١) الحياة العقلية ٢٠١ ، هذا وقد طبع هذا الكتاب بمصر بعنوان «المدخل في الرد إلى الأمر الأول»

(٢) الحياة العقلية ١١٣ ومابعدا .

(٣) انظر أبو الحسن الشاذلي د. عبد الحليم محمود ص ٥٩ ومابعدا .

(٤) انظر : النجوم الزاهرة ٦ / ٩٢ .

(٥) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ٢١٨ ومابعدا .

(٦) الحياة العقلية ٢١٠ ، ٢٠٢ .

(٧) انظر : الذيل على الروضتين لأبي شامة ١٥ ، ١٢٦ .

إلى الفلسفة أو غيرها ، وتقرب أفكارهم من المذهب الأشعري مع ميل إلى السلفية ، كما كان لبعضهم مشاركة في الجهاد ضد الصليبيين كالأشاذلي واليوني .

وهناك تيار صوفي آخر ، نما وازدهر في نفس الفترة ، وتأثر بنزعات فلسفية متباينة^(١) ، من أعلامه السهروردي شيخ المذهب الإشراقي ، الذي قُتل في حلب بأمر صلاح الدين سنة ٥٨٧ هـ^(٢) ، وابن الفارض سلطان العاشقين المتأثر بفكرة الاتحاد^(٣) ، وابن عربي الشيخ الأكبر وصاحب نظرية وحدة الوجود^(٤) ، وعبد الحق بن سبعين وهو أحد المتأثرين بهذه النظرية^(٥) ، والذي يعتبره الدكتور النشار أعظم صوفية الإسلام على الإطلاق^(٦) ، والشاعر جلال الدين الرومي داعية الحب الإلهي ، وتمجيد الإنسان وتكريمه ، والذي يعتبر أحد الباحثين ديوانه « المثنوى » ثورة ضد المناهج الكلامية والفلسفية في عصره^(٧) .

وقد شجع صلاح الدين الحركة الصوفية في عصره ، وبنى لها المؤسسات كالأوقاف والربط التي مازالت آثارها باقية إلى اليوم^(٨) ، والتي أخذها الأيوبيون عن الأتابكة ، وتابعه في ذلك الأمراء وكبار رجال الدولة كمظفر الدين كوكبورى الذى كان « بطلا فاتكا يحضر عنده فى المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم .. ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ، ويرقص بنفسه معهم .. »^(٩) ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يعمق الشعور الدينى عن هذا الطريق كدافع للجهاد ، وأن يقاوم أسلوب

(١) انظر : دراسات فى الفلسفة الإسلامية للدكتور قاسم ص ٩٩ - ١٠١ من الطبعة الثانية ونشأة الفكر / ١ . ٢٩ .

(٢) انظر : أصول الفلسفة الإشراقية د . أبو ريان ١١٠ - ١٥٠ والتصوف المقارن للدكتور غلاب ١١١ - ١١٤ .

(٣) مات بمصر سنة ٦٣٢ ، انظر عنه : الحياة العقلية ١١٣ وما بعدها ، وابن الفارض ١٣ وما بعدها .

(٤) مات فى سوريا سنة ٦٣٨ وانظر عنه : النجوم الزاهرة ٦ / ٣٣٩ وابن الفارض ١٧ والتصوف المقارن ١١٥ - ١٢٢ .

(٥) مات سنة ٦٦٩ وانظر الفرقان لابن تيمية ص ١٠١ ، ورسائل ابن سبعين - مقدمة المحقق ١٦٠ - ٩ .

(٦) نشأة الفكر ١ / ٢٢١ .

(٧) رجال الدعوة والفكر للسيد أبى الحسن الندوى ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٨) الحياة العقلية ١١٢ وما بعدها وابن الفارض ١٥ ، ١٦ والحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكي د . عبد اللطيف حمزة ص ١٢٢ وتراث الإسلام ص ٣٠٠ .

(٩) البداية والنهاية ١٣ / ١٣٧ وانظر أيضا الوفيات لابن خلكان ٣ / ٢٧٢ .

التربية الإسماعيلية الذي كان يمارسه الفاطميون في مصر في دار الحكمة وغيرها ، ولتجاوب مع طبيعة المصريين النزاعة إلى التصوف والعبادة^(١) ، فأدى هذا كله مع ظروف التهديد والغزو التي كان يعيشها العالم الإسلامي ، إلى هذا الازدهار الذي قل أن نجد له نظيراً في عصر آخر .

٤- التسامح الديني : كان العالم العربي الإسلامي في صراع مع الغرب المسيحي ، وكان ذلك حرياً أن يحدث الفوضى في العلاقات الدينية السميحة التي اشتهر بها المسلمون والعرب نحو مواطنيهم من أهل الأديان الأخرى ، ولكن حكمة الأمراء الأيوبيين ، وروح الحضارة الإسلامية حالاً دون ذلك ، وكان اليهود والنصارى ينعمون برعاية الدولة وحمايتهم^(٢) .

واستطاع الأيوبيون أن يخففوا من حدة الصراع والجدل الديني بين المسلمين ومواطنيهم . واقتصر الأمر على مؤلفات تُعنى ببيان فضائل الإسلام على غيره من الأديان^(٣) ، تقابلها مؤلفات أخرى لبعض اليهود والنصارى في تأييد عقائدهم ، كان من أبرزها ، « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون^(٤) ، و« تنقيح الأبحاث » في الملل الثلاث لابن كمونة .

ولم نعرف للآمدي كتباً متخصصة في هذا الحوار الديني ، وإن كان يعرض لذلك أحياناً في ثنايا كتبه^(٥) ، ويؤكد أن الدفاع عن الدين لا يقتصر على القتال بل يشمل « الجهاد مع النفس بالعبادات ، والجهاد مع العدو بإقامة البراهين ودفع الشبهات »^(٦) .

(١) الحياة العقلية ١١٣ وابن الفارض ١٥ - ٢٧٢ .

(٢) الحركة الفكرية د . حمزة ٣٤٨ وانظر أيضاً النجوم الزاهرة ١١٣/٦ .

(٣) كالأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة للقرافي ، والرد على اليهود والنصارى لعبد اللطيف البغدادي ، وإرشاد الحباري لنجم الدين الطوفي ، وتفضيل النبي عليه الصلاة والسلام على جميع الأنام للعز بن عبد السلام -- انظر الذخيرة للقرافي ط كلية الشريعة بمصر ١٣/١ وابن أبي أصيبعة ص ٣٤٨ .

(٤) انظر الخطط للمقريزي ٤/٣٦٨ وعيون الأنباء ص ٣٤٥ وما بعدها والحركة الفكرية ص ٣٤٤ وما بعدها وابن رشد وفلسفته الدينية ص ٥٠ .

(٥) انظر الأبيكار ١/١١٥٧ - ١١٦٢ وأغاية المرام ل ١٢١ ب .

(٦) الأبيكار ٢/٢٧٧ ب وانظر نفس المعنى في المآخذ ل ١٨١ ب .

الفصل الثانى

حياة الآمدى

اسمه :

على بن أبى على بن محمد بن سالم طبقا لما ذكره أكثر من ترجموا له ، وخاصة الذين عاصروه أو تتلمذوا عليه^(١) ، ولما سجل على كتبه كغاية المرام والأبكار ، وقد كُتِبَ الأول فى حياته ، ونُقل الآخر عن خطه .

ويذكر القفطى^(٢) أن اسمه على بن على بن أبى على ، وفى تاريخ ابن الشحنة^(٣) : « وهو على بن أحمد بن سالم » ، ولكن الراجح ما ذكرته أولا .

لقبه :

يُلقب بسيف الدين ، وقد تُذكر - اختصارا - « السيف » ، كما فعل القفطى وسبط ابن الجوزى^(٤) وغيرهما ، ويلقب بالآمدى نسبة إلى موطنه الأصلى ، وبالشافعى ، أو الحنبلى ثم الشافعى ؛ نسبة إلى مذهبه الفقهى ، ويوجد فى لسان الميزان « سيف الدولة »^(٥) ، وأعتقد أنه مجرد خطأ . ويلقب أيضا بالثعلبى ، وهذا ما يذكره أكثر من ترجموا له وبعض معاصريه ، وهو عند بعضهم « التغلبى »^(٦) وبالتاء المثناة ثم الغين ، ومن هؤلاء ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء ، ولذا فقد اضطريت المراجع الحديثة فى أمر هذا اللقب بين هاتين اللفظتين ، ولكننى أرجح الأول ؛ لاتفاق جمهور المؤرخين القدماء عليه ، ولإجماع أصحاب طبقات فقهاء الشافعية - وعلى رأسهم السبكي -

(١) كابن أبى أصيبعة (طبقات الأطباء) ١٧٤/٢ وابن خلكان (الوفيات) ٤٥٥/٢ .

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٤٠ ولوحة ١٧٠ من مخطوطة دار الكتب .

(٣) تاريخ ابن الشحنة ١٣٢/١٢ .

(٤) مرآة الزمان القسم الثانى من الجزء الثامن ٦٩١ .

(٥) انظر : لسان الميزان ١٣٤/٣ .

(٦) انظر : الباب فى تهذيب الانساب لابن الاثير باب التاء والغين ، والأعلام للزركلى ٦٢/٢ .

عليه أيضا وموافقة ابن خلكان - وهو أحد معاصريه - لهم^(١) .

على أن الأمر في ذلك قريب ، فبنو ثعلب بطن من تغلب ، وكلاهما عاش في منطقة الجزيرة شمالي العراق .

كنيته :

ويكنى «أبا الحسن» كما تدل كل المصادر التي اطلعت عليها ، إلا أن أبا المظفر^(٢) قال : « وكنيته أبو القاسم » ولم أجدها عند غيره .

تاريخ مولده :

يقول أكثر المؤرخين : إنه وُلِدَ بعد سنة ٥٥٠ هـ ، ومنهم القفطى في أخبار الحكماء ، وابن شهبة في طبقات الشافعية^(٣) ، ويميل بعضهم إلى التحديد فيقول : بعد سنة ٥٥٠ هـ بقليل^(٤) ، ويذكر البعض الآخر سنة ٥٥١ هـ ، ومن هؤلاء البهنسى^(٥) وابن الملقن^(٦) والشيخ عبد الله الشرقاوى^(٧) والسيوطى^(٨) وأبو الفدا^(٩) . وعليهم اعتمدت المراجع الحديثة التي حددت تاريخ ميلاده بسنة ٥٥١ هـ كالإعلام للزركلى^(١٠) ودائرة المعارف الإسلامية^(١١) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان^(١٢) ، والراجع أن هذا هو تاريخ ميلاده فعلا ؛ نظرا لما ذكرته أكثر المراجع القديمة وخاصة المعاصرة له كوفيات الأعيان ، وقد يؤيد هذا ما قيل من أن عمره كان عند وفاته ثمانين عاماً^(١٣) . وقد توفى في سنة ٦٣١ هـ الموافقة لسنة ١٢٣٣ م^(١٤) .

(١) انظر طبقات السبكي ٨٥/٢ ومختصره (مصور بمعهد المخطوطات العربية) ص ٦٩٧ ، وانظر «المصطلح الفلسفى عند العرب» للدكتور عبد الأمير الأعم ، ط القاهرة ١٩٨٩ م ، ص ٩٨ ، حيث يرجع انه «التغلبى» بل يقطع بذلك ، وقد آثرت أن تظل المسألة مفتوحة للبحث عن شواهد جديدة .

(٢) مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٦٩١ .

(٣) طبقات الشافعية لابن شهبة مخطوط بدار الكتب ل ٤٧ ب .

(٤) أخبار الحكماء ص ٢٤٠ .

(٥) الكافى فى معرفة علماء المذهب الشافعى ل ١٠ ب .

(٦) طبقات الشافعية له مخطوط بدار الكتب ل ١١٧٥ .

(٧) طبقات الشافعية له مخطوط بدار الكتب ل ١١٦ ب .

(٨) انظر التوفيقات الإلهامية ط أولى بولاق سنة ١٣١١ هـ .

(٩) انظره ١٥٣/٥ .

(١٠) المجلد الثانى من الجزء التاسع ص ١١٨ .

(١١) الجزء الثانى من الاصل الألمانى ص ٣٩٣ .

(١٢) مرآة الجنان فى حوادث سنة ٦٣١ هـ ٧٣/٤ .

موطنه :

ينتسب الآمدى إلى «آمد» ، وهى مدينة كان لها شأن فى الحروب بين الفرس والروم ، ثم بين الروم والعرب ، وفى حروب التتار والصليبيين ، تقع فى أعالى منطقة الجزيرة ، ويحيط بها نهر دجلة كما يقول ياقوت وغيره ، فيما يعرف بدياربكر^(١) ، وهى قريبة من حران ونصيبين . وتلك إحدى المناطق التى انتقلت إليها الثقافة الهلينية بعد الإسكندرية^(٢) وعاشت فيها ديانة الصابئة^(٣) ، وإليها يُنسب العديد من العلماء قبل السيف الآمدى وبعده^(٤) ، وكان يسكنها قبائل عربية وسكان أصليون تغلب عليهم صفات جنسية تنتمى إلى العنصر الأرمنى^(٥) .

وكانت آمد عند مولده تحت إمرة أحد رجال الدولة الأرمنية - وهى من فروع السلاجقة - وظلت تحكمها وماحولها حتى قضى عليها الملك الكامل قبيل وفاة الآمدى بقليل سنة ٦٣١هـ^(٦) .

وقد قضى فيها أعوامه الأولى ، يدرس مبادئ القراءة والكتابة ، ويحفظ القرآن ، ويدرس شيئا من الفقه والعربية والقراءات كغيره من أبناء عصره^(٧) . ويبدو أنه بدأ فيها بدراسة المذهب الحنبلى الذى كان يشيع فى هذه المنطقة إلى حد ما^(٨) ، وإن كان

(١) دائرة معارف البستاني ط بيروت سنة ٥٦ ص ١٤٥ ، ولب الباب للسيوطى ص ٤ ، وتاريخ علماء المستنصرية ٢٥٣ ، واحسن التقاسيم للمقدسى ١/١٤٠ ، ومعجم البلدان ١/٦١ ، والأعلاق النفيسة ١٠٦ ، ١٠٧ ومراصد الاطلاع لصفى الدين البغدادى ص ٦ .

(٢) العرب والفلسفة اليونانية ١٣٣ - ١٤٦ ونشأة الفكر الفلسفى ١/٧٢ .

(٣) نشأة الفكر ٢٠٩ . ٢٢٠ ومعجم البلدان ١/٦١ .

(٤) نذكر منهم - من السابقين عليه - محمد بن عبدالرحمن البغدادى الآمدى الحنبلى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ (هدية العارفين ١/٦٩٢) وأبا القاسم الحسين بن بشر الآمدى صاحب المختلف والمؤتلف (معجم البلدان ١/٦١) ومنهم - فيما بعد الآمدى - على بن أحمد الحنبلى (تاريخ علماء المستنصرية ٣٠٧) وعلى بن محمد الآمدى صاحب تفسير سورة يس الذى سيأتى ذكره . ويذكر ياقوت فى معجمه بعض من نسب إليها حتى عصره ١/٦١ .

(٥) العالم العربى اليوم (مجموعة أبحاث صادرة عن إدارة الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٤٦) ، ص ٢٦ .

(٦) انظر : تاريخ دول الإسلام لرزق الله الصدفى ٢/١٣٤ ، ٢١٨ ، ومعجم البلدان ١/٦١ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٦ .

(٧) انظر الحياة العلمية فى مصر والشام للدكتور حلمى ٧ ، ٢١ .

(٨) انظر هداية العارفين ١/٦٩٢ وتاريخ علماء المستنصرية ٣٠٧ ووفيات الاعيان ٢/٤٥٥ ومرشد الانام لأحمد الحسينى ١/٧٨٩ .

صاحب «مفتاح السعادة» يقول : إنه «قرأ على مشايخ بلده الفقه على مذهب الشافعي ، وقرأ بها القراءات ، وحفظ كتابا في مذهب ابن حنبل»^(١) وأعتقد أن كلامه غير دقيق وإن كان قد سبقه إليه القفطي في «أخبار الحكماء»^(٢) ، ولكن سائر المراجع ، والتطور الطبيعي لشخصية الآمدي العلمية ، وشيوع المذهب الحنبلي بموطنه الأصلي ، يشهد لما ذكر أكثر مترجميه .

ولما أراد الآمدي استكمال دراسته نزل إلى بغداد ، وإن كنا لانعرف تاريخ بدء هذه الرحلة العلمية التي امتدت حتى نهاية حياته ، وتقلب في أثنائها في أرجاء العالم العربي ، ولم يُعدْ إلى موطنه الأصلي قط ، رغم أنه فكر - فيما يبدو - أن يقضى فيه أيامه الأخيرة حين تقدمت به السن ، ولكن ظروف حياته المضطربة لم تسمح له بذلك .

الآمدي في بغداد :

وقد هبط الفتى إلى بغداد - عاصمة الخلافة - وهي تُعاني من الضعف، وتسلط أمراء الأقاليم ، ولكنها تحاول - في عناد - الحفاظ على مابقى لها من نفوذ معنوي ومجد علمي^(٣) ، وفيها لقي أكثر شيوخه الذين حفظ لنا التاريخ أسماء بعضهم ، وألم بجوانب الثقافة الإسلامية المختلفة ، دينية وغير دينية ، ونضجت شخصيته العلمية، وتحدد اتجاهه الفكري .

شيوخه ودراساته :

كان مما اهتم الآمدي بدراسته علم القراءات^(٤) ، وقد أخذه عن شيوخ القراء في بلده ، ثم في بغداد كما تذكر أكثر المصادر ، وإن لم تعين من أخذ عنه، ويغلب على الظن أنه قد بدأ بذلك ، أو اشتغل به في أول مقامه ببغداد ، ثم اشتغل بدراسة المذهب الحنبلي على نحو أعمق مما تيسر له في آمد ، فاتصل بأحد شيوخ الحنابلة الكبار في بغداد ، من المشتغلين بالفقه والحديث والخلاف وأصول الفقه ، وهو أبو الفتح نصر بن فتيان بن مطر المتوفى سنة ٥٨٣ هـ والمعروف بابن المنى^(٥) ، وكان شيخ المدرسة المأمونية

(٣) انظر البداية والنهاية ٢١٣/١٢ ، ٢٣١ ، و ١١٢/١٣ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ٨٥/٤ .

(١) مفتاح السعادة ٤٩/٢ .

(٢) مخطوط دار الكتب ل ٧٠ .

(٥) البداية والنهاية ٣٢٩/١٢ .

ببغداد ، وقد تتلمذ عليه مجموعة من العلماء من أبرزهم - عدا الآمدى - موفق الدين بن قدامة صاحب « المغنى » وشيخ الحنابلة بدمشق ، والحافظ عبد الغنى المقدسى المحدث (١) ، منهم خليفته على « المأمونية » إسماعيل بن على الأزجى المتوفى سنة ٦١٠ وكان له اشتغال بالفلسفة والمنطق مما أدى إلى اتهامه فى دينه (٢) .

وقد صاحب الآمدى ابن المنى فترة يدرس عليه الفقه الحنبلى ، ويذكر القفطى أنه « أخذ عنه وأجاد عليه الجدل والمناظرة » (٣) ويتابعه فى هذه أيضا صاحب « مفتاح السعادة » (٤) ، ولكنى أشك فى ذلك أيضا ؛ لانفراد القفطى به ، واعتقد أن فى كتاب القفطى سقطا لم يفطن إليه صاحب « مفتاح السعادة » الذى يأخذ عنه كل شئ تقريبا ، فكلاهما لم يذكر تتلمذه على ابن فضلان ، وهو الذى أجمعت المراجع الأخرى على أنه شيخه فى الخلاف والجدل . ولكن .. ماذا قرأ على ابن المنى ؟ ينفرد ابن شعبة بأنه قرأ عليه « الهداية » على مذهب أحمد (٥) .

وفى الوقت نفسه كان الآمدى يشتغل فى (علم الحديث) على أحد أعلام المحدثين ببغداد ، وهو ابن شاتيل (٦) ، وسمع من غيره من العلماء أيضا (٧) ، وكان مما قرأه على ابن شاتيل ورواه عنه كتاب (غريب الحديث) لأبى عبيد القاسم بن سلام ، كما يقول ابن حجر (٨) .

تحوله عن المذهب الحنبلى :

بعد فترة من إقامة الآمدى ببغداد واتصاله بالبيئة العلمية فيها ، حدثت حادثة هامة فى حياته العلمية ، إذ تحول عن المذهب الحنبلى إلى المذهب الشافعى ، وهى حادثة يُجمع كل مؤرخيه على ذكرها دون أن يضيفوا أية تفصيلات عن بواعث هذا التحول أو دلالاته ، وإن كنت أعتقد أنه مرتبط بالاتجاه العقلى والروح النقدية التى تميز بها الآمدى ولازمته حتى آخر حياته ، وربما كان لاتصاله بابن فضلان وتأثره به دَخْلٌ فى ذلك ،

(١) المغنى لابن قدامة . المقدمة .
 (٢) التراث اليونانى ترجمة د. عبدالرحمن بدوى ١٣٢ ، ١٣٣ .
 (٣) أسماء الحكماء وتراجمهم ل ١٧٠ .
 (٤) ٤٩ / ٢ .
 (٥) طبقات الشافعية لابن شعبة ل ٤٧ ب .
 (٦) انظر طبقات الشافعية للسبكي ١٢٩ / ٥ .
 (٧) طبقات الشافعية لابن الملقن . مخطوط .
 بدار الكتب ل ١٧٥ ب .
 (٨) لسان الميزان ١٣٤ / ٣ .

بالإضافة إلى الصراع الذى كان محتدما بين الشافعية والحنابلة ، وظاهرة التحول من مذهب إلى مذهب - على ندرتها - قد وقعت لأعلام كبار ، كأبى جعفر الطحاوى المصرى^(١) ، وأبى الحسن الأشعرى^(٢) وغيرهما ، وقد جمع الشعرانى طائفة ممن تحولوا عن مذهب إلى آخر من غير نكير من معاصريهم ، عد من بينهم (السيف الأمدى الذى كان حنبليا ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى)^(٣) .

ويمكن أن نتصور أن هذا التحول كان حوالى منتصف العقد الثامن من القرن السادس ، إذا افترضنا أنه قد هبط إلى بغداد وسنة قرب العشرين ، وأنه قضى بها نحو من عشر سنين ؛ إذ أننا سنجد فى الشام فى السنوات الأولى من العقد التاسع يتنقل بين حلب ودمشق ، حتى يغادرها إلى مصر فى أوائل العقد الأخير من ذلك القرن .

ابن فضلان :

انتقل الأمدى إلى مذهب الإمام الشافعى ، وصحب الشيخ جمال الدين أبى القاسم يحيى بن الفضل المعروف بابن فضلان ، شيخ الشافعية ببغداد ، والحجة فى فقه الشافعية وفى علم المناظرة ، وأصول الفقه ، والكلام والمنطق ، وكان يجمع إلى هذه العلوم الدينية والعقلية تعبداً وتنسكا ولطافة وظرفا ونزوعا إلى الأدب^(٤) ، حتى ساد أهل بغداد ، وانتفع به الطلبة ، وبنيت له مدرسة خاصة قام عليها حتى وفاته سنة ٥٩٥هـ^(٥) ، يقول عنها موفق الدين عبداللطيف البغدادى ، معاصر الأمدى وزميله فى التلمذ على ابن فضلان والاشتغال بالدراسات العقلية : « وكنت لا أغفل سماع الحديث ، والتفقه على شيخنا ابن فضلان بدار الذهب ، وهى مدرسة معلقة بناها فخر الدولة بن المطلب »^(٦) .

ولابن فضلان هذا ولد هو أبو عبدالله محبى الدين محمد بن يحيى ، وُلد سنة

(١) (أبو جعفر الطحاوى واثره فى الحديث) رسالة ماجستير بدار العلوم للأستاذ عبدالمجيد محمود سنة ١٩٦٤ ص ٥٥ - ٧٤ .

(٢) تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ٣٨٠ . (٣) انظر أبو جعفر الطحاوى واثره فى الحديث ص ٦٦ .

(٤) البداية والنهاية ٢١/١٣ . (٥) النجوم الزاهرة ١٥٤/٦ .

(٦) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ١/٣٣٠ ، ٣٣١ .

٥٦٨ هـ ، وكان أول من تولى تدريس الفقه الشافعي بالمدرسة المستنصرية الكبرى التي افتتحت سنة ٦٣١ هـ ومات بعد أشهر من نفس السنة ، ويذكر صاحب (تاريخ علماء المستنصرية)^(١) عن محيي الدين هذا أنه درس عليه كثير من علماء مصر والشام ، ومن تفقه عليه السيف الآمدي الحنبلي ثم الشافعي المتكلم ، صاحب التصانيف العقلية « وهذا بعيد ؛ نظرا لصغر سنه ، فلعله لم يكن قد ولد بعد حين نزل الآمدي بغداد ، أو كان - في الأقل - ما يزال طفلا ، كما أن المراجع التي ذكرت تتلمذ الآمدي على ابن فضلان كتنه بأبي القاسم - وهي كنية الأب - لا بأبي عبد الله كنية ابنه ، وتدل وقائع حياة الآمدي على أنه غادر العراق قبل أن يبلغ محيي الدين مرتبة تسمح بالأخذ عنه .

ولعل ابن فضلان هذا هو أكبر الشيوخ في بغداد أثرا في تكوين الآمدي واتجاهاته، فهو فقيه أصولي شافعي ، يعرف المنطق ويجيد المناظرة والجدل ، وهي الجوانب التي نمت وازدهرت بعد ذلك في شخصية الآمدي العلمية ، ويقول أكثر من ترجموا للآمدي : إنه قد تفقه على ابن فضلان ، وبرع عليه في الخلاف ، وأحكم طريقة أسعد الميهني ، وطريقة الشريف ، وتفنن في علم النظر^(٢) ، بل يقول ابن شهبة في طبقاته : « وصحب أبا القاسم ابن فضلان .. واشتغل عليه في الخلاف والحكمة^(٣) » ولا نجد هذه الكلمة الأخيرة عند غيره ، ولعله - إذا صح هذا الخبر - يكون قد قرأ عليه شيئا من المنطق ، وكان ابن فضلان مقدما فيه^(٤) ، أو من علم الكلام وكان يتقنه كذلك ، ويبدو أنه قرأ عليه شيئا من الأصول أيضا ، إذ تفيد عبارات بعض المؤرخين أن الآمدي حفظ المستصفى للغزالي في هذه الفترة ، ويذكر بعضهم كذلك قصة طريفة ؛ هي أنه رأى الإمام الغزالي في المنام في تابوت فكشف عن وجهه وقبَّله فلما انتبه أراد أن يحفظ شيئا من كلامه ، فحفظ « المستصفى » في مدة وجيزة^(٥) .

أما الحكمة بمعنى الفلسفة فيبدو أن الآمدي قد استقاها من مصدر آخر في بيئة بغداد العلمية هو :

(١) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ص ١١٨ .

(٢) مثل مرشد الأنام ٧٨٩/١ وطبقات السبكي ١٢٩/٥ وغيرها .

(٣) مخطوط بدار الكتب ل ٤٧ ب . (٤) تاريخ علماء المستنصرية ١١٨ .

(٥) طبقات ابن الملقن ل ١٢٧٦ ، وطبقات السبكي ١٣٠/٥ .

نصارى بغداد :

ولا يذكر مؤرخو الآمدى من كُتّاب طبقات الشافعية شيئا عن اتصاله بهم ، كأنما هى تهمة يودون تنزيهه عنها ، ويذكر آخرون أنه لم يشتغل بالمعقولات إلا بعد انتقاله إلى الشام^(١) ، ويبدو أن محرر دائرة المعارف الإسلامية قد اعتمد على ذلك فيما كتبه عنه^(٢) ، وربما كانت المصادر التى ذكرت أنه تعلم الفلسفة ببغداد ، وأنه تلقاها عن نصارى الكرخ ويهودها^(٣) ، على وجه من الصواب ، فقد انحدرت الفلسفة إلى بغداد منذ تركت مقرها فى الإسكندرية إلى أنطاكية وماحولها ، وكان انتقالها إلى بغداد على يد بعض النصارى^(٤) ، حيث استمر تدريس المنطق والفلسفة بطريقة خاصة ينتقدها ابن سينا فى الشفاء ويسمىها « مذهب نصارى بغداد » ، وينتقد بعض معاصريه ؛ لأنه يأخذ « بالفلسفة العامة الموجودة فى نصارى بغداد »^(٥) .

ويبدو أن هذه المدرسة الفلسفية قد استمرت برغم اشتغال المسلمين بالفلسفة ، حتى إن معاصراً للآمدى ، وزميلاً له فى مدرسة ابن المنى ، وهو الأزجى البغدادى الذى سبقت الإشارة إليه ، يروى عنه ابنه : « أنه قد قرأ الفلسفة والمنطق على ابن مرقص الطبيب النصرانى ، ولم يكن فى زمانه أعلم منه بهذه العلوم ، وأنه كان يتردد إليه فى بيعة للنصارى »^(٦) . ونحن نجد فى هذا الوقت الذى تتفتح فيه هذه العقول الشابة للدراسة الفلسفية ، شخصيةً بغدادية هامة ؛ هى (ابن ثابت بن سabor بن بادريا) الذى اتصل بالخليفة الناصر ، وحاول اجتذابه نحو علوم الأوائل ، مما حدا بالسهروردي المتصوف صاحب « عوارف المعارف » إلى أن يهدى كتابه « كشف القبايح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية » إلى الناصر ناصحاً ومحذراً ، فلا يبعد أن يكون الآمدى ، وقد زاده الاشتغال بالخلاف والمناظرة والجدل تطلعا إلى دراسات عقلية أكثر عمقا ، وإلى

(١) كاليافى فى مرآة الجنان ٧٣/٤ فى حوادث سنة ٦٣١ وابن خلكان فى الوفيات ٤٥٥/٢ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثانى .. الجزء ٩ ص ٦١٨ .

(٣) إخبار الحكماء للقفطى ص ٢٤٠ .

(٤) العرب والفلسفة اليونانية ١٠ - ١٢ ، ونشأة الفكر الفلسفى ٧٧/١ .

(٥) الشفاء : الفن الثانى من الطبيعيات بتحقيق د. محمود قاسم ص ٤٤ ، ٨١ .

(٦) التراث اليونانى ص ١٣٢ وراجع ما مرفى ص ٣٦ .

الإحاطة بالتراث العقلي، قد اتصل بهؤلاء النصارى فى «الكرخ» ببغداد، ويضيف إليهم القفطى اليهود أيضاً^(١).

ويقول ابن أبى أصيبعة: إنه اشتغل بدراسة الفلسفة فى بغداد «وتظاهر بذلك؛ فجفاه الفقهاء وتحاموه، ووقعوا فى عقيدته»^(٢) ويؤخذ من هذا أن اهتمام الآمدى بدراسة الفلسفة بدأ منذ كان بالعراق، ثم استكمل ثقافته الفلسفية فى الشام خلافا لما يذكره بروكلمان^(٣)، ولعله يعتمد فيه على ابن خلكان، وربما استطعنا أن نستأنس بمثل هذا النص - الذى لا نجده لدى أحد من معاصريه (المقدمين) إلا عند ابن أبى أصيبعة - فى معرفة سبب انتقاله من العراق إلى الشام بعد هذه الجفوة أو القطيعة التى منى بها فى بغداد، والتى كانت أول أزمة فى سلسلة الازمات التى صادفته بسبب دراساته الفلسفية، ويصرح بهذا بعض المتأخرين كصاحب «مفتاح السعادة»: «فجفاه الفقهاء وتحاموه ووقعوا فى عقيدته ففر من العراق...»^(٤).

فى الشام - الفترة الأولى :

خرج الآمدى إلى الشام ليستكمل دراسته فى بيئة أخرى بعد أن ضاقت به بغداد، وينفرد القفطى بالقول: إنه خرج من العراق إلى مصر^(٥)، وهو ما يختلف معه فيه كثير من المراجع التى نصت على ذهابه إلى الشام أولاً، وبعض الوقائع التى سنذكرها تؤكد ذلك، ولكن المصادر لاتفيدنا فيما يتعلق بتاريخ انتقاله إلى الشام. والحادثة التى نعرفها عن الآمدى بعد انتقاله إلى الشام؛ وهى حادثة لقائه بالشهاب السهروردى فى حلب^(٦)، تدل على أنه غادر العراق قبل عام ٥٨٧ الذى قتل فيه السهروردى بحلب، وقبل أن تتأزم ظروف هذا الأخير فيها، وكانت دولة صلاح الدين التى تتخذ من مذهب الأشعرى عقيدة والشافعية مذهباً تحتذب الانظار، وخاصة بعد موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ^(٧)، فلعل هذه الظروف أعانته على تحديد وجهته الجديدة، فشدد رحاله إلى الشام يتنقل بين أرجائه.

(٥) القفطى: أخبار الحكماء ل ١٧٠.

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٤٠.

(٢) ابن أبى أصيبعة (أسماء الحكماء) مخطوط بدار الكتب ل ٧٠. (٦) النجوم الزاهرة ٦/ ١١٤، ١١٥.

(٧) السابق ٦/ ١٣٧.

(٣) بروكلمان: ٣٩٣/٢.

(٤) مفتاح السعادة ٢/ ٤٩.

وقد حكى لنا صاحب (النجوم الزاهرة) قصة لقائه مع السهروردي في حلب على النحو التالي :

«اجتمعت بالسهروردي بحلب فقال لي : لا بد أن أملك الأرض ، فقلت : من أين لك هذا؟ فقال : رأيت في المنام أني شربت ماء البحر ، فقلت : لعل ذلك يكون اشتهار العلم ، فلم يرجع . فرأيت كثير العلم قليل العقل»^(١) . ونتيجة هذا اللقاء تدلنا على مدى الاختلاف في المشارب والمزاج بين الرجلين .

ومعلوماتنا قليلة عن فترة إقامته الأولى بالشام ، ولكن مراجع عديدة تؤكد أنه واصل دراسته للفلسفة والعلوم العقلية بالشام ، ويحدد بروكلمان دمشق بالذات ، وربما أمكن أن نضيف إلى حلب ودمشق حماة أيضا ؛ نظرا لاتجاه الآمدي إليها مباشرة بعد عودته من القاهرة مستخفيا ، مما قد يدل على سابق صلة له بها تدعوه إلى ذلك ، بالإضافة إلى نزوله بمدرسة (منازل العز) بمجرد وصوله إلى القاهرة ، وهي المدرسة التي بناها صاحب حماة ، وأوقف عليها بعض ممتلكاته .

وظل الآمدي بالشام حتى سنة ٥٩٢هـ حيث غادرها إلى مصر فدخلها - كما يقول القفطي - في ذي القعدة من سنة ٥٩٢هـ^(٢) . ولكن ما الذي دعاه إلى ذلك ؟ يبدو أن ذلك قد حدث عندما تولى العزيز بن صلاح الدين أمر دمشق في عام ٥٩٢هـ (١١٩٥م) وإن كان كلام بروكلمان في تاريخه - وما في دائرة المعارف الإسلامية - يدل على حضوره إلى مصر قبل ذلك التاريخ، ولعل مما يرجح ما ذهب إليه تلك الصلة الخاصة بين الآمدي والعزيز حتى إن الآمدي ألف رسالة للعزيز ، أو كتابا موجزا في العقائد ، سماه (الذهب الإبريز تذكرة الملك العزيز)^(٣) كما سيأتي في مؤلفاته ، كما يرجحه من ناحية أخرى ما عرف عن العزيز من استجلابه العلماء معه من دمشق إلى مصر ، كما فعل مع موفق الدين عبد اللطيف البغدادي - زميل الآمدي في الدراسة وفي الاهتمام بالدراسات الفلسفية - خاصة وأن التاريخ الذي يذكره القفطي ، يلتقى مع

(١) النجوم الزاهرة ١٤/٦ ، وقد حكيت مثل هذه الرؤيا عن ابن تومرت وهو بالشرق ، انظر اعز ما يطلب ص ٢٦ ، ولعل كلمة «يرجع» محرفة عن «يراجع» أى يجاوب .

(٢) إخبار الحكماء ل ٧٠ . (٣) عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ٢٤٠ .

تاريخ عودة العزيز من دمشق كما يحدده ابن كثير « فى التاسع من شوال سنة ٥٩٢هـ »^(١)

وأهم ماتركز عليه المصادر فى هذه الفترة أنه « تفنن فى علم النظر ، وأحكم أصول الفقه وأصول الدين والفلسفة وسائر العقليات ، وأكثر من ذلك »^(٢) ، غير أنهم لم يشيروا إلى من اتصل بهم من الشيوخ ، أو من أفاد منهم فى هذه العلوم المختلفة .

فى مصر :

جاء الرجل إلى مصر ، وعاش بها فى ظل الملك العزيز ، الذى كان له مشاركة فى العلوم واهتمام بأهلها^(٣) ، ويثنى عليه عبد اللطيف البغدادى ثناء عظيما فى خلقه وسيرته^(٤) ، خلافا لما يذكره ابن إياس عنه^(٥) ، حتى مات العزيز سنة ٥٩٥هـ ، لكن الآمدى لم يترك مصر بعد موت العزيز بقليل كما فعل البغدادى ، بل بقى بها « مدة » - كما تقول المصادر - غير محددة ، ويبدو أنه قد طال به المقام ، وأنه أصدر كثيرا من مؤلفاته ، وشغل عدة مناصب علمية فى مصر حتى كان خروجه منها بالصورة المؤسفة التى سنذكرها فيما بعد .

وعندما جاء الآمدى إلى مصر نزل بمدرسة (منازل العز) التى أقامها صاحب حماة تقى الدين عمر^(٦) ، وكانت هذه المدرسة تقوم بالقرب من جامع عمرو بالفسطاط على الشاطئ الشرقى للنيل فى مواجهة المقياس بالروضة ، تحت إشراف أحد كبراء علماء الأشاعرة بمصر ، وهو أبو الفتح محمد بن محمود الطوسى ، المتوفى سنة ٥٩٦هـ^(٧) . ويبدو أنه أقام فى مساكنها ولم يعمل بها ، فإن أحدا ممن ترجموا له لم يذكر ذلك ، بل عين معيدا^(٨) فى أكبر مدرسة بالقاهرة ، وهى المدرسة الناصرية التى أسسها صلاح

(١) البداية والنهاية ١٣/ ١٢ .

(٢) طبقات السبكي ٥/ ١٢٩ .

(٣) النجوم الزاهرة ٦/ ٥٨٩ .

(٤) عيون الأنباء ٣٣٩ وما بعدها .

(٥) بدائع الزهور ١/ ٧٣ .

(٦) الدارس للنعمى ٢/ ٢١٦ ، أسماء الحكماء ل ١٧٠ ، خطط المقرئى ٤/ ١٩٤ ولا يزال مسجدها باقيا إلى اليوم .

(٧) النجوم الزاهرة ٦/ ١٥٩ .

(٨) قرئ من رتبة المعيد الجامعية الحالية ، أو بينها وبين منصب المدرس ، وفوقها منصب المدرس الذى يعلوه منصب

الصدر ، انظر الحياة العقلية ص ١٧٠ .

الدين بجوار قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه^(١) سنة ٥٧٢ هـ لدراسة المذهب الأشعري .

ويبدو أنه ظل يدرس بها فترة حتى آتس من نفسه الأهلية للتصدر^(٢) ، فاختر لذلك أحد المساجد الكبرى التي بنيت في أخريات عهد الفاطميين سنة ٥٤٣ هـ وهو جامع الظافر ، أو جامع الأفخر كما سمي بعد ذلك ، والفاكهاني كما يسمى اليوم^(٣) ، وتجمع المصادر على أنه برز واشتهر ، وتخرج به جماعة من العلماء دون أن يعينوا اسم واحد منهم ، ويتساءل أحد أساتذتنا عن المادة التي تصدى الآمدى لتدريسها في الجامع المذكور ، ويقول : « لعلها المنطق الذي كان مشهورا بدراسته »^(٤) ، وما أحسبه قد اقتصر على المنطق ، والقفطي مثلاً يقول : « وناظر بمصر وحاضر ، وأظهر تصانيفه في علوم الأوائل ، ونقلت عنه ، وقرأ عليه من رغب في شيء من ذلك ، وقرأ عليه تصنيفه في أصول الدين وأصول الفقه »^(٥) ويبدو أنه تصدر في علم الكلام ما يتصل به من العلوم العقلية بعامة من منطق وفلسفة وجدل وأصول فقه أيضا ، يقول ابن شهبة « ثم دخل مصر وتصدر للاشتغال في العقلیات وغير ذلك »^(٦) .

ويجمع مؤرخوه على ما ناله من شهرة في مصر ، ولم يقصر الرجل نشاطه على التدريس الذي ظل يشغل به طيلة حياته ، بل أضاف إليه التأليف ، ويبدو أنه أنجز في مصر أكثر مؤلفاته كما سنذكر فيما بعد ، وكان يعقد مجالس للمناظرة كما يشير القفطي « وناظر بمصر وحاضر » وهي عادة جرى عليها في دمشق بعد ذلك أيضا^(٧) .

ويبدو أن هذا النجاح العلمي ، قد أثار حفيظة بعض الفقهاء في مصر ممن لم يبلغوا مبلغه في العلم والنشاط والشهرة ، فكادوا له ، وأخذوا يجمعون له التهم ،

(١) الحياة العقلية ١٥٩ ، والنجوم الزاهرة ٥٧٢ وخطط المقرئ ٢٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤١١ .

(٢) الحياة العقلية ص ٧٩ .

(٣) عن تاريخ هذا المسجد انظر خطط المقرئ ٢٩٣ / وتاريخ المساجد الأثرية ١ / ٧٤ ، ٧٥ والخطط التوفيقية ٣٠ / ٢ والحياة العقلية ص ١٩ .

(٤) الحياة العقلية للدكتور أحمد بدوي ٧٩ .

(٥) أخبار الحكماء لوحة ١٧٠ .

(٦) طبقات الشافعية ل ٤٧ ب ويوافقه ابن حجر في لسان الميزان ٣ / ١٣٤ .

(٧) طبقات الشافعية لابن الملقن لوحة ١٧٥ ب ، وطبقات السبكي ٥ / ١٣٠ .

ويلفقونها ضده، حتى تمثل ذلك أخيراً في صورة (محضر) خطير كان كفيلاً بأن يطيح برأسه، كما يقول مؤرخوه، اتهموه فيه - كما يقول ابن خلكان: «بفساد العقيدة، وانهلال الطوية، والتعطيل، ومذهب الفلاسفة والحكماء، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك، ووضعوا فيه خطوطهم بما يُستباح به الدم»^(١). لكن هذا الكيد لم يبلغ مأربه بفضل أحد هؤلاء الفقهاء الذي لاتعين المصادرُ اسمه، ويصفه ابن خلكان بقوله: «رجل منهم فيه عقل ومعرفة» فعندما حملوا إليه ذلك المحضر للتوقيع عليه، كتب عليه بيتين لأبي الأسود الدؤلي، كانا هما فصل ختام هذه المؤامرة العجيبة:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقومُ أعداءُ له وخصرم
كضرائر الحسناء قلنَ لوجهها حسدا وبغضا: إنه لذميم^(٢)

ثم وضع توقيعه بعد ذلك. غير أن الآمدى أحسَّ بالمؤامرة، وأيقن أنها إن لم تبلغ هدفها اليوم، فلربما بلغت في يوم آخر، فاستخفى وخرج هارباً إلى الشام بعد سنوات من العمل المثمر والدراسة الجادة. ويبدو أنه خرج من مصر حوالى سنة ٥١٢ هـ أو بعدها بقليل^(٣).

ومن البين أنها تهمة خلقها الحسد، وسوف نرى إلى أى حد تُكذِّبها مؤلفات الرجل التي كتبها في مصر وغير مصر، ولكن أمثال هؤلاء لا يعدمون شبهة يستندون إليها في إنتاج غزير لرجل متحرر يتمتع بملكة نقدية قوية، وجرأة غير عادية، ولعلمهم تعلقوا في هذا الصدد^(٤) بكلامه عن إمكان النبوة، في مناقشة للخصوم قصد بها ردُّ استبعادهم لها، وأشار في آخرها إلى أنه لا يعبر عن رأى يراه، وإنما يقصد نفى استبعادهم فقط. أو تعلقوا بنقده لأدلة الأشاعرة التقليدية على حدوث العالم، كدليل الجواهر والعرض، ودليل الإمكان، وقد أثار الرجل في وجهها من الشبهات ما يشهد له

(١) وفيات الأعيان ٤٥٥/٢.

(٢) ذكر ابن خلكان وكثير غيره البيت الأول، وانفرد ابن الشحنة - فيما أعلم - بالبيت الثاني (تاريخ ابن الشحنة ١٢ / ١٣٢) والبيت الأول في ديوان أبي الأسود الدؤلي بتحقيق عبدالكريم الدجيلي طبعة أولى، بغداد سنة ١٩٥٤ وإن كان يشير إلى أن نسبته إلى أبي الأسود مختلف فيها.

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية - ط دار الشعب بالقاهرة - مادة آمدى، ووفيات الأعيان ٤٥٥/٢.

(٤) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني من هذه الدراسة.

باستقلال الرأى والتحرر برغم أشعريته العتيدة ، ولم يكن قد بعد العهد حينذاك بالحنة القاسية التى تعرض لها ابن رشد فى الغرب ، بسبب هجومه على مذهب الأشاعرة ، وهو المذهب السائد لدى المغاربة ، فاتهم بنفس التهمة ، وتعرض لعقوبات قاسية ومحنة شديدة^(١) . ولعل مما ساعد خصوم الرجل على النيل منه ، عدم استراحة (الكامل) إلى الآمدى^(٢) ، وكان قائما على أمر (مصر) نيابة عن أبيه (العدل) الذى جمع فى يده أزمة الأمور فى الدولة الأيوبية حينذاك .

لقد غادر الآمدى القاهرة متجها إلى الشام للمرة الثانية ، خائضا غمرات المحنة الثانية التى منى بها بسبب اهتمامه بالدراسات العقلية والفلسفية ، تلك الدراسات التى كان هدفه منها نصرّة الدين ، والدفاع عن العقيدة .

إقامته الثانية فى الشام :

فى حماة :

للتحدد المصادر تاريخ مغادرته للديار المصرية متوجها إلى الشام ، وإن كانت تكاد تجمع على ذهابه إلى حماة ، ووفادته على الملك المنصور بن تقي الدين عمر أميرها ، الذى عُرف هو وأبوه بحبهما للعلم ، وتشجيعهما لاهله ، بل كانا من المشتغلين بالعلم والأدب أيضا^(٣) . وقد رجحت أن ذلك حدث حوالى سنة ٦١٢ هـ كما سبق .

وقد أكرم المنصور وفادة الآمدى الذى أقام فى جواره سنين ، وكان له منه (الجامكية)^(٤) السنية والإنعام الكثير ، وكان من أكابر الخواص عنده ، ولم يزل فى خدمته إلى أن توفى الملك المنصور ، وذلك فى سنة ٦١٧ هـ فتوجه إلى دمشق^(٥) .

وهكذا عوضه الله خيرا ، فكانت مدة إقامته فى حماة - وأرجح أنها نحو خمس سنوات - فترة استقرار كامل فى ظلال هذا الأمير العالم الذى ألف كتابا فى التاريخ يبلغ

(١) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية د/ قاسم ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٢ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٢/ ٣٤١ ، ١٣/ ٩٣ والحياة العقلية ص ٩ .

(٤) كلمة فارسية تعنى الخلع والهباء .

(٥) عيون الأنباء ٢/ ١٧٤ طبعة أولى سنة ١٢٩٩ هـ .

عشر مجلدات ، يسمى (المضمار فى التاريخ) (١) . وقد كان الآمدى يبادلُه المودة والتقدير ، كما تدل على ذلك مقدمة كتابيه (المبين) (وكشف التمويهات) اللذين أهداهما إليه . ويشير ابن خلكان وغيره إلى أن الآمدى اشتغل بالتأليف فى حماة (٢) ، فوق قيامه بالتدريس فى أكبر مدرسة من مدارسها ، وهى المدرسة المنصورية السلطانية (٣) .

ويبدو أنه لم يستطع مع هذه العلاقة الخاصة ، وبسبب رقة مشاعره ، أن يبقى فى حماة بعد وفاة أميرها المنصور ، فغادرها إلى دمشق التى كان أحد أبناء العادل ، قد استقل بها ، وهو الملك المعظم عيسى ، الذى جمع الله له - كما يقول ابن كثير - « بين الشجاعة والبراعة ، والعلم ومحبة أهله » (٤) ، حتى إن بعض الباحثين سماه (مأمون بنى أيوب) ، ويقال : إن المعظم طلب إليه القدوم إلى دمشق .

فى دمشق :

وكان المعظم سلفى العقيدة ، حنفى المذهب ، على غير عادة الأيوبيين الذين يغلب عليهم المذهب الشافعى فى الفقه ، والعقيدة الأشعرية (٥) ، ولكنه كان من العقل والمعرفة وسعة الأفق ، بحيث يعرف للآمدى قدره ، وإن لم يمل إليه قلبه ؛ لما اشتهر عنه من اشتغاله بعلوم الأوائل (٦) ، ولذا أحسن استقباله ، وأنعم عليه إنعاما كثيرا ، وأكرمه غاية الإكرام ، وولاه التدريس (٧) .

ويشير أحد الرجال المقربين إلى المعظم ، وهو أبو المظفر ، إلى نوع العلاقة بين الرجلين : « ومع كراهة المعظم له ، فإنه فوض له أمر المدرسة العزيزية ، وكان إذا دخل على المعظم ، والمجلس غاص ، لا يتحرك له ، فكنت أخجل من الآمدى ، حتى قلت للمعظم يوماً : عوض ما تقوم لى ، قُم للآمدى ، فقال : ما يقبله قلبى (٨) » .

(١) عثر الدكتور حسن حبشي على الجزء الاول من هذا الكتاب وطبعه فى مصر أخيراً .

(٢) الوفيات ٤٥٥/٢ وطبقات ابن شهبة لوحة ٤٧ ب .

(٣) الحياة العقلية ص ٧٣ . (٤) البداية والنهاية ١٣/١٢١ .

(٥) الحياة العقلية ص ٨ . (٦) مرآة الزمان القسم الثانى من المجلد الثامن من ص ٦٩١ .

(٧) عيون الأنباء ١٤٧/٢ من طبعة سنة ١٢٩٩ هـ . (٨) مرآة الزمان ٨ ب / ٦٩١ .

وهذا يدلنا على أن المنزلة التي احتلها الآمدى فى دمشق ، كانت لكفاءته ومواهبه العلمية لاغير، كما يدلنا على تقدير سبط ابن الجوزى - وهو أحد العلماء المبرزين فى هذا العصر - للآمدى ، وقد دافع عنه فى تاريخه ، وأعطانا عنه تفاصيل لانجدها عند غيره ، كما يدل أيضا على أن معظم لم يكن يخص الآمدى بتكريم غير عادى ، ولكن هذا لايبنى أنه كان يغط قدره ، أو يتجاهل فضله ، ونلمس هذا فى الحفل الكبير الذى أقيم بمناسبة افتتاح المدرسة العادلية بدمشق ، وحضره كبار العلماء والقضاة ، فقد جلس الآمدى فيه إلى جوار السلطان لايفصله عنه إلا مدرس المدرسة نفسها قاضى القضاة : جمال الدين المصرى^(١).

وهكذا يتضح أن الآمدى قام بأمر المدرسة العزيزية^(٢) - التى تضم رفات صلاح الدين - قرابة عشر سنين ، وقد ألف فيها كتابه الكبير فى أصول الفقه (الإحكام فى أصول الأحكام) وأهداه إلى الملك المعظم ، مما يدل على التقدير المتبادل بين الرجلين رغم اختلاف المشارب ، وتباين الاتجاهات .

وفى هذه الفترة ، كان الرجل قد بلغ أوج كفايته علما وفضلا ، وكان قد قارب السبعين من عمره ، يقول ابن أبى أصيبعة : « وكان إذا نزل وجلس فى المدرسة ، وألقى الدرس ، والفقهاء عنده ، يتعجب الناس من حسن كلامه فى المناظرة والبحث »^(٣) كما يقول عنه أكبر تلاميذه - العز بن عبد السلام - : « ماسمعت أحداً يلقى الدرس أحسن منه ، كأنه يخطب »^(٤) .

وكان فى الوقت نفسه يشتغل بالتأليف ، وإلى جانب اشتغاله بالتأليف والتدريس ، كان يعقد مجالس للمناظرة فى مسائل الفقه والأصول بهجامع بنى أمية بدمشق ، وكان

(١) انظر عن هذا الحفل ، وعن العادلية وتاريخها ، البداية والنهاية ٣/ ٦٨ ، والحياة العقلية ص ٦٤ والذيل على الروضتين لأبى شامة بتحقيق الكوثرى .

(٢) عن العزيزية وتاريخها انظر عيون الأنباء ط بيروت / ١٩٥٧ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٢٥ ، البداية والنهاية ١٣/ ١٢ ، والحياة العقلية ص ١٦٢ ، وهو يشير إلى من تولاهما من كبار العلماء قبل الآمدى وبعده . وعن حالتها الآن انظر مجلة المشرق السنة ٤٢ آذار ١٩٤٨ ص ٢٦٠ ، ٢٦١ مقالا بعنوان (الابنية الأيوبية) .

(٣) عيون الأنباء ٢/ ١٧٤ من طبعة سنة ١٢٩٩ هـ . (٤) طبقات السبكي ٥/ ١٣٠ .

يقوم بذلك مرتين فى الأسبوع « كل ثلاثاء وجمعة ، يحضرها أكابر العلماء للاستفادة » (١) .

كما كان يقوم بتدريس العلوم الفلسفية فى درس خاص لمن تشد فيها رغبته من الطلاب ، كما يذكر ابن أبى أصيبعة (صاحب طبقات الأطباء) الذى قرأ عليه كتاب « رموز الكنوز » فى الحكمة (٢) ، لما كان بين أبيه والآمدى من مودة أكيدة .

وبعد كفاح طويل فى خدمة العلم ، وحين أخذ الرجل الكبير يقترب من الثمانين ، جاءته المحنة الأخيرة فى حياته ، وهى أقسى الأزمات التى تعرض لها بسبب ميوله الفكرية ، واشتغاله بالدراسات العقلية تعلمًا وتعليمًا ، وفى أثنائها أدركته منيته .

ولهذه الأزمة الأخيرة أسباب متعددة ، وطابع سياسى ودينى ، يحتاج إلى بيان :

حين توفى المعظم - رجل البيت العادلى القوي - فى دمشق سنة ٦٢٤ ازدادت أحوال الدولة الأيوبية اضطرابًا ، وأخذ الخطر المغولى يتزايد ويقترب ، كما أن بقايا الإمارات الصليبية ، انتهزت فرصة ضعف الدولة الأيوبية ، فواصلت ضغطها عليها ، حتى أخلى لهم الكامل بيت المقدس فى سنة ٦٢٦هـ (٣) ، وقد زاد الحال سوءًا اختلافُ الأمراء الأيوبيين على أنفسهم ، إذ حاصر الكامل وأخوه الأشرف دمشق ، التى حكمها - بعد المعظم - ابنه الناصر داود ، حصارًا شديدًا ، حتى خرج الناصر منها إلى الكرك - الى سلبت منه فيما بعد أيضًا - وظل مطاردا حتى مات .

وقد أعطى الكامل (دمشق) لأخيه الأشرف ، واتجه هو إلى النواحي الشمالية والشرقية يخضعها لحكمه حتى غزا (آمد) وكانت تحت إمرة (المسعود ابن الصالح محمود) آخر أمراء بنى (ارتق) فأسقطه ، وأنهى ملك هذه الأسرة ، وجعل على هذه النواحي ابنه نجم الدين أيوب (الملك الصالح فيما بعد) (٤) ومعه الأمير (صواب) أحد قواده . غير أن الكامل عاد من هذه الغزوة ومعه تهمة موجهة إلى

(١) طبقات الشافعية لابن الملقن مخطوط بدار الكتب لوحة ١٧٥ ب .

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ٢ / ١٧٤ / من طبعة سنة ١٢٩٩هـ .

(٣) الدليل على الروضتين ص ١٥٤ ، ١٥٦ من الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧م .

(٤) النجوم الزاهرة ٦ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، وتاريخ دول الإسلام ٢ / ٢١٨ وسبط ابن الجوزى ٨ ب / ٦٩٤ .

شيخنا، وهى أنه كان قد راسل أمير (آمد) المعزول «مسعود بن محمود» الذى طلبه ليكون قاضيا لآمد ؛ لكى يدعم به ملكه فى خصومته ضد الأشرف والكامل ، ولم يُبلغ الآمدى سلطات دمشق بأمر اتصاله بعدوهم ، وكان هذا هو السبب المباشر -- كما يذكر القفطى ^(١) وغيره -- فى أن رُفعت يده عن المدرسة العزيرية، وتعطل ، وأقام بمنزله شهورا قليلة حتى مات ^(٢). ومعنى هذا أنه لم يعزل حتى سنة ٦٣١هـ التى مات فيها ، والتى تتفق فعلا مع تاريخ عودة الكامل من غزوته المذكورة .

ولكن الظروف كانت قد أخذت تتأزم فى (دمشق) منذ سنوات حين تولى أمرها «الأشرف موسى» وكان أميل إلى الحنابلة كما يقول السبكى ، وكانت بينه وبين العز بن عبد السلام فيما بعد مواقف ، اضطر الكامل للتدخل فيها حتى يتحقق التوازن بين الأشاعرة والحنابلة ^(٣) ، ويبدو أن الأشرف كان على علم بما كان بين الناصر داود والآمدى من صلات بحكم اتفاقهما فى الميول الفكرية ، كما يدل كلام ابن كثير : «وكان الناس فى دمشق قد اشتغلوا بعلوم الأوائل فى أيام الملك الناصر داود، وكان يعانى ذلك ، وقديما نسبه بعضهم إلى نوع من الانحلال - فالله أعلم-» ^(٤) ، فكان مما يتفق مع ميول الملك الأشرف ومع مصالحه أيضا ، أن يلصق «بالناصر» تهمة الانحلال - خصوصا وأن الناصر قد استغل ضده ، وضد أخيه «الكامل» تسليمهما بيت المقدس إلى الفرنجة ^(٥) - ، وأن يتعقب رجال عهده ، ويثيرها معركة للدفاع عن الدين ، يمكن أن تستجلب رضا الجماهير الساخطة على ما انتهت إليه الأمور «فنادى الملك الأشرف بالبلدان ألا يشتغل الناس بغير التفسير والحديث والفقه ، وكان سيف الدين الآمدى مدرسا بالمدرسة العزيرية فعزله عنها ، وبقي ملازما منزله حتى مات فى سنة ٦٣١هـ» ^(٦). كما يقول ابن كثير فى «البداية والنهاية» .

ولكن يبدو أن الأشرف لم يبادر إلى عزل الآمدى عقب توليه أمر دمشق ، كما قد يفهم من كلام ابن كثير فى النص السابق ، وكلام أبى المظفر الذى يقول أيضا فى مرآة

(١) فى أسماء الحكماء لوحة ١٧٠ ، ص ٢٤٠ من طبعة الخائى .

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٩٣ . (٣) الطبقات للسبكى ٩٧/٥ .

(٤) البداية والنهاية ١٣ / ٢٤ . (٥) الذيل على الروضتين ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٦) البداية والنهاية ١٣ / ٢٤ .

الزمان : « وملك الأشرف فأخرجه من العزيرية ، ونادى من درُس غير التفسير والفقه ، وتعرض لكلام الفلاسفة نفيته^(١) » ، وذلك لماسبق ذكره عن الكامل وغزوته إلى آمد ، ولما يذكره « القفطى » وغيره من أنه أقام فى منزله شهورا قليلة بعد عزله حتى مات^(٢) . هذا ، وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه عزل سنة ٦٢٩ هـ .

وترتبط محنة الآمدى أيضا بصراع مذهبى ، كان قائما فى دمشق وغيرها بين الحنابلة وبعض المحدثين ، وبين الأشاعرة ، وكان من أبرز رجال الفريق الأول فقيه مشهور عُرِفَ بفتواه حول تحريم دراسة المنطق والفلسفة هو « ابن الصلاح الشهرزورى » الذى كان يناصر الآمدى العداء ، وقد ضمّن فتواه المذكورة قوله « ومن أوجب الواجب ، عزل من كان مدرّسا مدرسة من أهل الفلسفة ، والتصنيف فيها ، والإقراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم ، فإن حاله تكذبه ، والطريق فى قطع الشرّ قلعه من أصوله^(٣) » فاتخذ الأشرف من هذه الحملة التى قادها ابن الصلاح ظرفا مساعدا على اضطهاد الآمدى وعزله وإلزامه منزله ، قال النعيمى عن ابن الصلاح : « وكان لا يُمكن أحداً فى دمشق من قراءة المنطق والفلسفة ، والملوك تطيعه فى ذلك^(٤) » ، ولكنها طاعة لحاجة فى نفس يعقوب .

ولعل مما يدل على ارتباط عزل الآمدى بحملة ابن الصلاح هذه - كما يدل فى الوقت نفسه على صدق عزل الآمدى فى الدوائر المعادية له - ما يذكره ابن تيمية فى « نقض المنطق » مشيراً إلى فتوى ابن الصلاح ، ومصرحاً بدوره فى محنة الآمدى ، ومعقباً على ذلك بتقديره المنصف للآمدى :

« ولهذا مازال علماء المسلمين ، وأئمة الدين ، يذمونه ويذمون أهله (يقصد المنطق) ... حتى رأيت للمتأخرين فتيا .. فيها كلام عظيم فى تحريمه وعقوبة أهله ...

(١) مرآة الزمان ٨/ ٦٩١ ، ويتفق ابن أبى شعبة ل ٤٧ ب ، وابن حجر فى لسان الميزان ٣/ ١٣٤ ، ١٣٥

(٢) انظر : أسماء الحكماء لوحة ١٧٠ ، والبداية والنهاية ١٣ / ٩٣ .

(٣) انظر : فتاوى ابن الصلاح ط المنيرة ص ٣٥ والتراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ص ١٦٢ وابن سينا بين الدين والفلسفة ٢١١ ، والدارس للنعيمى ٢ / ٢١ ، والبداية والنهاية حوادث ٦٢٩ هـ وقصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور الطويل ص ١٢٣ - ١٢٥ من الطبعة الثانية .

(٤) الدارس للنعيمى ٢ / ٢٠ ، ٢١ وانظر أيضا عن الفتوى المذكورة وآثارها : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص

حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو ابن الصلاح ، أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدى ، وقال : أخذها منه أفضل من أخذ (عكا) مع أن الآمدى لم يكن فى وقته أكثر تبحراً فى العلوم الكلامية والفلسفية منه . وكان من أحسنهم إسلاماً وأمثلهم اعتقاداً^(١) . ويقال إن ابن عربى علق على عزل الآمدى بمثل عبارة ابن الصلاح - كما ذكر ذلك لى أستاذنا الدكتور محمود قاسم - وكان تأثير ابن عربى ونفوذه ، وهو بالطبع من خصوم الآمدى ، أخذاً فى التزايد لدى أمراء دمشق فى ذلك الحين^(٢) .

ويجدر بى أن أذكر هنا أنى لا استبعد حادث المراسلة ، فلعل الرجل - وقد أحس باكفهرار الجو من حوله فى دمشق فى أخريات عهد الناصر - رغب فى أن يقضى أيام حياته الأخيرة فى موطنه ومسقط رأسه ، طلباً للاستقرار والهدوء فى آخر العمر ، ووفاء لمشاعر عميقة الجذور فى نفس كل إنسان .

أما فتوى ابن الصلاح ، فلست أعتقد أنه كان يستجيب فيها لاهواء الحكام ، بل لاتجاهه المتشدد من ناحية ، ولتيار عميق فى العالم الإسلامى ضد علوم الاوائل من ناحية أخرى ، ومع ذلك فقد كان ابن الصلاح ضيق الأفق ، حين استعدى السلطات على عالم مسلم معتز بدينه وعقيدته ، لاذنب له إلا أنه يدرس التراث العقلى الإنسانى ، مع إعلانه أنه غير معتقد لشيء منه ، كما يعترف بذلك ابن الصلاح^(٣) . وقد رأينا شهادة ابن تيمية شيخ المدرسة السلفية للآمدى وإنصافه له . وبرغم ذلك كله ، فقد كان ابن الصلاح ، حين طلب عزل الآمدى وإلزامه بيته ، أقل سوءاً من فقهاء القاهرة الذين حاولوا - بدافع الحسد - أن يطيحوا برأس الرجل ويهدروا دمه . وهكذا نستطيع أن نرجع محنة الآمدى لهذه الأسباب مجتمعة ، المذهبية منها والسياسى ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(١) نقض المنطق ص ١٥٦ .

(٢) انظر الكتاب التذكارى لمحى الدين عربى فى ذكره المتوبة الثامنة ، ط القاهرة الكاتب العربى ، سنة ١٩٦٩ ص ٣٤٥ .

(٣) انظر فتاوى ابن الصلاح ٣٥ ، وقارن غاية المرام ص ... ط القاهرة ١٩٧١ م . ص ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢٤٦ ، ٣٢٤ .

موته :

فى هذا الجو القاسى ، أمضى الأمدى أيامه الأخيرة فى دمشق ، حتى أسلم الروح ، وثرى فى سفح (قاسيون) بعد أن بلغ الثمانين ، قضاه فى جهاد علمى موصول ، لم يفتر يوماً رغم قسوة الظروف ، وتوالى الأزمات ؛ يقول أبو المظفر : « وأقام الأمدى خاملاً فى بيته ، قد طفىء نور سعادته ، إلى أن توفى فى صفر ودفن بقاسيون فى تربته » (١) . ومقصده بالخمول والبطالة وانطفاء نور السعادة ، هو تقاعده واعتزاله للمناصب العلمية نهائياً ، ولكن آراءه وكتبه كانت تملأ الآفاق ، وقد أصبح متكلم الإسلام الأول الذى « لو ورد على الإسلام متزندق مشكك ما تعين لمناظرته غيره ، لاجتماع أهلية ذلك فيه » ، كما يقول العزبن عبد السلام (٢) .

ورأى الناس فيه بعد موته - مدافعا عن عقيدة الإسلام ، هناك فى عالم الأرواح أيضا ، فزعموا أنه رأى فى المنام فقيل له : « ما فعل الله بك ؟ قال : أجلسنى على كرسي ، وقال : استدلى على وحدانيتى بحضرة ملائكتى . فقلت : لما كان المخترع لا بد له من صانع ، وكانت نسبة الثانى والثالث إلى الواحد نسبة الرابع والخامس وما وراء ذلك ، ولم يقل به أحد ولا ادعاه مخلوق ، بطل الجميع وثبت الواحد جل جلاله وعز سلطانه ، فقال لى : ادخل الجنة (٣) » .

ولقد فرح خصومه من الصوفية والظاهرية بما ناله من عزل وعزلة ، ولكن عارفى فضله ، كانوا يتحدثون فى أسى عن اختفاء نجمه ، وانطفاء نور سعادته ، بينما يتحدث آخرون منهم عن خلود أفكاره التى تتحدى كل عزلة « مات ، وتصانيفه فى الآفاق مرغوب فيها » (٤) ، أما الرجل نفسه فيبدو أن المحنة لم تنل منه فلم يتوقف عن دراساته العلمية حتى فى أيامه العصيبة هذه ، يقول أحد خصومه - وهو الذهبى - : « ثم عزل لأمرائهم فيه ، ولزم بيته يشتغل » (٥) .

وكانت وفاته - يرحمه الله - فى شهر صفر ٦٣١ هـ (نوفمبر = تشرين سنة

(١) مرآة الزمان ٨ ب / ٦٩١ . (٢) طبقات السبكي ٥ / ١٣٠ .

(٣) طبقات ابن الملقن ل ١١٧٦ . (٤) القفطى : أسماء الحكماء مخطوط بدار الكتب لوحة ١٧٠ .

(٥) العبر فى خبر من غير : الحافظ الذهبى ، تحقيق صلاح المنجد ص ٥ / ١٢٤ و ١٢٥ من ط الكويت .

(١٢٣٣ م) وهذا ما يكاد يُجمع عليه مؤرخوه ، إلا أننا لنجد في « ميزان الاعتدال » للذهبي^(١) أنه مات في سنة ٦٣٢ هـ وينقله ابن حجر في « لسان الميزان »^(٢) أيضاً ، ولكن هذا لا يقوى على معارضة اتفاق مترجميه ، وخاصة المعاصرين منهم له ، على سنة وفاته .

وهناك خلاف آخر حول تحديد يوم وفاته ، فهو رابع صفر عند أبي شامة^(٣) وابن أبي أصيبعة^(٤) وهما من تلاميذه ، ولكن الذهبي في « العبر » يقول^(٥) : « إنه مات في ثالث صفر » ويوافقه البهنسي^(٦) في طبقاته ، والسيوطي في حسن المحاضرة^(٧) ، ولعل هؤلاء قد أخذوا عن ابن خلكان في الوفيات^(٨) .

تلاميذه :

يشير أكثر من ترجموا للآمدى إلى أنه قد تتلمذ له ، وتخرج على يديه ، جماعة من العلماء في مصر والشام ، غير أنا سندكر هنا من أمكن تعيينهم من تلاميذه :

(١) فعلى رأس تلاميذه ، عز الدين بن عبد السلام - سلطان العلماء - وصاحب المواقف المشهورة في دولتي الأيوبيين والمماليك ، والمتوفى في سنة ٦٦٠ هـ^(٩) .

وقد درس على الآمدى علم الأصول ، كما يقول السبكي^(١٠) في الطبقات ، والسيوطي كذلك^(١١) . ومما يشرح لذلك قول العز في وصف درس الآمدى « وإن غير لفظاً من (الوسيط) كان لفظه أمس بالمعنى من لفظ صاحبه^(١٢) » .

ويبدو أنه قد أخذ عنه شيئا من علم الخلاف والجدل والمناظرة أيضاً ، يدل على ذلك كلمة العز عن شيخه : « ما علمنا قواعد البحث إلا من سيف الدين الآمدى » . ويعد العز أكبر تلاميذ الآمدى ، وحامل لواء الأشعرية بعده ، وقد أشرت من قبل إلى

(١) ميزان الاعتدال ٤٣٩/٨ . (٧) حسن المحاضرة ٢٣٣/١ .

(٢) لسان الميزان ١٣٤/٣ . (٨) الوفيات ٤٥٥/٢ .

(٣) الذيل على الروضتين ص ١٦١ . (٩) انظر ترجمته في طبقات السبكي ١٠٧/٥ ..

(٤) عيون الأنباء ١٧٤/٢ . (١٠) نفس المرجع السابق ٨٠/٥ .

(٥) العبر في خبر من غير ١٢٥/٥ . (١١) حسن المحاضرة ١٢٧/١ .

(٦) طبقات الشافعية ل ١٠ ب . (١٢) طبقات السبكي ١٣٠/٥ وطبقات ابن الملقن لرحمة

١٧٥ ب ، ١١٧٦ .

ماكان بينه وبين الأشرف - سلطان دمشق - بشأن خلافه مع الحنابلة ، وكان ذا نزعة صوفية ، وله بلاؤه في مواجهة التتار والفرنجية حين غزوا دمياط^(١) . وله كتب عديدة نافعة جليلة القدر؛ منها رسالته « في الرد على الحنابلة في مسائل كلامية » والموجودة في الخزانة التيمورية بدار الكتب في القاهرة تحت رقم ٦٦٠ هـ ، وقد نقل السبكي في طبقاته فتواه ، في مسألة الحرف والصوت وما جرى معه بشأنها^(٢) ، ويناقش ابن تيمية آراء العز في هذه المسألة في كتابه « نقض المنطق »^(٣) .

(٢) ومن تلاميذ الآمدى ابن الحاجب - عثمان بن عمر بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٤٦ هـ^(٤) - الذى اختصر كتاب الآمدى « منتهى السؤل الأمل » فى مختصر مشهور ، كان له شأن كبير فيما بعد ، وقد كان ابن الحاجب رفيق ابن عبد السلام فى جهاده ومواقفه مع الحنابلة .

(٣) ومن تلاميذه أيضا ابن أبى أصيبعة الذى توفى سنة ٦٤٦ هـ وقد ذكر فى كتابه « عيون الأنباء » فى طبقات الأطباء^(٥) أنه قرأ على الآمدى كتابه « رموز الكنوز » بعد أن التقى به فى صحبة أبيه الذى كانت تربطه بالآمدى مودة أكيدة ، كما روى عنه بعض الأخبار فى كتابه « عيون الأنباء » بلفظ « حدثنى سيف الدين الآمدى »^(٦) .

(٤) ويمكن أن يعد منهم العماد بن السلماس ، فقد ذكر ابن أبى أصيبعة^(٧) أن صاحب فخر القضاة بن يضاقة تشفع عند الآمدى للعماد بن السلماس ، كى يسمح له أن يقرأ عليه كتبه ، فى أبيات رقيقة آخرها :

ولاتسكله إلى كتب تنبئه « فالسيف » أصدق إنباء من الكتب

وعلق ابن أبى أصيبعة : « وجاء هذا البيت أحسن ما يكون من تضمين قول أبى تمام » فهذا رجل يتتلمذ على كتبه ، ولكنه يسعى فى التلقى المباشر عنه .

(١) نفس المرجعين السابقين . (٢) انظر الطبقات للسبكي ٩٣ وما بعدها .

(٣) انظر نقض المنطق ص ١١٨ وما بعدها .

(٤) انظر الدارس للنعمى ٤ / ٢ ، ٢٤٧ من ط الترقى بدمشق .

(٥) عيون الأنباء ١٧٤ / ٢ من ط سنة ١٢٩٩ هـ .

(٦) انظر عيون الأنباء ٢٢٣ / ٣ نشر دار الفكر ببيروت سنة ١٩٥٦ . (٧) نفس المرجع والصفحة .

(٥) ومن تلاميذه أيضا أبو شامة صاحب كتاب الروضتين والذيل عليه ، والذي وصف الآمدى «بشيخنا» فى افتتاح المدرسة العادلية بدمشق ، كما يذكر ذلك فى «الذيل على الروضتين» : « . . . وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدى »^(١) وهى صفة لم يسبغها على أحد من الحاضرين سوى الآمدى وابن عساكر وابن الصلاح ، مما يعد تصريحاً بتلمذه عليهم . ويبدو أنه درس على الآمدى فى «العززية» حيث كان أبو شامة يقيم ويتلقى دروسه فى الفترة ما بين ٦١٥ - ٦٣٤ ، وهذه الفترة هى التى كان الآمدى يتصدر أثناءها بالمدرسة العززية^(٢) .

(٦) ولعل منهم أبا المظفر سبط ابن الجوزى الذى كان فى سن الطلب ما يزال عندما حل الآمدى فى دمشق فضلاً عما ورد من أن كبار العلماء بدمشق كانوا يحضرون مجالسه للاستفادة ، وقد تدل الواقعة التى سبق روايتها على تلمذه عليه^(٣) . .

صفات الآمدى وأخلاقه :

يقدم المؤرخون الذين ترجموا للآمدى ، صورة رائعة له ، إنساناً وعالم ، ومن الصفات التى يذكرونها :

أ- ذكائه المفرط : حتى ليصفه البعض بأنه «أحد أذكىاء العالم»^(٤) ، والبعض الآخر بأنه أذكى أهل زمانه ،^(٥) ويقول الذهبى عنه : «وكان من الأذكىاء»^(٦) ، وهذا الوصف يتفق عليه من درس عليه مباشرة ، وعرفه عن قرب كابن أبى أصيبعة ، ومن قرأوا له كالسبكى والذهبى ، وهو وصف تؤكد كآته كتب الآمدى وما تدل عليه من دقة النظر فى المشكلات العقلية .

ب- فصاحته : وقد مر بنا وصف العز بن عبد السلام له فى درسه ، ويصفه ابن أبى أصيبعة بجملة أوصاف منها : «فصيح الكلام جيد التصنيف»^(٧) وكتب الآمدى

(١) الحياة العقلية ص ٦٤ .

(٢) مقدمة كتاب الروضتين لأبى شامة لمحققه د/ محمد حلمى محمد أحمد ط القاهرة .

(٣) راجع ما مر فى ص ٥٢ . (٤) السبكى فى الطبقات ١٢٩/٥ .

(٥) عيون الأنباء ١٧٤/٢ من ط ١٣١٩ هـ .

(٦) ميزان الاعتدال ٤٣٩/١ وقد وصفه صاحب العبر بأنه (كان من أذكىاء العالم) .

(٧) عيون الأنباء ١٧٤/٢ .

الكلامية والفلسفية يغلب عليها الأسلوب الدقيق ، والتشقيق الجدلي ، وربما كان «الإحكام» وهو من أواخر مؤلفاته نموذجاً طيباً لقوة بيانه .

ج- إمامته في العلوم العقلية كلاماً وجدلاً وفلسفةً وفي أصول الفقه أيضاً ، وقد مرت بنا كلمة ابن تيمية عنه ، وهو من هو في الإحاطة بالتراث الفكري . ويقول الذهبي في العبر : « ولم يكن له نظير في الأصوليين والكلام والمنطق »^(١) ، ويجمع على هذا كل من ترجم له .

د- جمال مظهره . يقول ابن أصيبعة «بهيّ الصورة فصيح الكلام . . الخ» وكان الرجل إلى هذا يتمتع بوقار العلماء ، ويحترم نفسه ؛ فيفرض على الآخرين احترامه ؛ وقد مرت بنا كلمة المظفر- ولها مغزاها - عن خجله ، لأن السلطان لا يقوم للآمدى عند حضوره مجلسه ، وفي كتب الآمدى مواطن عديدة تشهد بمدى اعتداد الرجل بنفسه^(٢) .

وقد نلمس في مقدمه «الإحكام» مبالغة في مدح المعظم ، ولكنها روح العصر ، وقد كان المعظم يتمتع فعلاً بخلال نادرة .

هـ- ومع هذا فقد كان الآمدى متواضعاً منصفاً من نفسه ، شأن العلماء الصادقين ، وكثيراً ما يتردد في «الابكار» قوله : « هذا ماعندى فيه ، وعسى أن يكون عند غيري غيره »^(٣) .

و- حسن خلقه ، ورقة شمائله ، وسماحة نفسه ، ورهافة حسه ، حتى لقد وصفوه بأنه كان «سريع الدمعة ، رقيق القلب ، سليم الصدر»^(٤) ، ويقول ابن كثير^(٥) : « وكان حسن الاخلاق سليم الصدر كبير القدر كثير البكاء . . » ويقول أبو شامة - وهو

(١) العبر في خبر من غير ١٢٥/٥ . والمعروف ان الأصوليين هما أصول الفقه وأصول الدين أى علم الكلام .
(٢) انظر مثلاً الابكار ٢١٧/١ ب ، ٢١٨ وغاية المرام ١١٠٣ ، ومقدمة كتاب الاحكام ص ٦ من ط سنة ١٣٦٦ هـ .

(٣) الابكار ١٥/١ ، ١٥٣ ، ٢١٤/٢ ب .

(٤) النجوم الزاهرة ~ وهو ينقل عن سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان - ٢٨٢/٦ .

(٥) البداية والنهاية ١٣ / ١٤٠ .

أحد تلاميذه - « وكان حسن الأخلاق كبير القدر... الخ »^(١) . ومن الوقائع التي تدل على هذا ، ما ذكره ابن أبي أصيبعة عن أسلوب استقبال الآمدى له ولأبيه ، فى منزله بدمشق^(٢) . وقد دفع ابن المظفر وغيره عن الآمدى مارمى به من تهم فى دينه ، أو خلقه ، بمثل هذه الأوصاف السابقة التى عرفت عنه ، ثم حكى لنا قصة ذات مغزى ، وهى أن الآمدى لما كان مقيما بحماة مات له « قط » فأوصى بدفنه ، فلما انتقل إلى دمشق ، بعث من حمل له عظام القط فى كيس ، ودفنها بترتبه التى أعدها فى « قاسيون »^(٣) ، وهى واقعة تدلنا على رقة أحاسيسه وعظيم وفائه حتى للحيوان ، فكيف بالإنسان ؟ ولعمري إنها لحظة لا نجد لها بهذه الصورة عند كثيرين .

ز- وفى ختام هذه الفقرة نناقش ما نسبته إليه الذهبى من تركه للصلاة ، فى ميزان الاعتدال وتاريخ الإسلام^(٤) ، وإن لم يعرض لشيء من ذلك فى ترجمته له بكتاب العبر^(٥) . وقد سبق أن تعرضنا للتهمة المتعلقة بميله إلى (دين الأوائل) وسيأتى لها فيما بعد مزيد بيان .

هذه التهمة قد ناقشها أبو المظفر الحنبلى ، وابن كثير - وهو تلميذ الذهبى - كما أشرت ، وهما سلفيان معتدلان ، واستبعداها بما عرف عن الرجل من الخلال التى ترفعه عن مثل هذه الشبهة ، وإن كانت عبارة ابن كثير حذرة متحفظة : « وكان يرمى بأشياء الله أعلم بها ، والذي يغلب على الظن أنه ليس لغالبها صحة .. » وقد مر بنا رأى ابن تيمية فى الآمدى ، وهو شيخ المدرسة السلفية ، وأعرف بالآمدى من الذهبى ، من أنه كان من أحسن معاصريه إسلاما وأمثلهم اعتقادا^(٦) . كما أورد ابن حجر فى « لسان الميزان »^(٧) كلام الذهبى فى « الميزان » ، وأشار إلى مناقشة أبى المظفر لمثل هذه التهمة ، وذكر طرفا من تاريخ الآمدى ، ثم قال : (قرأت فى « تاريخ الإسلام » قال : كان شيخنا القاضى تقى الدين سليمان يحكى عن الشيخ شمس الدين بن عمر قال : كنا نتردد إلى السيف الآمدى ، فشككنا هل يصلى ، فتركناه حتى نام ، وعلمنا على رجله

(١) الذيل على الروضتين ص ١٦١ . (٢) راجع ما مر فى ص ٦٢

(٣) مرآة الزمان ٨ ب / ٦٩١ . (٤) الميزان ١ / ٤٣٩

(٥) العبر فى خبر من غير ٥ / ١٢٤ ، ١٢٥ . (٦) راجع ما مر فى ص ٥٦ .

(٧) لسان الميزان لابن حجر ٣ / ١٣٤ ط حيدرآباد سنة ١٣٣٠ هـ .

بالخبر ، فبقيت العلامة نحو يومين مكانها » ثم أشار الحافظ ابن حجر إلى رد السبكي على الذهبي ، وأنه متحامل على الآمدى والرازي بذكره لهما فى الضعفاء ، وأنه يروى عن الهوى فى هذا الميزان^(١) ، وإن كان قد اعتذر عنه بأنه يعتقد أن ذلك من النصيحة لكونه يراهما من المبتدعة .

وأعتقد أن هذا خبر لا ينبغى الاعتماد عليه ولو جاء من مثل الذهبي ، فإن طلبه يفعلون بشيخهم مثل هذا ، وكان أولى بهم - إذا شكوا - أن يسألوه ، سؤالاً صريحاً بدلاً من التهمج عليه وأخذ بالظن ، لا ينبغى أن تقبل روايتهم .

وأمر آخر ، وهو أنه من الممكن - حتى مع التسليم بصحة الواقعة - أن يكون الرجل يؤدى صلاته بتيمم لمرض لا يحب أن يعلنه ، وقد كان مالك - وهو الإمام - لا يصلى فى المسجد لما أصابه من مرض بعد ضربه بالسياط ، فكيف يقال مع هذا : إنه كان يترك الصلاة ؟ إن ما نعرفه عن الآمدى ، من كتبه ، من يقين بالله واليوم الآخر ، وما نقله المؤرخون عن خلقه وطبيعة نفسه ، ليبعد هذه التهمة وينفيها . وقد وجهت هذه التهمة من قبل إلى أبى الحسن الأشعرى مع ما اشتهر عنه من عبادة ونسك^(٢) . فانظر إلى أى حد تبلغ الخصومة بأربابها ، على أن مما يضعف كلام الذهبي فى الميزان قوله : « ونفى من دمشق لسوء اعتقاده »^(٣) فدعوى النفى ما ادعاها أحد من مؤرخى الآمدى ، وما أحسب أنها صحيحة .

أما عن حياته الخاصة :

فلا نكاد نعرف شيئاً عن حياة الآمدى الخاصة ، زواجه وأسرته ، وما يتصل بذلك من شعونه الخاصة ، وربما كان المصدر الوحيد الذى أفادنا فى هذا الصدد ، هو ابن أبى أصيبعة^(٤) ، حيث يؤكد زواجه وإنجابيه بما يذكره عن ولد الآمدى (جمال الدين

(١) وانظر نقد الكوثرى للذهبي فى ترجماته للمتكلمين من أهل السنة فى حواشيه على تبیین كذب المفتري لابن عساكر ١٣٤ .

(٢) تبیین كذب المفتري لابن عساكر ط دمشق ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، وانظر ايضا الأشعرى أبو الحسن د / غرابة ص ٦٤ ، ٦٥ حيث نجد الرد على هذه التهمة التى شارك فى توجيهها إلى الأشعرى - مع الأسف الشديد - ابن تيمية فى

الفتاوى ٥ / ٢٧٧ ، رغم تقديره للأشعرى الذى عبر عنه أكثر من مرة ، انظر مثلاً : نقض المنطق ص ١٠ ، ١١ .

(٣) الميزان ١ / ٤٣٩ . (٤) عيون الأنباء ٢ / ١٧٤ ط سنة ١٣١٩ هـ .

محمد) الذى روى أبياتا من الشعر أشبه ما تكون بشعر العلماء ، قالها الوالد ، فيها رقة ، ويغلب على الظن أنه قالها فى أمير حماة الذى توثقت به صلته ، وكان قريبا إلى نفسه :

فلا فضيلة إلا من فضائله ولا غريبة إلا وهو منشأها

حاز الفخار بفضل العلم وارتفعت به الممالك لما أن تولاهما

فهو الوسيلة فى الدنيا لطالبها وهو الطريق إلى الزلفى بأخراها

ويشير ابن أبى أصيبعة فى نفس الموضع إلى أن الآمدى كان يسكن بدمشق فى قاعة عند المدرسة العادلية ، وفيها استقبله هو ووالده . وهذا يدل على بساطة فى الحياة وقصد من العيش ، وقد ظل الرجل طول حياته معلما وطالب علم ، لم يتطلع إلى المناصب ، ولم يشغل منصبا سوى التدريس ، وما كان منصب قضاء (آمد) - الذى اتهم بقبوله ... بالذى يُغريه ويُنسيه مكانته وشهرته فى دمشق - غفر الله لنا وله .

* * *

الفصل الثالث

ثقافته وإنتاجه العلمى

أتيح للآمدى - كما سلفت الإشارة - الإمام بجميع فروع الثقافة الإسلامية، دينية وغير دينية ، لكنه مال إلى التخصص فى الدراسات العقلية كلاماً وأصولاً وفلسفة ، حتى جاءت مؤلفاته كلها فى هذا الفرع من الدراسات ، وسنتناول هنا مجموعتين من العلوم :

المجموعة الأولى : هى تلك العلوم التى أَلَمَّ بها استكمالاً لثقافته وتشمل : النحو والعربية ، والفقه ، والقراءات ، والحديث ، والتفسير ، والطب ، وسنخص كلامها بكلمة فيما يلى . ثم نعرض بمزيد من التفصيل للمجموعة الأخرى التى تخصص فيها وألف ؛ وهى العلوم العقلية .

(أ) النحو واللغة :

سبق أن ذكرت أنه بدأ فى بلده (آمد) دراسته لمبادئ اللغة العربية - شأن غيره من الأطفال فى ذلك العهد - ولكن مناقشاته لمسائل اللغة المتصلة بأصول الفقه فى كتابه «الإحكام» تدل على إحاطة طيبة بمسائل النحو واللغة^(١) . وفى مواطن مختلفة من «غاية المرام» نلاحظ استعاضته بالمنقول من اللغة ، وبقواعد النحو فى نصرة آرائه الكلامية^(٢) ؛ ولهذا فقد استظهرت أن ما يوجد فى مؤلفاته من أخطاء نحوية ، هى من النسخ ، خاصة أن ما يتكرر من هذه الأخطاء ، هو من أمور النحو الأولية التى لا يكاد يجهلها أحد من المشتغلين بالعلم .

ولا يُعرف للآمدى مؤلفات فى اللغة وما يتصل بها ، وإن كان البغدادي فى «هداية العارفين» يصفه (بالفقيه الأديب)^(٣) . ولقد وجدت فى قائمة المخطوطات

(١) انظر مثلاً الإحكام ١ - ١٥ - ٣٤ ، ومنتهى السؤل ١/٥ - ١٨ .

(٢) انظر مثلاً غاية المرام ل ١٦٩ - ١٧١ ، والإحكام فى أصول الأحكام ٢/٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ .

(٣) هداية العارفين ١/٧٢ ط استانبول سنة ١٩٥١ م .

العربية بجامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية^(١) ما يدل على وجود مجموعة من الرسائل في مجلد كتبه ناسخ يدعى (محمد الكاظم) سنة ١٩٠٧، وينسب الرسالة الخامسة منها إلى صاحبها فيقول: إنها (مقتبسات من حكم الإمام علي المعروف بغرر الدور للشريف الرضوي، وهي اقتباسات اختارها الآمدي المتوفى سنة ٦٣١هـ / ١٢٣١م من «غرر الدرر» وهي مجموعة من الحكم في الشعر والنثر للإمام علي رضي الله عنه، والمجموعة يقال: إنها من جمع الشريف المرتضي المتوفى سنة ٤٣١هـ - ١٠٤٤م)^(٢).

وقد أصاب كاتب هذا الفهرس فيما قرره من أن كتاب الشريف المرتضي، أسبق من كتاب الآمدي المذكور، ولكنه أخطأ في نسبته الاقتباس إلى سيف الدين الآمدي المتوفى سنة ٦٣١هـ لأن الكتاب لآمدي آخر هو - كما يذكر الشيخ عبد الزهراء الحسيني الخطيب: «عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد الآمدي ناصح الدين، وهو فاضل عالم محدث، ومن مشايخ ابن شهر آشوب في الرواية، قال في مقدمة «المناقب»: أذن لي الآمدي في رواية غرر الحكم، وقد تضمن من حكم أمير المؤمنين وكلماته القصار ما لم نجد في كتاب...، وطبع الكتاب مرات عديدة بالهند وسوريا والعراق، ونُظِمَ شعرا، وترجم لغير لغة، وشرح عدة شروح منها ملخص غرر الحكم لمؤلف مجهول، وقد نسب للسيد المرتضي، وهذه النسبة غلط فاحش لتأخر الآمدي عنه»^(٣).

ومما يستحق التنويه، في ثقافة الآمدي اللغوية عنايته بكتاب «غريب الحديث» للقاسم بن سلام، كما سنذكره عند التعرض لجهوده في علم الحديث.

ب- أما الفقه:

فقد درسه في عناية وعمق، وبدأ بدراسته في بلده (آمد) على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ويقال: إنه حفظ في هذه الفترة كتاب «الهداية» لأبي الخطاب في الفقه الحنبلي^(٤). وقد واصل الآمدي دراسته له في بغداد - كما سبق بيانه - على يد

(١) كتالوج محفوظات برنستون ص ٣٤٢.

(٢) ويوجد بمكتبة «لا له لي» بتركيا نسخة من هذا الكتاب باسم «غرر الحكم ودور الكلم» تأليف عبد الواحد الآمدي برقم ١٨٧٨.

(٣) عن كتاب (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) تأليف عبد الزهراء الحسيني الخطيب، ط النجف ١٣٨٦/ ١٩٦٦.

(٤) ص ٧٧، ٧٨. (٤) لسان الميزان ط حيدر آباد ١٣٥/ ٣.

ابن المنى، حتى تحول عنه إلى مذهب الإمام الشافعى . واتصل بابن فضلان شيخ الشافعية فى بغداد ، حيث درس الفقه الشافعى . وأضيف هنا أنه ربما كان من أسباب هذا التحول اهتمام الآمدى بعلم الجدل والخلاف الذى يعنى بالموازنة بين المذاهب والآراء الفقهية ، فمالته نفسه إلى مذهب الشافعى ، ربما لأنه أقرب إلى الاتجاه العقلى الذى غلب عليه إلى آخر حياته .

وقد توفر الآمدى على دراسة الفقه الشافعى فى مدرسة (دار الذهب) على شيخه ابن فضلان كما سبق ، ويبدو أنه حين تقدم فى الدراسة الفقهية ، تطلع إلى دراسة أعلى من دراسة (فروع المسائل) هى البحث عن أصولها ومنابعها والمقارنة بينها ، ولذلك عكف على دراسة أصول الفقه والجدل والخلاف والمناظرة ، وبرع فيها جميعاً ، وواصل دراسته لها فى دمشق أيضاً ، كما يقول مترجموه ، وكما تدل مقدمة كتابه (الإحكام)^(١) وأنتج فيها عدداً من الكتب ، بينما لانعرف له فى فروع الفقه أية مؤلفات مما يتفق مع اتجاهه الذى ذكرت .

ج- القراءات :

وكانت من العلوم المزدهرة حينذاك ، والتى تشتد الرغبة فى دراستها^(٢) بعد الانتهاء من حفظ القرآن الكريم ، وتذكر عدة مصادر أنه بدأ فى (آمد) قراءته للقرآن ، ولما رحل إلى بغداد اهتم بدراسة علم القراءات ، غير أنه لم يترك لنا مؤلفاً فيها ، وإن عرض لبعض مسائلها فى كتبه الأصولية شأن غيره من المؤلفين فى الأصول^(٣) .

د- الحديث :

سبق أن أشرت إلى تتلمذه فى بغداد ، لأبى الفتح بن شاتيل وغيره ، وسماعه الحديث منهم ، وقد نص^(٤) ابن حجر على أنه سمع من ابن شاتيل (كتاب غريب الحديث) لأبى عبيد القاسم بن سلام ، وأنه رواه عنه ، ومن هنا فقد ترجم له الحافظ

(١) انظر مقدمة الإحكام ص ٦٠٥ من طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

(٢) الحياة العلمية فى مصر والشام ص ٨ .

(٣) انظر مثلاً الإحكام ١/ ١٤٨ - ١٥٢ ومنتهى السؤل ١/ ٣٩ - ٤٨ .

(٤) فى لسان الميزان ٣/ ١٣٤ .

الذهبي - كما سبق ذكره - في العبر والميزان وغيرهما باعتباره واحداً من رجال الحديث، ولو أنه رماه في الميزان وتاريخ الإسلام بما يجرح عدالته، وقد سبقت مناقشة ذلك، ويكفي الآمدى - في عدالته - شهادة ابن تيمية له .

ولم يعرف للآمدى كتاب في علوم السنة، وإن عرض لمباحث المتن والسند بعمق واقتدار في كتابيه (الإحكام ومنتهى السؤل) (١). غير أنه يجب على أن أشير هنا إلى أنه كثيراً ما يروى الأحاديث بالمعنى ولا يحرص على لفظها الوارد في الصحاح، وقد أشرت إلى ذلك في مواضع عدة من تعليقاتي على كتاب (غاية المرام) (٢)، ونبهت أيضاً إلى أنه قد يذكر أحاديث ضعيفة أو موضوعة، ولا ينبه على ذلك كما هو الواجب عند محققى المحدثين (٣)، كذلك قلما يُسند الآمدى الحديث إلى صحابى، أو إلى مؤلف مخصوص، وإن كان في بعض الأحيان ينقل عن صحيح مسلم وينص على ذلك (٤)، أو يقول (ورد في الصحاح) (٥). ولكن ليس معنى ذلك أنه «في صناعة الحديث كالعوام» كما يقول ابن تيمية عن متكلمي الأشاعرة كالجويني والغزالي والرازي (٦)، فهذه تهمة - على ما تحتمله من مناقشة - لا يمكن أن تصدق على الآمدى، وإن لم يبلغ الرجل - فيما أحسب - منزلة مرموقة في علم الحديث .

هـ- التفسير :

لا تنص المراجع التي ترجمت للآمدى - على كثرتها - على دراسته للتفسير، وما أحسب أن قد فاته - وهو الحريص على الإمام بمختلف العلوم - أن يدرس علم التفسير، وتدل مناقشاته الكلامية والأصولية (٧) على هذا، وقد أشرت في تعليقاتي على غاية المرام إلى ذلك (٨)، وقد أوضحت مدى اتفاق آرائه مع أقوال المفسرين الأئمة.

(١) الإحكام ٢/٢-١١٩ من ط ١٩٦٦، منتهى السؤل ١/٣٩/ ٤٨ ط صبيح .

(٢) انظر مثلاً ل ١٩٢ - ١٦١ وص ١٢٥ . ١٣٢ .

(٣) انظر مثلاً الإحكام ١/١٥ من ط سنة ١٩٦٦ وغاية المرام ل ١٩٠ ص ٢١١ .

(٤) كما في الأبيكار ٢/٢١٨، ٢١٩، ١٢٢٠ . (٥) كما في غاية المرام ١١٩ ب ٢٨٩ .

(٦) نقض المنطق ص ٦٠ .

(٧) انظر مثلاً منتهى السؤل ١/٣٩-٤٨، والإحكام ٢/٢٢٥/٢٥٦، ٢٦٧، ٣١٥٠ .

(٨) انظر مثلاً ل ٤٨ ب ١٥٠، ٩٧-١٠١، ل ١٥٩، ص ١٢٤، ل ١٧٠، ١٥٨ وما بعدها من غاية المرام .

ونلاحظ هنا أنه قد ينقل - في خلال المناقشات - آراء المفسرين في الآية ، ثم يوازن بينها اعتمادا على العقل ، أو على اللغة ، أو على نصوص شرعية أخرى ، بل قد يذهب في ذلك إلى حد مخالفة المنقول عن ابن عباس نفسه ، وإن حاول توجيه كلام ابن عباس بما لا يتعارض مع ما ذهب إليه ، غير أن ملكته النقدية الغلبة تدفعه إلى أن يقول : « وإن لم يكن كذلك - أى وإن لم يكن المراد بكلام ابن عباس ما بينته - فهو أيضا مخصوص بما ذكرناه من الأدلة ، واتفاق أهل اللغة على إبطاله (١) » . وهذا يدل على ثقة فائقة لا تكون إلا ممن يعرف جيدا ما يقول ، وعلى تمسك بالقاعدة الإسلامية « كلُّ يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ » .

هذا وقد جاء في (الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف) ببغداد للاستاذ محمد أسعد أطلس (٢) أنه يوجد بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم ٢٣٤٢ ، كتاب في التفسير لسيف الدين (أبي الحسن علي بن محمد بن علي) الآمدي « التغلبي » المتوفى سنة ٦٣١ هـ . وقد أشار إلى أنه اعتمد في هذه البيانات على (بروكلمان) ٣٩٣/١ .

وقد تيسر لي استحضار صورة من هذا الكتاب ، فتبينت أنه رسالة صغيرة في تفسير سورة «يس» تقع في ست وثلاثين صفحة ، بكل منها سبعة وعشرون سطرا ، بخط النسخ ، وبظاها دعاء من الناسخ لداود باشا والي بغداد والبصرة الذي أوقف هذا الكتاب على مدرسة (الداودية) ببغداد سنة ١٢٣٣ هـ وبقراءة الكتاب ، تأكدت أنه لآمدي آخر غير أبي الحسن ، وذلك لما يلي :

١- أن المؤلف يُهدى كتابه في الصفحة الأولى إلى (أفندينا الحامي لمدينة دار السلام سليمان باشا) . ومن الواضح أنه يهديه لأحد ولاة بغداد العثمانيين قبل داود باشا .

٢- أن مؤلفه كان يدرس تفسير سورة يس للعلامة عبدالله البيضاوي ، فخطر له أن يعلق عليه (نبذة من الأفكار) ولم يعرف عن الآمدي القيام بتدريس التفسير .

(١) الإحكام ٦٦/٢ ، ١٦٨ ، ٢٦٩ . (٢) الكشاف .. طبع بغداد سنة ١٩٥٣ ص ٢١ .

٣- أن البيضاوى المذكور ، وهو تاج الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر الشيرازى صاحب التفسير المشهور (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) قد توفى سنة ٦٨٥هـ^(١) أو سنة ٦٩١هـ^(٢) ، وقد توفى الآمدى قبله بنحو خمسين عاما .

هذا بالإضافة إلى أن أسلوب الكتاب يختلف عن أسلوب الآمدى سيف الدين ، ويغلب عليه طابع صوفى واضح^(٣) ، لا نجده فى مؤلفات أبى الحسن . ومن المعروف أن كلمة «آمدى» كانت تطلق فى الدولة العثمانية على الكاتب ، أو أمين السجلات ، أو ما نطلق عليه لفظ «السكرتير»^(٤) الآن ، ويبدو أن هذا الكتاب لواحد من هؤلاء .

و- الطب :

وهو أحد العلوم التى ألم الآمدى بمبادئها ، ولم يتبحر فيها ، كما يفهم من كلام ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء^(٥) ؛ إذ يقول : (كان أذكى أهل زمانه ، وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية ، والمذاهب الشرعية ، والمبادئ الطبية) . وابن أبى أصيبعة ، هو المصدر الوحيد الذى أشار إلى هذه الحقيقة فيما قرأت ، وقد يؤيد كلامه تردد بعض الحقائق الطبية فى كتب الآمدى ، كما نجده فى غاية المرام (١٥٥) ، ونقد المطالب العالية (ل ١٦ ب) وكشف التمويهات (ل ١١٦ ب) . واتصال الآمدى بهذا العلم ، أمر غير مستبعد من رجل أنفق حياته فى دراسة الفلسفة وتدريسها ، وكان الطب مرتبطا بها لعهد قريب .

أما المجموعة الأخرى :

فهى تلك العلوم التى توفر الآمدى على دراستها وأحاط بمباحثها ، وأنفق حياته فى تدريسها والتأليف فيها ، أى أنه تخصص فيها بمفهوما المعاصر للتخصص .

ويلاحظ أنها جميعا تنسم بالطابع العقلى ، سواء أكانت عقلية صرفاً ، أم مزيجاً من العقل والشرع . وقد رأيت أن أقسمها إلى ثلاثة أفرع : أصول الفقه وما يتعلق به من جدل وخلاف ، والفلسفة ومنها المنطق الذى اشتهر به ، وعلم الكلام . وسأذكر فيما يلى

(١) كما فى الاعلام للزركلى ٤ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ . (٢) كما فى مقدمة التفسير المذكور ط مصر .

(٣) كما فى ل ٢٥ ، ٢٦ . (٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية طبع مطابع الشعب بالقاهرة مادة آمدى .

(٥) طبقات الأطباء ٢ / ١٧٤ .

مكانته فى هذه العلوم ، وطرق تحصيله لها ، ثم أعدد ما ترك فيها من مؤلفات ، مصحوبة بما تجمع لدى عنها من بيانات :

أ- أصول الفقه وما يتعلق به :

بدأ الآمدى بدراسة الفقه الحنبلى ، ثم الفقه الشافعى كما علمنا ، وأخذ يهتم بدراسة أصول الفقه والجدل والخلاف فى الوقت نفسه . وقد سبق أن أشرت إلى أن دراسته لهذه العلوم الأخيرة ، ربما كانت أحد أسباب تحوله إلى المذهب الشافعى ، وليست لاحقة له ، غير أن إمامه بالمذهبين الحنبلى والشافعى قد أعانته - ولا شك - فى دراساته ومؤلفاته الأصولية ، كما أن إجادته للمنطق ، وتعمقه فى علم الكلام ، قد ظهرت آثاره فى مؤلفاته الأصولية أيضا كما سيتبين فيما بعد .

ويبدو أن شيخه فى أصول الفقه هو ابن فضالان ، وإن لم تصرح المراجع بذلك ، ولعله درس عليه الخلاف والجدل والكلام أيضا كما رجحت من قبل ، وقد قالوا : إنه قد بلغ من اهتمام الآمدى بالفقه وأصوله فى هذه الفترة أنه حفظ الوسيط ، والمستصفى للإمام الغزالى (١) .

واعتقد أنه واصل دراسته لهذه العلوم فى الشام أيضا ، وإن لم تذكر لنا المراجع شيئا عن هذا : غير ما فى مقدمة كتابه (الإحكام) إذ يقول : « ولذلك كثر تدأبى وطال اغترابى فى جمع فوائدها ، وتحصيل فرائدها ، من مباحثات الفضلاء ، ومطارحات النبلاء ... الخ » (٢) .

وأهم كتاب للآمدى فى الأصول هو (الإحكام) ألفه فى دمشق التى وفد عليها سنة ٦١٧ هـ ، وأهداه للملك المعظم الذى توفى سنة ٢٢٤ هـ ، أى أن هذا الكتاب ، تم تأليفه فى الفترة التى تولى التدريس فيها بالمدرسة العزيزية ، وهو يشير فى الإحكام إلى « الأبكاء » ويحيل عليه (٣) ، كما يفعل فى « منتهى السؤل » الذى هو مختصر للإحكام . وفى الأبكاء يشير الآمدى إلى مؤلفاته فى المنطق والفلسفة ويحيل عليها كما سيتبين ، فهل معنى هذا أنه لم يتجه إلى التأليف فى أصول الفقه إلا فى أخريات حياته ، وبعد أن

(١) طبقات السبكى ١٣٠/٥ . (٢) الإحكام ٣/١ ، ٤ القاهرة سنة ١٩٦٦ .

(٣) انظر مثلا الإحكام ١٣/١ ، ١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢١ من ط سنة ١٩١٤ بالقاهرة .

أنجز مؤلفات عديدة فى علم الكلام والفلسفة ؟ أى أنه آخر الميادين الثلاثة التى خلف فيها كتباً، من حيث بدء التأليف فيه ؟ .

لو اقتصرنا على الإحكام والمنتهى ، لكان الجواب بالإيجاب ، لكن للآمدى كتاباً اسمه (الترجيحات) ، « وهو فى جانب من جوانب علم الأصول ، وهى القاعدة الرابعة من القواعد الأربع التى بنى عليها كتابه الإحكام » ، وهو يحيل عليه فى كتابيه الإحكام والمنتهى . ولكن لنا أن نتساءل فنقول بعد هذا : إن كتاب الترجيحات أيضاً ، لا يعلم تاريخه ، فمتى قام الآمدى بتأليفه ؟ ثم هو كتاب بين الأصول والجدل ، فهو ليس خالصاً لعلم الأصول ، وإذن فلا يزال « الإحكام » هو أول مؤلفاته الأصولية . ولعلنا نجد الجواب الحاسم على هذا التساؤل فى ذلك النص الذى يرد فى كتاب « الأبهكار » الذى نص فى خاتمته على الانتهاء منه سنة ٦١٢ هـ ، وهو نص يدل على أن الآمدى قد ألف فى تاريخ مبكر نسبياً كتاباً - بل كتباً - فى علم الأصول غير كتبه المتأخرة (الإحكام والمنتهى) ؛ ففى ل ٢ / ١٢١٦ من نسخة الأبهكار المصورة عن آيا صوفيا بتركيا ، يقول - بعد أن ذكر أقسام الدليل عند الأصوليين أو الفقهاء كما يسميهم - : « وقد عرّفنا كل واحد فى غير هذا من كتبنا » ثم يعود فى لوحة ٢١٦ ب فيقول - بعد أن ذكر أقسام الدليل وطرق دلالاته - : « والأقسام كثيرة ذكرناها فى كتبنا المخصوصة بهذا الفن » .

على أن عقده مجالس المناظرة - منذ كان فى القاهرة - يدل على اهتمامه بهذا العلم واشتغاله به منذ وقت مبكر ، فمن الطبيعى أن يؤلف فيه ، على أن القفطى يصرح بذلك الذى يفهم من نص الأبهكار ، إذ يقول عن فترة مقامه بمصر : « . . وقرئ عليه تصنيفه فى أصول الدين وأصول الفقه ، ثم خرج من مصر » (١) .

هذا من ناحية بدء تأليفه فى أصول الفقه ، أما عن قيمة مؤلفاته وطبيعتها وأثرها فى البحث الأصولى ، فمن المعلوم أن هناك فى ميدان التأليف فى أصول الفقه طريقتين رئيسيتين الأولى للفقهاء ، والثانية للمتكلمين (٢) . وينتسب الآمدى بكتابه « الإحكام » إلى طريقة المتكلمين غير أنه يمثل حلقة هامة فى سلسلة تطور هذه الطريقة ، من حيث سماته المميزة ، وأثره الواضح كما يدل كلام ابن خلدون فى المقدمة : « . . . والمتكلمون

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٠ .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ٤٥٥ وكتاب تيسير الوصول إلى علم الأصول ص ٦ ٨ .

يجردون المسائل عن الفقه ويميلون إلى الاستدلال العقلي . . . وكان أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان للإمام الحرمين ، والمستصفى للغزالي وهما من الأشعرية ، وكتاب العمدة للقاضي عبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة ، وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه ، ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب (المحصول) وسيف الدين الآمدي في كتاب (الإحكام) واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج ، والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل»^(١) .

وبعد حديثه عن كتاب «المحصول» يقول ابن خلدون : «وأما كتاب (الإحكام) للآمدي وهو أكثر تحقيقاً في المسائل ، فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف (بالمختصر الكبير) ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم ، وعنى أهل المشرق والمغرب بمطالعة وشرحه . ثم جاء ابن الساعاتي - وهو من الحنفية - فجمع بين كتاب الإحكام ، وكتاب البزدوي في الطريقتين ، وسمى كتابه (بالبدائع) ، فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها ، وأئمة العلماء لذلك العهد يتداولونه قراءة وبحثاً . . .»^(٢) .

في هذا النص الهام لابن خلدون بيان لمكانة الآمدي الأصولية ، وأثره في تطور التأليف في هذا العلم حسب طريقة المتكلمين ، وفي الطريقة الثالثة التي جمعت بين الطريقتين على يد ابن الساعاتي الذي يقول في مقدمة كتابه المذكور : «لخصته من كتاب الإحكام ، ورصعته بالجواهر النفيسة من أصول فخر الإسلام (يقصد البزدوي) ، فإنهما البحران المحيطان بجوامع الأصول ، الجامعان لقواعد المنقول والمعقول ، هذا حاوراً للقواعد الكلية الأصولية ، وذاك مشمول بالشواهد الجزئية الفروعية»^(٣) . «كما يدل كلام ابن خلدون أيضاً على مراجع الآمدي الرئيسة في هذا الفن .

وإذا كان هذا هو أثره في الماضي ، فإن كتابه (الإحكام) لا يزال حتى الآن من أبرز المراجع الأصولية ، سواء من جهة ما احتواه من المسائل المحققة»^(٤) - كما يقول ابن خلدون

(١) كذا في المقدمة ٤٥٥ وانظر في تحقيق هذه الفكرة (المعتمد) لأبي الحسين البصري ١ / ٨٠٧ .

(٢) المقدمة ص ٤٥٥ - ٤٥٦ . (٣) انظر : تاريخ علماء المستنصرية ، ١٢٠ .

(٤) انظر مثلاً تجديد الفكر الديني لمحمد إقبال ص ١٨٧ ، وأصول التشريع الإسلامي للشيخ علي حسب الله ص ٧ .

– أو من ناحية منهج التأليف الدقيق المحكم الذى انتهجه فيه مؤلفه^(١) ، وفى دراسة لباحث معاصر عن (الأمر فى الشريعة الإسلامية) نجد فصلا كاملا عن رأى الآمدى فى هذه المسألة الأصولية الهامة^(٢) .

على أن الآمدى الأصولى فى حاجة إلى دراسة مستوفاة من أحد المتخصصين فى هذا الباب ، وأستاذنا الدكتور على النشار – وهو أحد الخبراء المعروفين فى علم الأصول – يعرض للآمدى كأصولى ، ويميز تأثيره بالمنهج الأرسطى فى التفكير الأصولى^(٣) ، ويفتح بهذا نافذة على تلك الدراسة المقترحة للآمدى مفكراً أصولياً .

’ أما عن الجدل والخلاف ، فقد سبق أن ذكرنا أنه تلقاهما من شيخه ابن فضلان ، وأن بعض مترجميه ذكر أنه قرأهما على ابن المنى أيضا .

وقد عنيَ بهذين العلمين منذ وقت مبكر حتى إنه حفظ طريقة المراغى – وهى التى شرحها فى كتابه (غاية الأمل فى شرح الجدل^(٤)) – وطريقة الميهنى^(٥) ، ويبسده أنه واصل دراسته لهما فى الشام أيضا ، وكل المراجع تجمع على براعته فى الجدل وتفننه فيه ، وقد حظى هذا الفن بمؤلفات عديدة له ، سنذكرها بعد حديثنا عن مؤلفاته فى الأصول ، وقد لفتت كثرتها بعضَ الباحثين فى تاريخ هذه الفترة حيث قال : « وكان أغزر علمائها (مصر) إنتاجا فى تلك المادة ، هو سيف الدين الآمدى . . . وقد وضع كتباً عدة وشرح بعض كتب سواه^(٦) » ، ثم يسرد مؤلفاته فيها ، وجاءت مؤلفاته فيها مبكرة منذ سنواته الأولى بمصر ، وهو فى « الأبهكار » يحيل كثيراً على كتبه الجدلية ، وعلى كتاب (شرح الجدل) خاصة^(٧) .

وقد تخرج به فى الجدل والخلاف جماعة من الأذكياء – كما تقول أكثر المراجع – ومن بين هؤلاء الأذكياء العز بن عبد السلام ، وقد درسه عليه فى دمشق حيث كان يعقد مجالس المناظرة التى يحضرها كبار العلماء لدراسة مسائل الخلاف بين المجتهدين ،

(١) انظر : علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ترجمة صالح العلى ص ٢٠٢ ، ٣١٩ .

(٢) هو الدكتور محمد سلام مذكور فى كتابه : الأمر فى الشريعة الإسلامية ص ٤٣ – ٥١ .

(٣) انظر مناهج البحث لدى مفكرى الإسلام ص ٢٨

(٤) انظر الحياة العقلية ص ١٨٥ (٥) البداية والنهاية ١٣ / ٢٤١

(٦) الحياة العقلية ١٨٦ (٧) انظر مثلاً الأبهكار ٢ / ٣١٠ ب .

وبلغ من إجادته المناظرة أن ضرب به المثل ، حتى قال الصفدى يمدح أبا بكر الفاروقى - من شيوخ المنصورية ببغداد - : « لو ناظر السيف الآمدى قطعه ، أو الرازى ألقاه فى هوة رزئه » (١) .

وقد كان الجدل والخلاف من أكثر العلوم رواجاً فى ذلك العهد ؛ لدواعٍ يلوح إليها ابن خلدون فى المقدمة (٢) ، حتى ألف بعض المعاصرين للآمدى (٣) كتاباً فى « استخراج الجدل من القرآن الكريم » ، وهى محاولة شبيهة بمحاولة الغزالى استخراج المنطق من القرآن الكريم فى « القسطاس المستقيم » ، فلا عجب أن يهتم به الآمدى وهو الأصولى المتكلم الشغوف بالمناظرة ، ومن قبله ألف أبو الحسن الأشعرى كتاباً سماه (شرح أدب الجدل) (٤) ، وعُرف الباقلانى بمناظراته الفائقة (٥) ، وكذا أكثر رجال المذهب الأشعرى بعدهما .

وارتباط الجدل بالكلام كارتباطه بالفقه وأصوله ، فالكلام هو « الحجاج عن العقائد الدينية » (٦) ، حتى إن بعض العلماء السوريين المعاصرين جمع الأربعة فى مؤلف واحد (٧) ، ومن قبل جمع الرازى فى (معالم أصول الدين) بين العلوم الأربعة والخلاف (٨) ، غير أن صلته بالفقه وأصوله أوثق ؛ ولذا جعلت الكلام عنه هو وعلم الخلاف - وهو فقهى بحث - يأتى مع أصول الفقه ، وقد جمع ابن الحاجب بين كتابى الآمدى (منتهى السؤل فى علم الأصول) و (غاية الأمل فى علم الجدل) فى مختصره الذى ستأتى الإشارة إليه ، وذلك أن الخلاف وظيفته الموازنة بين آراء المجتهدين فى الفروع ، من حيث مأخذهم فى الاستدلال عليها ومسالكهم فى ذلك ، وحين استقرت المذاهب الأربعة وسادت ، وتوقف الاجتهاد أو قل ، اقتصر جهد العلماء على الموازنة بين آراء هؤلاء الأربعة ، والتناظر فى أيها أقوى دليلاً ، فنشأ علم الخلاف والمناظرة ، واعتبر

(١) تاريخ علماء المستنصرية ص ١٢٨ . (٢) ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٣) ناصح الدين أبو الفتوح عبدالرحمن بن الحنبلى المتوفى سنة ٦٣٤ . وقد طبع كتابه فى القاهرة سنة ١٣٤٣ .

(٤) مؤلفات الأشعرى ص ١٠١ .

(٥) انظر : أعلام الفلسفة العربية ٢٠٧ ، ٢٠٨ . (٦) كما يقول ابن خلدون فى المقدمة ص ٤٥٨ .

(٧) هو كتاب (المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل) تأليف الشيخ عبدالقادر بن بدران الدمشقى المتوفى

سنة ١٣٤٦ هـ ، مجلد واحد بالمطبعة المنيرية بمصر .

(٨) فخر الدين الرازى وآراؤه للزركان ص ٩٠ .

مجالا للدربة الفقهية والتطبيق العملى لقواعد الأصول التى لابد للمناظر من الإمام بها ، حتى إن ابن خلدون ليقول : « وهو لعمري علم جليل الفائدة فى معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ، ومران المطالعين له على الاستدلال (١) » .

ومن ثم ظهرت الحاجة إلى تحديد وظائف كل طرف من أطراف المناظرة ومسئوليته المختلفة ، وما يجوز له وما لا يجوز ، وشروط الأدلة المقبولة فيها ونحو ذلك ، فنشأ علم (الجدل) وتبعته (آداب المناظرة) ومن هنا تظهر العلاقة الوثيقة بين الفقه وأصوله من ناحية ، والجدل والخلاف من ناحية أخرى (٢) .

ولكن إذا كنا قد أشرنا إلى الظروف العلمية التى أدت إلى ظهور هذه العلوم ، وإلى آثارها الحسنة ، أو جوانبها الإيجابية ، فينبغى ألا نغفل أنها ربما كانت مظهرا من مظاهر تدهور الثقافة الإسلامية وانتقالها من طور الخصوبة والإبداع إلى دور الثبات والدفاع ، ومن ثم ، فليست - فيما أحسب - ظاهرة صحية تماما ، فضلا عما نجم عنها من أخلاقيات فى البحث والنظر غير متفقة مع روح الثقافة الإسلامية نفسها ، وهى الجدل فيما لا يبنى عليه عمل ، أو ينصر به حق ، واللدد فى الخصومة نتيجة المنافسة ، والرياء بسبب حب الغلبة وإظهار المهارة ، إلى غير ذلك من الأمور التى شكنا منها وثبته عليها بعض رجال هذا العهد كابن الجوزى فى كلامه الرائع فى (تلبيس إبليس) عن الآثار السيئة لهذه الدراسات نفسيا وعلميا واجتماعيا ، وقد نعى على معاصريه «عدم نصيح أحدهم خصمه بإظهار الحق ، متعللا بأنه لا يلزم حسب قواعد الجدل» (٣) ، وهى ناحية دقيقة أخذها ابن رشد على الإمام الغزالي من حيث منهجه فى «التهافت» (٤) . والحق أن المرء لا يملك إلا الأسى إزاء هذه المعارك الزائفة ، والبحوث العقيمة التى استنفذت الكثير من طاقة هذه الأمة ، بينما أخذت تتغلت من بين أصابعها أزمنة التاريخ .

ولعل الآمدى نفسه - وقد خاض هذه التجارب نظريا وعمليا - قد أحس بعدم جدواها وقصورها عن الإقناع ، وخاصة بالنسبة إلى الجماهير التى لا تنظر بعين الرضا إلى

(١) المقدمة ص ٤٥٧ . (٢) انظر المقدمة ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

(٣) تلبيس إبليس ص ١١٦ وهو يذكرنا بالحملة المماثلة للإمام الغزالي فى كتابه الإحياء ، دار الفد العربى ،

(٤) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ١١٧ ، ١١٨ . ١١٩٨٦ ، ٧٠ - ٨١ .

الاستدلال الجدلي معاركه ، لا اعتقادهم أن المنتصر فيها لم ينتصر لأن الحق معه ، بل لدبرته على الجدل والخصام ، يقول الآمدي في « كشف التمويهات »^(١) : « فالشيخ (يقصد ابن سينا) قدم الخطابة على الجدل ، لما أنه لا يفيد اليقين للخاصة ، وهي مفيدة بالقياس إلى نظر العامة ، فإن الجدلي إذا ألزمهم شيئا وأذعنوا للزومه ظنوا أن ذلك مغالطة أضلتهم ، وليس يتأتى لهم الجواب عنها ، وأن ذلك لقوة القائل لا لصواب القول ، ويكون عندهم أنه لو زادت قوتهم لقدروا عن الجواب عن ذلك ، وبالجمله فإنهم لاستنقاصهم أنفسهم لا يعلمون : هل الحق موجبٌ ذلك أو عجزهم ؟ فلا جرم لا يفيدهم ذلك اعتقادا . فثبت أن الصناعتين المفيدتين للناس تصديقا هما البرهان والخطابة ، فأما البرهان فيفيد اليقين للخاصة ، والخطابة تفيد الظن للعامة . وأما الجدل ففائده قليلة ، ومنفعته خاصة ؛ فلا جرم كانت الخطابة مقدمة على الجدل ، وعن هذا قيل في الكتاب الإلهي : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ ﴾ (أى البرهان) وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (أى الخطابة) وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿ (٢) ، أخر الجدل عنها لما ذكرنا .

وسأبدأ الآن بذكر مؤلفاته الأصولية ، ثم أتبعها بمؤلفاته في الخلاف والجدل :

أولا - أصول الفقه :

١- الإحكام فى أصول الأحكام :

ورد فى كشف الظنون (١ / ١٧) باسم (إحكام الأحكام) منسوباً للآمدي ، وكذا فى معجم المؤلفين لكحالة (٢ / ١٥٥) وذكر أنه فى مجلدين ، وذكر السبكي فى الطبقات (٥ / ١٣٠) أنه صنف (الإحكام - فى أصول الفقه) وفى مفتاح السعادة (٢ / ٤٢) أنه صاحب « إحكام الأحكام » وسماه ابن كثير (البداية والنهاية ١٣ / ١٤٠) « إحكام الأحكام فى أصول الفقه » - ويبدو أن هؤلاء جميعاً قد اختصروا اسم الكتاب ؛ فتابعهم بروكلمان مع تحريف وقع فيه ، إذ سماه (إحكام الحكم فى أصول الأحكام) (الأصل ١ / ٣٩٣) ومثله تماماً فى دائرة المعارف الإسلامية .

وقد ورد الكتاب باسمه الكامل الصحيح فى عدة مراجع منها : طبقات الشافعية

(١) ل ٥ ب .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل ، وقارن هذا التفسير للآية بما فى القسطاس المستقيم ١٠ ، ١١ .

لابن شهبة ، (ل ٤٧ من مخطوط دار الكتب) وهدية العارفين لإسماعيل البغدادي (٧٠٧/١) وفي الأعلام للزركلي (١٥٣/٥) ، وهذا موافق لتسمية المؤلف نفسه في مقدمة الإحكام (٦/١) ومقدمة منتهى السؤل أيضا (٣/١) .

وقد طبع هذا الكتاب بمصر أكثر من طبعة ، منها مطبعة المعارف سنة ١٩١٤م أربعة أجزاء في أربع مجلدات ، والطبعة التي نشرتها مؤسسة الحلبي سنة ١٩٥٦م ، أربعة أجزاء في مجلدين ، ولا فرق بينهما إلا أن الأخيرة - للأسف - مليئة بالأخطاء ، وكلتاها لم تحقق علميا (١) .

أما نسخته المخطوطة فكثيرة ، منها نسخة في مكتبة باريس الأهلية برقم ٧٩١ ، وأخرى في يكي جامع بتركيا تحت رقم ٣٠٣ ، وثالثة في مكتبة سليمان برقم ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، وفي الظاهرية بدمشق تحت رقم ١٢١٨/٢٧ ، ٦١٥/٢٤ ، وفي دار الكتب المصرية برقم ٣٧٧ أصول فقه ، وفي المكتبة التيمورية يوجد الجزء الأول برقم ٨٥ أصول فقه (٢) .

ويعد «الإحكام» أكبر مؤلفاته الأصولية الموجودة بأيدينا ، ومن أبرز الكتب في علم أصول الفقه ، وقد سلفت الإشارة إلى خصائصه ودوره في تطوير هذا العلم .

وهو يشير فيه إلى كتاب (أبكار الأفكار) (٣) وأحيانا يشير إلى كتبه الكلامية بصفة عامة (٤) ، وقد أهدى الآمدي هذا الكتاب إلى الملك المعظم (المتوفى سنة ٦٢٤هـ) كما سبق ، وتدل مقدمته المتضمنة لكلمة الإهداء على أنه لم يكن قد فرغ من تأليفه بعد ، وقد أشار صاحب كشف الظنون ، إلى أنه قد أتم تأليفه عام ٦٢٥هـ (٥) ، وكذا في معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس (٦) ، أي بعد وفاة المعظم .

هذا وقد نسب إلى الرازي - فخر الدين - أنه ألف كتابا في أصول الفقه بعنوان (إحكام الأحكام) (٧) ، كما ألف ابن حزم الظاهري كتابا باسم (الإحكام في أصول

(١) حققه ونشره شيخنا الشيخ عبد الرازق عفيفي .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ، وبروكلمان ، وفهرس دار الكتب المصرية ج ٣ ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٣) انظر : الإحكام ١٥/١ ، ٣١٩ . (٤) السابق ١/٣٢١ .

(٥) كشف الظنون ١٧/١ . (٦) ص ١٠ من المعجم المذكور .

(٧) انظر فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٩٢ .

(الإحكام) في نفس العلم وقد طبع بمصر ، والآمدى يتفق معه في هذه التسمية تماما .

٢ ، ٣ باب الألباب ، والترجيحات :

لقد رجحت من قبل أن للآمدى مؤلفات في أصول الفقه أسبق من كتابه «الإحكام» ، ويؤيد هذا إشارته في مقدمة كتابه المذكور إلى إنه قد أحاط من مسائل الأصول (لباب الألباب) كما قال في مقدمة «منتهى السؤل» الآتى ذكره : ولخصنا من ذلك «لباب الألباب» وقد نص مؤرخوه على أنه قد ألف (لباب الألباب) وإن لم يحددوا موضوع هذا الكتاب ، فنجد ذلك عند ابن خلكان في الوفيات (٢ / ٤٥٥) وابن أبى أصيبعة في الطبقات (٢ / ١٧٥) واليافعى في المرأة (٤ / ٧٤) وقد سماه «كتاب الألباب» وأعتقد أنه تحريف ، وصاحب كشف الظنون (٢ / ١٥٤٠) وأشار إلى أنه مذكور في «الأبكار» كما سيأتى التعرض لذلك ، ولكن الإشارات في مؤلفات الرجل نفسه^(١) ، تدلنا على أن هذا الكتاب في علم «أصول الفقه» ، وأنه سابق على تأليف الإحكام والمنتهى ، خاصة وقد أشار القفطى - كما أسلفنا - إلى أنه «قد قرئ عليه بمصر تصنيفه في أصول الدين وأصول الفقه» .

غير أن صاحب هدية العارفين (١ / ٧٧) ذكر لباب الألباب ، وقال : إنه «مجلد في المنطق» ، فهل رآه بنفسه ؟ لقد مرت بنا نماذج تدعونا إلى ألا نثق كل الثقة بما تذكره هذه المراجع عن محتويات الكتب ؛ فقد لا يستند إلى خبرة واقعية ولا إلى نظرة دقيقة .

على أن للآمدى كتابا آخر في مسألة من مسائل الأصول ، وهى الترجيح بين الأدلة المتعارضة ، وهو الموضوع الذى أفرد له الآمدى القاعدة الرابعة والأخيرة من كتابيه «إحكام الأحكام» ، و«منتهى السؤل» ، وقد أسماه «الترجيحات» ، وأحال عليه في آخر كتاب منتهى السؤل (٣ / ٧٨) ووضح أنه يمكن أن يعد في كتبه الأصولية ، كما يمكن أن يعد أيضا من جهة أخرى في كتب الخلاف والجدل ، كما أشار إلى ذلك ابن أبى أصيبعة في الطبقات (٢ / ٢٨١) ، والبغدادى في هدية العارفين (١ / ٧٠٧) وفى إيضاح المكنون (١ / ٢٨١) ، وهذان الكتابان (لباب الألباب، والترجيحات) لانعرف شيئا عن أماكن وجودهما .

(١) راجع ما مر فى ص ٨١ .

٤ - منتهى السؤل :

تذكر أكثر المراجع أنه مختصر لكتابه (الإحكام) ، والمقارنة بين الكتابين تؤكد ذلك ، من حيث تسلسل الموضوعات ، وما تحويه من مسائل رئيسة ، وإن كان أحيانا يعيد توزيع مسائل الموضوع الواحد توزيعا جديدا كما فعل في موضوع الترجيحات (ص ٣ / ٧٢ وما بعدها) ، وأيضا من حيث أسلوب العرض ، فالآمدى يبدأ فيهما دائما بذكر الآراء فى المسألة وتحقيقها ، وينتقل إلى تحرير محل النزاع فيها ، ثم إلى مناقشة الآراء المختلفة لاختيار أحدها ، أو الإدلاء برأى جديد ، أو التوقف^(١) . كما أنه يستشهد بنفس النصوص ، ويوردها بالفاظها فى الإحكام غالبا^(٢) ، كما أنه يذكر فى مقدمة المنتهى (كتاب الإحكام) قائلاً : «إنه ربما قصر البعض عن الإحاطة به لاتساعه وامتداده ... فرأيت النزول عن ذلك البسط العظيم إلى مختصر لائق بأفهام أبناء الزمان ... وسميته : منتهى السؤل فى علم الأصول» وهو يحيل على الإحكام فى مواطن عدة منه^(٣) ، مما يؤكد طبيعة العلاقة بين الكتابين ، وأن المنتهى مختصر للإحكام فعلا .

وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير فى تاريخ التأليف فى علم الأصول كما قلنا ، وذلك بعد أن اختصره ابن الحاجب فى كتابه (منتهى الوصول والامل فى علمى الأصول والجدل)^(٤) ، فقامت على شرحه عشرات الشروح فى القرون التالية له .

وقد طبع (منتهى السؤل) فى مصر بمطبعة محمد على صبيح (غير محددة التاريخ) وقد كان مقررا للدراسة فى الأزهر فى الثلاثينيات من هذا القرن كما تدل هذه الطبعة ، وهى ثلاثة أقسام فى مجلد واحد . أما نسخه الخطية فتوجد منها نسخة فى مكتبة الجامع الاحمدى بطنطا تحت رقم عام ٤٣٨ وخاص^(٥) ٦ ، وأخرى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢ أصول فقه ، وفى دمشق الظاهرية تحت رقم ٥٧ / ٦ .

وقد ورد ذكره منسوباً إلى الآمدى فى كشف الظنون (٢ / ١٨٥٧) ومرشد

(١) قارن مثلاً الإحكام ٩٥ / ٣ - ١٦٥ ومنتهى السؤل ٧٧ / ٢ - ٩٥ .

(٢) انظر مثلاً : منتهى السؤل ٢٣ / ٣ ، ٣٢ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٣) منتهى السؤل ٢٢ / ١ ، ٤٩ ، ٤٧ / ٢ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٢٢ / ١ / ٣ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٧٨ ،

(٤) طبع بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

(٥) فهرس مخطوطات الجامع الاحمدى د . النشار وآخرين .

الأنام (١/٧٩٠) والأعلام (٥/١٥٣) ودائرة معارف القرن العشرين (٢/٥٦٩) وفي بروكلمان (١/٣٩٣) وطبقات السبكي (٥/١٣٠) وووفيات الأعيان (٢/٤٥٥) وهدية العارفين (١/٧٠٧) ، ومفتاح السعادة (٢/٤٩) وطبقات الأطباء (٢/١٧٥) وطبقات الشافعية لابن شهبة (٤٧ب) وطبقات ابن الملقن (ل ١٧٥أ) ومرآة الجنان (٤/٧٤) .

ثانيا - الجدل والخلاف :

قد أشرت إلى دراسته المستفيضة لهذا العلم ، وأنه يعد من أكثر علماء عصره إنتاجا فيه ، ويؤكد هذا المجموعة الكبيرة من المؤلفات التي خلفها فيه ، شرحا لكتب سابقة أو تأليفا ، ونذكر ما أمكن معرفته منها فيما يلي :

١ - غاية الأمل في علم الجدل :

وهو عبارة عن شرح لكتاب السيد شهاب الدين المعروف بالشريف المراغي ، وهو أحد كتابين عني بهما الأمدى منذ بدأ دراسة الخلاف والجدل في بغداد ، حيث تُجمع المراجع على أنه حفظ طريقة الشريف المراغي ، ثم أضاف إليها طريقة أسعد الميهني (أبي سعيد أسعد بن أبي نصر الميهني المتوفى سنة ٥٢٧ بهمدان)^(١) ، وهما من أبرز المؤلفات في هذا العلم . فلما بلغ مرتبة التأليف حرص على أن يشرح كتاب المراغي في كتابه هذا ، ويبدو أنه ألفه في تاريخ مبكر نسبيا ، وأنه كان يعتز به بصفة خاصة من بين مؤلفاته العديدة في هذا الفن ، فنجدده يكرر هذه العبارة في الأبيكار : « وقد استقصينا تقرير ذلك ، ودفع مايرد عليه من الإشكالات في كتاب شرح الجدل وغيره من كتبنا »^(٢) .

وقد ورد ذكر هذا الكتاب عند ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (٢/١٧٥) باسم « غاية الأمل في شرح الجدل » مع الإشارة إلى أنه شرح لكتاب الشريف المراغي ، وفي طبقات السبكي (٥/١٣٠) باسم « شرح جدل الشريف » وكذا في وفيات الأعيان (٢/٤٥٥) ، وفي مرآة الجنان للياقعي (٤/٧٤) وفي مفتاح السعادة (٢/٤٩) وفي

(١) انظر ترجمته ومكانته في علم الخلاف في تبين كذب المفترى ص ٣٢٠ .

(٢) انظر مثلاً الأبيكار ل ١٣١٠/٢ ، ب .

إيضاح المكنون (٢٨١/١) باسم « غاية الأمل فى علم الجدل » وهدية العارفين (٧٠٧/١) والنسخة الوحيدة الموجودة من هذا الكتاب - فيما علمت - تستقر الآن فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٣١٨ كما ذكر بروكلمان .

٢- المآخذ الجلية فى المؤاخذات الجدلية :

ذكره ابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء (١٧٥/١) والبغدادى فى هدية العارفين (٧٠٧/١) وفى إيضاح المكنون (٢٨١/١) باسم (المؤاخذات فى الخلاف) ، ولم نعرف عن هذا الكتاب غير اسمه الذى يشير إلى موضوعه .

٣- دليل متحد الائتلاف ، جار فى جميع مسائل الخلاف :

تشير إليه بعض المراجع - مثل عيون الأنباء (١٧٥/٢) - كما لو كان هو نفس كتاب « المبين » الآتى ذكره إلا أن كتاب المبين ، - وقد تيسرت لى قراءته (١) - لعلقة له بمسائل الخلاف . وإنما هو يشرح المصطلحات الفلسفية والكلامية ، ويذكره البغدادى فى إيضاح المكنون (٢٨١/١) ككتاب مستقل ، وكذا فى هدية العارفين (٧٠٧/١) ولا نعرف الآن عن هذا الكتاب إلا اسمه الذى يشير إلى أنه من الكتب الخلافية على الأرجح .

٤ ، ٥ التعليقة الكبيرة ، والتعليقة الصغيرة :

ذكرهما ابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء (١٧٥/٢) والبغدادى فى إيضاح المكنون (٢٨١/١) ونص على أنهما فى الخلاف ، وذكر فى هدية العارفين (٧٠٧/١) أن له (التعليقة الصغيرة فى الخلاف) ثم ذكر أن له أيضا (طريقة فى الخلاف) ، وجاء فى كشف الظنون (١١١٣) أن له (طريقة فى الخلاف) وأنه ذكرها فى كتاب « الأبهكار » وفى وفيات الأعيان (٤٥٥/٢) : « وله طريقة فى الخلاف ومختصر فى الخلاف أيضا » وفى مرشد الأنام (٧٩٠) : « وله طريقة فى الخلاف وتعليقة حسنة » ومثله تماما فى مفتاح السعادة (٤٩/٢) ، وفى مرآة الجنان (٧٤/٤) ، وفى طبقات الشافعية للسبكي أيضا (١٣٠/٥) ، وفى طبقات ابن شهبة (٤٧٤ب) : « وله طريقة فى الخلاف » .

(١) تم تحقيقه ونشره بعد ذلك فى القاهرة عام ١٩٨٣م ، وأعيد إصداره فى طبعة ثانية عام ١٩٩٢م .

وقد يظن من هذا ، أننا بإزاء أربعة كتب : التعليقتين والطريقة والمختصر ، ولكن الذى أرجحه أنهما كتابان فقط وهما : الطريقة فى الخلاف ، وهو الذى يسمى أحيانا بالعليقة الكبيرة ، والمختصر فى الخلاف أو التعليقة الصغيرة كما يسميه البعض ، وذلك لأن كلمة « تعليقة » و« طريقة » يذكّران بمعنى واحد فى كتب علم الجدل والخلاف ، كما يقول ابن عساكر فى تبیین كذب المفترى (٣٢٠) عن طريقة أسعد الميهنى المشهورة : « وعلق عنه جماعة من الفقهاء ، واثقفوا بطريقته ، ونسخ بتعليقته سائر التعاليق .. » كما أن المراجع التى تذكر التعليقتين تهمل الطريقة والمختصر ، والتى تذكر هاتين لاتشير إلى التعليقتين .

والذى يؤسف له أننا لانعرف عنهما شيئا سوى الاسم ، وأما ما ذكر فى كشف الظنون من أن الآمدى أشار إلى طريقته فى الخلاف فى كتابه « الأبكاري » فلم أجده مصرحا بذلك ، والذى ذكره صريحا هو (شرح الجدل) ، ثم يقول : وغير ذلك من كتبنا ...

أما كتاب الترجيحات فيمكن أن يعد فى مؤلفاته الجدلية ، كما فعل بعض مؤرخيه ، ولكنه يدرس أصلا مسألة من مسائل الأصول اقتطعت لتكون موضوعاً لكتاب مستقل ، والمؤلف نفسه يحيل عليها فى مؤلفاته الأصولية ، فلذا ذكرتها هناك ، والأمر فى ذلك قريب .

ب- الفلسفة :

قلنا : إن الآمدى كان قد بدأ دراسته الفلسفية على يد شيخه ابن فضلان الذى كان بارعا فى المنطق ، وأنه استكمل دراسته تلك على أيدي نصارى بغداد ، وإن لم نعرف أساتذته منهم على وجه التعيين (١) .

وقد غادر الآمدى بغداد إلى الشام ، حيث واصل دراسته للفلسفة ومهر فى المعقولات كما يجمع مؤرخوه ، وإن لم يذكر أحد منهم أية تفاصيل بهذا الشأن ، ولا يبعد أن يكون الرجل قد اعتمد على نفسه فى ذلك بعد القدر الذى حصله فى بغداد .

(١) انظر التراث اليونانى ١٣٢ ، ١٣٣ .

وللآمدى اهتمام خاص بكتب ابن سينا ، فقد شرح الإشارات فى كتابه (كشف التمويهات) وهو يشير فيه إلى كتاب الشفاء^(١) ، وإلى مؤلفات ابن سينا الطبية^(٢) ، وكثيرا ما يشير إليه فى الأبحاث بقوله : « إنه أفضل المتأخرين » ، كما يصفه فى غاية المرام بالفيلسوف المتأخر^(٣) . وهو يعرض أيضا فى المآخذ لأقوال ديمقريطس وطاليس وغيرهما^(٤) ، ويشير فى « الأبحاث » إلى الحكماء السبعة « من أهل ملطية وأثينية » ويذكر أنهم قائلون بحدوث العالم^(٥) ، ويشير إلى قول « المشائين والرواقيين » بقدوم العالم فى غاية المرام^(٦) ، ويعرض ، فيما يتعلق بتعريف الإدراك الحسى لقول الرياضيين والطبيين من الفلاسفة ، ولرأى جالينوس أيضا ، ويناقش ذلك^(٧) . كما يتعرض فى مواضع عديدة من كتبه لنظرية الفيض ولخلود النفس وتفسير النبوة عند « فلاسفة الإسلام » ويناقشها وغيرها من المسائل كما سيأتى تفصيلا ، مما يؤكد قول ابن تيمية عنه : « لم يكن فى وقته أكثر تبجرا فى العلوم الكلامية والفلسفية منه »^(٨) .

ومع ذلك نجد ابن تيمية يبدى رأيا فى ثقافة الآمدى الفلسفية لانوافق عليه ؛ إذ يقول فى مقام آخر « ولكن كثيرا من هؤلاء المتأخرين لا يعرفون من مذاهب الفلاسفة إلا ما ذكره ابن سينا كأبى حامد الغزالي والرازي والآمدى وغيرهم »^(٩) وأحسب أن كلامه الأول أقرب إلى الحقيقة . وإلا فهل يعتبر من يقرأ كتب ابن سينا فقط متبحرا فى العلوم الفلسفية ؟ إلا أن يكون المراد أنه متأثر بطريقة ابن سينا وآرائه . وعندئذ فلا يمكن البتة فى هذا الأمر ما لم نطلع على آثاره الفلسفية بالقدر الذى يتيح لنا ذلك ، أما مؤلفاته الفلسفية فهى :

١ - النور الباهر فى الحكم الزواهر :

وقد ذكره البغدادي فى هدية العارفين^(١٠) ونص فيه على أنه يقع فى خمس مجلدات ، ويوجد فى دار الكتب العمومية باستانبول ، كما ذكر فى كتابه (إيضاح

(١) انظر مثلا : لوحة ٦ ب من كشف التمويهات . (٢) انظر المرجع السابق لوحة ١٦ ، ب .

(٣) انظر غاية المرام ص ١٠ . (٤) انظر المآخذ ل ١١٤ ، ١٥٠ .

(٥) انظر الأبحاث ١ / ١٨٥ . (٦) غاية المرام ل ١٩٦ .

(٧) انظر الأبحاث ١ / ١١٠٣ - ١١٠٩ . (٨) نقض المنطق ص ١٥٦ .

(٩) الموافقة لابن تيمية ٢ / ٢٥١ . (١٠) انظره ١ / ٧٠٧ .

المكتون) أن كتاب غاية الأمل هو لسيف الدين الآمدى صاحب «الباهر فى الحكم الزواهر»^(١) . ولعله أكبر كتبه الفلسفية ؛ فقد ذكروا أن كتابه (أبكار الأفكار) الذى يقع فى ١٢٠٠ صفحة يقع فى أربع مجلدات ، وهذا خمس مجلدات ، كما ذكر صاحب مفتاح السعادة أن له «كتاب الباهر فى علم الأوائل والأواخر - خمس مجلدات كبار»^(٢) .

٢- دقائق الحقائق :

وهو من أهم كتبه الفلسفية ومن أقدمها تأليفا - فيما نعلم - إذ يشير إليه فى كتابه الأبكار ويحيل عليه وحده ، أو مع كتابه الآخر (رموز الكنوز) ، ويقول أحيانا: «دقائق الحقائق وغيره من كتبنا المخصوصة بهذا الفن»^(٣) ، وقد ذكره القفطى فى (إخبار العلماء)^(٤) ، غير أنه سماه (كتاب الحقائق فى علم الأوائل) ونص على أنه ثلاث مجلدات ، كما ذكره ابن خلكان فى وفيات الأعيان^(٥) ، وابن كثير فى البداية والنهاية^(٦) وقال : إنه فى الحكمة ، وابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء^(٧) ، وابن شهبة فى طبقاته^(٨) ، واليافعى فى مرآة الجنان^(٩) ، والزركلى فى الاعلام^(١٠) ، وبروكلمان^(١١) وذكر أنه فى المنطق ، وأنه يوجد فى مكتبة البارودى ببيروت ، كما ورد فى مجلة المجمع اللغوى بدمشق^(١٢) وكحالة فى معجم المؤلفين^(١٣) ، مع النص على أنه فى الحكمة ، وصاحب مفتاح السعادة^(١٤) ، وسماه (كتاب الحقائق فى علوم الأوائل ٣ مجلدات) وحاجى خليفة فى كشف^(١٥) الظنون ، وذكر أنه مجلدات فى الحكمة ، والبغدادى فى هدية العارفين^(١٦) مع النص على أنه فى الحكمة . وقد ذكره أيضا ابن

- | | |
|---|--|
| (١) انظره ٢٨١/١ . | (٢) انظره ٤٩/٢ . |
| (٣) انظر الأبكار ١٥/١ ، ١٣٢ ، ب ، ٣٧ ، ب ، ٢٩٩ ، ب ١٢/٢ ، ١٨٥ . | (٤) لوحة ١٧٠ - النسخة المخطوطة . |
| (٥) انظره ٤٥٥/٢ . | (٦) انظره ١٤٠/١٣ . |
| (٧) انظره ١٧٥/٢ . | (٨) انظر طبقات الشافعية له لوحة ٤٧ ب . |
| (٩) انظره ٧٤/٤ . | (١٠) انظره ١٧٣/٥ . |
| (١١) انظره ٣٩٣/١ . | (١٢) انظره مجلد ٧/١٣٤ . |
| (١٣) انظره ١٥٥/٧ . | (١٤) انظره ٤٩/٢ . |
| (١٥) انظره ٧٥٨/٢ . | (١٦) انظر ٧٠٧/١ . |

تيمية فى موافقة صحيح المنقول منسوباً للآمدى ، وأشار إلى أنه ذكر فيه حقائق تختلف عما ورد فى كتابه أبكار الأفكار^(١) ، كما أشار إليه أيضاً فى كتابه (نصيحة أهل الإيمان)^(٢) .

وهناك عدة ملاحظات حول هذا الكتاب :

أولاً - بشأن تسميته ، فإننى أرجح أنها (دقائق الحقائق) كما ذكره المؤلف نفسه فى كتابه (الأبكار) فى عدة مواضع كما سبق ، واتفق عليه أكثر المؤرخين ، ولعل من اقتصر على (الحقائق) إنما قصد الاختصار .

ثانياً : وأما عن موضوعه فهو الفلسفة بصفة عامة ، وليس المنطق فقط كما ذكر بروكلمان ، ويدل على ذلك مايلى :

١- مذكرته المراجع القديمة من أنه (فى علوم الأوائل) أو (فى الحكمة) كما مرّ وهى تشمل المنطق وغيره .

٢- مذكره المؤلف نفسه فى الأبكار ، فمن ذلك عرضه لرأى الفلاسفة فى الحركة والسكون ، وقوله بعد ذلك : « وقد استقصينا ذلك فى دقائق الحقائق وغيره من كتبنا ، وحققناها فيه ؛ فعليك بمراجعته »^(٣) . كما عرض لاختلاف الفلاسفة حول قدم العالم وحدوثه ، ثم قال : إنه استقصى ذلك فى (دقائق الحقائق ورموز الكنوز)^(٤) . وتلك مسائل من صميم الفلسفة ، وليست من مسائل المنطق . وهناك إحالات أخرى تؤكد ذلك^(٥) ، وإن كان يحيل أيضاً على نفس هذا الكتاب بشأن بعض المسائل المنطقية ، كما فعل حينما عرض لمسألة المقولات العشر ، وغيرها^(٦) ، وكما فعل فى كتاب (الأحكام) بشأن مسألة التصورات ، وهل هى كسبية أو ضرورية^(٧) .

ثالثاً - وأما عن أماكن وجوده الآن : فقد جاء فى المجلد الخامس من مجلة المجمع

(١) الموافقة - طبع انصار السنة ٢/ ٢٤٨ .

(٢) انظر جهد القريحة - ملحق بصون المنطق للسيوطى ص ٢٤٤ .

(٣) الأبكار ٢/ ٥٣ ب . (٤) السابق ٢/ ١٨٥ .

(٥) السابق ٢/ ١٢٠٩ ، إذ يعرض لحقيقة النفس وآراء الفلاسفة فيها ، ويحيل على دقائق الحقائق .

(٦) السابق ١/ ٢٩٩ ب . (٧) انظر الأحكام ط ١٩٦٦ ١/ ١٣٠ .

العلمي بدمشق سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦ م ص ١٣٣ - ١٣٥ مقال عن محتويات مكتبة البارودي في بيروت بقلم السيد عيسى المعلوف فيه مايلي : « دقائق الحقائق في المنطق وهو الجزء الأول ، لعلّ بن أبي على الأمدى ، في نحو ٥٠٠ صفحة ، وفيه اعتراضات على المناطق واصطلاح اليونانيين وغيرهم في تعريف الحدود والأجناس ، وإطالة في شرح الكليات والأقيسة ، ويزيد النسخة أهمية أنها قرئت على المصنف المتوفى (كذا) سنة ٦٠٨ هـ وهي بغاية الدقة والضبط » وكلمة « المتوفى » هنا مقحمة خطأ - كما هو واضح - ويبدو لي أن بروكلمان قد اعتمد على هذه البيانات فيما قرره ، من أن الكتاب في علم المنطق، ومن البيانات السابقة يظهر أنه ألف في القاهرة، قبل مغادرة الأمدى لها مهاجراً إلى الشام .

وقد انتقلت هذه النسخة من ذلك الكتاب إلى أمريكا ضمن مابيع من مكتبة البارودي المذكورة ، إذ نجد في فهرس المخطوطات بمكتبة جامعة برنستون ص ٢٧٠ ، أنه يوجد « لسيف الدين أبي الحسن على بن أبي على بن محمد الأمدى كتاب اسمه (دقائق الحقائق) عدد صفحاته ٢٣٧ مقاسها ٢١,٥ X ١١,٨ سم ، وقد كتب على غلافها الخارجى ١٧ X ١٠ سم وفي كل صفحة ثلاثة وعشرون سطرا ، على ورق شرقى لامع ، نسخت بخط واضح قليل الإعجام ، وهو عبارة عن الجزء الأول من المؤلف الكامل الذى يضم المنطق والطبيعيات ، وما وراء الطبيعة . وهذا الجزء يتناول المنطق وبعض مسائل الفلسفة « ثم ذكر بداية هذا الجزء وهى « نحمد الله على نعمائه ، وإسباغ عطائه . الخ ، وخاتمته وهى : « نجز الجزء الأول ، والحمد لله رب العالمين ، وسلامه على رسله أجمعين » ثم يضيف كاتب الفهرس المذكور أنه توجد تعليقات وإضافات بهامش الكتاب ، وأنه توجد فى خاتمته إشارة إلى بداية الجزء الثانى ، كما يوجد بجانب العنوان ما يؤكد أن هذه النسخة كتبت فى حياة المؤلف ، والمخطوطة فى حالة جيدة ، لكنها متآكلة من أثر الحشرات مجلدة تجليدا شرقيا مطبوعة بخاتم ذى علامة ، ثم يختم هذه البيانات بقوله : « ومن الواضح أن المخطوطة فريدة ونادرة » وأرجح أنه تم الحصول عليها من بيروت (١) .

(١) حصلت مكتبة كلية دار العلوم على نسخة مصورة عن المجلد الأول المحفوظ بمكتبة جامعة برنستون من كتاب (دقائق الحقائق) في أوائل السبعينات، وهي تؤكد البيانات التي أسلفناها في الصفحات السابقة عن طبيعة الكتاب .

ولانعرف شيئا عن نسخ أخرى من هذا الكتاب أو باقى أجزاء النسخة المذكورة آنفاً، غير أنه يوجد فى رسالة (فخر الدين الرازى وآراؤه) للمرحوم صالح الزركان ضمن الكتب المشكوك فى نسبتها إلى الرازى - مايلى : «دقائق الحقائق : نسب هذا الكتاب إلى الرازى فى فهرس اصفية بحيدار آباد برقم ٥١٥ - مطبوع ومترجم إلى الاوردية ، وجامعة ابروين برقم ٢٦٢ إلهيات - ولم أجد من يذكره غير بروكلمان فى الملحق ١/ ٩٢٣) ثم يقول : «ولعله لسيف الدين الآمدى المتوفى سنة ٦٣١ فقد ذكر له حاجى خليفة رسالة بهذا الاسم فى كشف الظنون ٢/ ٧٥٨». وتوجد نسخة من هذا الكتاب بمانشستر بالإنجلترا برقم ٢٦٢ وثلاث فى جامعة برنستون بأمريكا بالأرقام ١٠٠٢هـ، ١١٣٩هـ، ١٠٠٣هـ.

ولكن فهرس المكتب الهندى للمخطوطات العربية ، يذكر كتابا اسمه (دقائق الاخبار عما فى القرآن والحديث مما يتصل بأحوال أهل الجنة والنار) تتفق محتوياته تماما مع ما فى نسخة مانشستر، ونسخ برنستون الثلاث المذكورة، ويشير أيضا إلى أن منه نسخة فى برلين برقم ٢٧٧٨ ف ف . ويذكر أن الكتاب تأليف حمزة بن يوسف بن خليفة . فتلك هى حقيقة الكتاب الذى نسب خطأ إلى الرازى ، وظن أنه للآمدى ، وهو فى الحقيقة لغيرهما ولا علاقة له بكتابنا «دقائق الحقائق» .

٣- رموز الكنوز :

ذكره البغدادى فى هدية العارفين^(١) وقال : إنه كتاب فى الحكمة ، وابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء^(٢) ، وذكره مستقلا عن «منايح القرائح» ، وابن تيمية فى (النصيحة)^(٣) ، غير أن ابن خلكان يقول فى وفيات الأعيان^(٤) : «فمن ذلك كتاب أبكار الافكار فى علم الكلام ، اختصره فى كتاب سماه : منائح القرائح ورموز الكنوز» وقد نقل اليافعى نفس العبارة فى مرآة الجنان^(٥) ويقول صاحب كشف الظنون^(٦) : «وله أبكار الافكار فى الكلام .. ومختصره رموز الكنوز له أيضا» .

والحق أن المنايح والرموز كتابان مختلفان ، وأن الثانى ليس مختصرا للأبكار ، بل

(٢) انظره ١٧٥/٢

(١) انظره ٧٠٧/١ .

(٤) انظره ٤٥٥/٢

(٣) انظر جهد القريحة ص ٢٤٤ .

(٦) انظره ٤/١ .

(٥) انظره ٧٤، ٧٣/٣ .

هو كتاب فى الفلسفة والأبكار فى أصول الدين، والذي يؤكد ذلك ما ذكره المؤلف فى الأبكار^(١)، إذ يذكر المقولات العشر ويقول: «ومن أراد معرفة حقيقة كل واحد من هذه الأجناس، على طريق الاستقصاء، فعليه بمراجعة دقائق الحقائق ورموز الكنوز»، وفى موضع آخر يشير إلى الفلاسفة السابقين على أرسطو ورأيهم فى حدوث العالم. ويذكر أنه استقصى ذلك فى دقائق الحقائق ورموز الكنوز^(٢)، فهذا يؤكد لنا أنه كتاب فى الفلسفة لا فى علم الكلام، وأنه سابق على (الأبكار) فكيف يكون اختصارا له؟.

وقد سبق أن نقلت عن ابن أبى أصيبعة أنه قرأ بنفسه على الآمدى كتاب (رموز الكنوز فى الحكمة) لمودة أكيدة كانت بينه وبين أبيه، ولم يكن الآمدى يدرس الفلسفة بدمشق إلا للخوادم من التلاميذ، فهذا - مع الإحالات المشار إليها - يدلنا على طبيعة الكتاب وموضوعه.

ومما يؤكد ذلك أيضا قول ابن تيمية فى (نصيحة أهل الإيمان) - كما نقل السيوطى^(٣) فى جهد القريحة - عن الفلاسفة وأتباعهم: «وعامة فلسفتهم الأولى وحكمتهم العليا من هذا النمط، وكذلك من صنف على طريقتهم كصاحب المباحث المشرقية، وصاحب حكمة الإشراق، وصاحب (دقائق الحقائق ورموز الكنوز) وهو يشير بذلك إلى الرازى والسهروردى والآمدى، ومؤلفاتهم الفلسفية.

ومن عجب أن يذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون^(٤) هذا الكتاب ثم يقول: «المذكور فى الأبكار، اختصره من كتابه أبكار الأفكار»، ولا يفتن إلى تناقض الأمرين، على أن موضوع الكتابين مختلف كما يظهر من نصوص المؤلف التى أشرت إليها^(٥).

(١) الأبكار ٢٩٩/١ ب.

(٢) السابق ١٨٥/٢.

(٣) جهد القريحة ص ٢٤٤ ضمن كتاب (صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام) للسيوطى.

(٤) انظر كشف الظنون ٧٥٨/١.

(٥) هذا ويوجد فى مكتبة الأزهر كتاب اسمه (رموز الكنوز) برقم ١٢٥ عام ٢٥، خاص وهو عبارة عن منظومة لمؤلف مجهول، نسخ عام ١١١٠ هـ أولها:

وهو الذى يظهر من وقف السواد لمن تأمل الحديث والمراد

ولعلها لكمال الدين محمد بن موسى بن عيسى البويرى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ إذ يوجد له فى (فهرست مخطوطات برنستون - ص ٥٤١) كتاب بهذا الاسم برقم ٨٩١. وهو عبارة عن أرجوزة من ٢٠ ألف بيت فى الفقه الشافعى والإلهيات والنحو، عليها هوامش وتعليقات وبحالة جيدة، ويحتمل أنها نسخت فى القرن ١٧ م وهى نادرة جدا، وقد تم الحصول عليها من بريل - ليدن سنة ١٩٠٠ م وواضح ألا علاقة بينها - على كل حال - وبين كتابنا.

٤ - كشف التمويهات :

وهو من أهم كتبه الفلسفية ، وقد ألفه - أو أتم تأليفه - قبل سنة ٦١٧ هـ ، بحماسة وأهداه إلى أميرها « المنصور بن تقى الدين » ويبدو أن هذه الفترة ، والفترة السابقة عليها التى قضاها الآمدى بمصر ، كانتا أحفل مراحل حياته بالعمل فى حقل الفلسفة تعليماً وتأليفاً .

وفى النسخة التى أتيحت لى الاطلاع عليها ، يشير الآمدى إلى أهمية كتاب (الإشارات والتنبيهات) ، ودقته ، وغموضه أحياناً ، وإلى طول اهتمامه به ، واشتغاله بالتعليق عليه وشرحه ، حتى بدا له أن يقدم ذلك الشرح خدمة لمن يكتفى عنه بقوله : « فلان حرس الله علّاه ، فإنه الواقف فى نهايات أقدام الحكماء ، والعالم بتفاوت درجات العلماء ، والمحقق الذى يُشار إليه فى الآفاق .. وطالما كنت أطلب من يعرف ماتعلمته فى تحصيل هذا الشرح من المشاق ... فلما انتهيت إلى حضرته .. ومررت بعبثته ... وعرفت التفات خاطره إلى إتمام شرح هذا الكتاب ، لاجرم خضت فى تيار بحاره (١) . الخ » وهو هنا يشير إلى أمير حماة المنصور بن تقى الدين كما صرح بذلك ابن أبى أصيبعة (٢) . ومن الملاحظ أن الآمدى لم يُهدِ كتبه إلا للعلماء من الأمراء وهم : الملك المعظم ، والمنصور ، والعزیز .

وإذا أمكننا الإطلاع على النسخة الكاملة من هذا الكتاب ، فستعطينا بُعداً جديداً لثقافة الآمدى وإنتاجه العلمى ، وهو الكتابة فى التصوف شرحاً للجزء الأخير من (الإشارات) ، وهو جانب نفتقده فى سائر كتبه المعروفة الآن .

بقيت كلمة عن أماكن وجود هذا الكتاب وحقيقة موضوعه :

توجد نسخة من هذا الكتاب بمكتبة المتحف البريطانى بلندن برقم ٢٥٣ شرقى ، إلا أنها عبارة عن قطعة من الكتاب تبلغ ٣٣ صفحة فقط ، تنتهى عند بداية الكلام على القضايا والتركيب الخبرى ، وقد نقلت عنها نسخة مصورة (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، طبعت عنها صورة لمكتبة دار العلوم ، وقد قرأتها ، وعليها اعتمدت فى وصف الكتاب وتحديد مضمونه .

وقد ذكر الأستاذ الزركان في بحثه عن الرازي^(١) أن للآمدى كتابا اسمه المآخذ ينتقد فيه شرح الرازي على الإشارات ، ثم أحالنا على مفتاح السعادة وعلى مؤلفات ابن سينا للأب قنواتي .

وقد ذكر الأب قنواتي أن الآمدى ألف كتابه (كشف التمويهات) ضد فخر الدين الرازي ، وأنه توجد منه نسخة بالمتحف البريطاني (شرقى ١٣٩ - ١٤٠) وأخرى في برلين برقم ٥٠٨٤ وثالثة في جاز الله بتركيا برقم ١٣١٣ وهو أيضا يعتمد على صاحب (مفتاح السعادة) الذى ذكر أن للآمدى كتاب (المآخذ على الإمام الرازي فى شرح الإشارات - مجلد)^(٢) وهو يتفق فى هذا مع القفطى فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء^(٣) .

ولى فى هذا الصدد بعض الملاحظات :

(١) أنه من الخطر قبول المعلومات المكتوبة ، التى ترد فى المراجع عن مؤلفات العلماء قبل تمحيصها وتوثيقها ، وذلك لأن هذه المعلومات لاتستند أحيانا إلى خبرة واقعية بالكتب نفسها .

(ب) أن صاحب مفتاح السعادة كان فى بياناته ، عن الآمدى وكتبه ، مجرد ناقل عن القفطى كما سبقت الإشارة ، ولكن مواطنه البغدادى - صاحب هدية العارفين وإيضاح المكنون - تدل بياناته على بحث أدق ، ومشاهدة للكتب التى يوردها ، بدليل أنه يحدد أحيانا حجمها ومكان وجودها ، كما أنه يورد تفاصيل لاتوجد عند غيره ، ويكفى أنه ذكر لنا فى هدية العارفين (١ / ٧٠٧) من مؤلفات الآمدى ٢٢ مؤلفا ، انفراد هو بثلاثة منها لم يذكرها غيره ، وهى (النور الباهر فى الحكمة) ونص على أنه موجود بدار الكتب العمومية باستانبول ، « وفرائد الفوائد » ونص على أنه مجلد فى الحكمة ، وكتاب الغرائب وكشف العجائب فى الاقترانات الشرطية « مجلد » ، وهو يذكر كتابنا هذا فى هدية العارفين (١ / ٧٠٧) قائلا : « وله من الكتب كشف التمويهات فى شرح التنبيهات » وكذا فى كتابه إيضاح المكنون (٢ / ٣٥٨) دون أن يشير فيهما إلى

(٢) مفتاح السعادة ٤٩ / ٢ .

(١) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٧٢ .

(٣) إخبار العلماء للقفطى ل ١٧٠ .

المآخذ، أو نقد الرازى فى شرحه للإشارات ، وقد مر بنا أنه توجد بمكتبة جاز الله نسخة من شرح الآمدى هذا .

(ج) أن النسخة التى تيسرت لى قراءتها من كشف التمويهات - وإن كانت ناقصة - لاتدل مطلقا على نقد الرازى كما يذكر القفطى ومن تابعه ، ولاعلى نقد إشارات ابن سينا نفسه ، كما يذكر خبراء معهد المخطوطات بظاهر هذه النسخة ، بل هى مجرد شرح دقيق محايد لكلام ابن سينا فى الإشارات ، يعتمد فيه أحيانا على مؤلفات أخرى لابن سينا كالشفاء وغيره .

ولو صح أن الآمدى وضع هذا الكتاب نقدا لشرح الرازى ، لقد كان من الواجب أن يشير فى مقدمة كتابه إلى هذا الكتاب الذى ينقده - كما فعل الطوسى فى شرحه (١/١٦١ - ١٦٣)، ولكننا لانجد أى إشارة إلى ذلك ، بل إنه لا يذكر عبارة (كشف التمويهات) التى يبدو أنها أحد الاسباب فى اعتباره تعقيا ونقدا لشرح الرازى ، مع أنه يحرص فى المقدمات عادة على ذكر اسم الكتاب .

وأمر آخر ، وهو أن من تعرضوا لشرح الرازى بنقد ، كالطوسى ، أو بالموازنة بينه وبين الطوسى فيما بعد ، كالقطب التحتانى المتوفى سنة ٧٦٦ صاحب كتاب (المحاكمات بين الإمام والنصير الطوسى) الذى طبع بمصر سنة ١٢٩٠ هـ لا يشير أى منهما إلى شرح الآمدى ، مع أنه فى نفس الموضوع كما يدعى ، رغم أن الطوسى يشير إلى كلمة بعض (الظرفاء) عن شرح الرازى «إنه جرح لا شرح»، بل إن كتبنا سابقة وتالية للقطب التحتانى تصدر خاصة بالمحاكمة بين الرازى والطوسى فقط ككتاب محمد بن سعيد اليمنى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ باسم (المحاكمة بين نصير الدين والرازى) وقد طبع بطهران ، وكتاب محمد الاصفهاني (المحاكمة بين نصير الدين والإمام فخر الدين الرازى) فلم تواطأ الجميع على إغفال الآمدى ، وهو فى المكانة الفلسفية مثل الطوسى ، وهما متعاصران تقريبا ؟ .

ولذا ، فإننى أقرر أن كلا من «المآخذ» و«كشف التمويهات» كتاب مستقل له موضوعه الخاص؛ هذا شرح للإشارات مستقل عن شرح الرازى، وذلك على الأرجح فى علم الكلام تلخيص ونقد لكتاب المطالب العالية للرازى ، وإن كان الأمر لا يزال بحاجة

إلى مزيد من البحث والدراسة لكتاب « المتأخذ » المشار إليه، والإطلاع على وثائق أخرى، كالنسخة الكاملة من كشف التموهيات .

٦ - المبين فى شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين :

وهو - كما يبدو من اسمه - فى تعداد المصطلحات الفلسفية والكلامية، وإن كانت الكثرة الساحقة منها فلسفية - وهذا موضوع الفصل الأول منه ، ثم بيان معانيها المختلفة ، وهو موضوع الفصل الثانى منه ، والكتاب يقوم على هذين الفصلين بعد مقدمة موجزة ، يشير فيها إلى اعتزامه تقديم (هدية سنية من الأمور العلمية والآثار النفسية .. إلى المولى الصديق الفاضل ، الحبر الكامل ، رئيس العلماء ، وسيد الفضلاء ... خاصة أمير المؤمنين .. وذلك لشرف إخائه إلى ، وكريم امتنانه على .. حتى أشار - أعلى الله مراتبه - بوضع مختصر جامع لشرح الألفاظ المتداولة فى اصطلاح الحكماء والمتكلمين ، ليكون هداية للمبتدئين ، وتذكرة للمنتهين .. » مما يوحى بأنه يهديه إلى أمير حماة الذى كانت علاقة الآمدى به أشبه بالأخوة والولاية، منها بالتبعية والرعاية ، وقد أهدى إليه الآمدى أيضا كتابه (كشف التموهيات فى شرح الإشارات) لاهتمامه بالدراسات الفلسفية ومعرفته بقيمتها .

وقد ذكر هذا الكتاب بين كتب الآمدى ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء (١٧٥ / ٢) والبغدادى فى هدية العارفين (٧٠٧ / ١) وفى إيضاح المكنون (٣٢٧ / ٢) والبستانى فى دائرة المعارف (ط سنة ١٩٥٦) وقال إنه : نشر فى مجلة المشرق المجلد ٤٨ لسنة ١٩٥٤ . وذكره بروكلمان منسوباً إلى فخر الدين الرازى ، يقول الأستاذ الزركان فى بحثه عن الرازى : (المبين : لم يذكره أحد من المؤلفين) (يقصد منسوباً إلى الرازى) إلا بروكلمان ، غير أنى رجعت إلى فهرس آيا صوفيا ٢٣٨٤ وهو الرقم الذى أشار إليه بروكلمان ، فلم أجد كتاباً بهذا العنوان، لا للرازى ولا لغيره ولا أظنها إلا إحدى غلطات بروكلمان وخلطه بين كتب الرازى والطوسى^(١) وقد خلط بروكلمان هذه المرة - غير منقص ذلك من قدره - بين الآمدى والرازى ، كما صنع فى كتاب (دقائق الحقائق للآمدى) إذ نسبه إلى الرازى ، كما ذكر الأستاذ الزركان

(١) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ١٥١ .

فى بحثه عن (الرازى وآراؤه) (ص ١٣٣) وتوجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب
الظاهرية بدمشق برقم ٩١٩٩ عام .

وقد وفقنى الله تعالى للحصول على صورة من نسخة الظاهرية هذه التى كتبت فى
تاريخ غير محدد بعد وفاة المؤلف ، وكانت فى مكتبة الشيخ محمد قناوى ، ثم نقلت إلى
الظاهرية بدمشق ، وله على هامشها بعض التعليقات وعليها اعتمدت فى وصف الكتاب
ومحتوياته ، كما تيسر لى الاطلاع على ما نشر من الكتاب بمجلة المشرق البيروتية
الكاثوليكية (فى العدد الثانى من المجلد الثامن والأربعين لسنة ١٩٥٤ فى الصفحات
١٦٩-١٨١) ، وهو عبارة عن نسخة خطية غير كاملة ، (تبلغ نصف النسخة الموجودة
بالظاهرية) نشرت بمعرفة الأبوين ولهم كوثش ، وأغناطيوس عبده خليفة اليسوعيين عن
نسخة صورها الأستاذ أحمد إتش عن النسخة الموجودة فى مكتبة على أميرى برقم
١٢٠٩ ، وقد أشارا إلى أنها سبق أن استرعت انتباه الأب بويج عندما كان مقيما فى
استانبول عام ١٩٣١/١٩٣٢ فنسخها ، وقد اعتمدا أيضا على ما نسخه ، ونقلنا عنه
الوصف المادى للمخطوطة ، الذى يرجح فيه أنها كتبت بين القرنين الرابع عشر والسادس
عشر الميلاديين .

ويلاحظ على هذه المخطوطة ، أنها أقل ضبطا من نسخة الظاهرية فضلا عن نقصها ،
كما أن اسم المؤلف فيها ، (سيف الدين أبى الحسن على بن يوسف الآمدى) بينما هو فى
نسخة الظاهرية (سيف الدنيا والدين أبى الحسن على بن يوسف الآمدى) وكلاهما تعوزه
الدقة ، ويقول الأبوان- فى لغتهما الخاصة - « إن أبحاثنا تظل ضرورية لمعرفة سيرة
المؤلف .. ومحتويات هذا الكتاب تجعله يستحق النشر » ، وأرى أن تحقيق هذه الرغبة
الآخيرة يحتاج ، أولا إلى تحقيق الكتاب ، ثم مقارنة محتوياته برسالة الحدود لابن سينا ،
وبتعريفات الجرجانى ، وكشاف التهانوى ، وأمثال هذه الكتب لمعرفة مكانته بين هذا
الضرب من المؤلفات (١) .

(١) قمت بالعمل المقترح هنا بعد الحصول على نسخة ثالثة بمكتبة الأزهر، مع مقدمة عن المصطلح الفنى العربى،
وخاصة الفلسفى، ونشر بمصر مرتين كما سبق ذكره ، وبعد ظهور الطبعة الأولى بعامين أصدر الدكتور عبد الأمير
الأعسم ببغداد عام ١٩٨٥م نشرته للكتاب ضمن عمله المشكور « المصطلح الفلسفى عند العرب » (ظهرت طبعة
له بالقاهرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٩م) ، لكنه كان حريصاً على أن يؤكد أنه ينشر الكتاب
لأول مرة وهذا غير صحيح، وأنه يؤرخ للآمدى وجهوده العلمية لأول مرة أيضاً ، برغم علمه برسالة الماجستير
التي أعدتها قبل نشرته الأولى بستة عشر عاماً، وإذا كنت آسف لشيء فلضعف التواصل العلمى بين أجزاء
العالمين العربى والإسلامى .

٧- فرائد الفوائد :

ذكره البغدادي في هدية العارفين ١/ ٧٠٧ ونص على أنه مجلد في الحكمة، ولم أجد هذا عند غيره، فلعله رآه بنفسه، غير أن بروكلمان (في الملحق) يشير إلى كتاب آخر للآمدي اسمه «الفريدة الشمسية» لا يعرف موضوعه، ويوجد بمكتبة المدينة بالحجاز برقم ١٤٤، ولا ندري أهما كتاب واحد، أم كتابان مختلفان؟ هذا، ويوجد في مكتبة مهرشاه سلطان بتركيا كتاب تحت رقم ٢٩٨، بعنوان (فرائد الفوائد في بيان العقائد) لأحمد بن محمد أمين، طبع عام ١٢٢٠هـ، ولا علاقة له بكتابنا.

ج - علم الكلام :

لاتكاد المراجع تذكر شيئاً عن شيوخ الآمدي في هذا العلم، وإن كانت تشير إلى أن ابن فضلان كان يُتقن الأصلين - أصول الدين وأصول الفقه - ومن الطبيعي أن يكون الآمدي قد بدأ دراساته الكلامية في بغداد، ويبدو لي أن الآمدي قد اعتمد - بعد ذلك - على نفسه إلى حد كبير في دراسة هذا العلم، حتى بلغ تلك المنزلة التي يُدَلُّ بها في أوائل كتبه^(١)، والتي يشهد بها معاصروه ومن بعدهم، من أنه صار أكبر متكلم في عصره، وأبرز المشتغلين بالدراسات العقلية على وجه العموم.

وتمثل مؤلفات الآمدي بوضوح - المرحلة الثانية من علم الكلام، التي تسمى (كلام المتأخرين)^(٢) والتي اختلط فيها الكلام بالفلسفة إلى حد كبير، كما يظهر من الأبهكار و«غاية المرام» و«المبين» و«الماخذ»، وإن كان للرجل موقف من الفلسفة سنشير إليه عند الحديث عن منهجه. وقد اعتنق المذهب الأشعري، ولعله آخر أعلامه المبرزين، ولكنه يتميز عن أسلافه من شيوخ الأشاعرة، سواء في منهجه الذي حدده والتزمه إلى حد كبير كما سنبين ذلك، أو في آرائه التي تحرر فيها من التزام الأفكار السائدة في المذهب إلى حد ما، وهو يطلق لملكته النقدية العنان، فتتناول كل من سبقوه حتى أبا الحسن الأشعري نفسه.

(١) انظر الأبهكار ١/ ١٢، ب وغاية المرام ص ٤.

(٢) انظر الموافقة لابن تيمية حيث يقول عن الآمدي والأرموي (٢/ ٢٣٢). «وهما مع الرازي ونحوه أفضل بنى جنسهم من المتأخرين...» وانظر ابن خلدون في المقدمة ص ٤٦٦، ر ٤٦٧.

أما مؤلفاته الكلامية فهي :

١- أبكار الأفكار فى أصول الدين :

وهو موسوعة كلامية حافلة أنجزها أثناء مقامه بمصر فيما أرجح ، ويبدو أنه ظل ينقحها ويضيف إليها حتى أتمها فى سنة ٦١٢ هـ أى قبيل رحيله من مصر إلى الشام ، كما هو مدون على النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف الأصلية التى سنصفها .

ويجمع كل مؤرخيه على ذكر «الأبكار» فى مقدمة مؤلفاته كما فى أسماء الحكماء للقفطى (ل ١٧٠) وهو ينص على أنه أربعة مجلدات فى أصول الدين ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٤٥٥) ويسميه أبكار الأفكار فى علم الكلام ، وكذا فى مرآة الجنان لليافعى (٤/ ٧٤) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٤٠) ، وطبقات الشافعية للسبكي (٥/ ١٣٠) ، وفى عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة (كتاب أبكار الأفكار فى الأصول) وفى طبقات الشافعية لابن شهاب (ل ٤٧ ب) : «أبكار الأفكار فى أصول الدين» ، وفى طبقات ابن الملقن (مصنف الإحكام والأبكار) ، وفى مرشد الأنام (ص ٧٩٠) ، وفى مفتاح السعادة (٢/ ٤٩) ، وفى هدية العارفين (١/ ٧٠٧) وفى كشف الظنون (١/ ٤١٥) ، والأعلام للزركلى (٥/ ١٥٣) ، ومعجم المؤلفين لكحالة (٧/ ١٥٥) ، ودائرة معارف القرن العشرين (٢/ ٥٦٩) ، وبروكلمان (١/ ٣٩٣) ، ودائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٦١٨) ، وذكره أيضا روزنتال فى كتاب علم التاريخ عند المسلمين (٣٣٦) منسوبا إلى الرازى ونبه على ذلك مترجمه - الأستاذ صالح أحمد العلى - ونسبه إلى الآمدى اعتمادا على ما جاء فى كشف الظنون ، وذكره أيضا ابن تيمية فى كتابه (موافقة صحيح المنقول لصحيح المعقول) فى مواطن عدة ، وناقش ما فيه ، بل إنه ينقل منه نصوصا تبلغ عدة صفحات أحيانا (كما فى صفحات ٢/ ٢٣١ - ٢٣٩ ، ٢٤٠ - ٢٤٢ - ٢٤٤ - ٢٤٥) من طبعة السنة المحمدية بالقاهرة ، وهذه النقول تتفق تماما مع نسخة الأبكار التى فى معهد المخطوطات العربية الآتى ذكرها .

أما عن نسخه :

فيذكر بروكلمان فى الأصل (١/ ٤٩٤) أنه توجد منه نسخة فى برلين برقم ١٧٤١ وفى آيا صوفيا برقم ٢١٦٣ ، وذكر فى الملحق ، كما جاء فى دائرة المعارف

الإسلامية أيضاً، أنه توجد منه نسخة في سراى بتركيا برقم ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ وفي كوبريللى برقم ٧٩٤ وفي السليمانية برقم ٧٤٧ وفي بيروت ٣٨٩ ، ويحيل على مجلة المشرق البيروتية (٤ / ٤٠٠ - ٤٠٣) وقد رجعت إلى المجلد المذكور من المجلة الصادر في سنة ١٩٠١ فوجدت فيه مقالا للأب أنستاس الكرملى (فى ص ٤٠٠ - ٤٠٣) عن الصابئة أو المندائية ينقل فيه نصوصا تبلغ أربع صفحات من كتاب الأبيكار ويقول فيه : « وقد وجدت أفضل متكلمى الأشعرية سيف الدين أبا الحسن بن أبى على الآمدى قد أحسن تمييز هذه الفرق الأربع (التى اختلفت إليها الصابئة) وفاق سائر كتبة العرب ومؤرخيهم فى وصفها ، وإنعام النظر فى تدقيق البحث عنها ، وذلك فى كتابه الجليل المترجم بكتاب أبكار الأفكار ، وهو غير مطبوع إلى يومنا هذا ، وعزيز الوجود ، ولهذا أورد كلامه هنا بتمامه ، أولا : إثباتا لدرر كلامه ومعرفة مقاله ، وثانيا : إقرارا بفضله وعلو مكان كماله ، قال - ولله دره من قائل « ثم ينقل نصوصه وهى تقابل من النسخة المصورة بمعهد المخطوطات العربية اللوحات من ١ / ٢٢١ إلى ٢٢٣ ولا تكاد تختلف عنها إلا فى ألفاظ نادرة ، ثم يقول الأب أنستاس فى آخر مقاله - بعد أن ينقل نصوص ابن خلدون عن الصابئة - : « وبين أسماء هذه الفرق وأسماء الفرق التى ذكرها سيف الدين الآمدى بنون بعيد بين ، غير أن الفرق التى ذكرها هذا العلامة الأخير ، هى أصح لأنها تنطبق على حقائق راهنة ، ومذاهب أغلب المؤرخين والعلماء » .

هذا ولم يذكر الكرملى أية بيانات عن النسخة التى ينقل عنها من الأبيكار، ولعله ينقل عن نسخة بيروت التى ذكرها بروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية .

وتوجد من الكتاب عدة نسخ فى آيا صوفيا ٢١٦١ - ٢١٦٨ وقد صور معهد المخطوطات العربية بالقاهرة نسخة آيا صوفيا التى تحمل رقم ٢١٦٥ ، وفى فيض الله برقم ١١٠١ نسخة تحمل اسم (أبيكار الأفكار) وقد صورت عنها نسخة أخرى لمعهد المخطوطات العربية أيضا ، وهى كتاب آخر للآمدى سأحدث عنه فيما بعد^(١) .

كما توجد فى دار الكتب المصرية نسختان كاملتان من الكتاب ، إحداهما برقم

(١) كما توجد نسخ أخرى له فى تركيا فى مكتبة ولى الدين باستانبول نسخة فى ٥٥٤ ص برقم ١٩٧٨ وفى أسعد افندى أخرى برقم ١١٣٧ وفى عاطف افندى ثلاثة برقم ١٢١١ وفى داماد زاده رابى برقم ١٣٣٠ .

١٩٥٤ علم الكلام ، والاخرى برقم ١٦٠٣ علم الكلام ، وهذه الأخيرة تقع فى ٣١٩ ورقة وفى أولها فهرس مفصل لموضوعات الكتاب ، وقد تم نسخها فى الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٥٤هـ بيد عبد الله بن وبرى زادة ، وليس على هامشها تصويبات إلا فى النادر القليل ، كما فى ل ٧٣ ب و ٢٣١ ب ، ١٢٩٨ ب ، ب .

أما النسخة الأولى ، فنقلت عنها فى تاريخ متأخر ، إذ تم نسخها فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٣ هـ وتقع فى مجلدين كبيرين : الاول : يقع فى ١٠٠٠ صفحة والثانى فى ١٣١٤ صفحة بخط نسخى جميل .

كما يوجد فى مكتبة (طلعت) بدار الكتب المصرية أيضا نسخة ثالثة برقم ٥٣٤ علم الكلام إلا أنها تحتوى على الجزء الثانى فقط من الكتاب ، وتقع فى ١٨٢ ورقة كتبت بخط دقيق ، وقد نص فى ختامها (ل ١٨٢ ب) على أنه فرغ من تأليف الكتاب سنة ٦١٢ هـ ، وتوجد على هامشها تعليقات بتوقيع مصطفى الحامى ، أما ناسخها ، أوتاريخ نسخها ، فلا توجد إشارة إليهما ، ولكن يبدو من طريقة كتابتها أنها قديمة جدا ، ولا يبعد أن ترجع إلى القرن السابع الهجرى ، وبداية هذا الجزء تتفق مع بداية النسختين السابقتين وتختلف مع نسخة معهد المخطوطات العربية - مما يوحى بأنها الأصل ، لهما ولعل البحث يكشف عن وجود الجزء الاول منها .

أما نسختا معهد المخطوطات ، فإحدهما - وهى برقم ٣ توحيد فى فهارس المعهد - مصورة عن مخطوطة مكتبة فيض الله بتركيا كما سبق ، وتقول بيانات المعهد : إنها لكتاب « أبكار الأفكار » لسيف الدين الآمدى ، وإن عدد أوراقها ١٨٠ ورقة ، كتبت فى القرن السابع الهجرى .

والحقيقة أن هذه المصورة عبارة عن كتاب آخر فى علم الكلام لا صلة له بأبكار الأفكار ، أرجح أنه كتاب (المآخذ على الإمام الرازى) وسأحدث عنه فيما بعد .

وأما النسخة الأخرى فهى جزءان ، يحملان رقم ١ ، ٢ ، توحيد فى فهارس المعهد ، وهى نسخة بالغة الأهمية والنفاسة ، وقد تم تكبير صورة عنها لمكتبة كلية دار العلوم ، وقد قرأتها ، وقارنت بينها وبين نصوص غاية المرام تفصيلا .

وفى آخر الجزء الأول من هذه النسخة (ل ١ / ١٣٠٢) مايلى : «تم النصف الأول من أبكار الأفكار فى أصول الدين للإمام العلامة سيف الدين الآمدى رحمه الله تعالى ، وهو من الأصل الذى بخط مصنفه رحمه الله ، أربعون كراسا ونصف كراس ، ويتلوه النصف الثانى إن شاء الله تعالى الأصل الأول : فى الجواهر وأحكامها ...» .

أما الجزء الثانى فيبدأ فعلا بالأصل المذكور (الجواهر وأحكامها) بعد صفحة العنوان وفى آخر لوحة منه (٢ / ٣١١ ب) مايلى : «وبما انتهينا إلى ههنا ثم الكتاب ، والله المسئول وهو المأمول أن يجعله نافعا فى الدنيا ، وذخيرةً صالحة فى الآخرة ، وأن يصلى على محمد سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وأصحابه أعلام الدين ، والحمد لله رب العالمين ، وكان الفراغ من تأليفه فى منتصف شهر ذى الحجة من شهر سنة اثنى عشرة وستمائة » .

كما يوجد فى الصفحة الأولى من الجزءين تملك بخط خليل بن كيكلدى العلائى وآخر لتاج الدين السبكي مؤرخ بسنة ٧٦٣هـ ، مما يدل على أن النسخة كتبت قبل سنة ٧٦١هـ حيث لم يحدد تاريخ النسخ - غير أن خطها فى غاية الوضوح والجمال ، وكل من كيكلدى والسبكي من كبار شيوخ الأشاعرة المتأخرين ، فالأول هو أبو سعيد صلاح الدين خليل بن بدر الدين كيكلدى العلائى المتوفى سنة ٧٦١هـ ، وأما الثانى فهو تاج الدين عبد الوهاب السبكي صاحب طبقات الشافعية .

ويلاحظ أيضا أن هذه النسخة روجعت بعناية ، وعلى هوامشها تصحيحات كثيرة لا تكاد تخلو منها صفحة .

وقد سبقت الإشارة عند الكلام على (دقائق الحقائق) ورموز الكنوز ، أنه كثيرا ما يحيل عليهما وعلى مؤلفاته الفلسفية والمنطقية جملة فى الأبكار ، وأنه يشير إلى مؤلفات أصولية أيضا كما سبق فى الكلام على «لباب الألباب» ، كما بينت فى كلامى على «الإحكام ومنتهى السؤل» أنه كثيرا ما يذكر الأبكار ويحيل عليه فيهما ، وبينت هناك مواضع ذلك أيضا .

ويعتبر كتاب (الأبكار) أهم مؤلفات الآمدى الكلامية وأبعدها أثرا ، وهو يشبه فى هذا «الإحكام» فى علم أصول الفقه ، ويعد أحد المراجع الأساسية فى علم الكلام فقد

اعتمد عليه الإيجي في (المواقف) كما يصرح الجرجاني في شرحه له^(١)، وكان في وقت ما مع نهاية العقول والأربعين للرازي، والمواقف للإيجي، وشرح المقاصد للتفتازاني الكتب الخمسة المتداولة بين أصحاب هذا الفن^(٢).

ولعل أكثر الناس اهتماما بالآمدى وكتابه أبكار الأفكار، هو ابن تيمية في كتابه «الموافقة» كما سبقت الإشارة، وهو يذكر في هذا الكتاب موافقة أبي الثناء الأرموى للآمدى فيما يسوقه من حجج في الأبكار على بطلان التسلسل وغير ذلك من المسائل، وينبه على احتمال تأثره به، يقول ابن تيمية: «والوجه التي ضعف بها الآمدى ما احتج به من قبله على حدوث الأجسام يوافق في كثير منها ما ذكره الأرموى، وهو متقدم عليه، فإما أن يكون الأرموى رأى كلامه وأنه صحيح، فوافقه، وإما أن يكون وافق الخاطر الخاطر^(٣)...» وفي موضع آخر يرجع تأثره به ونقله عنه^(٤).

أما اسم الكتاب فلا يبعد أن يكون قد أخذه عن غيره أو توافقا عليه، كما لاحظنا في (الإحكام) و كما سنبين في (غاية المرام) إذ يوجد مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ٢٨ حديث باسم (أبكار الأفكار في مشكل الأخبار) لمؤلف مجهول يحتمل أن يكون قد عاش في القرن السادس أو بعده، لأنه ينقل عن البغوي (الحسين بن سعد بن محمد) المتوفى سنة ٥١٠ هـ^(٥)، ويشبه أن يكون كتابه هذا مختصرا لكتاب أبي جعفر الطحاوي (شرح معاني الآثار). ويوجد في مكتبة لاله لي بتركيا تحت رقم ٢١٧٠ كتاب بعنوان (جنة أبكار الأفكار) لشمس الدين الدلجي، وفي المكتبة نفسها مخطوط تحت رقم ٢٩٢ لعلي بن محمد الآمدى (وهو غير سيف الدين) بعنوان (شرح التهذيب)، وقد طبع سنة ١٢٠١ هـ في ٢٦٨ صحيفة. ويبدو أن علاقة هذه الكتب الثلاثة بكتابنا تقتصر على مجرد التوافق أو التشابه في العنوان.

هذا، وقد اختصر الآمدى كتابه (الأبكار) في كتاب آخر هو :

(١) شرح المواقف ٤/١ ويشير إلى هذه الحقيقة الأبرار قناتى وجارده في (الفكر الدينى بين المسيحية والإسلام) ١٦٥/١.

(٢) انظر الرازى وآراؤه الكلامية ص ٤٧. (٣) الموافقة ٢/٢٣١، ٢٣٢.

(٤) الموافقة ٢/٢٣٣، ٢٣٤. (٥) وفيات الأعيان ١/٤٠٢.

منائح القرائح :

نص على ذلك ابن خلكان فى الوفیات (٢/ ٤٥٥) ، ونقل عنه ذلك البستاني فى دائرة معارفه (١/ ٣٥٢) ، ونص عليه أيضا اليافعى فى مرآة الجنان (٤/ ٧٤) غير أنه يسميه (مناهج القرائح) ، وهو تحريف يتابعه عليه صاحب كشف الظنون (٢/ ١٨٤٦) .

وقد أورد هذا الكتابَ ضمن مؤلفات الآمدى أيضاً - دون النص على أنه مختصر للأبكار - ابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء (٢/ ٢٧٥) ، والسبكي فى الطبقات (٥/ ١٣٠) ، وابن الملتن فى طبقاته أيضا (ل١٧٥ ب) غير أنه يسميه (مفاتيح القرائح) وهو تحريف أيضا ، وصاحب مرشد الأنام (٧٩٠) وصاحب مفتاح السعادة (٢/ ٤٩) . والبغدادى فى هدية العارفين (١/ ٧٠٧) وهو الذى نص على أنه يقع فى مجلد واحد ، ولكنه لم ينص على موضوعه ، وسركيس فى معجم المطبوعات (١٠) .

هذا ولا نعرف مكان وجود الكتاب^(١) ، وليس من البعيد أن يكون موجودا فى تركيا ؛ لأن صاحب هدية العارفين ينص على أنه مجلد ، مع أن هذا الوصف - فيما نعلم - لم يرد عند أحد من قبله كما لا يبعد أن يكون الآمدى قد اختصر فيه كتابه الكبير (الأبكار) كما فعل فى منتهى السؤل الذى اختصر فيه الإحكام ، على أن الآمدى قد اختصر الأبكار أيضا فى كتابه الذى قمنا بتحقيقه فى الجزء الثانى من هذه الرسالة وهو :

٣- غاية المرام فى علم الكلام :

وقد ذكره ابن أبى أصيبعة - تلميذ الآمدى - فى عيون الأنباء (٢/ ١٧٥) ، كما عده البغدادى فى هدية العارفين بين مؤلفات الآمدى ، ونص على أنه مجلد مما يرجح أنه رآه ، وخاصة أن النسخة الوحيدة التى أمكنت معرفتها من هذا الكتاب توجد فى مكتبة (شهيد على) بتركيا تحت رقم ١٦٩٤ ، وقد صورت عنها نسخة مصغرة لمعهد

(١) لقد بحثت فى كافة الفهارس الموجودة فى مصر ، فلم أهتمد إلى نسخة أخرى ، واستعنت بخبيرى المخطوطات المرحوم الأستاذ فؤاد السيد الأمين السابق لمخطوطات دار الكتب المصرية ، والأستاذ رشاد عبدالمطلب وكيل معهد المخطوطات بالقاهرة الذى تفضل فشاركنى فى توجيه رسالة إلى الأستاذ فؤاد سيزكين المقيم فى ألمانيا ، والذى يقوم الآن بمهمة شبيهة بتلك التى قام بها بروكلمان ، ولكن لم يصلنى رد على هذه الرسالة ، فقامت بالتحقيق معتمدا على الأصل الوحيد المصور مقارنا بأبكار الأفكار خاصة ، ثم بسائر مؤلفات الآمدى التى تيسرت لى ، وهى خمسة كتب أخرى .

المخطوطات العربية بالقاهرة طبعت منها صورة لمكتبة كلية دار العلوم ، وقد كانت هي الأصل الذى اعتمدت عليه فى عملية التحقيق التى أنجزتها فى القسم الثانى من هذه الرسالة، ونشرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة، عام ١٩٧١ م .

ومما يؤكد ذلك الترجيح أن حاجى خليفة يقدم لنا معلومات دقيقة تدل على خبرة واقعية بالكتاب ؛ إذ يقول فى كشف الظنون (١١٩٣ / ٢) : « غاية المرام فى علم الكلام للإمام سيف الدين أبى الحسن على بن أبى على الأمدى المتوفى سنة ٦٣١ ، أوله « الحمد لله الذى زلزل بما أظهر من صنعته . . الخ ، ذكر فيه أبكار الأفكار ورتبه على ثمانية قوانين » وهذه المعلومات لم يذكرها أحد غيره، مما يؤكد رؤيته للكتاب .

وقد أشار ابن تيمية فى كتابه الموافقة إلى كتاب غاية المرام للأمدى - مع أن كل النصوص التى نقلها عن الأمدى وناقشها فى هذا الكتاب ، مأخوذة من (أبكار الأفكار) ، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها - وذلك حيث يقول بعد مناقشته لمشكلة الإرادة فى الموافقة : (والمقصود هنا التنبيه على مجامع أقوال الطوائف الكبار وما فيها من التناقض ، وأن من عارض النصوص الإلهية بما يسميه عقليات ، إنما يعارضها بمثل هذا الكلام الذى هو نهاية أقدامهم وغاية مرامهم ، وهو نهاية عقولهم فى دراية أصولهم^(١)) وواضح أنه يشير إلى كتاب (نهاية الأقدام) للشهرستانى ، وكتاب (غاية المرام) للأمدى، وكتاب (نهاية العقول) للرازى ، وقد ألف ابن تيمية كتابه هذا لمناقشة مناهج المتكلمين وخاصة منهج الأشاعرة بالصورة التى انتهى إليها على يد الرازى والأمدى^(٢) .

غير أنى أشير بهذه المناسبة إلى أن ابن تيمية ، رغم عنايته الفائقة بمؤلفات الأمدى، لم يقرأ - فيما أرجح - كتاب غاية المرام خاصة ، أو فى الأقل لم يقرأه قراءة كاملة ، وذلك أنه يشير فى الموافقة إلى مناقشة الأمدى لادلة حدوث العالم وتزييفه لها ، ثم يذكر أنه اعتمد على دليل لا يقل عنها ضعفاً وهو حدوث الأعراض ، وعدم خلو الجواهر عنها ، ومالا ينفك عن الحوادث حادث^(٣) ، وهذا إن صح بالنسبة لموقف الأمدى فى الأبحاث ، فهو لا يصدق على موقفه فى غاية المرام^(٤) ، وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد .

(١) الموافقة - تحقيق حامد الفقى ٢٠٣ / ١ . (٢) انظر السابق ١ / ١٠ - ١٠ .

(٣) انظر الموافقة ٢ / ٢٣١ . (٤) انظر غاية المرام ٢٢٩ وما بعدها والأبحاث ل ٢ / ١٩١ .

ويبدو أن الآمدى قد اقتبس هذا العنوان - كما أشرنا بالنسبة إلى تسميته الأبيكار والإحكام ودقائق الحقائق - عن والد الإمام الرازى الذى ألف كتابا بهذا العنوان ، قال عنه السبكي : « من أنفس كتب أهل السنة وأشدّها تحقيقا » ووصف مؤلفه بأنه كان فصيح اللسان ، قوى الجنان ، فقيها أصوليا متكلمًا » وتحدث عنه ابن أبى أصيبعة (٣٥ / ٢) ، وتوفى سنة ٥٥٩ هـ (١) . على أنه توجد كتب تالية كلامية وفقهية لعللاقة لها بكتابنا منها :

(١) كتاب غاية المرام شرح بحر الكلام للحسن أبى بكر القدسى الحنفى المتوفى سنة ٨٣٦ هـ وهو شرح لكتاب أبى المعين النسفى (بحر الكلام) أتمه مؤلفه سنة ٨٣٢ هـ ، توجد منه نسخة خطية فى مجلد واحد بالمكتبة التيمورية بالقاهرة برقم ٢٢٣ ، ونسخة فى مكتبة لاله لى ٢٢٧٠ ، وأخرى فى يحيى أفندى رقم ١٩٨ ، وأخرى بمكتبة كوبريللى ١٥٠ عقائد .

(٢) وفى نفس المكتبة تحت رقم ٣٠٦ مجاميع كتاب بعنوان (غاية المرام فى عقائد الإسلام والتوسل بأسماء الله الحسنى » للشيخ أحمد الأشهب الفيومى ، وهو منظومة نونية طبعتها مطبعة الترقى بالقاهرة سنة ١٣١٨ هـ ، وكان صاحب كشف الظنون (٤٥٣ / ٢) قد أشار إلى كتاب اسمه (غاية المرام فى عقائد الإسلام) ، فلعله هو .

(٣) وفى التيمورية أيضا برقم ٢٤٨ كتاب للعلامة ابن سليمان الكنكاى الشيعى المتوفى سنة ١١٠٧ كتاب اسمه (غاية المرام وحجة الإسلام) طبع فارس سنة ١٢٧٢ هـ .

(٤) ويوجد فى مكتبة الأزهر برقم ١٧٧ عام ٧١ / خاص كتاب لمحمد بن أبى العباس أحمد الرملى اسمه (غاية المرام فى شرح شروط المأموم والإمام) .

(٥) ويوجد بالمكتبة العمومية باستانبول كتاب بعنوان (غاية المرام فى أسماء الرجال) برقم ١٢٠٩ ، وتوجد نسخة أخرى من الكتاب نفسه لمحمد بازلى الكردى برقم ١٠٤٢ ، كما توجد من نفس الكتاب ونسخه أخرى بمكتبة نور عثمانية بعنوان « غاية المرام فى رجال البخارى » لمحمد بن محمد داود - البازلى برقم ٩٢١ مجلد - وهو من علماء القرن العاشر الهجرى .

(١) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٥٠ ، وانظر أيضا عن الخطيب وكتابه هذا نشأة الفكر للدكتور النشار ١ /

ونظرا لأن غاية المرام هو موضوع القسم الثانى من هذه الرسالة ، ولانى قد اعتبرت أبكار الأفكار كالأصل له ، واستعنت به فى توثيق نصوصه وتحقيقها ، فينبغى أن أقدم كلمة فى طبيعة العلاقة بين الكتابين :

يظهر بشكل قاطع لكل من يقرأ الكتابين أنهما لمؤلف واحد ، وأن الغاية تبدو كمختصر للأبكار ، وقد نبهت فى التحقيق على مواضع عدة من الكتابين اتحدت فيها العبارة تماما إلا من فوارق نادرة^(١) ، ولكنى أوجه النظر هنا إلى موضعين لهما أهمية خاصة ، أما الأول فهو الورقة المفقودة من الأصل الذى اعتمدت عليه لغاية المرام ، وهى اللوحة ١٢٧ ، ب ، وما نقلته عن الأبكار استيفاء لهذا النقص من اللوحة ١ / ١٦٢ ، ب ؛ حيث يؤكد السياق - فيما يسبق الجزء الساقط وما يلحقه - الاتفاق التام بين الكتابين^(٢) . أما الموضع الثانى فهو كلام الآمدى فى غاية المرام على مسألة التسلسل (ص ٩ - ١٥) وفى الأبكار (١ / ١٤٢ - ٤٣ ب) وما نقله ابن تيمية عن الآمدى فى الموافقة (٢ / ٢٣٨ - ٢٤٠) ؛ فإننا نجد الكتب الثلاثة متفقة تماما اللهم إلا فى الفاظ معدودة ، وليس أدل من ذلك على انتماء الكتابين المذكورين لمؤلف واحد ، فإذا كان الأبكار - لشهرته وتعدد نسخه بين أيدينا ، وما نقلته المصادر المختلفة عنه كما سبقت الإشارة إليه - لا يشك فى نسبته إلى الآمدى ، فكذلك كتابنا هذا . وأخيرا فإنى أشير إلى أمرين آخرين يؤكدان نسبة كتابنا هذا إلى الآمدى صاحب الأبكار :

أول هذين الأمرين : ورود بعض النصوص فى الكتابين على نحو واحد حتى ليتكرر فيها نفس الخطأ ، فمن ذلك إيراده فى الأبكار (١ / ١٨٣) للآية الكريمة من سورة النحل ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ على هذا النحو الخطأىء ﴿ إِنَّمَا أَمَرْنَا لِشَيْءٍ .. ﴾ ويقع فى نفس هذا الخطأ فى غاية المرام (ل ١٤٩) ، ويبدو أنها التبست عليه بالآية الكريمة من سورة يس ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . والمهم هنا دلالة ذلك على نسبة الكتابين لمؤلف واحد ينقل ما أثبتته من نصوص فى أحد كتابيه إلى آخر دون أن يفتن إلى ما وقع فيه من لبسٍ وخطأ .

(١) انظر مثلا غاية المرام (ص ١٦، ١٧، ٩٠، ٩٨) والتعليقات بها مشها .

(٢) انظر ص ٦١ - ٦٢ من غاية المرام، ط أولى ١٩٧١ بالقاهرة .

أما الأمر الثانى : فهو احتواء غاية المرام على أفكار خاصة بالآمدى لم تنسب إلى سواه ، وذلك كقوله بجواز استناد القديم إلى الفاعل المريد المختار^(١) . مما أشار إليه بعض المؤلفين اللاحقين ، واعتبره قولاً انفرد به الآمدى^(٢) .

ولكن ... هل يعتبر غاية المرام مختصراً للأبكار ؟

هذا ما يبدو بوضوح لمن يقارن بين الكتابين ، إلا أنه سيلمس تطور تفكير المؤلف فى عديد من المواضع بحيث ينقد فى الغاية بعض ما أقره فى الأبكار ، مما سنشير إليه فى مواضعه من هذه الدراسة ، ونشير هنا على سبيل المثال إلى ما ذكره الآمدى حول حدوث العالم فى (الغاية) ونقده للأدلة الكلامية التقليدية كإمكان والجوهر والعرض (ص ٢٤٦ وما بعدها) ، وإلى وما ذكره فى الأبكار ل ٢ / ٩٤ ب وما بعدها ؛ حيث اعتمد على دليل الجوهر والعرض لإثبات حدوث العالم ، وهذا مما يؤكد كون الغاية لاحقاً للأبكار ، إذ هو يحوى خلاصة الأبحاث الموجودة فيه ، مع إضافة تحقيقات جديدة ، ويشهد لهذا قوله فى مقدمة (غاية المرام) ، « وضمنته أبكار الأفكار » فإنه من البعيد أن تكون هذه الكلمة مجرد استعمال مجازى ، خصوصاً إذا لاحظنا إشارة المؤلف فى مقدمة منتهى السؤل إلى كتاب (الإحكام) والأول يعد اختصاراً للأخير ، على أن العادة الجارية أن يصدر المؤلف كتابه الكبير ، ثم يوجزه فى الملخص ، ولو حدث العكس - وهذا نادر - فإنه يستأنف تأليفاً جديداً لينقل فيه عبارات كتابه الموجز بنصها فى أكثر الأحيان .

وحتى يطمئن القلب إلى هذا رأى فإنى أشير إلى عدة أمور تبدو معارضة له :

١- أن الآمدى لا يشير إطلاقاً فى غاية المرام ، سوى المقدمة ، إلى كتابه الأبكار ، أو يحيل عليه كمعادة المؤلفين ، خاصة أن الأول مختصر للأخير .

٢- أن التاريخ المدون فى ختام كتاب (غاية المرام) يدل على أنه نسخ فى حياة المؤلف سنة ٦٠٣ هـ ، بينما التاريخ المسجل فى ختام الأبكار ، فى نسخة آيا صوفيا ونسخة القاهرة - طلعت ، يدل على أنه انتهى من تأليفه فى منتصف شهر صفر سنة ٦١٢ هـ كما ذكرت من قبل .

(١) انظر غاية المرام ل ١٠٢ ب . (٢) انظر الدرة الفاخرة لملا عبد الرحمن الجامى ص ٢٧٧ .

٣- احتواء كل من الكتابين على آراء تبدو مخالفة لما فى الآخر ، مما أشرت إلى نماذج عديدة منه فى الهوامش التى قارنت فيها بين الكتابين فى غاية المرام (١) .

وردا على ذلك أقول :

أ- أما مسألة الإحالة فمما يهون منها أن المؤلف لا يشير فى غاية المرام أيضاً إلى أى كتاب آخر له ، والإحالة الوحيدة فى هذا الكتاب كانت مجملة . إذ أحال فى مناقشته لمسألة المعدم على (مؤلفاته المنطقية) (ل ١١٠٨) ، وكما أنه لا يحيل فى غاية المرام على الأبقار ، فهو أيضاً لا يحيل فى الأخير على الأول ، ولو كان غاية المرام أسبق تأليفاً لقد كان من المتوقع أن يحيل عليه فى الأبقار ، كما أحال فيه على عدة كتب أخرى منطقية وجدلية وأصولية كما أشرت فيما سبق .

على أنا نجد محقق كتاب (التقريب لحد المنطق والمدخل إليه) (٢) يشير إلى أن ابن حزم يحيل فى كتاب (التقريب) على كتابه (الفصل) ويحيل فى هذا الأخير على الكتاب الأول ، ورغم هذا يقول : إن هذا (لا يدلنا على أن التقريب سابق للفصل فى الزمن . . وقد يدل على أنه توفر على تأليف الكتابين دون استيفاء لأحدهما قبل الآخر ، وأنه كان يراوح فيما بينهما) ، ويميل برغم هذا إلى أن (التقريب) لاحق لكتاب (الفصل) . أما الآمدى فإنه لم يشر قط فى الأبقار إلى غاية المرام أو أية مؤلفات كلامية أخرى له ، بينما أشار فى مقدمة غاية المرام إلى أبقار الأفكار .

وقد يقع لبعض المؤلفين من جرت عادتهم بالإحالة كثيراً على مؤلفاتهم الأخرى أن يهمل ذلك أحياناً ، ومن نماذج ذلك ملاحظه (اسين بلاسيوس) على كتاب (معارج القدس) للإمام الغزالي ، ومع ذلك ، فإنه لا يجد هذا الأمر وحده كافياً للشك فى نسبة هذا الكتاب المذكور إليه (٣) .

ب- أما بالنسبة للتاريخ المسجل على مخطوطتى الكتابين وما قد يفيد من سبق الغاية للأبقار ، فإنه لا يقوى على معارضة مضمونهما الذى يدل على عكس ذلك ، على

(١) انظره (ط ١٩٧١ م) ص ٢٥٨ - ٢٧٤ .

(٢) انظر (التقريب . . .) تحقيق الدكتور إحسان عباس . مقدمة المحقق ص : ب ، ج .

(٣) انظر كتاب (فى النفس والعقل) د. قاسم ص ١٠٠ .

أنه يمكن تفسيره بمثل ما نقلته عن الدكتور إحسان عباس - محقق (التقريب) - بشأن كتابي ابن حزم (الفصل والتقريب) . وقد شرع الآمدى فى تأليف كتابه (الإحكام) بعد وصوله إلى دمشق سنة ٦١٧ وأهداه إلى الملك المعظم كما يقول فى المقدمة التى كتبها قبل أن يتم الكتاب ، ولم ينته من تأليفه إلا سنة ٦٢٥ بعد وفاة الملك المعظم، مما يدل على طول الوقت الذى كان يبذله فى تأليف كتبه الكبار ، فلعله بدأ فى تأليف الأبكار ، ثم فى الغاية بعد ذلك ، ولكنه أنجزه سريعا لصغره ، ولم ينجز الأبكار إلا فى سنة ٦١٢ هـ.

وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون الرجل قد أعاد تأليف كتابه الكبير مرة ثانية بعد خروجه من مصر إلى حماة ، كما حدث لغيره من المؤلفين . واحتمال أخير ، وهو أن يكون تاريخ النسخ المسجل على كتاب (غاية المرام) خاطئا ، أو محرفا ، وهو الأشبه .

جـ- وأما الاختلاف الواقع بين الكتابين ، فهو يؤكد كون الغاية لاحقا للأبكار بعد أن ثبت أنهما لمؤلف واحد ، وذلك أننا سنبين فى هذه الدراسة أن الآراء التى نصرها فى «الأبكار» أقرب إلى التزام السائد فى المذهب ، بينما تعبر الآراء التى انتهت إليها فى «الغاية» عن روح متحررة من هذا الالتزام إلى حد ما ، وهذا هو ما يوافق منطق التطور ، فقد بدأ الرجل أشعريا ، وعاش أشعريا طول حياته ، فمن الطبيعى أن يجرى أول الأمر على ما هو السائد بين الأشاعرة ، ، فإذا ما استحکم واکتملت معارفه وأدواته ، وطال نظره فى مواضع الخلاف ، نزع إلى آراء مستقلة ، أو استقى بعض النظريات من خارج النطاق الأشعرى ، إيمانا منه بقوتها وصدقها ، واستجابة لروحه النقدية الغلبة ، وهى مرحلة من مراحل التطور الفكرى ، تشبه من بعض الوجود بدايته الحنبلية مجازاة لما هو سائد فى بلده ، وانتقاله بعد ذلك إلى المذهب الشافعى فى بغداد ، بعد أن تقدم فى الدراسات الفقهية والأصولية والجدلية .

والآن فلنتقل إلى باقى كتبه الكلامية :

٤ - خلاصة الإبريز - تذكرة الملك العزيز :

هى رسالة موجزة فى العقائد ألفها للملك العزيز بن صلاح الدين ، وليس العزيز بن الظاهر صاحب حلب . وصلة الآمدى بالعزيز بن صلاح الدين معروفة ، وقد رجحنا أنه جاء معه إلى القاهرة بعد أن استولى على دمشق سنة ٥٩٢ هـ ، كما جاء معه أيضا موفق الدين عبد اللطيف البغدادى ، الذى ألف له أيضا رسالة فى الحديث سماها (اللواء العزيز باسم الملك العزيز) ذكرها ابن أبى أصيبعة^(١) ، وقد نص أيضا على أن الآمدى ألف كتابه هذا للملك العزيز بن صلاح الدين^(٢) . كما ذكره البغدادى فى هدية العارفين (٧٠٧ / ١) ونص على أنه فى العقائد ، وكذا فى إيضاح المكنون (٤٣٢ / ١) .

ولم أعرف شيئا عن مكان وجود الكتاب الآن ، وإن كنت أتوقع وجوده فى « أستانبول » .

٥ - رسالة فى علم الله :

ذكر بروكلمان فى الملحق نقلا عن مجلة جمعية المستشرقين الألمان (عدد رقم ٩٠ ص ١١٦) أنها توجد بمكتبة المدينة بالحجاز برقم (٤٦ أ) وأنها للآمدى المتوفى سنة ٦٣١ ، ولانجد إشارة إليها فى مرجع آخر .

ولمسألة العلم الإلهى أهمية خاصة فى علم الكلام ، لا مجرد ماأثاره حولها الإمام الغزالى فى (التهافت) و (المنقذ) بل منذ تعرض شيخه إمام الحرمين الجوينى للاتهام بسبب ما قرره بشأنها من فكرة الاسترسال التى اعتبرت نزوعا إلى رأى ابن سينا وأمثاله^(٣) ، وإن كنت أميل إلى أن الآمدى فى تأليفه رسالة مفردة فى هذه المسألة بالذات ، لا يبعد أن يكون متأثرا بمعاصره ابن رشد الذى أفرد لها رسالة باسم (ضميمة فى العلم الالهى)^(٤) ، وذلك لما بينهما من مشابهة توحى باطلاعه على كتبه سأوضحها فيما بعد . وأرجو أن تتاح لى فرصة الاطلاع على هذه الرسالة - بعد أن بذلت محاولة

(١) طبقات الاطباء ٣ / ٣٤٦ . (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) انظر : طبقات الشافعية للسبكي ٣ / ٢٦٤ - ٢٨٢ .

(٤) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية للدكتور قاسم ٥١ ، ٥٢ .

للحصول عليها - فإنها فضلا عن أهمية موضوعها ، قد تلقى ضوءا على العلاقة بين الآمدى وابن رشد (١).

٦- ملخص المطالب العالية ونقده (المآخذ) :

تحدثت من قبل عن كتاب كشف التمويهات ، وعن اعتقاد بعض من تعرضوا لمؤلفات الآمدى قديما وحديثا ، أنه هو نفسه كتاب (المآخذ على الإمام الرازى) وبينت أن (كشف التمويهات) إنما هو شرح محايد لإشارات ابن سينا لاهل العلاقة له بالرازى ، وليس هو كتاب المآخذ كما توقع ذلك بعض الباحثين ، والآل ماحقيقة كتاب المآخذ ؟

لقد اطلعت على النسخة المسماة خطأ (أبكار الأفكار) والموجودة بمعهد المخطوطات تحت رقم ٣ توحيد ، المنقولة عن الكتاب رقم ١١٠١ بمكتبة فيض الله بتركيا ، وعدد أوراقها ثمانون ورقة - كما تقول بيانات المعهد - كتبت فى القرن السابع الهجرى ، فوجدته خاليا من أية إشارة إلى اسمه ، أو اسم مؤلفه ، ولا أدرى علام اعتمد خبراء المعهد ، أو فهرسو مكتبة فيض الله فى اعتبارهم إياه إحدى نسخ (الأبكار) ؟ ولعلمهم اعتمدوا على مايوجد فى الصفحة الثانية من المخطوط من ترجمة لسيف الدين الآمدى منقولة عن كتاب (عفيف الدين اليافعى) (٢) فى مناقب الأئمة الأشعرية ، تحت عنوان (ترجمة مؤلف الكتاب) ولكن هذا إن ساعد على الاعتقاد بأن الكتاب أحد كتب الآمدى فهو لايعبر عن حقيقة الكتاب نفسه .

فقد تبين لى للوهلة الأولى ، أننى بإزاء كتاب آخر لاصلة له «بالأبكار» كما يظهر من محتوياته التى سأصفها :

كل مانجده على ظاهر الكتاب تَمَلُّكٌ فى الصفحة الأولى كتب سنة ١٠٦٥ هـ يتضمن الآتى : (من كتب الفقير إلى الله سبحانه وتعالى محمد ... اشتراه فى شوال سنة ١٠٦٥ ، وبشمن قدره) وإلى جوار ذلك توقيع باسم إسماعيل چلبى ، ويلى ذلك ترجمة الآمدى المشار إليها آنفا ، ويوجد فى آخر لوحاته مايلى : قوله تعالى ﴿والله على

(١) هذا وقد أمكن الحصول على نسخة من هذه الرسالة تبين لى - بعد قراءتها - انها ليست لاهى الحسن الآمدى - وإنما هى لآمدى آخر متأخر عاش فى العصر العثمانى .

(٢) عبد الله اليافعى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ صاحب «مرآة الجنان» وغيره ، انظر معجم المؤلفين ٦ / ٣٤ .

كل شيء قدير ﴿ وفعل العبد شيء فكان مقدورا لله تعالى ، وأمثال هذه الآية كثيرة .. قوله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ والانتصار إما كما فى المصارعة ، أو بالبيان كما فى المناظرة ، والآية تدل على أن كل ذلك من الله تعالى . فإن قلت : إن النصر قد يكون بإزالة الخوف وتقوية القلب وبالملائكة . قلت : الآية ... عامة فتتناول كل ذلك . والله - تعالى - أعلم » ويلي ذلك ختم مكتبة فيض الله ، وحوله تعليقات غير واضحة وزخارف وخطوط ، ثم ينقطع الكتاب بصورة تدل على نقص هذه النسخة وعدم تمامها .

وأجدنى بحاجة إلى ذكر محتويات الكتاب ، فهى الدليل الوحيد على شخصيته : يوجد فى اللوحة ١٢ من الكتاب البسملة ثم دعاء (رَبِّ تُمَّ بِفَضْلِكَ) وبجواره رقم الكتاب بمكتبة فيض الله وختمها .

ثم يلى ذلك (الكتاب الأول فى معرفة ذات الله تعالى ، وفيه أبواب : الباب الأول : فى المقدمات ، والباب الثانى : فى إثبات العلم بالصانع وفيه قسمان ، والباب الثالث : فى الوجوب والوجود والنفس وما يشبهها وفيه مسائل ... أما بقية أبوابه وفصوله ، فهى على النحو التالى :

الكتاب الثانى فى (الصفات) وفيه أربعة أبواب : الباب الأول : فى صفات الجلال ، الباب الثانى : فى الصفات الإيجابية ، الباب الثالث : فى أسماء الله تعالى ، والباب الرابع : فى بقية صفات الله تعالى ، والكتاب الثالث : فى القدم والحدوث ، والكتاب الرابع : فى الزمان والمكان ، والكتاب الخامس : فى الهيولى ، والكتاب السادس : فى الأرواح ، والكتاب السابع : فى النبوات ، والكتاب الثامن : فى الجبر والقدر . والكتاب الأخير لا يوجد منه فى هذه النسخة إلا عدة أوراق .

وبمقارنة هذه المحتويات بما فى كتاب الأبهكار يتضح أن الكتاب لاصلة له مطلقا بأبكار الأفكار ... أما هويته فقد رجحت أن يكون مختصرا لكتاب (المطالب العالية للإمام الرازى) ، وبمقارنته بالمطالب العالية الموجود بنفس المعهد تحت رقم ٢١٨ توحيد تأكدت من صدق هذا الفرض تماما ، وأن هذا الكتاب هو مختصر لكتاب المطالب العالية ، يبلغ نصف حجمه تقريبا ، غير أنه ليس مجرد تلخيص محايد للكتاب المذكور ،

بل إنه فى مواضع عديدة من الكتاب - لا يكاد يخلو منها فصل من الفصول - يتعقب الإمام فيما يذكره ، ويرد عليه ، وذلك كما فى آخر الباب الأول من الكتاب الأول (ل ٦ ب ، ١٧) حيث يقول : قال الإمام : .. ويعدد أقواله ، ثم يقول : والجواب كذا . وفى لوحة ٧ ب يمضى فى تلخيص ما فى المطالب ، ثم يتوقف ليعلق قائلا : وأنا أقول لانسلم .. ثم يعترض على ما ذكره الرازى فى المطالب ، ومثله فى لوحات ٩ أ و ١٠ أ و ب وهكذا لاتكاد تخلو لوحة من هذه المؤاخذات الموجهة إلى الإمام فيما يقرره .

وهو فى بعض الأحيان يذكر اختلاف الرازى مع ابن سينا ، ويقول : قال الشيخ كذا ، أو احتج الشيخ بكذا ، ثم يقول : واحتج الإمام بكذا ، وبعد ذلك يعقب قائلا : وأنا أقول كذا ، ومن نماذج ذلك لوحات ٢٢ - ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٠ ب ، ولعل هذا هو ما دعا بعض القدماء ممن لم يدرسوا الكتاب إلى اعتباره نقدا لشرح الرازى للإشارات ابن سينا ، وقد نقل ذلك عنهم بعض المتأخرين ، وحقيقة الأمر - كما ترجع لدى - أن ذلك الكتاب هو (المآخذ على الإمام الرازى فى كتابه المطالب العالية) وليس فى شرحه للإشارات .

ولما كان (أفضل الدين الحونجى) وهو أحد الأشاعرة المشتغلين بالدراسات العقلية^(١) ، قد قام بتلخيص كتاب الرازى المذكور فى كتابه « اختصار المطالب العالية » وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية برقم ٨٤٠ علم الكلام ، وأخرى فى التيمورية برقم ٧٤٧ عقائد ، فقد رجعت إلى النسخة الأولى من هذا الكتاب ، ووجدته يشير فى مفتتحه (ل ٢ أ) إلى أنه سيقوم بتلخيص المطالب العالية ونقد بعض مافيها : « وكتاب المطالب العالية .. جامع لأكثر مباحث المتقدمين والمتأخرين ، دعائى إلى تلخيص هذا الكتاب .. وأضفت إليه من قبلى حل بعض الإشكالات التى أوردها ، وأهمل جوانبها ... وعبارتى فيما يختص بى من الكلام « ونحن نقول » ، وماعدا ذلك فهو نقل لما ذكره المصنف نفسه .. » ، وفى خاتمة هذه النسخة (ل ١٥٤ ب) دعاء تليه الإشارة إلى أنه قد تم نسخه فى الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٣ هـ بيد محمد بن أبى بكر بن إسماعيل السيوفى . فتأكدت أنه كتاب آخر غير كتابنا وإن تشابها فى الموضوع والغاية ،

(١) راجع عنه وعن دوره فى الرد على أسئلة الملك فردريك إلى الملك الكامل - الحركة الفكرية ص ١٤٩ ، والحياة العقلية ص ١٥٤ .

فهو يتميز ببسط في العبارة ، بينما يعتمد كتابنا إلى الإيجاز الشديد حتى ليعبر عن المسائل المختلفة بالحروف بدلا من الكلمات «أما أ فكذا وأما ب فجوابها كذا . . الخ» ، كما أن الخونجي ينص على أن سيبدأ آراءه الخاصة بقوله (ونحن نقول) بينما نجد الآمدى فى مثل هذه المواضع يعبر بقوله : (وأنا أقول) كما فى ل ١٤ ، ١٠ ب وغيرهما ، كما أن حجمه يبلغ ضعف كتابنا تقريبا .

وخلاصة القول أن هذا الكتاب «المتأخذ» لعللاقة له إطلاقا «بأبكار الأفكار» وأنه - على سبيل القطع أيضا - تلخيص (للمطالب العالية) ونقد له ، وأنه يختلف عن كتاب الخونجي فى نفس الموضوع ، وأنه كما أشرت فى كلامى على كشف التموهيات ، قد يكون هو (كتاب المتأخذ على الإمام الرازى) الذى ذكره مؤرخو الآمدى وظنوه (كشف التموهيات) مع أن الكشف شرح لإشارات ابن سينا ، ولعللاقة له بالإمام الرازى وآرائه ، وهذا قصارى ما أستطيع قوله الآن .

وأختم كلامى عن كتب الآمدى بذكر باقى هذه الكتب ، مما لم أستطع تحديد موضوعه ، أو العلم الذى يتناوله . ثم بكلمة موجزة عن ملامحه العامة مؤلفاً وكاتباً :

أ- الكتب المجهولة الموضوع :

١- كتاب الغرائب وشرح العجائب فى الاقترانات الشرطية- مجلد :

لم يذكره غير البغدادى فى هدية العارفين (١ / ٧٠٧) وأرجح أنه فى استانبول ، ويجوز أن يكون كتابا فى المنطق ، وأن اسمه قد دخله بعض التحريف ، أو فى موضوع آخر لانملك تحديده .

٢- الفريدة الشمسية :

ذكره بروكلمان فى الملحق نقلا عن مجلة جمعية المستشرقين الألمانية العدد ٩٠ ص ١١٦ ، وقال : «إنه يوجد بمكتبة مدينة فى الحجاز برقم ٤٤٤ أ» ولايعرف موضوعه أيضا .

٣- منتهى السالك فى رتب المسالك :

ذكره ابن أبى أصيبعة فى طبقات الاطباء ١٧٥ / ٢ والبغدادى فى هدية العارفين

٧٠٧/١ ، ولا يدري مضمونه ، ولا مكان وجوده الآن .

هذا وقد سلفت الإشارة إلى ثلاثة كتب أخرى نسبت إلى الآمدى هي : تفسيره سورة يس ، ودقائق الإخبار (نسبهما إليه بروكلمان) ، وغرر الدر - مختصر حكم الإمام على التى جمعها الشريف المرتضى (نسبها إليه واضع فهرست مكتبة المخطوطات العربية بجامعة برنستون) وقد بينتُ فيما سبق حقيقة هذه الكتب الثلاثة وأنها ليست للآمدى .

ب- بقى أن أشير إلى ملاحظات سريعة على الآمدى تميز أسلوبه فى التأليف، وتلفت نظر من يقرأ له؛ فمن ذلك :

١- عنايته البالغة بتحقيق المذاهب والآراء حول المسألة التى يتناولها بالبحث ، وتحرير محل النزاع قبل الدخول فى مناقشة الآراء وعرض أدلتها للخلوص إلى الرأى الراجح، أو الاعتراف بالعجز عن تحديده مع ترك الباب مفتوحاً لمن يأتى بعده . ويتمثل هذا بوضوح فى كتبه الكلامية والأصولية ، وقد أشرت إلى نماذج منه^(١) ، وسيأتى فى القسم الثانى من هذه الدراسة شواهد عديدة على ذلك .

٢- ومحاولته هضم المسائل المختلفة المتناثرة فيما يتناوله من العلوم ؛ ليعيد توزيعها ونظمها فى مباحث كلية قليلة العدد ، وأكثر ما يتمثل هذا فى كتبه الأصولية ، وقد أشرت فيما سبق إلى تنويه بعض العلماء بهذه السمة فى مؤلفاته .

٣- وعنايته باختيار عناوين كتبه وأسمائها ، وتأنقه فى ذلك مع غلبة طابع الجناس والسجع الذى ساد فى عصره ، وإن كان لا يتخرج من استعارة بعض هذه الأسماء ممن سبقوه ، كما أشرت إلى ذلك فيما يتعلق بغاية المرام ، والإحكام وغيرهما .

٤- واختصاصه بعض أمراء عصره ، ممن عُرِفَ عنهم الاشتغال بالعلم وتقدير أهله، بإهداء بعض مؤلفاته إليهم ، كما أشرت إليه فيما يتعلق بالإحكام وكشف التمويهات والمبين .

٥- وعنايته بالأسلوب، ولئن كان يبدو فى بعض الأحيان معقداً غامضاً ، فربما كان مرجع ذلك إلى طبيعة الموضوعات ودقتها من ناحية ، وإلى غلبة أسلوب الجدل

(١) انظر الإحكام - ط سنة ١٩٦٨ - ٣ / ٧٦ ، ٨١ ، ٦٩ ، وغاية المرام وخصوصاً فى أول كل مسألة .

وتقسيماته المطولة من ناحية أخرى ، فضلا عن إسرافه أحيانا في استخدام الأفكار والمصطلحات المنطقية كما في غاية المرام - وقد أشرت إلى ذلك في تعليقتي على هذا الكتاب الأخير. وربما كان أنصع كتبه أسلوبا هو كتاب (الإحكام في أصول الأحكام) الذى ألفه فى دمشق فى أخريات حياته .

٦- واتجاهه إلى اختصار كتبه الكبار فى ختصرات موجزة كما فعل بالنسبة إلى (الإحكام) (والأبكار) ، وهى ظاهرة أخذت تشيع فى عصره وفى العصور اللاحقة .

٧- وحرصه على أن يشرح كتب السابقين بدلا من التأليف إذا وجد ما يدعو إلى ذلك ، كما فعل بالنسبة للإشارات والتنبيهات وبعض المؤلفات فى علم الجدل والخلاف قبله ، غير أنه لم يُكثِر من ذلك . وهذه ناحية تكملها ناحية أخرى فى تأليفه ، وهى حرصه فى الوقت نفسه على نقد هؤلاء السابقين فيما يرى أنهم أخطئوا فيه ، ويتمثل هذا بوضوح فى موقفه من الإمام الرازى فى كتاب المآخذ الذى تحدثت عنه فيما سبق ، وفى غاية المرام أيضا فهو فيه يتعقب الشهرستانى فى كثير من آرائه التى أبداها فى نهاية الأقدام ، وينقل عنه نصوصه ، ثم يناقشها دون أن يسميه ومع التصريح باسمه أحيانا كما بينته فى التعليقات على (غاية المرام) .

٨- ونلاحظ أخيراً أنه أصدر فى مصر عدیدا من الكتب التى تشمل مجالات مختلفة من الثقافة الإسلامية : كالكلام والجدل والخلاف والأصول والمنطق والفلسفة ، كما تؤكد ذلك الإحالات التى يتضمنها كتاب (أبكار الأفكار) وسبق ذكر نماذج منها . وسواء ألف هذه الكتب فى مصر أو أظهرها فيها وكانت معه عند قدومه إليها ، كما قد يفهم من عبارة بعض مؤرخيه ، فهى فترة من حياته تمتاز بالخصوبة والإنتاج وتنوع الاهتمامات ، ولاغرو فقد قضى الرجل على ضفاف النيل أهم سنى حياته ما بين الأربعين والستين ، بدأها معيدا ، وانتهى خلالها إلى مرتبة التصدر ، وعاش للعلم والتعليم لم تشغله المناصب أو تثقله المسئوليات .

بينما نجده بعد مفارقتة مصر يكاد يقتصر فى (حماة) على الإنتاج الفلسفى ، إذ أصدر هناك المبين وكشف التمويهات ، وهى فترة قصيرة لاتزيد على خمس سنوات ، ولعله نقح فيها أعمالا سابقة شجعه على إتمامها أمير حماة ذو الميول الفلسفية كما يستفاد من مقدمة كتابه (كشف التمويهات) .

أما الفترة الأخيرة في دمشق فقد توفّر فيها - في الأغلب - على التأليف في أصول الفقه فأصدر «الإحكام والمنتهى»، ولعل مانعرفه عن ميول الملك المعظم الذي استدعاه من حماة، وأسند إليه الإشراف على المدرسة العزيزية، وما أعقب وفاته من ظروف مضطربة غير مواتية، تجعل اقتصاره على هذا الضرب من المؤلفات أمراً مفهوماً.

بقى الآن أن نتناول (منهج الآمدى) في دراساته الكلامية، لنخلص من ذلك إلى بيان آرائه ومواقفه من مسائل الكلام في الباب الثاني بإذن الله.

* * *

الفصل الرابع

منهجه

تمهيد :

ينهج الآمدى فى دراساته الكلامية منهجا يعتمد على النظر العقلى والدليل الشرعى معا ، غير أنه يوسع من نطاق الاعتماد على البرهنة العقلية ؛ إغالا فى النزعة العقلية التى سادت لدى متأخرى الأشاعرة واقتربت بهم من المنهج الاعتزالى . ويقف موقفا متسامحا من منهج (الذوق الصوفى) .

وهو يميل - من حيث صورة الفكر وصياغته - إلى استخدام المنطق الصورى الأرسطى ، مع نقد صارم للمناهج الكلامية التقليدية ، دون أن يجره ذلك إلى تبنى الآراء الفلسفية نفسها ، بل يحتفظ دائما بموقفه النقدى المتحرر إزاءها ، وقد يتخذ منها - كمتكلم - موقف الخصومة أحيانا كثيرة . وقد احتفظ الآمدى بروحه النقدية تلك وهو يناقش شيوخ المذهب الأشعرى نفسه مع أنه من أتباع هذا المذهب .

ولبيان هذه الملامح التى يتسم بها منهجه ، نُفرد لكل منها مبحثاً خاصاً :

الأول : عن موقفه من النظر العقلى .

الثانى : عن موقفه من المناهج الكلامية الأخرى .

والثالث : عن موقفه من المنطق الصورى .

(أ) موقفه من النظر العقلى

يبدأ الآمدى كتابه (غاية المرام) بالكلام عن إثبات «واجب الوجود»، ولكنه لا يختم هذا «القانون» حتى يتكلم عن نفاة النظر العقلى، ويناقش اعتراضاتهم عليه^(١). بينما نجد في (الأبكار) يخصص لهذا الجانب المنهجى ثلاث قواعد من بين القواعد الثمانية التى يقوم عليها الكتاب، وهى أبحاث كلامية تقليدية فى المعرفة والنظر العقلى وطرق الاستدلال، نجدها فى الكتب الكلامية^(٢) الأخرى.

النظر العقلى والعلم:

فى القاعدة الأولى من (الأبكار) يتكلم الآمدى عن (حقيقة العلم وأقسامه)^(٣)، فيستعرض تعريفات الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة للعلم، ويناقشها جميعا، حتى تعريفات (الشيخ الأشعرى) نفسه، فيصفها كلها - بأنها (مدخولة)^(٤). ثم يقرر صعوبة تعريف العلم، واختلاف المتأخرين فيه بسبب ذلك^(٥)، ويختار هو فى تعريفه أنه: «عبارة عن صفة يحصل بها لنفس المتصف تمييز حقيقة ما غير محسوسة»^(٦). ويلم يعد ذلك بجملته أبحاث، ينتهى منها إلى تقسيم العلم إلى أولى - أى بديهى - وإلى نظرى - أى كسبى - والأخير يعتمد على الأول، وطريق تحصيله منه، هو النظر العقلى الذى يبدأ بالشك لينتهى إلى اليقين، أو المعرفة الجازمة، أو بعبارة أخرى: العلم.

وهنا يذكر الآمدى أن (الشك لا يبعد أن يكون مأمورا به فى الفروع الاجتهادية، وأما الشك فى الله - تعالى - فقال الباقلانى وأبو هاشم: لا يمتنع أن يكون مأمورا به حيث وجب النظر ولا يتم لإلابة^(٧) وهذا رأى - فيما يبدو - هو الذى هاج ثائرة ابن حزم فقال: «والله ما سمع سامع قطُ بأدخل فى الكفر من قول مَنْ أوجب الشك فى الله تعالى، وفى صحة النبوة، فرضا على كل متعلم»^(٨).

(١) انظر ص ١٥ - ٢٣ . (٢) كالمواقف ج ١ ، ٢ ، والشامل الجزء الاول ، والمغنى ج ١٢ .

(٣) الأبكار ١ / ١٢ وما بعدها . (٤) الأبكار ١ / ١٣ .

(٥) الأبكار ١ / ٣ ب . (٦) الأبكار ١ / ١٣ ، ب .

(٧) نفس المرجع والصفحة . (٨) الفصل ٤ / ٢٢٧ ، وانظر ايضا الجزء ٥ / ١١١ .

أما الآمدى فإنه يرى أن النظر قد يقع من غير سابقة شك ، ولو كان النظر متوقفا على الشك ، فليس من الواجب أن يكون مأمورا به . ولكنه لا يدع هذه المسألة حتى يحقق رأى الباقلانى ويدافع عنه ، فيقول : «إن بدء حصول الشك غير مقدور فلا يؤمر به ، أما استمراره فقد يدخل فى الأمر ؛ حيث يمكن إزالته بالنظر أو إبقاؤه بترك النظر ، والعادة جارية بوقوع العلم بعد الشك ، وإذن فرأى القاضى حق . وهكذا يتضح أن الشك الذى يقول به الباقلانى ، هو الشك الذى جرت العادة بوقوع العلم بعده ، أى هو الشروع فى البحث للتحقق من جليلة الأمر وإزالة الشك طلباً لليقين ، وليس هو الكفر الذى يتحدث عنه ابن حزم (١) .

حقيقة النظر العقلى :

يستعرض الآمدى التعريفات المختلفة للنظر ، ويناقشها كعادته (٢) ، ثم يقول : «وأما نحن فالذى نختاره أن نقول : النظر عبارة عن تصرف العقل فى الأمور السابقة ، المناسبة للمطلوبات بتأليف وترتيب ؛ لتحصيل ما ليس حاصلًا فى العقل» (٣) .

ثم يتحدث عن شروط النظر ، وأهمها سلامة العقل ، ولكن ما العقل ؟ إنه يعرفه بأنه «عبارة عن العلوم الضرورية التى لاخلو لنفس الإنسان منها ، بعد كمال آلة الإدراك ، ولا يشاركه فيها شئ من الحيوانات» (٤) .

ثم يناقش الآمدى شبهة نفاة النظر العقلى على النحو الذى نجده فى «غاية المرام» ، ونجده مفصلاً فى الكتب المتأخرة (٥) ، وقد أشرت فى تعليقاتى على كتاب «غاية المرام» إلى تأثيره فى ذلك بالإمام الغزالى فى «القسطاس المستقيم» (٦) .

وهو يرد على نفاة النظر المثبتين للمعرفة الحسية ، بأننا نصل إلى حقائق كلية ، والكليات غير محسوسة ؛ فوجب أن يكون مدركها شيئاً آخر وهو العقل (٧) ، الذى يدرك البديهيات عند اكتماله دون توقف على شئ آخر (٨) ، ويحصل على النظريات

(١) الأبيكار ١ / ١١٤ . (٢) انظر الأبيكار ١ / ١٥ ب ، ١١٦ .

(٣) الأبيكار ١ / ١٦ ب . (٤) الأبيكار ١ / ١٨ ب .

(٥) انظر غاية المرام ، والجزئين الأولين من شرح المواقف ، وشرح النسفية ص ٦٢ - ١٧٣ ، وقارن بالمعنى ١٢

/ ١٢٦ وما بعدها . (٦) انظر ١٦ غاية المرام والقسطاس المستقيم ص ٢٥ ، ٥٦٥ .

(٧) الأبيكار ١ / ٢٣ ب ، ١٢٤٥ . (٨) انظر غاية المرام ص ١٥ وما بعدها .

عن طريقها باستخدام قواعد المنطق^(١) .

ويؤكد الآمدى التلازم بين النظر والعلم ، ولكن لاعلى النحو الذى تقول به الفلاسفة وهو (الإيجاب) ، ولا مايقول به المعتزلة من (التوليد) ، كما سيأتى بيانه فى الباب التالى^(٢) ، وبعد أن يقسم الآمدى النظر العقلى إلى جلى وخفى ، ويرد تفاوتهما إلى الاستناد إلى الضروريات بوسائط قليلة أو كثيرة ، أو إلى التفاوت فى كلال القريحة وحدتها^(٣) ، ينتقل إلى الكلام عن :

وجوب النظر :

فيقول : أجمع أكثر أصحابنا والمعتزلة وكثير من أهل الحق من المسلمين ، على أن النظر المؤدى إلى معرفة الله - تعالى - واجب . غير أن مدرك وجوبه عندنا الشرع ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن مدرك وجوبه العقل دون الشرع^(٤) .

ويعرض - بعد ذلك - استدلال الأشاعرة على وجوبه شرعا :

(أ) بالنصوص الدالة على ذلك ، من نحو قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فى السموات والارض ﴾^(٥) ، ثم يعقب بأنها على كل تقدير ، غير خارجة من الحجج الظاهرية والأدلة الظنية^(٦) ، وهو رأى يتأثر بموقفه من الدليل السمعى كما سيأتى بيانه .

(ب) ثم بالإجماع ، ويبدو أنه يميل إليه ويؤثره ، إذ يقول الآمدى : « قالوا : أجمعت الأمة من المسلمين على وجوب معرفة الله تعالى ووجوب معرفة الله لا يتم إلا بالنظر ، إذ هو غير بديهى ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب »^(٧) .

ويتصدى الآمدى بعد ذلك للإشكالات التى ترد على هذا الاستدلال ، ومنها : « لانسلم أنه لا طريق إلى معرفة الله - تعالى - إلا النظر والاستدلال ، بل أمكن حصولها بطريق آخر ، إما بأن يخلق الله - تعالى - للمكلف العلم بذلك من غير واسطة ، وإما بأن يخبره به من لا يشك فى صدقه ، كما يؤيد بالمعجزات القاطعة ، وإما بطريق السلوك

(١) غاية المرام والأبكار ١ / ١٨ ب (٢) انظر الفصل الثالث من الباب الثانى فيما يلى .

(٣) انظر الأبكار ل ١ / ١٩ وما بعدها . (٤) الأبكار ١ / ٢٤ ب .

(٥) الآية ١٠١ من سورة يونس عليه السلام . (٦) الأبكار ١ / ١٢٥ .

(٧) الأبكار ١ / ٢٥ ب

والرياضة ، وتصفية النفس ، وتكميل جوهرها ، حتى تصير متصلة بالعوالم العلوية عامة بها ، مطلعة على مظاهر وبطن ، من غير احتياج إلى دليل ، ولا تعلم ولا تعليم^(١) .

ويجيب عن هذا الاعتراض بما يدل على سماحته الفكرية وتفتُّحه العقلي إذ يقول : « نحن إنما نقول بوجوب النظر في حق من لم يحصل له العلم بالله - تعالى - بغير النظر ، وإلا فمن حصلت له المعرفة به من غير نظر ، فالنظر في حقه غير واجب »^(٢) .

اعتراضات أخرى ضد النظر :

ومن أهم الاعتراضات التي يعرض لها الآمدي في هذا الصدد ، ما يلي :

١- إن في كل عصر عواماً لا يستطيعون النظر ولا يتمكنون منه ، وقد قضى النبي ﷺ بصحة إيمانهم دون نظر .

٢- لم ينقل عن النبي ﷺ والصحابة الخوض في النظر والاستدلال على مسائل الكلام ، ولو حدث لَنُقِلَ كمسائل الفقه ، ولو كان واجبا لكانوا أولى به^(٣) .

٣- إنكار النبي ﷺ على البحث في مثل هذه المسائل ، حيث أنكر على الصحابة كلامهم في القدر ، وقال : « عليكم بدين العجائز » وهو الكف عن النظر^(٤) .

٤- إن في القول بوجوب النظر بالشرع ضرباً من التناقض أو الدور ، إذ معناه أن يتوقف وجوب النظر على استقرار الشرع ، وهو لا يستقر إلا استناداً إلى النظر^(٥) . ويدفع الآمدي هذه الاعتراضات على النحو التالي :

١- فيقول بشأن الاعتراض الأول : إن المعرفة الواجبة ، تنقسم إلى ما حصولها عن معرفة الدليل الإجمالي لا التفصيلي ؛ بأن لم يكن مقدوراً على تحريره وتقريره ودفع الشبه الواردة عليه ، وإلى ما حصولها عن الدليل المعلوم بجهة التفصيل ، فلا جرم اختلف الأصحاب :

(١) الأبهكار ١ / ٢٥ ب ، ١٢٦ .

(٢) الأبهكار ١ / ٢٣ أ وقد نقل ابن تيمية هذا الجواب في كتابه الموافقة - النسخة المصورة - ل ١٧٦ .

(٣) انظر الأبهكار ٢٤ ب ، ١٢٥ . (٤) انظر الأبهكار ١ / ١٢٦ ، وهذه العبارة .

(٥) الأبهكار ١ / ٢٦ ب

أ- فمنهم من قال : المعرفة بالاعتبار الأول واجبة على الأعيان ، أى فرض عين على الجميع ، والمعرفة بالاعتبار الثانى واجبة وجوب كفاية ؛ أى على العلماء خاصة .

ب- ومنهم من قال : المعرفة بالاعتبار الثانى واجبة على الأعيان ، لكن إن كان الاعتقاد موافقا للمعتقد الصحيح من غير دليل ولا شبهة ، فصاحبه مؤمن عاص بترك النظر الواجب .

ج- ومنهم من اكتفى فى المعرفة بمجرد الاعتقاد الموافق للحق ، وإن لم يكن عن دليل وسماه علما .

وهكذا يعرض الآمدى موقف الأشاعرة من إيمان العوام والمقلدين ، ومنه يتبين أنهم رغم تفاوتهم فى السماحة والتقدير لموقف هؤلاء العاجزين عن الاستدلال النظرى ، لا يذهبون إلى حد التعسف الذى ينسبه الآمدى إلى بعض المعتزلة : « وصار أبو هاشم من المعتزلة إلى أن من لا يعرف الله بالدليل فهو كافر ، وأصحابنا مجمعون على خلافه » (١) .

ومن هذا يتبين أن الحملة التى يشنها البعض - كابن حزم مثلاً - على الأشاعرة (٢) ، من أنهم يوجبون على الناس الاستدلال ، ويرفضون إيمان العوام مخالفتين لطريقة النبى - ﷺ ، هى حملة لا مبرر لها . ولئن تراوح القوم بين بعض التشدد - كما نجده عند عبد القاهر البغدادى مثلاً - (٣) وفرط السماحة والتيسير على العوام - كما نجده عند الإمام الغزالى مثلاً (٤) فإنهم لا يذهبون فى تشددهم إلى المدى الذى قال به بعض المعتزلة الذين هم أجدر بمثل هذه الحملة من الأشاعرة .

ولقد كان ابن تيمية أكثر إنصافاً حين قال عن الأشاعرة : « إنهم مع إيجابهم النظر يقولون بإيمان العامة » (٥) .

بقى أن نقول : إن رأى الأخير من الآراء الثلاثة السابقة ، هو أقرب لما يراه الإمام الغزالى (٦) . أما رأى الثانى فينسبته فى « الأبكار » إلى أبى المعالى الجوينى . ويميل هو

(١) الأبكار ١ / ٢٧ ب ، ١٢٨ . (٢) انظر الفصل ٤ / ٣٥ .

(٣) انظر أصول الدين له ص ٢٣١ ، والفرق بين الفرق ص ١٠ ، ١١ .

(٤) انظر إجماع العوام ص ٢٩٧ - ٣٠١ وبحث العقل والتقليد لاستاذنا د . قاسم ضمن « دراسات فى الفلسفة » ص ١٩١ - ١٩٤ .

(٥) انظر الموافقة - النسخة المصورة ل ١١٧٦ . (٦) قارن بالمراجع الواردة فى هامش ٣ .

إلى الرأى الأول ، إذ يعرض فى موضع آخر لإيمان المقلد فيؤكد أنه صحيح ، ويرد على من اشترط من الأشاعرة كون الإيمان عن دليل ، بما ثبت عن النبى - ﷺ - من قبول إيمان الأعراب وأمثالهم ممن لا طاقة لهم على النظر^(١) . وهذا هو الرأى الذى ينتصر له ابن حزم ويبالغ فى ذلك^(٢) ، ويؤيده ابن رشد أيضا^(٣) .

ثم يقول الآمدى لنفاة وجوب النظر شفقة بالعوام : إما أن نختار القول الثالث ، ونقول : إن النظر غير واجب أصلا ، ويكفى الاعتقاد الموافق للحق ولو عن غير دليل . وإما أن نأخذ بالرأى الأول ، وعندئذ فالواجب هو الدليل الإجمالى الذى لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء ، أما الدليل التفصيلى فهو واجب على العلماء خاصة^(٤) .

٢- أما الاعتراض الثانى فيرد عليه الآمدى بأن عدم نقل ذلك عن النبى وأصحابه إنما يرجع إلى أنه لم يكن فى زمانهم ما يحوج إلى ذلك النقل ، أما أن يكونوا جاهلين بأدلة هذه المسائل ، وبمعرفة الله - تعالى وصفاته ، مع صفاء أذهانهم وشدة قرائحهم ، وما عُرِف من إخلاصهم فى البحث عن قواعد الدين وتحقيق مراسمه ، والكتاب والسنة مشحونان بأدلتهم مع معرفة الآحاد منا لذلك - فهو بعيد لا يعتقده من له أدنى تحصيل^(٥) .

وهذا الرأى قريب مما يقرره ابن رشد قبله : « القرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار ، وتنبيه على طرق النظر^(٦) » وابن تيمية فيما بعد ، وقد ألف رسالة خاصة فى هذا المعنى هى « معارج الوصول إلى معرفة أن أصول الدين وفروعه بينها الرسول » ، وفيها ينتقد هؤلاء الذين يشتغلون بالقرآن من جهة أخباره لامن جهة دلالاته^(٧) ؛ فلا يفتنون إلى ما فيه من الأدلة العقلية على إثبات الربوبية والوحدانية والنبوة والمعاد .

فيذا لم يكن قد نقل هذا عن السلف ، فليس ذلك راجعا إلى عدم وجوده ، أو اهتمامهم به ، وإنما هو لعدم الحاجة الى نقل ذلك ومدارسته ، لاستغناء الجميع بما فى آيات القرآن من أدلة ، وما فى القلوب من يقين ، لقرب العهد بالنبوة ، فلما تطورت

(١) الأبيكار ٢ / ٢٦١ ب ، ٢٦٢ ب . (٢) الفصل ٥ / ١٠٩ - ١١٢ .

(٣) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ٨٠ ، ٨٥ ، ومناهج الأدلة ص ١١ - ١٢ ، ١٤٩ .

(٤) الأبيكار ١ / ٢٧ ب ، ١٢٨ . (٥) الأبيكار ١ / ١٢٨ ب .

(٦) مناهج الأدلة ص ١٤٩ . (٧) انظر الرسالة المذكورة ص ٩ ما يليها .

الظروف ، دعت الحاجة إلى تحرير هذه الأدلة وتدارسها على النحو المعروف لدى علماء السلف ، شأن سائر العلوم الأخرى ، يقول الآمدى : « كما لم ينقل عنهم أنهم وضعوا كتباً في التفسير والحديث ، والجرح والتعديل ، والناسخ والمنسوخ ، والأحكام الفقهية مع الترتيب الخاص ، والمراسم المعهودة في زماننا هذا ، مع أنهم أعلم الناس بأصولها وفروعها ، وإليهم مرجعها وهم ينبوعها » (١) .

٣- أما الزعم بأن النبي ﷺ أنكر على النظر العقلى وحرّمه ، فإن الآمدى يرفضه بشده ، لما ثبت من جوب النظر بالنص والإجماع ، ولثناؤه - تعالى - « على النظر والناظرين في كتابه الكريم ، من نحو قوله سبحانه ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ۖ ﴾ الآية (٢) .

على أنه قد ثبت فعلاً أن النبي ﷺ وبعض الصحابة ، ناظروا وناقشوا بعض الناس في أمور تتصل بالعقيدة ، وهنا يشير الآمدى إلى قصة ابن الزبير وغيره من أهل مكة ومجادلتهم للنبي ﷺ (٣) ، وإلى مناقشات ابن عباس والإمام على - كرم الله وجهه - للخوارج وغيرهم (٤) .

أما الآيات أو الأحاديث الواردة في النهي عن المجادلة في الدين ، فهي خاصة بما كان الدافع إليه الهوى ، أو حبّ الغلبة ، أو التشكيك في الحق وإغواء الآخرين ، وهذا التخصيص ضرورى في نظره حتى تتسق تلك النصوص مع النصوص الأخرى التى تحت على النظر والاعتبار وتثنى على أهلها (٥) .

والترفة بين المباح والمحرم من المناظرة في الدين نجدها عند النسفى الماتريدى (٦) من قبل ، وعند ابن تيمية فيما بعد (٧) .

٤- أما الإشكال الأخير القائم على فكرة « الدور » فيرد عليه الآمدى بقوله : « إن الوجوب الشرعى غير متوقف على النظر ، بل على إمكان النظر » (٨) ، ويحيل على

(١) الأبهكار ١ / ٢٨ ب . (٢) الآية ١٩١ من سورة آل عمران .

(٣) انظر خبر ابن الزبير ، وإسلامه فيما بعد في تفسير ابن كثير ٣ / ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٤) انظر الأبهكار ١ / ١٢٨ - ٢٩ ب . (٥) الأبهكار ١ / ١٢٩ .

(٦) انظر بحر الكلام ص ٤ . (٧) انظر ابن تيمية السلفى ص ٥٦ .

(٨) الأبهكار ١ / ١٢٩ .

ما ذكره من قبل ، وهو أن النظر إنما يجب على المكلف بالشرع الذى لا يحتاج فى استقراره إلى النظر العقلى حتى يلزم الدور ، بل يكفى فيه وجود العقل والدلائل المنصوبة ، كالمعجزات مثلاً ، فإذا آمن المرء بالنبوة عن هذا الطريق استقرت الشريعة ، ولزمته الأحكام الشرعية ، ومنها وجوب النظر العقلى^(١) .

ولكن يبدو أن الآمدى لا يطمئن تماماً إلى رده هذا ويرى أنه لا يحسم فكرة الدور نهائياً ، فيناقش المعتزلة قائلاً : وأنتم أيضاً تلزمكم فكرة الدور فى قولكم بوجوب النظر بالعقل ، فللمدعو أن يقول للنبي : لا أنظر فى معجزتك حتى أعرف وجوب النظر بالعقل ، ولا أعرف ذلك ما لم أنظر ؛ فيكون دوراً^(٢) » وبعد أن ناقش الآمدى فكرة (الخاطر) الاعتزالية ، وبين أنها منافية للمشاهد من أحوال الناس^(٣) يقول : « إن العقل يعرف الترجيح لا أنه المرجح^(٤) » ، وهذه المسألة - على العموم - تتصل من جهة بمسألة التحسين والتقبيح العقليين . ومن جهة أخرى بموقف الآمدى ومتأخرى الأشاعرة من الدليل السمعى وسيأتى الكلام عنهما ، ولكن الآمدى يختم رده هنا بما يدل على عدم حسمه لفكرة « الدور » ؛ إذ يقول : « وعلى الجملة فمسألة وجوب النظر ظنية قطعية^(٥) » .

ثم يعرض الآمدى للمسألة المتداولة فى علم الكلام عن (أول واجب على المكلف)^(٦) أهو المعرفة نفسها ، أم النظر ، أم أول أجزائه ، أم القصد إلى النظر ، أم الشك ؟ وبعد أن يناقش هذه الآراء ويدافع عن وجهة نظر أصحابها ، يقرر أن المقصود بالذات هو المعرفة بالله تعالى ، فإن لم يتم إلا بالنظر ، فقد يكون من الواجب على المكلف إرادة النظر ؛ لتحصيل ذلك ، فإن مضى عليه وقت يمكن النظر والتوصل إلى المعرفة فى مثله من غير عذر ، فهو كافر ، وإلا فهو معذور كمن مات صبياً^(٧) .

والآمدى حين يعترف بالنظر العقلى طريقاً إلى المعرفة بالله ، يجرى على تقاليد

(١) انظر الأبهكار ١ / ٢٦ ب . (٢) الأبهكار ١ / ٢٩ ب .

(٣) انظر الأبهكار ١ / ٢٩ وانظر أيضاً فى نقدها أصول الدين للبغدادى ص ٢٦ - ٢٨ .

(٤) الأبهكار ١ / ١٢٩ . (٥) الأبهكار ١ / ٢٩ ب .

(٦) الأبهكار ١ / ٢٩ ب ، ١٣٠ . (٧) انظر الأبهكار ١ / ١٣٠ .

المذهب الأشعري الذي قام منذ البداية على دعامين من العقل والنقل^(١) ، وظلت النزعة العقلية تنمو فيه ، وتتعاظم حتى بلغت أوجها على يد الرازي والآمدي ، كما يلاحظ ذلك بعض العلماء القدامى والمحدثين^(٢) .

والاعتداد بالعقل في هذا المجال الديني ، هو سمة المدارس الفكرية الإسلامية جميعاً ، عدا بعض الصوفية والباطنية وطوائف الحشوية من أدياء السلفية . فأما الفلاسفة الإسلاميون فاعتدادهم بالعقل ومناهجه لا يحتاج إلى دليل ، وكذا المعتزلة الذين هم رواد هذا الميدان بين المتكلمين . وأما الماتريدية فرموا كانوا أكثر اعتداداً بالعقل وأحكامه من الأشاعرة ، يقول النسفي الماتريدي : « كل عاقل بالغ يجب عليه ، بالعقل ، أن يستدل بأن للعالم صانعاً كما استدل عليه إبراهيم - صلوات الله عليه - وأصحاب الكهف رضى الله عنهم .. غير أن من لم يبلغه الوحي لا يكون معذروا بخلاف ما قالت المتقشفة والأشعرية »^(٣) ، وهو يقصد بالمتقشفة غلاة الحنابلة كما صرح به في موضع آخر^(٤) .

وقد لاحظ استاذنا الدكتور محمود قاسم وضوح الطابع العقلي في المدرسة الماتريدية ، واستدل عليه بشواهد عديدة^(٥) ، وهذا ما حاول المستشرق جولد تسيهر الاستدلال عليه أيضاً فأخطاه الدليل ، إذ استشهد بمسألة وجوب النظر بالعقل عند المعتزلة ، وبالشرع عند الأشاعرة ، ثم قال عن موقف الماتريدية : « وأما الماتريدية فيقولون : إن واجب الإيمان بالله أساسه الأمر الإلهي ولكن هذا الأمر يدركه العقل ، أى أن العقل وإن لم يكن المرجع للإيمان ، فإنه الأداة في ذلك »^(٦) ، ومن عجب أن ينقل ذلك أحد الباحثين ليستدل به على أن الماتريدية أقرب إلى الأشعرية منها إلى الاعتزال^(٧) . والحق أن الماتريدية في هذه المسألة مع المعتزلة ، كما يدل نص النسفي الماتريدي الذي نقلته آنفاً ، ولعله أدق تعبيراً عن موقف أصحابه من جولد تسيهر ، هذا

(١) انظر الشامل ١ / ٢٠٨ ، ٢٠٩ والاقتصاد ص ٦ والأشعري أبو الحسن ١٣٧ - ١٤١ ونشأة الفكر ١ / ٢ من المقدمة .

(٢) انظر تبیین کذب المفتری ص ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ومجموعة التفسير لابن تيمية ص ٣٢٠ ، والأشعري أبو الحسن لحمودة غرابة ص ١٣٨ ، ١٣٩ وما سيأتي في الفصل التالي .

(٣) بحر الكلام ص ٥ ، ٦ وهو يؤكد نفس المعنى في ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) نفس المرجع ص ١٤ . (٥) انظر مقدمة مناهج الأدلة ص ١٢٠ - ١٢٦ .

(٦) العقيدة والشرعة في الإسلام ص ١١١ . (٧) انظر المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ص ٤٨٢ .

فضلا عن أن ما ينسبه هذا الأخير إلى الماتريدية ، يقول به الأشاعرة أيضا ، وقد مر بنا قول الآمدي : إن العقل يعرف الوجوب المستفاد من الشرع ، وليس هو المرجع في ذلك (١) .

أما السلف ، فقد يُظنّ بهم البعد عن استخدام العقل في مسائل العقيدة ، والحق أنهم يعتمدون عليه في اتخاذ المعجزة دليلا على الرسالة ، وفي استنباط ما يحتوية القرآن والسنة من الأدلة العقلية ، وقد روى السيوطي قول الإمام السمعاني في كتابه (الانتصار لأهل الحديث) : « لانكر النظر قدر ماورد به الكتاب والسنة ، لينال المؤمن بذلك زيادة اليقين ، وثلج الصدر ، وسكون القلب » (٢) ويقول ابن الجوزي الحنبلي : « فإن أعظم النعم على الإنسان العقل ، لأنه الآلة في معرفة الإله ، والسبب الذي يتوصل به إلى تصديق الرسل (٣) » وقد مر بنا إنكار ابن تيمية على أدعياء السلفية الذين يحتاجون بالقرآن من جهة إخباره بالعقائد لامن جهة إثباته لها بالأدلة العقلية ، وقد أيد هذا الموقف ودافع عن النظر العقلي طريقا إلى العلم في العقائد وغيرها ابن الوزير اليماني (٤) ، والشاطبي (٥) ، وابن حزم (٦) . وقد بين أستاذنا الدكتور النشار دور أئمة السلف في بيان العقائد القرآنية ، وتأسيس علم الكلام السني (٧) ، وقال :

« ومن العجب أن يكون للسلف - وقد أنكروا علم الكلام - أيضا مذهب كلامي فلسفي ، وهم يهاجمون الكلام والفلسفة » (٨) .

وهكذا يتبين لنا أن الأخذ بمناهج العقل ، أمر تلتقى عليه المدارس الفكرية الإسلامية جميعا (٩) ، ولم يكد يخرج على ذلك سوى الحشوية الذين يرد عليهم الآمدي في الأبكار : « أما قول الحشوية : إنه لا طريق إلى العلم واستدراك مطلوب من المطلوبات إلا بالكتاب والسنة ، ففي غاية البطلان ؛ فإننا لو قدرنا عدم ورود السمع والأدلة السمعية ، لقد كنا نعلم وجود الرب تعالى وحدوث العالم ، وما يتعلق بأحكام الجواهر والأعراض وغير ذلك من المسائل العقلية ، وليس مدرك ذلك كله غير الأدلة العقلية . وأيضا فيقال لهم : فبم عرفتم أن هذا كتاب الله وسنة رسوله ؟ فإن قالوا :

(١) راجع ما مر في ص ١٥٧ . . (٢) صون المنطق والكلام ص ١٧١ .

(٣) تلبس إبليس ص ٢ ، ٣ ، وانظر أيضا ص ٧٩ منه . (٤) انظر ترجيح أساليب القرآن ص ٩٦ .

(٥) انظر الاعتصام ١ / ٣٨٠ . (٦) الفصل ٥ / ١٠٩ .

(٧) انظر نشأة الفكر ١ / ١ / ٢٦٦ - ٢٩٣ . (٨) نشأة الفكر ١ / ٣٨ .

(٩) انظر هامش ص ١٨ من غاية المرام .

عرفناه به ، كان دَوْرًا ، وإن قالوا : عرفناه بغيره ، فهو المطلوب»^(١) ، وهذا يشبه رد ابن رشد على هذه الطائفة في مناهج الأدلة^(٢) .

وقد سبق للقاضي عبد الجبار أن ناقش^(٣) هؤلاء الذين يقولون : إن سائر العلوم مفتقرة إلى السمع ، وشبه الأشاعرة بهم في قولهم بعدم وجوب الثواب والعقاب إلا بعد ورود السمع .

أما الصوفية الذين يعتدون بمنهج الرياضة الروحية طريقاً إلى المعرفة ، بأن يكشف الله لهم عن الحقائق بلا بحث ولا نظر ، فقد مر بنا موقف الآمدى منهم ، وعدم إنكاره لهذا المنهج ، وإن كان يقترح تكميله بطريق النظر ، وعرض نتائجه على العقل : « ولا بد للمرتاض من استعمال نوع من النظر أحياناً يميزه بين الكمال من المكاشفة ومادونه ، والجامع بين طريقى النظر والرياضة ، يبلغ من المعارف الإلهية مبلغاً عظيماً »^(٤) . وهو يتفق في هذا مع الغزالي^(٥) وابن رشد^(٦) بل وابن تيمية أيضاً^(٧) . أما الباطنية من الشيعة – ويقصد بهم الآمدى الإسماعيلية – فهو يهاجم منهجهم الباطنى فى تفسير القرآن دون شاهد من العقل أو اللغة^(٨) . ويرفض قولهم « بالتعليم » ، ويرى أنه إذا كان هناك شخص تؤخذ عنه معارف لا يشوبها الباطل فهو الرسول المعصوم^(٩) نفسه . مما يذكرنا بمحاورة الغزالي مع صاحبه الباطنى فى القسطاس المستقيم^(١٠) . وهكذا يختار الآمدى الاعتماد على العقل فى مسائل الدين . ويحدد مواقفه من الفرق المختلفة فى ضوء هذا الأصل .

ولكن الفكر الإسلامى لا يقوم على العقل وحده ، بل هو دائماً يتردد بين قطبين من العقل والنقل ، وإن تفاوت اقتترابه من كل منهما حسب القضايا المختلفة ، واتجاهات المفكرين فيها . فما موقف الآمدى من الدليل السمعى ، ومن سائر المناهج الكلامية الأخرى ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه فى المبحث التالى ، بإذن الله .

(١) الأبهكار ٢ / ٢١٧ ب . (٢) انظر مناهج الأدلة ص ١٣٤ ، ١٣٥ ومقدمته لأستاذنا د / قاسم ص ١١ .

(٣) فى المغنى ١١ / ٥٠٦ .

(٤) المآخذ ل ١٣ وانظر شرح النسفية ص ١٧٠ ، ١٧٣ حيث تجد مثل هذا المعنى .

(٥) انظر دراسات فى الفلسفة الإسلامية ١٦٣ - ١٦٥ .

(٦) انظر مناهج الأدلة ١٤٩ ومقدمته ٢٣ ، ٢٤ . (٧) انظر الرسالة القبرصية ٢٩ ونقض المنطق ٣٥

(٨) انظر الأبهكار ٢ / ١٢٤٨ . (٩) نفس المرجع ل ٢٥٠ ب .

(١٠) انظر القسطاس ص ٧١

ب - موقفه من المناهج الكلامية الأخرى

تمهيد :

فى القاعدة الأخيرة من القواعد الثلاث التى خصصها الآمدى للمسائل المنهجية ، فى كتابه «أبكار الأفكار» بحث «الطرق المؤدية للمطلوبات النظرية»^(١) ، وقد بدأ ببيان مايراه طريقاً صحيحاً ؛ وهو عبارة عن الحد المستوفى لشروطه بالنسبة للتصورات ، والبرهان العقلى المستوفى لشروطه أيضاً ، من حيث المادة والصورة بالنسبة للتصديقات ، وسنعالج ذلك فى المبحث الأخير من هذا الفصل .

وناقش الآمدى بعد ذلك «ما ظن أنه من الأدلة المفيدة لليقين وليس منها»^(٢) ، فتناول المناهج الكلامية التقليدية بالنقد ، وحدد موقفه منها ، وربما كان أخطر ما يضمه هذا الفصل هو ما يتعلق بموقفه من الدليل السمعى ، ولذا فسأبدأ به ، ثم أتبع ذلك بالمسائل الأخرى ، كل منها فى فقرة خاصة :

١ - الدليل السمعى :

عدّ الآمدى بين هذه الطرق - التى لا تحصل اليقين ، وإن ظنّ أنها كذلك - «الاستدلال بما يتوقف كونه دليلاً على معرفة مدلوله» ، وذلك كالأستدلال بكلام الله تعالى على صدق رسوله ووجود البارئ تعالى ونحوه ، ثم يقول بعد ذلك مباشرة : «وهو دور ممتنع ، حيث إننا لا نعرف المذكور من كلام الله إلا بعد معرفة وجوده وصدق رسوله . فإذا توقفت معرفة وجوده وصدق رسوله على معرفة كلامه ، كان دوراً ، فهذه الطرق غير يقينية ، وإن كان بعضها مفيداً للظن»^(٣) .

وبهذا يفصح الآمدى عن موقفه من الدليل السمعى ، وأنه ليس حجة إلا فيما يعرف بالسمعيات ، وهى شئون المعاد وما يتعلق به من أمور العقيدة ؛ إذ يمكن أخذه سماعاً ، أو عن طريق الرواية ، عن النبى ﷺ بعد ثبوت وجود مُرسِله ، وهو الله تعالى ، وكونه هو نبيا صادقاً ، دون أن تعترض ذلك شبهة الدور المشار إليها . وقد عاد الآمدى

(١) انظر الأبكار ١ / ٣٠ ب وما بعدها . (٢) الأبكار ١ / ٣٨ او ما بعدها .

(٣) الأبكار ١ / ٤٠ ب

إلى تفصيل أفكاره فى هذا الصدد فى فصل خاص عقده للدليل السمعى من كتابه المذكور : فبدأ بتعريفه قائلا : « والدليل السمعى فى العرف هو الدليل اللفظى المسموع ، وفى عرف الفقهاء : هو الدليل الشرعى ، وهو عندهم منقسم إلى : الكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس والاستدلال »^(١) . وبعد أن ذكر سبب انحصاره فى هذه الأقسام قال : « وقد عرفنا كل واحد فى غير هذا من كتبنا »^(٢) ، ثم أضاف : « وأما فى عرف المتكلمين ، فإنهم إذا أطلقوا الدليل السمعى ، فلا يريدون به غير الكتاب والسنة وإجماع الأمة »^(٣) .

وقد تحدث الآمدى عن هذا الدليل من حيث سنده ، ومن حيث متنه ، فذكر أنه ينقسم بالاعتبار الأول - إلى ماهو قطعى الثبوت ، وماهو ظنى الثبوت . وبالاعتبار الثانى إلى ماهو ظنى الدلالة ، وما هو قطعيها^(٤) .

ويخلص من ذلك إلى بيان دور هذا الدليل فى المباحث الكلامية ، فيقول : وأما أن الدليل السمعى هل يفيد اليقين أم لا ؟ .

فذهبت الحشوية إلى أنه مفيد لليقين ، حتى بالغوا ، وقالوا : « لا يعلم شىء بغير الكتاب والسنة »^(٥) .

وذهب آخرون إلى أنه غير مفيد لليقين ؛ لأنه موقوف على أمور ظنية^(٦) . ويذكر الآمدى حجة هؤلاء ، وهى تتلخص فى أن الدليل السمعى من حيث نقله عن النبى ﷺ ، ومن حيث دلالة على معناه ، تنطرق إليه احتمالات عديدة تجعله ظنيا غير يقينى فلا ينبغى الاعتماد عليه فى الأمور القطعية ، فمن ذلك أن نقله فى الغالب يكون بطريق الآحاد ، وحتى لو كان متواترا فالعمل به يتوقف على ثبوت عدم تعارضه مع العقل من جهة ، ومع سائر النصوص الشرعية من جهة أخرى ، إذ قد ينسخ بأحدها أو يخصص . وبعد هذا كله ، فإن دلالة على معناه احتمالية ، وسبب ذلك أن نقل معانى ألفاظ اللغة

(١) الأبهكار ٢ / ٢١٥ ب .

(٢) الأبهكار ٢ / ٢١٥ ب ومثل هذا النص يؤيد ما رجحته من تأليفه فى أصول الفقه كتبها غير الأحكام والمنتهى اللذين ألفهما فى آخريات حياته .

(٣) الأبهكار ٢ / ١٢١٦ . (٤) انظر الأبهكار ٢ / ١٢١٦ .

(٥) راجع ما مر فى ص ١٥٧ . (٦) الأبهكار ٢ / ١٢١٧ ، ٥ ب .

عن أصحابها آحادى فى الأكثر ، على أن اللفظ الواحد ، والعبارة الواحدة ، تحتمل أكثر من معنى بسبب الاشتراك والتجوز والحذف والإضمار ، والتقديم والتأخير ، ونحوها مما يجعل الدلالة غير قطعية .

ثم ينتقد الآمدى الرايين السابقين ؛ أما رأى الحشوية ، فلأن النبوة نفسها ، لا تثبت بغير العقل كما سبق . وأما رأى الآخر ، فلأن دعواهم أن الدليل السمعى مطلقا ، لا يفيد إلا الظن ، إنما تصح أن لو لم تقتزن به قرائن تفيد القطع ، وإلا فبتقدير أن تقتزن به قرائن مفيدة للقطع فلا ، ولا يخفى أن ذلك ممكن (١) .

وينتقل إلى بيان رأيه الخاص قائلا : « وإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الدليل ، إما أن يكون عقليا محضا ، كأدلة حدث العالم ، ووجود الصانع قبل ورود السمع . ومنه ما لا يعرف بغير الدليل السمعى ، كالأحكام الشرعية من وجوب الصلاة ، وتحريم الخمر ونحوه . ومنه ما يمكن معرفته بكل واحد من الطريقتين ، كخلق الأفعال ورؤية الله تعالى » (٢) .

وبعد هذه النصوص التى تكاد تُلَمَّ بأطراف الموضوع ، ينبغي لنا أن نقارن موقفه هذا بموقف أصحابه الأشاعرة ، ثم نتلمس المصدر الذى تأثر به هو ومن يشاركونه هذا الموقف منهم ، ثم نبين مدى التزامه به فى أبحاثه الكلامية ، وأخيرا نذكر رأينا فى هذا الموقف ونناقش الأسس التى يقوم عليها .

أولا : الأشاعرة بين النقل والعقل :

لقد أشرت من قبل ، إلى أن المذهب الأشعرى قام منذ البداية على دعامتين من العقل والنقل ، ولاغرو فقد ظل الشيخ أبو الحسن الأشعرى معتزليا نصف عمره ، ثم تحول إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، ولكنه اختار - أو هكذا قضت طبيعة الأمور - أقرب مدارسهم إلى المنهج العقلى ، وهى مدرسة ابن كلاب التى ترى استحسان الخوض فى علم الكلام ، وتأييد ما كان عليه النبى - ﷺ - وأصحابه بالأدلة العقلية (٣) .

ولقد وقف مؤرخو الفكر يتساءلون إزاء كتابى « الإبانة ، واللمع » للأشعرى ،

(١) الأبيكار ٢ / ١٢١٧ ، ب . (٢) الأبيكار ٢ / ٢١٧ ، ب .

(٣) انظر بغية المرتاد لابن تيمية ص ١٠٧ ونشأة الفكر د/ النشار ١ / ٣٠٣ وما بعدها .

فالأول نقلى إلى حد كبير، والآخر إلى مناهج العقل أقرب^(١). ويبدو لى أن الرجل كان همه فى الكتاب الأول موجهها إلى تحديد مواقفه الجديدة إزاء خصوم اليوم وأصحاب الأمس من المعتزلة، بينما كان يهدف فى الكتاب الثانى إلى تأييد مواقفه تلك بما انقدح له من أدلة، ومن ثم غلب عليه الطابع العقلى.

وأيا ماكان الأمر، فالمهم هو امتزاج النزعتين العقلية والنقلية فى التفكير الأشعرى منذ بدايته، وهو ما يؤكده الأشاعرة فيما بعد - كابن عساكر^(٢) والغزالي^(٣)، والجوينى الذى يدافع عن شيخه الأشعرى فى استناده إلى أدلة الشرع والعقل معا فى مسائل الكلام كمسألة وجود الله وغيرها^(٤). كما يؤكده غير الأشاعرة كابن تيمية^(٥) وابن القيم^(٦).

ويبدو أن هذا المزيج المتعادل من النقل والعقل ظلّ سائدا حتى الباقلانى، وقد رد الباقلانى فى كتابه «إعجاز القرآن» على من زعم أن إثبات وحدانية الله تعالى «مما لاسبيل إليه إلا من جهة العقل؛ لأن القرآن كلام الله عز وجل، ولا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولا^(٧)»، بأنه إذا ثبت إعجاز القرآن، وأنه لا يقدر على مثله إلا الله تعالى، ثبت صدق الرسول؛ وعندئذ يكون كل ما يتضمنه القرآن صدقا واجب الاتباع^(٨). ومعنى ذلك أن الباقلانى يرفض الأساس الذى قامت عليه فكرة «الدور» الإعتزالية التى كانت عندئذ توشك أن تتسرب إلى الأشاعرة.

ويقول ابن تيمية - بعد أن يشير إلى طريقة متأخرى الأشاعرة فى إثبات بعض الصفات بالعقل، وبعضها الآخر بالسمع -: «وأما مَنْ قبل هؤلاء، فيثبتون جميع هذه الصفات بالعقل، كما كان يسلكه القاضى أبو بكر ومن قبله كآبى الحسن الأشعرى، وآبى العباس القلانسى، ومن قبلهم كآبى محمد بن كلاب والحارث المحاسبى وغيرهما، وهكذا السلف والأئمة - كالإمام أحمد ابن حنبل وأمثاله - يثبتون هذه الصفات بالعقل

(١) انظر لى ذلك مقدمة كتاب اللمع تحقيق د/ غرابة. (٢) انظر تبين كذب المفتى ٣٩٧ - ٤٠٠.

(٣) انظر فاتحة كتاب الاقتصاد ص ٢، ٣. (٤) انظر الشامل ١ / ١٦٦، ٢٠٨، ٢٠٩.

(٥) انظر شرح العقيدة الأصفهانية ص ٧ وبغية المراتد ص ١٠٧ وفتاوى ابن تيمية ٥ / ٢٤٦.

(٦) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٤٦. (٧) إعجاز القرآن للباقلانى ١ / ٢٢.

(٨) نفس المصدر والصفحة.

كما ثبتت بالسمع ، وهذه الطريقة أعلى وأشرف من طريقة هؤلاء المتأخرين^(١) . ولعل هذا الموقف المنهجى ، هو الذى يفسر لنا عدم استخدام هؤلاء المتقدمين لسلح التأويل إلا فى حدود ضيقة كما سنرى فيما بعد .

ثم ظهرت بوادر التطور المنهجى بالميل المتزايد نحو العقل على يد عبد القاهر البغدادى ، وربما نجد بادرة من ذلك قبله عند الأستاذ أبى بكر بن فورك الذى سنلاحظ أنه يؤول سائر النصوص المتعلقة « بالصفات الخيرية » خلافا لما كان عليه شيوخه المتقدمون ، ونجده يقول : « وإنما أضيفت العلوم الشرعية إلى النظر ؛ لأن صحة الشريعة مبنية على صحة النبوة ، وصحة النبوة معلومة عن طريق النظر والاستدلال ، ولو كانت معلومة بالضرورة من حس أو بديهة ، لما اختلف فيها أهل الحواس والبديهة^(٢) . وفى هذا ميل إلى أن العقل أصل للشرع ، وهى الفكرة التى كانت أساسا لمبدأ « الدور » الذى ساد عند متأخرى الأشاعرة منذ الجوينى ومن جاءوا بعده .

فلما جاء الجوينى ، صرح بأن ظواهر السمع لا يسوغ الاستدلال بها فى العقليات : « والظواهر التى هى عرضة التأويل لا يسوغ الاستدلال بها فى العقليات^(٣) ، بل نجده يأخذ عن المعتزلة^(٤) تقسيمهم الثلاثى للمسائل الكلامية : ما يدرك بالعقل وحده ، وما يدرك بالسمع وحده ، وما يدرك بهما معا . ويرتب على ذلك أن وجود البارى وحياته وأن له كلاما ، لا يثبت به سمع ، فأما من أحاط بكلام صدق ونظر بعده فى جواز الرؤية وفى خلق الأفعال وأحكام القدرة - مما يقع فى هذا الفن - بعد ثبوت مستند السمعيات : فلا يمنع اشتراك العقل فيه^(٥) . وهذه هى نظرية الدور كما نجد لها عند الآمدى ، مع الاشتراك فى الأمثلة التى يتمثل بها أيضا .

وكان الغزالى الأشعرى - مع نزوعه إلى السلفية وعزوفه عن الكلام-^(٦) امتدادا

(١) شرح العقيدة الاصفهانية ص ٧ ، ٨ .

(٢) أصول الدين ١٤ ، ١٥ وانظر ايضا الصفحات ٢٤ ، ٢٥ وسنجد فيما بعد أن فى الأشاعرة وغيرهم من يقول : إن صحة النبوة لا تتوقف على النظر والاستدلال .

(٣) الشامل ٣١ / ٣١ وانظر ص ١٦٦ أيضا ، والجوينى إمام الحرمين ص ٦٤ .

(٤) هذه نقطة ساوضحها بعد قليل . (٥) الجوينى إمام الحرمين ص ١٤٤ .

(٦) انظر إجماع العوام ، ودراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٧٢ وما بعدها .

لشيخه ؛ إذ يقول : « أمر الظواهر هين ، فإن تأويلها ممكن . والبرهان القاطع لا يُدرا بالظواهر ، بل يتسلط على تأويل الظواهر ، كما فى ظواهر الآيات المتشابهات فى حق الله تعالى »^(١) . كما نجد عنده نفس التقسيم الثلاثى المشار إليه ، وفكرة الدور أيضا ، يقول فى الاقتصاد : « إن ما لا يعلم بالضرورة ، ينقسم إلى ما يعلم بدليل العقل دون الشرع ، وإلى ما يعلم بالشرع دون العقل ، وإلى ما يعلم بهما ، أما المعلوم بدليل العقل دون الشرع ، فهو حدث العالم ووجود المحدث وقدرته وعلمه وإرادته ، فإن كل ذلك ما لم يثبت ، لم يثبت الشرع ؛ إذ الشرع ينبنى على الكلام ، فما لم يثبت الكلام النفسى لم يثبت الشرع الخ »^(٢) .

ومن بعد الغزالى ، نجد أن المنهج العقلى قد غلب على علم الكلام كله ، كما يلاحظ ذلك أستاذنا الدكتور النشار ، ويمثل له بقول الشهرستانى : « كل ماهو معقول ، ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال ، فهو من الأصول ، وكل ماهو مظنون ويتوصل إليه بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع »^(٣) ، والشهرستانى يقول قبل ذلك : « والأصول موضوع علم الكلام ، والفروع موضوع علم الفقه » .

فلما جاء الرازى ، قرر نفس الأفكار التى نقلناها عن الآمدى أول هذه الفقرة^(٤) ، ونكتفى هنا بنص موجز عن المحصل « الدليل اللفظى لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة : عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ ، وإعرابها وتصريفها ، وعدم الاشتراك ، والمجاز ، والنقل ، والتخصيص بالإشخاص والأزمنة ، وعدم الإضمار ، والتأخير ، والتقديم ، وعدم المعارض العقلى الذى لو كان ، لرجح عليه ؛ إذ ترجيح النقل على العقل يقتضى القدح فى العقل المستلزم للقدح فى النقل ؛ لافتقاره إليه ، وإذا كان المنتج ظنيا فما بالك بالنتيجة ؟ »^(٥) ثم يقول : « النقليات بأسرها ، مستندة إلى صدق الرسول ، فكل ما يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم به ، لا يمكن إثباته بالنقل وإلا لزم الدور . أما الذى لا يكون كذلك . فكل ما كان خبرا بوقوع ما لا يجب عقلا وقوعه ، كان الطريق إليه

(١) معارج القدس ٩٢ ويؤكد نفس المعنى فى إجماع العوام - ضمن القصور العوالى ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) الاقتصاد ص ١٢١ .

(٣) نشأة الفكر للدكتور النشار ١ / ٤٦٢ وانظر الملل والنحل - بهامش الفصل ١٠٠ / ٥١ .

(٤) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ . (٥) المحصل ص ٣١ .

النقل ليس إلا .. والخارج عن القسمين يمكن إثباته بهما معا^(١) .

وهكذا نجد أن الفكر الأشعري قد انتهى في تطوره من الناحية المنهجية إلى :

(أ) أن العقل أصل للشرع ؛ ومن ثم فلا يصح الاستدلال على المسائل الكلامية المتعلقة بوجود الله وصفاته مما تتوقف عليه صحة النبوة بالدليل السمعي وإلا صار الأصل فرعا ، وهو دور متناقض .

(ب) أن دلالة النصوص الشرعية على معانيها ظني في الغالب بحكم طبيعة اللغة ، كما أن كثيرا من هذه النصوص كأغلب الأحاديث النبوية - منقول بطريق ظني أيضا ، ومن ثم فهي لا تقوى على معارضة الدلالة العقلية القطعية ، ولذا وجب تأويل النصوص التي يتعارض ظاهرها مع ما يقطع به العقل كالنصوص الموهمة للتشبيه . وسرى في الفقرة التالية أن الأشاعرة يلتقون مع المعتزلة تماما ، وبالأخص مدرسة أبي هاشم الجبائي وأصحابه ، في هذه الناحية المنهجية . وكثيرا ما نبه الأستاذ الدكتور محمود قاسم إلى التقارب بين الأشاعرة المتأخرين والمعتزلة ، وعن بعض فضلاء الباحثين^(٢) بهذا التقارب في المجال المنهجي بصفة خاصة ، وسأورد الآن من النصوص ما يؤكد ذلك .

ثانيا - فكرة « الدور » عند المعتزلة :

هذه الأفكار السابقة عن قيمة الدليل السمعي ، ومجال الاستدلال به في المسائل الكلامية - وخاصة فكرة « الدور » - ظهرت من قبل عند بعض مفكري المعتزلة من مدرسة أبي هاشم الجبائي ، وبالتحديد عند القاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري اللذين عبرا عنها تعبيراً واضحاً ، وحاولا الاستدلال عليها في أكثر من كتاب :

(١) يتعرض القاضي عبد الجبار لمسألة النقل والعقل والعلاقة بينهما ومجال كل منهما ، في مواضع عديدة من كتبه^(٣) ، وسأقتصر هنا على بعض النصوص الحاسمة ،

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) كالمرحوم د/ حمودة غرابة في كتابه الأشعري أبو الحسن ص ١٣٨ ، ١٣٩ والمرحوم الزركاني في بحثه عن « الرازي وآراؤه » ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٣) انظر مثلاً المغنى ١٥ / ٢٦ - ٢٩ ، ٣٥ ، ٥٢ ، ١٢٨ - ١٣٢ ، ١٠٩ - ١٢٧ ، ٣١٣ ، ٣٤٠ وشرح الاصول الخمسة ٨٨ ، ١٩٤ .

كقوله في المغنى : قد بينا من قبل أنه «أى الخطاب الشرعى» لا يدل على ما لولا العلم به لما علم كونه دلالة ، لأن ذلك يوجب كون الفرع دالا على أصله ، وذلك يتناقض . . .
 فلهذه العلة ، لا يجوز أن يدل الخطاب على التوحيد والعدل ومقدمتهما ؛ لأننا لانعلمه دلالة إلا بعد العلم بجميع ذلك . . . وقد تقصينا القول فى ذلك فى مقدمة متشابه القرآن^(١) . ثم يحاول تحديد مجال الدليل السمعى : «قد بينا أنه يعقل بالسمع ماله تعلق بالتعبد ؛ لأنه إنما يرد من جهة الحكيم على طريقة الدلالة ، ولا يحق أن يدل المكلف إلا على ما يستفيد به العبادة أو ما يتصل بأمر تعبد وترغيب وزجر وتخويف»^(٢) . وفيما سبق تصريح بفكرة الدور ، وتحديد لنطاق الدليل السمعى فى المسائل العملية الشرعية ، وما يتصل بالثواب والعقاب ، وهو ما وجدناه تماما لدى هؤلاء المتأخرين من الأشاعرة .

وإذا كان عبد الجبار يشير إلى أنه قد بين ذلك فى كتابه «متشابه القرآن» فقد أشار فى موضع آخر من «المغنى» إلى أنه قد شرحه أيضا فى كتاب ثالث له وهو «النهاية فى أصول الفقه»^(٣) ، كما أوضحه أيضا فى كتاب آخر طبع حديثا بمصر هو «شرح الأصول الخمسة» كما أشرت آنفا . فإذا كانت هذه الأفكار قد ظهرت محددة لدى المعتزلة - قبل أن يقول بها هؤلاء الأشاعرة بأكثر من نصف قرن من الزمان ، مع ثبوت اطلاعهم - وخاصة الرازى والآمدى - على كتب هؤلاء المعتزلة كما أوضحته فى الباب الأول ، فإن ذلك يعطينا الحق فى تحديد مصدر هذه الفكرة المنهجية .

ب- أما أبو الحسين البصرى فيقرر هذه الأفكار نفسها فى نص مطول فى كتابه «المعتمد» فى أصول الفقه نجتزئ منه بما يلى : «اعلم أن الأشياء المعلومة بالدليل ، إما أن يصح أن تُعلم بالعقل فقط ، ككل ما كان فى العقل دليل عليه ، وكان العلم بصحة الشرع موقوفا على العلم به ، كالمعرفة بالله وصفاته ، وأنه غنى لا يفعل القبيح ، فيجب تقديم هذه المعارف على الشرع ؛ فلم يجز كون الشرع دليلا عليها . فأما ما يصح أن يُعرف بالشرع وبالعقل ، فهو كل ما كان فى العقل دليل عليه ، ولم تكن المعرفة بصحة الشرع موقوفة على المعرفة به كالعالم بأن الله واحد لاثنى له فى حكمته . فأما ما يعلم

(٢) المغنى ١٧ / ٩٥ .

(١) المغنى ١٧ / ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) المغنى ١٧ / ١٠٣ .

بالشرع وحده ، فهو ما فى السمع دليل عليه دون العقل ، كالمصالح والمفاسد الشرعية وما له تعلّق بهما . . . نحو كون الصلاة واجبة ، وشرب الخمر حراما ، وغير ذلك . . .» (١) .

وفى هذا النص ، نلتقى بفكرة الدور و بالتقسيم الثلاثى للمسائل الدينية حسب نوع الدليل المقبول فيها . أما كون الدلالة الظاهرية للنص قابلة للتأويل والصرف عن الظاهر - إن تعارضت مع دلالة العقل - فهى فكرة اعتزالية أيضا (٢) . وربما كان الجديد الذى أضافه المتأخرون من الأشاعرة هو فكرة إسقاط المعارض العقلى المحتمل للنص التى قال بها الرازى ، ونسبها ابن تيمية إلى الرازى ومن تبعه (٣) .

ثالثا - مدى التزام الأمدى بهذا الموقف المنهجى :

يبدو لى أن الأمدى قد التزم بموقفه هذا من الدليل السمعى فى كتابه « أبكار الأفكار » ، أما فى « غاية المرام » فقد ازداد غلوا فى الاعتماد على الدليل العقلى وحده ، وتضييق النطاق الذى يستند فيه إلى الأدلة السمعية . ودراسة آرائه الكلامية فيما بعد ستوضح لنا هذا ، ونذكر الآن عدة نماذج لذلك التطور :

(١) فى مسألة الرؤية ، وهى إحدى المسائل التى نص الأمدى - فيما سبق - على أنها مما يمكن إثباته بالعقل والشرع معا ، نجده يستند - فيما يتعلق بجواز الرؤية - إلى هذين الطريقتين معا فى « أبكار الأفكار » (٤) ، بينما يقتصر على الدليل العقلى وحده فى غاية المرام ؛ إذ يقرر أن الدليل النقلى فى ذلك لا يصلح إلا مع المعترفين بالرسالات ، المصدقين بالنبوات (٥) ، قائلا : « وعلى الجملة ، فلسنا نعتد فى هذه المسألة على غير المسلك العقلى الذى أوضحناه ؛ إذ ما سواه لا يخرج عن الظواهر السمعية والاستبصارات العقلية ، وهى مما يتقاصر عن إفادة القطع واليقين ؛ فلا يذكر إلا على سبيل التقريب ، واستدراج قانع بها إلى الاعتقاد الحقيقى . . .» (٦) . وفى هذا النص ما

(١) المعتمد ٢ / ٨٨٦ ، ٨٨٧ .

(٢) انظر منهج الزمخشري فى التفسير ص ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٤٤ - ١٤٩ .

(٣) انظر موافقة صحيح المنقول ١ / ٨ وما بعدها والمآخذ ١٣١ ب .

(٤) انظر الأبكار ١ / ١٣٦ ب - ١١٤٢ . (٥) انظر ص ١٧٤ .

(٦) انظر ٦٩ ب من غاية المرام

يدل على إحساسه بتطور مسلكه في هذه المسألة وتأكيده لذلك ، علما بأن الرازي - شريكه في موقفه من الدليل السمعي - يرى أن العمدة في جواز الرؤية ووقوعها إنما هو السمع^(١) . كما أن الشهرستاني لا يطمئن إلى الدليل العقلي في بيان جواز الرؤية كل الاطمئنان^(٢) . ومن الواضح أن جواز الرؤية وعدم جوازها ، ليست مما تتوقف صحة النبوة عليه .

(ب) وفي مسألة الوجدانية ، وقد نص المعتزلة أنفسهم - كما سبق - على صحة الاستدلال عليها بالسمع ، وفعل هو ذلك في (الأبكار) ونص على أنه يتابع في ذلك بعض الأصحاب وحقاق المعتزلة^(٣) ، وقد رجحت في تعليقاتي على « غاية المرام » أنه يقصد فخر الدين الرازي والجبائي والقاضي عبد الجبار وأبا الحسين البصري^(٤) - فإنه في « غاية المرام » لا يستدل عليها إلا بالدلة العقلية^(٥) .

(ج) وأما مسألة (الكلام) التي قال الغزالي - وهو أحد أصحاب المنهج المشار إليه أيضاً - : « إن بعض المحققين قد اعتمد فيها الدليل السمعي » ، وارتضى الرازي فيما بعد هذا الاستدلال في بعض كتبه^(٦) - فنجد الآمدى يستدل عليها في (الأبكار) بالطريقتين العقلية والسمعي ، ويصحح الدلالة السمعية فيها وينفي عنها شبهة الدور^(٧) . بينما يرى في غاية المرام أنها (مع تقاصرهما عن ذروة اليقين ، فالاحتجاج بها إنما هو فرع ثبوت الكلام ..) أي أنه يرفض الاستدلال بها بسبب مبدأ الدور ولكونها ظنية الدلالة^(٨) .

وهكذا سائر المسائل الكلامية لا يعتمد الآمدى فيها - في كتابه (غاية المرام) - إلا على الدليل العقلي ، اللهم إلا في مسائل (السمعيات) من بَعَثٍ وحشر ، وميزان ، وجنة ونار ، فإنه ينتصر فيها - بإخلاص وحرارة - لما ثبت من نصوص الشرع ، ويشدد على مَنْ رفضها أو أولها من الفلاسفة والمعتزلة وغيرهم^(٩) ، وإن كان يتحامل على

(١) انظر الأربعين ص ١٩٨ والمحصل ص ١٣٨ والمعالم ٥٩ - ٦٧ .

(٢) انظر نهاية الأقدام ٣٥٧ ، ٣٦٩ . (٣) الأبكار ١ / ١٦٧ . (٤) انظر ص ١٥٣ .

(٥) انظر ص ١٥٣ - ١٥٥ . (٦) انظر غاية المرام ل ٤٠ ب .

(٧) انظر الأبكار ١ / ١٨٤ ، ٨٥ ب . (٨) غاية المرام ٤٠ ب .

(٩) انظر ل ١١٥ من غاية المرام .

المعتزلة بهذا الصدد ، كما سأوضحه فى الفصل الأخير من هذه الدراسة .

وهكذا نجد أن العقل قد طغى على النقل لدى هذا المفكر الأشعرى إلى حدّ تجاوز فيه ما ذهب إليه أسلافه ممن تأثروا بهذه القاعدة الاعتزالية ، بل لعله تجاوز أيضا موقف هؤلاء المعتزلة أنفسهم . والآن سنقول كلمتنا فى موقفه هذا فى ضوء المناقشة الموضوعية للدواعى التى لعلها دفعته هو ومن يوافقه من المتأخرين إلى اتخاذ هذا الموقف .

رابعا - نقد هذا الموقف من الدليل السمعى :

نجد من العرض السابق أن التوازن الدقيق ، الذى كان الأشاعرة يفخرون بإقامته ، بين العقل والنقل قد أصابه الاهتزاز ، ورجحت كفة العقل فى المسائل الكلامية ، وخاصة لدى الآمدى إلى حد كبير . ولقد كان هذا مفهوما فى نطاق المذهب الاعتزالى الذى يقول بالتحسين والتقبيح العقليين ، ويرى جوب النظر بالعقل ولو لم يرد شرع . أما عند الأشاعرة الذين يرفضون التحسين والتقبيح العقليين ، ويرون أن النظر غير واجب لولا الشرع ، فإنه يبدو غير مفهوم ، ولذا نجد ابن تيمية يقول فى مناقشة أشعرى متأخر : « فأى اتباع للسمع والشرع إذا لم يثبت شىء من صفات الله بالشرع ، بل وجوده كعدمه فيما أثبتوه ونفّوه من الصفات ؟ فائمتهم كانوا يثبتون الصفات بالسمع وبالعقل ، أو بالسمع ، ويجعلون العقل مؤكداً فى الفهم . فأين اتباعهم للسمع والشرع ، وقد عزلوه عن الحكم والاحتجاج به والاستدلال به » (١) ؟ وهذا التطور المنهجى ، هو الذى دعاه إلى تأليف كتابه (الموافقة) لنقد طريقة الرازى والآمدى ومن تبعهما فى تقديم العقل على النقل (٢) ، وسأشير فيما يلى إلى بعض ماورد فى هذا الكتاب .

ويمكن تلخيص الأسس التى بنى عليها الآمدى موقفه من الدليل السمعى ، أو من سبقه إلى مثل ذلك الموقف ، فى أربعة أمور هى :

(١) كون الأدلة السمعية - كلها أو بعضها - ظنية الثبوت ؛ فلا يُستدل بها على القطعيات .

(٢) كونها ظنية الدلالة ؛ لعدة أسباب ترجع فى الجملة إلى طبيعة اللغة العربية خاصة ، أو اللغات بعامة .

(٢) انظر الموافقة ١ / ٨ وما بعدها .

(١) فتاوى ابن تيمية ٥ / ٢٤٦ .

(٣) فكرة الدور التي ترى في « الاستدلال بها على أصول العقائد ضرباً من التناقض ، حيث لم تثبت صحة النبوة بعد ، فكيف يستدل بالوحي المنزل على النبي ؟
(٤) أن في قبول الدلالة السمعية عند تعارضها مع العقل تقديم للفرع على أصله ، إذ العقل أصل الشرع ، وتقديم الفرع على أصله باطل .

وسنناقشها جميعاً فيما يلي :

١ - مسألة ظنية الثبوت :

مر بنا أن الدليل السمعي عند المتكلمين ، هو الكتاب والسنة والإجماع .

أ- فأما بالنسبة للكتاب فتواتره جملة وتفصيلاً ، إلا ما شذَّ من بعض وجوه القراءات ، مجمع عليه من المسلمين ، كما نقل ذلك الآمدي في (الإحكام) (١) ، وأكثر المسائل الكلامية ودلائلها فيه كما سبق نقله عن الغزالي وابن رشد وابن تيمية ؛ فماذا يمنع من الاستناد إلى آياته - من هذه الناحية - وكلها قطعية الثبوت ؟

ب- وأما الحديث فقد مر بنا كيف رفض الآمدي استدلال الأصحاب به في مسألة (الكلام) ووصفه بأنه غير مرتفع عن مرتبة الظنون ، مع أنه يقرر بنفسه - في الإحكام - أن منه الموثر الذي « اتفق الكل على أنه مفيد للعلم ... وأن العلم الحاصل عنه ضروري (٢) » ، وكذا خبر الواحد إذ احتفت به القرائن (٣) . وهذه نظرة علمية دقيقة ؛ فإن من الأخبار التي لم تبلغ درجة التواتر ما ينقدح في ذهن النقاد من العلماء صحتها على وجه يقرب من اليقين (٤) ، وكان أخرى بالآمدي أن يلتزم بها بدلاً من أن يردَّ الأحاديث التي تثبت كلام الله أو رؤيته ، ويصفها جملةً بأنها لا تفيد إلا الظن والتخمين . وأين هذا مما يقوله الأشعري في الإبانة : « جملة قولنا : أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، ومارواه الثقات عن رسول الله ﷺ لانرد من ذلك شيئاً » (٥) ؟ وإن كان من الواجب أن نذكر هنا أن الآمدي يعتمد على الأحاديث في باب السمعية متى صحت ولو لم تبلغ درجة التواتر ، كما فعل في

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام ١ / ١٤٧ - ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٨ .

(٣) الأبهكار ٢ / ١٢١٧ .

(٤) انظر الباحث الحثيث إلى مصطلح الحديث ص ٣٠ . (٥) الإبانة ص ٨ .

« غساية المرام » فى مسألة الشفاعة ، والصراط ، وعذاب القبر ، ونحوها (١) .

(ج) وأما الإجماع ، فإن الآمدى نفسه يصرح باعتباره حجة فى مسائل العقيدة ، قائلاً : « وأما التوحيد فلانسلم أن الإجماع فيه ليس بحجة » (٢) وهو يدافع عن الإجماع وإمكان وقوعه ولو لم يكن له مستند من النص (٣) ، وقد قال السلفيون وأهل الحديث بكون الإجماع دليلاً فى مسائل العقيدة (٤) . ومع ندرة وقوع الإجماع ، فإنه عند تحققه قلماً يخفى ، بل يتوافر الكثيرون على نقله ، مما قد يبلغ به درجة التواتر ، أو الاستفاضة التى تطمئن لها نفوس العلماء كما سبق ، وإذن فلا يمكن المجازفة بوصف الأدلة السمعية كلها ، قرآناً وحديثاً وإجماعاً ، بكونها ظنية الثبوت أو الإعراض عنها بسبب هذه الشبهة .

٢ - مسألة ظنية الدلالة :

وأما كونها ظنية الدلالة بسبب نقل معانى مفرداتها وصيغها بطريق آحادى ، وبسبب مرونة قواعد النحو والتصريف والنظم البيانى تقديم ، وتأخيراً ، ومجازاً ، وحذفاً ، ونحو ذلك ، فسأناقش تلك الأفكار أو أهمها ، معتمداً - كما سبق - على كلام الآمدى نفسه :

أ- أما ما قيل بشأن نقل مفردات اللغة ومعانيها وأنه آحادى ، فغير مُسَلَّم على إطلاقه ، فقد قال الآمدى فى (الإحكام) بشأن نقل اللغات : « وأما طرق معرفتها لنا ، فاعلم أن ما كان منها معلوماً بحيث لا يشك فيه ، فنعلم أن مدرك ذلك هو التواتر القاطع . ومالم يكن معلوماً لنا ، ولا تواتر فيه ، فطريق تحصيل الظن به إنما هو أخبار الآحاد ، ولعل الأكثر إنما هو الأول » (٥) . وقد نقل السيوطى فى « المزهرة » هذا رأى ونسبه إلى الرازى والآمدى : (قال الإمام فخر الدين الرازى والآمدى : وأكثر الفاظ القرآن من الأول أى المتواتر) (٦) وإذن فلا يحق لهما وصف الأدلة السمعية بكونها ظنية ، لأن نقلها آحادى هكذا على وجه الإجمال .

(١) انظر ص ٢٨٥ وما بعدها من غاية المرام .

(٢) الإحكام ١ / ٣٠٢ . (٣) الإحكام ١ / ٣٧٥ .

(٤) انظر الموافقة لابن تيمية ٢ / ١٨٠ ، والواسطية له أيضاً ص ١٦ ، وانظر أيضاً

(٥) الإحكام ١ / ٧٥ . (٦) المزهرة ١ / ٥٧ وانظره أيضاً ص ٣٨ ، ٤٢ .

ب- أما المجاز ونحوه من ضروب التصرفات اللغوية ، فهي وسائل للإبانة عن الغرض والمدلول لا لإخفائه . وقد عرض الآمدى فى (الإحكام) أيضا لمسألة المجاز ، ورد على نفاة وقوعه فى القرآن من الظاهرية والشيعة ؛ لتوهمهم أنه كذب ، وأنه من ركيك الكلام - بأن المجاز ليس كذبا ؛ لأن القرينة تدل على أن المراد المعنى المجازى لا الحقيقى ، وأنه ليس من ركيك الكلام ، بل ربما كان المجاز أفصح وأقرب إلى تحصيل مقاصد المتكلم البليغ من الحقيقة (١) . ويمكن أن نقيس على ذلك سائر الوجوه الأخرى التى ذكروها . على أن القرآن - وهو منبع العقائد الدينية - قد احتوى على نوعين من الآيات : المحكمات والمتشابهات ، وأوجب رد الثانية إلى الأولى ، فقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنِينَا بَأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (٢) لا يفهم إلا فى ضوء الآية الأخرى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٣) ، وهذا ما بينه الآمدى نفسه فى (الإحكام) (٤) . على أن القرآن لا يفسر بالمدلولات اللغوية وحدها ، بل بالأحاديث الثابتة وأفهام السلف من الصحابة والتابعين الذين هم أقدر على فهم المراد ، مما نقله علماء التفسير وحمله الآثار (٥) . ولذا لم يسع الجوينى - وهو أحد المتأثرين بتلك الفكرة - إلا أن يقول فى (الشامل) : « والظواهر التى هى عرضة التأويل لا يسوغ الاستدلال بها فى القطعيات ، ولكن لو استدلت بها وقرنت استدلالك بها بإجماع الأمة على أنها غير مؤولة ، بل هى محمولة على ظواهرها فيحسن الاستدلال - على هذا الوجه - بظواهر الكتاب » (٦) .

وقد ذكر ابن تيمية أنه ألف كتابا خاصا لرد فكرة (ظنية الدلالة) كما ألف (الموافقة) للرد على فكرتى الدور والمعارض العقلى - إذ يقول : « وقد بسطنا القول على ظنية نقل اللغة والنحو ، والتصريف ، ونفى المجاز ، والإضمار ، والتخصيص ، والاشتراك ، والنقل ، والمعارض العقلى للسمع . وقد كنا صنفنا فى فساد هذا الكلام مصنفا قديما من نحو ثلاثين سنة ، وقد ذكرنا طرفا من بيان فساد ، فى الكلام على المحصل ، فذاك كلام فى تقرير الأدلة السمعية وبيان أنها تفيد اليقين والقطع وفى هذا الكتاب (يقصد الموافقة) كلام فى بيان انتقاد المعارض العقلى وإبطال قول من زعم تقديم الأدلة العقلية مطلقا » (٧) .

(١) انظر الأحكام ١ / ٤٤ - ٤٧ . (٢) الآية ٤٧ من سورة الداريات .

(٣) الآية ١١ من سورة الشورى . (٤) انظر الإحكام ١ / ١٥٣ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣ - ٦ . (٦) الشامل ١ / ٣١ .

(٧) الموافقة ١ / ٩ ، ١٠ .

٣- مسألة الدور :

وأساسها أنه لا يمكن الاستدلال بالشرع ، ما لم يثبت وجود الله وكمالاته وأفعاله ،
التي منها إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات ، فإذا ما ثبت صدق الرسول ، أمكن أن نأخذ
عنه ما بقى من أمور العقيدة ، وهى « السمعيات » كما سبق . ولكن فى هذا كله نظرا من
وجوه عدة :

(١) أنه من الممكن أن ننظر إلى آيات القرآن كنصوص مقدسة ، أو خطابات إلهية
ملزمة ، عارية عن أية حجج أو دلائل ، وعندئذ فقد تبدو هذه الفكرة وجيهة . ولكن من
الممكن أيضا أن ننظر إليها كقضايا مشفوعة ببراهينها العقلية ، فإذا طرحنا هذه القضايا فى
علم الكلام ، فما يمنعنا أن نستند إلى هذه البراهين العقلية الواردة فى القرآن الكريم ؟ إنه
لا يمكن أن يكون المانع أنها أرقى - من الوجهة المنطقية - من أدلة المتكلمين التقليدية (١)
بالإضافة إلى كونها أقرب إلى قلوب البشر ، وأقل ذهابا فى شعاب الجدل كما يقرر
الآمدى نفسه (٢) . إن ابن رشد - وهو فيلسوف قبل أن يكون فقيها - قد اختبر هذه
الأدلة وقارنها بأدلة المتكلمين ، فوجدها خيرا من هذه الأخيرة بالنسبة للعلماء وللعمامة على
حد سواء (٣) . كما فطن ابن تيمية إلى أن أصول الدين مسائل ودلائل ، وكلاهما فى
الكتاب والسنة ، غير أن بعض المنسوبين إلى السنة أخذوا بالأولى وأهملوا الثانية . ولجد
هذا المعنى لدى بعض المتأثرين به (٤) . وقد نجد هذا المعنى لدى بعض المتكلمين أيضا
كالإمام الغزالى (٥) ، وشيخه الجوينى الذى رد على من قال : « إن الاستدلال بالقرآن على
الدهرية ونفاة الصانع لا يتحقق » بقوله : « إن شيخنا لم يستدل عليهم بنفس الآية ، وإنما
استدل عليهم بمعناها ، وهى تنطوى على وجه الحجاج » (٦) ، ولكن غلب عليهم منهجهم
الخاص .

(١) انظر مقدمة مناهج الأدلة ٨ - ١٠ ، ١٣٥ وما بعدها .

(٢) انظر المآخذ ل ٢٩ ب ، ١٣٠ ، وما مر فى أدلة وجود الله .

(٣) انظر مناهج الأدلة ١٤٨ - ١٥٤ .

(٤) انظر معارج الوصول لابن تيمية ص ٧ ، ٨ ، والموافقة ١ / ١٣ وما بعدها ، ومناهج السنة - بلاق - ٣ / ٢١

- ٢٤ وانظر أيضا اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ٢٢ - ٢٤ ، وشرح الطحاوية لابن أبى العز ص ١٣٧ ،

وإثبات الحق لابن الوزير ١٢٣ .

(٥) انظر القسطاس المستقيم ص ٦٩ . (٦) الشامل للجوينى ١ / ١٦٦ .

على أن مازعمه المتكلمون أدلة عقلية لانقلية ، هو - فى غالبه - أفكار وأقوال منقولة من كتب شيوخهم ، أو مروية عن فلاسفة قدماء ، فما الذى سوغ الاعتماد عليها والإعراض عن أدلة الكتاب والسنة بحجة أنها نقلية أو لفظية أو سمعية ، فهى لهذا ظنية لاتصلح للقطعيات ؟ وكما يقول ابن الوزير : « إن المتكلم ينظر فى كتب شيوخه ليتعلم منها الأدلة من غير تقليد ، فكذلك من نظر فى القرآن يتعلم منه الأدلة من غير تقليد » (١) .

ب- كما أنه من الممكن للناظر فى أمور الدين أن يبدأ بإثبات النبوة أولا ، فإذا تبين له صدق الرسول بالعقل ، تبعه فى كل ما جاء به سواء فى الإلهيات التى اعتبروها - أو أكثرها - عقليات محضة ، أم فى غيرها من السمعيات والأحكام العملية التى قبلوا فيها الدليل الشرعى ، ولعل هذا هو طريق السلف كما يقول ابن الوزير : « إن الدين قد جاء به الرسول ﷺ وفرغ منه ، ولم يبق بعد تصديقه بدلالة المعجزات الباهرات إلا اتباع الدين المعلوم الذى جاء به ، لاستنباطه بدقيق النظر كما صنعت الفلاسفة ، وعلى هذا درج السلف ، وكذلك قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجدله ما أنزل على محمد - ﷺ - » (٢) وعندئذ فلا محل للدور المزعوم .

ولقد ارتضى هذا الطريق عالم معاصر تدرس بالفلسفة والكلام والتصوف ثم اختار أخيرا هذا الموقف : نحن مع العقل حتى تثبت الرسالة ، فإذا تحقق الروحى الإلهى الصادق كان من العبث ، والمناقضة ، للعقل نفسه ، وللفلسفة الحققة ، ولمهج السلف الصالح : أن نعدل به غيره (٣) .

ج- هذا لو سلمنا لهم بكون العقل والنظر أصلا ، والشرع فرعا عنه ، فكيف وهناك من يقول بأن صحة الشريعة لاتتوقف على النظر العقلى ، لأن « دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية » وأن المنكر لما تدل عليه بعد تحقق أركانها مكابر جاحد للضرورة ، ومن هؤلاء الآمدى نفسه (٤) ، والجوينى أيضا أول الآخذين بفكرة الدور من الأشاعرة (٥) ؟ على أن الآمدى لا يكتفى بتقرير هذه الحقيقة ، بل يستخدمها فى الرد

(١) ترجيح أساليب القرآن ص ١٧ . (٢) إنبات الحق لابن الوزير ص ١١٥ .

(٢) هو أستاذنا الدكتور عبدالحليم محمود - انظر كتابه (الإسلام والعقل) ص ١٠٤ وما بعدها .

(٤) انظر الأبهكار ١ / ٢٦٠ . (٥) انظر الجوينى إمام الحرمين ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

على من اعترض من الخصوم على استدلال الأشاعرة لصفة الكلام بدلالة الإجماع ، وزعم أن في ذلك دورا ، من حيث إن الإجماع يستند إلى قول الرسول : « لا تجتمع أمتي متى على ضلالة » ، وصحة الرسالة مبنية على ثبوت صفة الكلام ، فيقول : « قولهم : هذا تمسك بالإجماع فيما يفضى إلى الدور ، ليس كذلك ، فإننا لانسلم أن صدق الرسول يتوقف على ثبوت كلام الله تعالى ولاعلى وجوده ، من حيث إن دلالة المعجزة على صدقه معلوم بالضرورة وبعد أن يثبت صدقه بالمعجزة فإذا أخبر عن وجود الله تعالى وصفاته وكلامه ثبت بإخباره عن غير دور^(١) . ومع أن هذه الفكرة يمكن أن تنقض مبدأ الدور من أساسه ، إلا أن الآمدى - فيما يبدو - كان يورد هذا الكلام الخطير من الناحية المنهجية على سبيل الجدل العابر ، وإلا فهو يقرر في نفس الكتاب مبدأ الدور - كما سلف - ويرى بسببه أن الدليل السمعى مما ظن أنه مفيد لليقين وليس كذلك ، ويرفض - من الناحية التطبيقية - الاستناد إلى الدليل السمعى ، وخاصة في كتاب (غاية المرام) ، فى جميع المسائل الكلامية إلا فى السمعيات كما سنبين فى الباب التالى تفصيلا .

٤ - تقديم العقل على السمع عند التعارض :

ونأتى إلى هذه الفكرة الأخيرة ، ولعلها من نتائج فكرة الدور ، إلا أن فكرة الدور يمكن أن تحول تماما دون الاستناد إلى النصوص الشرعية فى أمهات العقائد فقط ، كوجود الله تعالى وصفاته التى تتوقف عليها صحة الرسالة . أما هذه فتضعف الاعتماد على هذه النصوص فى سائر المسائل الأخرى أيضا متى بدت معارضة للعقل . وقد صور ذلك ابن تيمية فى مفتتح كتابه (الموافقة) قائلا : « إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية . . . فإما أن يجمع بينهما ، وهو محال لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يردا جميعا ، وإما أن يقدم السمع ، وهو محال ؛ لأن العقل أصل النقل فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا فى العقل الذى هو أصل النقل : فكان تقديم النقل قدحا فى النقل والعقل جميعا ؛ فوجب تقديم العقل ، ثم النقل إما أن يتأول ، وإما أن يفوض^(٢) . » . وسماه قانون الرازى وأتباعه ، وإن أشار - بعد ذلك إلى أن الغزالى أيضا يقول به^(٣) . ويبدو من

(٢) موافقة صحيح المنقول ١/١ .

(١) الأبيكار ١/٩٤ ب .

(٣) السابق ٢/١

كتاب « المآخذ » أن الآمدى يتابع الرازى فى أن دلالة السمع ظنية لاحتمال وجود المعارض العقلى، وأنها لا تعتبر يقينية إلا بعد الاستدلال على عدمه^(١). وهى الفكرة التى توفر ابن تيمية على نقدها فى كتابه المذكور، وهى فى نظرى ضعيفة للوجوه التالية:

أ- أنه من الممكن معارضة القانون السابق بنقيضه، دون الإحساس بأية أزمة عقلية، يقول ابن أبى العز الحنفى فى ذلك: « فيقال إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل؛ لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به، فلو أبطلنا النقل، لكننا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا العقل لم يصلح أن يكون معارضا للنقل وهذا بين واضح^(٢) ». ولكن هذه المعارضة جدلية كما هو ظاهر، وقد تُضعف من الفكرة المقابلة، ولكنها لا تحل المشكلة نهائياً. فلنتقل إلى الوجه التالى.

ب- أن النقل والعقل لا يمكن أن يتعارضا حقيقة، وإن بد ذلك لبعض الأفهام، فكلاهما حق، والحق لا يتناقض. وهذه فكرة كان لها مقامها الكبير عند جميع الفلاسفة المسلمين، ودورهم فى التوفيق معروف^(٣). والسلفيون أيضا يؤمنون بهذه الفكرة، وهذا ابن تيمية يفرد لها كتابا هو (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول). وبين هذين الفقهاء والمحدثون والأصوليون يرون كذلك وجوب رفع التناقض الموهوم، يقول ابن الوزير: « تقديم العقل على السمع أولى عند التعارض، وهذه من قواعد المتكلمين، قلنا: قد اعترضهم فى ذلك المحققون بأن العلوم يستحيل تعارضها فى العقل والسمع، فتقدير تعارضها تقدير محال، ومن ذكر ذلك ابن تيمية وابن دقيق العيد والزركشى فى (شرح جمع الجوامع)^(٤). ولاشك أن الجمع بين الأدلة عمل جاد وبناء، أما إسقاط أحد الدليلين المتعارضين، فهو رفع للمشكلة بالهروب منها.

ج- أن من أكثر صور هذه الفكرة تطرفا مازعمه الرازى من أن دلالة السمع، لا تتم - أو تصل إلى مرتبة اليقين - إلا بإسقاط المعارض العقلى القائم أو المحتمل، وإلا فمع

(١) انظر المآخذ ل ١٣٠. (٢) شرح الطحاوية ص ١٣٧

(٣) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ص ٥٦، ٥٧، ٦٥ - ٧٠.

(٤) إنباء الحق ص ١٢٣.

احتمال وجوده ، لاتزيد الدلالة السمعية عن كونها ظنية . وقد اعتبر ابن تيمية هذه الفكرة صدا عن سبيل الله (١) ، « إذ كان أى دليل أقيم على بيان مراد الرسول لاينفع إذا قدر أن المعارض المعقلى ناقضه » (٢) . وإذا كان الآمدى فى « المآخذ » يذكر هذه الفكرة ولايعقب عليها بالنقد ، فإنه فى (الأبكار) يرد عليها بقوله : وأما ما قيل فى بيان أن الدليل السمعى ظنى ، فإنما يصح أن لولم تقترن به قرائن تفيد القطع ، وإلا فبتقدير أن تقترن به قرائن مفيدة للقطع فلا ، ولايخفى أن ذلك ممكن (٣) . وهذا الرأى سبق نقله عن الجوينى فيما سبق ويبدو الآمدى غير مقتنع بهذه الفكرة الرازية – أعنى فكرة المعارض المعقلى المحتمل ، ووجوب اسقاطه قبل الاستدلال بالدليل السمعى – وهو يوردها فى (الأبكار) على لسان الغير ، ويعقب بما يدل على رفضه لها . أما سكوته عنها فى (المآخذ) فلا يكفى دليلا على اقتناعه بها ، بخلاف فكرة الدور التى يقررها ويؤكددها ، وإن كان هناك نوع اضطراب فى موقفه إزاءها كما أشرت من قبل .

والآن ، وقد درست موقف الآمدى ومن وافقه من متأخري الأشاعرة من الدليل السمعى ، والاسس التى يقوم عليها ، لايسعنى إلا أن أخالفهم فى موقفهم هذا ، وبالإضافة إلى ماقدمته من اعتبارات ، فإننى أعتقد أنه لو قدر لعلم الكلام أن يحيا حياة جديدة ، فلن يتم ذلك إلا باستمداده ، من الكتاب والسنة ، وإلا فإدانة مما يدلان عليه من أنظار عقلية وبراهين قطعية ، فيعمل على اكتشافها وتنميتها وتقديمها للعقول فى ضوء الفكر الإنسانى المعاصر ، على أن تحسم مسألة (التأويل) للنصوص الدينية : متى يجوز؟ وعلى أى أساس؟ ، فإنها هى التى فرقت بين المسلمين فى مسائل العقيدة . والله الموفق .

ويدعونى واجب الإنصاف إلى ذكر أن الآمدى – وإن اعتمد على العقل فى إثبات أكثر العقائد الدينية والبرهنة عليها – فإن تحديد هذه العقائد نفسها ليس مصدره العقل عنده ، بل الشرع فى الحقيقة . وسنرى ذلك فى مسائل الصفات وتعدادها ، ومايجوز على الله تعالى ، وما لايجوز ، فإنه كثيرا ما يرفض دلالة العقل أو يتوقف بشأنها لعدم ورود إذن الشارع فى ذلك (٤) . ومعنى ذلك أن العقل هو المستند أو طريق

(١) انظر الموافقة ٨/١ .

(٢) نفس المرجع ٩/١

(٣) الأبكار ٢/٢١٧ أ ب .

(٤) انظر ص ٩٥ وما بعدها .

الإثبات، والشرع هو الذى يعتمد دلالة العقل أو يدعونا إلى الإعراض عنها ، أو بعبارة أخرى : المسائل عنده تستمد من الشرع والدلائل عليها من العقل ، فلو انتهى بنا العقل إلى مالم يأذن به الشرع ، لم نأخذ بحكم العقل . وهذا هو موقف الأشاعرة منذ شيخهم الأول^(١) ، وهو ما يقرره المتأخرون منهم أيضا ؛ يقول السيالكوتى - فى شرح كون الأحكام الاعتقادية شرعية - : « معنى الشرعية مايؤخذ من الشرع ، بالآل يخالف القطعيات بالنسبة إلى فهم الآخذ ، لا ما يتوقف عليه ، بمعنى أنه لا يدرك إلا من خطاب الشارع . وإلا لزم خروج أكثر المسائل الكلامية عن المقسم ؛ لأن وجوده وعلمه وتوحيده لا يتوقف على الشرع ، ولكن يجب أخذها أيضا عنه لتصلح للاعتداد ، إذ كثيرا ما يعارض الوهم العقل فيوقعه فى المهلكة كما وقع للفلاسفة فى الإلهيات ، بخلاف ما إذا كان مؤيدا بالوحي المفيد للحق اليقين ، فإنه لا مدخل للوهم فيه »^(٢) ، وهو معنى نجده ، عند غيره أيضا^(٣) .

وأخيرا فإننى أستطيع القول بأن الآمدى وإن ردد أقوال الرازى وغيره بشأن الدليل السمعى وكون دلالاته ظنية ، يميل إلى أنه قد تحيط به قرائن تجعل دلالاته قطعية ، بل يصرح فعلا بأن الأدلة السمعية فى البعث وما يتصل به مما عرف بالسمعية قاطعة : « فكل ذلك (أى مسائل البعث والمعاد) ممكن فى نفسه أيضا ، وقد وردت به القواطع السمعية ، والأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ؛ فوجب التصديق به » . ومعلوم أن كافة المتكلمين يقبلون دلالة الدليل السمعى فى مثل هذه المسائل ، لكن الشئ المهم هو تصريح الآمدى هنا بكون الدليل السمعى قطعى الدلالة . أما مسألة ظنية الثبوت فلا شك أن الرجل يقطع بتواتر آيات القرآن الكريم بل وبعض الأحاديث النبوية^(٤) .

وأما مسألة إسقاط المعارض العقلى المحتمل للنص ، فقد ذكرت أن الآمدى يعارضها فى الأبتكار ، وإن كان يوردها فى المآخذ دون اعتراض عليها ، غير أنه فى كتبه الكلامية الخاصة كالأبتكار والغاية ، لم يستند إلى مثل هذه الفكرة أو يعول عليها قط .

(١) انظر الأشعرى أبو الحسن ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) حاشية السيالكوتى على النسفية ص ٣٦ ، وانظر شرح المواقف للجرجانى ١ / ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٨ .

(٣) ص ٢٨٥ وما بعدها من غاية المرام . (٤) انظر ما مرفى ١٧٩ - ١٨٠ .

والفكرة التي يبدو الآمدى متأثراً بها إلى حد كبير ، هي فكرة الدور ، وعلى أساسها رفض الاستناد إلى البراهين الشرعية في كافة المسائل الكلامية التي تتوقف عليها صحة النبوة وثبوت الشريعة ، وذلك في كتابيه « الغاية والأبكار » ، بل إنه في غاية المرام يرفض الاعتماد على الدليل الشرعى في مسائل عديدة لا تتوقف عليها صحة النبوة ، كمسائل الرؤية والوحدانية وغيرها مما سأبينه تفصيلاً في الباب التالى . وهذه ناحية واضحة وضوحاً قاطعاً في مسلك الآمدى من الناحية التطبيقية^(١) ، بالإضافة إلى تصريحه بها في أوائل كتابه الأبكار من الناحية النظرية ، وقد نقلت من نصوصه ما يدل على ذلك .

هذا بالرغم من أن الآمدى قد أشار - فى مواضع أخرى - إلى أفكار معارضة لمبدأ الدور ، وعلى أساسها يمكن قبول الدليل السمعى فى المسائل التي رفض هو استخدامها فيها ، ولكنه خضع لهذا المبدأ الاعتزالي الأصل من الناحية العملية ، على نحو معتدل فى الأبكار ، وبشكل أكثر غلواً فى غاية المرام .

٢- قياس الغائب على الشاهد :

أ- شيوعه لدى المتكلمين ونقد الآمدى له :

تعرض الآمدى فى الأبكار لعدة طرق يستخدمها المتكلمون للاستدلال ، وبين هو أنها لا تفيد إلا الظن وكان منها هذا القياس ، والقياس بمعناه العام هو إعطاء حكم شيء لشيء آخر لاشتراكهما فى علته^(٢) . وهو بهذا المعنى مفهوم أصولى جرى عليه العمل لدى أكثر الأئمة المجتهدين فى استنباط الأحكام الفقهية العملية ، لكنه انتقل ، بعد ذلك فيما يبدو ، إلى علم الكلام ليكون طريقاً لإثبات الأحكام المتعلقة بالله - تعالى - لوجود نظائر لها فى الواقع ، وهذا هو معنى قياس الغائب على الشاهد .

ولكن القياس الفقهي مشروع ومبرر تماماً مادام الأصل والفرع مشتركين فى الوصف المؤثر فى استحقاق الحكم ، ولدينا الوسائل المختلفة لاختبار تحقق هذا الوصف فيهما ، فيما يعرف (بمسالك العلة) . أما بالنسبة للمسائل الإلهية ، فكيف يمكن

(١) انظر الأحكام للآمدى ١٦٧/٣ وما بعدها .

(٢) انظر مثلاً المستصفى - دار الكتب العلمية - ٢٨٠ .

التحقق من اشتراك الغائب والشاهد في وصف يعمهما ، أو في حكم يترتب على ذلك ؟ وهل يجوز للعقل أن يطبق المقولات الإنسانية على ذات الله تعالى وما يتصل بها من صفات أو أفعال ؟ تلك هي أزمة هذا القياس الكلامي ، ومع ذلك فقد استخدمه المتكلمون بعد أن استعاروه من (أصول الفقه) ، وغاب عنهم أن كل منهج يجب أن يتناسب مع الموضوع وطبيعة العلم الذي يطبق فيه ، وشتان بين بحث موضوعه الوقائع المادية ، أو أفعال المكلفين ، وآخر موضوعه ذات الله الذي ليس كمثله شيء .

يقول الجرجاني : « وإنما يسلكونه إذا حاولوا إثبات حكم لله سبحانه - فيقيسونه على الممكنات قياسا فقهيًا ، ويطلقون اسم الغائب عليه تعالى »^(١) . وقد شاع استخدامه لدى مختلف المدارس الكلامية : فالخشوية القائلون بأن الله جسم يعتمدون على أن كل موجود في الشاهد فهو كذلك^(٢) .

والمعتزلة - المشهورون بالتنزيه - أخذوا به فيما يتعلق بأفعال الله تعالى ، فحكموا بحدوثها^(٣) ، وأوجبوا عليه بعض الأمور طبقا لقواعد التحسين والتقبيح الإنسانية^(٤) وقياسا على حال الإنسان^(٥) ، ونفوا خلقه للشرور لنفس هذا السبب^(٦) ، بل ربما استخدموها في مسائل الصفات أيضا ، فهذا شيخهم عبد الجبار يستدل على كونه تعالى قادرا بقوله : « وأما الذي يدل على أن صحة الفعل دلالة على كونه قادرا ، فهو أنا نرى في الشاهد جملتين : إحداهما صح منه الفعل كالأحد منا ، والأخرى تعذر عليه الفعل كالمريض المدنف . فمن صح منه الفعل فارق من تعذر عليه بأمر من الأمور ، وليس ذلك إلا صفة ترجع إلى الجملة ، وهي كونه قادرا ، وهذا الحكم ثابت في الحكيم تعالى ، لأن طرق الأدلة لا تختلف شاهدا وغائبا »^(٧) ، وواضح أنه هنا يستخدم قياس الغائب على الشاهد بجامع الدليل ، وقد استخدمه أيضا في إثبات كونه تعالى عالما^(٨) . ولم يكتف بذلك ، بل رد على من اعترض عليه في استخدامه إياه^(٩) ، كما استخدمه أيضا في إثبات صفة الحياة^(١٠) .

(١) شرح المواقيف ٢/ ٢٨ .

(٢) انظر الأبهكار ٣٩/ ١ وقارن أساس التقديس ١٤ ومناهج الأدلة ١٧٨ ومقدمته ٣٧ .

(٣) انظر مقدمة مناهج الأدلة ص ٤٨ - ٥٠ . (٤) انظر المغني ١١/ ٦١ - ٧٧ ، ١٤/ ٢٢ - ٣٢ .

(٥) انظر المغني ١٤/ ٥٥ . (٦) انظر تاريخ فلسفة الإسلام د/ هويدى ١/ ٢٦٩ والفصل ٣/ ٩٨ .

(٧) شرح الأصول الخمسة ص ١٥١ ، ١٥٢ . (٨) نفس المصدر ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٩) نفس المصدر ص ١٥٨ . (١٠) نفس المصدر ص ١٦١ .

ومع ذلك ، فهم لا يسرفون في استخدامه في مجال الصفات إسراف الأشاعرة الذين يعترف بعضهم بذلك^(١) . والآمدى يحكى « اتفاق الأصحاب على إلحاق الغائب بالشاهد »^(٢) ولكنهم بدورهم يقللون من استخدامه بالنسبة لأفعال الله - تعالى بعكس المعتزلة^(٣) .

أما الآمدى - وهو الأصولى الذى يدافع عن القياس فى مجال الأحكام العملية-^(٤) فإنه يرفض الاعتماد عليه فى المباحث الكلامية ، وإن كان يقبله فى صورته الفقهية المعروفة بقياس التمثيل ، ويرى أنه يمكن أن يفيد الظن بالحكم ، وذلك إذا أمكن معرفة الجامع بين الواقعتين ، أما إذا تعذر معرفة الجامع - كما هى الحال فيما بين الغائب والشاهد - « فالجمع تحكم محض ، ودعوى لادليل عليها ، ويلزم القائل بذلك أن يعترف بصحة حكم من حكم بأن جميع آدميين سودان ؛ إذ لم يشاهد إلا الزوج ، وأن جميعهم لا يموتون ، إذ لم يشاهد ميتا ، ولا سمع به . ولا يخفى مامعه من الجهالة »^(٥) .

لكن الأشاعرة ومن وافقهم من المتكلمين حين قاسوا الغائب على الشاهد ، حاولوا أن يلتمسوا لذلك جامعا فقالوا : إن الحقائق أو التعريفات ، والأدلة ، والشروط ، والعلل ، يجب أن تطرد شاهدا وغائبا ، وأن تُوجِب فى الغائب ما توجبه فى الشاهد من الأحكام ، والآمدى يحكى اتفاقهم على ذلك ويضرب له أمثلة توضيحية^(٦) ، ويشير إلى ما ذهب إليه الإسفرايينى من أن « كل أمرين ثبت تلازمهما فى الشاهد لزم أن يتلازما غائبا ولم يعتبر فى ذلك جامعا »^(٧) ثم يتحول إلى نقدهم قائلا :

« أما الجمع بالحد ، فإن ثبت أن حدَّ العالم من قام به العلم ، وثبت أن مسمى العالم متحد فى الغائب والشاهد ، فلا حاجة إلى القياس على الشاهد والاعتبار به .. وإن لم يثبت الحد ، أو ثبت ولكن لم يثبت اتحاد مسمى العالم ، فالإلحاق متعذر .

وعلى هذا يكون الكلام فى العلة والشرط ، ويزيد فى العلة والشرط إشكال آخر ؛

(١) انظر نهاية الأقدام الشهرستاني ص ١٨٢ وما بعدها .

(٢) انظر الأبكار ٣٩/١ ب . (٣) انظر مناهج الأدلة - المقدمة ص ٤٩ وص

(٤) انظر الأحكام ٥/٤ وما بعدها (ط مؤسسة الحلبي) .

(٥) الأبكار ٣٩/١ ب . (٦) انظر الأبكار ٣٩/١ ب ، ١٤٠ .

(٧) الأبكار ١/١٤٠

وهو احتمال كون العالم فى الشاهد معللا بالعلم أو مشروطا به لكونه جائزا ، وهذا المعنى غير موجود فى الغائب ؛ فلا يلزم التعدية ، أو لمعنى آخر لم يطلع عليه ، ولا يلزم من عدم العلم به وبدليله العلم بعدمه^(١) .

وأما الجمع بالدليل فيمكن الطعن فيه بمثل ماسبق ، فهم يستدلون به على أن القابل للحوادث لا يمكن أن يتعزى عنها ، ولكن ما يدرينا أن هذا خاص بالجائزات التى نراها فى الشاهد ، أو مشروط بشرط آخر غير الجواز لا يتحقق فى الغائب ، على أنه من الصعب إثبات أن الغائب قابل للحوادث . ولو صبح ذلك لما احتجنا إلى قياسه على الشاهد أصلا^(٢) .

وهكذا يشكك الآمدى فى قيمة هذا القياس أيا كان الجامع المزعوم بين الشاهد والغائب ، أما طريقة الإسفرايينى فى قياس الغائب على الشاهد بمجرد التلازم ولو لم يتحقق جامع « فيلزمه عليها أن يكون البارى - تعالى - جوهر ضرورة كونه قائما بنفسه ؛ لضرورة التلازم بينهما فى الشاهد ، فإن كل قائم بنفسه فى الشاهد جوهر ، وكل جوهر قائم بنفسه ولا محيص له عنه^(٣) » . ولكن هذا ظاهر البطلان^(٤) .

ب- نقد هذا القياس قبل الآمدى :

برغم تغلغل هذا الضرب من الاستدلال فى المدارس الكلامية المختلفة فقد تعرض لآلوان من النقد من مصادر متعددة :

(١) فابن حزم الظاهرى يندد بكل من الأشاعرة والمعتزلة لخضوعهم لهذا القياس ، هؤلاء فى مجال الأفعال وأولئك فى الصفات الإلهية يقول ابن حزم : « وهذا (أى إيجاب شئ على الله) مذهب يلزم كل من قال : لما كان الحى فى الشاهد لا يكون إلا بحياة ، وجب أن يكون المبارى تعالى حيا بحياة ، وليس بين القولين فرق ، وكلاهما لازم لمن التزم بأحدهما ، وكلاهما ضلال وخطأ .. وأما إجراؤهم الحكم على البارى بمثل مانحكم به بعضنا على بعض فضلال بين^(٥) » وهكذا يكشف الرجل فساد الأصل الذى

(١) الأبهكار ١/ ١٤٠ ، ب . (٢) انظر الأبهكار ١/ ٤٠ ، ب . (٣) الأبهكار ١/ ١٤٠ ، ب .

(٤) انظر نقد هذا المذهب فى (مناهج البحث لدى مفكرى الإسلام) ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٥) الفصل ٣/ ٩٨ .

يقوم عليه هذا القياس ، سواء طبق فيما يتصل بأفعال الله أو بصفاته ، ألا وهو تطبيق الاعتبارات الإنسانية على الله سبحانه .

ب- كما لمجد ابن رشد الفقيه الفيلسوف يحدد موقفه في حسم من هذا القياس ، ويتخذ من رفضه له أساسا لمحاولته التوفيق بين العقل والدين متمسكا دائما بقول الله عزوجل : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (١) .

ج- وأما في الوسط الكلامي فيبدو أن القوم أخذوا يشعرون بضعفه ويضيقون به ، ولكنهم لم يرفضوه تماما كمنهج للاستدلال ، بل ظلوا يترددون بين إنكاره والعمل به .

فمن المعتزلة نجد القاضي عبد الجبار يعتمد عليه أحيانا كما سبق من الأمثلة ، ولكنه ينكر على إخوانه البغداديين استخدامهم أمثلة من الشاهد في القول بالأصلح (٢) ، وقد لاحظ الجويني أن معتزلة البصرة ، لا يلتزمون دائما بقياس الغائب على الشاهد ، « فإنهم قد نقضوا هذه الدلالة في قواعد من العقائد » (٣) .

أما الأشاعرة فقد لاحظ الآمدي أنهم أيضا لا يترددون هذه الدلالة في مذهبهم (٤) ، وهم قد تراوحوا فعلا بين قبولها أحيانا وإغفالها أحيانا ، ثم تزايد نقدهم لها وهجومهم عليها حتى انتهى الأمر إلى الآمدي فرفضها تماما ولم يحاول الاعتماد عليها في أي من المسائل الكلامية الرئيسة .

١- فنجد الأشعري في « اللمع » يعتمد على هذه الدلالة في إثبات صفة العلم متمسكا بأن كل عالم فهو ذو علم ، وفي هذا قياس الغائب على الشاهد بجامع العلة (٥) ، ولكنه يرفضها في أفعال الله تعالى ، إذ يرد على المعتزلة قولهم : « إن فاعل السفه سفه » (٦) .

٢- وأما الباقلاني فيشبهه شيخه تماما ، إذ يعتمد على هذه الدلالة وخاصة إذا كان الجامع بين الشاهد والغائب العلة أو الدليل (٧) ، ولكنه يقول في رده على المجسمة -

(١) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ص ٥٨ - ٦٠ ونظرية المعرفة عند ابن رشد ص ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ .

(٢) انظر المغنى ١٤ / ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٠ - ٧٤ .

(٣) الإرشاد ٦٦ .

(٤) انظر الأبيكار ١ / ٥٥ ب .

(٥) انظر اللمع ٢٦ - ٣٠ . (٦) اللمع ٥٦ . (٧) انظر التمهيد ص ٣٨ ومقدمة المحققين ص ٢٣ .

الذين يقولون : « لانجد في الشاهد فاعلا إلا جسما^(١) » .: فيجب على موضوع استدلالكم هذا أن يكون القديم - سبحانه - مؤلفا محدثا مصورا ذا حيز وقبول للأعراض ، لأنكم لم تجدوا في الشاهد وتعقلوا فاعلا إلا كذلك ، فإن مروا على ذلك تركوا قولهم وفارقوا التوحيد ، وإن أبوه نقضوا استدلالهم » ولكن هذا الإلزام القوي يمكن أن ينقلب على الأشاعرة وكل من يأخذ بهذا القياس .

٣- وأما عبد القاهر البغدادي فإنه يعتمد طريقا لإثبات الصفات^(٢) ، ويرفض اعتماد المعتزلة عليه في الحكمة والتعليل والمشيئة^(٣) .

٤- فلما جاء الجويني أنكر بناء الغائب على الشاهد وقال إنه لأصل له^(٤) ، ولكن وجدته - من الناحية التطبيقية - يعتمد عليه في مسألة حلول الحوادث ؛ إذ يقول : إنه لو قبل الحوادث لم يخل منها ، لما سبق تقريره في الجواهر . . . ومالم يخل من الحوادث لم يسبقها^(٥) . وفي هذا قياس الغائب على الشاهد بهجامع الدليل ، وقد مر بنا نقد الآمدي لهذه الصورة وغيرها . كما نجد يرفض اعتماد المعتزلة عليه فيما يتعلق بالتحسين والتقيح العقليين وما يترتب عليهما من تجوير وتعديل^(٦) .

٥- أما الغزالي فقد أفاض في نقده في (معيار العلم) إذ ذكر قياس التمثيل ، وقرر أنه هو الذي يسميه الفقهاء قياسا ويسميه المتكلمون رد الغائب إلى الشاهد ، وأنه يقوم على تحقق جامع بينهما وهذا مع صعوبته يغني عن ذلك القياس : « فإذا لاخير في رد الغائب إلى الشاهد إلا بشرط^(٧) ، متى تحقق سقط أثر الشاهد المعين^(٨) . وهذه فكرة تتكرر عند الآمدي كما سبق . ويقول الغزالي أيضا : أعيان الشواهد تشتمل على صفات خفية ؛ فلذلك يجب اطراح الشاهد المعين وهي فكرة نجدها عند الآمدي أيضا في نقده السابق لهذا الدليل مما يوحى بتأثره بالغزالي في هذا الصدد . وبعد أن يفيض الغزالي في بيان وجوه النقد التي يأخذها على هذا القياس يقول : « هذا كله في إبطال التمثيل في

(١) التمهيد ١٥٢ . (٢) انظر أصول الدين ٧٨ ، ٧٩ . (٣) السابق ١٤٦ - ١٥٢ .

(٤) الجويني إمام الحرمين ص ١٤٠ - ١٤٢ وانظر أيضا مناهج البحث للنشار ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) الارشاد ص ٤٥ . (٦) انظر الإرشاد ٢٦٣ - ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ وما بعدها .

(٧) هذا الشرط هو استواء طبيعة كل من الشاهد والغائب وإمكان التحقق من ذلك .

(٨) معيار العلم ص ٩٤ وانظر أيضا القسطاس المستقيم ص ٧٢ .

العقليات، فأما في الفقهيات فالجزئي المعين يجوز أن ينقل حكمه إلى جزئي آخر باشتراكهما في وصف . . إذا دل عليه دليل» (١) .

٦- وقد انتقد ابن تومرت أيضا هذا القياس بجميع صورته لدى الأشاعرة والمعتزلة على السواء ، وحرص على التفرقة الدائمة بين عالم الغيب وعالم الشهادة (٢) .

٧- ثم جاء الشهرستاني فذكر أن الأشاعرة وسائر الصفاتية ، يأخذون بهذا الاستدلال ولم يحدد لنفسه موقفا خاصا وإن كانت عبارته تدل على عدم رضاه عنه (٣) .

٨- وأما الرازي فنجد في أساس التقديس يرفض هذا القياس بوضوح ويقرر «إن معرفة الله تعالى وصفاته على خلاف حكم الحس» (٤) وإن لم يفصل القول في نقده كما فعل الآمدي .

وهكذا نجد أن الاتجاه يتزايد نحو التخلص من هذا المنهج في الاستدلال حتى جاء الآمدي فالتزم بذلك إلى حد كبير .

ج - مدى التزام الآمدي بموقفه منه :

حافظ الآمدي دائما على عدم الاعتماد على هذا الدليل في مباحثه الكلامية ، والدراسة الآتية لآرائه تؤكد ذلك . ونذكر الآن نماذج لذلك :

١- فمنها رفضه لقياس الغائب على الشاهد لأجل اشتراكهما في الحد كما في مسألتى العلم (٥) والجسمية (٦) .

٢- ورفضه الجمع بينهما بسبب الشرط كما في مسألة الإرادة (٧) ، ومسألة الحياة (٨) .

(١) معيار العلم ص ٩٦ وانظر أيضا دراسات في الفلسفة الإسلامية ص ١٥٣ .

(٢) انظر تاريخ فلسفة الإسلام ١/ ٢٦٩ ، ٢٧٢ . (٣) انظر نهاية الإقدام ص ١٨٢ وما بعدها .

(٤) أساس التقديس ١٤ . (٥) انظر غاية المرام ل ٣٦ ب .

(٦) انظر غاية المرام ل ٧٣ ب والابكار ١/ ١١٤٥ ، ب .

(٧) انظر غاية المرام ٣١ ب . (٨) انظر غاية المرام ل ١٢١ .

٣- ورفضه الجمع بينهما بسبب العلة ، كما في الطريق العامة التي سلكها أكثر الأصحاب لإثبات الصفات إجمالاً عن طريق إثبات أحكامها أولاً ، ثم القول بأن هذا الحكم معلل بعلة هي الصفة ، وقد قال الآمدى عنه : إنه « ضعيف جداً ؛ فإن حاصله يرجع إلى الاستقراء في الشاهد ، والحكم على الغائب بما حكم به على الشاهد ، وذلك فاسد » (١) .

بل إن الآمدى ليتطرق في رفضه لذلك القياس ، فلا يستخدمه في مسألة لمجد ابن رشد ، وهو واحد من أعداء هذا القياس ، يعتمد عليه فيها ، وهي إثبات صفة الحياة ، يقول ابن رشد : « وذلك أنه يظهر في الشاهد أن شرط العلم بالحياة ، والشرط عند المتكلمين يجب أن ينتقل فيه الحكم من الشاهد إلى الغائب ، ومآلوه في ذلك صواب » (٢) . وهو في هذا لا يتناقض مع نفسه فقد قرر في موضع آخر من الكتاب نفسه أن قياس الغائب على الشاهد « دليل خطبي ، إلا حيث نقله معقولة بنفسها ، وذلك عند التيقن باستواء طبيعة الشاهد والغائب » (٣) .

ومع هذا فقد وجدت الآمدى يستخدم هذا القياس في موضع واحد ، وذلك في رده على ما ذهب إليه بعض الأصحاب من أن البقاء صفة وجودية ، « بأنه يلزم عليه قيام الصفة بالصفة ، وهو مما لا يجوز شاهداً ولا غائباً » (٤) . وفي هذا تعدية حكم الشاهد إلى الغائب الذي لا يرتضيه الآمدى (٥) ، وإذن فموقف الرجلين متشابه (٦) .

٣- الاستقراء :

وهو يرتبط بالطريق السابق ، وربما كُنّا معاً دليلاً واحداً في بعض المسائل الكلامية ، كما مرّنا في استدلال الأشاعرة على إثبات الصفات بطريق إجمالي عن طريق إثبات أحكامها أولاً ، ثم القول بأن كل حكم منها معلل بعلة هي الصفة المعينة ، كما هو الحال في الشاهد .

(١) غاية المرام ل ١١٩ . (٢) مناهج الأدلة ص ١٦١ ، وقارن غاية المرام ل ١٢١ .

(٣) مناهج الأدلة ص ١٤١ . (٤) غاية ل ٥٨ ب ، ١٥٩ .

(٥) وربما كانت أكبر حملة على هذا القياس بعد ذلك هي التي قام بها ابن تيمية ومدرسته ، انظر إيضاح الدلالة لابن

تيمية ص ١٠ ونجريد النصيحة له أيضاً ضمن صون المنطق والكلام - ٢٢٣ - ٢٣٠ ، ٢٣١ وانظر أيضاً ابن

تيمية السلفي ص ٦٦ - ٦٨ وشرح الطحاوية ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) غاية المرام ل ١١٩

وقد تحدث الآمدى فى غاية المرام عن نقط الضعف فى هذا المنهج، وعدم صلاحيته للمباحث العقلية ، فبدأ بتعريفه بأنه « البحث والنظر فى جزئيات كلى ما عن مطلوب »^(١) ، ثم قسمه إلى تام وناقص ، وبعد أن أشار إلى المشكلة التى تعترض الاستقراء الناقص ، وهى احتمال وجود جزئيات أخرى لم تدخل فى نطاق البحث ، مما يجعل نتيجته ظنية ، وهو ماعرض له الغزالي من قبل بوضوح أكثر^(٢) - ذكر أنه ، حتى مع تقدير كونه تاما ، لا يصلح فى المباحث الإلهية نظرا لاختلاف طبيعة كل من الغائب والشاهد : « فلا يخفى أن ماحكم به على أحد المختلفين غير لازم أن يحكم به على الآخر ، لجواز أن يكون من خصائص ماحكم به عليه ، دون الآخر ، وذلك كما إذا حكمنا على الإنسان بأنه ضاحك مثلا أخذا من استقراء جزئيات نوع الإنسان ، فإنه لا يلزم مثله فى الفرس المخالف له فى حقيقته »^(٣) .

على أن مثل هذا الاستقراء التام غير ممكن فى مجال الإلهيات إذ كيف يتناول البحث والنظر هذا « الغائب » المتعالى على وسائل الإدراك العادية ؟ وحين يقدر لنا إدراك حقيقته فما أغنانا عندئذ عن تتبع أية جزئيات أخرى فى الواقع أو (الشاهد) ؛ أى أن الآمدى يريد أن يقول : إن هذا المنهج فيما يتصل بالمباحث الإلهية غير ممكن ، وغير مفيد أيضا : « ... ولو قدر أن ذلك غير محال فالاستقراء ، إما أن يتناول الغائب أو ليس ، فإن تناوله فهو محل النزاع ، ولأحاجة إلى استقراء غيره ، وإن لم يتناوله ، بل وقع لغيره من الجزئيات ، فهو - لامحالة - استقراء ناقص ، وليس بصادق كما بيناه ، وهذا لامحيص عنه »^(٤) . وقد كرر الآمدى هذه الوجوه من النقد فى مواضع عديدة من كتابيه الأبحاث وغاية المرام^(٥) .

وبعد هذا النقد الدقيق يتوجه الآمدى إلى أصحابه الأشاعرة الذين ترددوا بشأن هذا القياس بين الاستدلال به فى مسألة الصفات ، ورفضهم الأخذ به فى مسألة الأفعال الإلهية ، وكان أخرى بهم ألا يعملوا به فىهما جميعا : « ... ثم إن من قاس الغائب على الشاهد هنا « أى مسألة الصفات » فهو معترف بأنه ليس فى الشاهد فاعل موجود على

(١) غاية المرام ل ١٩ . (٢) انظر معيار العلم ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) غاية المرام ١١٩ . (٤) غاية المرام ل ١٩ ب .

(٥) انظر بالاضافة لما سبق غاية المرام ل ٥٣ ب ، ١٥٤ - والابكار ١ / ١٣٨ .

الحقيقة ، بل الموجود ليس إلا الاكتساب ، بخلاف ما فى الغائب ، فإذا ما وجد فى الشاهد لم يوجد فى الغائب وما وجد فى الغائب لم يوجد فى الشاهد ، فأنى يصح القياس ؟» (١) .

وإذا كان الاستقراء هو المنهج العلمى الصحيح فى المجال التجريبي ، وهو أساس التقدم العلمى المعاصر ، وهو أيضا جانب هام مما قدمته الثقافة الإسلامية للإنسانية (٢) . فإن هذا لا يدعونا إلى قبوله طريقا إلى المعارف الإلهية ، لأن استخدامه فيها غير مشروع وغير ممكن وغير مفيد كما بينه الآمدى .

٤ - انتفاء المدلول لانتفاء دليله :

هذا منهج آخر من مناهج المتكلمين رفضه الآمدى وبين بطلانه ، وتعقب استدلال الأشاعرة وغيرهم به فى مباحثهم الكلامية ، كما سيظهر تفصيلا فى الباب التالى . أما من الناحية المنطقية فقد حدد موقفه منه فى موضعين من كتاب (الأبكار) :

أولهما : عندما تعرض للدليل العقلى وشروطه بوجه عام ، فذكر أنه يجب « أن يكون مطردا بالاتفاق وليس من شرطه أن يكون منعكسا ، أى يلزم من انتفائه انتفاء المدلول ، خلافا لبعض الفقهاء ، فإن حدوث الحوادث دليل وجود الصانع ، ولو قدرنا عدم حدوث الحوادث لما لزم منه انتفاء الصانع فى نفسه ، وإن لم يعلم وجوده لعدم الدليل الدال عليه ، ولأنه لا مانع من قيام أدلة على مدلول واحد ، ولو لزم انتفاء المدلول عند انتفاء واحد منها لما لزم من باقى الأدلة وجود المدلول ، وخرجت من كونها أدلة ، لعدم اطرادها ، وهو خلاف الفرض » (٣) .

ثم يشير الآمدى إلى أخذ المعتزلة بهذا الضرب من الاستدلال فى بعض المسائل (٤) ، وهذا نص هام ، إذ هو مع بيانه لوجهة نظر الآمدى فى هذا المنهج وأسباب بطلانه يوضح لنا أيضا أن فكرته الأساسية - وهى وجوب انعكاس الأدلة - فقهية فى

(١) غاية المرام ١٩ ب ، ٢٠ .

(٢) انظر (بحث الحيات عند ابن عربى) لاسناذنا الدكتور قاسم ومناهج البحث للنشار ص ١٠٣ وما بعدها ونشأة الفكر له أيضا ١ / ٥ - ٩ .

(٣) الأبكار ١ / ٣٧ ب . (٤) انظر الأبكار ١ / ٣٧ ب وقارن شرح الاصول الخمسة ص ١٨٥ ، ٢٠٠ .

الأصل ، ولعله يقصد بالفقهاء علماء أصول الفقه ، فقد ذكر الآمدى فى (الإحكام) خلاف الأصوليين حول هذه المسألة حين عرض لقواعد (الترجيح بين الأدلة) (١) . كما أنه يدلنا أيضا على تأثر المعتزلة بهذه الدلالة ؛ إذ التزم بعضهم - خطأ فى نظر الآمدى - أن الدليل على كون الواحد منا عالما بعلم هو جواز ذلك فى حقنا ، وأن ذلك منفى عن الله - تعالى - لعدم جواز ذلك فى حقه . ومعنى ذلك القول بانتفاء المدلول لانتفاء دليله .

وثانيهما : حينما أفرد لهذا الدليل فقرة خاصة ضمن (ما ظن أنه مفيد لليقين وليس كذلك) ، وهو يكرر فيه نفس الأفكار السابقة غير أنه يجيب على سؤالين يوردهما على نفسه، وهما :

أ- إذا لم يكن هناك تلازم بين الدليل والمدلول بحيث يلزم من وجود الدليل وجود المدلول ومن انتفائه انتفاؤه فعلى أى أساس نطمئن إلى انتفاء الغلط عنا عندما نستخلص النتائج من مقدماتها ؟

ب- وعلى أى أساس نقطع بعدم وجود جبال أو أنهار بين أيدينا مع أننا لانراها - ألا يحتمل أن تكون موجودة ونحن لا ندرکها (٢) ؟

ويرد الآمدى على السؤال الأول بأنه قد قام الدليل فعلا على انتفاء الغلط عن استدلالنا ما دمنا نستند فيها أصلا إلى البديهيات أو ما يقول إليها ، والاطمئنان إلى ذلك ليس مرده إلى عدم دليل الغلط، بل إلى وجود دليل انتفاء الغلط (٣) .

وأما العلم بعدم وجود الجبال أو الأنهار إذا لم تكن بين أيدينا فبديهي وليس مستندا إلى العلم بانتفاء دليل الوجود، وإلا كان نظريا (٤) . والسؤال الأخير كثيرا ما يعرض للأشاعة بسبب موقفهم من العلية ومن تفسير الإدراك الحسى ، مما سنعرض له فى الفصل الثانى من الباب الأخير بعون الله .

أما عن تاريخ ظهور هذا الدليل فى الوسط الكلامى وموقف المتكلمين منه : فقد

(١) انظر الإحكام ٢٤٢/٤ . (٢) انظر الأبهكار ٣٨/١ ب وانظر المواقف ٢٢/٢ - ٢٤ .

(٣) انظر الأبهكار ٣٨/١ ب . (٤) الأبهكار ٣٨/١ ب .

ذكر ابن خلدون أنه من وضع القاضي أبي بكر الباقلاني^(١) ، ولكن كلام الآمدي يدل على أن الفكرة في الأصل فقهية فلعل ابن خلدون يقصد أنه أول من نقلها إلى علم الكلام، أو إلى الكلام الأشعري خاصة ، وهذا الاحتمال الأخير هو الأشبه وذلك لأن القاضي عبد الجبار - وهو معاصر للباقلاني - ينتقد هؤلاء الذين يستدلون على وحدانية الله تعالى بانتفاء الدليل على وجود إله ثان . متمسكا بأن « مالا دليل على إثباته لا يجب نفيه .. وإنما يجب نفيه بحصول الدليل على نفيه »^(٢) . وقد بين عبد الجبار في كتابه (شرح الأصول الخمسة) أن من هؤلاء الذين سلكوا هذا الطريق أبا القاسم البلخي^(٣) ، أى أن الفكرة موجودة في الوسط الكلامي بصفة عامة قبل الباقلاني بنحو مائة عام^(٤) .

وقد نسب الآمدي إلى القاضي الباقلاني وإمام الحرمين الجويني الاعتماد على هذا الدليل في محاولتهما إثبات جواز الرؤية بأنه لا دليل على استحالتها . ويرفض هو تلك المحاولة قائلا : إنه « يجوز أن يكون المدلول متحققا ، وإن لم يخلق الله تعالى دليلا عليه »^(٥) ، أما أن القاضي الباقلاني أوجب الاعتقاد بأدلة الأشاعرة تبعا لما تدل عليه من العقائد، كما يقول ابن خلدون ، فلم أجد في كتبه (التمهيد والبيان وإعجاز القرآن) ما يدل عليه ، وإن كان هذا يصدق على عبد القاهر البغدادي الذي اعتبر أن مخالفة نظرية الجوهر الفرد « مخالفة لقواعد دين الإسلام »^(٦) ، ولذا فإن الحملة التي شنّها ابن حزم^(٧) وابن رشد^(٨) وابن تيمية^(٩) ضد الأشاعرة لهذا السبب لا تصدق على المتسامحين منهم من أمثال الآمدي، الذي أعرض فعلا عن بعض هذه المقدمات التي كادت تعتبر جزءا من العقائد كدليل الجوهر الفرد مثلا ، وإن كانت تصدق على موقف البغدادي وأمثاله، كما تصدق على بعض المعتزلة من أمثال جعفر بن حرب الذي كفر النظام لإبطاله الجزء الذي لا يتجزأ^(١٠) .

(١) انظر المقدمة ٤٦٦ وانظر أيضا تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ٢٩٣ ، ٢٩٤ ورسالة التوحيد للشيخ

محمد عبده ص ١٨ ، ٢٩ ومناهج البحث لدى مفكرى الإسلام ص-١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) المغنى ٤/٣٤٢ . (٣) انظر شرح الأصول الخمسة ص ٢٠٠ .

(٤) انظر الملل والنحل ١/٩٧ وشرح الأصول الخمسة هامش ص ٢٥ بشأن الكمبي وتاريخ وفاته .

(٥) الأبكار ١/١٣٢ ب . (٦) أصول الدين ص ٢٣١ .

(٧) انظر الفصل ٩٢/٥ وما بعدها . (٨) انظر مناهج الأدلة ص ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٥٩ .

(٩) انظر معارج الوصول ص ٣٣ . (١٠) انظر الفرق بين الفرق ص ١١٥ .

هذا وقد تعرض هذا الاستدلال قبل الآمدى لألوان من النقد منها ما يشير إليه ابن خلدون من نقد الجوينى والغزالي له^(١) ، وقد مربنا أن الجوينى اعتمد عليه فى بعض الأمور ، فلعل موقفه منه قد تغير ، وهو فى هذا شبيه بالقاضى عبد الجبار الذى نقده فى أكثر من موضع فى كتبه^(٢) . ولكنه كما أشار الآمدى فيما سبق لم يتخلص منه تماما ، ونفس الموقف نجده عند الإمام الرازى^(٣) . ولا شك أن الآمدى قد أفاد ممن سبقوه فيما قدمه من نقد لهذا الدليل ، وإن كان يمتاز بحرصه – من الناحية التطبيقية – على التزام موقفه المنهجى بشأن هذا الضرب من الاستدلال ، كما سيتبين على وجه التفصيل فى دراسة آرائه فى الباب التالى ، وأشير هنا إلى بعض هذه النماذج التطبيقية :

(أ) إنكاره على الأشاعرة الاستدلال به على نفى صفة زائدة على السبعة ، بينما يرى هو أن الواجب هو التوقف فى ذلك ، لأنه « لا يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول فى نفسه وإن انتفى العلم بوجوده »^(٤) .

(ب) رده على النصارى فى قولهم بإلهية المسيح لما صدر عنه من خوارق ، وإلزامه بإيهاهم بتجريد إلهية كافة الناس « فإن الخوارق غايتها أنها دليل الوقوع ، ولا يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول فى نفسه »^(٥) .

(ج) رده على الباقلانى والجوينى فى استدلالهم على جواز الرؤية كما سبق^(٦) .

وقد اهتم ابن تيمية بنقد هذا النوع من الاستدلال ، وتخطئة من اعتمد عليه من المتكلمين^(٧) ، وكذا شارح المواقف الذى يكاد يردد ما ذكرناه عن الآمدى^(٨) .

٥ - موقفه من أساليب الجدل :

لقد كان الآمدى موفقا فى رفضه للأدلة الثلاثة السابقة بقدر ما كان حاسما فى مراعاة موقفه هذا من الناحية التطبيقية إلى حد كبير؛ فإن آخرها وهو انتفاء المدلول لانتفاء

(١) انظر المقدمة ص ٤٦٦ . (٢) انظر بالإضافة لما سبق المغنى ٤ / ١٨٦ .

(٣) انظر الرازى وآراؤه ص ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ والمواقف ٢ / ٣٥ . (٤) غاية المرام ص ١٣٥

(٥) الأبهكار ١ / ١١٦٢ ، ب . (٦) فى ص ٢١٠ . (٧) انظر معارج الوصول ص ٢٨ ، ٢٩

(٨) انظر المواقف ٢ / ٢١ - ٢٨ وانظر أيضا مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

دليله باطل من أساسه ويقوم على الخلط بين علاقة العلة والمعلول، وعلاقة الدليل والمدلول. وأما الدليلان السابقان عليه فيقومان على أسس من الملاحظة والاعتبار قد تكون ممكنة بالنسبة للوقائع المادية ولكنها غير ممكنة في المباحث الإلهية والكلامية، ومن الواجب أن يتناسب منهج البحث دائما مع طبيعة الموضوع الذى يعالجه.

ولكن الآمدى - وهو بعد متكلم مناظر - لم يستطع التخلص من أسلوب الجدل، الذى غلب على الدراسات الكلامية بحكم أنها فن دفاعى قبل كل شئ، لا يهدف إلى الكشف عن الجديد بقدر ما يهدف إلى الدفاع عن عقيدة قائمة بالفعل يرى أن من واجبه الدفاع عنها^(١)، كما أن صلته بالجدل والخلاف والمناظرة، بل إمامته لهذه الفنون فى عصره، جعلت من العسير، إن لم يكن من المتعذر، تخلصه من تلك الأساليب التى كانت تستخدم فى المناظرات، وتوزع فيها المسؤوليات بين المعارض والمستدل من أجل التوصل إلى نصره مذهب على مذهب أو رأى على رأى، لا من أجل كشف حقيقة جديدة أو اتفاق الطرفين على حقيقة قديمة. ومؤلفات الآمدى تعكس تأثره الشديد بهذا الأسلوب الجدلى رغم تفضله إلى عيوبه، وقلة جدواه، كما مر بنا فى الفصل السابق. ولأسلوب الجدل الكلامى سمات معينة، من حيث مادته، وأسلوبه، وغايته، نلمسها بوضوح فى ثنايا مؤلفات الآمدى :

أ- فأما مادته، فهى مُسَلَّمات الخصوم، والقضايا التى تلقى القبول عندهم بصرف النظر عن قيمتها الذاتية.

ب- وأما أسلوبه، فيتسم بالتشقيق والتقسيم وتعدد الاحتمالات، وكثرة الفروض والحجج المتوالية، وقد تغنى عنها حجة واحدة حاسمة.

ج- وأما غايته، فهى التغلب على الخصم، وغالبا ما يكون ذلك بإثبات الدعوى عن طريق إفساد الحجة المعارضة لها بدلا من إثباتها بطريق مباشر.

(١) انظر المنقذ من الضلال ١٣٢ - ١٣٧، وشرح النسفية ٣٩ - ٥٣، ومقدمة مناهج الأدلة ٨ - ١٠، وابن رشد وفلسفته ٥٦، ٧٩، ومناقب الإسلام للعامرى ص ١٨١.

والناحية الأولى كثيرا ما تذكر في تعريف الاستدلال الجدلي لدى المناطقة^(١) ،
وأما الناحية الثانية فتتمثل في أسلوب القسمة الذي يسود هذه المناقشات الجدلية في
العادة، وأما الناحية الأخيرة فمن أبرز معالمها شيوع دليل الخلف في مثل هذه المناقشات .
وللآمدى نص دقيق في شرحه على الإشارات يتضمن هذه النواحي الثلاث التي يتميز بها
الجدل ؛ إذ يقول : « وأما الأقيسة الجدلية فلاقناع المتعلمين في مبادئ العلوم ، ولأجل
تقرير القضايا المشهورة التي تتم بها المشاركة الإنسانية ، ولأجل غلبة المعاند . ولأجل
التردد في الأقيسة المشهورة وترجيح بعضها على بعض حتى ربما يتخلص منها إلى الحق ..
ومبادئ الجدل هي المشهورات والمسلمات »^(٢) .

أ- الاعتماد على مسلمات الخصوم :

كان الغزالي - وهو خبير بعلم الكلام - صريحا في وصفه للأدلة الكلامية بأنها
تبنى على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة إنكارها ونفرة
النفوس عن إبداء المراء فيها^(٣) ، بل لقد كان صريحا وأميناً أيضا إذ يصف منهجه هو
كمتكلم يناقش المتكلمين : « ومعنى المجادلة بالاحسن أن آخذ الأصول التي يسلمها
الجدلي ، وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق على الوجه الذي أوردته في كتاب (الاقتصاد
في الاعتقاد) »^(٤) ، وقد نص الغزالي في مقدمة هذا الكتاب على اعتماده فعلا - مع ما
يعتمد عليه من مواد أخرى - على مسلمات الخصم ، « فإنه ، وإن لم يقم عليه دليل أو لم
يكن حسيا ولا عقليا ، انتفعنا باتخاذها إياه أصلا في قياسنا ، وامتنع عليه الإنكار »^(٥) ،
ويحاول الغزالي بعد ذلك أن يثبت أن القرآن يستخدم هذه الطريقة أحيانا « ... وكذلك
تجرى بعض أدلة القرآن فلا ينبغي أن تنكر أدلة القرآن إذا أمكنك التشكيك في أصولها ،
لأنها أوردت على طوائف كانوا معترفين بما فيها »^(٦) .

ولكننا نجد في الجانب الآخر ثلاثة من كبار المفكرين ينتقدون هذا الأسلوب ، وهم
ابن حزم وابن رشد وابن تيمية على ما بينهم من اختلاف ، وينص آخرهم على مخالفته

(١) انظر المبين ل ٨ ب وكشف التسمييات ل ٥ ب وتحرير القواعد المنطقية لقطب الدين الرازي ص ١٨٧ .

(٢) كشف التسمييات ل ١٥ ب . (٣) إجماع العوام - ضمن القصور العوالي - ص ٢٩٤ .

(٤) القسطاس المستقيم ص ٦٧ ، ٦٨ وانظر أيضا الصفحات ٦٢ ، ٣٤ ، ٦٨ .

(٥) الاقتصاد ص ١٥ . (٦) القسطاس المستقيم ص ٥٥ .

لطريقة القرآن الكريم ، فابن حزم يرى ذلك من سمات الضعف : « إن تعلق المرء بما يقوله خصمه ضعف ، وإنما يلزم المرء أن يخلص قوله مجردا ، ولا أسوة له فى تناقض خصمه ، بل لعل خصمه لا يقول ذلك (١) . . » . أما ابن رشد فأنكر على الغزالي التشبث بأقوال الخصم وإلزامه بما تفضى إليه من تناقضات ، ونصح بأن نعمل دائما على كشف الحقيقة وتمهيد طريقها للجميع (٢) . ثم كان ابن تيمية أكثر وضوحا وتحديدا إذ يقول : « والقرآن لا يحتاج فى مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصوم بها ، كما هى الطريقة الجدلية من أهل المنطق وغيرهم ، بل بالقضايا والمقدمات التى تسلمها الناس وهى برهانية . وإن كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها » (٣) . ثم يذكر شواهد لذلك من القرآن الكريم .

أما الآمدى فإنه - كما قلنا - لم يستطع التخلص من آثار الطريقة الجدلية ، ومنها استخدام الأقوال التى يسلم بها الخصم لإلزامه بما يريد أو لإفساد قوله ، بصرف عن قيمة هذه المسلمات فى نفسها . وسنجد لذلك نماذج عديدة فى الباب التالى ، ونشير الآن إلى بعض هذه النماذج :

١- استخدامه قول الفلاسفة ، وهو يقصد المتأثرين بالفيض ، بصدور الكثرة عن المعلول الأول بسبب اختلاف جهاته أو نسبه مع قولهم بوحده فى نفس الوقت - لإلزامهم بإثبات الصفات للبارى تعالى دون أن يخرج ذلك عن وحدته (٤) .

٢- استغلاله قول بعض المعتزلة بإحالة المعاصى على الرسل قبل النبوة وبعدها ، ومن ذلك الكذب ، فى إلزامهم بعكس ذلك استنادا إلى بعض الآيات التى تنسب إليهم بعض المعاصى (٥) .

٣- إلزامه لمن قال بتجدد العلم الإلهى بتجدد المعلومات ، وقال مع ذلك إنه يسبقها بقليل من الوقت - بعكس قوله ، فإن تسليمه بالأسبقية يعنى عدم الارتباط بين العلم والمعلوم ، وهذا يستوى فيه الوقت القليل والكثير والذى لانهاية له ، فعلى كل حال

(٢) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٤) انظر غاية المرام ل ١٧ ب ، ١١٨ .

(١) الفصل ٢٠ / ١ .

(٣) معارج الوصول ص ١٣ .

(٥) انظر الأبهكار ١ / ١٧٤

هو سابق على المعلومات ولا يتأثر بحدوثها ومن ثم كان واحدا وقديما^(١) .

ب- طريقة القسمة والتشقيق الجدلى :

قلنا : إن الأسلوب الجدلى يتسم بالتعقيد ، وإن هذه السمة تبدو بوضوح فى طريقة القسمة الجدلية . وهى تتمثل فى أن يضع المرء عدة فروض ، اثنين فصاعدا ثم يعمد إلى بيان فسادها جميعا ليبطل الأساس الذى قامت عليه ، أو إلى إفسادها ما عدا واحدا منها ليثبت أنه الفرض الوحيد المقبول ، وعندما يكون التقسيم منحصرًا بين أمرين اثنين متقابلين من كل وجه فإن فساد أحدهما يعنى ثبوت نقيضه ، كما هو الشأن فى طريقة الخلف التى سنتحدث عنها فى الفقرة التالية . وكل هذه الصور الثلاث ترتبط بالقياس الشرطى المنفصل كما لاحظ ذلك من قبل الإمام الغزالى وابن رشد^(٢) ، وهو القياس الذى ينبه أستاذنا الدكتور محمود قاسم على عقمه وطابعه الجدلى وعجزه عن الإفضاء إلى الحقيقة ، بينما يعتبر القياس الشرطى المتصل هو القياس العلمى بمعنى الكلمة ، إذ يقوم على الأساس الفرضى الاستنتاجى الذى يمكن أن يكشف عن الحقائق الجديدة ويضيف إلى العلم^(٣) .

وأيا ما كان الأمر ، فقد شاعت طريقة القسمة لدى المتكلمين ، وهو مالا يحتاج إلى إثبات ؛ فلا يكاد يخلو دليل من أدلتهم من أقسام متعددة ، واحتمالات متوالية : لو صح ما قلموه فيما .. وإما .. ، وإن كان الأول فلا يخلو الأمر إما أن يكون كذا أو كذا .. إلى آخر هذه الدروب الجدلية الملتوية ، التى تشتت العقل وتبدد قواه ، وتفتح عليه من أبواب الشكوك والفتنة أكثر مما تعطيه من روح الطمأنينة واليقين ، حتى ليسخر منهم أستاذنا الدكتور محمود قاسم فى تساؤله : « ومن يدري فلعل هؤلاء كانوا يعتقدون أن أفضل البراهين ما كان متشعبا كثير الاحتمالات » ؟^(٤) ومن قبل قال الغزالى : « وما أخذ به المتكلمون .. من تنقيح وسؤال ، وتوجيه إشكال ، ثم اشتغال بمنعه فهو بدعة ، وضرره فى حق أكثر الخلق ظاهر »^(٥) .

(١) انظر ص ٨٣ من غاية المرام . (٢) انظر معيار العلم ص ٨٩ ومقدمة مناهج الأدلة ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) انظر مناهج الأدلة ٣٦ وابن رشد وفلسفته ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) ابن رشد وفلسفته الدينية قاسم ص ١١٤ . (٥) إجماع العوام - ضمن القصور العوالى - ص ٢٦٦ .

وقد انتقد الغزالي طريقة القسمة بدقة وتفصيل في كتابه (القسطاس المستقيم) ونبه على عيوبها، وأبرزها أمران : أولهما قيامها على أساس من السبر لتحديد الأقسام المحتملة ، واعتبارها أن فساد سائر الأقسام إلا واحداً يكفي لبيان أنه الحقيقة الثابتة . ثم يوجه النظر إلى الأخطار التي تكتنف ذلك المبدأ؛ وترجع إلى صعوبة حصر الأقسام على وجه الاستقصاء ، فضلاً عن أن ذلك مما لا يهتم به المتكلمون والفقهاء^(١) . والأمر الآخر : أنه لا يلزم من إبطال ثلاثة ثبوت رابع ، بل التركيب الذي يحصل من أربعة يزيد على عشرة وعشرين، كما أن الأحكام تتوقف عادة على وجود أسباب وشروط كثيرة^(٢) . وهكذا يصل الغزالي من نقده لهذه الطريقة الجدلية إلى فكرة علمية ، توصل إليها المناطقة المحدثون؛ وهي أن السبب مجموعة من الشروط أو الظروف^(٣) ، وليس أمراً أحادياً . ويبدو أن الغزالي قد حرص - بسبب إدراكه لعيوب القسمة المنتشرة - على أن يقتصر في كتابه (الاقتصاد) على القسمة المنحصرة بين النفي والإثبات فقط^(٤) .

وقد سبقه شيخه الجويني في نقد القسمة المنتشرة وقبول المنحصرة^(٥) ، ومن قبلهما القاضي عبد الجبار المعتزلي الذي انتقد طريقة القسمة المنتشرة ؛ لأن القسمة إذا لم تتردد بين النفي والإثبات احتملت الزيادة وكان للخصم أن يشغب فيها^(٦) .

ثم جاء الشهرستاني فكرر أفكار الغزالي السابقة^(٧) ، وإن كان يلجأ إلى طريقة القسمة أحياناً^(٨) ، وموقف الآمدى قريب منه . فقد انتقد طريقة السبر والتقسيم بمثل ما سبق عن الغزالي ، ونبه مثله أيضاً على أن السبب قد يكون مجموع الأقسام أو بعضها منها : « وإن سلم الحصر فلا بد من إبطال التعليل بكل واحد من الأوصاف المحذوفة وإبطال كل رتبة تحصل من اجتماعها »^(٩) . ومع هذا فقد استخدم طريقة القسمة في كتابيه (الأبكار - وغاية المرام)^(١٠) ، شأن غيره من الأشاعرة الذين تابعوا شيخهم

(١) القسطاس المستقيم ٧٦ . (٢) نفس المرجع ، والصفحة .

(٣) انظر المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٧٦ . (٤) انظر الاقتصاد ص ١١ .

(٥) انظر الجويني إمام الحرمين ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٦) شرح الأصول الخمسة ص ٩٨ وهو يكرر نفس المعنى في ص ٦٢٢ .

(٧) انظر نهاية الإقدام ص ٣٦٠ . (٨) انظر نهاية الإقدام ص ١١٧ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

(٩) الأبكار ١/ ٣٩ ب وانظر أيضاً غاية المرام ل ٦٦ ب .

(١٠) انظر الأبكار ٢/ ٢٦٦ وغاية المرام ل ٢٥ ب .

الأول الذى يقول فى (اللمع) رداً على منكرى الرؤية : « وإذا كان النظر لا يخلو من وجوه أربع ، وفسد منها ثلاثة أوجه ، صح الرابع »^(١) .

على أن القسمة العقلية ليست هى المظهر الوحيد للتعقيد ، والتشقيق الاحتمالى ، الذى يتسم به الجدل ، بل هناك أيضاً أسلوب (التسليم الجدلى) ترقياً فى المجادلة ، أو تنزلاً من موقف إلى موقف ، وإلحاقاً لحجة غير حاسمة بأخرى تبدو فى نظر المجادل أكثر حسمًا ، وهو أسلوب يزخر بالمداورات والقفزات العقلية المتوالية التى تبدو (استعراضية) فى أكثر الأحوال . ويبدو ذلك واضحاً فى كتب الكلام المتأخرة ، ونجدده عند الآمدى أيضاً ومن أبرز أمثله التى تلفت النظر - وهى كثيرة - مناقشته حول الآية الكريمة : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ إذ يشرحها بقوله : « ووجه الاحتجاج به أنه أخبر بلزوم الفساد من تقدير وجود الالهة ، ولا فساد ، ويلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم »^(٢) ، وهو تفسير جيد قريب من فهم ابن رشد لها كما سنبينه فى (الوحدانية) ، ولكنه للأسف يشين هذا الفهم السديد بقوله بعد ذلك : « فإن قيل سلمنا أن لله - تعالى - كلاماً ، لكن لا نسلم أن خبره يجب أن يكون صادقاً ، ولا سيما على أصلكم حيث سلمتم أن الكذب غير قبيح لعينه ، سلمنا أن كلام الله تعالى النفسانى يجب أن يكون صادقاً ولكن ... الخ » ويستمر الآمدى فى توقع هذه الاعتراضات من خصمه الموهوم ، بحيث تتكرر كلمة « سلمنا » أكثر من عشر مرات فى أكثر من صفحتين كاملتين^(٣) ، وفى بعض هذه المرات العشر تتعدد التقسيمات والاحتمالات أيضاً بحيث لا يقوى على استيعابها العقل . ولكن الآمدى يعود بعد عرض هذه الإشكالات ، ودون أن يترك لنا فرصة لالتقاط الأنفاس ، ليجيب عنها واحداً بعد الآخر فى نحو ثلاث صفحات أخرى^(٤) . وهو نموذج للمناقشات الجدلية التى قد تنجح فى إنهاك الخصم وإرباكه بدلاً من الأخذ بيده ومساعدته على اكتشاف الحقيقة بنفسه ، كما هى روح الحجاج القرآنى البسيط والحاسم .

ج- طريقة الخلف

هى عبارة عن استدلال غير مباشر شاع فى الدراسات الكلامية ، يعتمد على

(١) اللمع ص ٦٤ وانظر مثله فى الابانة ص ١٣ ، ١٤ . (٢) الابكار ٢/ ١١٧٢ . (٣) الابكار ٢/ ١١٧٣ - ١١٧٣ . (٤) الابكار ٢/ ١١٧٣ - ١١٧٤ ب .

أسلوب القسمة بأن يردد الأمر بين احتمالين لا ثالث لهما في نظر المستدل - فإذا بطل أحدهما - وهو ما يدعية الخصم - ثبتت دعوى المستدل بدون دليل آخر ، بناء على أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان . يقول الآمدى فى المبين : « أما قياس الخلف ، فعبرة عن قول قياسى يبين صحة المطلوب بإبطال نقيضه » (١) .

وقد اعتمد عليه المعتزلة (٢) والأشاعرة (٣) والماتريدية (٤) ، ويرى الدكتور أبو ريذة والأستاذ الخضيرى فى مقدمتهما لكتاب (التمهيد) للباقلانى أن المعتزلة هم الذين أسسوا هذه الطريقة (٥) ، ويردها أستاذنا الدكتور محمود قاسم هى وطريقة القسمة التى ترتبط بها إلى أفلاطون وجدله (٦) .

والآمدى يجرى على هذا التقليد الكلامى فى مواطن عدة من كتابيه (الأبهكار وغاية المرام) (٧) وإن كان ينبه فى أكثر من مناسبة على أن التقابل قد لا يكون تاما بين الأمرين اللذين يراد الاستدلال ببطلان أحدهما على صدق الآخر ، أى أن المتكلمين كثيرا ما يخلطون بين النقيضين والضدين ، وهذا يفسد الاستدلال من أساسه ، لأن صحة أحد القولين عندئذ أو فساده لا يعنى شيئا بالنسبة للقول الآخر (٨) . وهو فى هذا كالإمام الغزالى الذى تنبه إلى عيوب طريقة القسمة وأخطارها ، واعتمد مع ذلك على دليل الخلف كما صرح فى مقدمات كتابه (الاقتصاد فى الاعتقاد) (٩) .

ويبدو أن طريقة الخلف حين استقرت فى الوسط الكلامى اتسع مفهومها ليشمل أكثر مما ذكرناه ، أى أنها لم تعد تعنى بإثبات الشئ عن طريق إبطال نقيضه ، بل أصبحت لا تعنى بإثبات شئ أصلا ، وإنما هى تعنى بالهدم دون أن تتجه إلى البناء ، وذلك بأن يحاول المتكلم أن يستخرج ما يلزم عن رأى الخصم من لوازم فاسدة (١٠) ،

(١) المبين ل ٧ ب - ١٨ .

(٢) انظر مثلا المغنى ٤ / ٢٣٤ وما بعدها وفلسفة المعتزلة د / نادر ٦٧ / ٢ .

(٣) انظر اللمع للأشعرى ١٩ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٤٠ ، والإبانة ١٣ ، ١٤ والأشعرى أبو الحسن ص ٩١ .

(٤) انظر بحر الكلام ١٦ - ١٨ . (٥) انظر التمهيد المقدمة ص ٢٥ .

(٦) انظر المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٧ - ٩ .

(٧) انظر مثلا الأبهكار ١ / ١٤٨ ، ب ، وغاية المرام ٢١ ب ، ١٧٦ .

(٨) انظر مثلا غاية المرام ل ٢١ ب - ٢٢ ب . (٩) انظر الاقتصاد ص ١٢ .

(١٠) التمهيد - مقدمة المحققين ص ٢٥ .

حتى ليرمى البعض منهم خصومه بالكفر أو ما هو قريب منه بسبب ما يلزم عن أقواله من نتائج لم يقصد إليها ولم يعلن التزامه بها ، وهو ما نجد له نماذج في كافة المدارس الكلامية^(١) . مما دعا بعض العلماء إلى تحذير الأمة، والمتكلمين خاصة ، من هذه الآفة التي لا تجلب إلا الإثم على صاحبها والفرقة والاختلاف على الأمة بأسرها^(٢) . ولعل هذا هو السر في تحذير النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذا الترامي بالكفر في صورة مشددة: «إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما»^(٣) . وإنه من المؤسف أن نجد الآمدى متأثرا بهذه الأساليب الجدلية إلى حد كبير برغم إدراكه لعيوبها وقلة جدواها كما سبق بيانه في الفصل السابق .

* * *

(١) انظر شرح الأصول الخمسة ص ١٨٣ وبحر الكلام ص ٢٦ ، ٢٧ وأصول الدين للبغدادي ٣١٥ ، ٣١٦ والفصل ٢٠ ، ٣ .

(٢) انظر إنباء الحق على الخلق ص ٤١٥ وما بعدها .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر - انظر رياض الصالحين ص ٣٠٦ .

ج - موقفه من المنطق الأرسطي

وضع الآمدى ثقته فى النظر العقلى ، واعتبره الأساس الذى تقوم عليه أدلة المسائل الكلامية أو أكثرها ، وانتقد المناهج الكلامية التقليدية وكشف عن عيوبها ، وتشكك فى قيمة الجدل وأساليبه - رغم تأثره به - واعترف بعجزه عن إفادة اليقين ، ولكن ما المنهج الذى ارتضاه سبيلا إلى المعرفة العقلية اليقينية؟

لقد اختار الرجل المنطق الأرسطي منهجا وطريقا ، ولكنه مزجه ببعض العناصر الأخرى ، فهو يقرر فى أوائل (غاية المرام) : « أن من حصلت عنده المواد الصادقة ، المقترنة بالصور الحقة التى يتولى بيانها المنطقى ، لم يجد فى نفسه جحد ما يلزم عنها .. » (١) .

وهو يعرض فى (كشف التموهيات) (٢) قواعد هذا المنطق متابعا لابن سينا ومؤكدا أن الغرض من المنطق أن يكون عند الإنسان آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل فى فكره (٣) . وفى « الأبهكار » يشرح منهجه الكلامى بذكر الطرق الموصلة إلى المطلوبات النظرية (٤) ، فيتحدث عن المعلومات (٥) ، وانقسامها إلى تصورات وتصديقات ، وأن كلا منهما بديهى ونظرى ، وأن الثانى إنما يكتسب من الأول ؛ فطريق اكتساب التصورات النظرية هو (الحد) وطريق اكتساب التصديقات النظرية هو (الدليل) ثم يفرد لكل منهما بابا : الأول فى (الحد) ويقسمه إلى أربعة فصول :

١- يتحدث فى أولها عن الحد : هل يرجع إلى قول الحاد أو إلى حقيقة المحدود ، وبعد أن يعرض (خلاف أئمتنا) حول هذين الرايين يختار أن الحد « لا يكون بنفس الحقيقة بل بما هو خارج عنها وهو دليل عليها » (٦) .

٢- وفى الثانى يتحدث عن تعريف الحد ويميل إلى أنه : « ما يعرف المطلوب ويميزه عما سواه » (٧) ، ثم يقسمه على النحو الذى فجده فى كتب المنطق (٨) ، وإن كان التعريف نفسه ينتمى إلى التراث الكلامى ، لا إلى المنطق الأرسطي .

(١) غاية المرام ل ٨ ب . (٢) انظر ه ل ٣ ب وما بعدها .

(٣) كشف التموهيات ل ٣ ب . (٤) انظر الأبهكار ١ / ل ٣٠ ب إلى ٤٠ ب .

(٥) الأبهكار ١ / ٣٠ ب . (٦) الأبهكار ١ / ٣١ .

(٧) نفس المصدر والصفحة . (٨) الأبهكار ١ / ٣٢ ، ب .

٤،٣- وفى الثالث يتحدث عن شروط الحد وأهمها أن يكون مطردا منعكسا^(١).
وفى الأخير يذكر (ما يجب التحرز منه فى الحدود)^(٢) ، ويعدد العيوب التى تلحق التعريفات من نواحى لغوية أو منطقية .

أما الباب الثانى فيخصصه لأبحاث (الدليل) وتقع فى سبعة فصول :

١- يبدأها بتعريفه : « ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب تصديقى »^(٣) ثم يقسمه إلى عقلى وسمعى .

٢- ثم يتحدث عن تركيب العقلى من مقدمتين معروفتين سلفا ومناسبتين للمطلوب ومرتبتين على نحو خاص ، « فالمعانى السابقة المناسبة للمطلوب كالمادة للدليل ، والتأليف الخاص كالصورة ، وهو مركب منهما ، ولا يصح إلا بصحتهما ، وفساده يكون بفسادهما أو فساد أحدهما »^(٤) .

٣- ثم يتحدث عن « القضية » وأقسامها فى الفصل الثالث بما لا يخرج عما يرد فى كتب المنطق القديم^(٥) .

٤- وفى الرابع عن انقسام مقدمات الدليل إلى قطعية هى الأوليات والنظريات والمشاهدات والمجربات والحدسيات والمتواترات والوهميات ، ويذكر أنها هى « التى يجب إنتهاء الدليل إليها قطعاً للتسلسل ، والدليل المنتهى إليها - إن كانت صورته صحيحة - يكون قطعياً »^(٦) . وإلى ظنية : وهى المسلمات والمشهورات ، والمقبولات ، وتلك التى تشهد بها قرائن الأحوال . وإلى مخيلات وقضايا كاذبة .

٥- أما الخامس فيتحدث فيه عن (صور الدليل)^(٧) فيقسمه إلى اقترانى واستثنائى ، ويتحدث عن أشكال الاقترانى الأربعة (ويسمىها أنواعا)^(٨) : شروطها وأضرها وأدلة انتاجها ، ثم عن الاستثنائى متصلاً ومنفصلاً ، إلى أن يقول : « فهذه جملة صور الأدلة أوردناها على غاية الإيجاز ، ومن لم يقنع باليسير فعليه بمراجعة كتبنا

(١) الأبيكار ١٣٢ .
(٢) الأبيكار ١ / ٣٢ ، ب
(٣) الأبيكار ١ / ٣٢ ، ب ، ١٣٣ .
(٤) الأبيكار ١ / ٣٣ ، ب
(٥) انظر الأبيكار ١ / ٣٣ ، ب ، ١٣٤ .
(٦) الأبيكار ١ / ٣٤
(٧) الأبيكار ١ / ٣٤ ، ب ، ١٣٥ .
(٨) انظر الأبيكار ١ / ٣٥ - ٣٧ ، ب .

الخصوصة بهذا الفن»^(١) .

٦، ٧- وفي السادس يتكلم عن شروط الدليل ووجوب اطرافه والخلاف حول انعكاسه كما ذكرته من قبل . وفي الفصل الأخير يتكلم عما ظن أنه من الأدلة المفيدة لليقين وليس كذلك ، كما سلف بيانه^(٢) .

ومن هذا كله يظهر أن البرهنة العقلية في نظره يجب أن تسلك طريق المنطق الأرسطي الذي يمكن أن يحفظ صورة الفكر من الخطأ والاضطراب ، فإذا كانت المقدمات والمواد أيضا صحيحة أمكن الوصول إلى الحق ، والآمدى يستخدم قواعد هذا المنطق عمليا ، وفي « غاية المرام » كثير من الشواهد على ذلك نذكر الآن نماذج منها :

١- فنجد في مسألة الصفات والرد على الدليل الأشعري لإثباتها جملة يستخدم قواعد العكس المستوى^(٣) .

٢- ويرد على نفاة الإرادة محللا دليلهم من حيث المادة والصورة ليبين أن الخطأ ناجم من المادة أو المقدمة التي تمثل رأيهم؛ لأن صورة الدليل سليمة^(٤) .

٣- وفي نفس هذه المسألة يتعرض للقضايا المعدولة والبسيطة بحسب تأخر أداة السلب أو تقدمها على الرابطة^(٥) .

٤- وبعد أن يعرض دليله على ثبوت صفة الإرادة في صورة اقترانية يعود لصياغته في صورة شرطية^(٦) .

٥- وهو يناقش الأصحاب الذين حاولوا الرد على فكرة (المعدوم) الاعتزالية فجاء ردهم (ضعيفا) بسبب خلطهم بين فكرتي التضاد والتناقض ، ويقول بعد محاولته التمييز بينهما « ومن اعتاص عليه فهم هذا الفصل ههنا فعليه بمراجعة كتبنا المختصة بهذه الصناعة »^(٧) . إلى أمثلة كثيرة نبهت على بعضها في تعليقاتي على كتاب « غاية المرام » .

(١) الأبيكار ١/ ١٣٥ ، ومن الواضح أنه يقصد مؤلفاته المنطقية، راجع ما سبق عنها في الفصل الثالث من الباب الأول .

(٢) الأبيكار ١/ ٣٧ ب

(٤) انظر ل ٢٣ أ ب من غاية المرام .

(٦) غاية المرام ل ٢٣ ب .

(٣) انظر غاية المرام ل ٢٢١ .

(٥) غاية المرام ل ٢٢٣ .

(٧) غاية المرام ل ١١٠٨ .

وإذا كانت النصوص المشار إليها فيما سبق تدل على قبوله للمنطق الأرسطي وأخذه به من الناحية العملية أيضا ، فمن الممكن أن نلاحظ فيها محاولة لتعديل بعض جوانب هذا المنطق أو الإضافة إليه :

١- فنلاحظ أولا - أنه بالنسبة إلى موضوع (الحد) يركز كما سبق على فكرة التمييز الكلامية ، ويبين أن الهدف من التعريفات هو تمييز الحقائق الجزئية وتصورها على وجه ما ، سواء أكان ذلك بالذاتيات أم بالعرضيات أم باللفظ اللغوي الأكثر وضوحا .

وفكرة التمييز هذه والتعريف بالخواص والصفات ، تقابل فكرة التعريف بالكنه والجوهر أى الحقيقة نفسها عند أرسطو، كما نبه على ذلك أستاذنا الدكتور النشار^(١) ، الذى نوه أيضا بدور ابن تيمية المفكر السلفى فى توضيح هذه الفكرة، التى أخذ بها المناطق المحدثون، ولم يفته أن يشير إلى مصادر فكرة الحد التيمية بقوله : « وأهم مصادر هذا البحث هو الحد الكلامى ويقترب فكر ابن تيمية فى الحد من فكر المتكلمين كثيرا »^(٢) . فلعل الآمدى - وهو أحد من قرأهم ابن تيمية بعناية - واحد من هؤلاء .

على أن الآمدى يعرض أيضا لفكرة (الكليات) التى يقوم عليها الحد الأرسطي بالنقد^(٣) ، ويقول عن فكرة (المقولات) ، وهى الاجناس العليا للموجودات فى المنطق القديم : إنها ضعيفة ، ويقول عن التقسيم المعروف لهذه المقولات إلى عشرة أجناس : « إن هذه القسمة وإن أوما إليها أفضل متأخرى الفلاسفة (يقصد ابن سينا) فهى مدخولة »^(٤) .

كما أن تمسكه بأن الماهية عين الموجود يجرى أيضا فى هذا الاتجاه الاسمى أو الواقعى المخالف لوجهة أرسطو ، وهو الاتجاه الذى يلاحظ أستاذنا الدكتور النشار أنه يضم أكثر المتكلمين المسلمين^(٥) ، ويعتبر متفقا - إلى حد كبير - مع فكرة التمييز بالخواص المشار إليها بينما نجد ابن سينا يفتقد هذا التناسق لنزوعه إلى فكرة التمييز بالخواص^(٦) مع تمسكه ، فى نفس الوقت ، بالترقية بين الماهية والوجود كما سبق .

(١) نشأة الفكر د/ النشار ١١/ ١ - ١٩ والمنطق الصورى منذ أرسطو ص ١٨٩ .

(٢) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ٢١٢ .

(٣) انظر الأبهكار ١/ ٢٩٩ ب - ١٣٠٢ . (٤) الأبهكار ١/ ٢٩٩ ب .

(٥) مناهج البحث للدكتور النشار ٣١ - ٤٣ . (٦) انظر ابن سينا د/ الاهوائى ص ٤٣ - ٤٥ .

ب- وأما بالنسبة للدليل فإنه في نظره أوسع نطاقا من القياس الأرسطي كما يبدو من تعريفه له . وهو يرى أن دور المنطق فيه هو الترتيب والتأليف أو الصورة فقط ، أما المواد التي يتركب منها فلها مصادرهما الأخرى من حس وتجربة وتواتر . وهو في هذا شبيه بالإمام الغزالي الذي يقول في « القسطاس المستقيم » : « فهذه الموازين صحيحة الصورة فاسدة المادة ... بل المادة الصحيحة التي تستعمل في النظر كل أصل معلوم قطعاً إما بالحس وإما بالتجربة وإما بالتواتر الكامل أو بأول العقل أو بالاستنتاج من هذه الجملة »^(١) والآمدى يعطى للمشاهدات الحسية مكاناً ملحوظاً في مصادر المعرفة ويعتبرها أول طريق يسلكه الإنسان لمعرفة ما حوله^(٢) ، كما يعتد بالتواتر طريقاً ، وهو يرى أن أقوال النبي ﷺ - لمن يسمعها منه والأخبار التي تروى عنه إذا احتفت بالقرائن تفيد العلم ، وتصلح للاحتجاج على أمور العقيدة ، وإن كان يرى أن لها نطاقها الخاص لتأثره بفكر (الدور) كما سبق . وهذا كله معارض للوجهة الصورية الغالبة في المنطق القديم^(٣) .

هذا إلى أننا نجد الآمدى يستخدم في بحوثه الكلامية بعض مناهج أصول الفقه فهو يستدل بالإجماع أحياناً^(٤) ، ويستند إلى قواعد الترجيح بين النصوص كما نجد في مسألة الرؤية مثلاً^(٥) . وقواعد العموم والخصوص والإطلاق والتقييد^(٦) ، وهى قواعد أصولية .

ومن ثم فمن الممكن أن نقول إن منهجه الفكرى الكلامى هو ملتقى مؤثرات عدة : من المنطق الأرسطى ، والمنهج الجدلى ، وقواعد أصول الفقه ، والمنهج النقدى التاريخى ، وكلها مناهج عرفت فى عصره وقبل عصره^(٧) ، ولم يكن له بد من أن يتأثر بها ، وإن كنت ألاحظ أنه يؤثر القياس الأرسطى بمكانة خاصة ، ويسرف فى استخدامه أحياناً كما نبهت إلى ذلك فى تعليقاتى على كتاب غاية المرام^(٨) .

(١) القسطاس المستقيم ص ٥٤ وبلاحظ أن الآمدى يستخدم نفس الأمثلة الحسية التى يستعملها الغزالي فى هذا الكتاب .. انظر غاية المرام ل ٨ ب . وقارن والقسطاس المستقيم ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) انظر كشف التموهيات ل ٢ ب وأبكار الأفكار ١/ ١٣٤ والمبين ل ١٩ .

(٣) انظر مناهج البحث د / النشر ص ٢٢٠ وتجديد بناء الفكر الدينى د / إقبال ص ١٤٧ .

(٤) انظر غاية المرام، ص ٣٦٦ وما بعدها . (٥) انظر الأبكار ١/ ١٤١ ب ، ١١٤٢ .

(٦) كما فى غاية المرام ل ١٧١ والأبكار ١/ ١٧٣ ب ، وكما فى الأبكار ٢/ ١١٦٥ .

(٧) انظر نشأة الفكر ١/ ٩ - ١٨ . (٨) انظر غاية المرام ص ٥٠ وما بعدها .

ولم يكن الآمدى - على كل حال - أول متكلم يأخذ بالمنطق الأرسطى فى بحوثه الكلامية فمن قبله الإمام الغزالي^(١) ، بل لعل الجوينى نفسه لا يخلو من تأثر بهذا المنطق كما يلاحظ أستاذنا الدكتور النشار^(٢) ، وقد سبق لابن خلدون أن ربط بين نقد المتكلمين لمناهجهم القديمة - كبطلان المدلول لبطلان دليله - ودراستهم للمنطق وأخذهم به كمعيار تعتبر به الأدلة المختلفة ، وذكر اسم إمام الحرمين الجوينى فى هذا الصدد^(٣) .

ويبدو أن المعتزلة كانوا أسبق من الأشاعر فى التأثر بهذا المنطق وقبول أجزاء منه ؛ تدل على ذلك شواهد :

أ- منها ما يذكره البعض كالشهرستانى من تأثر أبى هاشم ومدرسته بالمنطق اليونانى تأثرا غير حميد فى نظره^(٤) .

ب- وقيام بعض المعتزلة بوضع مقدمات كلامية حول العلم والمعرفة والنظر لكتبهم فى أصول الفقه^(٥) . وهى ظاهرة يرى أستاذنا الدكتور النشار ارتباطها بتسرب المنطق اليونانى إلى علم الأصول^(٦) .

ج- واستخدام بعض المعتزلة فعلا ، وهو القاضى عبد الجبار ، لبعض قواعد المنطق الصورى كقاعدة التناقض ذى الوحدات الثمانية وهو ما يسمى بالتقابل التام ، وذلك فى رده على أحد نفاة النبوة من البراهمة فيقول القاضى : «إن هذا القول منهم قد دل على أنهم لا يميزون بين ما يخالف وما يتناقض .. فإنما يتناقض ذلك والوقت واحد والعين واحدة ، والمضاف إليه واحد ، فإذا افترقت هذه الوجوه فلا تناقض»^(٧) .

فلعل المعتزلة حين أخذوا يحسون بضعف بعض مناهجهم الكلامية عمدوا إلى تقويتها بأجزاء من هذا المنطق الأرسطى الذى تعرفه البيعة الإسلامية منذ عهد بعيد ،

(١) انظر تجريد النصيحة ص ٢٣٢ ومناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) مناهج البحث د / النشار ص ٧٥ - ٧٧ . (٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٦ .

(٤) نهاية الإقدام ١٥٨ ، ١٥٩ . (٥) انظر المعتمد لأبى الحسين البصرى ١ / ٧ .

(٦) انظر مناهج البحث د / النشار ص ٣٧ .

(٧) المغنى ١٥ / ١١٠ وانظر أيضا تحرير القواعد المنطقية لقطب الدين الرازى ص ١٣١ والمنطق الصورى د / النشار ٣١٢ - ٣١٤ .

وخصوصاً أننا نجد تجربة مماثلة ومعاصرة تقريبا لدى عالم محافظ كابن حزم الذى يهاجم أعداء هذا المنطق ، ويحاول تقريبه إلى الناس معتقدا أن قواعده « سالمة مفيدة ، دالة على توحيد الله عز وجل ، عظيمة المنفعة فى انتقاد جميع العلوم »^(١) .

وأما الأشاعرة فيبدو أنهم فى أول عهدهم عارضوا المنطق اليونانى؛ فالف الشيخ الأشعرى فى نقضه^(٢) ، والباقلانى أيضا^(٣) ، ولكنهم مالوا بعد ذلك إلى قبوله منذ الجوينى شأن المعتزلة من قبل . ولم يتركوا مناهجهم بل حاولوا مزجها بما قبلوه من هذا المنهج الجديد ، كما أشرت إليه فيما يتعلق بالآمدى .

ولعل مما حدا بهم إلى ذلك اتجاههم إلى نقد مناهجهم التقليدية أيضا ، وتصديهم للرد على الفلاسفة وغيرهم ممن يستخدمون هذا المنهج الأرسطى ويدلون به^(٤) ، وما أثاره أصحاب مذهب (التعليم) من تشكيك فى قيمة المعرفة العقلية^(٥) ، وما غلب عليهم من الاعتقاد بأن القرآن يدعو إلى استخدام هذه الموازين العقلية^(٦) ، بل يتضمنها أيضا^(٧) ، وقد يضاف إلى هذا بالنسبة إلى الآمدى الحملة التى قادها ابن عربى معاصره ضد العقل وموازينه ، والتشكيك فى كل ما يصدر عنه^(٨) .

على أن هؤلاء الذين أنكروا هذا المنطق وظلوا يحاربونه ، كابن تيمية مثلا ، لم ينكروا أنه من حيث الصورة - صيغة صالحة للاستدلال : « إن قياس التمثيل وقياس الشمول سواء ، وإنما يختلفان بالمادة المعينة .. وحقيقة أحدهما هى حقيقة الآخر »^(٩) إن كل ما ينكره هو ادعاء أنه الطريق الوحيد للاستدلال ، أو أن اليقين لا يحصل بغيره^(١٠) ،

(١) الفصل ٢ / ٩٥ وانظر التقريب تحقيق د / إحسان عباس - المقدمة ص ب ، ج وانظر أيضا مناهج البحث د / النشر ص ٨٢ .

(٢) مؤلفات الأشعرى بحث مقدم إلى استاذنا د / قاسم من السيد / سعد شلبى ص ٧٩ .

(٣) انظر نقض المنطق ١٥٨ ومناهج البحث د / النشر ٨١ .

(٤) انظر ضحى الإسلام ١ / ٣٥٦ - ٣٥٨ . (٥) انظر القسطاس المستقيم ٩ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٩ .

(٦) انظر القسطاس المستقيم ص ١٠ - ١٣ ، ٦٩ وكشف التموهيات ل ٥ ب .

(٧) انظر القسطاس المستقيم ١٨ ومناهج الأدلة ١٤٩ .

(٨) انظر بحث استاذنا الدكتور قاسم عن (موقف ابن عربى من العقل والمعرفة الصوفية) - القى بجامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٩ - ص ٨ وما بعدها .

(٩) تجريد النصيحة ص ٢٣٠ ، ٢٣١ وانظر أيضا نقض المنطق ص ٢٠٨ وإيضاح الدلالة ص ١٠ .

(١٠) نقنى المنطق ص ١١٣ ، ٢٠٧ - ٢٠٩ .

كما أنه يحذر من ارتباط هذا المنطق بالميتافيزيقا اليونانية^(١) ، ويرى أنه من أسباب ضلال الفلاسفة الإسلاميين في الإلهيات^(٢) . فإذا كان الآمدى يشاركه العناية بالتفرقة بين المادة والصورة كما سبق ، ويقف إزاء الفلسفة وأقاويلها موقفا واضحا ، ويفند أكثر ما قالوه لأنه يراه منافيا للشرع كما سيتبين في هذه الدراسة ، فإن البون لا يبقى شاسعا . كيف وأنا قد نجد ابن تيمية نفسه في بعض الأحيان يستخدم قواعد المنطق الصورى دون ما حرج^(٣) ؟

إن العبرة هي ببقاء روح الواقعية الحسية في اختبار مواد القياس، بصرف النظر عن صورته ، وعدم التورط في الميتافيزيقا اليونانية وهو ما قد نجده لدى أشد الناس إخلاصا وتقديراً لمنطق أرسطو، كالفيلسوف ابن رشد^(٤) ، كما يلاحظ ذلك أستاذنا الدكتور محمود قاسم^(٥) ، وهو ما سنجده عند الآمدى أيضا .

وأخيرا فإن تحديد موقفه المنهجى بصفة عامة يحتاج إلى دراسة متخصصة لإنتاجه الأصولى ، كما أن الاطلاع على كتبه الفلسفية سيزيدنا معرفة بحقيقة موقفه من المنطق الصورى بصورة أكمل ، وخاصة كتابه (دقائق الحقائق) الذى قيل إن «فيه اعتراضات على المناطقة واصطلاح اليونانيين وغيرهم فى تعريف الحدود والأجناس ، وإطالة فى شرح الكليات والأقيسة»^(٦) كما سبق .

* * *

(١) انظر نقنى المنطق ١١٣ ، ١٥٨ .
 (٢) نفس المرجع ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧ .
 (٣) انظر نشأة الفكر د / النشار ١ / ٣٩٢ ، ٣٩١ . (٤) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ص ٦٦ - ٧٠ .
 (٥) انظر مقدمة مناهج الأدلة / قاسم ص ٣٥ ، ١١٧ . (٦) انظر السيوطى : صون المنطق ، ص ٢٤٤ .

الباب الثانى

آراؤه الكلامية

يتضمن فى هذا الباب الفصول الآتية :

الفصل الأول : عن آراء الآمدى المتعلقة بالله - تعالى -

الفصل الثانى : عن آرائه المتعلقة بالعالم .

الفصل الثالث : عن آرائه المتعلقة بالإنسان .

الفصل الأول

الله

ويشمل أربعة مباحث :

المبحث الأول : الاستدلال على وجوده - تعالى .

المبحث الثانى : الصفات الإلهية - أحكامها العامة .

المبحث الثالث : الصفات النفسية - أو معرفة الإثبات .

المبحث الرابع : الصفات السلبية - أو معرفة التنزيه .

المبحث الأول

الاستدلال على وجوده - تعالى

١ - الماهية والوجود :

قبل عرض استدلال الآمدى على هذه القضية الأساسية ، نذكر موقفه من الخلاف المشهور حول الوجود: أهو نفس الماهية أم زائد عليها ؟
وللمفكرين المسلمين ثلاثة آراء حول هذه المسألة :

- (١) الوجود نفس الموجود وليس بزائد على حقيقته فى الواجب والممكن جميعا وهو رأى الأشعرى وأكثر أصحابه وبعض المعتزلة (١) .
(٢) الوجود غير الماهية فى الواجب والممكن جميعا ، وعليه أكثر المعتزلة، وهو يلتقى مع الفكرة التى سادت لديهم عن المعدوم وتحقق ذاته فى العدم ، مما سأتعرض له فيما يأتى (٢) .

(٣) الوجود غير الماهية فى الممكنات ، أما واجب الوجود فوجوده عين ماهيته . وهو رأى ابن سينا والفارابى . وهو جمع - فيما يبدو - بين فكرة المعتزلة السابقة ومفهوم أرسطو للواجب أو العلة الأولى وأنه صورة محضة (٣) .

ويعرض الآمدى لهذه الآراء مؤيداً رأى الأشاعرة ومناقشاً أدلة المخالفين ، وإن كان يعبر عن اختياره لهذا الرأى فى « الأبيكار » بقوله : « والأقرب إنما هو المذهب الأول » (٤) . ولكنه فى « غاية المرام » يختار عبارة جازمة : « وهذا بناء على أن إطلاق الوجود على الماهيات المتعددة ليس إلا بطريق الاشتراك لا غير » (٥) .

ويؤكد الآمدى فى كتاب ثالث أن الوجود ليس معنى واحداً فى الموجود الممكن والواجب ، بل هو مختلف ، والاشتراك بينهما إنما هو فى اسم الوجود فقط ، أى فى

(١) انظر : فخر الدين الرازى ١٦٤ - ١٧٢ .

(٢) انظر : الفصل الثانى من هذا الباب ، عن العالم .

(٣) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ١١١-١١٤ ، وابن رشد وفلسفته ص ٩٣ .

(٤) الأبيكار ٥٣/١ ب وهو يقصد الرأى الثالث هنا .

(٥) غاية المرام : ل ١٦ ب ، ص ٣٢ قسم ثان . وانظر : أيضاً الأبيكار ٧/١ ب ، ١٥٣ ، ب .

اللفظ دون المعنى والحقيقة (١).

ويرى الآمدى أن إثبات الوجود لله ليس إلا محاولة لتصوّر الذات بنحو ما - لا بالكنه والحقيقة - تصورا يتيح لنا وصفها بالصفات المختلفة ؛ ولذا فهو ينقل في (المتأخذ) كلمة الإمام الرازى : « فى معرفة ذاته - تعالى - مقام مهيب ؛ فإنّا بيّنا امتناع تصوّر ذاته - تعالى - ، وإذا امتنع التصوّر امتنع الحكم بصفات الجلال والإكرام » (٢).

وحجة الرازى فى ذلك ، كما نقلها الآمدى فى المتأخذ أيضاً : « دل الاستقراء على أنّ لا نتصور إلا ماندركه ببديهة العقل أو الحس أو الوجدان ، أو ما يركبه العقل أو الخيال من هذه الأقسام ، والبارى مخالف لهذه الأشياء من كل وجه ، إذ لو شابهها من وجه وخالفها من وجه لزم التركيب ، وإذا امتنع التصوّر امتنع التصديق » (٣).

ولكن الآمدى يعقب على ذلك الاشتباه الذى يثيره الرازى ، بما يزيله ، فيقول : والجواب عن الأول أن التصوّر قد يكتسب عن البديهة ، فلم ينحصر فيما ذكر ، وأيضاً الحكم على الشيء لا يستدعى تصوّره بحقيقته ، بل باعتبار ما هو صادق عليه » (٤). إن كل ما يبغيه الآمدى من مبحث الوجود هو إثبات الذات العلية ووجوب وجودها لا بيان حقيقتها وكنهها ، وهو يجرى بذلك فى الاتجاه العام للفكر الإسلامى .

٢- طرق الاستدلال على وجوده تعالى :

يمكن تصنيف أنواع الأدلة على هذه المسألة إلى : عقلية ، ونقلية ، وصوفية ، وفطرية

أ- فأما الاتجاه العقلى فيتمثل بوضوح لدى الفلاسفة الإسلاميين والمتكلمين الذين ارتضوا العقل سبيلاً إلى معرفة وجوده تعالى ، وإنّ أضاف بعضهم إلى ذلك الدليل النقلى أحياناً . فأما المتكلمون فتقوم أدلتهم على فكرة الحدوث (٥)، حدوث هذا العالم بكل ما فيه واحتياجه إلى محدث ، هو الله تعالى . وهى تظهر فى صور عدة ، أبرزها صورتان ، عرفت إحداهما بطريقة الاكوان الأربعة ، والأخرى بطريقة الجوهر والعرض . وقد يلجئون

(١) المتأخذ ل ١٢ ب والابكار ١/ ٥١ ب . (٢) المتأخذ : ل ١٣ ، ب .

(٣) المتأخذ : ل ٢٢ ب . (٤) المتأخذ : ل ٣١ ب .

(٥) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ١٠٧ وما بعدها وشرح الطوسى على الإشارات ٣/ ٤٨٢ .

أحياناً إلى فكرة الإمكان . وقد نالت الصورتان المشار إليهما من المتكلمين ، على اختلاف مدارسهم^(١) اهتماماً كبيراً .

أما الآمدى فإنه يعرض عنهما تماماً فيما يتعلق بإثبات وجود الله وينتقذهما من وجوه عدة ، ويختار دليلاً آخر يقوم على فكرة التناهي ، وإن كان يعتمد على ظاهرة الحدوث كنقطة بداية في استدلاله ، ويستعين - مع ذلك - بأفكار كلامية وفلسفية أخرى . وسيأتى لذلك مزيد بيان فى المبحث التالى .

وأما الفلاسفة المسلمون فمن أبرز ما نسب إليهم (دليل التناهي) الذى أثبت به الكندى - أول فلاسفة المسلمين - حدوث العالم أى تناهيه زماناً وحركة ، كما أنه متناهٍ بالمكان والجزم ، واكمل ذلك بأنه لا يمكن أن يكون علة نفسه فلا بد له من علة خارجة عنه واجبة الوجود^(٢) . وقد أرجع بعض الباحثين فكرة التناهي هذه إلى المعتزلة وإلى يحيى النحوى من قبلهم^(٣) .

ومن أدلتهم أيضاً دليل الوجود الذى يفخر به ابن سينا ويرى أنه قد أثبت به (الواجب) دون نظر إلى المحسوسات ، بل عن طريق تأمل فكرة الوجود نفسها ، وتحليلها إلى الوجود الممكن والوجود الواجب ، والأول لا يوجد ولا يتحقق إلا لسبب خارج عن حقيقته ، إذ حقيقته ما يقبل الوجود والعدم على السواء ، وإذا فلا بد أن يستند إلى موجود واجب الوجود ، وذلك بعد بطلان الدور والتسلسل^(٤) . وقد قال به الفارابى قبله^(٥) . بل إن بعض الباحثين يرجع به إلى أفلوطين وإلى بارمنيدس أيضاً^(٦) .

ومنها أيضاً دليل الحركة الذى أخذه ابن رشد عن أرسطو وغيره من مفكرى الإغريق ، فهى تستلزم وجود محرك لا يتحرك ، هو الله . وإن كان ابن رشد يعرضه فى

(١) انظر : المراجع السابقة ومقدمة مناهج الأدلة ص ١٢ وما بعدها .

(٢) انظر : كتاب الكندى إلى المعتصم بالله ص ٩٢ وما بعدها ، والكندى وفلسفته ص ٧٠-٨٤ ومناهج الأدلة ص ٢١ .

(٣) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣٦٧ ومعالم أصول الدين للرازى ص ٢٦ .

(٤) انظر : : الإشارات والتنبيهات المجلد الثالث ٤٣٥-٤٨٣ .

(٥) انظر : : عيون المسائل للفارابى ص ٤ .

(٦) هو المرحوم الزركان فى بحثه عن : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ١٧٦ وانظر : أيضاً : ديكارت تأليف عثمان أمين ١٦٦-١٩١ .

صورة تختلف عن صورته لدى أرسطو (١). وخير ما قدمته المدرسة الفلسفية من أدلة دليلاً الاختراع والعناية اللذان استنبطهما ابن رشد من آيات القرآن الكريم ، وعنى بعرضهما في صورة واضحة قريبة إلى العقول والقلوب (٢) وإن كنا نجدهما أيضاً عند أكثر المفكرين المسلمين.

وسنرى أن الآمدى لم يأخذ بواحد من هذه الأدلة كاملاً ، ولكنه انتفع بها جميعاً ، وخاصة بفكرة التناهي الموجودة عند الكندى .

ب- وأما الاتجاه النقلى فيشمل موقف (الحشوية) الذين يكتفون بمجرد إخبار القرآن الكريم والنبى ﷺ - بوجوده - تعالى ، ويؤمنون بذلك دون طلب لدليل أو برهان . كما يشمل هؤلاء الذين ينظرون إلى آيات القرآن ، لا من جهة إخبارها بالعقائد أو تقريرها لها فقط ، وإنما من جهة ما تقيمه من أدلة عقلية لإثبات تلك العقائد أيضاً . وقد سبقت الإشارة إلى جهود ابن رشد وابن تيمية في هذا الصدد . وأضيف هنا أن الأخذ بهذه الأدلة القرآنية - على درجات متفاوتة - ينتظم سائر المدارس الإسلامية ، فكما نجد دليلى الاختراع والنظام عند ابن رشد نجدهما كذلك عند الكندى من قبل (٣) . وربما عند ابن سينا أيضاً (٤) . وكما نجد عند المتكلمين طريقة حدوث الأعراض أو الصفات لجدها أيضاً عند ابن تيمية الذى يثنى عليها ويعتبرها جزءاً من طريقة القرآن الكريم (٥) . وهى إحدى طرق ست عند المتكلمين ، هى : حدوث الذوات ، وإمكانها ، ومجموعها . وحدث الصفات وإمكانها ومجموعها ، وقد كان الظن أن حصرها على هذا النحو هو من صنيع الرازى (٦) ، ولكن ابن الوزير فى كتابه « ترجيح أساليب القرآن » ينسبها إلى أبى الحسين البصرى وأصحابه (٧) .

وقد استدل بهذه الطريقة - طريقة تجدد الصفات وحدوثها - أبو الحسن الأشعرى فى اللمع ، وإن كان قد حصرها فى أحوال خلقة الإنسان وأطوار نشأته (٨) . ودافع عنها

(١) انظر : ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) انظر : مناهج الأدلة ١٥٠-١٥٤ ومقدمته ٢٥-٢٨ .

(٣) انظر : الكندى وفلسفته ٧٨-٨٤ . (٤) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ٥٠ .

(٥) انظر : الموافقة ٢/ ٢٥٤-٢٦٠ . (٦) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٧) انظر : ترجيح أساليب القرآن ص ٧٩ ، ٨٠ . (٨) انظر : اللمع ١٧-١٩ .

الجوينى فى الشامل (١). كما استدلل الغزالى بطريقة الإحكام والإتقان فى الكون (٢)، كما نجدها أيضاً عند ابن تومرت مع دليل الاختراع والسببية (٣). وقد اعتمد أبو المعين النسفى الماترىدى فى إثبات وجود الله - تعالى - على هاتين الطريقتين : الإتقان والاختراع ، واستنبطهما من الآية الكريمة ﴿... وفى الأرض قطع متجاورات ... الآية﴾ (٤). وهو فى هذا يتابع شيخه أبا منصور الماترىدى الذى مال - بعد ان تمرس بأدلة الكلام التقليدية - إلى طريقتى العناية والاختراع (٥). كما ذكر ابن الوزير أن طريقة الإحكام والإتقان هى عمدة أئمة آل البيت منذ على - كرم الله وجهه - فى الاستدلال على وجوده - تعالى ، ويذكر من نصوص علماء الزيدية ما يؤيد هذا (٦). كما يذكر أن القاضى عبد الجبار المعتزلى نوه بها فى كتابه (المحيط) عند حديثه عن إعجاز القرآن الكريم (٧).

وهكذا نجد أن المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة وماتريدية يشاركون غيرهم من علماء المسلمين فى الاعتماد على هذه الأدلة القرآنية ، وإن كانوا - والحق يقال - لم يتوفروا على دراستها وتفصيلها ، ربما لغلبة فكرة الدور التى سبق الحديث عنها على أكثرهم أو لغير ذلك من الأسباب ، وانصرفوا إلى دليلى الجوهر والعرض ، والممكن الواجب ، وهما دون مستوى هذه الأدلة القرآنية .

والآمدى وإن أعرض عن هذين الدليلين فقد اختار دليلاً مركباً من فكرتى الحدوث والإمكان وفكرة التناهى كما سنوضحه ، ولم يحاول اللجوء نهائياً إلى أدلة القرآن الكريم، لما غلب عليه أيضاً من فكرة (الدور) الاعتزالية ، وإن كان ينوه - أحياناً - بما يسود العالم من إحكام وإتقان يدل على وجود فاعله بالضرورة (٨). بل يشارك الإمام الرازى فى تفضيله لأدلة القرآن على سائر الأدلة الكلامية التقليدية إذ يقول فى المآخذ :

(١) انظر : الشامل ١/ ١٦٦ وما بعدها .

(٢) انظر : رسالته : الحكمة فى مخلوقات الله - ص ١٥ وما بعدها ، والإحياء ١/ ٧٢ .

(٣) انظر : تاريخ فلسفة الإسلام د/ هويدى ١/ ٢٦٥-٢٦٧ .

(٤) الآية ٤ من سورة الرعد ، وانظر : بحر الكلام ص ١٤ ، ١٥ .

(٥) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٢١-٢٣ ، والتمهيد للنسفى ١٢٨ ، والتوحيد للماترىدى ١١ وما بعدها .

(٦) ترجيح أساليب القرآن ص ١٩-٢٢ ، ٨٥ وما بعدها . (٧) السابق ص ٢١ .

(٨) الأبهكار ٢/ ٢٦٢ ب

« وهذه الدلائل أوقع فى القلوب وأدفع للشبهات ؛ لمشاهدة الإنسان فى كل حال شيئاً منها ، وكثرة الممارسة تفيد الملكة ورسوخ الاعتقاد المانع من الإنكار ، ولما فيها ، مع الدلالة ، من المنفعة الحاملة للإنسان على الانقياد ، وأكثر هذا النوع فى الكتب الإلهية وبخاصة القرآن المجيد » (١) .

جـ- وأما الاتجاه الصوفى فإن أصحابه قد يستندون أحياناً إلى الشواهد العقلية ، وربما استعاروا فى ذلك بعض الأفكار الكلامية أو الفلسفية (٢) ، إلا أن عمدتهم فى هذه المسألة هو القلب المؤمن لا العقل المفكر ، هو الكشف الذى يخترق حجب الغيب لا البرهنة العقلية العاجزة ، يقول الكلاباذى : « وأجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده ، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل فى حاجته إلى الدليل ؛ لأنه محدث » (٣) ، وقد قرر ابن عربى - بعده - عجز العقل ومناهجه عن الوصول إلى أية معرفة حقيقية ؛ لأنه لا يزيد على أن يقلّد نفسه ، ومن ثم أعلن عدم ثقته بأدلة المتكلمين ومناهجهم (٤) . ولا تزال المدرسة الصوفية المعاصرة تتبنى هذا الرأى وتدافع عنه (٥) .

وقد بينت فيما سبق موقف الآمدى من المنهج الصوفى بصفة عامة ، وأنه لا ينكره طريقاً إلى المعرفة أو جزءاً من هذا الطريق ، إلا أننا لا نعرف من مؤلفات الرجل أو حياته ما يدل على سلوكه لهذا الطريق فعلاً ، وإن كان ينقل فى (المآخذ) أقوال المرتاضين المكاشفين تأييداً لفكرة وجود الله ، على سبيل الاستئناس ، أو (الاستبصار) كما يعبر ، لاعلى سبيل البرهنة (٦) .

د- وأما الاتجاه الفطرى ، ويراد به أن الإحساس بوجود الخالق أمر مغروز فى فطرة البشر جميعاً وأعماق ضمائرهم ، يشعر به كل عاقل ولو لم يستخدم طرق البرهنة المختلفة ، وإن كان يحتاج الى أن يلتفت إلى نفسه ويجردها من الغفلة ليحس به قويا واضحا .

(١) المآخذ ل ١٦ ب .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ص ٣ ، ٤ ، والدرة الفاخرة للجامى ٢٧٦ ، ٢٧٧ وفصوص الحكم ٨١ / ١ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٩٣ .

(٤) عن بحث : (موقف ابن عربى من العقل والمعرفة الصوفية)لقاء استاذنا الدكتور قاسم بجامعة أم درمان الإسلامية سنة ١٩٦٩ - ص ٦-١١ ، ١٣-١٥ .

(٥) انظر : مقدمة المنقلد من الضلال تحقيق د/ عبد الحليم محمود ص ٨-٢٤ وكتابه (أبو الحسن الشاذلى)

ص ٩٣-١٠٢ . (٦) انظر : المآخذ ل ١٩ وما بعدها .

ويعتمد أنصار هذه الفكرة على قول الله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (١)، وعلى جملة من الأحاديث النبوية في معناها ، وينتصر لهذه الفكرة طوائف من المحدثين والمفسرين (٢)، وبعض المتكلمين أيضاً كالما تریدی أبي منصور (٣)، والنسفي أبي المعين (٤)، والشهرستاني الذي يفضل شاهد الفطرة الذي يتمثل في إحساس كل عبد بالافتقار إلى خالقه على سائر أدلة المتكلمين (٥). والإمام الغزالي في بعض كتبه (٦)، والكرامية (٧)، وابن تيمية (٨)، وكثير من الصوفية (٩)، على حين يعارضه آخرون منهم : الباقلاني والبغدادی وغيرهما من أهل النظر الذين يرون أن معرفة الله لا تقع اضطراراً ، ولا تتم إلا عن طريق النظر العقلي (١٠).

أما الآمدی فإنه يرى ، برغم تمسكه بالأدلة العقلية وإيمانه بوجوب النظر في مسائل العقيدة ، أن أصول العقائد وأدلتها الإجمالية ظاهرة جلية لكل عاقل، وتكاد تكون ضرورية : « .. إنما لم يبحث معهم (يقصد الرسول - ﷺ - مع صحابته) في حدوث العالم ووجود الصانع ودلالة المعجزة على صدق الرسول ؛ لأن أدلة هذه الأمور ظاهرة جلية ، لا تخفى على عاقل ؛ وذلك لأن العالم في غاية الحكمة والإتقان ، فدلالته على وجود الصانع الفاعل له ضرورية ، ودلالة كونه مفعولاً لفاعل على كونه حادثاً ضرورية أيضاً ، وإلا كان الفاعل محصلاً للحاصل ، وهو محال . ودلالة المعجزة على صدق الرسول فضرورية أيضاً ، كما سبق تعريفه . وإنما وقع الإشكال والتطويل في دفع ما أورده المخالفون من الشبه » (١١) . وقد سبق للإمام الرازي أن قرر هذه الفكرة نفسها ، كما حكى ذلك ابن تيمية الذي يتهمه مع الآمدی بالتناقض ؛ لقولهما هذا واقتناعهما بفكرة

(١) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٠-١٨٧ وتفسيرى النسفى ٨٥/٢ وابن كثير ١٥٠/٢ .

(٣) انظر : شرح الطحاوية ص ١٨٦ . (٤) انظر : بحر الكلام ١٠-١٢ .

(٥) انظر : نهاية الأقدام ١٨٠-١٨٧ . (٦) انظر : الإحياء ط / الحلبي ٤ / ٢١٢ .

(٧) انظر : نشأة الفكر ١ / ٦٣٣ ، ٦٤٤ . (٨) انظر : موافقة صحيح المنقول ١ / ٥١ .

(٩) انظر : محمد كمال جعفر : التسترى ومذهبه الصوفى ، ص ٢١١ وما بعدها .

(١٠) انظر : أصول الدين للبغدادى ص ١١ والتمهيد للباقلانى ص ١٨ .

(١١) الأبيكار ٢ / ٢٦٠ ، ب .

(الدور) التى سبق الكلام عنها فى نفس الوقت، مع ما بين الفكرتين من تناقض^(١) .
وهكذا نرى أن الآمدى يقف موقفاً متفتحاً إزاء هذه الطرق جميعاً ، ولكنه ينضمُّ إلى
أنصار الاتجاه العقلى بصفة خاصة، وإن كان يُعَرِّضُ عن الأدلة التقليدية التى سبقت
الإشارة إليها لدى هؤلاء ، ويختار هو دليلاً ينتفع فيه بعدة أفكار مما تتضمنه أدلة الفلاسفة
والمتكلمين .

٣- استدلال الآمدى على وجود الله :

يعتمد الآمدى على دليل عقلى يقوم - كما سنرى - على الأفكار التالية : الحدوث،
والإمكان، والتناهى . ويُعَرِّضُ الرجل - تماماً - عن الأدلة الكلامية التقليدية : الجوهر
والعرض ، والممكن والواجب ، وما على شاكلتهما . ويقدم دليله المشار إليه فى كل من
كتابه (الابكار)^(٢)، و(غاية المرام)^(٣) .

وقد عد الآمدى فى (المآخذ)^(٤) الأدلة الأربعة التى اعتمد عليها الفلاسفة
والمتكلمون فى إثبات (العلم بالصانع) ، وأولها دليل الوجود الذى استند إليه ابن سينا ،
وثانيها دليل الممكن والواجب المنسوب إلى الجوينى ، وثالثهما دليل الجواهر والأعراض
المشهور لدى سائر المتكلمين ، ثم دليل حدوث الصفات أو العناية المعروف لدى ابن
رشد . وبعد أن أفاض فى شرحها متابعاً للإمام الرازى فى (مطالبه العالية) عَقَّبَ بما يفيد
أن أقوى هذه الأدلة فى نظره ، من الوجهة العقلية، هو الأول^(٥) . أما الدليل الثانى
فيصفه بالضعف لقيامه على فكرة تماثل الأجسام وهى فى نظره مشكوك فيها^(٦) . وأما
الثالث فإنه يثير مشكلات عدة يصعب حلها، فضلاً عن أنه - كسابقه - لا يغنى عن
الدليل الأول^(٧) .

ثم يقرر أن أفضل هذه الأدلة جميعاً إنما هو الرابع ؛ وذلك لأسباب نفسية أكثر منها
عقلية؛ منها تأثر الإنسان بما يتكرر تحت نظره ، وتتعلق به فائدته . ولأسباب شرعية منها

(١) انظر : الموافقة لابن تيمية ١ / ٥٣ . (٢) انظر : الابكار ١ / ٤١ أو ما بعدها .

(٣) انظر : غاية المرام ل ١٣ . (٤) انظر : المآخذ ٤ وما بعدها .

(٥) انظر : المآخذ ل ١٢ ب .

(٦) انظر : المآخذ ل ١١٢، ب والموافقة لابن تيمية ٢ / ٢٥٦ - ٢٦٠ وما سياتى فى مبحث حدوث العالم .

(٧) انظر : المآخذ ل ١١٢، ١١٣، ١١٥ .

أن هذا الدليل قد تكرر في القرآن الكريم في أكثر من ثمانين موضعاً (١).

وليت الآمدى قنع بهذا الدليل الأخير ، ولكنه فيما يبدو كان - في كتاب المآخذ - يدور في فلك الإمام الرازى الذى اتجه فى أخريات أيامه إلى الاعتماد على القرآن الكريم فى العقائد وأدلتها ، والمطالب العالية هو آخر مؤلفاته جميعاً (٢). أما فى كتبه الخاصة كالأبكار وغاية المرام فإن الآمدى لا يعتمد إلا على الدليل الذى يمر بالخطوات الثلاث الآتية :

(١) البدء بملاحظة الحوادث المشاهدة الموجودة فعلاً بعد العدم ، وتلك بداهة حسية لا تحتاج إلى دليل .

(٢) استخلاص فكرة (الإمكان) من تجدد هذه الحوادث بعد أن كانت معدومة ، وهى خطوة عقلية تحتاج إلى بيان .

(٣) إبطال فكرتى الدور والتسلسل حتى تنتهى هذه الحوادث الممكنة إلى موجود أول هو واجب بذاته لا بغيره .

أولاً - يبدأ الآمدى استدلاله بداية موفقة ، أى بملاحظة ما نشاهده فى الواقع من الأمور التى توجد بعد أن لم تكن موجودة ، يقول فى الأبكار : « ومنشأ الاحتجاج على ذلك مانشاهده من الموجودات العينية ، ونحققه من الأمور الحسية » (٣) ، وهو نفس كلامه فى (غاية المرام) (٤) ، وهكذا يبنى الآمدى استدلاله على قاعدة راسخة من المشاهدات الواقعية والبداهات الحسية ، وإلا فهل ينكر أحد منا أنه وجد ، أو بعبارة أخرى ولد بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ وهو بذلك يجنب نفسه - منذ البداية - خطر الاعتماد على مقدمات يصعب إثباتها كحدوث العالم كله ، أو إمكانه كله ، أو تركبه من الجواهر والأعراض ، التى يبدأ أكثر المتكلمين والفلاسفة أدلتهم بها . ومما يؤكد ذلك أنه يلجأ إليها لإثبات وجود الله - تعالى - فى كتابه (أبكار الأفكار) مع أنه كان عندئذ لا يزال مقتنعاً بإمكان الاستدلال على حدوث العالم بفكرة الجواهر والأعراض ، كما سنرى

(١) راجع ما سبق عن موقفه من الاتجاه النقلى وانظر المآخذ ل ١٥ ب .

(٢) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٦٢١ .

(٣) الأبكار ١ / ٤١ ، ب .

(٤) انظر : غاية المرام ل ١٣ ، ب .

فى الفصل التالى .

ولا شك أن حدوث العالم بكل ما فيه دعوى عريضة يصعب إثباتها ويسهل الشك فيها ، فضلاً عن أن إثبات وجود الله ممكن حتى لو صرفنا النظر عنها تماماً ، كما فعل الآمدى ، وكما نجده عند ابن رشد من قبل (١) .

أما فكرة ابن سينا الخاصة بتأمل معنى الوجود نفسه وتحليله إلى الوجود الممكن والوجود الواجب ، والأول منهما لا يتحقق إلا بالاستناد إلى الثانى ، تلك التى يراها أشرف من البدء بالمحسوسات أو المخلوقات وأجدر بالصدّيقين من العلماء (٢) - فإنها فى نظر بعض العلماء ليست إلا بداية بالمخلوقات والأفعال كالطريقة الأخرى ، وإلا فكيف استطاع ابن سينا تصور الوجود الممكن؟ (٣) والآمدى رغم عنايته بفلسفة ابن سينا ، وشرحه لكتاب الإشارات ، يُعرض عن هذه البداية أيضاً ولعله قد أطلع على نقد الرازى والغزالى لها (٤) ، ذلك النقد الذى نجد قريباً منه عند ابن رشد (٥) وابن تيمية (٦) وغيرهما (٧) . ولعلنا نجد فى هذا دليلاً على روح الواقعية الحسية التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى لم يغيرها تماماً أخذُه بالمنطق الصورى ، كما يدلنا على تأثره بطريقة القرآن الكريم التى تبدأ عادة مثل هذه البداية (٨) ، خاصة والآمدى نفسه يصورها على النحو التالى : «إنا نشاهد أفعالاً وصفات لا لبس عليها ، كطلوع الكواكب وغروبها وحصول الليل والنهار والفصول الأربعة ، والأصوات والظلال ، وما فيها من المصالح العظيمة ... ثم الإنسان وما فى تركيب جسمه وتعقلاته من قوة نفسه . وكل ذلك دليل وجود الإله القادر» (٩) .

وبعد أن يمتدح هذه الدلائل ويشير إلى ورودها فى القرآن الكريم أكثر من ثمانين

(١) انظر : مناهج الأدلة ص ٢٥ - ٢٨ .

(٢) انظر : الإشارات والتنبيهات مجلد ٣ / ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

(٣) انظر : ملخص المطالب العالية للخونجى ل ١٣ ، فخر الدين الرازى وآراؤه ص ١٨٨ .

(٤) انظر : الرازى وآراؤه ص ١٨٨ ، وموافقة صحيح المنقول لابن تيمية - النسخة المصورة - ل ١٢٣٧ ، والمنقذ

للغزالى ١١٨ - ١٢٧ . (٥) انظر : مناهج الأدلة ٢١٠ .

(٦) انظر : ابن تيمية السلفى ص ٧٤ - ٧٨ ، وصون المنطق للسيوطى ص ٣٢٠ .

(٧) انظر : الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى ل محمد البهى ٢ / ٢٢١ - ٢٢٥ ، وديكارت لعثمان أمين ١٨١ - ١٩١ .

(٨) انظر : مناهج الأدلة ص ١٥٠ والجانب الإلهى ٢ / ٢١٣ . (٩) المأخذ ل ١١٥ .

مرة، يقول : «إن حدوث التأليفات العجيبة في بدن الإنسان المعلومة بالتشريح من غير فاعل حكيم قادر عليم مستحيل بالضرورة»^(١) . مما ذكرنا بقول الغزالي (في المنقذ) : «ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، ولا سيما بنية الإنسان»^(٢) .

ومن الواضح أن بداية النظر ومنشأ التفكير الذي يوصى به القرآن هو دائماً بدايات حسية ووقائع مشاهدة . ولقد كان من الأفضل أن يكتفى الآمدى بهذا النوع من الأدلة ، ولكنه يتابع طريقه متأثراً بأسلوب المتكلمين .

ثانياً : ينتقل الآمدى من المشاهدات الحسية إلى ملاحظة عقلية هذه المرة ، فيخلع على هذه (الحوادث) صفة الإمكان ؛ وذلك بأن يستخلص من (واقعة) حدوثها (فكرة) إمكانها ؟ إذ المستحيل لا يدخل في الوجود أبداً ، والواجب الذي يستمد وجوده من ذاته لا ينعدم أبداً ، فلم يبق إلا أن تكون هذه الحوادث، التي توجد بعد أن لم تكن وتفتنى بعد أن كانت موجودة، ممكنة، أى قابلة - كما هو مشاهد - للعدم أحياناً وللوجود أحياناً أخرى ، وهذا هو الإمكان الحقيقي فيما يرى ابن رشد^(٣) ، وليس الإمكان القائم على الافتراض النظري الذي يصفه بأنه ضرب من الجهل^(٤) .

وإذا فالعقل يقضى بأن هذه الحادثات الممكنة تستند إلى سبب آخر تستمد منه وجودها ، إذ الممكن لا يترجح جانب وجوده على عدمه إلا بمرجح : «فإن وجودها إما أن يكون لذاتها أو لغيرها : لا جائز أن يكون لذاتها ، وإلا لما كانت معدومة ، وإن كان لغيرها فالكلام في ذلك الغير كالكلام فيها»^(٥) وهذه خطوة عقلية سائغة حقاً ، ولكن هل هي ضرورية لهذا الاستدلال ؟ ولماذا لم يتجه الآمدى مباشرة من إثبات الحدوث إلى إثبات الصانع أو المحدث ، شأن أكثر المتكلمين؟^(٦) .

يجيب ابن تيمية عن هذا التساؤل إجابة ليست في صالح الآمدى : «إن طريقة بعض نظار المسلمين ، مثل القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأبي الحسين البصري وأبي

(١) السابق ل ١٦ ب . (٢) انظر : المنقذ من الضلال ١٤٥ . (٣) انظر : مناهج الأدلة ص ٢١٠ .

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة وانظر : أيضاً : المنطق الحديث ومناهج البحث لاستاذنا الدكتور قاسم ص ٧٠-٧٣ ومناهج البحث عند مفكرى الإسلام د/ النشر ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٥) غاية المرام ل ١٣ وانظر : الابهكار ١/ ٤١ . (٦) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ١١٠ - ١١٢ .

المعالى وابن عقيل وابن الزاغوانى من أن الحادث لا يختص بوقت دون وقت إلا بمخصص خير من طريقة الذين احتجوا بأن الممكن لا يترجح أحد طرفيه إلا بمرجح ، كما فعل ذلك ابن سينا والسهروردي المقتول والرازي والآمدى ، وأمثال هؤلاء ، فإنهم بنوا ذلك على أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه إلا بمرجح . . وطريقة نظار المسلمين كانت خيرا من هذه رغم طولها وضررها» (١) .

ولنا على هذا الكلام ملاحظتان :

أولاهما : أن الآمدى لم يكن وحده فى التحول من فكرة الحدوث إلى فكرة الإمكان ، كما يستفاد من كلام ابن تيمية نفسه ، بل لقد بدأ ذلك قبله بزمان ليس بالقصير ، يقول الدكتور الألوسى : « فإننا نرى ابتداءً من الغزالي أن المتكلمين صاروا يعتمدون على مقولة الإمكان بدلا من الحدوث ، وذلك لاقتناعهم بنقد الفلاسفة لهم . . بأن القول بأن الحاجة إلى الله هى لإحداث العالم فقط يجعل هذه الحاجة غير لازمة بعد إحداث الله للأشياء » (٢) .

وقد سبق لابن سينا أن قرر أن طريقته تُثبت حاجة الممكنات إلى الله من جهتين جهة الحدوث وجهة الاستمرار فى الوجود (٣) ، كما أشار إلى أن طريقة الحدوث هى طريقة (ضعفاء المتكلمين) (٤) وهذا ما يميل إليه الآمدى نفسه (٥) . بل إن فكرة الإمكان قد بدأت - أصلاً - فى الوسط الكلامى ، واستعارها الفلاسفة منه ، وليس العكس ، وقد نبه على ذلك أستاذنا الدكتور محمود قاسم (٦) ، وما يؤكد ذلك أن ابن تيمية نفسه يقول عنها إنها « مسروقة من طريقة الحدوث الكلامية » (٧) . ونحن نجد الباقلانى فى « التمهيد » - وقد مات قبل ابن سينا بربع قرن - يذكر فكرة الإمكان ، ويدعم بها دليل الجوهر والعرض القائم أصلاً على فكرة الحدوث (٨) .

(١) موافقة صحيح المنقول - النسخة المصورة - ل ١٢٢٨ ، ب .

(٢) حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ١١١ .

(٣) انظر : النجاة ٢٣٦ ، ٢٣٧ والجانب الإلهى من التفكير الإسلامى ٢١٦/٢ - ٢٢١ .

(٤) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ١١١ . (٥) المتأخذ ل ١٥ .

(٦) انظر : ابن رشد وفلسفته الدينية ص ٩٢-٩٤ ونظرية المعرفة عند ابن رشد ص ٨٥ ، ١١١ ، ١١٤ .

(٧) ابن تيمية السلفى ص ٧٧ . (٨) انظر : التمهيد ص ٤٥ .

وإذا فنحن نستطيع القول بأن المتكلمين بدعوا بالاعتماد على فكرة الحدوث وحدها ثم مالوا إلى الجمع بينها وبين فكرة الإمكان ، ثم آثروا الاعتماد على هذه الأخيرة ، كما نجده عند الجويني . ويمكن أن يُعدَّ الآمدى ممن جمعوا بين الفكرتين مع ملاحظة التحديد السابق وهو أنه بدأ بالحدوث المشاهد المحسوس ، وانتقل منه إلى الإمكان الحقيقي لا الذهني الافتراضى ، ليخلص إلى إثبات حاجة هذه (الحادثان الممكنة) إلى محدث واجب الوجود .

أما الملاحظة الثانية فهي أنه ربما كان هناك ما يدعو الآمدى إلى استخدام فكرة الإمكان فى استدلاله ، فقد تعرَّضَ - فى المآخذ - للخلاف بين المتكلمين حول الاستناد إلى الحدوث فى بيان الحاجة إلى الفاعل المؤثر أو إلى الإمكان ، وبعد أن عرض أدلة الطرفين مال هو إلى أن حاجة الممكن إلى فاعله ضرورية^(١) ، وهى فكرة أكَّدها فى الأبيكار أيضا : « إذا ثبت أن الوجود والعدم بالنسبة إلى ذات الممكن متساويان ، فاحتياج وقوع أحد المتساويين إلى المرجح معلوم بالضرورة »^(٢) . أما مجرد الحصول والحدوث فهو لا يدل بداهة على الحاجة إلى المؤثر مالم نلاحظ معنى الإمكان^(٣) .

ومن حق الآمدى أن يختار أى المذهبين شاء مادام قد قدَّم لنا مبرراته لهذا الاختيار ، خاصة أن المتكلمين قد أخذوا يعدلون عن فكرة الحدوث ، ويتنازل الكثير منهم عن بداهة استلزامها للمحدث مباشرة دون ملاحظة معنى الإمكان ، وأنه يتحدث عن ضرب من الإمكان يختلف عن ذلك الإمكان الاحتمالى الذى يتكلم عنه غيره من المتكلمين^(٤) ، بل هو إمكان حقيقى مستخلص من واقعة التحقق الفعلى .

ثالثاً - أما الخطوة الأخيرة فى استدلال الآمدى فهي إبطال الدور والتسلسل ، إذ قد يقول البعض بأن هذه الممكنات الحادثة لها سبب مماثل لها ، وللسبب سبب إلى ما لانهاية له فى الماضى .

ونلاحظ أن الآمدى لا يهتم كثيراً بإبطال الدور لظهوره وعدم اختلاف العلماء فى بطلانه ، حتى إنه ليهمله فى كتابه (غاية المرام) إهمالاً ، أما فى (الأبيكار) فإنه يستدل

(١) انظر : المآخذ ل ١٣ ب ، ١١٤٥ ، ب .

(٢) الأبيكار ١ / ١٤٧ .

(٤) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ١٦ - ١٨ .

(٣) المآخذ ل ١١٥ .

على بطلانه باستلزامه للتناقض إذ إنه يفضى إلى كون الشيء الممكن مقوماً لنفسه وهو باطل (١).

أما التسلسل فرغم اقتناع الآمدى ببطلانه أيضاً ، نراه ينتقد أدلة المتكلمين (٢) في هذا الصدد :

(١) فينتقد دليل التطبيق الذى يقوم على افتراض سلسلتين من الممكنات اللامتناهية فى جانب الماضى ، ولكنهما متفاوتتان ، كأن تبدأ إحداهما من الطوفان مثلاً وتتسلسل فى الماضى إلى ما لانهاية له ، والاخرى من ميلاد المسيح . ويتصور انطباق هاتين السلسلتين سنجد أن تساويهما محال وزيادة الاولى على الثانية محال أيضاً ؛ إذا فالنتيجة الواحدة المقبولة هى زيادة الأخيرة ، ولكنها تزيد على الأخرى بعدد متناهٍ ؛ إذا فكلتاهما متناهيتان ؛ لأن ما زاد على المتناهى بعدد متناهٍ فهو متناهٍ مثله .

ويرى الآمدى أن هذا الدليل يتضمن مغالطة ؛ إذ هو يفترض قبول غير المتناهى لنفس النسب والاحكام التى تقبلها الكميات المتناهية وهذا غير مسلم (٣) . ومن ناحية أخرى فإنه من الممكن أن تتفاوت المقادير بكميات

متناهية دون أن تكون هى متناهية بالضرورة ، فإن عقود الحساب مثلاً لانهاية لها ، وإن كانت الأوائل أكثر من الثانوى ، والثوانى أكثر من الثالث بأمر متناهٍ (٤) .

ونجد مثل هذا النقد - مع وجوه أخرى - لدى ابن تيمية فيما بعد (٥) ، وعند ابن رشد من قبل (٦) .

(ب) ثم يعرض الآمدى لمحاولة ابن سينا - ويسميه الفيلسوف المتأخر - تصحيح هذا الدليل نفسه ، ولكن فى حدود الموجودات ذات الترتيب الوضعى : كالأبعاد

(١) الأبهكار ١/٤١ ب وانظر : المتأخذ ل ١٩ .

(٢) انظر : الانصاف ص ١٦ ، ٢١ ، ٣١ ، ٣٣ ونشأة الفكر ١/٥١٤ - ٥٢٠ والكندى وفلسفته ص ٦٢ وكتاب الكندى إلى المعتصم بالله ص ٩٢ - ٩٤ ومقدمة مناهج الأدلة ص ٢١ وفيدون للنشار ص ٢٣٢ .

(٣) غاية المرام ص ٩ - ١٨ . (٤) الأبهكار ٢/٤٣ ، وانظر : غاية المرام ص ١١ .

(٥) انظر : منهاج السنة - بولاق ١/١٢٠ وموافقة صحيح المنقول ٢/٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٦) فى تهافت التهافت حيث يقول : « لا توجد نسبة بين عظمين كل واحد منهما يفرض لانهاية له ، وأما إذا لم يكن هناك نهاية فلا كثرة هناك ولا قلة » ج ١ ص ٧٧ .

والامتدادات ، أو الترتيب الطبيعي : كالعلل والمعلولات ، فهي وحدها المتناهية ، أما غيرها كالحركات السماوية والنفوس الإنسانية مما لا امتداد له ولا اجتماع لآحاده فتسلسله أو عدم تناهيه غير محال ؛ وذلك لأن فرض التطبيق ممكن بالنسبة للنوع الأول ، أما النوع الثاني فلا يمكن افتراض التطبيق فيه^(١).

ويرى الآمدى أن هذه التفرقة لا مبرر لها ؛ إذ المسألة افتراضية بحثة : « فكما أمكن فرض الزيادة على ما فرض الوقوف عنده من نقطة ما من البعد المفروض أو وحدة ما من العدد المفروض ، فلا يخفى إمكان فرض الوقوف على جملة من أعداد الحركات أو النفوس الإنسانية المفارقة لأبدانها وجواز الزيادة عليها أيضاً »^(٢).

وقد سبق لابن رشد أن انتقد هذه التفرقة وقال إنها منافية لأصول القوم ، وذكر أن التفرقة الصحيحة هنا هي أن ما يوجد بالفعل لا بد أن يتناهى ، أما ما هو بالقوة فعدم تناهيه غير محال : « ولا نعرف أحداً فرق بين ما له وضع وما ليس له وضع إلا ابن سينا فقط ، وأما سائر الناس فلا أعلم أحداً منهم قال هذا القول ، ولا يلائم أصلاً من أصولهم ، فهي خرافة ، لأن القوم ينكرون وجود ما لا نهاية له بالفعل سواء كان جسماً أو غير جسم .. ولعل ابن سينا إنما قصد إقناع الجمهور لكنه قول قليل الإقناع . فإنه لو وجدت بالفعل أشياء لا نهاية لها لكان الجزء مثل الكل ، وذلك مستحيل ، وهذا كله إنما يلزم إذا وضع ما لانهاية له بالفعل لا بالقوة .. »^(٣).

ويشير الآمدى إلى أخذ المتكلمين بهذا الدليل ، ونحن نجده عند الغزالي في الاقتصاد^(٤) وابن حزم في الفصل^(٥) ، وعند التفتازاني وغيره من شراح العقائد النسفية^(٦) . ثم يقول الآمدى : إنهم أضافوا أدلة أخرى على بطلانه ، منها :

ب- دليل الشفعية والوترية ، وهو في الحقيقة فكرة ساذجة ، ويعرضها الآمدى

(١) انظر : النجاة ١٢٤-١٢٧ ، ٢٥٢-٢٥٥ والشفاء - الفن الثالث من الطبيعيات بتحقيق أستاذنا الدكتور قاسم

ص ٧٠ . (٢) غاية المرام ل ١٤

(٣) تهافت التهافت -- ط المعارف سنة ١٩٦٤ - ٨٩/١ وانظر : مثل هذه المناقشة عند ابن تيمية في الموافقة

(٤) انظر : الاقتصاد ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) انظر : الفصل ١٦/١ - ١٨ .

(٦) انظر : شرح العقائد النسفية ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

بإيجاز في الأبحاث وغاية المرام^(١)، وقد اعتمد عليها الغزالي في الاقتصاد، وصاغها على النحو التالي :

« دورات الفلك إن لم تكن متناهية فهي إما شفع وإما وتر ، وكلاهما محال . ولأن الشفع إنما يصير وترا بواحد ، والوتر إنما يصير شفعا بواحد ، فكيف أعوز مالا يتناهى واحد ؟ »^(٢) ويتمسك الآمدى بالفكرة التي قال بها ابن رشد قبله : وهي عدم قبول مالا يتناهى لحكم ما يتناهى^(٣)، ويلزم المتكلمين بمراتب العدد بمقدوراته - تعالى - وبمعلوماته ؛ فالأوليان غير متناهيتين، والمعلومات تشمل مالا يدخل تحت القدرة^(٤) . مع أن برهان التطبيق وبرهان الشفعية والوترية يمكن إجراؤه في هذه الأمور التقديرية ، كما أمكن إجراؤه في الموجودات الفعلية، دون فرق يعتد به ، ومع ذلك فأنتم تسلمون بعدم تناهى الأولى ، وتتمسكون به في إثبات تناهى الثانية ، ولا أدل من ذلك على فساد هذين البرهانين^(٥) .

ج- ثم يعرض الآمدى للفكرة القائلة : إن مالا يتناهى لا يحصره حاصر، فلو وجد لحصره الوجود ، وهذا تناقض^(٦) . ويرد عليها بأن ذلك يقتضى بيان أن الوجود نفسه متناهٍ حتى يتم الاستدلال ، ومعنى ذلك أنه ليس ببرهان مستقل ، إذ هو نفسه بحاجة إلى برهان . ثم يضيف : « هذا إن قيل بأن الوجود زائد على الموجود ، وإلا فلا حاصر أصلا^(٧) » . ونجد مثل هذا الرد عند ابن تيمية فيما بعد^(٨) .

د- ويعرض الآمدى أيضا لقول المتكلمين : إن مالا يتناهى لا ينقضى، فلو قررنا وجود مالا يتناهى من العلل والمعلولات فما من وقت نفرضه إلا وهي متناهية ومنقضية فيه، وانتهاء مالا يتناهى محال . ونجد مثل هذا عند الجوينى فى (الإرشاد)^(٩) ،

(١) انظر : غاية المرام ل ١٤ ، ب والأبحاث ١ / ٤٣ ، ب .

(٢) انظر : الاقتصاد ص ٢١ ، ٢٢ . (٣) انظر : غاية المرام ٩ - ١٨ .

(٤) نجد هذا القول عند الغزالي فى الاقتصاد ٢٢ ، ٢٣ وقد قال به أيضا السعد فى شرح النسفة فيما بعد ص ٢١٤ ، ٢١٥ . (٥) انظر : غاية المرام ل ٤ ، ب ، ١٥ والأبحاث ١ / ٤٣ ، ب .

(٦) نجد هذه الفكرة عند ابن حزم فى الفصل ١ / ١٥ ، ١٦ ، ١٨ .

(٧) غاية المرام ل ١٥ ، وانظر : ما مر عن مسألة الوجود والماهية ، والأبحاث ١ / ٤٣ .

(٨) انظر : الموافقة ٢ / ٢٤١ ، ٢٤٢ . (٩) الإرشاد ص ٢٦ .

والغزالي (في الاقتصاد)^(١) ، ويرد عليه بأن وجوب النهاية في أحد الطرفين لا يستلزم وجوبها في الطرف الآخر . وأظهر مثال لذلك عقود الحساب فهي متناهية من جهة البداية ولا آخر لها ، ولا دليل على استحالة عكسه ، وهو ما يدعيه الخصم هنا^(٢) . وقد أخذه عنه ابن تيمية ، وأشار إلى تأثير الأرموى بالآمدى في هذا الموضوع^(٣) . وقد عرض الآمدى في المآخذ لهذه الأقوال وغيرها في بطلان التسلسل وضعفها جميعاً^(٤) .

استدلاله على بطلان التسلسل :

ومع ذلك فالآمدى يرى بطلان التسلسل ويقول بتناهي الموجودات الممكنة إمكاناً حقيقياً في جانب الماضي ، ويقدم على ذلك دليلين :

(١) عرض أولهما (في غاية المرام) ، وهو يقوم على أن تسلسل العلل والمعلولات إلى غير نهاية يفضي إلى عدم وجود شيء أصلاً ، مع أن الوجود - كما سبق بيانه - بداهة حسية .

(٢) والثاني في (الأبكار) وبناء على أن التسلسل يفضي إلى كون الحادث أزلياً والأزلي حادثاً وهو تناقض صريح .

١ - الدليل الأول ذو شقين يهدف أحدهما إلى إبطال تسلسل العلل والمعلولات على سبيل التعاقب ، والآخر إلى إبطال تسلسلها وهي مجتمعة في الوجود .

(١) فأما الشق الأول : فيقوم على أنه لو فرضنا تعاقب العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية له ، وكل منها ممكن الوجود ، « فما من واحد من هذه الموجودات المتعاقبة نفرده بالنظر إلا وفرض وجوده متعذر ، فإنه مالم يفرض وجوب وجود علته فلن يوجد ، وكذا القول في علته وهلم جرا . وما علق وجوده على وجود غيره قبله ، وذلك الغير أيضاً مشروط بوجود غيره قبله ، إلى ما لا يتناهي ، فإن وجوده محال »^(٥) . وهذا قريب مما يقوله ابن رشد بأن وجود ما لا يتناهي بالفعل لا سبيل إليه كما سبق . غير أن الآمدى يدعم استدلاله هذا بمثال الدراهم المعروف لدى المتكلمين مع أنه ينتقده في (الأبكار)

(٢) انظر : غاية المرام ل ١٥ والأبكار ٤٣/١ ب .

(٤) انظر : المآخذ ١٩-١١ ب .

(١) انظر : الاقتصاد ص ١٦ .

(٣) انظر : الموافقة ٢/٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٥) غاية المرام ل ١٥ ، ب ، ص ٩ ، ١٠ ق ث

بمثل ما انتقده به ابن رشد (فى مناهج الأدلة)^(١) . ويستند أيضا إلى ما ذكره ابن سينا فى استحالة وجود بُعد لانهاية له ، « فما من نقطة يفرض التلاقى عندها إلا ولا بد أن يكونا قد تلاقيا قبلها عند نقطة أخرى ، إلى ما لا يتناهى ، وذلك محال »^(٢) . كما يستند إلى الفكرة القائلة بأن الجملة المكونة من آحاد كل منها مسبوق بالعدم ، فهى أيضا مسبقة بالعدم^(٣) . وقد عارض ابن تيمية فى (الموافقة) هذه الفكرة وزعم أن الآمدى قرر ما يعارضها فى كتابه (دقائق الحقائق)^(٤) غير أن مفكراً متأخراً كصدر الدين الشيرازى يؤيد فكرة الآمدى ، وينسبها إلى أفلاطون ويقول : « إن الحدوث لما كان هو المسبوقية بالعدم فإذا الكل مسبوق بالجزء ، والجزء مسبوق بالعدم فكان الكل مسبوقاً بالعدم ، بل له مسبوقية بعدم كل جزء من أجزائه ، فله مسبقيات بأعداد كثيرة غير محصورة »^(٥) . ثم يؤكد ماسبق أن قرره ابن رشد من أن « ما اشتهر بين الجمهور من أن تعاقب الأشخاص لا إلى حد يوجب التسلسل فليس إلا بمجرد الفرض ، ويستحيل أن يتحقق فى الواقع ؛ لأن المتحقق فى الواقع لا يكون إلا متناهما .. »

ب- وأما الشق الثانى : وهو يخص القائلين بالعلية - كما يقول الآمدى - فوجه بطلان هذه الجملة المجتمعة فى الوجود ، من العلل والمعلولات اللامتناهية أنها إما أن تكون واجبة أو ممكنة ، لا جائز أن تكون واجبة ، مع أن كل آحادها ممكنة ، فإن كانت ممكنة فهى بالضرورة تحتاج إلى مرجح ، والمرجح إما أن يكون خارجاً عنها أو داخلاً فيها ، لا جائز أن يكون داخلاً فيها ؛ لأنه عندئذ أحد أفراد الجملة فيصير مقوماً لنفسه ، إذ مقوم الجملة مقوم لجميع أفرادها أيضاً ، والمتقوم بنفسه هو الواجب ، وقد فرض أن جميع أفراد الجملة ممكن كما سبق . أما إن كان خارجاً فهو إما واجب وإما ممكن : لا سبيل إلى الثانى لأنه سيدخل فى الجملة ، فلم يبق إلا أن يكون المرجح خارجاً عن الجملة واجباً بنفسه ، وهو المطلوب^(٦) .

وقد عرض الآمدى فى المآخذ هذه الحجة ، ودافع عنها طويلاً ، وقرر أنها أقوى الحجج على بطلان التسلسل^(٧) ، ولكن ابن تيمية يتعقب هذا الاستدلال ويضعفه ،

(١) انظر : غاية المرام ١٣ - ١٤ . (٢) غاية المرام ل ٥٥ ، وانظر : النجاة ص ١٢٤ وما بعدها .

(٣) غاية المرام ل ١٥ ، ب . (٤) انظر : موافقة صحيح المنقول ٢/ ٢٤٤ . ٢٥٣ .

(٥) الأسفار الأربعة ص ٤٩٤ . (٦) انظر : غاية المرام ل ٥٥ . (٧) انظر : المآخذ ١٩ ، ب .

متمسكاً بأن حكم الجملة قد يختلف عن حكم أفرادها ، وأن فكرة التلازم بين العلة والمعلول في الزمان هي من قول ابن سينا، وللفلاسفة أقوال غيرها، ويرمى الرازي والآمدى بعدم الإلمام بتلك الأقوال . غير أن الآمدى لم يبين استدلاله على فكرة ابن سينا هذه - كما ينسبها ابن تيمية - ولكنه يبنى البرهنة على بطلان التسلسل على افتراض تسلسل العلل والمعلولات متعاقبة إلى ما لا نهاية أو على فرض اجتماعها في الوجود . وإن كان هناك من نقد يوجه إليه هنا له فهو غموض فكرته هذه بالنسبة لما اختاره في (الابكار) ؛ وهو الدليل الثاني الذي أشرنا فيما سبق إلى قيامه على فكرة التناقض بين الأزلية والحدوث .

وخلاصته أنا لو افترضنا سلسلة من العلل والمعلولات المتعاقبة مع كون كل منها حادثاً ، فإما أن نتصور أنه قد وجد شيء منها في الأزل أولاً ، والاول محال ؛ لأن الشيء الأزلي هو غير المسبوق بالعدم والحادث هو المسبوق به ، فاجتماع هذين الوصفين في شيء واحد تناقض صريح .

أما الاحتمال الثاني وهو عدم حصول شيء من تلك الحوادث المتعاقبة في الأزل فمعناه أن جملتها أيضاً مسبقة بالعدم كأفرادها، وأن لها مبدأ وهو المطلوب^(١) .

إن من التناقض الواضح أن نقول بحادث أزلي أو بأزلي له بداية ، والعقل الإنساني - بل قوة الخيال أيضاً كما يقول الشيرازي - يعجز عن تصور ذلك . لكن ابن تيمية، وهو حريص على نقض كل أدلة بطلان التسلسل لما يراه من صحة قيام الحوادث بذات الله تعالى ، يعارض هذا الاستدلال أيضاً متمسكاً بنفس الفكرة وهي اختلاف حكم الجملة عن حكم الأفراد ، مع أن الآمدى يعتمد هنا على تحليل معنى الحادث والأزلي وبيان استحالة اجتماعها ، يقول ابن تيمية معارضاً حجة الآمدى : «إنه ليس شيء بعينه موجوداً في الأزل، ولكن الجنس لم يزل متعاقباً»^(٢) .

وكأنما كان الآمدى يتوقع هذا الاعتراض ، فقد عرضة مفصلاً في (الابكار)^(٣) ثم

(١) الابكار ١/ ١٤٤ وقد نقله ابن تيمية في الموافقة ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦ .

(٢) الموافقة ٢/ ٢٤٦ وانظره أيضاً ص ٢٤٥ وما بعدها ، وقد أشار ابن تيمية إلى أن الأرموى سبقه بهذا الاعتراض ، وانظر : مثل هذا الاعتراض في شرح الطحاوية ص ٦٥ - ٦٧ .

(٣) انظر : الابكار ١/ ١٤٦ .

أجاب عنه بأنه إذا كان كل واحد من الآحاد لا وجود له في الأزل ، وهو بعض الجملة ، فليس بعض من أبعاض الجملة يكون موجوداً في الأزل ، ولا وجود للجملة دون وجود أبعاضها^(١) . وبينما تتسم فكرة الآمدى بالوضوح ، فإن قول ابن تيمية بأن كل فرد من الأفراد مسبق بالعدم لكن جنسها لا أول له^(٢) ، لا يبدو مفهوماً لدى بعض هؤلاء الذين اخلصوا لابن تيمية وأيدوا آراءه ، فنجدهم يترددون بشأن هذا الرأي ويتوقفون في قبوله^(٣) . على أن الآمدى يريد باستدلالة هذا لإبطال تسلسل العلل والمعلولات ، وهو ما يوافق ابن تيمية على بطلانه ويراه ضرورياً ويحكي اتفاق العقلاء عليه : « ومعلوم بضرورة العقل أن المحدث لابد له من محدث ، وأنه يمتنع تسلسل المحدثات بأن يكون للمحدث محدث وللمحدث محدث إلى غير غاية ، وهذا يسمى تسلسل المؤثرات والعلل الفاعلة ، وهو ممتنع باتفاق العقلاء كما قد بسط في مواضع »^(٤) .

هذا ويشير ابن تيمية في مناقشاته هذه إلى أن الآمدى مسبق في فكرته تلك بالرازي حيث قال : « إما أن يقال : حصل في الأزل شيء من هذه الحركات أو لم يحصل ، فإن لم يحصل في الأزل شيء وجب أن يكون لمجموع هذه الحركات والحوادث بداية وأول ، وهو المطلوب . وإن حصل في الأزل شيء من هذه الحركات فتلك الحركة الحاصلة في الأزل : وإن لم تكن مسبقة بغيرها كانت أولى الحركات وهو المطلوب . وإن كانت مسبقة بغيرها لزم أن يكون الأزل مسبوقاً بغيره وهو محال »^(٥) . ونحن نلاحظ أنه برغم التشابه الواضح بين الفكرتين فإن الرازي يجعل الاحتمالات ثلاثة ، ويعد من بينها حصول شيء من الحركات في الأزل ويتخذ منه دليلاً على الأولوية ، مع أن هذا الاحتمال مرفوض تماماً في نظر الآمدى ، وفي هذا تتركز فكرته القائمة على التنافض بين الأزلية والحدوث وهي جوهر استدلاله هذا .

على أنه لا بأس بالآمدى لو استعان بأفكار سابقيه ، وقد أشرت إلى أنه في الخطوتين الأخيرتين من استدلاله على وجود الله - تعالى - يستعين بأفكار كلامية وفلسفية^(٦) ، ولكن استدلاله هذا قد حظى بالقبول حتى عند بعض السلفيين المحافظين

(١) انظر : الأبحار ١/١٤٩ . (٢) انظر : الموافقة ٢/٢٣٦ .

(٣) كالشيخ الهراس في كتابه (ابن تيمية السلفي) ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٤) مجموعة تفسير ابن تيمية ... ط بومباي ص ٢٤٦ . (٥) الموافقة ٢/٢٤٥ .

(٦) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ، ص ٢٢-٢٥ .

المتأثرين بابن تيمية ؛ يقول ابن أبي العز الحنفى ، فى مواجهة خصم معطل : « فإن قال أنا لا أثبت شيئاً بل أنكر وجود الواجب ، قيل له : معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه ، وإما ممكن . إما قديم أزلى ، وإما حادث كائن بعد أن لم يكن . إما مخلوق مفتقر إلى خالق ، وإما غير مخلوق . . وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث بعد أن لم يكن والحادث لا يكون واجباً بنفسه ولا قديماً ولا أزلياً ولا خالقاً لما سواه . فثبت بالضرورة وجود موجودين أحدهما غنى ، والآخر فقر ، أحدهما خالق والآخر مخلوق . . » (١) .

وفى هذا ملامح استدلال الآمدى كلها ، وإن كانت الخطوة الأخيرة مجملة ، غير أن ابن أبي العز يوافق على بطلان تسلسل العلل والمعلولات فى نفس كتابه هذا ، وهى الخطوة الأخيرة عند الآمدى (٢) ، ويصرح بذلك فى موضع آخر : « قال تعالى : ﴿ هو الأول والآخر ﴾ . . والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر فى الفطرة ، فإن الموجودات لا بد أن تنتهى إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل ، فانت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ؛ فإن الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة بنفسها ؛ فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت . . وما كان قابل الوجود والعدم لم يكن بنفسه موجوداً (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ؟ وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها ما يعود إلى بعض ما ذكر فى القرآن . . » (٣) .

إن هذه بعينها هى طريقة الآمدى فى إثبات وجود الله ، يحاول هذا المتكلم الفقيه أن يربطها بالقرآن الكريم ، ويعترف بأنها توجد لدى المتكلمين والفلاسفة كما يظهر من كلامه ، بل يدافع عن طريقة هؤلاء فى الاستدلال . . « ولا نقول : لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية ؛ فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية . وأيضاً فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو أجلي منها . . ولا شك أن العلم بالصانع

(١) شرح الطحاوية ص ٤٢ . (٢) انظر : شرح الطحاوية ص ٦٧ وما بعدها .

(٣) شرح الطحاوية ص ٥١ ، والآية الواردة فى النص هى رقم ٣٥ من سورة الطور .

ضرورى فطرى ، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجهم إلى الطرق النظرية...» (١) .

على أن تيمية نفسه يرى صحة الدلالة على وجود الله المبنية على فكرة الإمكان وبطلان التسلسل ويقرر أنها « صحيحة ومقتضية وجود واجب ، غير أنهم لإثبات تعينه يحتاجون إلى دليل آخر » (٢) .

والآمدى لا يبغي من دليله أكثر من إثبات موجود واجب الوجود ، أما كمالاته وصفاته المختلفة فتثبت بأدلة أخرى ، ولذا يحق له أن يختم كلامه فى إثبات واجب الوجود بقوله : « فقد تقرر - كما أشرنا إليه - أنه لا بد من القول بوجود موجود وجوده لذاته لا لغيره . وهو حسبي ونعم الوكيل » (٣) .

* * *

(١) نفس المصدر ص ٥٢ . (٢) انظر : ابن تيمية السلفى ص ٧٦ .

(٣) غاية المرام ل ٩ .

المبحث الثانى

الصفات الإلهية - أحكامها العامة

تمهيد :

إذا كانت المسألة السابقة تكشف لنا عن روح النقد التى يتمتع بها الآمدى فإنها لا تكفى لتحديد اتجاهه الكلامى ، أما فى هذه المسألة فنستطيع أن نراه متكلماً أشعرياً متحرراً ، يحافظ على المواقف الأساسية للمذهب ، ولكنه يمارس حريته بوضوح فى :

(أ) التماس أدلة جديدة لتأييد هذه المواقف .

(ب) وفى رفض بعض الأفكار الجزئية فى المذهب الأشعري ، أو الترجيح بين المسائل الخلافية فيه .

(ج) وفى تأويل بعض الآراء والأقوال المعروفة لدى الأشاعرة على نحو جديد .

وتتبين هذه الملامح فى كلامه عن (الصفات الإلهية) ، التى سنبداً منها بالأحكام العامة والبحوث الإجمالية التمهيدية ، ليتبع ذلك الكلام على الصفات النفسية الإيجابية ، ثم الصفات السلبية .

أولا - هل يمكن معرفة حقيقة ذاته تعالى وكنهها ؟

وقد بدأت بهذا التساؤل خاصة ؛ لأن موقف الآمدى منه يمكن أن يمثل الروح العامة لآرائه فى المسائل الالهية ، وما تتسم به من نزعة تنزيهية غالبية .

وتتصل هذه المسألة بما سبق الكلام عنه أول هذا الفصل ، بشأن الوجود والماهية ، وقد كان الآمدى مع جمهور الأشاعرة فى أن الوجود غير زائد على الماهية ، ومما يوضح موقف الآمدى وجمهور الأشاعرة بهذا الصدد اختياره أن « واجب الوجود مخالف بذاته وحقيقته لباقى الذوات ، ولا مشاركة بينه وبينها فى غير التسمية »^(١) ويؤكد فى (غاية المرام) : « أن اطلاق اسم الوجود على الماهيات المتعددة ليس إلا بطريق الاشتراك فى اللفظ لا غير »^(٢) . وفى المآخذ أيضا يقول : « إن البارى مخالف لسائر الذوات لذاته المخصوصة ، وليس الاختلاف بالصفات مع تساوى الذوات ، كما يذهب إليه بعض المتكلمين »^(٣) .

ومن هذا يتبين أن إثبات الوجود - لله تعالى - والإيمان بهذا الوجود لا يعنىان الإحاطة بحقيقته أو إدراك كنهه تعالى أو معرفة ذاته المخصوصة التى هى مخالفة لسائر الذوات ، كما أن صفاته مخالفة لسائر الصفات ، وأفعاله مخالفة لسائر الأفعال . وكون الوجود نفس الماهية لا يعنى إلا أن الوجود ليس بزائد على ماهيته تعالى ، ولا هو عارض لها كما يقول المفرقون بين الماهية والوجود . على أن وجوده - تعالى - لا يشترك مع وجود أى موجود آخر إلا فى التحقق والانية للذات الإلهية ، أما طبيعتها وكنها فشيء آخر .

ومع وضوح هذا فإن الباحث الفاضل الأستاذ صالح الزركان - رحمه الله - يرتب على قول الأشاعرة بأن الوجود ليس بزائد على الماهية أنهم قائلون بإمكان معرفة ماهيته تعالى وحقيقة ذاته الخاصة ، ويرى أن ذلك من الواضح بحيث لا يحتاج إلى بيان^(٤) . ويبدو أنه متأثر بالرازى الذى صرح بهذا رأى فى المحصل^(٥) ، وقد تابعة عليه بعض المتكلمين^(٦) .

(١) الأبيكار ١/ ٥٠ ب وانظر : ل ١٥١ ، ٥١ ب

(٢) غاية المرام ، ص ٤١ .

(٤) انظر : (فخر الدين الرازى وآراؤه) ص ٢٠٢ .

(٦) انظر : شرح الدوانى على العضدية ص ٦٤ .

(٥) انظر : المحصل ص ١٣٦ .

(٣) المآخذ ل ١٥ ب .

ولاقتناع الرازي بهذه الفكرة فقد حاول إلزام ابن سينا القول بالتفرقة بين الوجود والماهية في ذات الله بناء على قول ابن سينا بإمكان معرفة وجوده تعالى وعدم إمكان معرفة حقيقة ذاته (١)، والحق أنه لا تلازم بين التفريق بين الماهية والوجود وعدم إمكان معرفة ذات الله الخاصة، ولا بين القول بأن الوجود غير زائد على الماهية، وإمكان معرفة حقيقة الذات الخاصة. ولذا فقد رد الطوسي على الإلزام المشار إليه بأن الحقيقة التي لا تدركها العقول هي وجود الذات الخاص المخالف لسائر الوجودات بالهوية الذي هو المبدأ الأول للكل. والوجود الذي تدركه هو الوجود المطلق الذي هو لازم لذلك الوجود ولسائر الوجودات وهو أولى التصور. وكون حقيقته - تعالى - غير مدركة وكون الوجود مدركا يقتضى مغايرة حقيقته - تعالى - للوجود المطلق المدرك لا لوجوده الخاص (٢).

وموقف الآمدى شاهد على ذلك، فهو مع تأكيد أنه الوجود غير زائد على الماهية، وإثباته لوجود الله، يؤكد أيضا أن حقيقة ذاته - تعالى - غير معلومة لنا في الدنيا (٣). بل إنه ليكشف لنا حقيقة هذا الخلاف وأنه أقرب إلى أن يكون خلافا لفظيا، إذ يتساءل في (الابكار) عن حقيقة واجب الوجود أم هي الآن معلومة أم لا؟ ثم يجيب: « وقد اختلف فيه: فقال بعض المتكلمين من أصحابنا والمعتزلة: العلم بحقيقته في الآن حاصل، ومنهم من منع ذلك. ثم اختلف القائلون بالمنع في أنه هل يجوز أن تصير حقيقته معلومة؟ فمنهم من منع أيضا كالفلاسفة وبعض أصحابنا كالغزالي وإمام الحرمين، ومنهم من توقف كالقاضي أبي بكر، وضرار بن عمر» (٤). ثم يذكر حجج المانعين وتتلخص في:

(١) العقل متناه وحقيقته - تعالى - غير متناهية.

(٢) ذاته وحقيقته مخالفة لذاتها لسائر الذوات، وكل ما نعرفه من صفاته لا يمنع من وقوع الشركة فيه، ولذا نحتاج بعدها إلى إثبات الوجدانية.

(١) شرح الرازي على الإشارات مجلد ٣/ ٤٦١.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة، وانظر: أيضا تلخيص المحصل للطوسي ص ١٣٦، ١٣٧.

(٣) انظر: المآخذ ل ١٥ ب، ١١٦، والابكار ١/ ١٢٢.

(٤) الابكار ١/ ١٢٢.

(٣) الطريق إلى معرفة واجب الوجود إنما هو وجود الممكنات ، وإسنادها إلى واجب وجود قطعاً للتسلسل والدور ، وليس في ذلك ما يدل على كنه حقيقته . وما نعرفه من الصفات إما خارج عن الذات كالصفات النفسية من علم وقدرة ونحوها ، أو مجرد إضافات ككونه مبدأ أو خالقاً ونحوه أو هو سلوب وتنزيهات ككونه ليس بجوهر ولا بعرض ونحوه . وكل ذلك لا يدل على كنه الحقيقة والذات .

(٤) ثم الدليل النقلى كقوله تعالى ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ (١) .

ثم يذكر أدلة القائلين بمعرفة حقيقة الذات وكنهها :

١- الحكم على ذاته بصفات الكمال وبسلب النقص يقتضى تصورهما، إذ الحكم فرع التصور . ولذا فإن من قال : (ذاته ليست معلومة) لزمه أن تكون معلومة له .

٢- إذا كان وجوده ذاته، وذاته هي وجوده ، فإذا كان وجوده معلوماً كانت ذاته معلومة .

٣- أما الآية فلا حجة فيها ، إذا الضمير في (به) يرجع إلى معلومات الله تعالى المشار إليه في قوله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ لا إلى ذاته (٢) .

هذا هو الخلاف حول حقيقته تعالى ، وهل هي معلومة الآن أم لا؟ يذكره الأمدى مع حجج الطرفين . ونستطيع أن نكتشف ببساطة أنه خلاف لفظى ، لا يصح أن يخذعنا عن حقيقته ذلك التراشق بالحجج ؛ فالأولون ينفون معرفة الكنه والآخرين يثبتون أن الذات معلومة أى متصورة، وكلاهما على حق بشرط ألا ينفى الأولون مطلق العلم بالذات ، وألا يدعى الآخرون الإحاطة بكنه الذات نفسها . وهذا ما فطن له الأمدى فقال : « لا شك أنه - تعالى - معلوم الوجود، ومعنى ذلك أن ذاته معلومة ، أما عند من يرى أن الوجود نفس الماهية فظاهر . وأما عند من قال بزيادته فلأنه حكم تصديقى يستدعى تصور المحكوم عليه ، فإن تصور الشيء يكون تارة بمعرفة ذاتياته ومقوماته ، وتارة بتصور خواصه ولوازمه

(١) الآية رقم ١١٠ من سورة طه، ونصها : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾ . وفى آية الكرسي - - وهى رقم ٢٥٥ من سورة البقرة - يقول الله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما يشاء ﴾ .

(٢) انظر : الأبيكار ١/ ١٤٢ ب ، ١٤٣

وعلى هذا فمن قال إنها متصورة بالطريق الثانى فقد قال حقا ، ومن قال إنها متصورة بالطريق الاول فقد قال حقا . وأما إن وقع النزاع بالنفى والإثبات على أحد الطرفين فالنافية فى الطريق الاول مصيب ، وفى الثانى مخطئ ، والمثبت بعكسه»^(١) .

وهكذا يفصل الآمدى فى هذا الخلاف الذى ظنه البعض حقيقيا، ويوضح لنا موقف الأشاعرة وأنه لا يعنى أكثر من معرفة الذات بلوازمها وخواصها، لا بكنهها وجوهرها ، فهذا ما لا سبيل إليه فى هذه الدنيا . وسنجد أن هذا هو الاتجاه السائد لدى المفكرين المسلمين والأشاعرة ، وأن الذين يرون أن ذات الله - تعالى - مغايرة لسائر الذوات بذاتها وبصفاتهما ، هم أدنى إلى هذا الاتجاه السائد من المعتزلة القائلين بأن الذوات فى الأصل متساوية وإنما تتمايز بالصفات . وقد نسب ابن الوزير إلى أكثرهم القول بأن ذات الله معلومة الآن^(٢) .

على أن هذا الباحث الفاضل حكى عن الباقلانى والجوينى والغزالى نفهم المعرفة بذات الله الخاصة مع أنهم من القائلين بعدم التفرقة بين الماهية والوجود ، وحكى نفس الموقف عن الفارابى وابن سينا وهما لا يفرقان بين الماهية والوجود بالنسبة لواجب الوجود خاصة^(٣)، كما أن الرازى نفسه - مع اختلاف رأيه بين التسوية والتفرقة بين الماهية والوجود - انتهى إلى القول بعدم إمكان معرفة ذاته الخاصة - سبحانه وتعالى -^(٤) وهذا مما يؤكد ألا علاقة بين الأمرين .

وقد تبين لنا أن أكثر شيوخ الأشاعرة قالوا بعدم إمكان معرفة الذات الخاصة ، وأن هذا هو رأى الفارابى وابن سينا^(٥) . وقد اختاره ابن رشد أيضا قائلا بأننا لو عرفنا حقيقة الله أو حقيقة صفة من صفاته ، كالعلم مثلا ، لما كنا بشرا ، أو لكان الله نفسه مجرد إنسان أزلى^(٦) . ويبدو أن هذا هو رأى الكندى أيضا^(٧) ، وقد نسبه الرازى فى المحصل

(١) الأبهكار ١/ ١٤٣.

(٢) انظر : ترجيع أساليب القرآن ص ١٢٩، ١٣٨ وانظر : إثبات الحق على الخلق ص ١٩١.

(٣) انظر : فخر الدين وآراؤه ص ٢٠١ ... ٢٠٣ . (٤) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٥) انظر : شرح العقائد العضدية ص ٦٤-٦٥ . (٦) انظر : مناهج الأدلة - المقدمة ص ٤٥ .

(٧) انظر : الكندى وفلسفته ص ٨٥، ٨٦ .

إلى (الحكماء) دون تفصيل^(١).

وهو رأى الصوفية أيضا ، وتمثله كلمة الجنيد التي رواها الغزالي فى المقصد الاسنى :
« والله ما عرف الله غير الله » . وقرر الغزالي نفسه أن معرفة الله بالكنه طريق مسدود فى
وجوه البشر^(٢) . وهذا هو رأى ابن عربى أيضا الذى يقول :

« فإن العلم بالله محال ، فلم يبق العلم به إلا الجهل ، وهذا علم العلماء بالله ، وما عدا
هؤلاء من أصحاب النظر فكل واحد منهم يزعم أنه قد علم ربه . فما منهم من يقول إن
الله معنى العلم به ، بل هو فارح مسرور بعقيدته ، وأنه عند نفسه عالم بربه وكذلك هو ،
فذلك حظه من علمه بربه ، فما فى الوجود من هو ممنوع العلم بالله ، لا الجاهل به ولا
العالم^(٣) » وحكاه الطرطوشى عن المحاسبى^(٤) ، ونسبه الكلاباذى إلى أكثر الصوفية^(٥) ،
وحكاه الرازى عن جمهور المحققين من الصوفية^(٦) ، ونسبه الجلال الدوانى - والشيخ
محمد عبده أيضا - إلى الصوفية مطلقا دون تفصيل^(٧) .

أما عن السلف فقد حكى ابن الوزير اليمانى هذا رأى أيضا عن على - كرم الله
وجهه - وأبى بكر الصديق رضى الله عنه دون خلاف من أهل الصدر الاول^(٨) ، ونسبه
إلى العترة من أهل البيت وإلى الإمام الشافعى^(٩) . واختاره ابن حزم أيضا ، إذ يقول فى
الفصل : « فصح بقينا أننا نعلم الله - عز وجل - حقا ، ولا نحيط به علما^(١٠) » ، وقرر
ابن تيمية فى الفرقان : (أن وجوده - تعالى - ليس هو كوجود مخلوقاته)^(١١) .

ولعل فى هذا دليلاً كافياً على أن الاتجاه السائد لدى العلماء المسلمين من مختلف
الطوائف ، إنما هو القول بالعجز عن إدراك كنه الذات الإلهية وحقيقتها .

(١) انظر : المحصل ص ١٣٦ . (٢) المقصد الاسنى ص ٢٧ .

(٣) الفتوحات المكية - نص إعطانيه الاستاذ الدكتور محمود قاسم .

(٤) انظر : ترجيح أساليب القرآن ص ١٣٨ . (٥) انظر : التعرف ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٦) ذكر ذلك ابن الوزير فى ترجيح أساليب القرآن ص ١٣٩ .

(٧) انظر : شرح العضدية ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٨) ترجيح أساليب القرآن ص ١٢٩ - ١٤١ وإبشار الحق ١٨٩ - ١٩٣ .

(٩) ترجيح أساليب ص ١٣٩ . (١٠) الفصل ٢ / ١٧٥ .

(١١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٩٦ .

أما ما ينسب إلى بعض المعتزلة - وحكاية ابن الوزير عن بعض معاصريه - من أن الله لا يعلم من ذاته غير ما نعلمه^(١)، فإنه لم ينسب إلى أحد شيوخهم، ولا إلى شخص معين منهم فهو لا يمكن أن يعبر عن موقف المعتزلة الحريص دائما على تنزيهه تعالى. ولذا نجد ابن أبي الحديد المعتزلي المتشيع أو الشيعي المعتزلي، ينكر الإحاطة بكنه الذات^(٢)، وضرار ابن عمرو الذي أثبت لله ماهية يقول بأنها لا تدرك في الدنيا، وإنما يخلق الله للمؤمنين يوم القيامة حاسة سادسة يرون بها ما هيته^(٣)، بينما يحكى الأشعرى في المقالات إجماع المعتزلة على إنكار القول بالماهية.. وقالوا: «اعتقاد ذلك في الله - سبحانه - خطأ وباطل»^(٤).

وهكذا يحق لنا أن نقرر واثقين إجماع علماء المذاهب المعتبرة على عدم الإحاطة بكنهه - ذاته تعالى - في هذه الدنيا. أما في الآخرة فالصواب في ذلك قول ابن الوزير: «إنه لا حاجة بنا الآن إلى التطويل بالخوض في أحكام الآخرة»^(٥)، وإذن فالخلاف المروى في ذلك لا يبدو أن يكون خلافا لفظيا كما يرى الآمدى، أو كما حكى ابن الوزير عن بعض سابقيه: «إن الخلاف بين المسلمين في هذه الأشياء لفظي» ثم قال: «ومما هو ببعيد»^(٦).

ثانيا- هل للبارى-تعالى-«وصف أخص» به يتميز عن سائر المخلوقات؟

هذا بحث آخر أثاره المتكلمون حول صفات الله بوجه عام، ويبدو أن المعتزلة هم الذين بدءوا بذلك^(٧)، ثم تابعهم الأشعرى وأصحابه في تناوله.

وقد حكى الآمدى عن المعتزلة ذهابهم إلى أن أخص وصف لله - تعالى - إنما هو القسـدم^(٨)، وهذا ما قرره راوية المذهب الاعتزالي عبد الجبار بن أحمد في المغنى وغيره^(٩).

(١) ترجيح أساليب .. ص ١٢٩. (٢) انظر: إنبار الحق ص ١٩١.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٣١٤. (٤) السابق ١/ ٢٥٦.

(٥) ترجيح أساليب .. ص ١٤٠. (٦) نفس المرجع ص ١٣٨.

(٧) انظر: ترجيح أساليب .. ص ١٣٨ والشامل للجوينى ١/ ١٣٧ وما بعدها.

(٨) غاية المرام ل ١٨٨ وقارن بالإرشاد ص ٩١.

(٩) انظر: المغنى ٤/ ٢٥١ وشرح الأصول الخمسة ص ١٩٥-٢٠٠.

أما الأشاعرة فقد حُكي اختلافهم في ذلك حيث مال بعضهم إلى نفيه؛ لأن ذاته - تعالى - متميزة عن سائر الذوات بنفسها . وقال الآخرون بل له أخص وصف يتميز به ؛ لأن كل حقيقتين معقولتين فلا بد من تمايزهما بأخص وصفيهما ، ولا بد أن يكون ذلك وصفاً إيجابياً ، إذ السلوب لا تكفى للتمييز بين الحقائق^(١) ، ومن هؤلاء الشيخ الأشعري نفسه . الذي ذهب إلى أن أخص وصف الإله هو القدرة على الاختراع فلا يشاركه فيها غيره ، أخذ ذلك من قوله سبحانه ﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾^(٢) . ومنهم الجويني إمام الحرمين^(٣) والغزالي ، وإن كان كل منهما يرى استحالة الإحاطة بهذا الوصف الأخص^(٤) . ويجب أن ننبه هنا إلى أمرين هامين :

أولهما : أن هذا البحث يؤكد الاتجاه التنزيهي لذات الله وصفاته لدى المتكلمين ، فالكثيرون منهم لا يقولون بوصف أخص ، أو يرون استحالة إدراكه على حقيقته ، ومن عيّن الوصف الأخص منهم رده إلى معنى لا يحدد كنه الذات ، وهو القدم عند المعتزلة ، أي عدم أولية الوجود وهو أمر سلبي ، أو القدرة على الاختراع عند الأشعري ، وهو أمر يرجع إلى الفعل والتأثير ، أو علاقة الله بمخلوقاته لا بطبيعة ذاته وكنهها . وقد علمنا أن الآمدى يميل فيه إلى أكثر الاتجاهات الثلاثة إيغالاً في التنزيه ، وهو نفى هذا الأخص أصلاً ، وعدم القول به ولو مع العجز عن إدراكه ؛ لأن ذات الله لا يماثلها شيء من الذوات .

ثانيهما : أن لهذا البحث قيمة طيبة ينبغي استغلالها في بيان اتجاه المدرستين الكبيرتين في علم الكلام ، فيما يتعلق بالصفات الإلهية ، وبالمباحث الكلامية الأخرى :

فنحن نجد أن الوصف الأخص الذي قال به المعتزلة يرجع إلى أمر سلبي ، يؤكدون به تنزيهه تعالى ، ووصفه بالتفرد والازلية وعدم مشابهة المخلوق ، في حين يرجع الوصف الأشعري إلى معنى إيجابى يؤكد القدرة والفاعلية في صفات الخالق عز وجل . ولا شك أن الاتجاه الاعتزالي العام في الصفات ، هو التأكيد على التنزيه ، والاهتمام بصفات السلب ، وإبراز جانب التفرد والوحدانية ولو على حساب غيرها من الصفات ، على حين

(١) انظر : الأبيكار ١٥١ وقارن بنهاية الأقدام ١٠٨ ، ١٠٩ . (٢) نهاية الأقدام ص ٩١ .

(٣) الجويني في الإرشاد ص ٩١ ، والشامل ١/١٣٧-١٤٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق ومعارج القدس ١٥٧ ، والمقصد الأسنى ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ .

يتوفر الأشاعرة في ميدان الصفات على تأكيد صفات المعاني أو الصفات الإيجابية وإبراز جانب القدرة ولو على حساب بعض الجوانب الأخرى. فإذا انتقلنا إلى مسائل العالم والإنسان وجدنا المعتزلة يؤكدون مسائل الحكمة والعناية والسببية والحرية الإنسانية ، ولو على حساب شمول القدرة الإلهية، على حين تحظى هذه الصفة بكل اهتمام الأشاعرة ، وإن مالوا قليلاً نحو الجبر ، ونفوا الغرض في أفعاله تعالى ، وقالوا بمفهومهم الخاص في العلية .

إن هذا البحث يأتي عابراً بين المسائل الكلامية ، ولكنه يصلح مؤشراً دقيقاً على الاتجاه الأصلي لدى المذهبين الكبيرين ، وتلخيصاً للروح العامة التي تسرى في كل منهما، وتفسيراً لكثير من مواقفهما الكلامية .

٣- الأسماء الحسنی وعلاقتها بالصفات :

اتفق المتكلمون على مجموعة من الصفات تمثل جوانب الكمال الإلهي ، وأقاموا الأدلة العقلية والنقلية على ثبوتها لله تعالى ، وإن تفاوتت آراؤهم في طبيعة هذه الصفات وعلاقتها بالذات ، كما اختلفت كلمتهم في تعدادها أحياناً كما سيأتي بعد قليل .

وهناك أسماء إلهية وردت في الكتاب والسنة ، تعبر عن محامد وكمالات لله -تعالى- تلقاها المفكرون بالقبول ، فلاسفة كانوا أو متكلمين^(١) ، ولم يخرج على هذا الإجماع إلا الإسماعيلية الذين رفضوا وصفه - تعالى - بأى وصف ، أو تسميته بأى اسم ، وزعموا أن الله - تعالى - يمدح بنفى أسمائه وصفاته ، وقد اعتبر ابن الوزير ذلك من أعظم مكائدهم للإسلام^(٢) .

وهناك محاولات عدة للتفريق بين الاسم والصفة ، وكلها لا يتميز بالحسم والدقة ، ويمكن أن نعتبرها مجموعة من الأمور التي يمكن أن توضح الأمر نوع إيضاح :

(١) فالصفات هي تلك الأمور التي قام الدليل العقلي على اتصافه - تعالى - بها ، والأسماء هي التي وردت في الخبر الصحيح كتاباً أو سنة ، وهذا ما يمكن استخلاصه من

(٢) انظر : إنباء الحق ١٦٨ ، ١٦٩ .

(١) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ٢٠٦ ، ٢٠٨ .

كلام البيهقي والغزالي بهذا الصدد^(١)، وربما اتفق أكثر المتكلمين عند هذا الحد ، وهناك استثناءات ؛ فبعض المعتزلة يرى إثبات الأسماء عن طريق العقل أيضا ما لم تستلزم نقصا^(٢).

(ب) إن الاسم يراد به في القصد الأول الذات والماهية لنفسها ، أو من حيث اتصافها بصفة أو أمر ما ، بخلاف الصفة ؛ فيراد بها هذا المعنى القائم بالذات ، أو الأمر المتعلق بها ، وتدل على الذات تبعا ، ولعل هذا ما يريده الرازي والجويني قبله^(٣).

(ج) أما ابن عربي فإنه يسوى بين الأسماء والصفات ويقول بأنهما نسب للذات .

وواضح أن هناك علاقة ما بين الأسماء والصفات ، لأن كل اسم أو مجموعة من الأسماء تدل على صفة من صفات الذات ، إن لم تدل على الذات نفسها ، فالصفات هي خلاصة للمعاني التي تدل عليها الأسماء أيضا ، ولكن على نحو مفصل ، والآمدى - وإن لم يحاول تعريف كل من الصفة والاسم أو تحديد العلاقة بينهما - يبدو أنه يتصورها على النحو الذى ذكرناه ، إذ هو يعود بكل اسم من هذه الأسماء أو كل مجموعة منها إلى صفة من الصفات النفسية أو السلبية أو الفعلية ، ويقول فى تقسيمه لها : «إن الأسماء منها ما هى صفات نفسانية كالعلم والقدرة ، ومنها ما هى صفات فعلية كالخالق والرازق ، ومنها ما هى صفات سلبية كالغنى...»^(٤) وفى العبارة تجوز والمقصود منها ما يرجع أو يدل على كذا وكذا ، وهو يحاول بعد ذلك رد هذه الأسماء بالتفصيل إلى الصفات المختلفة .

هذا وقد بحث الآمدى الأسماء الحسنى بحثا مستفيضا فى الأبهكار^(٥) - وعمله فى (الماخذ) لا يعدو تلخيص أقوال الرازي فى هذه المسألة - حيث ختم موضوع الصفات بفصل عن مسألة (الاسم والمسمى والتسمية) ، وهو مبحث قليل الجدوى كما يلاحظ الغزالي^(٦) ولا أجد فيه جديدا^(٧) . غاية ما فى الأمر أنا نلاحظ ، بشأن تلخيصه لرأى

(١) انظر : الأسماء والصفات للبيهقي ص ٨ والمقصد الأسنى للغزالي ص ١١٢-١١٤ .

(٢) كالجبائى مثلا - انظر : الفرق بين الفرق ص ١٦٨ .

(٣) الأبهكار ١/ ١٢٩٨ . (٤) انظر : الماخذ ١٤٨ - ١٥٢ .

(٥) انظر : الأبهكار ١/ ١٢٩٢ - ١٢٩٤ . (٦) المقصد الأسنى ص ١٠ .

(٧) انظر : الأبهكار ل ١/ ١٢٩٢ وما بعدها .

الأشاعرة في هذه المسألة ، أنه يحكى اتفاقهم . بل اتفاق العقلاء - على المغايرة بين التسمية والمسمى ، وذهب أكثرهم إلى أن التسمية وهى إطلاق الأقوال الدالة غير الاسم الذى هو المقول ، أما العلاقة بين الاسم والمسمى ، فقد ذهب بعضهم إلى أنه نفس المسمى مطلقاً . وبعضهم إلى أن من الأسماء ما هو عين المسمى كالموجود والذات ، ومنها ما هو غير المسمى كاسم الخالق ، فإن المسمى بكونه خالقاً هو ذاته والاسم هو الخالق ، وهو غير الذات ، ومنه ما ليس نفس ذاته ولا غيرها ، كاسم العالم أو القادر ، فإن المسمى ذاته والاسم ليس نفس الذات ولا غيرها . ويبدو أن الآمدى يميل إلى هذا الرأى^(١) .

وأهمية هذه الملاحظة دلالتها على أن حصر الآراء فى هذه المسألة فى ثلاثة هى : أن الاسم هو المسمى وغير التسمية ، وعليه جمهور الأشاعرة والماتريدية ، وأن الاسم هو التسمية وغير المسمى ، وهو قول المعتزلة ، وأن الكلمات الثلاث متغايرة المدلول ، كما هو رأى الغزالى - أمر فيه نظر .

إن هذا الحصر فى هذه الثلاثة غير دقيق ، فضلاً عن أنه لا يمثل رأى الأشاعرة ، فإن هناك طائفة منهم تذهب إلى التفصيل الذى أشرنا إليه والذى اختاره الآمدى ، ولا تقول بأن الاسم عين المسمى مطلقاً . ويلاحظ كذلك إغفال الآمدى لرأى الغزالى المشار إليه آنفاً فى بيانه لآراء الأشاعرة ولا ندرى سبب هذا ، مع أن الرازى معاصره يميل إلى هذا الرأى فى بعض كتبه^(٢) .

والآمدى يتبع هذا الفصل بفصل آخر عن مآخذ هذه الأسماء ، فيذكر أنه السمع لا العقل ، وأنه يكفى فى ذلك الدليل السمعى الصحيح الظاهر ، ولا يشترط أن يكون قطعياً كما يذهب إليه بعض الأصحاب .

ثم يخصص الفصل الأخير لبيان معانى هذه الأسماء ، وهو أهم هذه الفصول الثلاثة ، وفيه يشرح معانيها فى إيجاز ويحاول أيضاً ردها إلى صفة من الصفات بأقسامها الثلاثة المشار إليها آنفاً . وكل ما نلاحظه أنه يخضع فى بيان معانيها للمفاهيم الأشعرية ، فمثلاً اسم (الحكيم) يشرحه بقوله : « قيل معناه الحاكم ، وقد سبق تفسيره . وقيل معناه

(١) السابق ، (٢) فخر الدين الرازى ص ٢١٣ - ٢١٥ .

العليم وهو صفة علمية ، وقيل هو المحكم المتقن للأشياء فيرجع إلى صفة فعلية . .» (١) ونلاحظ أنه لا يشير مطلقا إلى معنى الحكمة ، بخلاف الغزالي في المقصد الاسنى (٢) .

كما نلاحظ كذلك أنه يعتمد في بيان معاني الأسماء على اللغة ، وقد يستشهد أحيانا بالشعر كما في شرحه لاسم (الصمد) (٣) . وينقل كثيرا عن شيوخ الأشاعرة في بيان معاني الأسماء ، ولا يخرج عن قولهم (٤) ، بخلاف الغزالي في المقصد الاسنى الذى ينزع أحيانا إلى بعض الأفكار الفلسفية (٥) ، وإن كان الآمدى قد يلم أحيانا قليلة ببعض المعانى الفلسفية أيضا كتفسيره اسم (الحق) بواجب الوجود لذاته (٦) . كما أنه لا يستخدم الألفاظ الفارسية ولا المعانى الصوفية كما فعل فى المآخذ ، متابع للإمام الرازى (٧) ، وخاصة فى بيان معنى قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (٨) .

وآخر ما نلاحظه أن هذه العناية من جانب الآمدى بموضوع الأسماء الإلهية تصلح ردا على القول الذى وجهه ابن الوزير إلى المتكلمين : « وعادة المتكلمين هنا أن يقتصروا على اليسير من الأسماء ، ولا ينبغى ترك شىء منها ولا اختصاره ، فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم ، ولو كان منها شىء لا ينبغى اعتقاده ولا ذكره ما ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم » (٩) .

هذا ، وقد تناول الآمدى فى (غاية المرام) موضوعا يتصل بهذه المسألة (هل الصفة نفس الوصف أم غيره) وهو يعتبر صدى للمبحث الخاص بالاسم والتسمية والمسمى ، وقد قرر فيه أن «حاصل النزاع فى ذلك مما لا مطمح فيه لليقين ، بل هو مستند إلى الظن والتخمين» (١٠) ، غير أنه يحاول - فيما يبدو لى - مناقشة حرص المعتزلة على التسوية بين الوصف والصفة بأنهم «بنوا على ذلك انتفاء الصفات عن البارئ - تعالى - فى الأزل؛ لضرورة استحالة القول بوجود الواصف فى القدم» (١١) .

-
- | | |
|-------------------------------------|---|
| (١) الأبيكار ١/٢٩٨ ب . | (٢) انظر ص ٣٣ ، ٣٧ . |
| (٣) الأبيكار ١/٢٩٨ . | (٤) انظر : الأبيكار ١/٢٩٧ ب . |
| (٥) انظره فى ص ٢٠ وما بعدها . | (٦) انظر : الأبيكار ١/٢٩٧ ب . |
| (٧) انظر : المآخذ لوحة ٤٨ ب ، ١٤٩ . | (٨) انظر : المآخذ لوحة ١٥٠ ، ٥١ ب ، ١٥٢ . |
| (٩) إثبات الحق على الخلق ص ١٦٩ . | (١٠) غاية المرام ل ٦١ ب . |
| (١١) غاية المرام ١٦١ . | |

هذا وقد أورد الآمدى فى الأبهكار على لسان أحد المعتزلة القول بأن «أسماءه - تعالى - كانت له فى الأزل بالقوة والإمكان ، ويجب أن يحمل اتفاق العقلاء على وجود أسمائه فى الأزل على ذلك» . ثم يتصدى للرد على هذا القول (١).

وهذا النص قد يشرح كلام الآمدى السابق ، غير أنه يدل على أنه قول لمجهولين من المعتزلة لا يعبر عن رأى المذهب ، وأنه لا يفيد نفيتهم الصفات أو الأسماء فى الأزل ، وإنما هى ثابتة بالقوة على حد تصورهم، وإن كان الوصف والتسمية بالفعل غير حاصلين، لضرورة استحالة القول بوجود الواصف أو المسمى فى القدم وهذا شئ غير الانتفاء التام.

والآمدى هنا رغم تسامحه وحرصه على إنصاف المعتزلة يلزمهم بمثل الإلزام الذى وجهه إليهم شيخه الأشعرى فى (الإبانة) بأن دعواهم خلق القرآن ستفضى إلى القول بحدوث أسمائه تعالى ، وأنها مخلوقة (٢) ، حيث يروى كذلك عن الإمام أحمد أنه يرى فى دعوى المعتزلة بخلق القرآن الذهاب إلى كون الأسماء الإلهية مخلوقة ، وذلك خطير فى نظره (٣).

وقد تناقل الأشاعرة هذا الإلزام عن شيخهم كما بين ذلك أستاذنا الدكتور النشار، إلا أنه أخذ شكل الإلزام بحدوث الصفات والأسماء عند الشهر ستانى بناء على حدوث الواصف والمسمى ، والاتهام بالقول بقدم العالم عند الإسفرائينى ، بناء على أن إطلاق الاسم على الله يستلزم وجود المسمى ، وفى هذا إثبات القديم بجانب القديم . وبهذا يكشف أستاذنا أن ذلك إلزام محض لم يلتزمه المعتزلة أو يقولوا به، ولا يخلو من تحامل من جانب خصومهم الأشاعرة ، وكيف يقول المعتزلة بحدوث الصفات مطلقاً وهى نفس الذات عندهم، أو يذهبون إلى قدم العالم وهم القائلون بأنه -تعالى- خالق كل شئ ، وهو وحده المتفرد بالقدم (٤)؟

٤ - أقسام الصفات وعددها :

يجرى الآمدى على تقسيم غيره من متكلمي الأشاعرة (٥) للصفات بأنها :

(١) الأبهكار ١/ ٢٩٢ ب ، ١٢٩٣ . (٢) الإبانة ص ٢٨ وانظر : أيضاً مقدمة مناهج الأدلة ٣٨-٤٠ .

(٣) انظر : الإبانة ص ٣٨ . (٤) انظر : نشأة الفكر ١/ ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٥) انظر : غاية المرام ص ٢٧ ، ٣٨ ، وفخر الدين الرازى وآراؤه ٢٢٢ .

(١) صفات ذاتية : ويسمىها هو (الصفات النفسية) وقد تسمى أيضا صفات المعاني أو الصفات الحقيقية ، وهى تلك المعاني القديمة الزائدة على الذات القائمة بها ، كالعلم والقدرة وسائر الصفات السبعة^(١) .

(٢) وصفات فعلية : وهى التى تدل على أمور خارجة عن ذاته تعالى تتصل بأفعاله وتصرفاته وعلاقته بمخلوقاته ، ولهذا يسميها أحيانا الصفات الإضافية ، وذلك كالحالق والرازق ونحوهما ، وهى فى نظره حادثة^(٢) .

(٣) وصفات سلبية ، وهى صفات لا تدل على أحد الأمرين السابقين ، ومعناها نفي النقص عنه تعالى ، وذلك كالغنى والاول والآخر ونحوها^(٣) .

وقد يطلق الأمدى - أحيانا - كلمة الصفة الحالية على ما قاله بعض المعتزلة من أمور إثباتية لموجود ، غير متصفة بالوجود ولا بالعدم^(٤) . مثل العالمية والقادرية غير أنه يذكر ذلك كمصطلح كلامى فقط ، أما هو فيرى بطلان القول بالأحوال بهذا المفهوم كما سنبينه .

وقد يستعمل أيضا لفظ الصفة الحكمية بمعنى الصفة الحالية ، إذ يقول فى المبين : «وأما الصفة الحكمية ويعبر عنه بالصفة المعللة ، فما كانت فى الحكم بها على الذات تفتقر إلى قيام صفة أخرى بالذات ، ككون العالم عالما ، والقادر قادرا ، وأما الصفة غير المعللة فلا يفتقر الحكم بها على الذات إلى قيام صفة أخرى بالذات كالعلم والقدرة ونحوها ، وقد يعبر عنها بالصفات النفسية»^(٥) . وواضح أن الصفات الحكمية ليست إلا نتائج أو أحكاما للصفات النفسية ، وعليها يقتصر المعتزلة ، أما الأشاعرة فيثبتون عللها أو أسبابها ، وهى الصفات النفسية .

وأما (الصفات الخبرية) وهى الاستفادة من النصوص التى تثبت بظاهرها يدا وعينا وجنبا لله تعالى ، ونحو ذلك ، مما لا تثبته الأدلة العقلية ، وإن ورد فى النصوص

(١) انظر : الأبهكار ١/ ١٢٩٨ . (٢) انظر : الموضوع السابق ول ١٢٢٢ من الأبهكار وبحر الكلام ص ١٦ .

(٣) انظر : الأبهكار ١/ ١٢٩٨ . (٤) المبين ل ١٦ ب .

(٥) المبين ل ١١٦ ب .

الصريحة؛ فإن الآمدى يقف منها موقفا حاسما فيؤول ما جاء منها فى نص صحيح ، ويرى أن الصفات لا تثبت إلا بالأدلة القطعية ، أما هذه فظواهر تقابلها احتمالات أخرى ينبغى المصير إليها دفعا للتشبيه كما سنوضحه بعد قليل . وهو فى هذا يتابع ما استقر عليه متأخرو الأشاعرة ، وخاصة الإمام الرازى الذى أُلّف فى هذه الصفات كتابه (تأسيس التقديس) ، وأهداه إلى العادل الأيوبى خلافا لشيوخ المذهب الأوائل (١) .

المعتزلة هم أصحاب هذا التقسيم الثلاثى للصفات إلى ذاتية وفعلية وسلبية (٢) ، وتابعهم الأشاعرة على ذلك ، ووافقوهم فى القول بحدوث صفات الفعل (٣) . ويقال إن التفرقة بين صفات الذات وصفات الفعل ترجع إلى الإمام أبى حنيفة (٤) ، وقد قال بها أيضا عبد الله بن كلاب (٥) . أما الماتريدية فهم يقسمون الصفات أيضا إلى صفات ذات وصفات فعل ، ولكنهم يؤكّدون قدمها جميعا وينتقدون الأشاعرة لقولهم بحدوث صفات الأفعال (٦) . ويرى الفلاسفة أن الصفات إما سلوب وأعدام هدفها سلب النقائص عن الله ، وإما إضافات ونسب للذات ، وهى كمالات تتصف بها ، لكنها لاتدل إلا على الذات نفسها مع اعتبارات ذهنية (٧) فحسب . وهو الرأى الذى يميل إليه ابن عربى أيضا (٨) .

أما عن تعداد الصفات النفسية الإيجابية فإن الآمدى يجرى فى الأبهكار وغاية المرام على إثبات الصفات السبع المعروفة : « مذهب أهل الحق من الأشعرية أن الواجب بذاته قادر بقدرة مريد بإرادة عالم بعلم متكلم بكلام سميع بسمع بصير ببصر حى بحياة ، وهذه كلها صفات وجودية أزلية زائدة على ذات واجب الوجود » (٩) ، وإن كان يجمع بين السمع والبصر - وفى كلا الكتابين أيضا - فيما يسميه (الإدراك) عند إثبات هذه

(١) انظر : الرسالة المدنية لابن تيمية ص ١١ ، ١٢ . (٢) انظر : نشأة الفكر د/ النشار ١/ ٥٠٥ .

(٣) انظر : مناهج الأدلة ص ٣٨ ، ٤٢ . (٤) انظر : نشأة الفكر ٢/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٥) الموافقة ١/ ١٨٩ .

(٦) انظر : بحر الكلام ص ١٥ ، ١٦ ومقدمة مناهج الأدلة ٤٩ ، ٥٠ ونشأة الفكر ١/ ٢٣٥ .

(٧) انظر : : تسع رسائل لابن سينا ص ١٣٥ والأبهكار ل ١/ ١٥٤ ومناهج الأدلة - المقدمة - ص ٤٠ وحوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ٢٩ .

(٨) كما أخبرنى استاذى الدكتور محمود قاسم ، وانظر « عقيدة فى التوحيد » لمحيى الدين بن عربى ط القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٦ .

(٩) الأبهكار ١/ ٥٣ ب ، ١٥٤ وانظر : ص ٥٢ من غاية المرام ، وما بعدها .

الصفات تفصيلاً^(١)، أما صفة (البقاء) فهي كالقدم عنده لا تعنى أكثر من استمرار الوجود فليست صفة وجودية ، وكلتاها ترجعان إلى انتفاء سبق العدم لوجوده ولحوقه له كما سيأتى، وإن كان فى (المتأخذ) يتابع الإمام الرازى فى (المطالب العالية)^(٢) فى تعداده الصفات الوجودية ثمانى لاعتباره البقاء واحداً منها ، دون أن ينبه على وجهة نظره التى عبر عنها فى كتبه الخاصة من أن البقاء ليس صفة وجودية^(٣)، ولكنه فى هذا الكتاب نفسه يعرض للقول الذى أورده الرازى فى (المطالب العالية) على وجه الاستنكار، بشأن من أثبت المعانى الثمانية مع الذات وأنه أدخل فى الكفر من القائل بالثلاثة^(٤)؛ فيقول : « وقيل : من أثبت الثمانية القديمة قال بتاسع تسعة فهو أولى بالكفر من القائل بثالث ثلاثة، وأنت عرفت أنه لا يلزم من المشاركة فى القدم المشاركة فى الإلهية »^(٥) ، أى أن القول بقدم الصفات لا يلزم منه تعدد الآلهة ، لما سبق من أن القدم ليس هو اخص وصف الإله عند الأشاعرة .

كما يعرض لصفة التكوين التى أثبتها الماتريدية صفة إيجابية قديمة كمبدأ لسائر الأفعال من الخلق والرزق ونحوهما^(٦)، فيذكر الخلاف فى إثباتها صفة أزلية مستقلة عن القدرة والإرادة، ويعرض حجة الطرفين مؤيدا للرأى القائل إن التكوين هو المكون ، وليس بمعنى إيجابى ، بل هو أمر اعتبارى يحصل من نسبة الفاعل إلى المفعول ، أى أنه عبارة عن التعلقات الحادثة لصفة القدرة وليس صفة مستقلة^(٧). كما أنه يختلف مع الماتريدية فى تفرقتهم بين المشيئة والإرادة^(٨)، ويعتبرهما شيئا واحدا كما سيأتى .

والآمدى فى تأييده لموقف جمهور الأشاعرة فى الاختصار على إثبات الصفات السبع يختلف مع ابن تيمية ومتكلمى السلف الحريصين على إثبات كل ما وصف الله - تعالى - به نفسه أو وصفه به رسوله دون تفرقة ، فالعلو والوجه واليد والاستواء كلها صفات حقيقية من حيث أخبر بها الشرع ، ولا تعارض العقل عندهم^(٩)، كما يختلف أيضا مع

(١) الأبهكار ١/ ١٩٩ وما بعدها ، وغاية المرام ص ١٢١ - ١٣٣ .

(٢) فخر الدين الرازى وآراؤه ٢٢٤ ويلاحظ أنه ينبه على قوله بالانحصارها فى السبعة فى كتب أخرى له .

(٣) المتأخذ ل ٤٦ ب . (٤) فخر الدين الرازى وآراؤه ٢٢٤ ، ٢٢٥ . (٥) المتأخذ ل ١٥٠ .

(٦) انظر مناهج الأدلة (المقدمة) ص ٤٩ ، ٥٠ وشرح النسفية ٢٣٤ ، ٣٠٨ - ٣٢٤ .

(٧) المتأخذ ل ١٤٨ والأبهكار ١/ ١٢١ ، ب . (٨) انظر : بحر الكلام ١٥ وشرح النسفية ٢٣٤ .

(٩) انظر : الفصل ، الجزء الثانى ١٤٩ - ١٥٣ .

ابن حزم الظاهري الذي يعارض في تسمية هذه الكمالات الإلهية صفات ، كما يعارض في حصرها في ثمانية^(١) ، كما يختلف مع ابن عربي الذي يسوى بين الأسماء والصفات وإن كان يؤثر ، كابن حزم ، كلمة أسماء على كلمة صفات^(٢) .

غير أنه لا يتطرق كغيره من الأشاعرة فينفى ما سوى الصفات السبع ، بل إنه يثبتها لقيام الدليل عليها ، ويتوقف فيما عداها ، إذ لم يقم الدليل عنده على إثباته أو نفيه ، وقد سبقه إلى هذا الرأي الإمامان الغزالي والرازي^(٣) ، يقول الآمدي في المآخذ : « زعم المتكلمون انحصار الصفات في ثمانية ، هي كونه تعالى حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلميا باقيا ، إذ دل الدليل عليها دون غيرها فوجب إثباتها ونفى ما عداها .. وهو ضعيف لأن عدم الدليل ليس دليل العدم .. والأولى الجزم بما ثبت والتوقف في الباقي »^(٤) . وهو يؤكد موقفه هذا في غاية المرام والأبكار^(٥) . ونلاحظ هنا أن الآمدي يطبق القاعدة المنهجية . القاضية بعدم بطلان المدلول لبطلان دليله التي عرضناها من قبل ، كما أنه يقف موقفاً وسطاً بين بعض الأشاعرة الذين يقولون بنفى ما عدا السبع^(٦) ، أولئك الذين يصفهم ابن تيمية بالغلو في قوله : « الأشعرية يقولون : إن له صفات سبعة : الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر ، وينفون ما سواها . وغلاتهم يقطعون بنفى ما سواها »^(٧) ، وبين بعضهم الآخر ، الذين يثبتون البقاء والوجه واليدن والعينين والاستواء ، وغيرها صفات قديمة لله تعالى ، كالشيخ الأشعري وبعض الأصحاب ، وهو يناقش هؤلاء الشيوخ المتقدمين فيما أثبتوه من الصفات^(٨) الخبرية مؤولاً لها جميعاً ، كما سيأتى بيانه في (معرفة التنزيه) .

٥ - الصفات الإيجابية وعلاقتها بالذات :

يجرى الآمدي على مذهب الأشاعرة في الصفات الإيجابية من حيث خصائصها

-
- (١) انظر : الرسالة المدنية لابن تيمية ص ١١ ، ١٢ ، ونقض المنطق له أيضاً ص ١٤٢ وما بعدها .
 (٢) كما أفادني بذلك استاذي الدكتور قاسم ، وقارن رسالة ابن عربي إلى فخر الدين الرازي ، ط عالم الفكر بالقاهرة ، ص ١٥ ، وص ٤٤ من رسالة « التنبيهات » له .
 (٣) انظر : غاية المرام ص ١٣٥ - ١٣٧ وانظر : المحصل ص ١٣٦ وفخر الدين وآراؤه ٢٢٤ .
 (٤) المآخذ ل ٤٦ ب ، ٤٧ أ . (٥) انظر : غاية المرام ص ١٣٥ .
 (٦) انظر : الفرق بين الفرق للبيهقادي ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ والأبكار ١/ ١١٢ .
 (٧) الرسالة المدنية ص ١١ . (٨) انظر : غاية المرام ص ١٣٥ - ١٣٧ .

وعلاقتها بالذات مع بعض التصرف فى عرض المذهب :

(أ) فهى عبارة عن معان وجودية زائدة على الذات ومغايرة لها من حيث المفهوم .

(ب) وهى مع هذا قائمة بالذات واجبة لها لاتنفك عنها ، وهى جزء من مفهوم اسم الله تعالى ، وهذان هما المبدأن اللذان يعبر عنهما الأشاعرة بالصيغة المشهورة (ليست الصفات عين الذات ولا غيرها) . والآمدى يعرض لهذه الصيغة ويشرحها شرحاً واضحاً جديداً .

(ج) وهى تبعا لهذا قديمة قدم الذات نفسها .

(د) وهى ليست واجبة بنفسها بل بالذات ، ولذا فهو لا يمانع - إذا دعا الامر - فى وصفها بأنها ممكنة بهذا المعنى .

ولقد جرى السلف من الصحابة والتابعين على الإيمان بالله الواحد المتصف بسائر كمالاته التى ثبتت بالكتاب أو بالسنة الصحيحة ، وانصرفوا عن الجدل حول ذلك إلى ما هو أجدى على الدين والحياة من الدعوة إلى الله وتثبيت أركان حضارتهم الجديدة (١) .

ثم ظهرت جماعة تدعو إلى التجسيم والتشبيه وتمسك بظواهر النصوص (٢) ، فتصدى لها علماء الإسلام ، وكان منهم متكلمو المعتزلة الذين حرصوا على تأكيد العقيدة الأولى للإسلام وهى (الوحدانية) ، وعلى تنزيه الله - تعالى - عن كل مشابهة بالمخلوق ، فقالوا بالتسوية بين الذات والصفات ، فالله عالم بذاته وقادر بذاته وليس بعلم أو قدرة ، وليس فى الازل إلا الذات وحدها ، فصفاته تعالى عين ذاته كما قال واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، وقد حافظ تلاميذه على نفس الروح وإن حاولوا الاقتراب من جمهور الأمة ، فقال العلاف : (إن الله عالم بعلم وعلمه عين ذاته) فالموجود هو الذات وحدها والصفات وجوه لها . ثم قال أبو هاشم وأتباعه « بالأحوال » أى أنهم يشبهون أموراً وراء الذات لا توصف بوجود ولا عدم ، فالموجود القديم هو الذات التى لا تعدد فيها (٣) . وهذا قريب مما ذهب إليه الفلاسفة وابن عربى .

(١) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٣٧ ، ٣٨ ونشأة الفكر ١/ ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٢) مقدمة مناهج الأدلة ص ٣٨ ، ٣٩ ، وغاية المرام ل ١٧٢ .

(٣) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٣٦ وما بعدها ، وفلسفة المعتزلة لأليبر نادر ١/ ٣٧ ، ٤٣ والمعتزلة لزهدي جابر الله ٣٥ ، ٣٦ .

وظهر أيضاً علماء تشبهوا بموقف السلف، وواجهوا التيارات الجديدة التي تحاول وضع مسألة الصفات والذات موضع البحث بأمريين، الأول: إثبات ما جاء من صفات الله - تعالى - في الكتاب والسنة مع نفى مماثلته بالخلق، والثاني: الامتناع عما وراء ذلك من نزوع إلى التجسيم على يد المشبهة، أو ميل إلى النفي والتأويل على يد خصومهم، وتمثل ذلك كلمة الإمام مالك: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة» (١).

أما الإمام أبو حنيفة - وكان أقرب من بيعة المعتزلة - فقد أنكر على المبالغين في التشبيه والتنزيه كليهما (٢)، إلا أنه خطا خطوة أخرى في تصوير مذهب السلف فأثبت الصفات السبع قائلاً إنه - تعالى - عالم بعلم قادر بقدره متكلم بكلام، وفي هذا مخالفة واضحة لمعاصره وأصل شيخ المعتزلة (٣)، ولكنه تحرك قليلاً من النقطة التي وقف عندها الإمام مالك.

فلما كان القرن الثالث وجاء أحمد بن حنبل وابن كلاب جرياً على آثار السلف من الإثبات والتنزيه إلا أنهما أنكرا قول المؤولة إن الصفات هي عين الذات، وإن لم يطلقا عليها في الوقت نفسه أنها غير الذات «فاسمه تعالى يتناول الذات والصفات، ليست الصفات خارجة عن مسمى اسمه» (٤)، ويصور ابن تيمية موقف الرجلين بكلمته: «إنا لانطلق على صفاته أنها غيره على ما عليه أئمة السلف كالإمام أحمد بن حنبل وغيره، وهو ما عليه حذاق المثبتين كابن كلاب وغيره» (٥).

ولكن اتجاه المعتزلة في تأويل الصفات، وردها إلى الذات، ظل ماضياً في طريقه واكتسب قوة جديدة على يد من سموها (فلاسفة الإسلام)، الذين أثبتوا الذات وحدها وجعلوا الصفات اعتبارات لها، لا تدل على أكثر من السلوب أو الإضافات (٦)، وكان ممثلهم عندئذ الكندي وكان معتدلاً في هذا الاتجاه الذي تأكد فيما بعد على يد الفارابي

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ٥٧، ٥٨ ومقدمة مناهج الأدلة ص ٣٩.

(٢) نشأة الفكر للدكتور النشار ١/٢٣٤، ٢٤٣. (٣) نفس المرجع ١/٢٣٥، ٢٣٦.

(٤) انظر: المواقفة ٢/٢٢٧، ٢٢٨ ومقالات الإسلاميين ١/٣٢٥.

(٥) نفس المصدر ١/٢٨٧.

(٦) انظر: مناهج الأدلة ٤٠ والرسالة المدنية لابن تيمية ٨ - ١٢.

وابن سينا (١) .

وعلى رأس القرن الثالث ظهر أبو الحسن الأشعري فأثبت الصفات الإيجابية، ولكنه توقف عن القول بأنها عين الذات أو أنها غير الذات ، ووافقه على ذلك معاصره أبو منصور الماتريدي أيضا (٢)، وجرى اتباعهما على ذلك ، بل إن الماتريدي صرحوا من بعد بأن « الله تعالى بجميع صفاته واحد، وبجميع صفاته وأسمائه قديم أزلي من غير تفصيل، وصفات الله وأسماءه لا هو ولا غيره كالواحد من العشرة » (٣) ومن هذا العرض يتبين كيف نشأت هذه الصيغة الأشعرية المشهورة، وأنها ليست تخص الأشعري ولا الأشاعرة (٤).

هذا وقد تعرض الأمدى لمسألة علاقة الصفات بالذات في « غاية المرام » فقال : « فالذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وعامة الأصحاب أن من الصفات ما يصح أن يقال هي عينه وذلك كالوجود ومنها ما يقال إنها غيره . . ومنها ما لا يقال إنها عينه ولا غيره ، وهي كل صفة امتنع مفارقتها بوجه ما ، كالعلم والقدرة وغيرها من الصفات النفسية بناء على أن معنى المتغايرين كل موجودين صحت مفارقة أحدهما للآخر بجهة ما كالزمان والمكان ونحوه (٥) » .

ولكنه لا يوافق بالنسبة للصفات النفسية على هذا الحكم، لأن معنى الغيرية لا يقتصر على ما فسره به أبو الحسن الأشعري (٦) من صحة المفارقة، والتحقيق في نظره يقضى بأن كل ذات قامت بها صفات فالذات غير تلك الصفات مادام المفهوم من كل منهما عند انفراده غير المفهوم من الأخرى ، فإن قيل إن الشرع يمنع من أن تقول إن ذات الله وصفاته متغايران، فهذا مقبول ، أما النظر المجرد فيقضى بأنهما متغايران ، أى من حيث المفهوم (٧) .

(١) حاول الكندي ضم بعض الصفات الإيجابية إلى الصفات السلبية لتأكيد الفعالية والتأثير للذات الإلهية ، انظر الكندي وفلسفته ٨٤ وما بعدها، وتسع رسائل لابن سينا ١٣٥ .

(٢) مناهج الأدلة ٤٣ ، وغاية المرام ٦٠ ب ، ٦١ ، وبحر الكلام ص ١٥ وما بعدها .

(٣) بحر الكلام ص ١٥ . (٤) فخر الدين الرازي وآراؤه ٢١٦ .

(٥) انظر : غاية المرام ٦١ ب ، ١٦٢ . (٦) انظر : مناهج الأدلة المقدمة ص ٤٢ .

(٧) انظر : غاية المرام ص ١٤٤ - ١٤٧ .

ولكن إذا كان الآمدى يقول بأن الصفات غير الذات، ولا يتخرج كشيخه الذى تصور الغيرية على نحو لا يتعين القول به، فإنه يحرص على أن يؤكد أن مدلول اسم الإله المشتق من الصفة كالعالم أو الموضوع للذات وصفاتها من غير اشتقاق كلفظ الجلالة (الله) لا يصح أن نقول إن الصفة غيره أو عينه، لأنها فى الحقيقة جزء من مفهومه، ولا يصح أن يقال إن جزء معنى الشئ غيره، وإلا لصح أن يفهم بدونه، ولا أنه عينه لافتقاره إلى غيره حتى يكتمل معناه، فإن مدلول اسم الله هو مجموع الصفات مع الذات، ثم يقول الآمدى : « ولعل هذا ما أراده الخذاق من الأصحاب فى أن الصفات النفسية لاهى هو ولا هى لا غيره » (١).

ويحكى ابن تيمية عن ابن حنبل فى (الموافقة) مثل ما قاله الآمدى تماماً فى شرح هذه العبارة (٢).

وكما يبدى الآمدى رأيه فى هذه القاعدة المشهورة مؤولاً لها على هذا النحو، فإنه يتصدى لنفاة الصفات النفسية الإيجابية وينقض عليهم أدلتهم؛ وهم فى نظره الفلاسفة، وهو يقصد أولئك المتأثرين بنظرية الفيض كالفارابى وابن سينا كما يظهر من مناقشاته (٣). والشيعية وهو يقسمهم إلى طائفتين : من يثبتون الأسماء الحسنى وينفون الصفات الزائدة على الذات؛ ويبدو أنه يقصد شيعة عصره من متأخري الإمامية وبعض الزيدية بعد أن تسرب الاعتزال إليهم (٤). ومن ينكرون الأسماء الحسنى والصفات جميعاً وهم الباطنية من الإسماعيلية وقد سبق التعرض لذلك من قبل. وهم ولا شك أقصى طرف التعطيل بين المسلمين، وابن الوزير اليمانى يحاول تفسير دوافعهم الظاهرة والباطنة فى ذلك مؤكداً أنه اطلع على ما يثبت ذلك إذ يقول : « مذهب القرامطة الباطنية تأويل الأسماء الحسنى كلها ونفيها عن الله على سبيل التنزيه .. بل قالوا : لا يعبر عنه بالحروف، وقد جعلوا تأويلها أن المراد بها كلها إمام الزمان عندهم وهو المسمى (الله) والمراد بلا اله إلا الله ؟ ، وأنا ممن

(١) انظر : والموافقة ٢/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) انظر : موافقة صحيح المنقول ٢/ ٢٢٧، ٢٢٨ ومنهاج السنة ١/ ٢٣٥، ٢٣٦ وفتاوى ابن تيمية ٥/ ٧٢

وشرح الطحاوية ٦٤، والتعرف لمذهب أهل التصوف ٣٦، ٣٧.

(٣) انظر غاية المرام ص ٣٨ وما بعدها.

(٤) انظر : غاية المرام ص ٢٧ - ٣٧٠، ١٤٤ - ١٤٧، وعقيدة أهل السنة ص ١٣.

وقف عليه فيما لا يحصى من كتبهم التى فى أيديهم وخزائنهم ومعاقلمهم^(١) . ومنهم أيضاً - فى نظرة - المعتزلة وهم فعلاً ينكرون الصفات الإيجابية باعتبارها معانى وجودية ازلية زائدة على الذات . إلا أن الآمدى لا يرميهم بالنفى مطلقاً ، فيقول : « وأما المعتزلة فموافقون للنفاة وإن كان لهم تفصيل مذهب فى الصفات كما سيأتى »^(٢) .

ولكنه يركز فى ردوده على موقف الفلاسفة والمعتزلة مما قد يوحى باعتقاده أن الشيعة بشقيهم ليسوا إلا متأثرين بهاتين الطائفتين .

وحجة الفلاسفة - وقد تبناها المعتزلة أحياناً - تعتمد على بطلان فكرتى (التركيب والتكثر) ، فإذا كانت هذه الصفات مقومة لذات واجب الوجود فهو أمر يتنافى مع مفهوم الواجب بالذات ؛ إذ التركيب علامة الحاجة إلى الغير . وإن قيل إنها ممكنة فمعنى ذلك ألا يكون الواجب واجباً من كل وجه ؛ إذ ستكون ذاته قابلة وفاعلة ؛ من حيث هى محل للصفات ومؤثرة فيها ، والواجب بالذات واحد من كل جهة ، لا تكثر فيه على نحو ما^(٣) .

وأبرز حجج المعتزلة اثنتان أيضاً : أولاهما أن زيادة الصفات على الذات ستؤدى إلى تعدد القدماء والقدم أخص وصف الإلهية . والثانية أن إثبات صفات قائمة بالذات يفضى إلى إثبات خصائص الأعراض لتلك الصفات ، وأظهرها الحلول فى الحيز تبعاً للذات ، وهذا محال على الواجب تعالى^(٤) .

وبعد أن يعرض الآمدى هذه الحجج يتصدى للرد عليها :

(١) فأما الحجة الاولى فممنشأ الغلط فيها عدم تحديد معنى « الواجب بذاته » ، فإن أردتم به ما ليس له صفات أصلاً فهذه قضية لا تزال محل النزاع ، فبناء الدليل عليها يكون مصادرة على المطلوب . وإن أردتم به ما لا افتقار له إلى غير ذاته فهذا ما نوافقكم عليه ، إذ قد دل الدليل على وجوب موجود وجوده لذاته لا لغيره ، تستند جميع الحوادث إليه

(١) إنباط الحق ١٢٩ ، ١٣٠ . (٢) غاية المرام ل ١٥ ب . (٣) انظر : غاية المرام ص ٣٨ وما بعدها .

(٤) انظر : شرح الأصول الخمسة ، حيث يعتمد على هذه الفكرة فى نفي الصفات باعتبارها معانى وجودية زائدة على الذات ص ١٩٥ - ٢٠٠ ، والابكار ١/ ١٥٥ .

قطعا للتسلسل ، ولكن هذا لا ينافي اتصافه بالصفات الذاتية ، ما دامت هذه الصفات لا تفتقر إلى أمور خارجية ؛ فإننا نستطيع أن نقول إنها واجبة بنفسها . فإن تشبثتم بأن تعدد الواجبين سيفضى إلى التركيب والحاجة ؛ من حيث إنهما لا بد أن يشتركا فى أمر ويختلفا فى أمور أخرى ، قلنا إن وجوب الوجود الذى يشتركان فيه ليس إلا مفهوما سلبيا لا يستلزم أى تركيب ؛ فهو لا يعنى أكثر من عدم الافتقار إلى العلة الخارجية ، وليس فى إضافة هذا السلب إلى الذات المعبر عنها بكونها واجبة الوجود ما يوجب جعل الواجب مفتقرا إلى غيره .

ثم يضيف الآمدى : إن هؤلاء الفلاسفة يعتمدون فى نفى الصفات على الوجوب بالذات الذى يعنى عندهم الوحدة من كل وجه ، ويعتمدون فى إثبات هذه الوحدة على بطلان الصفات ، وهذا دور ممتنع (١) .

(ب) وأما الحجة الثانية للفلاسفة فتعتمد على أن معنى (الممكن) ما يفتقر إلى فاعل ، مع أنه قد يعرف بما لا يتم وجوده ولا عدمه إلا بأمر خارج عن ذاته ، سواء أكان هذا الأمر فاعلا أم قابلا ، وعندئذ فيمكن أن يقال إن الوجود وسائر الصفات مثلا ممكنة ، وإمكانها افتقارها إلى القابل لا إلى الفاعل ؛ فإن وجودها لنفسها إلا أنها تحتاج إلى قابل هو الماهية . وهذا شبيه بقولكم إن العقل مؤثر فى إيجاد الصور الجوهرية والنفوس الإنسانية بذاته ، وإن كان تأثيره فيها متوقفا على القوابل لما تقتضيه ذاته (٢) . وواضح أنه يلجأ هنا إلى حجة جدلية ، فقد عرفنا موقفه من الوجود والماهية ، ولكنه يتنزل إلى القول بإمكان الصفات بهذا المعنى ، ويستغل هذا الجزء من نظرية الفيض لكى يرد على حجته فى إنكار الصفات الإيجابية ، وقد سبقه إلى ذلك الشهرستاني فى (نهاية الأقدام) (٣) .

على أنه يتحول إلى زاوية أخرى يبطل بها حجته معتمدا على جزء آخر من أجزاء نظرية الفيض فيقول : ثم ما المانع من أن يكون تأثير ذات واجب الوجود بالفاعلية والقابلية لا يتوقف على صفات حقيقية تستلزم التكثير ، بل على سلوب أو إضافات لا توجب شيئا من ذلك ؟ كما قلتم فى صدور الكثرة عن المعلول الأول بسبب اعتبارات له متعددة لا

(١) انظر : القسم الثانى ص ٣٢ ، ٣٣ . (٢) انظر : غاية المرام ص ٤١ - ٤٢ .

(٣) انظر : نهاية الأقدام ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

توجب تعددا فيه ولا كثرة ، مثل كونه ممكنا ، وكونه يعلم ذاته ويعلم ومبدؤه ، وما الفرق بين حالتنا هذه ، وما قلتم به (١)؟ وقد سبقه إلى هذا ابن رشد والشهرستاني أيضا (٢) .

(ج) وأما تمسك المعتزلة بأن القدم أخص وصف الإلهية ، فإن أرادوا أنه خاص به - تعالى - على وجه لا يشاركه فيه غيره من الموجودات الأخرى فهذا صحيح ، إذ كلها مخلوقة له مستندة إليه في وجودها . وإن أريد أنه غير متصور أن يعم شيئين ولو كانا داخلين في مدلول اسم الإلهية فهو لا يعدو أن يكون مصادرة على المطلوب ، فضلا عن أنه يتناقض مع مذهبهم - أو مذهب البعض منهم - في المعدوم ، وأنه ذات ثابتة في القدم في حالة العدم على ما لا يخفى (٣) . وقد سبق بمثل هذا النقد الجويني في الإرشاد (٤) ، وتابعه عليه ابن تيمية في (منهاج السنة) (٥) ، إذ يرد على تهمة ابن المطهر للأشاعرة بالقول بتعدد القدماء لإثباتهم الصفات ، وهي تهمة يوجهها إلى الأشاعرة آخرون كابن عربي مثلا (٦) .

(د) أما حجة المعتزلة الأخرى فإثما تستقيم أن لو كان قيام الصفات بالذات كقيام الأعراض بالجواهر مثل السواد والبياض وسائر الأعراض بمحالتها ، أى أنها تفتقر إليها في وجودها ولا تقوم إلا بها ، وليس الأمر كذلك فإن القيام بالغير أعم من ذلك ؛ ألا ترى إلى الصور الجوهرية فإنها لا تقوم وحدها ولا توجد إلا في مادة ولكنها ليست أعراضا لموادها ، ولا تثبت لها خصائص الأعراض لمجرد قيامها بها . أما إذا اعتبرتم مجرد القيام بالغير خاصة للعرض ، فلا مانع عندئذ من تسمية الصفات أعراضا ، ولكنه يبقى على أية حال مصطلحا خاصا لا مشاحة فيه مادام المعنى واضحا ، وهو أنها لا تفتقر إلى محلها افتقار التقوم به كما في الأعراض المادية (٧) ، وإن كانت لا توجد إلا معه .

(١) انظر : غاية المرام ص ٤٢ .

(٢) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد د / قاسم ٨٥ - ٩٠ ، ١١٠ ونهاية الاقدام ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) انظر : غاية المرام ٤٣ . (٤) انظر : الإرشاد ص ٩١ .

(٥) انظر : منهاج السنة ٢٣٤ - ٢٣٧ ونشأة الفكر ١/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٦) انظر : الفتوحات ٢/ ٦١٩ .

(٧) انظر : غاية المرام ص ٤٤ ، والابكار ١/ ٥٥ وقارن النجاة ٩٨ - ١٠٢ وتسع رسائل ٨٢ - ٨٤ .

ويلاحظ أن الآمدى فى رده على حجة الفلاسفة الأولى يختار القول بوجوب الصفات ومشاركتها للذات فى الوجوب ، وقد سبقه الغزالى إلى التصريح بذلك^(١)، وتابعه بعض المتأخرين من الأشاعرة فيما بعد^(٢). لكننا نلاحظ أنه فى رده على الحجة الثانية قد اضطر إلى القول بإمكان الصفات كما فعل الرازى قبله^(٣)، غير أن الرازى وقف أمام الصعوبة الناجمة عن ذلك مستسلما ؛ وهى كيف توصف الصفات بالأزلية وهى ممكنة ؟ وقد جعل الإمكان طريق إثبات الواجب وأمانة الحاجة إلى الفاعل المرجح ؟ ولم يسعه إلا الاعتراف بصعوبة المشكلة ، وتفويض الأمر فى حلها إلى الخالق : « هذا السؤال صعب ، وهو مما نستخير الله - تعالى - فيه^(٤) » ، وقد نبه السعد التفتازانى إلى هذه الصعوبة أيضا فى شرحه للعقائد النسفية^(٥) ، أما الآمدى فهو يستطيع اجتياز هذه الصعوبة ، إذ هو لا يعتمد فى إثبات الواجب بذاته على فكرة الإمكان وحدها، بل الإمكان بشرط الحدوث كما سبق البيان ، وإذا فهذا الممكن الأزلى - إن جاز التعبير - الذى لا يعنى الإمكان فيه سوى قيامه بالغير^(٦) لا يعترض طريقه فى إثبات الواجب بذاته؛ لأنه لا يعتمد فى هذا على الإمكان المطلق ، بل على الممكن الحادث فعلا، كما سبق أن بيناه فى المبحث الأول من هذا الفصل .

على أن اعتبار الصفات واجبة بالذات لا يخلو أيضا من صعوبة، بل هو أشد خطرا من القول بإمكانها - كما يرى عصام الدين الإسفرائينى - إذ هو منافٍ لأصل الإيمان وهو التوحيد^(٧) . ولكننا نعلم أن الصفات عند الآمدى لا تغاير الذات إلا من حيث المفهوم ، وهى فى الحقيقة داخلية فى مفهوم (الإله) المتصف بكمالاته أزلا كما سبق ، وليس الاشتراك بينهما فى الوجوب إلا معنى سلبيا لا يفضى إلى تكثر فى ذات واجب الوجود ولا يחדش التوحيد .

(١) فخر الدين الرازى وآراؤه ٢١٧ . (٢) انظر : شرح النسفية ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٣) انظر : الأربعين ص ١٦٢ والمعالن ص ٤٩ والأبكار ١٥٨/١ ب .

(٤) الأربعين للرازى ص ٤١ . (٥) شرح النسفية ٢٣٣ .

(٦) يأخذ ابن تيمية بفكرة التفرقة بين الحاجة إلى القابل والحاجة إلى الفاعل فى الرد على حجة الفلاسفة المذكورة .

انظر : ابن تيمية السلفى ٩٢ - ١٠٠ .

(٧) حاشية العصام على شرح النسفية ٢٣٣ .

ولكن يبقى بعد ذلك أن تحليل الذات الإلهية على هذا النحو إلى أجزاء ، وإخضاعها لمقولات الإمكان والوجوب والعرضية والذاتية وغيرها من الاعتبارات الإنسانية، أو صفات المواد الكائنة الفاسدة، ليس إلا خضوعاً لروح القياس الذى أنكره الآمدى طريقاً إلى المعارف الإلهية ؛ وهو قياس الغائب على الشاهد . ولقد كان أولى به أن يكتفى بإثبات إله واحد متصف بكمالات الألوهية دون التعمق إلى ما هو أبعد من ذلك من إمكان الصفات أو وجوبها، فهو تكلف لا يفضى إلا إلى مثل هذه الإشكالات، التى إن حللنا بعضاً منها فقد نعجز عن حل حاسم لها جميعاً .

ومما يلاحظ أيضاً أن الآمدى يصرح بوصف هذه الصفات بالقدم والأزلية ، وإن كان يؤثر لفظ الأزلية، فى كل من الأبحاث والغاية (١) ، عند الكلام على هذه الصفات إجمالاً .

وقد حكى الأشعرى فى المقالات توقف بعض الأصحاب عن وصف الصفات - على حيالها - بالقدم (٢) ، هذا مع تسليمهم بالمعنى المراد وهو أن الله - بصفاته - قديم . ويبدو أنه كان لهذا الأمر أهمية خاصة عند المعتزلة القائلين بأن القدم أخص وصف الإلهية ، ولذا يشددون على الأشعرى لتصريحه بقدم الصفات (٣) ، يقول القاضى عبد الجبار : « وعند الكلائية أنه - تعالى - يستحق هذه الصفات لمعان أزلية ، وأراد بالأزلى القديم إلا أنه لما رأى المسلمين متفقين على أنه لا قديم مع الله لم يتجاسر على إطلاق القول بذلك . ثم نبغ الأشعرى وأطلق القول بأنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان قديمة، لوقاحتها وقلة مبالاته بالإسلام والمسلمين » (٤) .

وهذا النص يعكس حنق المعتزلة على الأشعرى، ويدل فى الوقت نفسه على خطورة وصف الصفات بالقدم فى نظر هؤلاء المتكلمين القدماء . وقد جرى الماتريدية على وصف الصفات بأنها أزلية قديمة (٥) ، وقال بذلك أيضاً بعض الكرامية (٦) ، كما يوافق على

(١) انظر : الأبحاث ١/ ٥٢ ب وغاية المرام ل ١٢٥ ، ب - ص ٣٠ .

(٢) المقالات ١/ ٢٣١ / ٢٣٢ . (٣) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٤١ .

(٤) شرح الأصول الخمسة ١٨٣ .

(٥) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ٤٣ ، ٤٩ و بحر الكلام للنسفى ص ١٥ ، ١٦ .

(٦) انظر : نشأة الفكر ١/ ٦٣٨ .

هذا أيضا ابن تيمية ، مع تفصيل سنعرض له فى مسألة قيام الحوادث^(١) بذاته تعالى ، ويحكى القاضى عبد الجبار أن بعض الصفاتية منعوا أن توصف هذه المعانى بالحدوث أو القدم^(٢) .

ويستدل الآمدى على القدم بغير طريقة الأشعرى فى التقسيم : إما أن تحدث الصفات فى ذاته تعالى فتكون محلا للحوادث ويلزم حدوثها ، أو فى غيره فيكون عالما بعلم غيره مريدا بإرادة غيره وهذا ظاهر البطلان ، أو أن يحدثها لا فى محل وهو لا يقل بطلانا عن سابقه لأن معناه قيام الصفة بنفسها وهذا يفضى إلى تعدد القدماء المستقلين ، وإذا فيجب أن تكون قديمة^(٣) . ويؤثر الآمدى الاستدلال على قدمها ببطلان تسلسل الحادثات ، فإن الإرادة أو القدرة مثلا لو كانتا حادثتين لاحتاجتا فى إحداثهما إلى قدرة وإرادة أخرى تخصصهما وتوجدهما ، وكذا القول فى الثانية إلى ما لانهاية له ، وهو فرض غير مقبول ؛ لما يؤدى إليه من المحالات ، فوجب القول بأن الصفات قديمة^(٤) .

٦ - الصفات وطريقة إثباتها :

هل من طريق لإثبات الصفات إجمالا ، أم لابد من إثبات كل منها على حدة بدليل خاص ؟

يعرض الآمدى لهذه المسألة فى (غاية المرام) فينتقد الطرق التى اتبعها المتكلمون لإثبات الصفات إجمالا ، ويفعل مثل ذلك فى (الأبكار) مع زيادة سنشير إليها فى النهاية ، وهى اقتراح طريقة جديدة لإثبات الصفات جملة يمكن أن نسميها « طريقة الكمال » فلنبدا الآن بنقده لطرق القوم ، ثم نعرض فكرته المقترحة .

الطريقة العامة :

وهى التى سلكها أهل الإثبات كما يقول الآمدى فى (غاية المرام)^(٥) ، بل إنها أو أجزاء منها هى طريق المعتزلة أيضا كما سنرى^(٦) ، وهى تقوم أساساً على مبدأ قياس الغائب على الشاهد . ولذا يرفضها الآمدى طبقاً لمنهجه الذى سبق بيانه . ولهذا الطريق

(٢) شرح الأصول ١٨٣ .

(١) انظر : ابن تيمية السلفى ١٠٨ - ١١٨ .

(٤) انظر : غاية المرام ص ٥٩ - ٦٣ .

(٣) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٤١ .

(٦) وانظر : شرح الأصول الخمسة ١٥١ - ١٨٢ .

(٥) انظر : غاية المرام ص ٤٤ .

مرحلتان كما يقول الآمدى : « وهو أنهم تعرضوا لإثبات أحكام الصفات أولاً ، ثم توصلوا منها إلى إثبات العلم (١) بالصفات ؛ قالوا : العالم فى غاية الحكمة والإتقان ، ومثله مع إمكانه لا يصدر إلا عن مريد له قادر عليه عالم به كما هو الحال فى الشاهد ، وإذا ثبتت هذه الأمور لصانع العالم فلا بد أن يكون حياً إذ الحياة شرط هذه الصفات فى الشاهد ، فكذا فى الغائب ، ويلزم من كونه حياً أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً ، فإن من لم تثبت له هذه الأشياء يتصف بضدها من عمى وطرش وخرس طبقاً لما فى الشاهد أيضاً ، والخالق منزّه عن كل نقص . وهذا هو القدر الذى يتفق فيه المعتزلة والأشاعرة ثم يختلف طريقاهما بعد ذلك .

ويرى الآمدى أن هذا الطريق « مما يضعف التمسك به جداً » على حد قوله ، لأنه يبنى على الاستقراء ثم قياس الغائب على الشاهد وهو فاسد (٢) . ويفيض الآمدى فى بيان ذلك بما لا يخرج عما عرضناه فى الباب السابق ، وإن كنا نشير هنا إلى تنبيهه إلى خطورة هذا القياس على مبدأ التنزيه ، إذا ما انسقنا إلى إثبات كل أحكام الشاهد للغائب مع ما فيها من نقص . ويخص (٣) الأشاعرة بنقد خاص لأنهم مع قولهم به يقررون أن الفاعل فى الشاهد مخالف للفاعل فى الغائب ، فليس هنا إلا الاكتساب لا الفعل الحقيقى ، وإذا فالوجود فى الغائب ، غير الموجود فى الشاهد ، والموجود فى الشاهد غير الموجود فى الغائب ، « فأنى يصح القياس » (٤) ١٩ وقد سبقت الإشارة إلى أن الأشاعرة يحرصون بالنسبة لأفعاله تعالى على إبطال حكم هذا القياس على حين يصححونه فى مسائل الصفات ، وأن المعتزلة على العكس من ذلك بوجه عام .

ويرى الآمدى أنه متى بطل الأساس الذى يقوم عليه هذا الاستدال فقد انهارت سائر أجزائه الأخرى (٥) ، وإن كان يواصل نقده له ؛ فإن الأشاعرة زادوا على ما سبق أنه « إذا ثبتت هذه الأحكام فهى لا محالة فى الشاهد معللة بالصفات ، فالعلم علة كون العالم عالماً ، والقدرة علة كون القادر قادراً ، إلى غير ذلك من الصفات ، والعلة لا تختلف شاهداً ولا غائباً أيضاً » (٦) . وينقد الآمدى هذه المرحلة أيضاً بأنها ليست إلا ضرباً من ضروب

(٢) انظر : الأبيكار ١/ ١٥٥ ، ب

(٤) غاية المرام ل ١٢٠ .

(٦) غاية المرام ل ١١٩ .

(١) انظر : غاية المرام ص ٤٤ .

(٣) انظر : غاية المرام ص ٤٨ .

(٥) انظر : غاية المرام ص ٤٩ .

القياس المذكور، وقد عرف بطلانه (١) .

ثم يعترض من جهة أخرى على الأشاعرة، بأن إثبات الصفات عن طريق التوصل إليها من أحكامها يعنى أن الأحكام عند المثبت أعرف من الصفات نفسها، فكيف تعرفون الأحكام بواسطة هذه الصفات وتقولون : القادر هو من قامت به القدرة ؟ أليس فى هذا دور واضح (٢) ؟

ويلاحظ الأمدى أيضاً عدم اقتناع شيوخ الأشاعرة أنفسهم بهذه الطريقة ، ولذا عدل بعضهم (٣) إلى طريقة أخرى ؛ هى ادعاء البديهية والضرورة فى دلالة الأحكام والاتقان على أحكام الصفات ، وادعاء الضرورة أيضاً فى دلالة هذه الأحكام على الصفات نفسها . وإذا كان الأمدى يوافق على الخطوة الأولى (٤) . فهو يرى أن الخطوة الثانية ليست إلا من قبيل (التحكم) وإلا فكيف نفسر مخالفة كثير من العقلاء فيها كالمعتزلة والفلاسفة ، وهل نبيح لهم أيضاً أن يتمسكوا بالبداهة فيما يقولون (٥) ؟

أما فكرة (الأعدام) وعليها يعتمد الشيخ الأشعرى نفسه فى إثبات بعض الصفات - كما سيأتى - فإن الأمدى يرفضها معتمداً على بيان معنى (التقابل) وأقسامه ، والمتقابلات هنا تتمثل فى كل من السمع والبصر والكلام من ناحية والطرش والعمى والخرس من ناحية أخرى، وتقابلها هو من قبيل تقابل العدم والملكة، ومعلوم أنه لا يلزم من نفي الملكة تحقق العدم ، ولا من نفي العدم تحقق الملكة ، ولهذا يصح أن يقال إن الحجر ليس بأعمى ولا بصير ، نعم إنما يلزم من (العدم) المذكور ارتفاع (القوة) الممكنة للشيء ، والمستحقة له أو لذاتى له ، كما بينا ، والقول بارتفاع مثل هذه القوة فى حق البارى يجر إلى دعوى محل النزاع والمصادرة على المطلوب وهو غير معقول (٦) . فليس فى يد صاحب هذا الدليل برهان على أن طبيعة ذات البارى تستحق مثل هذه القوى من سمع وبصر وكلام .

أما المعتزلة فإنهم يشتركون مع الأشاعرة فى النصف الأول من الطريق ، وقد عرفنا ما

(١) انظر غاية المرام ل ٢١ ، ب . (٢) انظر غاية المرام ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) كالباقلانى والجوينى ، انظر : غاية المرام ص ٥٠ ، والأبكار ١/ ٥٥ ب .

(٤) انظر : الأبكار ١/ ٢٦٢ . (٥) غاية المرام ل ٢١ ب .

(٦) غاية المرام ل ٢٢ ب ، وانظر : الأبكار ١/ ١٥٦ ، ب و المبين ل ١١٥ .

فيه ، ولكنهم ينفردون بالقول بأن هذه الأحكام مستحقة للبارى - تعالى - لذاته ، أو لأمور ثابتة لهذه الذات ليست بموجودة ولا معدومة ، وهى ما يسمونه (الأحوال) ، لكنها على أية حال ليست مستحقة له لمعانى قائمة بذاته كما يدعى الأشاعرة (١) .

ويهتم الآمدى بإبطال ما يخص المعتزلة من هذه الطريقة ، وهو ادعاؤهم عدم تعليل هذه الأحكام بناء على أنها واجبة لله تعالى ، والواجب لا يفتقر إلى علة (٢) . ويلاحظ الآمدى بحق أن القوم هنا يعدلون عن قياس الغائب على الشاهد (٣) . ولكنه ينتقدهم بأنه إذا كان مرادهم بوجوبها عدم افتقارها إلى علة فهو عين المصادرة على المطلوب وإن كان المقصود أنه لا بد منها لواجب الوجود فذلك مما لا ينافى التعليل بالصفة ، فإن الشيء قد يكون ملازماً لأن علته ملازمة أيضاً (٤) . ونجد مثل هذا الرد على المعتزلة فيما بعد عند ابن تيمية (٥) .

ثم يعرض الآمدى هنا لمحاولة إمام الحرمين الجوينى الرد على فكرة المعتزلة فى أن الواجب لا يعمل بأن ذلك منتقض طرداً وعكساً (٦) ، وينقدها بأنها قائمة أيضاً على مبدأ قياس الغائب على الشاهد ، مع أن « للخصم أن يسلم بثبوت هذه الصفات للبارى - تعالى - على وجه تكون النسبة بينها وبين أحكام ذواتنا على نحو النسبة القائمة بين ذاته وذواتنا ، وإذ ذاك فلا يلزم من تعليل أحد المختلفين أن يكون الآخر معللاً » (٧) ، ويتمسك بالرد الذى عرضناه آنفاً .

أما ادعاؤهم - أو البعض منهم - للأحوال ، فقد أفرد له الآمدى فصلاً خاصاً فى غاية المرام (٨) ، كما تحدث عنه فى الأبهكار (٩) ، وهو ينسب القول بها إلى أبى هاشم الجبائى من المعتزلة وإلى الكرامية ، وبعض الأشاعرة كالقاضى أبى بكر وأبى المعالى

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ١٨٣ وما بعدها .

(٢) اعتمد المعتزلة فعلاً على هذه الفكرة ، انظر : شرح الأصول الخمسة ١٧٢ ، ١٩٩-٢٠١ ، ونهاية الأقدام ١٨٣

(٣) انظر : الأبهكار ١/ ٥٦ وغاية المرام ل ١٢٠ ، ب .

(٤) انظر : غاية المرام ص ٤٧ - ٤٨ . (٥) انظر : الموافقة ٢/ ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٦) انظر : ص ٣٩ من غاية المرام ، وقارن الإرشاد ٨٤ - ٩٠ والأبهكار ١/ ١٥٢ .

(٧) غاية المرام ١٢١ . (٨) غاية المرام ل ١٠ وما بعدها .

(٩) انظر : الأبهكار ٢/ ١١٤ وما بعدها .

الجويني (١)، فأما أبو هاشم وأتباعه من المعتزلة فقد اشتهر ذلك عنهم (٢). وأما الكرامية فلم أستطع الحصول على نصوص تثبت ذلك إلا أن تكون (الأحوال) عندهم هي المعاني التي تقوم بذاته - تعالى - فتنشأ عنها المخلوقات المختلفة كما نقل عن ابن الهيصم (٣). وأما الباقلاني فنحن نجد في (التمهيد) يرفض الأحوال بمعناها الاعتزالي ويصفها بأنها غير موجودة (٤)، وقد ذكر الآمدي في الأبيكار أنه تردد قوله في الأحوال بين النفي والإثبات (٥). وأما الجويني فإن الشهرستاني ينسب إليه أنه قال بها أولا ونفاها أخيراً (٦)، مع أننا نجد يرفض الأحوال في كتاب (الشامل) (٧) ويقبلها في (الإرشاد) (٨) وكتاب الإرشاد متأخر عن الشامل تأليفاً (٩).

وبعد مناقشة منطقية حول إمكان تعريف الحال عن طريق الحد أو الرسم (١٠) ينتهي الآمدي إلى أنها «عبارة عن صفة إثباتية لموجود غير متصفة بالوجود ولا بالعدم» (١١) ثم يذكر أنها تنقسم عندهم إلى معللة وغير معللة، ثم يتجه بعد ذلك إلى مناقشة حجة مثبتى الأحوال :

إن الذوات المختلفة كالسواد والبياض مثلاً تتفق في شيء هو (اللونية) ثم تختلف بعد ذلك في السوادية والبياضية، وما وقع به الاتفاق غير ما وقع به الافتراق، فاللونية ثابتة وهو المطلوب، ثم إن إنكار الأحوال يفضي إلى إنكار القول بالحدود والبراهين، فهي تعتمد على مثل هذه المعاني والأحكام من اللونية والحيوانية والناطقية، واستحالة إثبات صفات الرب - تعالى - إذ منشأ القول بها ليس إلا قياس الغائب على الشاهد (١٢).

فأما بالنسبة للشق الأول فإن اللونية وسائر المعاني الكلية لا وجود لها في الأعيان،

(١) انظر : غاية المرام ص ٢٢ .

(٢) انظر مثلاً : الفرق بين الفرق ١٦٤ - ١٨٢ والملل والنحل ٩٨/١ - ١٠٨ .

(٣) انظر : نشأة الفكر ١/٦٣٠ ، ٦٣١ . (٤) التمهيد ص ١٥٣ - ١٥٥ .

(٥) الأبيكار ل ١١٤/ب ١١٥٠ . (٦) نهاية الأقدام ١٣١ .

(٧) انظر : الشامل ١/٧١ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ . (٨) انظر : الإرشاد ٨٠-٨٤ .

(٩) انظر : مقدمة الشامل ٧/١ . (١٠) انظر غاية المرام ل ١١٠ ، ب .

(١١) غاية المرام ل ١٠ ب ومثله في الأبيكار ٣/١١٥ والمبين ل ١٦ ب .

(١٢) انظر غاية المرام ل ١٢٠ .

وإنما هي موجودة في الأذهان ، يستخلصها العقل من السواد والبياض وسائر الالوان الجزئية المشخصة الموجودة في الخارج ، واللونية في السواد ليست زائدة على ذاته من حيث هو سواد بل هي داخلة في مفهومه وحقيقته ، ولذا فلا يمكن تعقل السواد بدون تعقل اللونية أولا « وما لا تتم الذات إلا به وهو مقوم لها كيف يكون زائدا عليها » (١) ، ونحن نشبت هذه الأمور الكلية ولا نقول إنها مجرد ألفاظ وأسماء كما ذهب البعض ، ولكننا لا نقول : « إنها ليست موجودة ولا معدومة ، بل الواجب أن يقال إنها موجودة في الأذهان معدومة في الأعيان » (٢) وبهذا يتمهد طريق العلم دون حاجة إلى الأحوال بالمعنى الذي يريدون ، ويمكننا أن نشبت كل المطلوبات ومنها الصفات الإلهية ، على أن الآمدى يرى أن إثبات الصفات لا يتوقف على قياس الغائب على الشاهد كما زعموا ، بل هناك طرق أخرى ، وطريقتهم هذه هي مما يضعف التمسك به جدا ، كما سبق أن قال .

وبعد مناقشات غير قصيرة يقول الآمدى : « وإذا تحقق ما ذكرناه . علم منه القول بنفي الأحوال إلا على ما أشرنا إليه من الاحتمال ، ولقد كثرت طرق المتكلمين ههنا في طرفي النفي والإثبات لكن آثرنا الإعراض عنها شحا على الزمان من التضييع فيما لا يتحقق به كبير غرض والله الموفق للصواب » (٣) .

والحق أنها مناقشات غير مجدية ، وهي تتسم بالطابع المنطقي المجرد ، وقد سبق أن نقلنا عن الشهرستاني قوله بأن المعتزلة - وهم أول القائلين بالأحوال - تأثروا في ذلك بكلام المناطق عن الأجناس والأنواع ، وأيا ما كان المصدر الذي استمدوا منه هذه الفكرة ومدى علاقتها بفكرة الكليات المنطقية (٤) ، فيبدو لى أنهم لجأوا إليها كحيلة فكرية تتيح لهم إثبات الصفات كأمور وراء الذات أو أحوال لها ، دون أن يخرجوا على روح المذهب الاعتزالي نفسه القائمة على التوحيد وانفراد الإله بالقدم ، فإن هذه الأحوال رغم ثبوتها لا توصف بوجود ولا عدم وبالتالي لا توصف بحدوث ولا قدم ، وهي أيضاً تتصل بفكرتهم القائلة « إن العدم ذات » كما هو واضح .

(١) غاية المرام ل ١١٣ . ب .

(٢) غاية المرام ص ٣٣ .

(٣) غاية المرام ل ١١٥ .

(٤) انظر : المنطق الصوري د / النشار ١٧٨ - ١٨٧ .

ولكن لماذا يقول بها الباقلاني والجويني ؟ يبدو لي أن ذلك متصل برأى الباقلاني في أفعال العباد ، فإن قدراتهم تؤثر ، عنده ، في تلك الأفعال من حيث صفاتها أو أحوالها التي تقع عليها من طاعة أو معصية ، لا من حيث ذواتها ، فإيجاد تلك الذوات يستند إلى إرادة الله وحده ، فالهدف قريب منه عند أبي هاشم ، ولئن صح هذا فإنه يمثل نموذجا لتبادل الأسلحة بين المذهبين المتصارعين منذ وقت مبكر ، وأما الجويني فيبدو أنه لجأ إليها كطريق لإثبات صفات المعاني عن طريق إثبات أحكامها أولا ، كما ذكر الآمدى فيما سبق .

طريق الكمال :

ولكن إذا كان الآمدى ينتقد طرائق المتكلمين في إثبات الصفات على وجه الإجمال ، فهل يوجد لديه طريق آخر لذلك ؟ إنه يجيب عن هذا بالسلب في غاية المرام : « فإذا السبيل الدليل في إثبات الصفات إنما يتضح بالتفصيل ، وهو أن نذكر في كل واحدة منها طرفا ونذكر ما يتعلق به من البيان ويختص به من البرهان » (١) .

ولكنه في الأبتكار يقول : « واعلم أن هنا طريقة رشيقة يمكن طردها في إثبات جميع الصفات النفسانية وهي مما ألهمني الله - تعالى - إياه ، ولم أجدها على صورتها وتحريرها لأحد غيري ، وذلك أن يقال : المفهوم من كل واحدة من الصفات المذكورة إما أن يكون صفة كمال للموصوف بها وإلا كان حال من اتصف بها في الشاهد أنقص من حال من لم يتصف بها . وهو خلاف ما نعلمه بالضرورة في الشاهد ، فلم يبق إلا القسم الأول وهو أنها في نفسها وذاتها كمال ، وعند ذلك فلو قدر عدم اتصاف الباري - تعالى - بها لكان ناقصا بالنسبة إلى من اتصف بها من مخلوقاته ، ومحال أن يكون الخالق أنقص من المخلوق (٢) .

والحق أنها طريقة سهلة ولا تخلو من رشاقة كما يصفها الآمدى ، الذي يحرص على إبعادها عن شبهة قياس الغائب على الشاهد بمحاولة إثبات أن هذه الصفات كمالات في الواقع ونفس الأمر ، بصرف النظر عن اتصف بها في الشاهد ، وهو يرد على من عارضه في ذلك متمسكا بأن هناك بعض الكمالات كالذوق والشم ونحوها ، ومع ذلك لا يطلقونها على الله ، بقوله إنه لا بد من أن تكون هذه الصفات كمالات في نفسها ، أو

(١) غاية المرام ل ٢٢ ب ٠٠ ص ٤٢ من القسم الثاني . (٢) الأبتكار ١/ ٥٧ ب ١٥٨ .

ليست كذلك ، ولا واسطة بين ذلك في نظر العقل ، وأما ما ذكرتموه فنحن لا نمانع في أن كل كمال في المخلوق يجب أن يثبت للخالق إلا أن يستلزم نقصا من جهة ما ، ومن ادعى أن العلم والقدرة وسائر الصفات تخرج نقصا إلى ذاته - تعالى - فعليه البيان ، وعلينا أن نجيبه في عرضنا التفصيلي لهذه الصفات واحدة واحدة (١) .

ولعل ابن رشد قد سبق الآمدى إلى طريقة الكمال هذه وإن سماها طريقة التشبيه (٢) ، كما نجد لها أيضا عند النسفى الماتريدى دون تفصيل في معرض استدلاله على قدم الصفات (٣) ، وفيما بعد نجد ابن تيمية يهتم بهذه الطريقة ويجعلها عمده الأساسية في إثبات صفات البارى (٤) ، ومثله في هذا تلميذه ابن القيم (٥) ، وبعض المتأثرين به كابن أبى العز الحنفى (٦) ، بل نجد بعض المعاصرين يلجأ إلى هذه الطريقة كالشيخ محمد عبده في حاشيته على العقائد العضدية (٧) .

بقى أن حديث الآمدى عن هذه الطريقة في الأبرار قد يلقي ظلا من الشك على ما رجعته من تقدم (الأبرار) على (غاية المرام) ، ولكن ما يهون منه أن الآمدى يلجأ فعلا - وعلى وجه التفصيل - إلى طريقة الكمال في إثبات الصفات في كتابه (غاية المرام) ، كما ستؤكد الدراسة التفصيلية لموضوع الصفات فيما بعد .

٧- هل الصفات متغايرة فيما بينها ؟

تعرض المتكلمون من مثبتة الصفات لهذا السؤال ، واختلفت كلمتهم في الإجابة عنه - كما يحكى الأشعرى - على ثلاث مقالات : فقال بعضهم : « الصفات تتغاير ، وهى اغيار ، وليست هى مع ذلك غير البارى . وقال قائلون : كل صفة لا هى البارى ولا هى غيره . وقال قائلون : كل صفة لا يقال هى الأخرى ولا يقال هى غيرها ، ولم يقولوا لا هى الأخرى ولا هى غيرها » (٨) ونلاحظ أنهما رأيان اثنان فقط فى علاقة الصفات بعضها ببعض الآخر : فالبعض يقطع بالتغاير ، وآخرون لا يريدون القطع بهذا ولا ينقيضه .

(١) انظر : الأبرار ١/ ١٥٨ ، ب (٢) انظر : ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٢٣ .

(٣) انظر : بحر الكلام ص ١٦ . (٤) انظر : ابن تيمية الحنبلى ١١١ ، ١١٦ .

(٥) انظر : مدارج السالكين ١/ ٣١ . (٦) انظر : شرح الطحاوية ٢٩ ، ٤٠ .

(٧) انظر : شرح العقائد العضدية ١٥٧ . (٨) مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٠ ، ٢٣١ .

وقد ورث الأشاعرة هذا السؤال الخطير الذى تنبع خطورته من أنه من الممكن أن يجبرهم إلى الاعتزال أو يؤكد عليهم تهمة تعدد القدماء^(١)، وقد فر بعضهم من مواجهته عقليا إلى التمسك بالسمع الذى أثبت أكثر من صفة، يقول الشهرستاني، مصورا هذا الموقف فى ختام كلامه عن الصفات: «... ثم هل تشترك هذه الحقائق والخصائص فى صفة واحدة أو ذات واحدة فتلك الطامة الكبرى على المتكلمين، حتى فر القاضى أبو بكر الباقلانى - رضى الله عنه - منها إلى السمع، وقد استعاذ بمعاذ والتجأ إلى ملاذ . والله الموفق»^(٢).

ويبدو أن بعضهم صرح بعدم تغاير هذه الصفات ورجوعها إلى معنى واحد لا هو نفس الذات ولا غيرها، وقد أشار الآمدى إلى ذلك فى غاية المرام دون تحديد، وفى كتاب (المضنون به على غير أهله) المنسوب إلى الإمام الغزالى: «يتخيل بعض الناس كثرة فى ذات الله تعالى، عن طريق تعدد الصفات، وقد صبح قول من قال فى الصفات لا هو ولا غيره، وهذا التخيل يقع عن توهم التغاير، ولا تغاير فى الصفات»^(٣). ثم يضرب لذلك بعض الأمثلة مؤكدا ألا تغاير بين العلم والقدرة والكلام إلا من حيث الاعتبار^(٤).

وقد نزع الإمام الرازى فى بعض كتبه إلى اعتبار الصفات وجوها للذات أو مجرد نسب وإضافات فاقترب إلى حد كبير من موقف المعتزلة والفلاسفة^(٥).

أما الآمدى فيحكى لنا فى (غاية المرام) أن الذى عليه الشيخ أبو الحسن وعامة الأصحاب أن الصفات النفسية لذات واجب الوجود، كالعلم والقدرة وغيرها «لا يقال إنها عينه ولا غيره. بناء على أن معنى المتغايرين كل موجودين صحت مفارقة أحدهما

(١) يشير الغزالى إلى خطورة هذا السؤال من هذه الجهة فى (الاقتصاد) ٥٧٩، ولكنه يحاول الإجابة عنه باختيار تغاير الصفات فيما بينها مع وحدة كل منها ذاتها، ولكنه يشير إلى أنه يشير إشكالات عريضة، غير أنها أقل من إشكالات أى اختيار آخر، ولا سبيل إلى حسم مثل هذه الإشكالات فى أمر كهذا يتعلق بذات الله وصفاته المتعالية على أفهام الخلق. انظر: الاقتصاد ص ٧٩ - ٨١.

(٢) نهاية الأقدام ٢٣٦، ٢٣٧.

(٣) المضنون به على غير أهله. ضمن مجموعة القصور العوالى ص ٣١١.

(٤) السابق. (٥) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢١٩.

للاخر بوجه ما كالزمان والمكان ونحوه، وهذا الكلام بعينه جار في تغاير الصفات النفسية بعضها مع بعض أيضا»^(١) وهذا يدل على أن الأشعرى قد اختار الموقف الأخير فيما نقلناه آنفاً عن (المقالات)، وتابعه أكثر أصحابه على ذلك .

ولكنه لا يرضى عن هذا ويعقب على ما سبق بقوله : « وهذا مما لا أرى حاصله يرجع إلى أمر يقينى ولا إلى معنى قطعى ، وإنما هو راجع إلى أمر اصطلاحى »^(٢)، ثم يوضح ذلك بأن الصفات تتغاير فعلاً من حيث المفهوم ، فإن المعنى الذى تدل عليه كل واحدة منها غير ما تدل عليه الأخرى ، ويمكن فهمه مستقلاً عن غيره ، وهذا أوضح معانى الغيرية^(٣) .

ولكن هل يعنى ذلك التغاير الحقيقى ، أو تعدد الصفات حقيقة ، وهل يجوز لنا التصريح بذلك ؟ إنه يرى أن الشرع لم يبيح ذلك^(٤) ، فضلاً عن أنه لا تتعلق به ضرورة اعتقادية ، فما على المؤمن إلا أن يثبت الكمالات المختلفة التى شهد لها العقل ونطق بها السمع دون دخول فى هذه المضايق التى وقع فيها بعض الأصحاب فمعجزوا عن تحقيق الجواب . ويعرض الآمدى بعد ذلك لإجاباتهم مبرهنًا على ضعف جواب القائلين بتعدددها وتغايرها ، ويشير إلى ما يرد عليه من إشكالات ، وكذا بالنسبة إلى من قال باتحادها ورجوعها جميعاً إلى معنى واحد ، مؤكداً أن الموقف السليم – حتى من الناحية العقلية – هو الإعراض عن مثل هذا البحث الذى لا يوصل إلى يقين ولا يفضى إلى خير ، والا يستخفنا تهويل المهولين بمثل هذا السؤال الذى ليس فى يدنا إمكانات الفصل فيه ، بل ولا يهمنى التصدى^(٥) له أصلاً : « إذا ثبت القول بكونه محيطاً بالموجودات وعالمًا بها ومخصصاً لها فى وجودها وحدوثها ، وثبت له غير ذلك من الكمالات المعبر عنها بالصفات ، فهو ما طلبناه وغاية ما رمناه »^(٦) .

ولقد اختار الآمدى بذلك التوقف الموقف السليم الذى سبقه إليه ابن رشد ودعا إلى

(١) غاية المرام ل ١٦١ ، ٦٢ ب . (٢) غاية المرام ٦٢ ب .

(٣) السابق . (٤) نفس الموضوع السابق .

(٥) انظر : غاية المرام ل ١٥١ . ٥٣ ب .

(٦) غاية المرام ل ٥٢ ب .

الأخذ به فى مثل هذه المضائق ، يقول أستاذنا الدكتور محمود قاسم - فى مقدمته لمناهج الأدلة - : « فليس من شأن العامة ولا المتكلمين إذا أن يشغلوا أنفسهم بما لا طاقة لهم به ، وينبغى لهم أن يعترفوا بتعدد الصفات » ، وأن يدعوا رجال البرهان والفلسفة يقررون هذه الحقيقة الكبرى وهى أن الصفات لا يمكن إلا أن تبدو متعددة من وجهة النظر الإنسانية ، وأما فى حقيقة أمرها فهى فوق مستوى عقولنا جميعا . وهذه حقيقة يرى ابن رشد أنه من الواجب ألا يصرح بها للجمهور لا لأنها خاطئة ، ولكن لأنهم يعجزون عن فهمها» (١) .

ونختم بذلك هذه المسائل التمهيدية بعد أن اتضح لنا موقف الآمدى من مسألة الصفات ومشاكلها الرئيسية بصفة عامة . ويتبين لنا منها دقته فى النظر وجراته فى نقد شيوخه الذين يجلهم ويقدرهم كالباقلانى والجوينى والشيخ الأشعرى نفسه ، ونزعته التنزيهية الواضحة ، وحرصه فى نفس الوقت على تأكيد الكمالات الإيجابية للذات الإلهية التى يسميها (الصفات النفسية) ، أى أنه بعبارة أخرى يحرص على الجمع بين طريقى « التشبيه والتنزيه » ؛ أعنى طريقى الإثبات والنفي ، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

* * *

المبحث الثالث

الصفات النفسية أو معرفة الإثبات

تمهيد عام :

إذا كانت معرفة حقيقة ذات الله - سبحانه - غير ممكنة للعباد، فليس معنى ذلك أن المعرفة به تعالى - ولو على وجه الإجمال - مستحيلة، أعنى المعرفة الممكنة في الحياة الدنيا، بل هي متاحة لكل عاقل، أو بالأحرى واجبة على كل مكلف، في نظر الآمدى وغيره من المتكلمين .

والطريق إلى هذه المعرفة الممكنة الواجبة في الوقت نفسه - الممكنة بالعقل والواجبة بالشرع - مكون، فيما يرى الآمدى، من مرحلتين : أولاهما مرحلة الإثبات أو التشبيه، أى إثبات كل كمال أخبر به الشرع، وحكم العقل بأنه كمال فيمن يتصف به، لله سبحانه؛ إذ لا يعقل أن يكون الخالق أنقص من المخلوق، ولكن مع مراعاة التفرقة بين صفات المخلوق وصفات الخالق، حتى فيما هو من قبيل الكمالات .

والثانية هي (مرحلة التنزيه) وهي سلب كل سمات النقص والقصور التي نجدها في البشر وفي سائر الموجودات المادية، الكائنة الفاسدة، المحصورة في المكان والزمان، عن الله - سبحانه - الذي هو مبدأ الكائنات وخالق ما سواه من الموجودات، والمتعالى فوق كل القيود والحدود التي تخضع لها المخلوقات .

ومن ثم نجد الآمدى - في كتابه غاية المرام - يجعل كلامه عن صفات الله سبحانه - بعد أن أثبت وجوده - في قانونين : أحدهما (في إثبات الصفات وإبطال تعطيل من ذهب إلى نفيها من أهل المقالات)^(١)، والآخر في (إبطال التشبيه وبيان ما يجوز وما لا يجوز على الله سبحانه) وإن كان قد فصل بينهما بالحديث عن (وحدانية الباري تعالى)^(٢) في قانون مستقل، وهو، ولا شك، من قبيل معرفة التنزيه؛ إذ هو يهدف إلى سلب التعدد عن ذات الباري تعالى .

كما نجد في الأبيكار يفرد فصلاً لإثبات الصفات النفسية^(٣) وآخر لما لا يجوز على

(٢) انظر ص ١٤٩ من غاية المرام

(١) انظر ص ٢٧ وما بعدها من غاية المرام

(٣) انظر الأبيكار ١/٥٤.

البارى تعالى (١) . إنها طريقة التشبيه والتنزيه التى دعا إليها ابن رشد وأثبتها فى كتابه (مناهج الأدلة) (٢) وفطن لها الماتريدى والغزالى أيضا (٣) من قبل .

والآمدى يركز على كلتا الطريقتين فى التعرف على الله - عز وجل - بصورة متوازنة إلى حد ما رغم أشعريته الواضحة ، وقد سبق أن لاحظنا من قبل عند الحديث عن (أخص وصف الله) أن الروح الأشعرية أميل إلى تأكيد الصفات الإيجابية أو المعنوية الزائدة على الذات، من أجل تأكيد وتعميم القدرة والإرادة الإلهيتين ، بينما تنزع الروح الاعتزالية إلى تأكيد التنزيه والتفريد والتوحيد ، وتعتمد من أجل ذلك إلى التركيز على الصفات السلبية والتسوية بين سائر الصفات والذات الإلهية ، ولكن الآمدى كانت له - فيما يبدو - أسبابه الخاصة للعناية بكلتا الطريقتين ، والمرج بين روحى هاتين المدرستين .

فهو من جهة يرى أن (التمييز بين الذوات لا يحصل بالصفات السلبية ، ككونه لا حد له ولا نهاية له ولا جسم ولا عرض، ونحوه) (٤) ، وذلك (لأن السلب عدم محض، وذلك لا تأثير له فى التمييز والتخصيص، إذ ما ليس بشيء لا يكون مستوعبا لما هو شيء ، ولأنه لا فرق بين قولنا إنه لا مميز وبين قولنا إن المميز عدم) (٥) . كما أن النسب والإضافات لا تكفى أيضا لهذا التمييز : « قد بينا أن الاختلاف يستدعى مميزا ، وما قيل من أنه يجوز أن يسند إلى النسب والإضافات فمندفع » (٦) . وهذه فكرة جليلة عنى بها ابن تيمية من بعد ، حيث قرر أن الكمال الحقيقى لا يكون إلا أمرا وجوديا ، وأن الأمور السلبية لا تكون كمالات إلا إذا تضمنت أمرا وجوديا ، إذ العدم المحض ليس بشيء فضلا عن أن يكون كمالاتا ، ولذا فهو ينتقد الفلاسفة والشيعية والمعتزلة ، بل والأشاعرة أيضا؛ لإسرافهم فى السلوب التى يرى هو أنها ليست من شأن الموجود الحقيقى ، فإن الذى تنحصر صفاته فى السلوب هو العدم المحض ، (٧) وقد امتدت هذه الفكرة فى تلاميذه

(١) انظر : الأبكار ل ١ / ١٤٢ وما بعدها .

(٢) انظر مناهج الأدلة - المقدمة ص ٤٤ - ٤٨ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٦ .

(٣) انظر مقدمة مناهج الأدلة ص ٤٤ ، فخر الدين الرازى وآراؤه ٢١٧ .

(٤) انظر : الأبكار ١ / ٥٠ ب وقارن المقصد الاسنى ص ٦ ، ٢٧ .

(٥) الأبكار ١ / ٥٠ ب . (٦) غاية المرام ل ١٣٤ .

(٧) انظر : ابن تيمية السلفى ١١١ - ١١٦ وانظر : نقض المنطق ٥٠ ، ٣٢ والعقيدة الواسطية ٣ ، ٤ وعقيدة اهل السنة ٢٣ .

والمتأثرين به (١) .

ولعل هذا المعنى هو الذى حدا بالمعتزلة، بعد شيخهم واصل إلى أن يعدلوا عن موقفه من الصفات الإيجابية خشية أن يفضى بهم ذلك إلى التعطيل وإلى جعل الإله فكرة مجردة لا مضمون لها ، فمالوا إلى إثبات اثنتين منها، ثم إلى أكثر من ذلك ، وإن عبروا عنها بالأحوال . وقد نبه إلى هذا التحول ومغزاه أستاذنا الدكتور محمود قاسم فى مقدمته لكتاب (مناهج الأدلة) (٢) .

ولذا فنحن نستطيع القول بأن علماء أهل السنة ومتكلميهم، من مثبتة الصفات، كانوا مدفوعين الى تأكيد هذا الجانب الإيجابى من صفات الله - عز وجل - لا مجرد الخضوع للنصوص الواردة فى ذلك؛ فإن هذه النصوص تضم من أمثال قوله تعالى ﴿ليس كمثله شئ ﴾ و ﴿قل هو الله أحد - السورة ﴾ الكثير أيضا ، ولا غفلة عن القاعدة التى تقضى بالترقية بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فهم جميعا على اختلاف مذاهبهم يحاربون التشبيه والتمثيل ، ولكن من أجل مقاومة تيار النفى الذى شاع لدى الفلاسفة والمعتزلة والشيعة المتأخرين، وخاصة لدى الفلاسفة الذين تأثروا بالتصور الأرسطى للإله أو العلة الاولى المتعالية على كل ما يتصل بالوجود المادى حتى لا تكاد تعرف من أمر العالم شيئا - لأنهم يجدون أن الذات الإلهية التى تطالعنا من القرآن الكريم ذات عالمة قادرة فعالة مريدة مهيمنة على الملك والملوك ، تمت بفضلها ورعايتها كل كائن فى هذا الوجود ، وتعنى بشأنه وتمسك الكون كله أن يزول ، وتفصل فى أمره بدءاً ونهاية ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٣) .

ومن جهة أخرى فإن الآمدى يحرص على التنزيه، حتى نجده بين الأشاعرة فى أقصى طرف التنزيه، فهو يرى أنه لا يمكن أن يكون لله تعالى (وصف معين) هو أخص صفات ذاته يميزها عن سواها ، وحتى لو وجد هذا الوصف فإنه لا يمكننا إدراكه ، وذلك لأن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات لنفسها ، لا لأنها تختلف عنها بالصفات فحسب (٤) . وهو

(١) انظر : شرح الطحاوية ٤٣-٤٩ وإيثار الحق ١٢٩، ١٣٠ واجتماع الجيوش ٣٣-٣٥، ١٦٤ .

(٢) مقدمة مناهج الأدلة ٣٨ ، ٣٩ . (٣) سورة القصص (٨٨) .

(٤) انظر ما سبق فى هذا الفصل عن أخص وصف الله .

أيضا يقف من الصفات الخيرية موقفا متطرفا فينفىها جميعا كصفات قديمة ، ويؤولها إلى معان أخر من الاستيلاء والغلبة والعلو المعنوى والقرب الروحي ونحو ذلك ، مخالفا بذلك القدماء من شيوخ المذهب كالأشعرى والباقلانى . وهو يرفض كل تغير فى الذات الإلهية ويعارض أقرب أسلافه إليه ، وهو الإمام الرازى ، فيما رآه بشأن حلول الحوادث فى ذاته تعالى ، مما سنبينه فيما بعد .

لقد بدأ الأشاعرة يستخدمون سلاح التأويل ، ويقترّبون من المعتزلة بوضوح فى هذا الصدد بعد الباقلانى ، وكان للجوينى دور بارز فى هذا الشأن ، استمر على يد تلميذه الغزالى ، حتى إذا جاء الرازى وألف (تأسيس التقديس) الذى اعتبره ابن تيمية (تقديس الجهمية) ضاقت مسافة الخلف بين الأشاعرة والمعتزلة إلى حد كبير ، وللآمدى دور واضح فى هذا كما سنبينه فيما بعد .

والآمدى يصر على وصف هذه الصفات الإيجابية بالنفسية ، مع أنها عند الأشاعرة تسمى كثيرا بالصفات المعنوية لدلالاتها على معان مغايرة للذات قائمة بها عندهم . أما النفسية فهى عندهم (كل صفة إثبات لنفس لازمة ما بقيت النفس غير معللة بعلة قائمة بالموصوف)^(١) كما يقول الجوينى فى الإرشاد ، ويمثل لها بالتحيز للجوهر ، والوجود لله تعالى وقدمه وبقائه . ومثل هذا التقسيم للصفات عند الأشاعرة وتحديد المراد بالنفسية والمعنوية ، نجده عند ابن رشد^(٢) . ولكن الآمدى يخرج على هذا المصطلح ربما لتأكيد أن هذه الصفات ، وإن كانت مغايرة للذات فى المفهوم ، هي داخلة فى مفهوم لفظ الجلالة ، والمقصود بالإله المعبود إنما هو مجموع الذات وهذه الصفات القائمة بها .

* * *

(١) انظر : الارشاد ص ٣٠ وانظر أيضا ص ٦١ وما بعدها .

(٢) مناهج الأدلة ص ١٦٥ ، ١٦٦

(١) صفة الإرادة

أ- الآراء حولها :

يبدأ الآمدى أبحاثه حول هذه الصفة فى (غاية المرام)^(١) وفى (الأبكار)^(٢) ببيان موقف المفكرين المسلمين منها :

أ- فأهل الحق - ويبدو وأنه يقصد بهم الأشاعرة وأهل الحديث والسنة من مثبتى الصفات الإيجابية - يقولون إنه - تعالى - مريد على الحقيقة ، أى أنهم يقولون بالإرادة صفة وجودية قائمة بذاته تعالى .

ب- وأما الفلاسفة والمعتزلة والشيعة فيذهبون إلى أنه - تعالى - غير مريد على الحقيقة ، ولكن الآمدى يحدد حكمه هذا فيقول ما خلاصته :

معنى كونه مريدا عند الفلاسفة المسلمين صدور أفعاله عنه دون كراهية أو جبر ، وقد وافقهم على ذلك النجار من المعتزلة والذى يعرضه الآمدى هنا عن الفلاسفة يتسم بالإنصاف والأمانة ، وهو ما نجده فى كتب الفارابى وابن سينا^(٣) وفى الدراسات الحديثة عن القوم^(٤) ، أما كلمته « غير مريد على الحقيقة » فليست حكاية لمذهبهم بقدر ما هى حكم شخص متأثر بالموقف المذهبى .

٢- وأما المعتزلة فإنه يفصل مواقفهم على النحو التالى :

- ذهب النظام والكعبى إلى أن إرادته - تعالى - لأفعاله خلقه لها ، ولأفعال العباد أمره بها . وهو أيضا نقل دقيق لآرائهما^(٥) . وإن كان الآمدى فى (المآخذ) ينقل عن الرازى أن الكعبى والجاحظ وأبا الحسين قالوا بأن الإرادة هى داعية الإحسان^(٦) .

- وأما الجاحظ فإنه أنكر الإرادة فى الشاهد وفسرها بعدم السهو والغفلة من الفاعل

(١) انظر: ص ٥٢ من غاية المرام . (٢) انظر: الأبكار ١/ ٦٤ ب وما بعدها

(٣) انظر : عيون المسائل للفارابى ص ٥ والإشارات ٣/ ٥٦١

(٤) انظر : مقدمة مناهج الأدلة لاستاذنا د/ قاسم ص ٦١ ، ٦٢ ونظرية المعرفة عند ابن رشد له أيضا ٢٦٣ ،

٢٦٤ وحوار بين الفلاسفة والمتكلمين د/ الالوسى ٥٦ = ٦٣ .

(٥) انظر: الملل والنحل ١/ ٦٩ ، ٨٢ ونشأة الفكر ١/ ٥٦٦ (٦) المآخذ ل ١٣٩

، وهذا يتفق مع ما يذكره الشهرستاني^(١) ، وإن كان هو والبغدادى ينسبان إليه القول بأن نصيب الإنسان من فعله ليس إلا الإرادة^(٢)، وذلك عند بيانهما لموقفه من خلق الأفعال .

— وأما البصريون من المعتزلة فقالوا : إنه — تعالى — مريد بإرادة قائمة لا فى محل ، وهذا هو ما حكاه الأشعرى فى (المقالات) عن أصحاب أبى الهذيل^(٣) . ولعله يرى أن الشيعة كالمعتزلة ، إذ تبنى متأخروهم أكثر آراء المعتزلة .

٣— وأما الكرامية فقالوا : إنه — تعالى — مريد بإرادة حادثة فى ذاته ، فخلق الإرادة أو القول فى ذاته يستند إلى القدرة القديمة وليس محدثاً بإحداث ، بل هو حادث غير محدث ، فقد فرقوا بينهما^(٤) . وهذا يتفق مع ما ينسبه غيره إلى أصحاب هذا المذهب ذى النزعة التشبيهية الواضحة^(٥) .

ب- تعريفها :

يرى الآمدى — إزاء هذه الاختلافات الواسعة — أنه لابد من تعريف الإرادة ؛ « ليكون التوارد بالنفى والإثبات على معنى واحد »^(٦) فيشير إلى تعريف الأصحاب لها بالقصد إلى المراد ، أو إشار المراد ، أو اختيار الحادثات ، أو المشيعة المجردة وينسبه للبلاقلانى . ثم ينتقدها جميعاً من نواح عدة ، منها أنها جميعاً تعريفات لفظية^(٧) ، وأن التعريف الثانى يشعر بسابقة التردد بين أمرين أحدهما أثر من الآخر « والإرادة أعم من ذلك ، فإنها قد تكون حيث لا تردد »^(٨) . وهذا النقد يذكرنا بتعريف ابن رشد للإرادة الإلهية بأنها الاتجاه إلى أفضل وضع ممكن مباشرة ، وبلا سبق تردد كما هو الحال فى الشاهد^(٩) ، ولكن الآمدى وإن نفى التردد كابن رشد فهو أيضاً ينفى الحكمة والغرض عن أفعاله — تعالى — بخلاف ابن رشد الذى يرى أن ذلك النفى مما يتنافى مع الكمال الإلهي^(١٠) .

(١) الملل والنحل ١/ ٩٤ ، ٩٥ . (٢) الملل والنحل ١/ ٩٥ والفرق بين الفرق ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) انظر : مقالات الإسلاميين ١/ ٢٤٤ ، ٢٤٥ . (٤) انظر : غاية المرام ل ٧١ ب .

(٥) انظر : الفرق بين الفرق ٢٠٤ ، ٢٠٥ ونشأة الفكر ١/ ٦٣٥ ، ٦٣٦ .

(٦) الأبهكار ١/ ١٦٥ . (٧) نفس المصدر والصفحة . (٨) الأبهكار ١/ ١٦٥ .

(٩) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ص ٢٠٠ — ٢٠٥ ومقدمة مناهج الأدلة ٦١ ، ٦٢ . (١٠) السابق

ويختار الآمدى في تعريفها أنها « عبارة معنى من شأنه تخصيص أحد الجائزين دون الآخر »^(١) ، ثم يفرق بينها وبين القدرة وسائر الصفات ، وبينها وبين الشهوة والتمنى والعزيمة والرضا^(٢) .

ج- الاستدلال عليها :

يغفل الآمدى تماماً استدلال الأشعرى : لو لم يكن الله تعالى مُتَّصِفًا بالإرادة لا تصف بأضدادها من السهو والكراهة والآفة^(٣) ؛ لأن الضدين قد يرتفعان معاً كما سبق^(٤) .

وينزع الآمدى (فى الأبهكار والمآخذ) إلى الاستدلال الذى شاع لدى الأشاعرة بعد شيخهم ؛ وهو أنه قد ثبت أن لهذا العالم مبدعاً وفاعلاً ، وهذا المبدع الفاعل إما أن يكون فى فعله مختاراً أو موجباً ، وإذا بطل الإيجاب ثبت الاختيار ، والشواهد تدل على الاختيار ، ومن أبرزها أن فعل الموجب لا يتنوع ، بل يسير على وتيرة واحدة ، وإذا فالله مريد مختار^(٥) . وهو استدلال لا بأس به لولا ما يرتبط به من فكرة الإمكان التى انتقدها ابن رشد وغيره^(٦) .

أما فى غاية المرام فنجده يطبق (قاعدة الكمال) فيقول : لو لم يصدق كونه ذا إرادة لصدق أنه ليس بذى إرادة ، وكل ما ليس بذى إرادة فهو ناقص بالنسبة إلى من له إرادة ، فإن من كانت له الصفة الإرادية فله أن يخصص الشيء وله أن لا يخصصه شاهداً ، فالعقل السليم يقضى أن ذلك كمال له ، وأن من لم يتصف به - شاهداً أو غائباً - أنقص ممن هو متصف به ، وإذا فلو لم يصدق كونه ذا إرادة للزم أنه أنقص ممن هو ذو إرادة ، وكيف يتصور أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ؟ إن البديهة تقضى برّد

(١) الأبهكار ١/٥١٦٥ ب

(٢) انظر: الأبهكار ١/٦٥٥ ب ، ١٦٦ والمآخذ ٣٨ ب ، ٣٩ .

(٣) انظر: اللع ص ٣٧ - ٤٠ ومقدمة مناهج الأدلة ٣٨ .

(٤) انظر : ما سبق فى الأحكام العامة للصفات فى نقد هذه الطريقة .

(٥) انظر الأبهكار ١/٦٦ ب والمآخذ ٣٩ ، ١ ، ب وقارن بالإرشاد ١٣١ ، ١٣٢ ، ٩٤ والاقتصاد ص ٦٠ .

(٦) انظر مناهج الأدلة ص ٢٠٠ ... ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ والخيال عند ابن عربى ، لاستاذنا الدكتور قاسم ص ٧١ ، ٧٠ .

ذلك وإبطاله (١).

وهذا استدلال بسيط ومقنع، لولا أن الآمدى عرضه فى أقيسة منطقية متوالية شرطية مرة واقتراانية مرة أخرى ، تتخللها مصطلحات الموضوع والمحمول والرابطة والكبرى والموجبة والسالبة والمادة والصورة، مما قلل من قيمته وأضعف من أثره .

د- إيضاحات :

ويفرغ الآمدى بعد ذلك لتوضيح هذا الاستدلال الأخير عن طريق الإجابة عن بعض التساؤلات حوله، وللرد من خلال ذلك على بعض وجهات النظر الكلامية التى سبق عرضها بشأن حقيقة الإرادة:

(١) هذا الاستدلال مبنى على تحقق الإرادة فى الشاهد، أى إرادة الإنسان ، وأنها كمال لصاحبها، فبم الرد على ما ينسب إلى الجاحظ من إنكارها ؟

ويجب الآمدى عن هذا السؤال ببساطة : كل عاقل يجد من نفسه القصد والعزم، كما يحس فى باطنه بقدرته وعلمه ، وهذا مما لا ينكره عاقل إلا عنادا ، وقد ذكر ابن الوزير فى إثبات الحق « أن هذا القدر من معنى الإرادة لاخلاف عليه » (٢).

(٢) إذا وجب أن نصف الله - تعالى - بكل كمال فى خلقه فما هو قولكم فى الشم والذوق وغير ذلك من الكمالات الموجودة فى الشاهد ؟

والآمدى لا يمانع - ويحكى ذلك عن المحققين - فى إثبات سائر الكمالات لله ، لكن بشرط انتفاء الأمور المادية المقترنة بها فى الشاهد الموجبة للحدوث والتجسيم، وهما محالان على الله . غاية ما فى الأمر أنه يتخرج من إطلاق ذلك على الله - تعالى - لعدم ورود الإذن الشرعى بذلك؛ مما يؤكد ما أشرت إليه فى الباب السابق - بشأن موقفه من الدليل السمعى - أن أساس الصفات عنده هو قيام الدليل العقلى مع الإذن الشرعى، كما هو الحال عند الغزالى وابن تيمية أيضا (٣).

(١) انظر: غاية المرام ل ١٢٣ ، ب .

(٢) انظر : الغاية ل ١٢٤ والأبكار ١ / ١٦٥ وإيثار الحق ٢٤٧ .

(٣) انظر : ص ٥٤ من غاية المرام، ومجموعة الرسائل والمسائل ٤٦ / ١ والاقتصاد ص ٦٧ .

٣) إذا سلمنا بما سبق فهل معنى ذلك أن إرادة الله - تعالى - من جنس الإرادة في الشاهد ؟

وهنا يجيب الآمدى : لنا أن نقول بالمجانسة ، وغاية ما يترتب عليها احتياجها - كما في الشاهد - إلى المحل المقوم ، وذلك مما لا نأباه . وقد سبق للآمدى أن قبل وصف الصفات بالإمكان بمعنى الحاجة إلى الذات كمقوم لا كفاعل أو مؤثر^(١).

ولنا أن نقول بعدم المجانسة ، فإن ذاته لا كالذوات وصفاته لا كالصفات ، ولا عبرة بمن يقول : إن إرادة من جنس آخر هي شيء غير مفهوم ولا متصور ، فإن وجوده تعالى مخالف للوجود الممكن من حيث الوجوب والاستمرار أزلاً وأبداً ولا مثيل لذلك في الشاهد ، ومع ذلك فإن العقل يتصوره بل يثبت بالدلائل المختلفة^(٢) . وهذا الجواب الأخير هو الجواب الصحيح المثق مع النزعة التنزيهية عند الآمدى ، أما الأول فينطوى على نوع من المماثلة بين الغائب والشاهد ، وليت الآمدى تخلص من الروح الجدلية التي تدعوه إلى تشقيق الاحتمالات وتكثير الحجج دون موجب أو جدوى ، واقتصر على الجواب الحاسم القائم على عدم المجانسة .

ثم يعرض الآمدى لبعض التساؤلات الأخرى ، مثل : لماذا لا تكون الإرادة عبارة عن سلب الكراهية والإجبار كما قالت الفلاسفة ؟ ويجيب : لأن السلب عدم وليس بكمال حقيقى ، وهو جواب مشتق من قاعدة الكمال التي سبق الحديث عنها .

ومثل : لماذا لا تكون الإرادة قائمة لا في محل كما قال بعض المعتزلة ؟ ويجيب الآمدى بأن مثل هذه الإرادة إن كانت حادثة فسيفضى الأمر إلى التسلسل وأن يكون مريدا بإرادة ليست في ذاته ، وكلاهما باطل ، وإن كانت قديمة بقى المحذور الآخر وهو تعدد القدماء^(٣) ، وهذا قريب مما لجده عند الغزالي والشهرستاني^(٤).

هـ- صعوبات القول بالإرادة القديمة الشاملة :

هناك صعوبات يثيرها القول بقدوم الإرادة وعمومها ، يأتي بعضها من الوسط الفلسفى

(١) راجع ما سبق في الأحكام العامة للصفات .

(٢) انظر : هذا الجواب بشقيه في ص ٥٥ ، ٥٦ من غاية المرام . (٣) انظر : ص ٥٦ من غاية المرام .

(٤) انظر : الاقتصاد ٦٣ ونهاية الأقدام ٢١٥ - ٢١٦ .

والبعض الآخر من المتكلمين :

١- فمن الصعوبات التي يثيرها الفلاسفة قولهم^(١) : إذا كان المخصص قديماً فنسبة الأوقات والأحوال إليه واحدة ، فما الذي رجح وقتنا على وقت أو حالاً على حال ؟ وهو سؤال خطير ينشأ عن تمسك الأشاعرة بقديم الإرادة وبحدوث المراتب في نفس الوقت ، وهما أمران يصعب الجمع بينهما في أكثر العقول ، كما لا حظ ذلك ابن رشد^(٢) .

ويتصل هذا الاعتراض بمسألة العلة التامة التي سيعرض لها الآمدى في حدوث العالم وهو يتشبه في الإجابة عنه - هنا وهناك - بمفهوم الإرادة عند الأشاعرة وأنها عبارة عما يتأتى به التخصيص لا ما يلزمه التخصيص . وإذا فليس قدم الإرادة مستلزماً بالضرورة قدم المخصص بها . والسؤال خطأ من أساسه ؛ لأن من يقول : لم كانت الإرادة مخصصة كمن يقول لم كانت الإرادة إرادة أو الإنسان إنساناً ؟ وهو غير مقبول^(٣) .

وهذا الرد يتفق مع روح المذهب الأشعرى في تصويره للإرادة الإلهية اختياراً مطلقاً لا يخضع لغائية أو حكمة أو مرجع من خارج تلك الإرادة نفسها . وقد نجد أصل هذا الرد عند الشيخ الأشعرى نفسه^(٤) ، وهو موجود لدى أكثر أتباعه^(٥) .

ويذكر بعض الباحثين أن مثل هذا الجواب قد ظهر في اللاهوت المسيحي منذ القرن الرابع الميلادي عند القديس أوغسطين ويوحنا النحوى بعده^(٦) .

وأياً ما كان الأمر فهو جواب غير حاسم ويشبه أن يكون هروباً من المشكلة ، وقد انتقده ابن رشد كما ذكرته آنفاً وابن تيمية أيضاً^(٧) . ويبدو أن الآمدى يحس بأن جوابه غير حاسم ، فليجأ إلى إلزام الفلاسفة بمثل هذا الإشكال في قولهم بقديم المؤثر وتراخي أثره ، حيث أسندوا كل ما يحدث ويتجدد في هذا العالم إلى الإرادات النفسية القديمة

(١) انظر: النجاة لابن سينا ص ٢٥٢

(٢) انظر: مناهج الأدلة ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ومقدمته ص ١٤ ، ١٥ ، ٦١ ، ٦٢

(٣) انظر: ص ٦٠ من غاية المرام . (٤) انظر: اللمع ص ٣٧ ، ٤١

(٥) انظر: مثلاً نهاية الأقدام ٤٠ ، ٤١ والاربعين للرازي ص ٥٣ والمحصل له ص ٩١ - ٩٧ والاقتصاد

للغزالي ص ٦٤ والابكار ٤٧/١ ب (٦) انظر حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٧) انظر: ما سيأتى في قدم العالم وحدوثه ، والموافقة ٢١٥/١ ، ٢١٦ .

للأجرام الفلكية ، ولم يلزم من قدمها قدم مفعولاتها^(١) .

٢- وصعوبة أخرى يثيرها الفلاسفة أيضاً : لو صح تفسيركم للإرادة لكان البارئ - تعالى - قاصداً لمفعولاته ومراداته طالبا لها، وهذا يتضمن أنه متكامل بفعلها مستفيد به شرفاً^(٢) . ويجيب الآمدى بأن ذلك إنما يلزم القائلين بالغرض الموجبين للصالح والأصلح على الله، أما نحن فنقول إنه تعالى ويتقدس عن الأغراض التي إن وجدت فهي عائدة إلى المفعول المرجح لا إلى الفاعل المرجح^(٣) .

ثم يحاول إلزام الفلاسفة أيضاً بقولهم : إن الأنفس الفلكية هي المخصصة للحركات الدورية بإرادتها ومعنى ذلك أن يتوقف كمالها على حصول معلولها أى أن يتوقف كمال الأشرف على المشروف . ويضيف أنه إلزام « لاخلاص لهم منه »^(٤) .

٣- ومن الصعوبات التي يثيرها المعتزلة قولهم : لو كانت الإرادة صفة نفسية لما تعلق ببعض الإرادات دون البعض، وهو مبنى على رأيهم في أن الإنسان يريد لأفعال نفسه وأن الله لا يريد الشرور ولا الظلم ولا المعاصي^(٥) .

ويسارع الآمدى إلى معارضتهم بمثل حججهم : ونحن نقول لكم إن القدرة صفة نفسية قديمة عندكم، ومع ذلك فقد زعمتم أنها لا تتعلق بأفعال العباد . فهذا السهم إنما يصيبكم أنتم، أما نحن فنقول بأن كل كائن ومحدث فهو بإرادة الله - تعالى - وقدرته، ولو حدث شيء بدون إرادته لكان - سبحانه - أنقص ممن تعلق به إرادته من المختارين . أما القول بأن يريد الشر شرير ومريد الظلم ظالم فسبيل الرد عليه : أن إرادة الله - تعالى - إنما تتعلق بالأشياء من حيث وجودها بدلاً من عدمها، وهي لا توصف من هذه الناحية بالشرية ، بل إن الشر نفسه ليس وصفاً ذاتياً للأشياء ، ولا هو أمر وجودي ، بل هو معنى نسبي وأمر إضافي . ثم لندع أفعال العباد جانباً ، فما قولكم في الزلازل والكوارث الكونية ؟

(١) انظر : ص ٦٣ من غاية المرام ، والأبكار ١/ ٤٧ ب .

(٢) انظر الإشارات والتنبيهات بشرح الطوسي ٣/ ٥٥٤ - ٥٥٩

(٣) انظر ص ٦٣ من غاية المرام .

(٤) انظر ص ٦٤ من غاية المرام ، والأبكار ١/ ١٦٢ ب .

(٥) انظر ص ٦٥ من غاية المرام ، والأبكار ١/ ١٦٨ ب ومناهج الأدلة ص ٥٦ .

ألستم تنسبونها إلى الخالق وتحاولون التماس الحكمة من ورائها ؟ فما الفرق بين الأمرين ؟ على أنكم فى هذه المسألة تجرون على قياس الغائب على الشاهد ، وهو غير مقبول ؛ لأن الواحد منا إنما يوصف بما سبق لأنه يخالف العرف أو المصلحة أو الشريعة وكل ذلك غير متحقق بالنسبة إليه تعالى^(١) . وفى هذا الرد أفكار أشعرية وفلسفية واضحة ، وهو قريب مما نجده عند ابن سينا والغزالي وابن رشد^(٢) وابن عربى أيضا^(٣) .

ثم يعرض لتمسك المعتزلة ببعض النصوص من نحو قوله تعالى : ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾^(٤) وقوله سبحانه : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾^(٥) قائلا إنها ظواهر نقلية « لا يسوغ التمسك بها فى مسائل الأصول »^(٦) ثم يفرق بين الأمر والإرادة أو بين التكليف والخلق ، فالأول خاص بالحسن والمحبوب والمرضى والثانى عام لكل شئ يوجد . وعلى هذه القاعدة يمكن فهم هذه النصوص دون تعارض^(٧) ، وهى فكرة قيمة لجدها عند ابن تيمية بشكل واضح فيما يسميه الإرادة القدريّة والإرادة الشرعية ، وإن كان هذا الأخير ينسبها إلى الجنيد^(٨) .

٤- أما قول المعتزلة : إن الإرادة السابقة على المراد لا تكون إلا عزمًا وهو يتضمن سبق الفكر والتردد ، فإن الآمدى يراه تحكما ؛ فإن الإرادة هى تخصيص الممكنات ، وذلك لا يستلزم التردد الذى هو نقص لا ينبغى أن ينسب إلى الله - تعالى - على أن هذا التردد إن كان لازما فى إرادة الإنسان « فإنه غير لازم فى حق الغائب كما سلف »^(٩) .

و - وحدة الإرادة :

ثم يعرض الآمدى لبيان وحدة الإرادة وعدم تعددها فى ذاتها بتعدد متعلقاتها من

(١) انظر ص ٦٦ من غاية المرام .

(٢) انظر : الإشارات ٧٢٩/٣ - ٧٤٦ والنجاة ٢٨٤ - ٢٩٠ والمقصد الاسنى ص ٣٦ ومناهج الأدلة -

المقدمة ص ٦١ (٣) انظر : الفتوحات المكية ٤٦/١ ، ٤٧ .

(٤) جزء من الآية ٣١ من سورة غافر . (٥) جزء من الآية ٧ من سورة الزمر .

(٦) ٦٩ من غاية المرام . (٧) انظر : الأبهكار ١٦٦ - ١٦٧ .

(٨) انظر : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٩) غاية المرام ص ٦٩ .

المرادات المختلفة كما زعم البعض^(١)؛ فإن التعدد فى المتعلق لا يعنى تكثر المتعلق أو تعدده ، وذلك على نحو تعلق الشمس بما قابلها واستضاء بها ، فإنه وإن كان متعددا لا يوجب تعددها فى نفسها . « وهذا هو الأقرب الى الإنصاف والأبعد عن الاعتساف ، من جهة أن العقل قد دل على وجود أصل الإرادة فالقول بنفيها تقصير والقول بتكثرها إفراط ، وكلاهما خارج عن حوزة الاحتياط » .^(٢) فضلا عن أنه مما لم يشهد له دليل عقلى ولا نص شرعى .

ويفيض الآمدى فى بيان وحدة الإرادة ، ويبدو أنها مسألة هامة منذ نشأة المذهب الأشعرى فابن تيمية ، الذى يميل إلى تجدد الإرادات مع قدمها من حيث الجنس^(٣) ، يقول مستنكرا عن ابن كلاب والأشعرى : إنهما أثبتا الصفات ، مع القول بأن كلا منها واحدة لا تعدد فيها ، فإرادة واحدة وعلم واحد الخ وأنهما - مع آخرين - يقولان بأن « جميع الحادثات صادرة عن هذه الإرادة الواحدة العين المفردة . . التى ترجح أحد المتماثلين لا المرجح »^(٤) .

ز- تعقيب :

رأينا كيف يتمسك الآمدى - والأشاعرة جميعا - بتقديم الإرادة وشمولها ونفوذها فى كل الحوادث وهو موقف لا يخص الأشاعرة وحدهم ، بل يشاركهم فيه الماتريدية^(٥) والحنابلة^(٦) وأهل الحديث والسنة^(٧) والصوفية^(٨) ، وكثير من الزيدية^(٩) ، وابن رشد من الفلاسفة وإن كان يوصى بعدم الإلحاح على قدمها للمعنى الذى سلفت الإشارة إليه^(١٠) . أى أنه موقف جمهور المسلمين وهو الذى تعبر عنه الكلمة الماثورة : « ما شاء الله كان » . هذا يظهر أن ما اختاره المعتزلة ، ومن تأثر بهم ، من القول بعدم نفوذ الإرادة

(١) انظر : الاحتجاج بالقدر ص ٥٩ ، ٦٠ . (٢) غاية المرام ٦٣ .

(٣) الموافقة ١/ ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٢٥١ / ٩٣ - ١١٧ . (٤) الاحتجاج بالقدر ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٥) انظر : بحر الكلام ص ١٥ ، ١٦ .

(٦) انظر : اللعة لابن قدامة ص ٢٠ ، ٢١ و بحر الكلام ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٧) انظر : شرح الطحاوية ص ٥٣ ، ٤٥ .

(٨) انظر : التعرف ص ٣٥ ، ٣٦ والرسالة للقشيري ص ٧ .

(٩) انظر : إيثار الحق ص ٢٩١ ، ٢٩٣ .

(١٠) انظر : مناهج الأدلة ص ١٦٢ ومقدمته ص ٦١ ، ٦٢ .

الإلهية أو عدم شمولها لكل ما يقع فى العالم ، فالله - تعالى - لا يريد كفر الكافر بل أراد منه الإيمان ، وكفره يقع على خلاف مراده تعالى ، وأن هذا ليس نقصا بل النقص أن يريد الشر والمعاصى ويخلقهما .

- هذا الموقف الاعتزالى يبدو نشازا فى الوسط الإسلامى ، ولعله هو الذى حمل الأشاعرة على الإلحاح على فكرة عموم الإرادة وأنه - تعالى - مرید للخير والشر جميعا ، وأنه خالق للشرور كما هو خالق للخيرات وأنه أيضاً غير مقيد فى فعله بشريعة ولا غرض ، بل صرحوا بأن ليس لأفعاله حكمة من أجل تأكيد المعنى المشار إليه أنفاً .

وكلا الموقفين لا يخلو من تطرف ، وكثيراً ما يخلق التطرف الخلاف دون مبرر ، وقد لاحظ استاذنا الدكتور محمود قاسم أن خلاف المتكلمين حول هذه المسألة يشبه أن يكون لفظياً ، بدليل أن ابن رشد استطاع أن يقضى على هذا التعارض الموهوم عندما تمكّن من حل مشكلة وجود الشر فى العالم ^(١) . ولقد تعرض ابن الوزير اليمانى لهذه المسألة فقرر أن كلا الطرفين عدل موقفه منها حتى غدت خلافاً لفظياً : « وذلك أن ظواهر عبارات المعتزلة والأشاعرة فى غاية المنافرة ، وتحقيق مذاهبهم يقضى باجتماعهم على أن الله - تعالى - قادر على هداية من يشاء باللفظ واليسير ، وعلى أن الله - تعالى - لا يريد المعاصى والقبائح . وهذا عجيب لا يكاد أحد يصدق به » ^(٢) . ثم يوضح هذا التلاقى باتجاه الأشاعرة إلى أن الشر ليس بوجود حقيقى ، وهو ما سبق بيانه عند الآمدى ، وإن كان هو ينقله عن نهاية الأقدام للشهرستانى ^(٣) . كما أن المعتزلة عدلوا موقفهم الخاص بعدم قدرته - تعالى - على هداية سائر المكلفين ، فسلموا بقدرته على هداية جميع العصاة بتغيير بنيتهم التى لا تصلح لغير الكفر والمعاصى إلى بنية أخرى . ثم يقول : « وإذا فالخلاف بينهم وبين غيرهم على هذه المسألة لفظى . ومحافظتهم على ذلك مجرد لجأ مع الخصوم وزيادة فى المراء المذموم » ^(٤) .

وهذه نظرة دقيقة تفصح عن روح بناءة ، وكم فى الخلافات الكلامية من مسائل يمكن الاتفاق حولها كهذه المسألة لولا الخضوع للتقليد ونوازع الجدل والخصام .

(١) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٦٠ ، ٦١ . (٢) إيثار الحق على الخلق ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) نفس المرجع والصفحة . (٤) نفس المرجع ، ص ٢٩٢ .

٢- صفة العلم

أ- الآراء حولها :

يبدأ الآمدى - كعادته - ، بعرض آراء العلماء حول هذه الصفة :

(أ) فمذهب أهل الحق أن الله - تعالى - تعالى عالم بعلم واحد ، قائم بذاته ، قديم أزلى ، متعلق بجميع المتعلقات . ثم يذكر أنه خالفهم فى ذلك طوائف من الفلاسفة والمتكلمين :

(ب) فاما الفلاسفة فيذكر أنهم ثلاث فرق :

١- من أنكروا علمه - تعالى - بذاته وبغيره . وينطبق كلامه هذا على فلاسفة الأفلاطونية المحدثة الذين غلّوا فى تأكيد وحدة المبدأ الأول حتى نفوا عنه العلم بأى شىء ولو بذاته نفسها^(١) . وقد أشار الجوينى فى « الشامل » إلى هذه الطائفة من الفلاسفة ، ثم قال : (وإليه مال بعض الباطنية)^(٢) ، وأحسبه يقصد الإسماعيلية وقد مر بنا موقفهم من الصفات بعامة ، ورأى الآمدى فى تأثرهم بالفلسفة^(٣) .

٢- ومن أجازوا علمه بذاته دون غيره ، وينطبق هذا على ما ينسب لأرسطو وأتباعه^(٤) .

٣- أما الفرقة الأخيرة فقالت : إنه يعلم ذاته وغيره ، لكن علمه لا يتعلق بالجزئيات إلا على نحو كلى^(٥) . ويضيف الآمدى فى الأبهكار بعد ذكر هذا رأى الأخير : « وهو ما ينصره أبو على بن سينا »^(٦) . وقد ذكر الرازى فى (الأربعين) هذه الآراء الثلاثة للفلاسفة^(٧) ، بينما اقتصر الشهر ستانى فى نهاية الأقدام على الرايين الأخيرين^(٨) .

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم -- ط ٤ - ص ٢٩٠ .

(٢) الشامل ١/ ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) انظر : الأبهكار ٢/ ٢٥٠ ب ، ١٢٥١ ، ص ١٤-١٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٤ - ٣٢٦ ، ٤١٨ من هذه الدراسة .

(٤) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ١٤٥ ، ١٤٨ والكندى وفلسفته ص ٨٣ وابن رشد وفلسفته

الدينية ص ١٢٤ . (٥) انظر غاية المرام ص ٧٧ .

(٦) الأبهكار ١/ ٧٢ ب وقارن بالإشارات والتنبيهات ٣/ ٧٠٩ - ٧٢٨ .

(٧) الأربعين ١٣٦ - ١٣٩ . (٨) انظر : نهاية الأقدام ٢١٥ .

(ج) ثم يذكر الآمدى أقوال المخالفين من المتكلمين :

١- فالمعتزلة قائلون بالعالمية دون العلمية ، ويقتصر على هذا فى (غاية المرام)^(١) ، ولكنه فى (الأبيكار) يفصل مواقفهم^(٢) ؛ فالعلاف يقول : « إن الله عالم بعلم هو ذاته »^(٣) . وضرار بن عمرو يذهب إلى أن « معنى كونه عالماً أنه ليس بجاهل »^(٤) ، والجبائبان قالاً بالعالمية ، ولكن عند الأب : هو عالم بذاته دون علة أو حال ، وعند ابنه أبى هاشم أنه عالم بذاته ، أى ذو حالة زائدة لا توصف بوجود ولا عدم^(٥) . وأما أبو الحسين البصرى فاتفق مع هشام بن الحكم فى قوله : إن علمه بالكليات أزلى وبالجزئيات متجدد ، وقد قال الرازى عن مذهب أبى الحسين « إنه لا يتمشى إلا بالتزام هذا المذهب » أى مذهب هشام^(٦) ، كما قال عنه الشهرستاني : « قد مال إلى مذهب هشام بعض الميل »^(٧) . ثم يشير الآمدى الى من قالوا : إنه - تعالى - لا يعلم ما لانهاية له من المعلومات ، بل معلوماته متناهية دون أن يعينهم . وقد نُسب هذا القول إلى العلاف وجهم بن صفوان قبله^(٨) .

٢- والجهمية قالوا : إنه عالم بعلم لا فى محل ، وهو مع ذلك متجدد بتجدد الحوادث متعدد بتعدد الكائنات^(٩) . وهذا تصوير دقيق لما يُحكى عن جهم بن صفوان^(١٠) الذى كثيراً ما اتهم بإنكار العلم الإلهى .

ب- الاستدلال عليها :

١- يبدأ الآمدى بعرض استدلال الفلاسفة الإسلاميين على هذه الصفة ، و خلاصته : إن طبيعة الوجود الإلهى عقلية محضة ، فلا بد له من أن يعلم ذاته ، وأن تكون حقيقته

(١) انظر غاية المرام ، ص ٧٦ . (٢) انظر : الأبيكار ١/ ٧٢ ب ، ٧٣ .

(٣) هذا ما نقله عنه الأشعرى فى المقالات ٢/ ١٥٧ ، وانظر عنه نشأة الفكر للدكتور النشار ١/ ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٤) انظر : مقالات الإسلاميين ٢/ ١٥٩ ، ونشأة الفكر ٢٢٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤٥٨ .

(٥) انظر : الأبيكار ١/ ١١٧٣ ونشأة الفكر ١/ ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(٦) انظر : الأربعين ص ١٤١ .

(٧) انظر : نهاية الأقدام ٢٢١ ، وانظر أيضاً الصفحات ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٨) انظر : مقالات الإسلاميين ٢/ ١٥٨ ، والموافقة لابن تيمية ٢/ ١٧٣ ، ونشأة الفكر ١/ ٥١١ - ٥١٥ .

(٩) انظر : غاية المرام ل ١٣٥ .

(١٠) انظر : مقالات الإسلاميين ٢/ ١٦٤ ونهاية الأقدام ٢١٥ ، ٢١٧ ونشأة الفكر ١/ ٣٣٦ ، ٣٣٩ .

حاصلة له ؛ لأن الحائل دون العلم فى نفوس الكائنات الأخرى إنما هو حلولها فى المادة أو تعلُّقها بها ، وإذا علم ذاته فإنه يعلم غيره من الكائنات الأخرى من حيث هو علة لها ومبدأ (١).

ويشير الآمدى إلى سر اختيارهم لهذا الدليل - فيما يراه هو - بأنهم لما لم يستطيعوا الاستناد إلى الدليل القائم على ثبوت صفة الإرادة لله - وهو الدليل الذى يفضله هو والراى قبله - لنفيهم القصد عن الله وردهم الإرادة إلى مجرد العلم وعدم الغفلة ، ولا الاستناد إلى الدليل القائم على الإحكام والإتقان فى العالم ؛ لأنهم لو أخذوا به لالتزموا علمه - تعالى - بالجزئيات ، وهو ما لا يقولون به ، ومن ثم عدلوا إلى الدليل المذكور (٢).

ثم يتصدى الآمدى لنقده من عدة وجوه ، أبرزها :

- أ- أنه يبنى على تصورهم للذات الإلهية وأنها عقل محض ، وهذا غير مسلم لهم .
- ب- أن هذا الدليل قد يفيد إمكان علمه - تعالى - بذاته ، ولكنه لا يفيد وجوب ذلك ، فالشئ لا يتحقق بمجرد زوال المانع من وجوده ؛ بل بوجود المقتضى له أيضا .
- ج- أنه إن صح هذا الاستدلال فهو يدل على العلم مطلقا ، فلا وجه لقصره على الكليات دون الجزئيات (٣).

٢- ثم يذكر الآمدى بعد ذلك دليله المفضل ، وخلاصته أن الله تعالى فاعل لكل شئ بالقصد والاختيار ، وهذا يستلزم بالضرورة الإحاطة بما يقصد إليه ويخلقه وإلا لما أمكن له تمييزه عما سواه ، أو تخصيصه ببعض الأمور دون بعض ، ومن كان هذا شأنه فى الخلق لزم أن يكون عالما بكل ما يخلق (٤) ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (٥).

٣- ثم يذكر الآمدى الدليل القائم على فكرة الإتقان والإحكام فى الكون مما يوحى

(١) غاية المرام ل ١٣٥ ، والابكار ١/ ١٧٣ ، ب . (٢) انظر غاية المرام ص ٧٨ .

(٣) السابق : ص ٧٩ . (٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) سورة الملك : ١٤ .

أن خالقه قادر عالم فسجد الإيجاد قد لا يستلزم العلم لكن إيجاد المحكمات المتقنات يستلزم علم الصانع الموجد .

٤- والدليل المعتمد على فكرة الكمال ، فإنه لو لم يكن -تعالى- متصفا بالعلم لكان أنقص ممن اتصف بها من مخلوقاته وهو محال (١).

فأما دليل الإتيان والإحكام فإنه رغم قوته واستناد الكثير من المتكلمين وغيرهم إليه (٢) - ينتقده من وجوه :

أ- أنه يرتبط بفكرة الحكمة والغائية ، وهي غير مسلمة عند الأشاعرة فكيف يستدلون به (٣) ؟ وهذا نقد له ما يبرره .

ب- ثم يشكك في فكرة الإحكام نفسها بأنه ربما رد البعض ما في الكون من ذلك إلى الصدفة كما يقوله الطبيعيون (٤) . وهذا نقد ما كان ينبغي له أن يلجأ إليه وهو الذي يقول بالإحكام في الكون ويرى أن دلالاته على الفاعل له ضرورة كما سبق في الاستدلال على وجود الله -تعالى- .

ج - أن دليل الإحكام يقوم على ضرب من المماثلة بين الغيب والشهادة ، فالبناء المحكم هنا لابد له من بان عالم بصنعيته ، ولكن قد يختلف حكم الغائب عن الشاهد . وحتى لو سلم هذا فإنه لا تتم دلالاته في الشاهد إلا إذا راعينا أن بانيه متصف بالقصد والاختيار ، لكي يترتب على ذلك أنه متصف بالعلم ، ومعنى ذلك أنه محتاج بدوره إلى دليل آخر (٥) ، أي إلى دليله المختار المعتمد على ثبوت الإرادة .

وقد سبق للرازي أن انتقد دليل الإحكام من تلك الوجوه أيضا (٦) ، ولعل الآمدى متأثر به في إعراضه عن هذا الدليل وإيثاره لدليل القصد والإرادة ، فضلا عن تطرفه في رفض قياس الغائب على الشاهد الذي يتصل بهذا الدليل ، ويبدو أن التشكيك في دليل

(١) انظر ص ٧٨ من غاية المرام . والأبكار ١/ ٧٤ ب وما بعدها .

(٢) انظر: اللمع للأشعري ٢٤ ، ٢٥ وشرح الأصول الخمسة ص ١٥٦ والتمهيد ٤٧ والاقتصاد ٥٩ ، والأربعين

للازلي ١٣٣ ومناهج الأدلة لابن رشد ص ١٦٠ ، ومقدمته لاستاذنا الدكتور قاسم ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) انظر غاية المرام ص ٧٩ ، والأبكار ١٧٤ ، ب . (٤) انظر: الأبكار ١/ ١٧٥ .

(٥) انظر: ١٧٥ ، ب من الأبكار . (٦) انظر: المآخذ ل ١٤٠ ، ب وفخر الدين الرازي وآراؤه ص ١٦١ .

الإحكام سابق على الرازى والآمدى كليهما ، فإننا نجد القاضى عبد الجبار يعرض لما وجه إلى هذا الدليل من اعتراضات ، وأهمها التفرقة بين حال الصانع فى الغائب والصانع فى الشاهد ، ويحاول الإجابة عنه متمسكاً بأن « صحة الفعل المحكم منه دلالة كونه عالماً فى الشاهد ، وإذا ثبت فى الشاهد ثبت فى الغائب ؛ لأن طرق الأدلة لا تختلف شاهداً ولا غائباً » (١) .

أما دليل الكمال فهو فى نظره صالح لإثبات هذه القضية (٢) ، ولكنه يؤثر فيها دليل القصد والاختيار . ومن الواجب أن نشير هنا إلى أنه قد خلّص هذا الدليل الأخير من أكبر عيوبه عند الرازى ، وهو ربطه بإياه بفكرتى التصور والتصديق الإنسانيتين (٣) . كما أنه تنبه إلى أنه يتضمن الدلالة على العلم وعلى شموله للكيات والجزئيات فى نفس الوقت (٤) ، وإن كان يعترف بأن دليل الإتيان يشاركه هذه الميزة كما أسلفناه فى نقده لدليل الفلاسفة .

وأخيراً فإن الآمدى يغفل تماماً الاستدلال الأشعرى القائم على أن من لم يتصف بالعلم اتصف بضده وهو الجهل ، وذلك محال على الله ، ولعله اكتفى بنقده له فى دراسته للصفات إجمالاً ، كما سلف بيانه .

ج - العلم معنى وجودى قديم :

والعلم هو الإحاطة بالمعلوم وانكشافه عند العالم ، ولكن كيف ذلك ؟ هل هو بحصول صورة المعلوم وانطباعها فى نفس العالم كما يقوله بعض الفلاسفة (٥) ؟ أو هو مجرد نسبة وإضافة بين العالم والمعلوم ؟

لا يقبل الآمدى هذين التفسيرين ويستدل على بطلانهما (٦) مؤثراً أن يكون العلم صفة حقيقية للعالم ذات نسبة وتعلق بالمعلوم ، فليست النسبة والإضافة هى حقيقة العلم وجوهره بل هو معنى إيجابى ، وإن كان له نسبة إلى المعلوم ، وهو ما يُعرف لدى المتكلمين

(١) شرح الأصول الخمسة ١٥٨ ، ١٥٩ . (٢) انظر غاية المرام ص ٧٨ .

(٣) انظر : فخر الدين الرازى واراؤه ص ٣٠٨ والمآخذ ل ٤٠ ب .

(٤) انظر : الأبهكار ١/ ٧٥ ب . (٥) انظر : المآخذ ل ٣٩ ب .

(٦) انظر : الأبهكار ١/ ٧٩ ب والمآخذ ل ٣٩ ب ، ١٤٠ ، غاية المرام ص ٨٥ .

(بالتعلق)، ومن الممكن أن تكون الصفة قديمة وبعض تعلقاتها حادثة، كما هو الشأن في بعض الصفات الأخرى^(١).

ويناقش الآمدى من زعم من المتكلمين أن العلم معنى عدمى بمثل ما سبق في الإرادة^(٢). ثم يعرض لوحدة العلم في ذاته مع عدم تناهيه أو تناهى متعلقاته، والمقصود بعدم تناهيه أنه إحاطة شاملة وانكشاف سابق لكل شىء على الإطلاق، والمقصود بعدم تناهى المتعلقات أنها غير متناهية إمكانا، والعلم صالح للتعلق بها جميعا، وإن كان ما تحقق من التعلقات بالفعل متناهيا^(٣). ويستعين الآمدى هنا بمثال الشمس كما سبق في الإرادة فإنها واحدة، وإن كان ما تعلقت به أشعتها واستضاء بها متعددة، ولم يلزم من تعدده تعددها، فهذا مثال من الواقع.

كما يستعين بمثال آخر من الفلسفة إذ يقول: « وهذا على نحو ما يقوله الخصم في العقل الفعال لنفوسنا، فإنه متحد وإن كانت متعلقاته متكررة ومتغيرة »^(٤). وهذا ما نجده عند الإمام الغزالي في الاقتصاد^(٥)، والشهرستاني في نهاية الأقدام^(٦). وربما كان هذا هو المقصود من فكرة الاسترسال عند الجويني، التي اتهمه الذهبي من أجلها بما قالته الفلاسفة من إنكار العلم بالجزئيات، وحاول السبكي تفسيرها بنحو ما سبق^(٧).

ثم يعود الآمدى ليؤكد أن العلم معنى وجودى « وهو - مع ذلك - قديم، قائم بذات الرب - تعالى - متعلق بجميع الكائنات، متحد لاكثره فيه، غير متناه بالنظر إلى ذاته ومتعلقاته »^(٨).

والآمدى في تأكيدده على وحدة العلم وقدمه - على هذا النحو - يختلف عن الإمام الرازى الذى تردّد بين موقف الأشاعرة القائلين بالوحدة، وموقف أبى الحسين

(١) انظر: الأبهكار ١/ ١٨٠، وغاية المرام ص ٨٤.

(٢) انظر: غاية المرام ص ٧٩-٨٠، والأبهكار ١/ ٧٥ ب وما بعدها.

(٣) انظر: الأبهكار ١/ ٧٢ ب.

(٤) غاية المرام ل ٣٦ ب، ١٣٧، وانظر: الأبهكار ١/ ٨٢ ب حيث يستشهد بأمثلة أخرى.

(٥) انظر: الاقتصاد ص ٥٩. (٦) انظر: نهاية الأقدام ص ٢٣٥.

(٧) انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٦١ - ٢٧٢.

(٨) غاية المرام ل ٣٥ ب.

البصري القائل بالتعدد كهشام بن الحكم (١).

هذا وقد عرض ابن رشد لمسألة (وحدة العلم الإلهي) فأكد ذلك رغم إحاطته بالمعلومات المتكثرة، واعتمد في بيانه على تفرقته الحاسمة بين عالم الغيب وعالم الشهادة (٢). وقد قال الآمدى أيضا بهذه التفرقة، وقرّر أن العلم القديم غير مشارك للعلم الحادث في حقيقته، ولا ينطبق عليه ما ينطبق على هذا الأخير من الحدود والأوصاف (٣)، واعتمد على هذه التفرقة في حل كثير من المشكلات حول هذه المسألة، وإن لم يصل إلى المدى الذى ذهب إليه ابن رشد فى ذلك، كما سيتبين فى الفقرة التالية .

د- مشكلات حول العلم :

هناك مشكلات حول تصور العلم الإلهي لجمت كلها تقريبا من النظر إليه فى ضوء الاعتبار الإنسانية، وقياس علم الله - تعالى - على علوم المخلوقين . والآمدى يعرض لبعض هذه المشكلات ويتصدى للإجابة عنها، وهى :

(١) لو كان لله - تعالى - علم لوجب أن يكون إما ضروريا أو نظريا . ومعنى ذلك أنه يشبه العلم الحادث فى حقيقته ، وذلك ما لا يجوز على الله - تعالى -، ويشير الآمدى إلى أن المعتزلة هم الذين أثاروا هذه الشبهة (٤).

(٢) علم الله - تعالى - كلى لا يتناول الحوادث الجزئية إلا على نحو كلى ، وإلا لزم التكثر والتعدد فى ذات الله - تعالى - وهو واحد من كل وجه (٥)، وقد سبق أن أشار الآمدى إلى أنه رأى الذى ينصره ابن سينا .

(٣) العلم الإلهي حادث ومتجدد ، ضرورة تجدد موضوعاته ، وإلا لزم من قدم العلم قدم المعلومات ، أو انقلاب العلم جهلا لعدم مطابقته الواقع . وقد ذكر الآمدى أن هذه الشبهة « هى مستند ضلال الجهمية » (٦).

(١) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣١١ . (٢) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣١١ .

(٤) انظر : الأبكار ل ١ / ١٧٧ .

(٦) انظر : غاية المرام ل ٣٦ ب .

(٣) انظر : غاية المرام ص ٨٠ .

(٥) انظر : غاية المرام ص ٨٠ .

١- ويردُ الآمدى على الاعتراض الأول بأن وصف العلم الإلهى بكونه بديهيًا أو نظريًا « إنما ينفع أن لو تبين قبوله لهذا الانقسام وإلا فلا . ومجرد القياس على الشاهد فى ذلك مما لا يفيد كما أسلفناه^(١) » . ولكن إذا كان معنى البديهية فى العلم أن يحصل بلا نظر واستدلال، ولا تصح مفارقتة لصاحبه بحال من الأحوال، فإن الآمدى يرى أن هذا هو الشأن فى علم الله سبحانه ، وإن لم يصح إطلاق هذا الوصف عليه لعدم ورود الشرع به . أما إن عنى بالبديهية غير ذلك من العلوم الحادثة فلا يصح إطلاقه على الله تعالى^(٢) .

ثم يقرر الآمدى قاعدة تصلح للإجابة عن هذا الإشكال وغيره ، وهى المفارقة التامة بين علم الله - سبحانه - وعلوم البشر، فيقول : « والاشتراك بين العلم القديم والحادث إنما يلزم أن لو اشتركا فيما هو أخص صفة لكل واحد منهما أو لأحدهما، وليس كذلك ، بل صفة العلم الربانى وجوب تعلقه بسائر المعلومات، من غير تأخر، على وجه التفصيل . وأخص وصف العلم الحادث جواز تعلقه بالمعلومات لا نفس وقوع التعلق . ولا يخفى إذ ذاك انتفاء الاشتراك بينهما . »^(٣)

ويعتمد الآمدى على هذه التفرقة أيضا فى كتابه (الابهكار)^(٤) غير أنه لم يذكر فيه هذا الوصف الهام « من غير تأخر »، أى أن العلم الإلهى سابق لوجود الأشياء على حين أن علم البشر لاحق لها . وهى فكرة عنى بها ابن رشد من قبل، كما عنى أيضا بتأكيد أن علمه - تعالى - متعلق، ضرورة، بجميع المعلومات على وجه التفصيل^(٥) . وهما فكرتان نجدهما من قبل عند المعتزلة والأشاعرة والماتريدية^(٦)، وإن لم تؤسس عندهم بصورة واضحة على مبدأ التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة كما هو الحال عند الآمدى وابن رشد^(٧) .

غير أن الأمر الذى ينفرد به ابن رشد ولا نجدّه عند المتكلمين ومنهم الآمدى هو ما

(١) غاية المرام ل ٣٦ ب . (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) غاية المرام ل ٣٦ ب . (٤) انظره ل ١٧٧/١ .

(٥) انظر: ابن رشد وفلسفته الدينية ٥٨ - ٦٠ ، ١٢٣ - ١٣٠ ومناهج الأدلة ٥٣ ، ٥٤ ، ونظرية المعرفة عند ابن رشد ١٧٢ - ١٩٧ ، ٢٠١ وما بعدها .

(٦) انظر : الأشعرى أبو الحسن ص ١٦٠ وشرح الأصول الخمسة ١٦٠ وبحر الكلام ص ٤ ، ١٦ ، ١٧ .

(٧) انظر: ابن رشد وفلسفته الدينية ٥٨ - ٦٠ ، ١٢٣ - ١٣٠ .

قرره ابن رشد - فى مجال التفرقة المذكورة - من أن العلم الإلهى سبب فى وجود الأشياء وليس كعلمنا مسببا عنها ، ومن ثم وجب أن يكون شاملا ومحيطا بها وسابقا على وجودها، وأن يكون واحدا فى نفسه غير متكرر بتكررها ولا متجدد بتجدها، وأن يستحيل وصفه بالكلية والجزئية وسائر الاعتبارات الإنسانية التى تنشأ لاحقة له (١). أى أنه استطاع على أساس مبدأ التفرقة ، وخاصة ما يتضمنه من فكرة السببية المشار إليها ، حل جميع المشاكل المتعلقة بالعلم الإلهى . وقد أوضح أستاذنا الدكتور محمود قاسم قيمة هذه الفكرة ، وتأثيرها البالغ على اللاهوت المسيحى واليهودى فى القرون الوسطى (٢). كما أشار إلى أن ابن سينا قد لمح هذه الفكرة من قبل، ولكن فى صورة غير محددة، كما أنه خلط بها مفهوما فيضيا قلل من قيمتها (٣). ويمكن أن نجد مثل هذه اللمحة عند الغزالي أيضا (٤). ولكن أحدا لم يكتشف قيمة هذه الفكرة (العلم الإلهى سبب فى وجود الأشياء) ويعطى دورها فى حل المشاكل المتعلقة بالعلم الإلهى سوى ابن رشد فيما نعلم.

٢- أما الشبهة الخاصة بالكليات والجزئيات ، وهى التى سممت الجو ضد الفلسفة، واستند إليها الغزالي - ضمن ما استند إليه - فى تكفير الفلاسفة الإسلاميين (٥)؛ فإنما نشأت من توهم التكثر والتعدد فى العلم الإلهى بسبب تعدد متعلقاته وتكررها، وقد بين الآمدى وحدة العلم واستحالة تكرره بما أنه سابق على وجود المعلومات المتكررة نفسها ، ومن ثم تنتفى هذه الشبهة القائمة على توهم التجدد والحدوث فى علم الله تعالى . ولعلها هى الأساس البعيد لهذه الشبهة التى نناقشها ، فإن الجزئيات المتجددة حادثة بعد عدم ، فلو قلنا إن العلم يتناولها بوصفها هذا للزم حدوثه وتجده تبعاً لها؛ ومن ثم كان العلم الإلهى كلياً لا جزئياً. ولذا يركز الآمدى فى رده هنا على فكرة سبق العلم للأشياء؛ لأنها هى التى تبطل كلتا الشبهتين المشار إليهما : « السابق هو العلم بأن سيكون والعلم بأن سيكون هو نفس العلم بكونه فى وقت الكون من غير تجدد ولا كثرة . وإنما المتجدد هو

(١) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ٢٠٤ وما بعدها.

(٢) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ٢٠٨ - ٢١٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ١٤٨ ، ١٤٩ وانظر أيضا الإشارات والتنبيهات ٧٠٩/٣ .

(٤) انظر : المقصد الاسنى ص ٥٢ ومعارج القدس ص ١٤٤ .

(٥) انظر : المنقذ من الضلال ص ١١٥ .

نفس المتعلق به . وذلك مما لا يوجب تجدد المتعلق بعد سبق العلم بوقوعه وفرض استمراره إلى ذلك الوقت » .^(١) ويضرب الآمدى لذلك مثالا : « إن من علم بالجزم بأن سيقوم زيد مثلا في الوقت الفلاني فإنه لا يجد نفسه محتاجة إلى علم متجدد بوقوعه في ذلك الوقت إذا انتهى إليه ، وفرضنا بقاء علمه السابق إلى ذلك الوقت »^(٢) . وهى فكرة لمجدها عند الأشاعرة قبل الآمدى وبعده ، وربما استند بعضهم إلى هذا المثال أو قريب منه^(٣) .

ولكن قد يجد المرء فى نفسه فرقا بين العلم السابق حتى لو كان جازما والعلم اللاحق المشاهد . وبشرح الآمدى هذا الفرق بقوله : « وما يجده الإنسان من نفسه من التفرقة بين قبل الكون وبعده ، فإنما هو عائد إلى إدراكات حسية وأمور خارجية عن العلم لم تكن قبل الكون ، أما فى نفس العلم فلا »^(٤) . إن العلم الإلهى أزلى سابق على وجود الأشياء ؛ ومن ثم لا يتجدد معها ، وبالتالي فلا شأن له بالكلية والجزئية والاعتبارات التى ينتزعها العقل الإنسانى من الأشياء فيما بعد ، إنه علم غير زمانى ، ولذا « فهو مع وحدته محيط بالأشياء ومع إحاطته واحد »^(٥) . كما يقول الشهرستانى .

٣- ويشير الآمدى إلى أن هذه الردود السابقة تدفع شبهة الجهمية أيضا ، فما دام العلم سابقا على وجود الأشياء فكيف يتجدد بحدوثها ؟ غير أنه يضيف إلى ذلك أن القول بحدوث العلم يفضى إلى تسلسل العلوم الحادثة وهو محال^(٦) . ثم يلزم القائلين بحدوث العلم بما ذهب إليه بعضهم من أن العلم سابق على المعلوم بشيء يسير - وهو رأى ينسب إلى هشام بن الحكم وغيره^(٧) - فيقول لهم : متى سلمتم بسبقه فمعنى ذلك أنه غير مرتبط بحدوث موضوعه ، ولا فرق عندئذ بين السبق بوقت يسير والسبق بوقت غير مستناه^(٨) . وهو - فى الحق - إلزام قوى ، ويدل من جهة أخرى على إحاطته بمذاهب القوم .

(١) انظر : غاية المرام ص ٨١-٨٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) انظر : الأشعرى أبو الحسن ١٦٠ ، ١٦١ ، ونهاية الأقدام ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ وشرح النسفية ٢٧٥ ،

٢٧٦ وشرح العنصرية ١٠٩ - ١٣٩ .

(٤) انظر : غاية المرام ص ٨٢ .

(٥) نهاية الأقدام ص ٢٣٢ .

(٦) انظر : مقالات الإسلاميين ١٦٤/٢ ، ونهاية الأقدام ٢٢٠ ونشأة الفكر ١/٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٨) انظر : غاية المرام ص ٨٢-٨٣ .

وهكذا نجد أن الآمدى يستند فى علاجه لهذه المشكلات الثلاث على التفرقة بين علم الله وعلم البشر ، التى لجدها عند ابن رشد قبله مع البعد الخاص الذى انفرد به هذا الأخير وهو أن العلم الإلهى سبب فى وجود الأشياء ، أما علوم البشر فمُسَبَّبة عنها كما سبق . فضلا عما يبديه من سماحة وعطف إزاء العوام إذ يوصى بعدم الإلحاح . معهم على قدم العلم وسائر الصفات مع اقتناعه به ، حتى لانعرض عقولهم لازمة الجمع بين قدم الصفات وحدوث متعلقاتها^(١) .

* * *

(١) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٢٧ - ١٣٠ ، ومقدمة مناهج الأدلة ص ٥٤ ، ٥٥ .

٣- صفة القدرة

أ - معناها :

إذا كانت الإرادة هي ما يتأتى به التخصيص والتمييز ، والعلم ما يتأتى به الإحاطة والانكشاف ، فإن القدرة « عبارة عن صفة وجودية من شأنها تأتى الإيجاد والإحداث بها ، على وجه يتصور ممن قامت به الفعل بدلا من الترك ، والترك بدلا عن الفعل .. »^(١) . وتلك هي الصفات الثلاث التي يعنى بها الأشاعرة لتأكيد أبرز خصائص الألوهية في نظرهم ؛ وهي القدرة على الاختراع والإيجاد والانفراد بهما .

ويوضح الأمدى هذا التعريف بقوله : « ليست القدرة عبارة عما يلزمه الإيجاد ، بل ما يتأتى به الإيجاد »^(٢) . وإذن فلا محل للقول بلزوم قدم المقدرات من قدم القدرة . ثم يؤكد أنها معنى وجودى قديم ، قائم بالذات ، متحد لاكثرية فيه ، متعلق بجميع المقدورات ، غير متناه بالنظر إلى ذاته ولا بالنظر إلى متعلقاته . كما سبق بيانه فى الصفتين السابقتين^(٣) .

ومما يلفت النظر فى بيان الأمدى لمعنى القدرة أنه يعرض عن الرأى الذى مال إليه الرازى فى بعض كتبه ؛ إذ فسرهما بقدرته - تعالى - على الفعل فقط ، أما الترك فهو بقاء على العدم فلا يستند إلى الصفة المؤثرة ، مما انتقده عليه بعض الباحثين قائلا : « إن القرآن يدل على أن الله يقدر على الترك ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ فالترك ههنا مقدور لله ، وهو شبيه بالفعل ، بل الترك فعل سلبى^(٤) . » والحق أن القادر هو الذى يفعل إذا شاء ، ويترك إن لم يشأ - كما يقول الإمام الغزالي^(٥) . بل هو الذى إن شاء أن يفعل فعل ، وإن شاء أن يترك ترك - كما يقول ابن الوزير اليماني - مقترحا تعديل الصيغة المشهورة : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » إلى « ما شاء الله كان وما شاء ألا يكون لا يكون » ، مالم يثبت رفعها إلى النبى ﷺ^(٦) .

(١) الأبهكار ٥٨/١ ب . (٢) غاية المرام ١٣٨ ، ب .

(٣) انظر : المرجع السابق نفس الصفحة ، والأبهكار ٥٩/١ ب .

(٤) هو المرحوم الأستاذ صالح الزركان فى بحثه : (فخر الدين الرازى وآراؤه) ص ٣٠٠ .

(٥) انظر : المقصد الاسنى ص ٨٦ ، ومعارج القدس ١٤٦ .

(٦) انظر إثبات الحق على الخلق ص ٢٤٧ .

ب- الاستدلال عليها :

يحيل الآمدى فى غاية المرام ، بشأن إثبات هذه الصفة - على ما أسلفه فى مسألتى « العلم والإرادة » والقدر المشترك بين هاتين المسألتين ، والذي يصلح هنا فى هذه الصفة هو « دليل الكمال » وأعتقد أنه يشير إليه .

١- أما فى « الأبكار » فقد بدأ هذا المبحث بالإشارة إلى استدلال بعض الأصحاب بالنصوص السمعية ، من نحو قوله - تعالى - : ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴾^(١) ، وهو على كل شىء قدير^(٢) . وعقب عليه بقوله : « وبالجملة فطريق الاستدلال فى هذا الباب بالنصوص المذكورة لا يخرج عن الظن والتخمين وهو غير مكفى به فى اليقينيّات »^(٣) . وهو ما يعكس موقفه من الدليل السمعى كما أوضحته فى الباب السابق .

٢- ثم عرض بعد ذلك الدليل العقلى القائم على ثبوت حدوث العالم واحتياجه إلى سبب من خارجه ، أى إلى الفاعل المؤثر وهو الله ، إلا أنه لا يستند إلى مجرد ذاته - تعالى - وإلا للزم قدم العالم ولوازم أخرى باطلة ، فوجب استناده إليها مع صفة أخرى يتأتى بها الإيجاد والإعدام وفقاً للإرادة والعلم وهى القدرة ، ولا بد أن تكون معنى وجوديا قديماً قائماً بالذات لمثل ما سبق بيانه فى الإرادة والعلم^(٤) .

وهذا الدليل لا يختلف عما عرضه فى المآخذ ونسبه إلى جمهور الأصحاب^(٥) ، وإذن فهو مع معارضته للاستناد إلى الدليل السمعى يقلد جمهور أصحابه فى الاستناد إلى هذا الدليل الأخير . ولعل موقفه فى « غاية المرام » حيث يؤثر الاستدلال عليها بدليل الكمال ، أكثر توفيقاً وإقناعاً .

ج- شمول القدرة الإلهية وانفرادها بالتأثير :

يقرر الآمدى أن قدرة الله - تعالى - لا تتعلق إلا بالممكنات إذ الواجب لا يحتاج إلى مؤثر من خارجه والمستحيل لا يقبل الحصول^(٦) ، إما الممكنات كلها فهى مقدورة لله - تعالى - ولا تتحقق إلا بتأثيره وحده .

(١) الآية ٥٨ من سورة الذاريات .

(٢) الآية ١٢٠ من سورة المائدة ، ومثلها كثير فى آيات القرآن الكريم .

(٣) الأبكار ١/ ١٥٩ . (٤) انظر : الأبكار ١/ ٥٨ ب - ٥٩ ب .

(٥) انظر المآخذ ل ٣٨ ، ١٣٩ . (٦) انظر : الأبكار ١/ ١٦١ ب ، غاية المرام ص ٨٧ .

ويعرض الآمدى - فى هذا الصدد - لما يورده الخصوم من اعتراضات على مبدأ عمومية القدرة وشمولها لكل الممكنات . وأهم هذه الاعتراضات ما يأتى ، فيما يبدو ، من جانب المعتزلة ، إذ يقولون :

(١) كيف تدعون أن كل ممكن مقدور لله - تعالى - ألا يلزم من هذا أن تكون أفعال العباد والحيوانات الاختيارية المقدورة لهم مقدورة له أيضاً ، أى أن يقع مقدور بين قادرين وأنتم لا تسلمون به ؟ (١) .

(ب) إنا نشاهد أن أكثر الموجودات يتولد بعضها من بعض ، كتولد حركة الخاتم عند حركة اليد ، وكذا كل متحرك بحركة ما هو قائم به ملازم له (٢) .

ويرجى الآمدى الجواب عن المسألة الأولى إلى حين تعرضه لأفعال العباد (٣) . أما الثانية فيتصدى لها متسائلاً عن معنى « التولد » هل يريدون به أن حركة الخاتم كامنة فى اليد وتظهر عند حركتها كما يظهر الجنين فى بطن أمه ؟ .

إن أرادوا هذا وهو المعنى الظاهر للفظ التولد ، فالمشاهدة لا تدل عليه كما زعموا ، وكل ما نشاهده هو مجرد التلازم بين الحركتين ، وهذا لا يعتبر فى الاصطلاح اللغوى تولداً ، على أنه من الجائز أن يتلازم أمران وكلاهما مخلوق لشيء ثالث كعلمنا وحياتنا ، فهما متلازمان تلازم الشرط والمشروط . أو كالنار والتسخين وهما متلازمان تلازماً عادياً ، ومع ذلك فكل أولئك مخلوق لله - عز وجل (٤) .

أما ادعاؤهم أنها لو كانت مستندة لقدرة الله وليست تابعة لحركة اليد لوجدت عند سكونها فهو خطأ ؛ لأنه كما تتوقف حركة الخاتم على حركة اليد ، ولا توجد إلا معها ، فكذلك تتوقف حركة اليد على حركة الخاتم ولا توجد إلا معها . « فعلى هذا ليس جعل حركة اليد علة لحركة الخاتم لتوقفها عليها بأولى من العكس ، بل الواجب أنهما معلولان لعلة واحدة ، وإن قدر تلازمهما فى الوجود » (٥) .

(٢) انظر : غاية المرام ص ٨٦ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(١) انظر : غاية المرام ص ٨٥ .

(٣) انظر ما سياتى عنها فى الفصل الأخير .

(٥) غاية المرام ل ٣٨ ب ، ١٣٩ .

ويتفق الآمدى فى رده هذا مع من سبقوه من شيوخ المذهب^(١)، وهدف الجميع هو تأكيد شمول القدرة الإلهية وانفرداها بالتأثير، وهو ما صرح به الشهرستاني بعد عرضه لرأى الأشاعرة فى القدرة الحادثة: «والسر الذى دفعنا إلى ذلك عموم تعلق قدرة البارى - سبحانه وتعالى - وقادريته»^(٢). وسنعرض لهذا الموضوع فى مناسبات أخرى من هذه الدراسة.

د- تعلق القدرة بخلاف المعلوم :

يختتم الآمدى بحثه لمسألة القدرة فى «غاية المرام» بالتعرض لمسألة «دقيقة» على حد قوله، وهى: هل يقدر الله - تعالى - على ما علم أنه لا يقع؟ وهو سؤال يرتبط بسؤال آخر: هل يقع التكليف بالمتنع - أو كما يعبر عادة فى كتب الكلام والأصول: هل يقع التكليف بما لا يطاق؟

ويقرر الآمدى فى ذلك قاعدة تصلح أساسا للبت فى هاتين المسألتين، بل فى إنهاء الخلاف حولهما بين الأشاعرة والمعتزلة أيضا. فيقول:

إن ما علم الله عدم وقوعه يشتمل على نوعين من الممتنعات: الممتنع لذاته كاجتماع الضدين، وكون الشيء الواحد فى محلين فى وقت واحد. ومنه ما يمتنع حصوله، لا لذاته، بل لأمـر خارج، ويمثل له بوجود عالم آخر وراء هذا العالم أو قبله. فالأول غير مقدور بلا خلاف. أما الثانى فيمكن وصفه بأنه مقدور، لأن القدرة - من حيث هى قدرة - لا يمتنع تعلقها بما هو - فى نفسه - ممكن، متى قطع النظر عن غيره. والممكن - من حيث هو ممكن - لا ينبو عن تعلق القدرة به، وإذن فإطلاق لفظ المقدور عليه جائز عرفا واصطلاحا.

وأما وصفه بأنه غير مقدور بناء على أنه يلزم منه المحال باعتبار أمر خارج، وهو انقلاب العلم القديم جهلا، والقول بأن القدرة لا تتعلق به، أى أنها لا تخصصه بالوجود الفعلى، فهو أيضا جائز ومقبول، وإن كان مخالفا للإطلاق المعهود؛ «فالمنازعة فيه عندئذ

(١) انظر: الأبيكار ١/ ١٦٣، ب، والتمهيد ٥٩ - ٦١، والإرشاد ٢٣٠ - ٢٣٤، ونهاية الأقدام ٥٥، ٥٦،

(٢) نهاية الأقدام ٨٢، وانظر الأشعرى أبو الحسن: ١٠١ - ١٠٢، والفصل لابن حزم ٥٤/ ٣ وما بعدها.

لا تكون إلا فى إطلاق اللفظ لا فى نفس المعنى»^(١).

وهكذا يفطن الآمدى إلى أن الخلاف حول المسألة - وما يرتبط بها من التكليف بما لا يطاق - إنما هو خلاف لفظى لا حقيقى . وهو يؤكد فكرته هذه فى «الأبكار» إذ عرض لقسمى الممتنع وقرر أن الأول منهما «غير مقدور إجماعاً ، أما الثانى فاختلف فيه : فمذهب أئمتنا وأكثر المعتزلة أنه مقدور خلافاً لعباد ، وحاصل النزاع فى هذه المسألة آيل للعبارة»^(٢).

وقد سبق أن أشرت - فى مسألة الإرادة إلى ما حكاه «ابن الوزير» من رجوع المعتزلة عن قولهم : «إن هداية العصاة أو الكفار غير مقدورة لله - تعالى - وإنهم رجعوا إلى قول أهل السنة فى هذا ، بعد التعسف الشديد فى تأويل القرآن والسنة ، واجتمعت الكلمة فى الحقيقة على أن الله - تعالى - على كل شىء قدير . وما بقى إلا اللجاج فى المراء بين أهل الكلام»^(٣) .

وقد عرض ابن الوزير - أيضاً - لمسألة التكليف بما لا يطاق ورأى أنها والمسألة السابقة «مسألة واحدة وهى المعروفة فى علم الأصول بالمتنوع لغيره لا لذاته ، والتكليف بذلك جائز بالإجماع ولا يسمى محالاً وفاقاً ... وقد بين الحليّ الشيعى المعتزلى فى (شرح مختصر المنتهى) أن الذى جوزه الغزالى هو نفس هذا القدر ، وقد بين ذلك العلامة ابن أبى الحديد فى (شرح نهج البلاغة) . وقد قال السبكي فى (جمع الجوامع) : والحق وقوع المتنوع بالغير لا بالذات ، وتسميتهم لهذا الجنس بالمتنوع من قبيل المجاز»^(٤) ثم يقول ابن الوزير : «قلت بل ذلك جائز عند المعتزلة وجميع المسلمين إلا من زعم أن الله - تعالى - لا يعلم الغيب ، ممن يدعى الإسلام من الغلاة فى نفى القدر»^(٥).

ثم ينقل عن ابن الحاجب أن التكليف بما لا يطاق إلزام ألزم به الأشعري ، ولم يقل به صراحة «ثم تعصب له أصحاب الأشعري على توهم أنه مذهبه ، وقدموه على نصوص كتاب الله - تعالى - ونص رسوله»^(٦).

(٢) الأبكار ١/ ١٦٤ ، ب .

(٤) السابق: ص ٣٦٣ .

(٦) نفس المرجع ص ٣٦٥

(١) انظر : غاية المرام ص ١٣٩ .

(٣) إثبات الحق على الخلق ص ٢٩٣ .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

ولكن إن صح هذا بالنسبة لبعض الأشاعرة ، فإن الآمدى كما رأينا يوضح الموقف ، ويحدد المقصود بقولهم بالتكليف بما لا يطاق ، وبأصل المسألة وهو « كون خلاف المعلوم أزلا ممكنا أو محالا مقدورا أو غير مقدور » .

وينبغي أن نذكر هنا أن الآمدى لم يبتدع القاعدة ، فلها أصل عند شيوخ المذهب منذ الشيخ الأشعرى نفسه^(١) . والجديد عنده هو أنه عمل على رفع الخلاف فى هذه المسألة المتعلقة بالقدرة الإلهية ، وما ترتب عليها بشأن التكليف ، باستخدام هذه القاعدة ، وقد تبعه فى ذلك بعض المتأخرين^(٢) .

(١) انظر اللمع للأشعرى ٩٩ - ١٠٥ ، والتمهيد للباقلانى ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، وأصول الدين للبغدادى ٢١٢ ، ٢١٣ ، ونهاية الأقدام ٤٩٩ .

(٢) انظر هامش ص ٨٧ من غاية المرام .

٤ - صفة الكلام

(١) الخلاف حولها :

لقد طال الخلاف واشتد حول هذه الصفة ، وما يرتبط بها من القول بقدم القرآن أو حدوثه ، وكونه مخلوقا أو غير مخلوق ، والآمدى يلخص الآراء فى ذلك :

١- فأهل الحق ، وهم - فى نظره - الأشاعرة ومن وافقهم ، يقولون بكونه تعالى « متكلمًا بكلام قديم أزلى نفسانى أحدى الذات ، ليس بحروف ولا أصوات ، مغاير للعلم والقدرة والإرادة وغيرها من الصفات » (١) . وهو - أى هذا الكلام القديم نفسه - مع كونه متحد الذات منقسم ، ولكن باعتبار المتعلقات ، كما سيأتى بيانه .

وهكذا يصور الآمدى مذهب الأشاعرة فى إثبات الكلام النفسانى صفة قديمة أزلية قائمة بذات الله ، واعتبار الكلام اللفظى - الذى هو الآيات والصور التى جاء بها جبريل إلى محمد ﷺ وغيره من الرسل - تعبيرا عن هذا المعنى القديم الواحد أو - بالأحرى - متعلقات له حادثة مخلوقة لله تعالى ، وهى مع ذلك معجزة لإحكامها وبلاغتها ولما تدل عليه .

وهذا هو الذى اختاره الأشاعرة بعد شيخهم الأول الذى تمسك بموقف الإمام أحمد بن حنبل والسلف فى القول بأن القرآن كله كلام الله ، وهو غير مخلوق ، ولم يفرق فى ذلك بين لفظ ومعنى كما فعل أتباعه (٢) ، بل نص على منع القول بأن لفظ القرآن مخلوق أو حتى من التوقف فى ذلك (٣) .

ويبدو أن هذا التحول عن رأى الأشعرى إلى موقف ابن كلاب بدأ بالباقلانى ؛ فقد ذكر ابن تيمية فى « فتاواه » أن القاضى أبا بكر الباقلىانى تكلم فى مسألة خلق القرآن فى ثلاثة مجلدات من كتابه الكبير « النقض » ، وهو فى أربعين سفرا ، « وتكلم على القائلىين بقديم الحروف . وقال : من زعم أن السين من (بسم) الواقعة بعد الباء ، والميم بعد

(١) غاية المرام ص ٣٩ ب ، ومثله فى الابتكار ٧٢/١ ب ، والإحكام ٥/٣ ، ٦ .

(٢) انظر : الإبانة ص ٩ ، ٢٣ واللمع ص ٣٣ وما بعدها ، وانظر أيضا مقدمة مناهج الأدلة ص ٦٦ - ٧٠ ، والأشعرى أبو الحسن ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) انظر : الإبانة ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ وما بعدها ومقالات الإسلاميين ١/٣٢١ ، ٣٢٥ ، ومقدمة مناهج الأدلة ص ٦٦ .

السين الواقعة بعد الباء ، لا أول له فقد خرج عن المعقول...» ثم يرد عليه ابن تيمية بعد ذلك (١).

والآمدى يحاول أن يوفق بين آراء أبي الحسن وآراء أتباعه ، رغم صعوبة ذلك كما سنبين ، ولكنه لم ينسب إليه صراحة القول بالكلام النفسى ، كما فعل الشهرستانى مثلاً فى «نهاية الاقدام» (٢) ، وابن أبى العز فى «شرح الطحاوية» (٣).

أما نظرية التفرقة بين كلام نفسى قديم ، وآخر لفظى حادث ، فتنسب إلى ابن كلاب وإلى أبى حنيفة من قبله (٤) ، والنصوص المنسوبة إليه تساعد على ذلك (٥) ، أما ما نسب إليه ، من إطلاق القول بخلق القرآن كله (٦) ، فهو متعارض مع النصوص الأخرى التى تؤكد غير ذلك (٧) ، فضلاً عن أنها أخبار مطعون فيها (٨). ولكن إن صحت فلها محامل عدة ، منها القول بأن اللفظ مخلوق والمعنى قديم وهو الأقرب ، أو ما قاله السلف من أن القرآن غير مخلوق بلفظه ومعناه إلا أن المداد والرق وأصوات القارئین كلها حادثة مخلوقة ، فإنه لم يقل أحد بأن ذلك كله قديم قائم بذات الله إلا الحشوية من غلاة المشبهة الذين غلا بعضهم فقال : إن الجلد والغلاف أيضاً قديمان (٩).

وقد أخذ بنظرية التفرقة هذه - عدا الأشاعرة - الماتريدية منذ شيخهم الأول (١٠) ، والفيلسوف ابن رشد (١١) ، وجماهير من متأخري أهل السنة (١٢) ، إلا ابن تيمية وأتباعه

- (١) فتاوى ابن تيمية ١٨٨/٥ . (٢) نهاية الاقدام ٣٢٠ ، ٣٢١ .
 (٣) انظر : شرح الطحاوية ١٠٥ . (٤) انظر : نشأة الفكر ١ / ٢٣٨ ، ٢٨١ - ٢٨٦ .
 (٥) انظر : الفقه الأكبر ص ٢ ، ٣ . (٦) انظر : الإبانة ص ٣٥ وما بعدها .
 (٧) انظر : الفقه الأكبر ٢ ، ٣ ، والإبانة ٣٥ - ٣٩ وما بعدها وفخر الدين الرازى وآراؤه ٣٢٦ .
 (٨) يعلق الشيخ زاهد الكوثرى على نسخة من كتاب الإبانة بخطه منتقدا الخبر الذى أورده الأشعرى عن قول أبى حنيفة بخلق القرآن بأن فيه أبا نعيم ضرار بن صرد الكذاب المعروف ، كما وقع فى الخطيب وغيره التصريح بذلك ، وسليمان - وليس سليمان كما فى النسخة المشار إليها - والكلام فيه معروف ، ثم يضيف : والقول بخلق القرآن حدث بعد وفاة حماد بمدة كما يظهر من شرح السنة للالكائى وغيره فظهر بذلك ما فى السند والخبر من الاختلال ، وانظر : الإبانة ص ٣٥ - ٣٩ .
 (٩) انظر : ابن تيمية السلفى ص ١٢٥ - ١٣٨ .
 (١٠) انظر : بحر الكلام للنسفى ٢٩ - ٣٤ ومقدمة مناهج الأدلة ص ٧٠ والعقيدة والشرعة فى الإسلام ١١٦ ، ١١٧ .
 (١١) انظر : مناهج الأدلة ١٦٢ - ١٦٤ ومقدمته ٧١ ، ٧٢ .
 (١٢) انظر : الموافقة ١٣٧/٢ ونشأة الفكر ١ / ٢٨٩ ، ٢٩١ وما بعدها ومقدمة مناهج الأدلة ٧٠ ، ٧١ .

الذين قالوا : الكلام صفة قديمة ذاتية أزلية ، وهو فى الوقت نفسه صفة فعلية ، متعلقة بمشيئة الله وقدرته ، يتكلم إذا شاء ، وهو بالاعتبار الأول قديم ، وبالاعتبار الثانى حادث متجدد ، وإن لم يكن له أول ، وإن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت ولكن غير مشبه لحروفنا . ويؤكدون أن هذا هو قول السلف وأهل الحديث والسنة (١) .

ولكن بعض العلماء عدل عن قول من قال : اللفظ حادث والمعنى قديم ، وعمن قال : الصوت والحرف قديمان أيضا ، واكتفى بما عليه جمهور المسلمين من أن القرآن كلام الله ، « وأما كونه مخلوقا أو بحرف أو صوت أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئا من هذا » (٢) وقد نسب مثل هذا إلى الإمام أحمد نفسه (٣) .

ب- ثم يتعرض الآمدى لمخالفى المذهب الحق - فى نظره - فيقسمهم إلى نفاة للصفة الكلامية ومثبتين لها ، أما النفاة فهم فى نظره الفلاسفة الذين أنكروا الكلام الإلهى نفسيا ولفظيا (٤) ، ولم يقولوا إن الله متكلم إلا بضرب من المجاز ، أى أنه يسخر الكائنات لإرادته ، أى أنه متكلم بلسان الحال ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ (٥) .

أما الوحى الذى يتلقاه الأنبياء فهم لتصفيه نفوسهم يستطيعون الاطلاع على بعض الأمور الغيبية ، تفيض عليهم من النفوس العلوية ، وقد يستمعون أثناء ذلك من الأصوات ويرون من الصور المتخيلة مثل ما يقع للنائم فى منامه ، إنها رؤية داخلية وسماع داخلى ولا شيء وراء ذلك (٦) .

هكذا يحكى الآمدى مذهب فلاسفة الإسلام فى الوحى والنبوة ، وهو يتفق مع ما يقوله ابن سينا والفارابى (٧) .

(١) انظر : الموافقة ١٣٧/٢ وشرح الطحاوية ١٠٤ ، ١٢٤ وابن تيمية السلفى ١٢٠ - ١٣٣ .

(٢) ابن تيمية السلفى ص ١٣٣ . (٣) المعتزلة لجار الله ص ٧٦ .

(٤) انظر : غاية المرام ص ٨٨ . (٥) الآية رقم ١١ من سورة فصلت ، وانظر : غاية المرام ص ٨٨ .

(٦) انظر : غاية المرام ص ٩٢-٩٣ ، والابكار ١/٧٤ ب .

(٧) انظر : تسع رسائل فى الحكمة ٢٥ - ٢٩ ، ٦٣ - ٦٧ ، والنجاة ١٦٧ - ٣٠٣ - ٣٠٨ ، ومنهج وتطبيقه ص ٨١ وما بعدها ، وابن سينا بين الدين والفلسفة ص ١٣٧ - ١٤٣ ، وشرح الطحاوية ص ١٠٥ والاقتصاد

للغزالي ص ٨١ .

جـ- ويعتبر الآمدى أن سائر الفرق بعد ذلك تثبت هذه الصفة لله ، وإن اختلف تصورهم لها ، وهو يشبه في هذا الشهرستاني الذى يقول : « ولم نجد فى الملة الإسلامية من يخالفنا فى كون البارئ تعالى متكلمًا بكلام ، ولم يخالفنا فى ذلك إلا الفلاسفة والصابئة ومنكرو النبوات » (١) . وهذا موقف يختلف على كل حال عن اتهام الأشعرى للمعتزلة بالتعطيل وإنكار الصفات (٢) ، بل إن الآمدى ليبلغ فى إنصاف المعتزلة إلى حد الدفاع عنهم أحيانا ضد بعض الأصحاب الذين يلزمونهم بما لا يلزمهم (٣) .

ولكن هذه الفرق - مع إثباتهم للكلام - افرقوا :

(١) فقال بعضهم : إن الكلام قد يطلق على القدرة على التكلم ، وقد يطلق على الأقوال والعبارات ، وعلى كلا الاعتبارين فهو قائم بذات الرب تعالى (٤) ، وإن كان بالاعتبار الأول قديما متحدا وبالثانى حادثا متكثرا ، وهؤلاء هم الكرامية (٥) ، كما ينص الآمدى على ذلك وهذا نقل دقيق لمذهبهم (٦) ، ويلاحظ أنهم لا يعترفون بكلام النفس ، والقديم عندهم هو مجرد القدرة على الكلام .

(٢) وقال البعض الآخر بأن الكلام هو « المركب من الحروف والأصوات ، المجانس للأقوال الدالة والعبارات » (٧) ، أى أنهم لا يعترفون أيضا بالكلام النفسى ، وأنهم يماثلون بين الغيب والشهادة ، ولا يفهمون كلاما غير المسموع من اللفظ ذى الحروف والمقاطع الصوتية ، غير أنه يذكر أن هؤلاء أيضا طائفتان :

أولاهما : الحشوية الذين ذهبوا إلى أن هذا الكلام بحروفه وأصواته قديم قائم بذات الرب عز وجل (٨) . وهذا رأى بعض الحنابلة وغيرهم من أدعياء السلفية وغلاة المثبتين للصفات (٩) . وأما رأى السلف الحقيقى فهو أن القرآن كلام الله غير مخلوق بلفظه ومعناه ، إلا أنهم لا يماثلون بين كلام الخالق وكلام المخلوق . وقد أنكر ابن تيمية أن يكون

(١) نهاية الأقدام ص ٢٦٨ (٢) انظر : الإبانة ص ٥٤ وما بعدها ومناهج الأدلة (المقدمة) ص ٥١ ، ٥٢

(٣) انظر : الأبهكار ١/ ١٧٣ ، غاية المرام ص ٩٤ . (٤) غاية المرام ل ٣٩ ب .

(٥) انظر : غاية المرام ص ٨٩ .

(٦) انظر : الملل والنحل ١/ ١٦٤ ، ونهاية الأقدام ٢٨٨ والفرق بين الفرق ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، وشرح الطحاوية

١٠٥ ، ونشأة الفكر ١/ ٦٢٣-٦٢٦ . (٧) انظر : غاية المرام ص ٨٨ .

(٨) انظر : غاية المرام ص ٨٨ . (٩) انظر : المواقف ٨/ ٩٢ .

الحرف والصوت المعينان قديمين ، أو أن يكون هذا هو قول السلف ، وقال - في تفسير سورة الإخلاص - : « إن أبا حامد في الإحياء سمع ما يضاف إلى الحنابلة ، وقاله طائفة منهم ومن غيرهم من الشافعية والمالكية ، من قدم الأصوات المسموعة من القراء ، وأن الحروف المتعاقبة أزلية ... وهذا مما لا يخص الحنابلة ولا تخلو منه طائفة » (١) . ويقول - في الفتاوى - : « إن القرآن كلام الله تعالى ، تكلم به سبحانه ، وهو منه وقائم به ، وما كان كذلك لم يكن مخلوقا ، إنما المخلوق ما يخلقه من الأعيان المحدثة وصفاتها » (٢) .

وأما الباقيون : فذهبوا إلى أنه حادث موجود بعد العدم مخلوق لله تعالى ، وليس قائما بذاته سبحانه وهؤلاء - في نظره - هم المعتزلة . وقد عرض لموقفهم بالتفصيل في الأبيكار (٣) ، وبين اتفاقهم على أن الكلام صفة فعلية لا ذاتية ، وهذا ما يقرره المعتزلة أنفسهم (٤) ، والخوارج وقد نقل الأشعري إجماعهم على خلق القرآن (٥) ، والإمامية وهذا ما تنسبه إليهم المصادر القديمة والدراسات الحديثة (٦) .

ب- إثبات الكلام صفة ذاتية لله تعالى :

وبعد هذا العرض الدقيق لآراء الفرق المختلفة ، يتعرض الآمدى للأدلة التي اعتمد عليها جمهور المتكلمين لإثبات أن الكلام صفة ذاتية لله عز وجل ، وينقدها ، فمن ذلك :

(١) إذا كان الله خالق العباد فالعقل يقضى بجواز تكليفه إياهم أمرا ونهيا ، فإذا كان هذا الطلب الموجه إليهم قديما فهو المطلوب ، وإلا لزم التسلسل وهو باطل ، فوجب استناده إلى صفة قديمة قائمة بذات الرب تعالى ، قطعاً للتسلسل (٧) .

(١) تفسير سورة الإخلاص ١٠١ وانظر : نقض المنطق ص ١١٨ ومابعدا .

(٢) فتاوى ابن تيمية ٤٧/٥ والموافقة ٦٤/٢ ، ١٦٨ ومابعدا .

(٣) انظر : الأبيكار ٧٣/١ ب .

(٤) انظر : المغنى ٦/٧ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٥٨ ، ٨٤ ، ٢٠٨ ، وشرح الأصول الخمسة ٥٢٩ - ٥٤٨ .

(٥) المقالات ١٨٩/١ ، وانظر : تاريخ فلسفة الإسلام د/ هويدى ٦٤/١ - ٦٦ .

(٦) انظر : الأبيكار ١٧٣/١ ، ومقالات الإسلاميين ٣٦٦/١ والموافقة لابن تيمية ٦٣/١ ، ٦٤ ، ونشأة الفكر

(٧) انظر : الأبيكار ٩٠/١ ب . ٢٩٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥/٢ .

ويرى الآمدى أن هذا الاستدلال مصادرة على المطلوب ، فالمعتزلة مثلاً يسلّمون بالامر الإلهي ولكن يجعلونه نفس الإرادة الحادثة ، ويرفضون كون الكلام صفة نفسية قديمة، ويقولون بأن الكلام المحتوى على الأمر مخلوق لله تعالى ، وفعل من أفعاله الحادثة، ولم يلزم من التسليم بالامر الإلهي القول بالكلام القديم القائم بذاته تعالى (١) . وقد ذهب بعض الأشاعرة أنفسهم إلى ذلك كالإمام الرازي فى بعض كتبه (٢) .

وقد سبق للإمام الغزالي أن وصف هذا الدليل بأنه مصادرة على المطلوب (٣)، ولكن الشهرستاني - بعده - ارتضاه (٤) ، وحاول أن يدعم به الدليل الأشعري المشهور الذى سنعرضه بعد دليل الإسفرائينى .

(٢) البارى - تعالى - متصف بالعلم ، ومن علم شيئاً يستحيل ألا يخبر به ، فالعلم والإخبار متلازمان والإخبار إنما يكون بالكلام (٥) وقد نسب الشهرستاني هذا الدليل إلى الأسفرائينى ودافع عنه (٦) .

ويرى الآمدى أنه - كسابقه - مصادرة على المطلوب ، إذ لا دليل على أن كل من علم شيئاً يجب أن يخبر به ، وحتى لو صح ذلك فيما بيننا فما الدليل على صحته بالنسبة لله عز وجل؟ (٧) .

(٣) ثم يعرض دليل الأشعري (٨) ويسميه (الطريق المشهور) وقد سماه الشهرستاني (طريق الأشعرية) : البارى تعالى حى فلو لم يكن متصفاً بالكلام لاتصف بالخرس ، وهو نقص ينافى معنى الألوهية (٩) .

ويشير الآمدى إلى أن هذا الدليل قائم على أساس أنه ما لم يثبت الشئ ثبت ضده (١٠) ، وهى طريقة باطلة عنده ، كما سبق بيانه فى الأحكام العامة للصفات ، وأشار

(١) انظر : غاية المرام ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) انظر : المتأخذ ل ٤٥ ب - ٤٦ ب ، وفخر الدين الرازي وآراؤه ص ٣٣٤ .

(٣) الاقتصاد ٦٨ . (٤) نهاية الأقدام ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٥) الأبهكار ١ / ٨٨ ، وغاية المرام ص ٩٠ . (٦) نهاية الأقدام ٢٦٩ . (٧) انظر : الأبهكار ١٨٨ .

(٨) انظره فى اللمع ص ٣٦ ، ٤٢ والإبانة ص ٢٥ وانظر أيضاً مقدمة مناهج الأدلة ٦٨ .

(٩) انظر : الأبهكار ١ / ١٨٨ ، ب ، وغاية المرام ص ٩٠ . (١٠) نفس المصدر والصفحة .

الشهرستاني إلى نقد البعض لهذا الدليل بأنه غير برهاني وغير مطرد^(١). كما انتقده ابن حزم من قبل بأنه يقوم على المماثلة بين الغائب والشاهد^(٢).

٤) يذكر الآمدى أن بعض الأصحاب حين أحس بضعف هذه الأدلة العقلية آثر الاستدلال على الكلام بالأدلة السمعية، وهذا ما فعله الرازى فى بعض كتبه^(٣).

ولكن الآمدى يرى أن حاصل الاستدلال على ثبوت الكلام بهذه الطريقة، يرجع إلى ما الاستدلال به فرع ثبوت الكلام، وهو دور ممتنع، وتلك مسألة سبق بيانها فى الباب السابق^(٤).

غير أن الإمام الرازى - مع تسليمه بفكرة الدور - يرى أنه يمكن الاستدلال على صفة الكلام بالنصوص الشرعية، لأنها ليست فى نظره من الأصول التى تتوقف عليها صحة النبوة، «لأننا إذا علمنا عدم جواز ظهور المعجزة على يد الكاذب علمنا صدق الرسول، سواء علمنا كلام الله - تعالى - أم لم نعلمه»^(٥). أما الغزالي فيقول: «ومن رام إثبات الكلام بالإجماع أو بقول الرسول فقد سام نفسه خطة خسف.... ومن أنكر كون البارئ متكلماً فبالضرورة ينكر تصور الرسول»^(٦).

ويخلص الآمدى من نقده هذا إلى أن الاستدلال السليم فى هذا الباب هو الذى يقوم على قاعدة الكمال؛ فالتكلم أكمل من غير المتكلم، والله - تعالى - أولى بكل كمال^(٧)، وقد سبق للغزالي أن اعتمد عليها فى إثبات صفة الكلام^(٨).

ثم يدعم الآمدى هذا الاستدلال بفكرة أخرى^(٩) سبق أن عرضها فى «الابهكار» واعتمد عليها وحدها دون قاعدة الكمال، حيث قال: «والمعتمد فى ذلك أن يقال: أجمع أهل الملل قاطبة على وقوع البعثة وتبليغ الرسل - إلى الكافة - أنواع التكليف، ولو

(١) نهاية الأقدام ٢٧٠. (٢) الفصل ٩/٣.

(٣) انظر: المحصل ١٢٤ والأربعين: ١٧٠، ١٧٢ وفخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣٢٩، ٣٣٢.

(٤) انظر: نقده التفصيلي للأدلة السمعية على إثبات الكلام فى الابهكار ١/١٨٥ - ١٨٧، وقارن غاية المرام

ص ٩٠-٩١. (٥) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣٣٣.

(٦) الاقتصاد ص ٦٨. (٧) انظر: الابهكار ١/٩٢.

(٨) الاقتصاد ص ٦٨. (٩) انظر: غاية المرام ص ٩١.

لم يكن لله تعالى كلام لما تحقق معنى التبليغ والرسالة ، فإنه لا معنى للرسول إلا المبلغ لكلام المرسل ، فلو لم يكن لله - تعالى - كلام وراء كلام الرسول المخلوق فيه - له عندهم ولله تعالى عندنا - لكان هو الأمر بأمره والنهي بنهيه ... ولما تحقق - أيضا - معنى الطاعة والعبودية لله - تعالى - ... ومن أنكر ذلك من أهل الملل كان محجوجا بما دلت عليه المعجزات القاطعة الدالة على صدق من ظهرت على يده من الرسل المتقدمين الذين شاهد ذلك منهم من حضرهم ، وتواترت أخبارهم إلى من غاب عنهم ...» (١).

ونلاحظ على هذه الفكرة :

(١) أنها توجد عند الشهرستاني من قبل (٢) ، وأن الآمدى اعتمد عليها لإثبات صفة الكلام في الأبهكار ، ولم يشر إلى دليل الكمال . أما في الغاية فهو يعتمد على الدليل المذكور كما سبق ، ويؤيده بهذه الفكرة ، وهذا من مظاهر تطور فكره بالنسبة لمسألة الصفات وطريق إثباتها .

(ب) أنها تختلف عن الدليل الأول ، الذي اعتمد عليه جمهور المتكلمين - فيما سبق - في أنها تقوم على تحقق ظاهرة النبوة بالفعل ، وإجماع أهل الملل والأديان على حصول الوحي ، بينما كان الدليل المشار إليه يعتمد على «تجويز» صدور الأوامر عن الخالق وأن الأمر لا يعنى غير الكلام .

(ج) أنها تختلف عن الدليل القائم على النصوص السمعية ، فهو هنا يعتمد فقط على فكرتي النبوة والوحي في عمومهما ، بصرف النظر عما أنزل على رسول معين ، وينظر إلى مجرد حصولها بصرف النظر عما تتضمنه أو تسفر عنه من نصوص منزلة يعتمد عليها أصحاب الدليل السمعي . ولكن يبقى بعد هذا كله أنه قد يُعترض عليها بمثل ما اعترض به الآمدى على الدليل السمعي ، فإن كثيرا من الناس لا يثبتون النبوة ولا يعترفون بوحي ، ولعل الآمدى نفسه أحس بذلك فقال - بعد عرضه هذه الفكرة في غاية المرام - : «وذلك لازم في حق المعترف بالنبوات المصدق بالرسالات» (٣).

(١) الأبهكار ١/ ١٩٢ ، وكان تلخيصه لهذه الأفكار في غاية المرام ص ٩١ .

(٢) نهاية الأقدام ص ٢٧٤ - ٢٧٩ . (٣) غاية المرام ل ١٤١ .

بل لعلها لا تلزم المعترفين بالنبوات أيضا ، فالمعتزلة ينفون الكلام باعتباره صفةً نفسية قديمة - وهو ما يريد الآمدى إثباته بهذه الفكرة - مع تسليمهم بالوحى والرسالة ، ولكنهم لا يرون أن الرسالة تستلزم قيام صفة الكلام بذات المرسل وأن التبليغ لا يكون إلا للكلام الذى يقوم به تعالى ، بل هو للكلام الذى خلقه - سبحانه - وحمله للملك لينزل به إلى الرسول كى يبلغه إلى الناس - كما يحكى الآمدى ذلك عنهم^(١) . فإين الإلزام ؟

وإذن فالحجة العقلية الصحيحة لإثبات الكلام هى حجة (الكمال) التى اعتمد عليها الغزالي قبله - كما أشرت - وابن تيمية فيما بعد^(٢) ، أو ذلك الدليل القائم على ثبوت صفتى العلم والقدرة على الاختراع الذى اعتمد عليه ابن رشد فى (مناهج الأدلة) ، وأثبت به كلاماً نفسياً قديماً لله - تعالى - وآخر حادثاً ، وهو الالفاظ المعبرة^(٣) . هذا بالإضافة الى النصوص الشرعية التى تنسب إلى الله الكلام والتكليم بالنسبة لمن ثبت لديه صحة الرسالة وصدق الرسول .

ج- الكلام النفسى : معناه ووحدته وقدمه :

ثم يتعرض الآمدى بعد ذلك لتوضيح المراد بالكلام النفسى ، وللدرد على اعتراضات الخصوم على إثباته صفة لله - تعالى ، ويؤكد من خلال تلك المناقشات قدم الكلام النفسى ووحدته . وهو ينسب الاعتراضات التى يتصدى لها بالرد والتفنيد إلى المعتزلة والفلاسفة^(٤) ومنها :

(١) - ولعله أهمها - التشكيك فى أن الكلام كمال لله ؛ لأن الكلام إما أن يكون من قبيل الكلام اللسانى العادى ، وهو « عبارة عن تقطيع الأصوات ، وذلك يستدعى أن يكون البارى جرماً وهو ممتنع »^(٥) ، وإما أن يكون من قبيل ذلك الكلام النفسى وهو غير خارج عن القدرة والإرادة والعلم وليس بصفة جديدة . وما وراء هذين الاحتمالين فغير معقول ولا متصور ، فضلاً عن أن يكون كمالاً يشبهه العقل للبارى تعالى . وهذا اعتراض

(١) انظر : غاية المرام ل ١٤٢ ، ب . (٢) انظر : ابن تيمية السلفى ١٣٠ - ١٣٣ .

(٣) انظر : مناهج الأدلة ١٦٢ - ١٦٤ ومقدمته ص ٧١ ، ٧٢ .

(٤) انظر : غاية المرام ص ٩١ - ٩٤ . وقد سبقه الشهرستانى فى نسبتها إلى هاتين الطائفتين . انظر : نهاية الأقدام ص

(٥) غاية المرام ل ١٥٠ ، وانظر : الأبهكار ١ / ٩٣ ، ب . ٢٧٠ ، ٢٧٩ .

ينسبه الآمدى إلى الفلاسفة وإن كان يختلط فيما يبدو بأفكار اعتزالية كتفسير الامر الإلهى بالإرادة^(١) . ثم يعرض بعد ذلك لاعتراضات أخرى ينسبها إلى المعتزلة .

٢) ومنها : المتكلم من فَعَلَ الكلام لا من قام به الكلام ، فالكلام فعل من أفعال الله - تعالى - لا صفة من صفات ذاته .

٣) النصوص السمعية نفسها دالة على حدوث القرآن والكلام الإلهى المنزل المحدث ، فكيف يكون صفة ذاتية قائمة بذات الله تعالى ؟

٤) القرآن معجزة الرسول ﷺ ، فيجب أن يكون - كسائر المعجزات - فعلا لله - تعالى - لا صفة من صفات ذاته .

٥) القرآن المجمع على أنه كلام هو هذا المسموع الملفوظ ، كما صرح القرآن نفسه بذلك فى قوله - تعالى - ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾^(٢) ، فهو إذن لفظ وصوت حادثان ، والحوادث لا تقوم بذات الله - تعالى .

٦) الكلام أمر ونهى وخبر واستخبار ، فكيف يكون الامر ولا مأمور فى الازل ، والخبر ولا مخبر عنه ؟ إن هذا يفضى إلى الكذب .

٧) الكلام أمر ونهى وخبر واستخبار ، فإن كان كل ذلك قديما تعددت القدماء ، فكيف تقولون القديم واحد^(٣) ؟

ثم يتصدى للإجابة عنها كما يلى^(٤) :

١ - أما الاعتراض الأول فالعقل يقضى بأن من له الكلام أكمل ممن ليس له الكلام - كما سبق فى مسألة الارادة تماماً ، وكل ما فى الامر أن ننفى عنه لوازم النقص التى فى البشر من الحاجة ونحوها ، « ونحن لا نريد بالكلام غير المعنى القائم بالنفس ، وهو ما يجد الإنسان من نفسه عند قوله لعبده : ايتنى بطعام أو اسقنى بماء »^(٥) وهذا يسمى كلاما فى اللغة .

(١) انظر : المصدرين السابقين نفس المواضع (٢) سورة التوبة : ٦ .

(٣) انظر : غاية المرام ص ٩١-٩٦ . (٤) غاية المرام ١٤٣ ، ٥٠ ب وانظر : : الاهكار ١ / ١٩٦ .

(٥) انظر : غاية المرام ص ١٤٣ .

أما تفسير الكلام بالإرادة فهو خطأ ؛ ولنأخذ أحد أقسام الكلام ، وهو الأمر الذى ادعى بعض المتكلمين أنه يرادف الإرادة ، فنجد أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد كتكليفه أبا جهل بالإيمان ، وأمره إبراهيم بذبح ولده ، ويريد ما لم يأمر به كالشروع والمعاصي ؛ إذ الإرادة تخصيص الممكن بزمن وقوعه ، ولو لم يردها لما وقعت .

بل إن ذلك غير صحيح حتى عند المعتزلة المدعين لذلك ، فالله أمر بأفعالنا ولا يمكن أن يردها ؛ لأنها مخلوقة لنا عندهم ، ولو تعلقت إرادته بفعل الغير لكانت مجرد تمن وشهوة ، وذلك على الله ممتنع .

وأما القدرة فهي معنى يتأتى به إيجاد الممكن ، فهي أعم من الأمر والنهى اللذين لا يتعلقان إلا ببعض الممكنات ، كما أن الأمر - عند القائلين بجواز التكليف بما لا يطاق - أعم من القدرة ، فكيف يكونان متحدتين والعلاقة بينهما إما العموم والخصوص المطلق أو العموم والخصوص الوجيه ؟ .

وأما العلم فإنه أيضا يتعلق بما يتعلق به الأمر والنهى وبما لا يتعلقان به ، فالعلاقة بينهما العموم والخصوص المطلق ؛ وإذن فالعلم غير الكلام .

ثم يقدم الآمدى توضيحا آخر للكلام النفسى ، فيقول : إنه ليس أحاديث النفس « التى هى تقديرات العبارات اللسانية » (١) ، فهذه لا تتصور فى حق من لا يعرف لغة أصلا مع اتصافه بالكلام النفسى ، وهو المعانى التى قد يعبر عنها بالإشارات والرموز ونحوها . فهذا هو المقصود بكلام النفس ، أما الأحاديث المشار إليها فهي كلام لفظى غير أنه يتم وينظم فى الضمير وإن لم يصحبه صوت (٢) .

٢- أما القول بأن المتكلم هو مَنْ فعل الكلام ، فهو متعارض مع نطق المحموم فى هذيانه ، ومخاطبة الحجر والذراع المسموم للنبي ص فقد سُمي ذلك كله كلاما ، مع أنه ليس من فعل المتكلم طبقا لأصول المعتزلة أنفسهم (٣) . ويعترض الآمدى بصفة خاصة على « النجارية » الذين يأخذون بمقالة المعتزلة فى شأن الكلام الإلهى ، ويوافقون الأشاعرة فى أن الله - تعالى - خالق لأفعال العباد ، قائلا : « أكون الله - تعالى - متكلمنا بكلامنا

(١) غاية المرام ل ٤٤ ب . (٢) انظر : غاية المرام ص ١٠٠ ، والأبكار ١/ ١٩٤ - ٩٧ ب .

(٣) انظر غاية المرام ص ١٠١ - ١٠٢ ، الإبانة ص ٢٩ - ٣١ ونهاية الأقدام ص ٢٨٤ .

مصوتا بأصواتنا ، بما أنه فاعل لها باعترافكم ، والمتكلم هو من فعل الكلام ؟ وأيضا لو كان المتكلم هو من فعل الكلام لكان المرید والقادر والعالم كذلك ، ولم تقولوا به أو تقيموا دليلاً على الفرق بينه وبينها . ثم يقول : « هذه الألفاظ - التي يخلقها - أَلَهَا مدلول عنده أم لا ؟ لاسبيل إلى الثاني فهذا شأن المعتوهين والمجانين . والاول هو الكلام النفسى الذى تتهبون من إثباته » (١) .

٣- أما استدلالكم على ما تذهبون إليه فى شأن كلام الله - تعالى - بالأدلة السمعية ، فهو تناقض منهجى لا يتفق مع أصولكم (٢) ، فضلا عن أن الظواهر التى تتمسكون بها يمكن حملها على معانى أخر . فالجعل مثلا فى قوله تعالى ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ (٣) كما يفسر بالإبداع والتصيير يمكن تفسيره بالوصف والتسمية ، كما فى قوله تعالى مثلاً فى نفس السورة : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ (٤) . وهكذا سائر ما ذكرتموه فهو معارض بما ذكره (الأصحاب) وغيرهم (٥) .

٤- وأما قولكم : إن القرآن معجزة الرسول ﷺ فهو فعله - تعالى - كسائر المعجزات فمغالطة ؛ لأننا نتفق معكم فى أن القرآن الذى هو الكلام اللفظى هو المعجز ، وفى أنه ليس بقديم ، ولكنا مختلفون فيما وراء ذلك ، وهو الكلام النفسى الذى أوضحناه ، فأنتم لا تقولون بشيء وراء الألفاظ المسموعة مع أنها متقضية لا بقاء لها عندهم ، وإذن فما نقرؤه الآن هو على مثال كلام الله وليس بكلامه ، وتلك هى العقبة التى دعت شيخكم الجبائى إلى مكابرة الواقع وجحد الضرورة حين زعم أن الله - تعالى - متكلم مع كتابة كل كاتب وقراءة كل قارئ ولم توافقوه عليه ، فإينا المخالف للإجماع ؟

ويحدد الآمدى هذه النقطة بقوله : « فلا تنازع فى أن ما جاء به الرسول من الحروف المنتظمة والأصوات المقطعة معجزة له وأنه يسمى قرآنا وكلاما ، وأن

(١) انظر : غاية المرام ص ١٠٢-١٠٣ . (٢) راجع ما سبق عن فكرة الدور فى الباب السابق .

(٣) الآية ٣ من سورة الزخرف ، (٤) الآية ١٩ من سورة الزخرف .

(٥) انظر : الأبيكار ١/ ١٨٨-١٨٩ ، وغاية المرام ص ١٠٩-١١٠ ، وانظر ايضا الإبانة ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٤ ،

ونشأة الفكر ١/ ٢٥٣-٢٦١ ، ومقدمة مناهج الأدلة ٦٣-٦٩ .

ذلك ليس بقديم ، وإنما النزاع فى مدلول تلك العبارات هل هو صفة قديمة أم لا؟ (١) »
ويذكر أن طريق البت فى هذا النزاع الأخير هو التفرقة بين التلاوة والمتلو والقراءة والمقروء ،
فالاول -وهو المعجز- حادث عندنا وعندكم ، والآخر قديم وأنتم ترفضون الخضوع
للدليل القاضى بإثباته (٢) .

٥- وبما سبق يندفع اعتراضكم بأن القرآن المعجز مجمع على أنه الفاظ وأصوات وهى
حادثة وغير قائمة بذاته -تعالى؛ لأنها منزهة عن حلول الحوادث بها فنحن نوافقكم على
كل هذا ، أما قولكم لو لم يكن كلامه - تعالى - صوتاً لما سمعه موسى - عليه السلام -
فإنما يرجع الخطأ فيه إلى تفسيركم معنى السماع بالإدراك بالأذن ، مع أنه قد يطلق أيضاً
بمعنى الطاعة والخضوع، وقد يطلق بمعنى الفهم والإحاطة « وإذا عرف ذلك فمن الجائز أن
يكون قد سمع موسى كلام الله - تعالى - القديم، بمعنى أنه خلق له فهمه والإحاطة به ،
إما بواسطة أو بغير واسطة ، والسماع بهذا الاعتبار لا يستدعى صوتاً... » (٣) .

وهنا يذكر الأمدى أن هذه الشبهة ، وهى انعقاد الإجماع على أن القرآن المعجز هو
الاصوات والالفاظ، هى التى دفعت الحشوية لعدم فهمهم الكلام النفسى إلى القول بقدم
الالفاظ والاصوات وقيامها بذاته تعالى . ثم يقول : « فانظر إلى هاتين الطائفتين كيف
التزم بعضهم التعطيل خوف التجسيم ، والتزام بعضهم التجسيم خوف التعطيل ؟ » (٤)
مشيراً إلى أن الحق وسط بين تطرف العقليين النفاة للكلام الأزلى ، وتطرف الحشوية
القائلين بقدم الاصوات المسموعة والالفاظ المنظومة (٥) .

وهو مع ذلك يفرق بوضوح بين قول هؤلاء الحشوية الذى « لم يدل الدليل القاطع

(١) غاية المرام ل ٤٨ ب، ص ١٠٨ من النص المطبوع . وانظر الأبهكار ١/ ١٨٦ - ١٨٧ ، والغنية للجيلانى ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) انظر : غاية المرام ص ١٠٨ - ١٠٩ ، وانظر بشأن التفرقة بين التلاوة المتلو الاسماء والصفات للبيهقى ٢٥٨ -
٢٦٩ ، والاقتصاد ص ٧٥ وانظر بشأن قول الجبائى المذكور : الفرق بين الفرق ١٦٨ ، ١٦٩ والملل والنحل للشهر
ستانى ١/ ٩٩ .

(٣) غاية المرام ٤٩ ب ، والأبهكار ١/ ٨٥ ب ، ١٨٦ وانظر : بشأن ماسمعه موسى عليه السلام ، الاقتصاد ٧٢ ، ٧٣
والاسماء والصفات ١٩٢ ... ٢٠٨ ونهاية الأقدام ٣٠١ والغنية للجيلانى ٦٥ ، ٦٦ وبحر الكلام ٣٣ ، ٣٤
والفصل ١١/ ١٣٠ . ومقدمة مناهج الأدلة ص ٧٠ ونشأة الفكر ١/ ٦٨٠ - ٢٨٦ .

(٤) غاية المرام ل ١٥٠ .

(٥) انظر : ما سبق عن قول الحشوية وموقف علماء السلف منهم فى بداية هذا الفصل .

على إثباته من جهة المعقول أو من جهة المنقول»^(١) ، وبين ما ذهب إليه بعض السلف من « أن كلامه بحروف وأصوات لا كحروفنا وأصواتنا، كما أن ذاته وصفاته ليست كذاتنا وصفاتنا . فالحق أن ذلك غير مستبعد »^(٢) . والآمدى ينسب هذا القول الأخير إلى بعض السلف ؛ لأن إثبات الحرف والصوت لله - حتى مع نفى المماثلة - هو موضع خلاف بين المحدثين وأهل السنة ، فنجد ابن تيمية مثلاً يثبت معتمداً على بعض النصوص الشرعية^(٣) ، بينما ينكر البيهقي في الأسماء والصفات ذلك ، ويشرح الأحاديث المتضمنة لذلك بما لا يستوجب نسبة الصوت والحرف إلى الله - تعالى - المنزه عن الجوارح والمخارج^(٤) .

ولا يدع الآمدى مسألة الحرف والصوت إلا بعد أن ينكر على من مال من الأصحاب إلى مقالة الحشوية ، إذ أثبت حروفاً قديمة وزعم أنها روحانية تتجلى في الأصوات المادية ، وهو - على الأرجح - يقصد بذلك الشهرستاني الذي عرض هذا الرأي في نهاية الأقدام وبالغ في نصرته واعتبره قول السلف^(٥) ، وقد حكاه عنه ابن تيمية في (الموافقة) وانتقده وأنكر كونه رأى السلف وإن كان أقرب إلى الحق - في نظره - من قول أصحابه الأشاعرة^(٦) .

وهكذا يحافظ الآمدى على ما انتهى إليه الأشاعرة بعد شيخهم الأول ، دون أن يميل نحو المعتزلة كما حدث من الرازي مثلاً ، أو نحو الجانب الآخر كما فعل الشهرستاني . ويستخدم كل طاقته في نصرته هذا الموقف الوسط الذي كان له دور كبير في إنهاء النزاع حول هذه المشكلة التي كان أثرها خطيراً في تاريخ المسلمين^(٧) .

٦ ، ٧ - وحين يعرض الآمدى للاعتراضين الأخيرين يؤكد من خلال مناقشته لهما ، وحدة الصفة الكلامية ، فهي في نظره « متحدة لا كثرة فيها »^(٨) . أما تعدد أقسام الكلام

(١) غاية المرام ل ١٥٠ . (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) انظر : الموافقة ٢ / ١٦٠ ، ١٦١ وابن تيمية السلفى ١٣٠ - ١٣٣ .

(٤) انظر : الأسماء والصفات للبيهقي ٢٧٣-٢٧٦ ، ونشأة الفكر ١ / ٣٠١ ، وغاية المرام ص ١١٢ .

(٥) انظر : نهاية الأقدام ٣١٣ - ٣١٧ .

(٦) انظر : موافقة صحيح القول ٢٠ / ١٦٠ - ١٦٢ ، ١٧٠ - ١٧٤ .

(٧) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٦٩ - ٧٢ . (٨) غاية المرام ١٤١ .

إلى أمر ونهى وخبر واستخبار ونحوها فهو تعدد فى الإضافات والنسب لا فى حقيقة الكلام هذا إن سلمنا أنها أقسام للكلام نفسه كما هو « مذهب أبى الحسن الأشعرى، وإلا فإن سلكنا مذهب عبد الله بن سعيد فى أن الأمر والنهى وغير ذلك لا يكون إلا عند تحقق المتعلقات، وأن الكلام خارج عنها .. فلاشكال يكون مندفعاً » (١).

وأحب أن أشير هنا إلى أن هذا الخلاف يؤكد ما أشرت إليه فى أول الكلام على هذه الصفة من أن الأشعرى نفسه لم يأخذ بفكرة التفرقة بين الكلام النفسى والكلام اللفظى، ولذا كان من الطبيعى أن يقول بأن الكلام القديم ينقسم إلى هذه الأقسام. أما ابن كلاب وهو صاحب التفرقة المذكورة فقد تمسك بوحدة الكلام القديم وقال إن هذه الأقسام لا تكون إلا فيما لا يزال (٢)؛ أى فى المتعلقات.

ولذا كان من الصعوبة بمكان للآخذين بفكرة التفرقة - والمقتنعين بوحدة الكلام القديم - أن يوجهوا كلام شيخهم بشأن هذه الأقسام التى يتنوع إليها الكلام منذ الأزل، وقد حاول الآمدى أن يجتاز هذه الصعوبة بالاستعانة بفكرة المتعلقات الكلامية، وبفكرة أخرى فلسفية وهى أن تعدد النسب والإضافات للشيء لا يضر وحدته ولا يخذلها (٣)، فيشبه قول الأشعرى المذكور بما قاله الفيلسوف فى المبدأ الأول، حيث قضى بوحدة وإن تكثرت أسمائه بسبب سلوب وإضافات وأمور لا توجب صفات زائدة على الذات (٤).

ويحاول الآمدى بعد ذلك رد هذه الأقسام الخمسة (الأمر والنهى والخبر والاستخبار والنداء) إلى معنيين اثنين هما الطلب ويشمل الأمر والنهى والنداء، والخبر ويشمل الاستخبار أيضاً لأن الاستخبار الحقيقى على الله - تعالى - محال. بل يرد هذين المعنيين إلى معنى واحد فى النهاية هو الإخبار أو الإعلام، غير أنه إن تعلق بما حكم الله بفعله أو تركه كان طلباً وإن تعلق بغيره سمى خبراً (٥). وهذه المحاولة نجدها من قبل عند الغزالى

(١) غاية المرام ٤١ ب، وانظر: أيضاً الأبهكار ٩٨/١ ب، ١٩٩.

(٢) انظر: غاية المرام ١٤١، ب والأبهكار ١٩١/١، ب وأصول الدين للبغدادى ص ١٠٨ والموافقة لابن تيمية ١٧٥/٢ وما بعدها ومقدمة مناهج الأدلة ٦٧ - ٦٨ ونشأة الفكر ٢٨٤/١ - ٣٠٢ وما سبق أول هذا البحث

(٣) انظر: مناهج الأدلة ص ٤١. (٤) انظر: غاية المرام ل ٤١ ب

(٥) انظر: غاية المرام ص ١١٣-١١٦، والأبهكار ١٩٠/١.

والشهرستاني^(١). وهى تؤكد لنا أن هؤلاء الذين أخذوا بفكرة التفرقة كان لابد لهم أن يعدلوا عن قول أبى الحسن فى قدم الأقسام المذكورة وتنوع الكلام إليها فى الأزل ، ماداموا يحسون بصعوبة تبريرها وتحقيق الاتساق بينها وبين ما انتهوا إليه من قول ابن كلاب ، ولذا نجد الآمدى -رغم إلحاحه على وحدة الكلام واجتهاده فى إثباتها - يستشعر الصعوبة الناجمة عن الجمع بين مذهبين مختلفين فى حقيقتيهما ، فيقول فى «الابكار» : « والحق أن مذكروه من الإشكال على القول بوحدة الكلام فمشكل ، وعسى أن يكون عند غيرى حله »^(٢) . وهى نفس الصعوبة التى حملت الرازى على أن يقول فى بعض كتبه : (إنه لادليل على وحدة الكلام)^(٣) .

أما الاعتراض الخاص بلزوم الكذب فى خبره تعالى لو قلنا بقدم الكلام ، فيرى الآمدى أن دفعه يسير بالنسبة لمن يأخذ بقول ابن كلاب ، أما على قول الأشعرى فجوابه أنه إخبار على تقدير وجود المخبر عنه ، وطلب على تقدير وجود المطلوب منه ، « فإنه غير بعيد أن يقوم بذات الله تعالى خبر عن إرسال نوح مثلا ، ويكون التعبير عنه قبل الإرسال : أنا مرسله . وبعد الإرسال : إنا أرسلنا ، فالمعبر عنه يكون واحدا على مر الدهور وإن اختلف المعبر به »^(٤) . وإنما تاتى الشبهة لمن غاب عنه وحدة الكلام النفسى أو توهم خضوع الصفات الإلهية لأحكام الزمان وتقلب الأحوال ؛ « ومن فهم كلام النفس ، ورفع عن وهمه الأزمان المتعاقبة والأحوال المختلفة .. وجد الأمر على ما ذكرناه »^(٥) ؛ أى من وحدة الكلام وقدمه ، ووجوب صدقه رغم تأخر وجود المطلوب منه والمخبر عنه .

والآمدى يتابع فى رده على هذا الاعتراض إمام الحرمين الجوينى^(٦) والشهرستاني^(٧) . والإمام الرازى فى بعض كتبه^(٨) ، ويرفض رد الغزالي الذى يتمسك فيه بالتزام المعتزلة القول بوجود المأمور وانقضاء الأمر ويرتب على ذلك جواز وجود الأمر دون المأمور . ويرى الآمدى فى ذلك إلزاما للقوم بما لا يلزمهم ، فإن هناك فرقا بين الأمرين ، ولا قياس مع الفارق^(٩) .

(١) انظر : الاقتصاد ص ١١٥ ، ١١٦ ونهاية الأقدام ٢٨٨ . (٢) الابكار ١ / ١٩٨ .

(٣) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣٣٣ . (٤) انظر : غاية المرام ل ١٤٧ .

(٥) نفس المصدر والصفحة . (٦) انظر : الإرشاد ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٧) انظر : نهاية الأقدام ٢٨٨ وما بعدها . (٨) انظر : المحصل ص ١٣٤ .

(٩) انظر : غاية المرام ص ١١٨-١١٩ ، وقارن بالاقتصاد ص ٩١ ، ٩٢ .

وأخيرا فإن المرء قد يعجب بمثل هذا الجهد العقلي الذى يبذله مفكر ينتصر للآراء التى يؤمن بها . ولكنه يعود فيتساءل : أليس من الأفضل للمسلم فى عقيدته، أن يكتفى بإثبات الصفة الكلامية لله – تعالى؛ فإنها كمال أفاضه على بعض خلقه فلا يعقل خلوه عنه ، وأن يعتقد مع هذا أن القرآن هو كلام الله الذى أنزله على قلب محمد ﷺ هدى للعالمين وإعجازا باقيا إلى يوم الدين؟ وقد يغنيه فى هذا تأمل القرآن نفسه ودراسته عن الدخول فى هذه الدروب الكلامية .

* * *

٥ ، ٦ السمع والبصر

(١) المذاهب فيهما :

ويجمعهما الآمدى فيما يسميه « الإدراكات » فى كتابيه : « غاية المرام » ، « والأبكار » .
ويبدأ كعادته ، بتفصيل آراء المتكلمين حول إثباتهما وحقيقتهما :

أ- فمذهب أهل الحق أن الله سميع بسمع ، بصير ببصر ، كل منهما قديم أزلى قائم بذاته ، كما سبق .

ب- وأما المعتزلة فيذكر لهم اتجاهات ثلاثة :

١- فالكعبى يقول : إن معنى كونه سميعا بصيرا أنه لا آفة به ، عالم بالمسموعات والمبصرات لا غير .

٢- ويذهب الجبائى ومن تابعه إلى أن معنى كونه سميعا بصيرا أنه لا آفة به .

٣- ومن المعتزلة من قال : إن معنى كونه سميعا بصيرا أنه مدرك للمسموعات والمبصرات ، والإدراك يزيد على العلم^(١) .

والنص على هذا الاتجاه الأخير لدى المعتزلة من الأهمية بمكان ، فقد نقل الأشعرى عنهم فى الإبانة^(٢) أنهم يرجعونهما إلى العلم ، وقد أشار المرحوم الأستاذ الزركان ، فى دراسته عن الرازى ، إلى أنه قد حكى عن المعتزلة أن جمهورهم يقولون بأن السمع والبصر زائدان على العلم ، وقال : إن رواية الرازى غير صحيحة فى نظره ؛ « لأن الأشعرى - وهو الأعراف منه بمذاهب القوم - يقول غير هذا القول »^(٣) . ولكن ما يذكره الآمدى هنا من تفصيل لمذهب المعتزلة يؤكد دقة نقل الرازى عنهم ، ويدل على أن الأشعرى لم يقصد فى الإبانة إلى استقصاء مذاهبهم ، بل قصد الرد على من فسر منهم السمع والبصر بالعلم ، وهو الاتجاه الذى غلب على المعتزلة البغداديين خاصة ؛ لأنه فى مقالات الإسلاميين - وهو كتاب مشهود له بالدقة - يفصل آراءهم بقريب مما ذكره الآمدى فيما سبق :

(١) انظر : غاية المرام ل ٥٣ ب ، والأبكار ١/ ١٩٩ . (٢) انظر : الإبانة ص ٥٩ .

(٣) انظر : : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣١٧ ، وقارن المحصل ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

أ- العلم بالمسموعات والمبصرات .

ب- نفى العمى والصمم .

ج- إثبات إدراك يزيد على العلم؛ حيث يقول : « من قال : إن القول عالم ، إثبات اسم لله ومعه علم بمعلوم ، فكذلك يقول : قولى سميع إثبات لله ومعه علم بمسموع ، وقولى بصير ، إثبات اسم لله ومعه علم بمبصر .. ومن قال : اختلف القول عالم وقادر ؛ لاختلاف ما نفيا عن الله من الجهل والعجز ، فكذلك يقول : اختلف القول سميع وبصير ، لاختلاف ما نفيا عن الله من الصمم والعمى . ومن قال : اختلف القول عالم وقادر لاختلاف المعلوم والمقدور ، فكذلك يقول : اختلف القول سميع وبصير ، لاختلاف المسموع والمبصر ، أو لاختلاف الفوائد التى تقع عند قولنا سميع بصير »^(١) .

فتلك هى الاتجاهات الثلاثة التى ذكرها الآمدى موجزة واضحة . وأهم من ذلك أن نصوص المعتزلة أنفسهم تؤكد أيضاً . يقول عبد الجبار : « فعند شيوخنا البصريين أن الله تعالى سميع بصير مدرك للمدركات ، وأن كونه مدركاً صفة زائدة على كونه حياً ، وأما عند مشايخنا البغداديين هو أنه تعالى مدرك للمدركات على معنى أنه عالم بها وليس له ، بكونه مدركاً ، صفة زائدة على كونه حياً »^(٢) ، ثم يأخذ فى نصرة قول البصريين ويؤكد ذلك فى المغنى أيضاً^(٣) . وهذا ما تؤكد مصادره أخرى^(٤) ودراسات حديثة^(٥) أيضاً .

ويقتصر الآمدى على بيان موقف الأشاعرة والمعتزلة ، ومعلوم أن الماتريدية أيضاً وكذا ابن رشد يوافقون الأشاعرة فى هذا ، وإن كان ابن رشد ينصح بعدم الإلحاح على قدم السمع والبصر مع حدوث متعلقتهما ، حماية للعامة من الشكوك الناجمة عن ذلك^(٦) .

أما الفارابى وابن سينا فيردانهما إلى العلم^(٧) . وأما الكرامية فقد أثبتوا السمع

(١) مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٣ ، ٢٣٤ . (٢) شرح الاصول الخمسة ص ١٦٨ .

(٣) المغنى ٤/ ٣٣ ، ٣٥ ، ٨١ ، ٢٤٢/٥ . (٤) الملل والنحل ١/ ١٠٨ ونهاية الاقدام ٣٤١ .

(٥) نشأة الفكر للنشار ١/ ٥٠٥ - ٥٠٩ واهو الهذيل العلاف ٣٩ ، ٤٠ .

(٦) مناهج الادلة ١٦٥ ، بحر الكلام للنسفى ١٥ ، ١٦ .

(٧) انظر : ابن سينا بين الدين والفلسفة ١٠٧ ، ١٠٩ وعبون المسائل للفارابى ٦٠ ، ٦٥ .

والبصر^(١)، ولكن فرقوا بين ثبوتهما أزلا وتعلقهما بالمحدثات وهو ما يحدث من التسمع والتبصر وكلاهما حادث عندهم. ولهذه الفكرة أصل عند المعتزلة^(٢).

ب- إثباتهما :

ثم يعرض الآمدى للأدلة التى ساقها المتكلمون لإثبات هاتين الصفتين :

١- فيذكر دليل الأشعرى المشهور : « لو لم يتصف بهما لاتصف بضدهما ، وذلك نقص فى حق البارى تعالى » ويذكر حجة الأشعرى فى ذلك : البارى تعالى حى ، والحى إذا قبل معنى وله ضد ولا واسطة بينهما لم يخل عنه أو عن ضده ، ولا محالة أن كونه حيا مما يوجب قبوله للتسمع والبصر ، والدليل على قبوليته لهما ما نراه فى الشاهد ، فإن الموجب لقبولية الإنسان وغيره من الحيوان للتسمع والبصر كونه حيا^(٣).

وهذا دليل يقوم على الاستقراء وقياس الغائب على الشاهد ، والآمدى - كما سبق - يرى بطلان الثانى وضعف الأول ، وعدم صلاحيتهما جميعا فى المباحث الإلهية ، لانه تعالى لا يشترك مع غيره فى وصف يعمهما ، حتى يمكن قياسه على غيره قياس تمثيل أو تعدي حكم الشاهد إليه ؛ فدون ذلك مخاطر واستحالات عديدة ينبه إليها الآمدى^(٤).

٢- وهناك دليل آخر ينسبه الآمدى إلى المعتزلة وخلاصته : « إن الله تعالى حى لذاته ، وكل حى لذاته يدرك المدرك عند وجوده »^(٥) . وقد اعتمد عليه الأشاعرة والماتريدية أيضا^(٦). ولكن الآمدى ينتقده فى الأبهكار بأنه « مبنى على أن الحياة علة الإدراك فى الشاهد فيلحق الغائب به وهو معيب »^(٧).

وهكذا يلاحظ الآمدى أن الدليلين صورتان لفكرة واحدة تقوم على المماثلة بين

(١) انظر : الفرق بين الفرق ٢٠٤ ، ونشأة الفكر ١/ ٦٢٥ - ٦٢٨ .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٣) انظر : غاية المرام ص ١٢٢٢ ، والمآخذ ل ١٤٥ ، ب ، وقارن اللع للأشعرى ٢٥ ، ٣٦-٣٧ ، والإبانة ٦٣ ، وكذا التمهيد للباقلانى ٤٧ ، ونهاية الأقدام للشهرستانى ٣٤١ ، وقد انتقده الغزالى فى الاقتصاد ١١ ، وعبد الجبار فى المغنى ٥/ ٢٢٩ .

(٤) انظر : ص ١٢٢ من غاية المرام ، والأبهكار ١/ ١١٠٠ ، ب .

(٥) الأبهكار ١/ ١١٠١ ، ١٠٢ ، ب ، وقارنه بالمغنى ٥/ ٢٤١ وشرح الأصول الخمسة ١٦٨ .

(٦) اللع ٢٥ وفخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣١٩ .

(٧) الأبهكار ١/ ١٠٢ ب .

عالمى الغيب والشهادة وهو ما لا يرتضيه ؛ ولذا يقول فى (المآخذ) : « وفيه ما فى الأول » يقصد دليل الاشاعة السابق^(١).

٣- ويشير الآمدى إلى استدلال بعض « الأصحاب » عليهما بالأدلة السمعية، ولعله يشير إلى الامام الرازى الذى مال إلى الاستدلال عليهما بالآيات والاحاديث، وإن لم يرتض الإجماع دليلا^(٢). أو الغزالي الذى جمع بين حجة الكمال والآيات القرآنية لإثباتهما^(٣). على أن هذا لا يقتصر على الاشاعة^(٤). ولكن الآمدى - طبقا لمنهجه - لا يرتضى هذا الاستدلال، ويراه من قبيل الظنيات التخمينيات، وذلك لا مدخل له فى اليقنيات^(٥)، التى تقوم عليها أصول العقائد فى نظره.

٤- « فإذا السبيل فى الدليل ههنا ليس إلا ما أشرنا اليه فى مسألة الإرادة »^(٦)؛ هو يقصد حجة الكمال، وقد اعتمد عليها فى الأبحاث أيضا، وسبق للغزالي أن استدلى بها كما أشرت لذلك آنفا، واعتمد عليها الرازى فى بعض كتبه دون البعض الآخر^(٧). وهى أكثر إقناعا وأبعد عن مظان التشبيه التى تلزم بعض الأدلة الأخرى.

ج- شبهات حول إثبات السمع والبصر :

يقول الآمدى : إنه ربما ترد على هاتين الصفتين تشكيكات وخيالات لا بد من مناقشتها^(٨)، وهذا صحيح، لأن هاتين الصفتين مرتبطتان فى الشاهد بالحواس المعروفة، فقد يتوهم من إثباتهما لله تعالى التشبيه؛ ومن تلك التشكيكات :

١) ما الداعى إلى إثبات السمع والبصر، صفتين لله تعالى، والعلم يغنى عنهما؛ فإنه يتعلق بسائر المعلومات ومنها المسموعات والمبصرات^(٩)؟

و يتمسك الآمدى فى رده على هذه الشبهة بما يجده المرء فى نفسه من معارف جديدة عند إدراكه الحسى لما سبق علمه بطريق آخر، كالوصف والروية أو البرهنة العقلية

(١) المآخذ ل ٤٥ ب .

(٢) انظر : الأربعين ١٧٠ - ١٧٢ والمحصل ١٢٤ وفخر الدين الرازى وآراؤه ٣٢٠ وما بعدها .

(٣) الاقتصاد : ٦٥ . (٤) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣١٩ .

(٥) غاية المرام ل ٥٤ ب، وانظر : الأبحاث ١/ ١١٠٢ . (٦) غاية المرام ل ٥٤ ب .

(٧) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ٣٢٣ . (٨) انظر : ص ١٢٤-١٣١ من غاية المرام .

(٩) انظر : ص ١٢١ من غاية المرام .

مثلا : «والإنسان قد يجد من نفسه معنى زائدا عند السمع والبصر على ما كان قد علمه بالدليل أو الخبر .. فالمعنى بالإدراك ليس إلا هذا المعنى»^(١) . وقد قال القاضي عبد الجبار ، فى مواجهة مثل هذه الشبهة : «والفصل بين كونه مدركا لسائر المدركات يعرفه العاقل من نفسه ، كما يعرف الفرق بين كونه مدركا وكونه عالما ، وما حل هذا المحل ؛ فالتنبية عليه يغنى عن تحديده بعبارات ، لأنه يقع به من الكشف والإلهام أكثر مما يقع بالعبارات»^(٢) . وهذه التفرقة بين معطيات الإدراك الحسى ، وبين العلم بها بطريق آخر ، نجدناها عند ابن رشد وهى عمدته فى إثبات صفتى السمع والبصر^(٣) . وعند الإمام الغزالى^(٤) والشهرستانى^(٥) أيضا .

ب) اذا كان الإدراك معنى زائدا على العلم فمعنى ذلك أن الواحد منا يدرك بإدراك ، وهذا يلزم عليه أن يكون بين يديه فيل عظيم أو جبل شامخ ، ومع ذلك فيجوز ألا يدركه متى لم يخلق فيه ذلك الإدراك ، وهذا إلزام يوجه عادة إلى الأشاعرة لقولهم بأن الإدراك من خلق الله سبحانه ، جرت به العادة عند اكتمال أسبابه العادية . بينما يحرص خصوصهم من المعتزلة وغيرهم على تأكيد الارتباط الضرورى بين توفر شروط الإدراك وحصوله للمدرك^(٦) . والآمدى يرفض هذا الإلزام ، ويوضح فكرة الأشاعرة فيقول : أجل نحن نسلم بالجواز العقلى فقط فى مثل هذه الحالة التى ذكرتموها ، ولكننا نقول باستحالته عادة ، أى أنه لابد أن يدركهما ، وقد جرت بذلك عادة الله - عز وجل - أو سننه ، فإنه كما يستحيل عادة انتفاء الإدراك للفيل عند حضوره بين يدى ذى البصر السليم ، كذلك يستحيل القول بانتفاء خلق الإدراك فى مثل تلك الحالة أيضا^(٧) . وهى من نتائج موقف الأشاعرة من (العلية) ، وسيأتى بيانه .

ج- لو سلمنا بأن الإدراك أمر زائد على العلم ، فلم لا يكون سلبيا كما فسر الجبائى بنفى الآفة عمن له الحياة؟^(٨) ويجيب الآمدى بأنا «قد بينا أن الانسان يجد من نفسه

(١) انظر : ص ١٢٧ من غاية المرام والابكار ١/ ١٠٤ - ١٠٥ ب ، والمآخذ ايضا ٤٤ ب ، ٤٥ ب .

(٢) المغنى ٨١/ ٤ . (٣) انظر : : مناهج الادلة ١٦٥ .

(٤) انظر : المقصد الاسنى ٥٤ ، ٥٥ . (٥) انظر : نهاية الاقدام ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٦) غاية المرام ل ١٥٦ = ص ١١٦ قسم ثان وانظر : الابكار ١/ ١١٥ ب .

(٧) انظر : هذا الإلزام والمناقشات حوله فى المغنى ٣٩/ ٤ .

(٨) انظر : رأى الجبائى مفصلا فى المغنى ٤/ ٥٠ - ٥٨ ، ٢٢٩/ ٥ ، ٢٣٠ ، وفى نهاية الاقدام ٣٤٦ ، ٣٤٧ والابكار ١/ ١٠١ ، ب حيث يرد عليه الآمدى من وجوه سبعة يستمد بعضها من مذهب الجبائى نفسه .

تفرقة بين الإدراكات ، وذلك لابد وأن يكون بأمر زائد على الحياة وانتفاء الآفة ، وإلا لما وقع الفرق . ثم كيف يصح أن يقال : السميع والبصير هو الذى لا آفة له ، ويقال لمن يسمع ويبصر وهو مثوف ناقص»^(١) ؟ . فإن قال الجبائى فى تفسير رأيه : « ليس السميع هو من سلبت عنه الآفة مطلقا ، بل من سلبت عنه الآفة فى محل السمع»^(٢) ، فهذا فى نظر الآمدى عودة إلى نفى الآفة مطلقا مع تكرار بغيض ، لأن معناه : السميع هو من له السمع فى محل السمع فإذا حذفنا الجزء الاخير لكونه مكررا ، وفسرنا السمع بمعنى سلبى كان معناه : السميع هو من لا آفة به ، وعادت المناقشة السابقة . على أن الجبائى نفسه لم يفسر العلم والقدرة بالسلب فنحن نقول فى السمع مقالته فى العلم والقدرة^(٣) .

د- ألا يمكن أن يؤدى القول بقدّم السمع والبصر إلى القول بقدّم المسموع والمبصر فيلزم عن ذلك قدم العالم ؟ والإجابة عن هذا سهلة يسيرة تعتمد على فكرة (التعلقات) فالصفة قديمة أزلية ، ومتعلقاتها حادثة ، والتجدد فى المتعلقات أو التعلقات لا يعنى أى تغير فى الذات ، إذ التعلق مجرد نسبة وإضافة بين الصفة ومتعلقاتها، وهى فى ذلك كالعلم وسائر الصفات « فإن تعلق السمع والبصر بمتعلقاتهما الحادثة لا يتقاصر عن تعلق العلم بمتعلقاته الحادثة ، فما به دفع الإشكال ثم به دفعه ههنا»^(٤) .

هـ- الإدراك فى الشاهد مستلزم للبنية المخصوصة والجوارح المعينة من عين وأذن ونحوها، وهذا محال على الله ، أما إذا نفيت البنية المخصوصة فإنه يلزمكم أيضا اختلاط الإدراكات المختلفة، أو أن تصلح حاسة واحدة لكل الإدراكات، وهو ممتنع، كما نلاحظه فى الشاهد . وهو اعتراض يوجه - عادة - إلى سائر المتكلمين ، وهم يتمسكون جميعا فى هذا المقام بالتفرقة بين الغائب والشاهد ، فإذا كانت الحواس ضرورية للإدراك بالنسبة إلى الانسان والحيوان فالله بخلاف ذلك^(٥) . وربما كان الاعتراض أشد على المعتزلة ، فهم

(١) انظر: ١٢٨ من غاية المرام .

(٢) غاية المرام ل ٥٦ أقسم ثان وقد نقل عبد الجبار هذا التفسير عن كتاب للجبائى اسمه (التولد) انظر : المغنى ٥١ / ٤ . (٣) انظر : ١٢٨-١٢٩ من غاية المرام ، والابكار ١ / ١١٠٥ .

(٤) غاية المرام ل ٥٦ ، ب ، وقارن : شرح الاصول الخمسة ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٥) شرح الاصول الخمسة ١٧٣ والعقيدة النظامية ص ٢٢ ونهاية الاقدام ٣٤٧ وفخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣١٩ والمآخذ ١٤٥ ، ب .

القائلون بالبنية المخصوصة^(١). ولكنهم يتخلصون منه بأن «أحدنا إنما يحتاج في إدراك هذه المدركات إلى الحواس لأنه حي بحياة، والحياة لا يصح الإدراك بها إلا بعد استعمال محلها في الإدراك ضرباً من الاستعمال، والقديم تعالى حي لذاته ففارق أحدهما الآخر»^(٢). وهو هنا يستخدم التفرقة بين الله والخلق، مستعيناً في تأكيد ذلك بالفكرة الاعتزالية عن علاقة الصفات بالذات. أما الأشاعرة فرغم قولهم بأن الله حي بحياة، سميع بسمع... فإنهم لا يشترطون - أصلاً - البنية الخاصة للإدراك، ويقولون بجواز خلق الله له، دون البنية المعينة من عين وأذن ونحوها، وهذا الشرط عادي يجوز تخلفه في الشاهد، فكيف بالله - سبحانه، وإذن فهم بمنجاة من هذا الاعتراض.

أما الآمدى فقد علمنا رفضه لكل قياس للغائب على الشاهد، وتشبثه بالتنزيه. ولقد كانت هذه التفرقة تكفيه في رد هذا الاعتراض، ولكنه مبالغ في رده يقول: إن المعتزلة أنفسهم، وهم أصحاب فكرة (البنية المخصوصة)، يلزمهم القول بالإدراك دون بنية، وذلك لقولهم بالجزء الذي لا يتجزأ، وتفسيرهم الإدراك بأنه الحياة وانعدام الآفة، وإذا فكل جزء من الحى تُداخله الحياة يجب أن يكون مُدركاً، ويلزم ألا تكون البنية المخصوصة شرطاً^(٣).

وينبغي أن نتنبه إلى أن قيام الإدراك بالجوهر الفرد ليس رأياً للمعتزلة، وإنما هو إلزام لهم لا يلتزمون به جميعاً كما يشير إلى ذلك الآمدى نفسه^(٤)، وإن قال به بعضهم^(٥). على أن مثل هذا الإلزام قد وجه إلى الأشعرى أيضاً^(٦) وإلى القاضي الباقلاني^(٧).

(١) انظر: المغنى ٥٠/٤ - ٦٤ وأصول الدين للبغدادى ١٠٥، ١٠٦ والابكار ١/١٠٣.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ١٧٣.

(٣) انظر: تفصيل هذا الإلزام في غاية المرام ١٢٩-١٣٠، والابكار ١/١٠٤ ب، ١١٠٧، ب.

(٤) انظر: المراجع في الهامش السابق.

(٥) انظر: مقالات الإسلاميين ١٠/٢.

(٦) انظر: أساس التقديس ص ٤٠ وأصول الدين للبغدادى دى ص ٢٨، ٢٩ ويقول المرحوم الزركان في دراسته

عن الرازى: (انه ليس لدينا من النصوص ما يدل على ثبوت ذلك أو نفيه) فخر الدين الرازى ص ٢٤٧.

(٧) انظر: كتاب البيان ص ٦٨.

ثم يعود الآمدى إلى إلزام المعتزلة من وجه آخر : لو كانت البنية شرطاً لوجب طردها شاهداً وغائباً كما ذهبوا اليه واعتمدوا عليه فى الاشتراط ، ولو كان كذلك لوجب كون البارى ذا بنية مخصوصة ، لضرورة الاعتراف بكونه مدركاً^(١) ، ولكنه يفتن - هنا - إلى تمسك المعتزلة بأن اشتراط البنية إنما هو فى حق المدرك بإدراكه ، فلم يلزم فى حق الله ، لأنه مدرك بذاته لا بإدراكه ، كما سبق نقله عن القاضى عبد الجبار وهو يرى أن ذلك جهل وباطل ؛ لأنه « مناقضة لأصولهم » أى مخالفة لمنهجهم وتلاعب فى تطبيقه » حيث إنهم جعلوا الحياة شرطاً فى الشاهد لكون العالم عالماً ، ثم طردوا ذلك فى حق الغائب حتى قالوا : إن الحياة شرط كونه عالماً ، وإن لم يكن عالماً بعلم ، ولم يجعلوا البنية شرطاً لكون المدرك مدركاً ، متى لم يكن مدركاً بإدراكه لضرورة كونها شرطاً لكون المدرك مدركاً بإدراكه ، ولم يعلموا أنهم فى ذلك متحكمون... وأنهم لو سئلوا عن الفرق لم يجدوا إليه سبيلاً^(٢) .

وأما دعوى الالتباس بين الإدراكات فغير مقبولة ، لأن الالتباس بين الأشياء لا يكون بسبب اتحاد محلها ، وإلا لما تصور قيام عرضين مختلفين بمحل واحد كالسواد والطول مثلاً ، إنما يكون الالتباس بين الأشياء بسبب التشابه بينها فى أنفسها ، وقد ثبت أن الادراكات متميزة ، وأن الحاصل من كل واحد منها غير الحاصل من الآخر^(٣) .

ويواصل الآمدى نقد فكرة المعتزلة عن الإدراك الحسى ، فيقول : إنهم يتوهمون خروج شئ من العين أو محل الادراك يتصل بالمبصر أو المدرك ، وهذا خطأ ، وتلزمه محالات عدة^(٤) ، ويستدل على بطلان نظريتهم « بمن يقف فى الظلمة ويرى من فى الضوء »^(٥) . ولا شك أن هذا النقد صحيح ، وهو أكثر توافقاً مع حقائق العلم مما يؤثر عن المعتزلة ، كالذى يقرره القاضى عبد الجبار فى المغنى من « أن الرأى منا لا يرى إلا بشعاع ينفصل من عينه »^(٦) هذا ، بالرغم من أن معاصرين له كابن سينا والحسن الهيثم يؤكدان خطأ مثل هذا القول^(٧) .

(١) غاية المرام ٣٠ .

(٢) غاية المرام ١٥٧ ، وقارن هذا النقد القاسى للمعتزلة بدفاعه عنهم ضد إلزام الغزالي لهم فى مسألة امر المعدوم والامر بالمعدوم ل ٤٧ ب ، ٤٨ من غاية المرام .

(٣) انظر : ١٣٠-١٣١ من غاية المرام ، والابهكار ١/ ١٠٨ .

(٤) انظر : ص ١٣١ من غاية المرام والابهكار ١/ ١٠٣ ب - ١٠٩ ب .

(٥) الابهكار ١/ ١٠٩ ب . (٦) المغنى للقاضى عبد الجبار ٤/ ٥٩ - ٦٩ .

(٧) انظر : النجاة ص ١٦٠ - ١٦٢ رسالة الحسن بن الهيثم فى الضوء ص ٢٢ .

ولكن الآمدى ، إمعانا منه فى التهوين من أمر الشروط العادية للإدراك ينفى اتصال شىء من المبصر بالبصر سواء على جهة الانفصال المادى^(١) أو على سبيل الانطباع والتمثيل^(٢) ، ويستدل على ذلك بظواهر تمكن مناقشتها ، وواضح أنه يخالف التفسير العلمى الصحيح لظاهرة الإبصار هذه المرة ، وأنه يريد دعم فكرته فى أن البصر والسمع لا يستلزمان أى نوع من المماساة أو الاتصال أو العلاقة الحسية ، وأن « الإدراك ليس إلا معنى يخلفه الله تعالى للمدرك ، مع قطع النظر عن الانتقال والانطباع فى الآلات والأدوات ، وحيث لم يكن للعين أو اليد وغير ذلك من الجوارح قوة الإدراك فليس لعدم صلاحية الإدراك ، بل لأن الله تعالى لم يخلق الإدراك »^(٣).

وهكذا يسفر الرجل عن أشعرية خالصة طالما وجهت إليها سهام النقد من المتمسكين بفكرة العلية من المسلمين^(٤) ، وله حقه فى الانتصار للرأى الذى يختاره . وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن إثبات السمع والبصر ، صفتين لله تعالى ، لا يتوقف على مثل هذا التفسير الخاص للإدراك الحسى ، ويكفى فيه التمسك بمبدأ التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة^(٥).

و- أما التمسك بالشتم والذوق فقد سبق للآمدى أن حدد موقفه منهما ، إذ أشار إلى إنكار بعض الأصحاب لهما ، لأنهما - فى نظرهم - لا يحدثان بدون مماسة أو اتصال حسى^(٦) ، وهذا هو موقف المعتزلة حتى المثبتين للسمع والبصر منهم^(٧) . أما هو فلا يرى - مع التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة - مانعا عقليا من نسبتها إلى الله عز وجل ، ولكنه يتوقف عن ذلك ، لعدم ورود الشرع به .

ومن ذلك يبدو تمسك الآمدى بالموقف الأشعرى من هذه المسألة ، وإن كان يستدل عليه بطريقة تختلف عن كل من سبقه من أسلافه .

(١) ينسب الآمدى ذلك إلى الطبيعيين من الفلاسفة : الأبيكار ١٠٩/١ وقد نسب مثل هذا للنظام من المعتزلة انظر : أصول الدين للبيهقي ١٦ ، ١٧ ونشأة الفكر / النشار ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٢) ينسبه فى الأبيكار إلى ابن سينا ل ١٠٨/١ ب ، ١١٠٩ .

(٣) غاية المرام ل ٥٨ ، ب ، وانظر : الأبيكار ١١٠/١ .

(٤) انظر : المغنى ٥٦/٤ ، ٥٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ومناهج الأدلة ١٨٦ - ١٩٠ ومقدمته ١٦ ، ١٧ ونقض المنطق لابن تيمية ص ٢٨ ورسالة الواسطة بين الحق والخلق له أيضا ص ١١ - ١٥ .

(٥) مناهج الأدلة ص ١٦٥ . (٦) وانظر : ١٢٤ - ١٢٥ من غاية المرام .

(٧) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ١٧٣ .

(٧) صفة الحياة

أ (الآراء حولها :

هذه آخر الصفات الإيجابية ، والآمدى يتحدث عنها فى أقل من سطرين من كتابه غاية المرام ، قائلاً فى ختام حديثه عن السمع والبصر : « وعند هذا فينبغى أن يعلم أن المستند فى إثبات صفة الحياة ما هو المستند فى الإدراكات وباقى الصفات »^(١) . وواضح أنه يقصد طريقة الكمال التى تقضى بأن خالق الحياة والاحياء لا يمكن إلا أن يكون حياً ، ولكنه يفصل كلامه عنها فى « الابهكار » إلى حد ما^(٢) ، وإن كان يتسم بالإيجاز أيضاً ، وليس غريباً فى أن يوجز كلامه عن هذه الصفة ، فإن الغزالي يقرر فى « الاقتصاد » أن « النظر فى صفة الحياة لا يطول »^(٣) ؛ لما أنها - فى نظره - ضرورية متى أثبتنا العلم والقدرة .

والآمدى يبدأ كعادته بذكر الآراء حولها ، فيشير إلى الإجماع على كونه - تعالى - حياً^(٤) ، ثم يفصل الآراء على النحو التالى : « فذهب أصحابنا إلى أن الله - تعالى - حى بحياة ، وأن الحياة صفة وجودية زائدة على ذات الرب تعالى . . . واتفقت المعتزلة على كونه حيا لا بحياة ، لكن منهم من قال : معنى كونه حيا أنه لا يمتنع عليه أن يعلم ويقدر كأبى الحسين البصرى »^(٥) ، وذهبت الفلاسفة إلى أن معنى كونه حيا أنه ليس بميت »^(٦) ، وهذا عرض موجز وصحيح لموقف الطائفتين^(٧) .

وقد ذكر ابن رشد صفة الحياة ضمن الصفات السبعة التى هى من قبيل « أوصاف الكمال الموجود فى الإنسان » أى أنها عنده صفة كمال إيجابية ، وليست مجرد سلب الموت^(٨) . وانتقد القاضى عبد الجبار هذه الفكرة بأننا يمكن أن نصف الجماد بأنه ليس بميت ولا يوجب ذلك كونه حيا ، كما انتقد تفسير الحياة بالمعنى المنسوب إلى أبى الحسين - حسب رواية الآمدى السابقة - مما يدل على أن الفكرة ظهرت قبل أبى الحسين فى

(١) انظر : غاية المرام ص ١٣٣ . (٢) انظر : الابهكار ١/ ١١١ - ١١٢ .

(٣) الاقتصاد ص ٦٠ . (٤) الابهكار ١/ ١١٠ .

(٥) السابق . (٦) الابهكار ١/ ١١١ .

(٧) انظر : شرح الاصول الخمسة ص ١٦٠ - ١٦٧ والمغنى ٥/ ٢٢٩ - ٢٣١ وعيون المسائل ص ٥٠ والكندى وفلسفته ص ٨٦ ، ومقدمة مناهج الأدلة ص ٤٠ .

(٨) انظر : مناهج الأدلة ١٦٠ - ١٦١ .

الوسط الاعتزالي (١) .

أما الماتريدية فإنهم يعتبرونها إحدى صفات الذات القديمة التي هي عندهم ليست نفس الذات ولا غيرها (٢) ، وإذا فالاتجاه العام لدى أكثر المتكلمين هو اعتبار صفة الحياة معنى إيجابيا ، وليست مجرد سلب للموت أو العجز أو الجهل (٣) ولقد كان لهذه الصفة أهمية خاصة منذ الصدر الأول ، فقد روى الإمام أحمد وغيره أحاديث تدل على أن قوله تعالى في آية الكرسي وغيرها (٤) ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ يحوى اسم الله الأعظم (٥) . فالحياة الكاملة الحقيقية ثابتة لله عز وجل .

ب- الاستدلال عليها :

١- يستعرض الآمدى (فى الأبهكار) الأدلة التي سلكها المتكلمون لإثبات هذه الصفة ، وينتقدها بادئا بالطريق المشهور الذي سلكه الأشاعرة والمعتزلة (٦) ، وهو أن الحياة شرط للاتصاف بالعلم والقدرة فى الشاهد فكذا الغائب ، ولقد استدل به ابن رشد فى مناهج الأدلة أيضا - وهو الحريص دائما على التفرقة بين عالم الغيب والشهادة - قائلا : « وذلك أنه يظهر فى الشاهد أن من شروط العلم الحياة ، والشرط عند المتكلمين يجب أن ينتقل فيه الحكم من الشاهد إلى الغائب ، وما قالوه فى ذلك صواب » (٧) . لقد وجد ابن رشد أن تعدية حكم الشاهد هنا إلى الغائب مقبول عقلا ، فغير الحى لا يمكن أن يتصف بالعلم ، وقد سبق له أن قال عن قياس الغائب على الشاهد : « وهو دليل خطبى إلا حيث النقلة معقولة بنفسها ، وذلك عند التيقن باستواء طبيعة الشاهد والغائب » (٨) .

أما الآمدى فإنه يتمسك برأيه فى هذا الضرب من القياس ، ويقول بعد عرض الدليل المذكور : « وهو ضعيف لما سبق من إبطال إلحاق الغائب بالشاهد » (٩) .

(١) المغنى ٢٢٩/٥ وشرح الأصول الخمسة ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) انظر : بحر الكلام ص ١٥ ، ١٦ . (٣) انظر : المحصل ص ١٢١ .

(٤) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة . (٥) انظر : تفسير ابن كثير ٣٠٨-٣٠٤/١ .

(٦) انظر : اللمع ص ٢٥ ، والإرشاد ٦٣ والتمهيد ص ٤٧ ، وأصول الدين ١٠٥ ، والاقتصاد ص ٦٠ والفرق بين الفرق ٣٢٥ والمواقف ٨/٨٠ .

(٧) مناهج الأدلة ص ١٦١ . (٨) المصدر نفسه ص ١٤١ . (٩) الأبهكار ١/١١١ ، ب .

٢- وهناك دليل آخر ينسبه الآمدى أيضا إلى الأشاعرة ، وقد استخدمه القاضى عبد الجبار المعتزلى لدعم الدليل السابق ،^(١) وخلاصته أن الذوات تنقسم إلى ما يصح أن يعلم ويقدر إلى ما لا يجوز عليه ذلك ، وهى من حيث كونها ذوات متشابهة ، فوجب رجوع هذا الاختلاف إلى صفة غير الذات هى الحياة^(٢) . ولكن الآمدى يعقب على هذا الرأى بأنه يمكن أن تكون صحة قبول القادرية والعالمية مستندة إلى نفس الذات لا إلى أمر خارج عنها^(٣) وقد سبقه الرازى إلى هذا النقد ،^(٤) وقد اطلع عليه الآمدى لانه يلخصه عنه فى كتاب (المآخذ)^(٥) .

٣- أما المسلك الثالث فينسبه إلى بعض المتأخرين من الأصحاب ، ويقصد به الإمام الرازى فهو الذى سلك هذا المسلك اللفظى المعقد لإثبات كون الحياة صفة ثبوتية^(٦) زائدة على الذات . ويعرضه الآمدى بقوله : (أجمعنا على كون الرب - تعالى - حيا ، فقولكم الحى هو الذى لا يمتنع عليه أن يعلم ويقدر إشارة إلى سلب الامتناع ، والامتناع سلب يتطلب أمراً ثبوتياً) ويقرر الآمدى أن هذا مسلك ضعيف ولا يدل على المطلوب^(٧) وقد قال المرحوم الزركان فى بحثه عن الرازى : إن بحث صفة الحياة من أضعف أبحاث الرازى بناء^(٨) .

٤- ثم يختار الآمدى فى (الأبهكار) مسلكا آخر خلاصته : قد ثبت أن البارى تعالى قابل للاتصاف بالعلم ، والقدرة ، والارادة ، والا لما صح اتصافه بها ، وهذه القابلية زائدة على نفس الذات وعلى الصفات المذكورة ، فإننا قد ندرك نفس الذات ، وندرك كلا من هذه الصفات ، ولجهل فى نفس الوقت قبول الذات لها ، والمعلوم غير ما ليس بمعلوم ، وتلك القابلية الزائدة هى الحياة . ثم يستدل على كونها معنى وجوديا بقريب من طريقة الرازى اللفظية التى سلفت . وأعتقد أن هذا الدليل ليس جزءاً مما سبق للآمدى نقده ، وإن

(١) شرح الأصول الخمسة ص ١٦١ .

(٢) انظر : المصدر السابق والأبهكار ١١١/١ ب ، والمواقف ٨/٨١ .

(٣) الأبهكار ١١١/١ ب . (٤) المحصل ص ١٢١ .

(٥) المآخذ ل ٤٦ ب . (٦) العالم للرازى ص ٤٤ وانظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٣١٥ - ٣١٧ .

(٧) الأبهكار ١١١/١ ب . (٨) فخر الدين وآراؤه ص ٣١٧ .

لم يخل من التأثير بفكرة الشرط الكلامية التي يبدو أن الآمدى رغم نقده لها لم يتخلص منها تماماً . وخير من هذه الأدلة جميعا اللجوء إلى طريقة الكمال التي اختارها فى (غاية المرام) ؛ فإنه من غير المعقول أن يكون مصدر حياة كل حى وحافظها خلواً من الحياة بالمعنى الذى يليق به عز وجل .

* * *

المبحث الرابع

الصفات السلبية - أو معرفة التنزيه

تمهيد - نزعة التنزيه والتأويل وتطورها عند الأشاعرة :

رأينا كيف يحرص الآمدى على إثبات الصفات النفسية ، وتأكيد الكمالات الإلهية الإيجابية ، وبقي أن نعرف موقفه من تنزيه الله تعالى عن كل مشابهة بخلقه ، وسلب كل نقص يمكن أن يخطر في العقول حول ذاته أو صفاته . فبهذين معاً تكمل الطريق الى المعرفة الصحيحة الممكنة بالله - عز وجل - عند المتكلمين . ولقد كان الآمدى يهتم في المرحلة الأولى بالإثبات ، بينما يهتم في الأخرى بالنفى ، وكانت الكمالات الأولى إيجابية ، أما هذه فسلبية ، وكانت الوسيلة في الأولى مزيجاً من التشبيه والتنزيه تعبر عنه « قاعدة الكمال » ، أما هنا فالطريق تنزيهى خالص لا يلم بشيء من التشبيه ، وكان الخصوم في المرحلة السابقة هم المعتزلة والفلاسفة والباطنية ممن يسرفون في التنزيه أو التعطيل ، وأما خصوم هذه المرحلة فهم الحشوية والمشبهة والمجسمة والكرامية من أديعاء السلفية ، والمنسوبين إلى السنة ، ومن غلاة المذاهب الأخرى الذين نزعوا إلى التشبيه والتجسيم والتمثيل .

وإذا كان الآمدى لا يختلف - فيما سبق - عن أسلافه الأشاعرة إلا في المنهج العام الذى حدده لنفسه ، والأدلة التفصيلية التى اختارها تطبيقاً لهذا المنهج ، فإنه هنا يقف على قمة النزعة التنزيهية في المذهب الأشعرى ، ويفوق كل من سبقوه فيها ، ويحتاج هذا لشيء من البيان :

بدأ الشيخ أبو الحسن مذهبه الجديد بداية سنية ذات طابع عقلى - كما أشرت من قبل - فتمسك بالنص والعقل معاً ، وتأثر في هذا بشخصيتين مختلفتين وهما : الإمام أحمد ، وابن كلاب ، والأول سلفى بحث يرى عدم الخوض في علم الكلام ، والثانى سنى متكلم يستحسن الكلام ويخوض^(١) فيه . هذا فضلاً عن أن الأشعرى نفسه - كما يقول ابن تيمية - « عاش أربعين سنة يقرأ على أبى على الجبائى »^(٢) .

(١) انظر فتاوى ابن تيمية ٥ / ٢٨٥ - ٢٨٧ والإبانة ص ٨ ، ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ١ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) انظر ابن تيمية السلفى ص ٤٢ - ٤٣ .

ولذا فقد جاء مذهبه مناصراً لمواقف أهل السنة ، متابعاً للسلف مع شيء من « التجهّم » أخذه عن ابن كلاب فيما يرى ابن تيمية أيضاً ، أى أنه نزع إلى التنزيه والنفى الذى لا يرضى عنه ابن تيمية الذى يقول : « أنواع التجهّم ثلاثة : الجهمية الأولى النافية لكل صفة أو اسم ، ثم المعتزلة ونحوهم الذين يقرون بأسماء الله الحسنى فى الجملة لكن ينفون صفاته ، ويؤولون بعض الأسماء ، والثالثة هم الصفاتية المتهبتون المخالفون للجهمية ، لكن فيهم نوع من التجهّم كالذين يقرون بأسماء الله وصفاته فى الجملة . لكن يردون طائفة من الأسماء والصفات الخبرية ويتأولونها ، وذلك كابى محمد بن كلاب ومن اتبعه . وفى هذا يدخل أبو الحسن الأشعرى وطوائف من أهل الفقه والكلام » (١) ، ومع ذلك فقد كان أقرب أمثاله إلى السنة ، وله فى نصرها جهاد مشكور (٢) .

ولكن أى تجهّم عند ابن كلاب حمّله عنه الأشعرى ؟ إنه الإنكار لحلول الحوادث فى ذات الله تعالى وتأويل كل ما يفيد بظاهره ذلك من النصوص كما يرى أستاذنا الدكتور النشار . وقد نتج عن هذا الأصل أثران هامان : قوله بحدوث صفات الأفعال موافقاً للمعتزلة ، وذهابه إلى قدم الكلام النفسى وحدوث اللفظى (٣) . وقد أخذ أبو الحسن بهذا الأصل الكلابى عن حلول الحوادث ونتيجته الأولى بشأن صفات الأفعال ، ثم جاء أصحابه فآخذوا بذلك وبحدوث الكلام اللفظى أيضاً ، وزادوا على شيخهم وأستاذه ابن كلاب أيضاً القول بنفى الصفات الخبرية ولو لم يكن لها علاقة بحدوث شيء فى ذات الله ، كاليد والقدم والاستواء ، ونحوها مما كان يثبت هذان الشيخان (٤) .

ولكن هذا التطور لم يتم سريعاً فقد جرت الطبقتان الأوليان من رجال المذهب على طريقة الأشعرى المتوسطة بين الإثبات والتنزيه ، وحافظوا على موقف وسط بين المعتزلة ورجال الحديث مع نزوع قليل نحو الاعتزال ، يقول ابن تيمية - عن خبرة - : « ومذهب الأشعرى نفسه وطبقته كابى العباس القلانسى ونحوه ، ومن قبله من أئمة كابن كلاب ، ومن بعده من أئمة أصحابه الذين أخذوا عنه كابى عبد الله بن مجاهد شيخ القاضى أبى

(١) فتاوى ابن تيمية ٤٢/٥ .

(٢) انظر نقض المنطق ص ١٠ ، ١١ ، وابن تيمية السلفى ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) انظر بغية المرئاد لابن تيمية ص ١٠٧ ومقدمة مناهج الأدلة ٤٨ - ٥٠ ، ونشأ الفكر ١/ ٢٨١ - ٣٠٥ .

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية ٢٨٨ / ٥ ، وتبين كذب المفتري ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

بكر الباقلاني ، وأبى الحسن الباهلي شيخ ابن الباقلاني وأبى إسحاق الإسفرائيني وأبى بكر بن فورك ، وكأبى الحسن على بن مهدي الطبري . . والطبقة الثانية التي أخذت عن أصحابه كالقاضي أبى بكر إمام الطائفة وأبى بكر بن فورك ، وأبى إسحاق الإسفرائيني ، وأبى على بن شاذان ، وغير هؤلاء - إثبات الصفات الخيرية التي جاء بها القرآن أو السنن المتواترة ، كاستوائه على العرش والوجه ومجيئه يوم القيامة وغير ذلك ، وقد رأيت كلام من ذكرته من هؤلاء يثبت هذه الصفات» (١) .

ونلاحظ على كلام ابن تيمية هذا - مع التسليم به في الجملة - أن الباقلاني «إمام الطائفة» قد أول ما يُوهم التغير في ذات الله تعالى من الصفات الخيرية كالرضا والغضب ونحوهما (٢) ، وكذا صاحبه أبو بكر بن فورك الذي أثبت ما جاء في القرآن من اليد والوجه والعين صفات قديمة ليست كصفاتنا ، وأول ما في الأحاديث من نحو الأصابع والقدم والساق وما يفيد التغير النفس كالغضب والرضا (٣) - وبهذا تزايد النزوع نحو التنزيه الاعتزالي ، وإن لم يصل إلى الحد الذي نجده عند المتأخرين .

وقد جرت العادة بالإشارة إلى أبى المعالي الجويني كراس لهؤلاء المتأخرين ، وكثيراً ما نجد هذا عند ابن تيمية (٤) . والجديد عند هؤلاء المتأخرين هو نفى كل الصفات الخيرية التي قد توهم التشبيه كاليد والعين ونحوهما ، أو بالأحرى تأويلها، سواء ما تعلق منها بالتغير وحدوث شيء في الذات الإلهية ، أو ما أوهم تشبيهها بالمخلوقات ، وخاصة الجسمية ولوازمها كما سنرى . وهم في هذا يتفقون تماماً مع المعتزلة ، اللهم إلا في شيء واحد وهو (إثبات الرؤية) وهذا ما يلاحظه ابن تيمية أيضاً (٥) ، ويلاحظ معه أن الصراع التقليدي بين الأشاعرة والمعتزلة كاد يختفي من كتب هؤلاء المتأخرين ليحل محله الصراع ضد المجسمة والمثبتة (٦) ، فأخذ الصراع يشتد بين الأشاعرة وغلاة الحنابلة والحشوية ومجسمة الكرامية وغيرهم ، وكان من ذلك ما عُرف بالفتنة القشيرية في بغداد (٧) ، ووقائع الرازي مع الكرامية في المشرق (٨) ، وصراع الآمدى مع بعض الحنابلة والمحدثين في

(١) فتاوى ابن تيمية ٢٨٨/٥ . (٢) انظر التمهيد ص ٤٨ .

(٣) انظر مشكل الحديث وبيانه ص ٤٥ وما بعدها . (٤) انظر بغيه المرتاد ص ١٠٧ والرسالة المدنية ص ١١ .

(٥) الفتاوى ٤٢/٥ ، (٦) انظر فتاوى ابن تيمية ٤٢/٥ ، ٢٨٨ .

(٧) انظر : تبين كذب المفترى ص ٣١٠ ، والاعتصام للشاطبي ٢/٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٨) انظر فخر الدين الرازي وآراؤه ص ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣ انظر أيضاً روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر

لابن الوليد محمد بن الشحنة بهامش تاريخ ابن الاثير ج ١٢/١١٤ ، ١١٥ .

دمشق ، وهو الصراع الذى واصله تلميذه العز بن عبد السلام من بعده^(١) . وكلها تدل على اتجاه هؤلاء المتأخرين ، وتفسر اشتداد النزعة التنزيهية عندهم .

ولكن متى بدأ هذا التحول ؟ يشير ابن تيمية - فى الإجابة عن هذا السؤال إلى إمام الحرمين الجوينى ويعتبره رأس هؤلاء المتأخرين^(٢) ، ويُسمى (إرشاده) «زهور المتأخرين» وينقل عنه : «قال أبو المعالى : ذهب أئمتنا إلى أن اليدين والعينين والوجه صفات ثابتة للرب تعالى والسبيل إلى إثباتها السمع دون قضية العقل . قال : والذى يصح عندنا حمل اليدين على القدرة ، وحمل العينين على البصر، وحمل الوجه على الوجود . قلت (أى ابن تيمية) : فاتضح أن أئمة الكلابية والأشعرية يثبتون هذه الصفات ، فإنه خالف أئمتهم ووافق المعتزلة»^(٣) ويواصل نقده متهماً له بقلّة معرفة السنن والآثار ، والتأثر بالمعتزلة؛ «لكثرة مطالعته لكتب أبى هاشم بن الجبائى»^(٤) ، والنص السابق موجود فعلاً فى كتابه «الإرشاد»^(٥) .

وقد جرى من جاء بعده من الأشاعرة فى هذا الاتجاه ، إلا أن بواذر هذا التحول قد بدت قوية واضحة قبله عند عبد القاهر البغدادى (توفى سنة ٤٢٩ هـ) الذى يصرح فى كتابه (أصول الدين) بتأويل الوجه واليد والعينين والاستواء على العرش وسائر الصفات الخبيرة^(٦) . وقد استطاع عبد القاهر أن يؤثر بنزعته التأويلية هذه فى بعض المحدثين والصوفية المائلين إلى المذهب الأشعرى كالقشيري^(٧) والبيهقى^(٨)، حتى جاء الجوينى فأكد هذا التطور ، وحمله لتلاميذه من بعده . وبهذا ضاقت مسافة الخلف بين الأشاعرة والمعتزلة فيما يتعلق بالمسائل الإلهية إلى حد كبير .

وقد اقترن هذا فى الوقت نفسه بنزعة إلى الغلو فى الإثبات من جانب بعض المحدثين، وغيرهم من الحنابلة والمنتسبين إلى السلف^(٩)، مما دفع بعض علماء الحنابلة

(١) انظر : نقض المنطق ١١٨ وما بعدها ، وطبقات السبكي ٦٩/٥ ، وابن تيمية السلفى ١٤ ، ١٥ .

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية ١٥٦/٥ ، ٢٥٢ وبغية المراتد له ص ١٠٧ .

(٣) فتاوى ابن تيمية ٢٤٠/٥ . (٤) نفس المصدر والجزء ص ٢٤٣ - ٢٥٢ .

(٥) انظر الإرشاد ١٥٥ . (٦) أصول الدين : ١٠٩ - ١١٤ .

(٧) انظر الرسالة ص ٣ ، ٤ ، ٥ . (٨) انظر الأسماء والصفات ص ٢٠١ .

(٩) انظر الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص ٥٦ ، والقول الفصل لمصطفى صبرى ص ٥٨ ، ونشأة الفكر ١/٦٤٠ ،

وتبين كذب المفترى : ٣٨٨ - ٣٩٠

أنفسهم إلى مقاومة هذه الموجة من التشبيه والحشو كابن عقيل ، الذى ينقل عنه ابن الجوزى قوله : « هلك الإسلام بين طائفتين : بين الباطنية والظاهرية ، فأما أهل البواطن فإنهم عطّلوا ظواهر الشرع بما ادعوه من تفاسيرهم التى لا برهان لهم عليها . وأما أهل الظاهر فإنهم أخذوا بكل ما ظهر مما لا بدلهم من تأويله » (١) .

فإذا كان بعض الحنابلة يتصدون لمقاومة هذا الاتجاه ويستخدمون فى ذلك سلاح التأويل فكيف بالاشاعرة ؟ ولكن كيف كان الآمدى قمة هذا الاتجاه التنزيهى ؟ سيتبين لنا هذا تفصيلاً فيما يلى ، ولكننا نقول الآن على وجه الإجمال : إن الجوينى تردد فى نزعتة التأويلية وكاد يتراجع عنها فى (عقيدته النظامية) (٢) . وأما الغزالى فإنه مع اتجاهه لتأويل الصفات الخبرية ، يحرم ذلك على العوام ، بل وعلى كثير من الموسومين بالعلم من المتكلمين (٣) . وأما الشهرستانى فقد مر بنا أن الآمدى يرميه بالتشبيه ، لقوله بقديم الحروف الروحانية (٤) . وأما الرازى – صاحب تأسيس التقديس – فقد مال إلى القول بحلول الحوادث ونزع إلى التفويض فى آخر حياته (٥) . بينما حافظ الآمدى على موقفه التنزيهى ، ولم يتردد فيه أو يتراجع عنه ، وهذا ما سيتأكد فى المباحث التالية .

* * *

(١) انظر تلبيس إبليس ١٠٥ .

(٢) انظر العقيدة النظامية ص ١٦ ، ٢٥ وطبقات الشافعية ٣/ ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣) انظر : الاقتصاد ص ٣٣ ، وإلجام العوام (ط المنيرة) ص ٥ ، ١١ وما بعدها .

(٤) راجع ما سبق فى هذا الفصل ص ٢٧٦ . (٥) انظر ما سياتى ص ٣٧٤ وما بعدها .

١ - القدم والبقاء

ويُقصد بهما عدم أولية الوجود أو ابتدائه ، وعدم آخريته أو انتهائه ، وهما في نظر الآمدي وصفان سلبيان لا يعنيان أكثر من استمرار الذات أزلاً وأبداً ، بل هما متضمنان في وجوب الوجود ؛ إذ يقول في آخر دليل الوجود : « فقد بان أنه لا بد من وجود موجود هو واجب الوجود لذاته ، وأنه يجب أن يكون أزلياً أبدياً ، لا يتصور عليه العدم متقدماً عليه ولا متأخراً عنه (١) » . ويصرح في (غاية المرام) بأن القدم « ليس نعتاً وجودياً أو وصفاً حقيقياً ، بل حاصله « يرجع الى سلب الأولية » (٢) ، وأن البقاء « ليس زائداً على معنى استمرار الوجود ، وذلك لا يزيد على نفس الوجود » (٣) .

والآمدي في هذا يخالف الماثور عن بعض شيوخ المذهب ، ويتفق مع المعتزلة في اعتبارهما وصفين سلبيين (٤) . أما الأشاعرة فقد ذهب جمهورهم ومعهم الشيخ أبو الحسن نفسه إلى أن القدم وصف سلبي لا يفيد معنى زائداً على الذات . إلا أن ابن كلاب والقلانسي قالا : إنه تعالى قديم بقدم هو قائم بذاته (٥) ، وينقل ابن تيمية عن الأشعرى ترده بين كونه سلبياً أو ثبوتياً (٦) .

أما البقاء فقد نقل البغدادي عن الأشعرى أنه يقول إن الله باقٍ ببقاء (٧) ، ونسب إليه أيضاً قوله : « إن الله يفتي الجسم بقطع البقاء عنه » (٨) ، مما يؤكد كونه في نظره وصفاً ثبوتياً ، ويقول البغدادي أيضاً : إن جميع الأشاعرة تابعوا شيخهم في كونه ثبوتياً إلا الباقلاني فإنه « منع كون البقاء معنى زائداً على وجود ذات الباقي شاهداً وغائباً » (٩) ، وهناك رواية تدل على تردد الأشعرى بين هذين الرأيين أيضاً (١٠) .

ويجزم الآمدي في (الأبكار) بأن أبا الحسن الأشعرى وابن كلاب يقولان إن الله باقٍ ببقاء وأن الباقلاني خالفهما في هذا ، وقال : هو باقٍ بنفسه (١١) ، ولكنه ينقد رأى

(١) انظر الأبكار ١ / ٥٠ والمبين : ل ١٦ . (٢) غاية المرام ل ١٨ . (٣) غاية المرام ل ٥٨ ب .
(٤) انظر المغني ٥ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، وشرح الأصول الخمسة ص ١٨١ ، ويستفاد من كلام النسفي الماتريدي أنهما ليسا زائدين على استمرار الوجود - انظر : بحر الكلام ص ١٧ .
(٥) انظر المحصل ص ٥٧ وأصول الدين ص ٨٨ ، ٨٩ . (٦) الموافقة ٢ / ٢٢٥ .
(٧) أصول الدين ص ٩٠ . (٨) السابق ص ٨٧ . (٩) السابق ص ٩٠ .
(١٠) فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٢٩٣ . (١١) انظر التمهيد ص ١٤ والأبكار ١١٤ ب .

الشيخين وينصر رأى الباقلاني ، الذي يبدو أنه قد تابعه سائر المتأخرين^(١) . وكلام البغدادي ينصب على من قبل الباقلاني من شيوخ المذهب ، ولذا يقول ابن تيمية إنه « قول الأشعري وطائفة معه »^(٢) ، ويرى أن هذا الخلاف اعتباري لفظي ، وأنه نتيجة لمسألة : « هل الصفات زائدة على الذات أم لا ؟ »^(٣) . ولئن صح ما يراه من أنه خلاف لفظي فإنه - على كل حال - يُعد بادرة من بوادر الخروج عن اتجاه الإثبات إلى موقف آخر قريب من موقف المعتزلة ، وهذا لا يخلو من مغزى ، وقد يدل على أن للباقلاني دوره في التقارب الفكري بين المذهبين ، ويقابله على الجانب الآخر موقف أبي هاشم ومدرسته من الصفات ، واقترباها من موقف أهل السنة وخاصة فيما يتعلق بعموم الإرادة والقدرة كما سبقت الإشارة .

والآمدى يستدل على كونهما وصفين سلبيين بأن البقاء لو كان صفة موجودة زائدة لاحتاج لبقاء وهكذا فيتسلسل الأمر وهو محال^(٤) ، على أنه يلزم من ذلك أيضاً قيام الصفة بالصفة وهذا مالا يجوز شاهداً ولا غائباً^(٥) . ويستدل على سلبية القدم في (الابكار) بنفس الطريقة^(٦) . وينبغي أن أنه إلى أن رأى الآمدى هنا هو الحالة الوحيدة التي وجدته يعدي فيها حكم الشاهد إلى الغائب ، وهو يتمسك بهذا ليرد على اعتراض لابن كلاب ، ذكره في «الابكار» ، هو أن يقال : ذات الباري باقية ببقاء زائد عليها ، أما صفة البقاء فباقية ببقاء هو نفسها ، وهو رأى نجده عند النصير الطوسي أيضاً في تلخيصه للمحصل^(٧) . أما الآمدى فيرد على ابن كلاب بأن في قوله لإبطال قاعدة العلل والمعلولات ، وإلا لجاز لنا أن نقول أيضاً أن السواد أسود بسواد هو نفسه ، والعلم عالم بعلم هو نفسه^(٨) . وإذا كان الآمدى قد سبق له أن رفض قاعدة العلل هذه في إثبات الصفات لأنها جزء من طريقة قياس الغائب على الشاهد الذي لا يقبله ، فهو يستغلها هنا ليلزم المعترفين بها من الأصحاب العدول عن رأيهم في إيجابية البقاء .

(١) انظر الإرشاد ص ١٣٨ والمقصد الأسنى ٩٦ ، والاقتصاد ٢٣-٢٥ ، والموافقة لابن تيمية ٢/٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) الموافقة ٢/٢٢٥ ، (٣) السابق ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٤) انظر : الابكار ١/١١٣ . ب ، ولجد مثل هذا عند الغزالي في الاقتصاد ٢٣ ، والرازي في الأربعين ١٨٩ ،

والمحصل ١٢٦ . (٥) انظر : غاية المرام ل ٥٨ ب ، ١٥٩ .

(٦) انظر تلخيص المحصل ص ٥٧ .

(٧) الابكار : ١/١١٤ ، ب .

(٨) الابكار ١١٣ ب ، ١١٤ .

الاستدلال عليهما :

يرى الآمدى أن الأمر لا يحتاج إلى تدليل ، إذ هما متضمنان في نظره في وجوب الوجود ، وليس بصفتين على الحقيقة زائدتين على ما سبق من الصفات ، ولذا يهمل الاستدلال عليهما في الأبهكار وغاية المرام تماماً (١) . ولكنه في المآخذ يشير إلى الحجج المستخدمة في إثباتهما فيذكر الحجة المشهورة لدى المتكلمين ؛ وهي أنه لو لم يكن الباري قديماً لكان حادثاً فيحتاج لحدث وهكذا ؛ فيلزم التسلسل وهو محال . وهو جزء من دليل وجوب الوجوب (٢) الذي سبق عرضه . وكل ما ثبت قدمه امتنع عدمه ، وهو معنى البقاء (٣) .

ويشير الآمدى في المآخذ إلى حجة الفلاسفة لإثبات الأزلية والأبدية : « إن ما يتبدل وجوده بعدمه ، وعدمه بوجوده قابل لهما ، والقابل لهما ممكن بذاته ، لا واجب بذاته ، وقد ثبت وجوب وجوده » (٤) . وواضح تآثر الآمدى بهذه الحجة فيما نقلناه من نص الأبهكار الدال على أن القدم والبقاء عنده متضمنان في وجوب الوجود ، وقد سبق للرازي أن استخدم هذه الفكرة الفلسفية أيضاً (٥) .

وللقاضى عبد الجبار طريقة أخرى ، في إثبات أن القديم لا يجوز عليه العدم ، تقوم على أسس ثلاثة : أحدها ، أن القديم باقٍ (أى موجود الآن ومستمر الوجود ، طبقاً لدالة وجود الله) ، والثانى : أن الباقي لا ينتفى إلا بضد أو ما يجرى مجرى الضد ، والثالث : أن القديم لا ضد له ولا ما يجرى مجرى الضد (٦) ؛ لأنه واحد ، وإذن فالقديم لا ينعدم ، وهو استدلال لا بأس به .

* * *

-
- (١) انظر الأبهكار ١ / ١١١ ، ب ، وغاية المرام : ل ٨ ، ب ١٥٩ .
 (٢) انظر المآخذ ل ٢٤ ب ، وانظره في الاقتصاد للغزالي ٢٣ ، والأربعين ٩٢ ، وبحر الكلام للنسفى الماتريدى ١٧ ، وشرح الاصول الخمسة لعبد الجبار المعتزلى ص ١٨١ .
 (٣) المآخذ : ل ٢٤ ب ، وقد سبق لأفلاطون أن ربط بين القدم والبقاء كما بين استاذنا الدكتور قاسم فى كتابه فى النفس والعقل ص ٥٢ ، ادعى الجوينى فى الشامل ١ / ٨٩ ، ٩٢ إجماع العقلاء على ذلك واستدل عليه من وجوه عدة . (٤) المآخذ ل ٢٤ ب . (٥) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٨٩ - ٢٩١ .
 (٦) انظر تفصيل هذه الطريقة فى شرح الاصول الخمسة ص ١٠٨ - ١١٠ .

٢- الوجدانية

معناها :

تُعتبر هذه العقيدة شعار الإسلام وركنه الأول ، وهى الرسالة الأولى لكل دين سماوى، بل هى عقيدة الفطرة لدى القبائل البدائية التى لم يشوه التطور الاجتماعى عقائدها الأولى^(١) . ويهتم الآمدى بإثبات الوجدانية، بمعنى نفى الشريك لله عز وجل فى الألوهية وصفاتها^(٢) . ، وذلك لبيان هذه العقيدة الإسلامية فى مواجهة خصومها من القائلين بتعدد الآلهة . ولكن معنى الوجدانية - عنده - أوسع من هذا، فهو يشمل نفى الشريك ، وإبطال القول بتعدد الآلهة ، كما يشمل وحدة الإله بمعنى نفى التكثير والتبعض عن ذاته ، وهو يحلل معنى (الواحد) فى كتابيه (الأبكار ، والمبين) لينتهى إلى تأكيد هذين المعنيين السابقين بالنسبة لله عز وجل^(٣) . ولعلنا نذكر تفسيره للمغايرة بين الصفات والذات وهو أنه مجرد التغاير بين مفهوم كل صفة ، وبين مفهوم الذات المجردة عن الصفات ، إذا أمكن للعقل أن يتصورها أو يتوهمها على هذا النحو المجرد . ولكن لفظ (الله) يتضمن الدلالة على الذات بصفاتها وكمالاتها الأزلية، وإذا فلا تكثر ولا انقسام فى مفهوم الألوهية^(٤) .

وتفسير الوجدانية بهذين المعنيين موجود عند سائر المدارس الإسلامية من معتزلة^(٥) وأشاعرة^(٦) وماتريدية^(٧) وفلاسفة^(٨) . أما مدرسة ابن تيمية فتهتم بمعنيين للتوحيد ، يُسمَّى أولهما : (توحيد الربوبية) ويعنى به وجود خالق واحد يرعى العالم ويحفظه، والثانى : (توحيد الألوهية) ، ومعناه وحدة الإله المستحق للعبادة أى أفراد هذا الرب الخالق بالطاعة والمحبة الكاملتين، وهو يرى أن الأول فطرى فى النفوس لا يكاد ينكره أحد ،

(١) انظر ابن رشد وفلسفته الدينية لاستاذنا د/ قاسم ص ١٢ ومبادئ علم الاجتماع الدينى ترجمة د / قاسم ص ١٩٢ ، ١٩٥ و ص ٢٢٩ وما بعدها .

(٢) انظر غاية المرام ل ٦٢ ب م ، والأبكار ل ١٦٧/١ وما بعدها .

(٣) انظر المبين : ل ١٤ ب ، ١١٥ والأبكار ل ١٦٦/١ ب ، ١١٦٧ .

(٤) راجع ما سبق فى أحكام الصفات العامة (٥) انظر : المغنى ٤/ ١٤١ ، ١٤٢ .

(٦) انظر : الإرشاد ٥٢ ، ٥٣ ونهاية الأقدام ٩٠ ، ٩١ والاقتصاد ٤٥ .

(٧) انظر : التوحيد للماتريدي ل ١٠ ، وبحر الكلام للنسفى ص ١٧ ، ١٨ .

(٨) انظر : عيون المسائل للغرابي ص ٥ ، والإشارات والتبقيات ٣/ ٤٥٦ - ٤٨٣ .

ولا ينبغي الإلحاح عليه كما فعل المتكلمون، أما الثانى فهو الذى جاءت الشرائع لإثباته وتأكيدة ، لغفلة أكثر الخلق عنه ، وهو مع هذا يتشكك فى الوحدة بمعنى نفى التكثير والتقسم ، ويخشى أن تفضى إلى التعطيل وإنكار الصفات (١) .

ولكن هل الوحداية صفة سلبية أم ثبوتية ؟

يميل الأمدى إلى رأى الثانى ، ويقول فى «الابكار» جواباً عن مثل هذا السؤال : «اختلفوا : فذهب أبو هاشم إلى أن معنى الواحد يرجع إلى صفة نفى ، وأن حاصله يرجع إلى نفى ماعدا الموجود الفرد ، وذهب القاضى أبو بكر إلى أن حاصله يرجع إلى صفة إثبات ، هى صفة نفس غير معللة ، ولعل الأشبه ما ذكره القاضى» (٢) . ثم يأخذ فى نصرة رأى القاضى مستخدماً أدلة جدلية معقدة ، ويلاحظ أنه وقد اختار كونها صفة نفسية غير معللة ؛ يرى أنها - وإن لم تكن مجرد سلب فى نظره - ليست تضيف أمراً زائداً على وحدة الذات نفسها ، كما هو الحال فى الصفات السبعة ، بل هى تثبت التفرد لله تعالى فى كل ما يتصل به ذاتاً وصفات وأفعالاً (٣) ، وإذا فهى تؤول إلى (التنزيه) على كلا الرايين ولا تتضمن إثبات معنى وراء الذات . وقد ذهب الرازى إلى قريب من هذا رأى فى بعض كتبه (٤) ، وفسرها الغزالى بقريب من هذا المعنى (٥) ، بينما صرح إمام الحرمين بكونها صفة سلبية (٦) .

الاستدلال عليها :

(أ) استدلال الفلاسفة :

يشير الأمدى فى «غاية المرام» وفى «الابكار» إلى أنه لا خلاف بين جميع المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين حول كونه تعالى واحداً ، وإنما الخلاف حول طريق إثبات ذلك (٧) . فاختار الفلاسفة الطريق المبني على أن مفهوم واجب الوجود نفسه يحيل وقوع

(١) انظر : الموافقة لابن تيمية ج ٢ / ١٣٤ - ١٣٨ والرسالة القبرصية له من ٥ - ١٨ ، واجتماع الجيوش الإسلامية

لابن القيم ص ٣٣ - ٣٥ ، وشرح الطحاوية ٢٠ - ٢٨ ، وابن تيمية السلفى ٨٤ - ٨٧ .

(٢) الابكار ١ / ١١٦٧ . (٣) انظر نهاية الأقدام ص ٩٠ .

(٤) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، والمآخذ ١٣٤ .

(٥) انظر الاقتصاد ص ٤٥ . (٦) انظر العقيدة النظامية ص ٩ ب .

(٧) انظر ص ١٤٧ ، ١٥١ من غاية المرام ، والابكار ١ / ١٥٤ ، ١٦٧ ب .

الشركة فيه، وهو يتفرع إلى شعبتين : الأولى : لو وُجد واجبان لاشتركا في الوجوب واختلفا في غيره ، فيكون كل منهما مركباً، ويصيران ممكنين محتاجين إلى مركّب .
والثانية : إذا اتفقا في شيء واختلفا في آخر كان في ماهية كل منها جزء قابل هو المعنى المشترك ، وجزء فاعل هو المخصص ، مع أن الواجب بالذات يجب أن يكون واحداً من كل وجه ، وحقيقته عين ذاته (١)، ولا تركيب فيه بحال ما لا حداً ولا كمّاً (٢).

ويرد الآمدى على أصل فكرتهم بأن وجوب الوجود وصف سلبي لا يعنى أكثر من عدم الافتقار إلى الغير ، فالاشتراك فيه لا يؤدي إلى التركيب، ووجود صفات أخرى لا يؤدي إلى ما توهموه من وجود شيء قابل وآخر فاعل ، فإن هذه الصفات لا تحتاج إلى فاعل من خارج ، بل هي تستند إلى الذات الواجبة نفسها، والمحذور إنما هو الاحتياج إلى علة فاعلة من خارج الذات (٣) .

والآمدى يعارض هذا الاستدلال لسببين ، أحدهما : أن المبالغة في تصور معنى الوحدة قد تفضى إلى إنكار قيام الصفات بالذات ، مع أن طريق الإثبات لا بد منه لمعرفة الله عز وجل (٤) . وثانيهما : أنه (أى الاستدلال الفلسفى) يحتوى في نظره على دور أو مصادرة على المطلوب في مجالين هما : نفى الصفات ، وإثبات الوحدة « فالقوم يعتمدون في نفى الصفات على ثبوت الوجوب بالذات ، وهو يعنى عندهم الوحدة من كل وجه ، ويعتمدون في إثبات الوحدة على بطلان الصفات ، وهذا دور ممتنع » (٥) .

وباختصار لا يمانع الآمدى من التركيب المعنوى في واجب الوجود ، بمعنى مجرد التغاير في المفهوم بين الذات وصفاتها حسبما بيناه مراراً، وهو لا يؤدي إلى التعدد أو التكثر الذين يتنزه عنهما - سبحانه وتعالى - ولا ينافى الوحدة ولا وجوب الوجود ، في نظره، مادام الموجود منذ الازل هو الذات بكمالاتها الأزلية، وهو المقصود من إطلاق

(١) انظر ما سبق في عرض وجهة نظرهم ورد الآمدى عليها في مبحث الصفات وأحكامها العامة ص وما بعدها، وانظر غاية المرام ١٥ ب، ١١٦، والابكار ١/١٦٧ ب، ١١٦٨.

(٢) انظر كتاب الكندى إلى المعتصم بالله ص ٩٠ - ٩٢، والكندى وفلسفته ص ٨٤، ٨٥، والإشارات والتنبيهات ٤٥٦/٣ - ٤٨٣، والمآخذ ل ٣٢ ب، ١٣٣ ومقدمة مناهج الأدلة ص ٢٩ - ٣١ و ٤٠.

(٣) راجع ما سبق في أول هذا المبحث . (٤) انظر فيما سبق .

(٥) المآخذ ل ٣٢ ب، ١٧٣.

لفظ الإله . وقد حكى ابن تيمية هذا النقد عن الإمام الرازى (١)، ومع هذا، فقد اعتمد الرازى على هذا الاستدلال فى بعض كتبه (٢). وأول من عرف استخدامه لهذا الدليل هو الكندى (٣)، وعنه أخذه الفلاسفة وغيرهم .

ب- استدلال المتكلمين :

أما المتكلمون فقد اعتمدوا جميعاً على ما يُعرف بدليل التمانع الذى ظنوا أنه المذكور فى الآية الكريمة ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (٤)، وهو يقوم على افتراض تعلق إرادة الإلهين بشيء واحد أحدهما يريد إيجاداً ، والآخر إعدامه، أو يريد أحدهما تحريكه مثلاً ، والآخر تسكينه ، فإن نفذت إرادة كل منهما اجتمع النقيضان ، وإن لم تنفذا ارتفعاً، وكلاهما محال، وإن نفذت إرادة واحد منهما أدى ذلك إلى عجز الآخر فلا يكون إلهاً . ويضيف الآمدى زيادة - يبدو أن المعتزلة هم أصحابها - وهى : لو عجز أحدهما لكان عاجزاً بعجز قديم والعجز لا يكون إلا عن معجوز عنه ، وذلك يفضى إلى قدم المعجوز عنه وهو ممتنع (٥).

وينتقد الآمدى هذا الدليل من حيث إن فرض الاختلاف يقوم على تجويز تعلق إرادتيهما مجتمعتين بالتحريك والتسكين لشىء واحد ، وهذا محال فى ذاته، فلا يكون متعلقاً للقدرة ولا للإرادة . فضلاً عن أن قولهم بالعجز القديم المفضى لقدم المعجوز عنه يعارض قولهم بقدم القدرة وحدوث المقدورات (٦) . وهو يرى فى الأبيكار « أن التخلص

(١) انظر : ابن تيمية السلفى ٨٥، ٨٦ . (٢) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٣٥ .

(٣) انظر مناهج الأدلة ص ٢٩ ، والكندى وفلسفته ص ٨٤ .

(٤) نجد هذه الفكرة فى المغنى للقاضى عبد الجبار المعتزلى ٤ / ٢٥٣ وما بعدها . والآية هى رقم ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٥) غاية المرام ٦٢ ب = ص ١٥١-١٥٢ ، وانظر دليل التمانع عند الأشعرى فى اللمع ٢٠، ٢١ ، والتمهيد للباقلانى ٤٦، ١٥١، ١٥٢ ، وأصول الدين للبغدادى ٧٥، ٨٥ ، والإرشاد للجوينى ٣٥ ، والمحصل للرازى ١٤٠ ، وفى شرح المواقف ٨ / ٤٢، ٤٣ وشرح النسفية ٢١٦ - ٢٢٩ ، وانظره أيضاً عند عبد الجبار فى المغنى ٤ / ٢٤١ - ٢٤٥ ، ٢٧٥، ٣٠٠، ٣٠١ ، وفى كتاب التوحيد للماترىدى ل ١١٠، ٤٣ ب وانظر مقدمة مناهج الأدلة ص ٣١-٣٣ .

(٦) انظر غاية المرام ٦٢ ب والابكار ١ / ١١٦٩ ، ب .

من هذا النقد صعب جداً ، وعسى أن يكون عند غيري جوابه (١) ، وفى (الغاية) يقطع بكون هذا الدليل خطأ وغلطاً (٢) .

ويُعتبر الآمدى أول أشعري يسقط هذا الدليل عن رتبة الاحتجاج ، فقد اعتمدوا عليه جميعاً منذ الأشعري حتى الرازى ، الذى استند إليه فى أكثر كتبه (٣) . أما الغزالى فقد خلط بين فكرة الكمال وفكرة التمانع فى استدلاله على الوجدانية (٤) ، غير أنه انتقد دليل التمانع فى إجماع العوام بإمكان الاتفاق بينهما ، وشرح آية ﴿لو كان فيهما آلهة..﴾ على النحو الذى سنجد مفصلاً عند ابن رشد (٥) .

ولعل ابن رشد هو أقوى من نقد هذا الدليل فى كتابه (مناهج الأدلة) من نواح عدة ، أبرزها أنه غير مقنع للعامة الذين قد يتساءلون : ولماذا لا يتفق الآلهة فيما بينهم على توزيع العمل وهو أليق بهم من الخلاف ؟ كما أنه ليس هو الدليل الذى تضمنته الآية ، فقد تخيل المتكلمون أن القياس الذى تحويه شرطى منفصل ، فعددوا فيه الاحتمالات وكرروها ، مع أن الأمر لا يعدو احتمالاً واحداً يفضى لنتيجة واحدة تشهد بها التجارب الإنسانية الواقعية ؛ هى أنه لو تعدد الخالقون لاختل نظام العالم ، وهو قياس شرطى متصل . وينبه ابن رشد إلى أن الفرق كبير بين القياسين (٦) . ويوضح أستاذنا الدكتور قاسم ذلك بأنه هو الفرق بين الطريقة العلمية الفرضية الاستنتاجية ، والطريقة الجدلية العقيمة التى تبدد الجهود وتثير الشكوك (٧) .

وإذا فهذا الدليل ليس هو بالبرهان العقلى القطعى ، ولا بالشرعى الذى نبه عليه القرآن الكريم .

ويبدو أن بعض المتكلمين قد أحس بما فى هذا الدليل من ضعف وما يمكن أن

(١) الأبهكار ١/ ١٦٩ ب . (٢) انظر ص ١٥٢ من غاية المرام .

(٣) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٣٤ . (٤) انظر الاقتصاد ص ٤٥ ، ٤٧٠ .

(٥) انظر إجماع العوام (طبع المنيرية) ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٤ .

(٦) انظر مناهج الأدلة ١٥٥-١٥٩ ، ومقدمته ص ٣٤-٣٦ ، وابن رشد وفلسفته الدينية ص ١١١-١٢٠ .

(٧) انظر مقدمة مناهج الأدلة ص ٣٤ وابن رشد وفلسفته ص ١١٦ ، والمنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٣٧ وما بعدها

يوجه اليه من اعتراضات ؛ فنجد أن القاضي عبد الجبار يحاول دفع احتمال الاتفاق ، بناء على أن القادر بذاته لا تتناهى مقدوراته ، وأن كل ما كان مقدوراً للإله فيجب أن يكون حاصلًا من جهته وبفعله ، وإذا فلو فعلاه معًا لاجتمعت قدرتان معًا على مقدور واحد ، وهذا لا يجوز ، ولو أراد أحدهما الإيجاد ، والآخر الإعدام فمعنى ذلك التمانع ، وهو مفض إلى المحال أيضًا ، فبطل التعدد (١) . ولجد مثل هذا عند الغزالي (٢) أيضًا ، كما حاول الشهرستاني أيضًا (٣) سد هذه الثغرة بأن افترض استقلال كل منهما بعمل يخصه يعنى استغناء عن الإله الآخر في مجال عمله الخاص واستعلاءه عليه ، من جهة نفوذ إرادته دونه ، كما يعنى أيضًا تعطل كل منهما من فعل ما يصح صدوره عنه ، وذلك يناهى كمال الألوهية .

والحق أن الاعتماد على هذا الدليل لا ينسجم تمامًا مع أصول كل من المعتزلة والأشاعرة ، ولذا نجد البغدادي الأشعري يهاجم المعتزلة في كتابه «أصول الدين» ، ويقول إنه « لا يصح لهم مع تمسكهم بأصولهم الاستدلال بدلالة التمانع (٤) » وهو يشير بذلك إلى موقفهم من أفعال العباد ، وقولهم بجواز اجتماع إرادتين نافذتين ، وقدرتين خالقتين في هذا العالم .

ومن جهة أخرى نجد أن القاضي عبد الجبار المعتزلي يقول أيضًا : إنه لا يصح للأشاعرة الاستناد إلى دليل التمانع مع قولهم بتجويز نسبة النقص والشر والظلم إلى الله تعالى فإنه لا يدل إلا على استحالة وجود الهين كل منهما مطلق الكمال ، وهو يشير بذلك إلى رفض الأشاعرة لفكرة التحسين والتقبيح العقليين ، وفكرتى الصلاح والأصلح بناءً على ذلك (٥) .

ولكن هذا الدليل يتعرض ، بعد ابن رشد والآمدى ، لنقد ابن تيمية وأتباعه الذين يرون أنه وإن كان صحيحاً فليس هو الدليل الذى تتضمنه الآية الكريمة ﴿ لو كان فيهما آلهة... ﴾ وأمثالها ، فهم يرون - خلافاً لابن رشد - أنها لا تتعلق بتوحيد الربوبية بل

(١) انظر المغنى ٤ / ٢٥٩ وما بعدها وخاصة صفحتى ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) انظر الاقتصاد ص ٤٦ ، ٤٧ . (٣) نهاية الأقدام : ٩٢ وما بعدها .

(٤) أصول الدين ص ٨٢ . (٥) المغنى ٤ / ٢٤١ وما بعدها .

بتوحيد الألوهية ، فإن أمور العالم لا تنتظم إلا بالعبادة والخضوع لإله واحد (١) . أما الدليل على ما يريدونه من وحدة الرب الخالق ففي الآية الكريمة ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ (٢) فانتظام أمر العالم دليل على أن خالقه ومدير أمره واحد (٣) .

أما ابن عربي فإنه ينتقد هذا الدليل أيضاً ، مفضلاً عليه طريقة ابن رشد في تفسير الآية الكريمة ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ : « وقد وُجد الصلاح وهو العالم ووجوده ، فدل على أن الموجد لو لم يكن واحداً ما صلح وجود العالم . » وينبه على أن ما تضمنته الآية هو قياس شرطى متصل ، لا منفصل كما توهم المتكلمون ، الذين وقعوا بصنعهم هذا فى الخطأ وسوء الأدب ؛ « وقد تكلف قوم الدلالة عليه بطريق آخر - (يقصد التمانع) - وقد حوا فى هذه الدلالة ، فجمعوا بين الجهل بما نصبه الحق دليلاً على أحديته ، وبين سوء الأدب : الجهل من حيث لم يعرفوا موضع الدلالة ، وسوء الأدب معارضتهم لها بما أدخلوا فيها من الأمور القادحة ، فجعلوا نظرهم فى توحيده ، أتم فى الدلالة من ما دل به الحق على أحديته (٤) وهو يلتقى فى رأيه هذا مع ابن رشد .

ونجد عند السعد التفتازانى اعتراضاً شبيهاً بما ذكره ابن رشد ، وقد رتب عليه أن هذا الدليل خطاى إقناعى لا برهانى حاسم ، ولا بأس أن يحتوى القرآن على ذلك أحياناً (٥) . كما أن النصير الطوسى يرى أن دليل الفلاسفة فى امتناع وجود واجبى الوجود لذاتهما أفضل من هذا الدليل الذى إن صح فهو يدل على امتناع وجود إلهين متساويين تماماً ، مع أن قول أكثر المشركين هو آلهة متعددة مع قدرة الأعلى منها على منع الأدنى مما يريدونه دون عكس ، وهذا الدليل لا يفيد امتناعه (٦) .

٢- ويذكر الآمدى دليلاً آخر ، ينسبه إلى أبى بكر الإسفرايينى وجماعة من المعتزلة ،

(١) الموافقة لابن تيمية ١٣٤/٢ - ١٣٨ ، واجتماع الجيوش الإسلامية ٣٢-٣٥ ، وشرح الطحاوية ٢٠-٢٨ ، وابن السلفى ٨٤ وما بعدها . (٢) جزء من الآية رقم ٩١ من سورة (المؤمنون) . (٣) ابن تيمية السلفى ٨٩ إلى ٩١ ، وشرح الطحاوية ٢٦-٢٨ . (٤) انظر الفتوحات المكية ٢/٢٨٩ - ٢٩٠ . (٥) انظر : فكرة السعد ومناقشتها فى شرحه على النسفية وحواشيه ص ٢٢٢ وما بعدها . (٦) شرح المحصل للطوس ١٤٠ .

وهو أن الدليل على وجود الله - وهو هذا العالم من حيث حدوثه وإمكانه - لم يدل على أكثر من خالق واحد ، فبقى ما زاد على ذلك دون دليل (١) . وينتقده من حيث إنه يقوم على قاعدة بطلان المدلول لبطلان دليله ، وقد تبين فسادها (٢) . وقد عرض القاضى عبد الجبار هذا الدليل فى المغنى وقال : إن قصارى ما يدل عليه هو التوقف بشأن ما زاد على الواحد لا نفيه على سبيل القطع ، كما يجب التوقف فى سائر ما لا دليل عليه (٣) . وقد أشرت من قبل إلى أن عبد الجبار قد انتقد القاعدة المشار إليها فى عدة مواضع من كتبه ، فلعل الآمدى متأثر به .

٣- ثم يذكر الآمدى مسلماً آخر هو أنا لو فرضنا وجود إلهين لكل واحد منهما من صفات الإلهية ما للآخر لتعذر العلم بهما ، لأن كل موجودين لا يمكن تمييز أحدهما من الآخر فالعلم بهما يكون ممتنعاً . ويعقب الآمدى على ذلك بأن « هذه الطريقة مما اعتمد عليه بعض حذاق المعتزلة ، والأصحاب ، وهى بعيدة عن التحصيل ، فإنه وإن تقرر عدم امتياز أحدهما عن الآخر بالصفات الزائدة على ذاتيهما فلا يمتنع التمايز بالنظر الى ذاتيهما ، ويكون الاختلاف بينهما لذاتيهما وإن اشتركا فى الصفات العامة (٤) » .

وقد ذكر المرحوم الأستاذ الزركان هذا الدليل بين ما اعتمد عليه الرازى ، ولكنه ينقده من نفس الزواية التى انتقدها الآمدى (٥) .

ج - استدلال الآمدى :

إذا كان الآمدى ينقد الأدلة العقلية التى استند إليها الفلاسفة والمتكلمون قبله ، فما طريقه إلى إثبات هذه العقيدة الأساسية ؟ وإجابة هذا السؤال تستلزم شيئاً من التفصيل ؛ فالآمدى يعتمد فى (أبكار الأفكار) على الأدلة النقلية قائلاً : « فإذا كانت الطرق العقلية الدالة على الوحدة انية مضطربة غير يقينية ، فالأقرب فى الدلالة إنما هو الأدلة السمعية على ما ذهب إليه حذاق المعتزلة » (٦) . وأغلب ظنى أنه يشير إلى القاضى عبد الجبار وأبى

(١) انظر هذا الدليل عند الشهرستانى حيث يدافع عنه فى نهاية الاقدام ص ٩٦ وما بعدها ، وقارن المغنى ٤ / ٣٢٤ وما بعدها .

(٢) انظر الفصل الثالث من الباب الاول من هذه الدراسة ، والأبكار ١ / ١٦٨ ب .

(٣) المغنى ٤ / ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ . (٤) الأبكار ١ / ١٧١ ب .

(٥) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٣٥ . (٦) الأبكار ١ / ١١٧٤ .

الحسين البصرى، وهما من أصحاب (فكرة الدور) التى كانت أساساً لتحديد مجال كل من الدليل العقلى والدليل النقلى ، وعنهما تسرب هذا المفهوم ونتائجها إلى الأشاعرة منذ الجوينى كما بينته فى الباب السابق . ويتبين مما سبق من النصوص التى أوردتها هناك أن الوحدانية فى نظرهما ليست مما يتوقف عليه صدق الرسول ، وإذا فمن الممكن الاستدلال عليها بالسمع، وقد اعتمد الرازى - أيضاً - على الأدلة السمعية فى إثبات الوحدانية : لنفس هذا السبب مما يؤكد متابعتة المعتزلة فى هذا . ويشير الآمدى إلى ذلك (١) أيضاً فى الأبكار.

ومن هذه الملاحظة نستطيع القول إن أخذ الآمدى فى « الأبكار » بالدليل السمعى ، مع اعتماده فى نفس المسألة على الحجج العقلية فى « غاية المرام »، لا يعارض ما رجحناه من تقدم الأول على الأخير فى التأليف ، بل ربما ساعد على هذا الترجيح ؛ فإن الرجل فى « الأبكار » يتابع بدقة المنهج الذى سبقه به « حذاق المعتزلة » كما يقول ، وسبقه به الرازى معاصره ، وللآمدى عناية خاصة به وبكتبه، فهو لا يمثل تطوراً فى موقفه العام من الدليلين السمعى والعقلى الذى التزم به فى كل من « الغاية والأبكار »، بل هو تطبيق لهذه الفكرة بنفس الصورة التى طبقها بها أصحابها أنفسهم ، أما نزوعه فى « غاية المرام » إلى الاعتماد على الدليل العقلى وحده فى هذه المسألة وفى مسائل أخرى لا تتوقف عليها صحة النبوة ولا صدق النبى - كمسألة الرؤية مثلاً - هذا النزوع هو الذى يُعد إلى حد ما تطوراً، أو عدولاً عن الطريقة التى طبق بها المعتزلة والرازى فكرتهم المشار إليها .

وسنلاحظ فعلاً أن الآمدى فى غاية المرام لا يعتمد قط على الدليل السمعى وحده إلا فى مسائل البعث والمعاد وما يتعلق بهما ، مما يدل على توسيعه النطاق الذى يُستخدم فيه الدليل العقلى، بحيث يصبح مجاله أوسع مما تصوره المعتزلة، والرازى الذى رأى أن يستخدم الدليل السمعى فى صفات الكلام والسمع والبصر ، بينما أصر الآمدى على التمسك بالدليل العقلى فيها جميعاً كما سبق بيانه . غير أن الآمدى لم يصرح فى غاية المرام بعدم جواز الاستدلال بالسمع فى هذه المسألة بل سكت عن ذلك ، فلا مانع أن تكون هذه المسألة مما يجوز - فى نظره - الاستناد فيها إلى العقل والسمع معا ، كما هى

(١) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٣٣ . والأبكار ١ / ١١٧٤ ، وقارن المغنى للقاضى عبد الجبار ٤ / ٣٢٨ -

٣٢٩ ، والمعتمد لأبى الحسين البصرى ٢ / ٦٨٨ - ٨٨٨ وشرح النسفية ٢٣٤ .

روح تلك القاعدة المنهجية المشار إليها ، وربما ساعد على هذا أنه في كتاب له متأخر عن الكتابين المذكورين ، بل من أواخر مؤلفاته وهو (الإحكام في أصول الأحكام) ، يصرح بجواز الاعتماد على الإجماع ، وهو إحدى الحجج السمعية ، في بعض المسائل العقلية الدينية ومنها مسألة الوجدانية ، كما يعتمد عليه في المسائل الشرعية العملية : « فالجمع عليه إما أن يكون من أمور الدين أو الدنيا فإن كان من أمور الدين فهو حجة مانعة من المخالفة إن كان قطعياً من غير خلاف عند القائلين بالإجماع ، وسواء كان المتفق عليه عقلياً كرؤية الرب لا في جهة ، ونفى الشريك لله تعالى ، أو شرعياً كوجوب الصلاة والزكاة ونحو ذلك (١) » .

ولكن يبقى أن الآمدى يقرر في « الأبيكار » ضعف المسالك العقلية المستخدمة لإثبات الوجدانية واضطرابها ، ومن بينها المسلكان اللذان اختارهما في « غاية المرام » ، وتفسير هذا - فيما يظهر لي - أن الآمدى قد اقتنع بعد طول التأمل بصواب هذين الدليلين ، خاصة أنه لم يحكم ببطلانهما في « الأبيكار » ولكنه أبدى عليهما بعض التحفظات التي تجنبها في صياغته لهما في « غاية المرام » كما سيتبين .

ولا أدع هذه النقطة قبل أن أنص على أن تفسير الآمدى للآية ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا ﴾ يختلف نوعاً ما عن تفسير المتكلمين ، ويقترب كثيراً من تفسير ابن رشد في « مناهج الأدلة » ، والغزالي في « إلهام العوام » (٢) ، فهي في نظره تعبر عن تلازم شرطى بين فرض واحد ونتيجة لازمة له ، فإذا انتفى هذا اللازم انتفى الملزوم أى بطل الفرض : « أخبر بلزوم الفساد من تقدير وجود الآلهة ، ولافساد ، ويلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم » (٣) . وأما دليل انتفاء اللازم فهو أن الفساد هو الخراب والانحلال والاضطراب « ولا يخفى أن الأرض وما هي عليه من التأليف والتركيب غير منحل ولا مضطرب ، وأن ما هما عليه من الأحوال ، من سير الكواكب والأفلاك ، وشروق النيرات وغروبها وصعودها وهبوطها ولزوم الفصول لها في أوقاتها ، وجميع ما يلازمها من الآثار العلوية والسفلية ، فعلى غاية الاعتدال وحسن النظام في نظر كل عاقل متبحر ، حتى إنه لو أراد مريد تقدير حالة السماء والأرض في أكمل مما هي عليه ، لقد كلف نفسه شططاً » (٤) .

(١) الإحكام ١/ ٤٠٧ . (٢) مناهج الأدلة ص ٣٤-٣٦ ، وإلهام العوام ص ٣٦٥ .

(٣) الأبيكار ١/ ١٧٢ ، ب .

(٤) الأبيكار ١/ ١٧٤ ، وهذا نص مهم ولكن يبدو مضطرباً بعض الشيء ، ولا يبعد أن يكون فيه سقط .

وهذا عرض يلتقى تماماً مع تفسير ابن رشد لهذه الآية في «مناهج الأدلة»، غير أن الآمدى دخل - وهذا مما يؤسف له - في مناقشة جدلية معقدة حول فهمه لهذه الآية، ويظهر في هذه المناقشة طابع الجدل والاعتراضات المتوالية، ثم التصدى للإجابة عن هذه الاعتراضات، التي يعجز القارئ عن متابعتها إلا بجهد جهيد، كما سلفت الإشارة إلى ذلك.

أدلته العقلية في غاية المرام :

يستند الآمدى في هذا الكتاب إلى دليلين :

(١) لو فرضنا وجود الإلهين فإما أن يشتركا في كل شيء، أو يختلفا في كل شيء، أو يتفقا من وجه ويختلفا من آخر، ولكن الاحتمال الأول يعنى عدم التعدد في الحقيقة؛ لأنه لا تعدد مالم يتميز أحدهما عن الآخر. والاحتمال الثانى يعنى أنهما لم يشتركا في وجوب الوجود وفي سائر الكمالات الإلهية الأخرى، وإذا فأحدهما ليس بإله. أما الثالث فيقول عنه الآمدى: كيف أمكن أن يختص كل منهما بوجوه تميزه عن صاحبه بعد اتفاقهما في القدر المشترك بينهما؟ وما مبرر هذا التخصيص؟ هل مرد ذلك إلى ذاته فقط، أم إلى إرادته الإلهية، أم إلى صاحبه؟ لا ينبغى القول بالاحتمال الأول، لأنهما متفقان في الذات وفي بعض الصفات أيضاً، فكان من الواجب أن يشتركا فيما بقى، لأن مقتضى - وهو الذات فيهما - واحد. ولا بالثانى لأن معناه تحقق إلهيته واكتمال وجوده دون هذه المميزات، وهو خلاف الفرض. ولا بالثالث لأنه يعنى توقف تعيين كل منهما على صاحبه، وهو دور غير مقبول، فضلاً عن أنه يفضى إلى أن كلاً منهما يحتاج إلى علة من خارجه؛ أى أنه ممكن وليس بواجب الوجود (١).

(٢) الدليل الثانى: لو فرضنا وجود إلهين، وفرضنا حادثاً ما فإما يسند وجود هذا الحادث إليهما أو إلى أحدهما، لا يمكن القول بالأول لأننا - عندئذ - نكون أمام احتمالين: إما أن يسند إليهما معاً مع القول بأن كلاً منهما قد فعله وأوجده على سبيل الاستقلال، وهذا ظاهر البطلان؛ إذ كيف يمكن الجمع بين اشتراكهما في التأثير واستقلال أى منهما بالخلق؟ وإما أن نسند إليهما معاً بحيث لو فرض عدم أحدهما لما

(١) انظر: الأبهكار ١/١٦٧ ب، ١١٦٨، غاية المرام ص ١٥٣.

صح وجوده ، وهذا أيضاً فاسد ؛ لأن الإله هو الذى يخلق الحوادث بإرادته وقصده استقلالاً ، وفى هذا الفرض يستحيل إرادة كل منهما إيجاداً كاملاً ، لتعذر استقلاله به ، كما يستحيل توجه إرادته إلى جزء منه لتعذر وقوع هذا الجزء بناء على تلك الإرادة وحدها كما هو الفرض ، وإذا فلن يقع حادث أصلاً مع أنا فرضنا وقوعه ، والواقع يشهد بوقوعه أيضاً .

أما إسناده إلى أحدهما فمعناه تعطيل الآخر عن الفعل ، وليس أحدهما أولى بذلك من الآخر ، وذلك يفضى إلى إسقاط تأثير كل منهما ، وامتناع حصول الحوادث . وهو خلاف المفروض والواقع أيضاً (١) .

ولنا بشأن الدليل الأول ملاحظات :

أولاً - أن الآمدى قال بعد عرضه له فى الابهكار : « إنه وإن دق النظر فيه ، وحسن تحريره ، فإنما يصح الاستدلال به أن لو كان ما به الاتفاق والافتراق بين الإلهين وجودياً » (٢) .

وهذا يدل على عدم رفضه لهذا الاستدلال ، إذا خلا من هذا العيب الذى كان سبب رفضه لدليل الفلاسفة .

ثانياً - أن النص السابق يدلنا على الفرق بينه وبين دليل الكندى أو الفلاسفة ، برغم تشابههما فى الجزء الأول ، وهو الاحتمالات الثلاثة الواردة فيهما ، لكن طريق إبطال الاحتمال الأخير وهو أن يتفقا من جهة ويختلفا من جهة أخرى - عند الفلاسفة ، هو أنه يفضى إلى التركيب فى ماهية الإله ، والتركيب يحوج إلى المركب والأجزاء الداخلة فى التركيب ، وذلك محال على الله - تعالى .

أما الإمكان هنا فليس سببه التركيب كما هو الحال عند الفلاسفة ، وإنما سببه الاحتياج إلى مخصص من خارج الإله نفسه ، وهذه فكرة كلامية خالصة لافلسفية (٣) .

(١) انظر غاية المرام ل ١٦٣ = ص ١٥٤ من النسخة المطبوعة ، والابهكار ١ / ١٦٨ ب .

(٢) الابهكار ١ / ١٧٠ ب . (٣) انظر حوار بين الفلاسفة والمتكلمين للألوسى ص ١٦٧ وما بعدها .

ثالثاً - أن هذا الدليل لا يخلو - مع ذلك - من التأثير بروح دليل الكندي ، لا في تعداد الاحتمالات الثلاثة فقط ، ولكن من حيث قيامه على الفكرة القائلة إن مفهوم الإله نفسه يحيل القول بتعددده ، وقد كان لهذا المفهوم ، أثر واضح عند الغزالي الأشعري^(١) ، وابن حزم الظاهري^(٢) ، وعند الجبائي والكعبي^(٣) ، وأبي الهذيل^(٤) من شيوخ المعتزلة . وهذا نموذج محدد للعلاقة الوثيقة والمبكرة نسبياً بين الفلسفة والكلام ، ومعلوم أن أبا الهذيل معاصر للكندي وله صلاته الوثيقة بالفلسفة^(٥) .

أما بالنسبة للدليل الثاني :

فلاحظ - أولاً - أن فيه ملامح من استدلال ابن رشد بالآية الكريمة ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾^(٦) من حيث أن الفكرة الأساسية في كل منهما هي وحدة الفعل الإلهي واستقلال الإله بالخلق^(٧) ، وإذن فلو تعددت الإرادات الإلهية لما وُجد عنها عالم واحد متسق كما يقول ابن رشد ، أو لما وُجد عنها شيء مطلقاً كما يرى الآمدي ، وكلا الفرضين يكذبه الواقع المشهود .

كما ألاحظ من جهة ثانية أنه يعتمد على القول بامتناع مقدور واحد بين قادرين ، وهي فكرة اعتزالية في الأصل^(٨) ، والآمدي نفسه يشير عند عرضه في الأبحاث لهذا الاستدلال إلى أن تمسك المعتزلة به لا يستقيم ؛ لأنه يتعارض مع بعض أصولهم^(٩) . ونحن نجد هذا الاستدلال في صياغته يختلف عن صياغة عبد الجبار في المغني^(١٠) .

واعتقد أن أدلة الآمدي على الوجدانية ، وإن كانت أفضل من طريقة التمانع ، لا تخلو بدورها من الطابع الجدلي الذي اتسمت به الطريقة المذكورة ، وأفضل من كليهما

-
- (١) انظر الاقتصاد ص ٦٥ ، ٤٦ (٢) انظر الفصل ١/ ٤٥ ، ٤٦ .
 (٣) انظر المغني ٤/ ٣١٨ - ٣٢٠ . (٤) المغني ٤/ ٣١٩ .
 (٥) انظر نشأة الفكر للدكتور النشار ١/ ٥٠٠ - ٥٠١ . وأبو الهذيل العلاف ٣٣ - ٤٩ .
 (٦) الآية ٩١ من سورة المؤمنون . (٧) انظر مقدمة مناهج الأدلة ص ٣٤ .
 (٨) المغني ٨/ ١٠٩ - ١٦١ . (٩) انظر الأبحاث ١/ ١٧١ ، ب .
 (١٠) انظر المغني ٤/ ٢٦٧ وما بعدها ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، أيضاً ، وقارن غاية المرام ص ١٥٤ .

الاعتماد على براهين القرآن الكريم التي عني ابن رشد باستخلاصها وعرضها ، أو اللجوء إلى طريقة الكمال التي استخرج منها الرازي دليلاً على الوجدانية يفوق دليلى الآمدى (١) السابقين ، ومزجها الغزالي من قبل بفكرة وحدة الفعل الإلهي واستقلاله في كتابه «الاقتصاد» (٢) .

وعلى كل حال فقد ختم الآمدى أبحاثه عن الوجدانية بالتعرض لمشكلة الشر في العالم (٣) ، وهى من أكبر شبه القائلين بالتعدد ، ولذا بدأ ابن حزم كلامه على الوجدانية فى «الفصل» بإبطالها (٤) ، كما عني بها الباقلاني فى «التمهيد» (٥) ، وهو يكرر ما أشرت إليه فى بحث الإرادة ، ويزيده إيضاحاً ، فليس الشر ذاتاً ولا وجوداً حقيقياً (٦) ، وإنما هو إما عدم الذات أو نقص كمال الذات كما يقول الفلاسفة ، أو عبارة عن مخالفة الأغراض كما يقوله المتكلمون : «وليس ذلك من باب الإحداث والإيجاد فى شئ ، فلا يكون مراد الحدوث والوجود» (٧) .

ونحن نجد مثل هذا الجواب ، أو قريباً منه عند الغزالي (٨) ، والشهرستاني (٩) من الأشاعرة ، كما نجد عند ابن حزم فى الفصل (١٠) ، وابن تيمية فى الفرقان (١١) ، وكذا عند ابن رشد (١٢) ، والفسارابى (١٣) ، وابن سينا (١٤) من الفلاسفة ، بل وعند ابن عربى (١٥) شيخ الصوفية أيضاً .

ولا عجب أن تتقارب إجاباتهم ، فالآمدى يصرح هنا بأن أصل إجابته يرجع إلى المبدأ الفلسفى المتمثل فى أن الشر عدم مبعض ، وإلى الفكرة الأشعرية فى نفى التحسين

(١) فخر الدين الرازى وآراؤه ٢٣٦ . (٢) انظر الاقتصاد ٤٦ - ٤٧ .

(٣) انظر ص ١٥٥ من غاية المرام ، والابكار ١ / ١٧٤ ، ب .

(٤) انظر الفصل ١ / ٣٥ - ٤٥ . (٥) انظر التمهيد ص ٦٨ وما بعدها .

(٦) انظر غاية المرام ص ٦٣ ب - ١٦٤ = ١٥٥ من النسخة المطبوعة .

(٧) الابكار ١ / ١٧٤ ب . (٨) الاقتصاد ٤٨ . (٩) نهاية الاقدام ٢٥١ ، ٢٥٣ .

(١٠) الفصل ١ / ٣٨ ، ٣٩ . (١١) الفرقان : ١٠٩ - ١٢٧ .

(١٢) انظر مناهج الادلة ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ .

(١٣) انظر عيون المسائل ص ٨ .

(١٤) انظر النجاة ٢٨٤ - ٢٩١ ، والفن الثانى من طبيعيات الشفاء تحقيق د / قاسم ص ٥٣ .

(١٥) انظر : الفتوحات المكية ١ / ٤٦ ، ٤٧ .

والتقبيح العقليين ، وهما تلتقيان في أن الشر ليس له وجود حقيقى ، وإنما مرده إلى ضرب من العدم أو إلى نظرة الإنسان إلى بعض الموجودات ، وإذن فلا ضرورة لنسبته إلى خالق آخر . ويشير الآمدى إلى أن مثل هذا السؤال قد تصعب الإجابة (١) عنه ممن يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين وبوجوب الصلاح والأصلح على الله ، وهو يعنى بذلك المعتزلة وقولهم بأن الله ليس بخالق للشر وأن الإنسان مستقل بأفعاله . والحق أن المعتزلة بمنجاة من هذا السؤال الصعب ، لأن أخص وصف لإله عندهم ليس هو الخلق والإيجاد كما تقول الأشاعرة ، بل هو التفرد بالقدم والأزلية ، والاستغناء عما سواه ، كما سبق بيانه من قبل ، فمثل هذه الشبهة لا ترد عليهم (٢) .

* * *

(١) انظر ل ١ / ١٧٤ ب من الأبهكار . (٢) انظر غاية المرام ص ١٥٥ .

٣- نفى الجسمية عن الله تعالى

أ- طبيعة المسألة :

هذه مسألة ثار فيها الخلاف بين المسلمين بعد الصدر الأول ، كما حدث فيمن قبلهم من الأمم ، فقد نزع اليهود إلى تصور الله تعالى في صورة الإنسان ، كما رفع النصراني الإنسان إلى مستوى الألوهية^(١) . وقد قال الآمدي ، وهو يتحدث عن « الكرامية » ، وقولهم بأن الله مماس للصفحة العليا من العرش ، وأنه تجوز عليه الحركة والانتقال وتبدل الجهات : « وإلى ذلك ذهب اليهود لعنهم الله^(٢) » .

وذلك أنه من الصعب على العقل العادي - كما يقول الرازي وينقله عنه الآمدي في « المآخذ » - تصور وجود « موجود ليس بجسم ولا حال فيه ، ولا متحيز داخل العالم ، ولا متناه في شيء من الجهات »^(٣) ، وهو يذكر أن قوماً من المسلمين ادعوا أن استحالة ذلك أمر بديهي ، يأخذ في مناقشتهم متمسكاً بوجوب التفرقة بين عالمي الغيب والشهادة : « حكم الوهم والخيال غير مقبول في أفعاله تعالى ؛ فإن إحداث الشيء من غير مادة ومدة وآلة ، وتغير في ذات الفاعل ، وجلب منفعة ودفع مضرة في حقه ، غير مقبول عند الخيال والوهم ، مع أن أفعاله كذلك باتفاق المسلمين . ولا في صفاته أيضاً ؛ فإن وجود موجود يعلم جميع المعلومات ، ويعلم الشيء الذي لا يتناهى دفعةً ، ويدبر مقدرات لا تتناهى ، ولا يشغله شأن عن شأن ، غير مقبول عندهما . مع أن المسلمين على أنه تعالى كذلك ، فلأن لا يقبل في ذاته مع بعدها عن مناسبة الحس والخيال أولى^(٤) » .

والحق أنه لا يكتمل التنزيه الخالص لله - عز وجل - إلا بالتمسك بهذه التفرقة الحاسمة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، مع الإيمان بكل ما تعرف الله به إلى خلقه على لسان رسله دون تمثيل ولا تعطيل . ولكن الطريق إلى ذلك صعب عسير ، فالناس تتفاوت في هذا الصدد ، وأكثرهم نزاع إلى التمثيل والتشبيه ولا يكاد يؤمن بغير المحسوس ، وربما كان هذا أكبر دواعي الانحراف عن العقيدة الصحيحة كما يقول ابن الجوزي : « كل

(١) انظر المآخذ ل ٢٦ ، ومقدمة مناهج الأدلة ص ١٠ ، ودفع شبه من شبه ص ٦ ، والمواقف ٨/ ١٩ ، وشرح الطحاوية ٥٩ ، ٦٠ . (٢) الأبهكار ١/ ١٥٠ (٣) المآخذ لوحة ١٢٥ .

(٤) المآخذ ٢٥ ب ، وتوجد الفكرة عند الأشعري في اللمع ٦٧ ، ٦٨ والباقلاني في التمهيد ص ١٥٢ .

محنة لبس بها إبليس على الناس فسببها الميل إلى الحس، والإعراض عن مقتضى العقل، ولما كان الحس يأنس بالمثل دعا إبليس - لعنه الله - خلقاً كثيراً إلى عبادة الصور، وأبطل عند هؤلاء عمل العقل بالمرة» (١).

ولصعوبة هذا المقام أوصى ابن رشد - مع إيمانه بأن الله تعالى ليس بجسم - ألا نتعرض مع جماهير المؤمنين لنفى الجسمية ولا لإثباتها، وأن نقف بهم عند حدود قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ كيلا نستدرجهم إلى التعطيل وإبطال الشريعة، إذ الموجود عند الجمهور إنما هو المحسوس، والمعدوم عندهم غير المحسوس (٢). ويرى ابن عربى رأياً قريباً من رأى ابن رشد إذ يقول: «فلما اختلفت الأمزجة كان فى العالم العالم والاعلم، والفاضل والافضل، فمنهم من عرف الله مطلقاً من غير تقصير. ومنهم من لم يقدر على تحصيل العلم بالله حتى يقيد بالصفات التى لا توهم الحدود، وتقتضى كمال الموصوف. ومنهم من لم يقدر على العلم بالله حتى يقيد بصفات الحدود، فيدخله تحت حكم ظرفية الزمان وظرفية المكان والمقدار، ولما كان أمر العلم بالله فى العالم فى أصل خلقه على هذا المزاج الطبيعى المذكور أنزل الله الشرائع على هذه المراتب. فعمت الشرائع ما تطلبه أمزجة العالم...» (٣).

وهكذا نجد أن التشبيه والتنزيه كلاهما طريق لا بد منه، غير أن التطرف والغلو فى أولهما قد يفضى إلى التجسيم والتشخيص، كما أن التطرف فى الجانب الآخر قد يفضى إلى النفى والتعطيل، وهى حقيقة نبه إليها الكثير من العلماء كالغزالي (٤)، وابن رشد، وابن تيمية (٥)، والإمام الطحاوى المصرى (٦).

ولتعارض هذه الاعتبارات واختلاف مواقف الناس منها - كما أشار إلى ذلك ابن عربى - وقع الخلاف بين المسلمين حول إثبات الجسمية؛ فصرح البعض بالإثبات، والبعض بالنفى، ومال آخرون إلى التوقف؛ عن النفى أو الإثبات، مع اقتناعهم بتنزه تعالى عن مشابهة الأجسام وسائر المحدثات، كما نقلناه عن ابن رشد، وكما سيتبين من موقف ابن تيمية.

(١) تلبس إبليس ٥١. (٢) مناهج الأدلة ١٧٥.

(٣) الفتوحات ٢/٢٩٠. (٤) إجماع العوام - ط المبرية ص ٤٤، ٤٥.

(٥) انظر الواسطية ص ١٥، ١٦، ومناهج الأدلة ١٧٥.

(٦) انظر شرح الطحاوية ص ٥٧ - ٦٠، ١٢٥، ١٢٦.

ب- مثبتو الجسمية وحكمهم :

ينسب القول بالتجسيم إلى الحنابلة مطلقاً (١) ، أو إلى البعض منهم (٢) ، وإلى الحشوية (٣) ، وإلى الكرامية (٤) ، وإلى طوائف من الشيعة (٥) . وينبغي تحديد ذلك :

أ- أما الحنابلة : وقد نسب إليهم الآمدى القول بالتجسيم متابعا للرازي (٦) . فالمنقول عن الإمام أحمد نفسه أنه أنكر على من يقول بالتجسيم، وقال : « إن الأسماء مأخوذة بالشرعية واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على كل ذى طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف . والله تعالى خارج عن ذلك كله ، فلم يجوز أن يسمى جسما لخروجه عن معنى الجسمية . ولم يجيء في الشريعة ذلك ، فبطل » (٧) . كما أنه حرص على قبول آيات الصفات كما وردت ، ولكن مع تنزيهه تعالى عن كل مشابهة بالمخلوق ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٨) .

أما أتباعه فقد جروا على نهجة السلفي ، ولكن ظهرت فيهم طائفة نزعت إلى التشبيه والتجسيم ، « ومنهم ابن حامد والقاضي وتلميذه وابن الزاغوني ، وهؤلاء ممن ينتمى إلى الإمام ويتبعهم الجهالة بالإمام أحمد .. وبالغوا في الافتراء إما لجهلهم وإما لضغينة في قلوبهم ، كالمغيرة بن سعيد [أحد غلاة الشيعة] وأبي محمد الكرامى ، لأنهم أفرأخ السامرة في التشبيهية ويهود في التجسيم ... قال ابن حامد في قوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ، وقوله : ﴿ إلا وجهه ﴾ . ثبت له وجهها لا رأسا ، وقال غيره : يموت إلا وجهه . وذكروا أشياء يقشع الجسد من ذكر بعضها (٩) » .

فقام طائفة من علماء الحنابلة ، يقاومون هذا الغلو المخالف لما عليه السلف والأئمة جميعا ، ومنهم أحمد بن حنبل . وكان من هؤلاء الإمام ابن عقيل وأبو الحسن التميمي

(١) انظر مناهج الأدلة ص ١٧١ والمآخذ ل ١٢٥ .

(٢) انظر فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٢٤٠ .

(٣) انظر الأبهكار ٢/ ١٢٥٦ ونشأة الفكر ٦٠١ وما بعدها ، وغاية المرام ص ١٨٠-١٨١ .

(٤) انظر غاية المرام ص ١٨٠ .

(٥) انظر الأبهكار ٢/ ٢٥٧ ب ، ٥٨ ، ب ، ونشأة الفكر ٢/ ٢٩٣ وما بعدها .

(٦) المآخذ ل ١٢٦ . (٧) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٢٩٨ .

(٨) دفع شبه من شبه ص ٥ ، ٦ والأشعرى ص ٧٥ .

(٩) دفع شبه من شبه ص ٦ ، وقارن نقض المنطق ١١٨ وما بعدها .

وابن الجوزى وأبو بكر الحصنى وغيرهم^(١). وقد صرحوا بنفى التجسيم وإنكاره ، ونقل ابن القيم عن الأشعرى أنه نسب الى أهل السنة وأصحاب الحديث « أنه تعالى ليس بجسم ولا يشبه الأشياء »^(٢).

حتى جاء ابن تيمية فوقف موقفا غريبا فى هذه المسألة ؛ إذ قرر أن « لفظ التجسيم لا يوجد فى كلام أحد من السلف لانفيا ولا إثباتا ، فكيف يحل أن يقال مذهب السلف نفى التجسيم أو إثباته بلا ذكر لذلك اللفظ أو معناه عنهم ؟ »^(٣) . وهذا يخالف المنقول عن الإمام أحمد - كما ذكرت من قبل - ويخالف المعهود من شأنه إزاء كل بدعة ، وقد عرف التشبيه والتجسيم على يد مقاتل بن سليمان ، ومن سبقوه من الحشوية^(٤) كما سنذكره فيما بعد ، ومع هذا فإن ابن تيمية لم يحافظ على موقفه الوسط بين مثبتى الجسمية ونفاتها ، بل مال أحيانا الى الأولين بعض الميل ، وربما دافع عنهم^(٥) ؛ لأنه كان يرى أن خطر التشبيه والتمثيل دون خطر النفى والتعطيل^(٦) . كما أنه كان يثبت ما جاء من الصفات الخبرية كالنزول والاستواء ونحوهما ، مقررًا أنه على حقيقته ، دون أن يشفع ذلك دائما بنفى مماثلته لأحوال المخلوقين فى الشاهد مما قد يتبادر الى الأذهان^(٧) . مع أننا نجد ابن قدامة مثلاً - وهو معاصر للآمدى ورئيس لحنابلة دمشق - يقول : « وقال الإمام أحمد : قول النبى ﷺ (إن الله ينزل إلى سماء الدنيا - وإن الله يرى يوم القيامة) وما أشبه ذلك نؤمن بها ، ونصدق بها ، لا كيف ولا معنى ، ولا نرد شيئا منها ، ونعلم أن ما جاء الرسول به حق .. بلا حد ولا غاية ... ولا نعلم كنه ذلك »^(٨) . بل إن ابن تيمية يصرح أحيانا بنسبة الحركة الاختيارية الى الله تعالى^(٩) ، ويهتم كثيرا بإثبات عدم تماثل الأجسام^(١٠) ، مما دعا خصومه إلى اتهامه بالتجسيم .

ولكن الإنصاف أن نقرر أن الرجل كان دقيقا فلم يصرح قط - فيما قرأت له -

(١) انظر تلبس إبليس ٥١ ، ١٠٥ . ودفع شبه من شبه ص ٦ وما بعدها ، ونقض المنطق ١٣٥ وما بعدها ، ومنهاج السنة ١٢٣/٢ ، ١٢٤ .

(٢) اجتماع الجيوش ١٤٥ . (٣) نقض المنطق ١٢٥ ، وانظر الموافقة ١/١٤٤ .

(٤) نشأة الفكر ١/٦٠٤ وما بعدها . (٥) انظر نقض المنطق ١١٨ وما بعدها .

(٦) انظر ابن تيمية السلفى ٦٤ ، ١٤٣ - ١٤٥ . (٧) انظر الموافقة ٢/١٨٣ وما بعدها .

(٨) لمعة الاعتقاد لابن قدامة ١١ ، ١٢ . (٩) انظر الموافقة ٢/١٨٣ ، ١٨٤ ، ومنهاج السنة ط بولاق ٢/٢٦ .

(١٠) انظر الموافقة ٢/٢٥٦ - ٢٥٩ .

بلفظ التجسيم منسوباً إلى الله - تعالى ، وكل ما فى الأمر أنه يتساهل مع المجسمة ، ويدافع عنهم أحياناً ، وقد يثبت ما يرى غيره أنه من لوازم التجسيم كالحركة مثلاً^(١) ، ويشتد مع النفاة . وكان أخرى به كإمام سلفى أن ينكر على من صرح بإثبات الجسمية ؛ لأنه بهذا خارج عن عقيدة السلف ومنحرف عنها طبقاً لنقله هو لها ، ولما ينقله عن أصحابه من تكفيرهم المجسمة والمشبهة : « وأكثر أهل السنة من أصحابنا يكفرون المشبهة والمجسمة »^(٢) ، ويرى أن قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ يدل على انتفاء التجسيم والتشبيه^(٣) ، كما صرح بذلك فى « الرسالة المدنية » وربما كان هذا هو الموضع الوحيد الذى صرح فيه ابن تيمية بنفى التجسيم .

ب- وأما الحشوية : فإن الآمدى ينسب إليهم القول بالتشبيه والتجسيم ، ويذكر منهم كهمس ومضر والهجمى وغيرهم ، ممن « نقل عنهم أنهم أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة والمعانقة للمخلصين ، وأنهم يرونه فى الدنيا ويزورنه ، ومنهم من قال إن معبوده جسم ، وله جوارح وأعضاء ، وأنهم أجروا كل ما ورد من أخبار الصفات - على ما تقدم فى إبطال التشبيه - على ظاهرها »^(٤) . وقد كان كهمس وزميله من قدماء الحشوية المنسوبين إلى الحديث والسنة ، وقد قالوا بهذه الآراء ومهدوا لمقاتل بن سليمان - زعيم المشبهة بخراسان - الذى يذكر الآمدى أنه من القائلين بأن « الله جسم كالأجسام ، ومركب من لحم ودم »^(٥) ، ولقد ذكرت من قبل أنه كان من بين المحدثين والمنسوين إلى السنة من غلا فى الإثبات حتى مال إلى التشبيه كالبريهارى عدو الأشعرى ، والأهوازى - الذى رد عليه ابن عساكر^(٦) - وهو أحد السالمية الذين حاربهم الأشاعرة لتشبيههم .

ج - وأما الكرامية فهم يقولون بالجسمية ، وإن حاول بعضهم - كإبن الهيصم - تخفيفها^(٧) . ولذا يقول الآمدى فى الأبهكار : « إن فرقهم متعددة . . غير أننا اقتصرنا على أقوال زعيمهم والمشهور منهم ، وقد اتفقوا على أن الله مستقر على العرش ، مماس له من

(١) انظر منهاج السنة ٢٦/٢ وموافقة صحيح المنقول ١٨٣/٢ ، ١٨٤ .

(٢) الرسالة المدنية ط انصار السنة سنة ١٩٤٦ ص ٨ . (٣) الرسالة المدنية ص ٢٢ .

(٤) انظر الأبهكار ٢٥٦/٢ ب ، وغاية المرام ص ١٨٠ . (٥) الأبهكار ١٤٣/١ ب .

(٦) انظر تبیین کذب المفترى لابن عساكر ص ٣٦٩ ، ٣٩٢ .

(٧) انظر نشأة الفكر د / النشار ١٦٧/١ وما بعدها .

الصفحة العليا ... ومنهم من أطلق لفظ الجسم عليه تعالى» (١) . ولقد كانت الكرامية أخطر وأكبر فرقة من المشبهة، والقائلين بالجسمية الذين ورثوا آراء من سبقوهم وصاغوها بلغتهم ، وقد تأثر بآرائهم بعض المفكرين المسلمين من الطوائف الأخرى ، وكان شيوخ الأشاعرة - ومنهم الآمدى - هم الذين تصدوا لها وحاربوها فى قوة ، ونقلوا آراءها فى حيدة ونزاهة الى حد كبير (٢) .

د- وأما الشيعة فقد نسب الآمدى التجسيم إلى بعض غلاتهم ، والقدماء منهم كالهشامين ابن الحكم والجواليقى ، وإن كان قد نسب إلى الشيعة أيضاً - كما سبق - نفى الصفات الإيجابية، مما يدل على إدراكه للتطور الذى أصاب الشيعة المتأخرين حيث مالوا إلى الاعتزال ، أما القدماء فيقول عنهم : « فمنهم [أى المشبهة] غلاة الشيعة كالسبئية والجناحية والخطابية والذمية والهشامية والرزامية والنصيرية والإسحاقية ، على ما حققناه من مذاهبهم القائلة بالتجسيم والحركة والانتقال والحلول فى الأجسام ، إلى غير ذلك » (٣) .

وقد عُرف التصريح بالجسمية عن هشام وغيره من شيعة عصره باعتراف الشيعة أنفسهم (٤) ، إلا أن له فيه مفهوما يختلف عن قول غيره من الجسمة ؛ فالله - تعالى - عنده جسم لا كالأجسام ، وغرضه من التصريح بالجسمية تأكيد الوجود الحقيقى للذات كما ينقل الأشعرى فى المقالات : « وقال هشام بن الحكم : معنى الجسمية أنه موجود . وكان يقول : إنما أريد بقولى جسم أنه موجود ، وأنه شئ ، وأنه قائم بنفسه . » (٥) ولعله يريد بذلك تأكيد الوجود الحقيقى لله تعالى ، ومعارضة التنزيه الغالى للمعتزلة ، كما يرى باحث شيعى معاصر : « كان هشام من أنصار الصادق وتلاميذه ، فخرج بنظرية جديدة فى التجسيم .. فقال فى إلزامه لأبى الهذيل - برواية الشهرستاني - : فيكون عالماً لا كالعالمين فلم لا يقول هو جسم لا كالأجسام . » (٦)

(١) الأبيكار ١ / ٢٥٢ ب ، وانظر غاية المرام ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) انظر نشأة الفكر د / النشار ١ / ٦٣٩ - ٦٤١ .

(٣) الأبيكار ٢ / ٢٧٥ وانظر ٢ / ١١٤٤ - ١١٥٢ .

(٤) انظر الصلة بين التصوف والتشيع ١ / ١٤٦ - ١٥٠ . (٥) مقالات الإسلاميين ٢ / ١٦٠ .

(٦) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور مصطفى كامل الشيبى ١ / ١٤٦ .

أما غلاة الشيعة فقد عرف عنهم القول بالجسمية والحلول والتشبيه في أغلظ معانيه (١)، ولكن الآمدى ينسب إلى هشام التجسيم الصريح دون هذا القيد الذى يشير إليه الأشعرى والشهرستاني، وإن كان يفرق فى الحكم على المجسمة بين من يستلزم قوله الكفر، ومن يجب ألا يُحكم عليه بغير الخطأ والبدعة، وهو يشير إلى من كفر المجسمة مطلقاً من الأصحاب لقولهم «بأن الله جسم، وكونهم عابدين للجسم، وقد قال تعالى ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾» (٢)، وإنما كفرهم لقولهم بأن الله هو غير الله، ثم يقول: «والختار إنما هو التفصيل؛ وهو أن ما كان من البدع المضلة والأحوال المهلكة يرجع إلى اعتقاد وجود إله غير الله، وحلول الله فى بعض أشخاص الناس، كما هو المنقول عن بعض غلاة الشيعة؛ كالحائطية والغرابية والجناحية والخطابية والذمية والرزامية والنصيرية والإسكافية.. فذلك لا نعرف خلافاً بين المسلمين فى التكفير به. وأما غير ذلك مما أشرنا إليه من المقالات المختلفة فلا يمتنع أن يكون معتقدها وقائلها مبتدعاً غير كافر» (٣). ويرد على من كفر كل من قال بالتجسيم على الإطلاق: «وأما قولهم من اعتقد كون الجسم إلهاً فقد اعتقد غير الله إلهاً، فقد كفر؛ لقوله تعالى ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ قلنا أمكن أن يكون تكفير من اعتقد كون المسيح إلهاً لكونه جسماً كالأجسام، وذلك غير متحقق فيما نحن فيه فلا يلزم التكفير» (٤). ويؤكد الآمدى موقفه هذا فى غاية المرام (٥)، وفى المآخذ أيضاً (٦)، وهو يتفق فى ذلك مع كثير من شيوخ الأشاعرة، كابى الحسن الأشعرى والباقلانى والجوينى والشهرستاني (٧)، ومن غيرهم كابن حزم (٨) وإن رشد (٩) والشاطبى (١٠). ويختلف عمن كفرهم من الأشاعرة (١١) والمعتزلة (١٢) والماتريدية (١٣). أما الغزالى

(١) انظر نشأة الفكر للنشار ٢/ ٢٩٣ وما بعدها والأبكار ١/ ١٥٥ - ١٥٨ ب.

(٢) الآية ١٧ من سورة المائدة. (٣) الأبكار ٢/ ٢٥٨ ب وانظر ٤٣ ب، ١٤٥ ب من نفس الجزء.

(٤) السابق ٢/ ٢٥٩ ب. (٥) انظر هامش ص ١٨٣ من غاية المرام.

(٦) المآخذ ل ١٢٨ ب. (٧) غاية المرام ص ١٨٣.

(٨) الفصل ٢/ ١٢٠. (٩) انظر مناهج الأدلة ١٨٩ - ١٩١.

(١٠) انظر الاعتصام ٢/ ١٩٧. (١١) كالبغدادى انظر الفرق ٢١٥ وأصول الدين ٣٣٧.

(١٢) كالحياط فى الانتصار ٨٠، ٨١ وقد نسب المرحوم الزركان مثل ذلك إلى عبد الجبار (الرازى وآراؤه ٢٤٠)

وهو فى شرح الأصول الخمسة يفرق بين من أثبت جسماً كالأجسام ومن قال هو جسم لا كالأجسام انظره ٢١٧

- ٢٢٤. (١٣) انظر بحر الكلام ١٨، ١٩ وفخر الدين وآراؤه ٢٤٢.

والرازي وابن تيمية فقد تردد قولهم بين التكفير والتخطفة (١).

ج- إبطال الجسمية :

ومع هذا الموقف المتسامح فقد عني الآمدى ، كأسلافه من شيوخ الأشاعرة (٢) وغيرهم (٣) ، بإبطال القول بالجسمية ، بل تجاوز ذلك إلى إبطال كل لوازمها من النهاية والحد والزمانية والمكانية بما في ذلك الجهة، والحلول والاتحاد ، وحلول الحوادث بذات الله تعالى . ومن يقرأ كلامه، في « غاية المرام » في تنزيه الله - سبحانه - عن ذلك كله، لا يكاد يفرق بينه وبين كلام المعتزلة في هذا الشأن، اللهم إلا في شيء واحد، وهو نفى هؤلاء للرؤية وإثباته هو لها كغيره من الأشاعرة (٤).

ويأخذ الآمدى كعاداته في إبطال أدلة المتكلمين لينتهي إلى ما يختاره هو ، ويبدأ من ذلك في (غاية المرام) بما ساقوه دليلاً على بطلان التشبيه جملة : إن المقادير والأشكال والأحوال متساوية جميعاً ، فلو اختص الباري منها بشيء لاحتاج إلى مخصص فيكون حادثاً . وهي فكرة لجدها عند البغدادى والشهرستانى (٥) . ولكن الآمدى يراها ضعيفة؛ لأنها تنبنى على تساوى الممكنات ، وهي مسألة يتعذر إثباتها جداً (٦) . وهو يقترب بهذا من نقد ابن رشد لفكرة الإمكان الكلامية (٧) . على أنه لو سلم بتساويها فلا يلزم الحدوث إلا إذا كان المخصص له بإحداها خارجاً من ذاته، ولعل صاحب هذه المقالة يقول بأن المخصص هو ذات الباري أو إرادته القائمة بها ، فلا يكون حادثاً بذلك ولا محتاجاً إلى غيره (٨).

(١) انظر الاقتصاد ٢٥، ٢٦ وإلجام العوام ٢٤١، ٢٤٢ . وفخر الدين وآراؤه ٢٤٢ وما بعدها، ونقض المنطق ١٢٥ .

(٢) انظر اللمع ٢٣، ٢٤ والتمهيد ٢٤٨ - ١٥٢ والفرق بين الفرق ٢٠٢-٢١٢ والإرشاد ٤٢، ٤٣ والاقتصاد ٢٦ والملل والنحل ١/١٤٧ - ١٥٤ ونهاية الأقدام ١٠٥ والمحصل ١١٤ وأساس التقديس ٢٠ - ٢٦ .

(٣) انظر شرح الأصول الخمسة ٢١٩-٢٢٦ والفصل ١١٧/٢-١٢٢ وبحر الكلام ١٨، ١٩ .

(٤) انظر ص ١٨١ غاية المرام، وقارنها بشرح نهج البلاغة ١٩٠-١٩٨، ومقالات الإسلاميين ١/٢١٦-٢١٨، وانظر ١/١٤٣ ب - ١١٤٥ من الأبيكار أيضاً .

(٥) انظر : أصول الدين ٢٧٣ ونهاية الأقدام ١٠٥ . (٦) انظر : ص ١٨٢ غاية المرام .

(٧) انظر : مناهج الأدلة ١٤٤ ومقدمته ١٥-١٨ ونظرية المعرفة عند ابن رشد ٨٧ - ٩١ وابن رشد وفلسفته الدينية

(٨) انظر : ص ١٨٢-١٨٣ غاية المرام . ٩١-٩٤

ونحب ان نشير هنا إلى أن الآمدى يعتمد على فكرة تساوى المقادير والأشكال واتحاد الاجسام، ويستخلص منها عدة أدلة لإبطال الجسمية فى كتابه (الأبكار) ، ولكنه ينتقدها فى « غاية المرام » مما يدل على تطور نظرتة إلى هذه المسألة (١)، وقد اعتمد الرازى قبله على هذا الاستدلال غير أنه انتقد فكرة تماثل الأجسام مما يضعف من احتجاجة بها (٢).

وفكرة تماثل الأجسام موجودة لدى الأشاعرة والمعتزلة ، وهى معتمدهم فى نفى الجسمية (٣) عن الله - تعالى . أما ابن تيمية فقد ضعفها ، ونقل مثل ذلك عن الرازى والآمدى (٤)، بل إنه ينسب ذلك إلى الأشعرى أيضا (٥). ومما ذكرناه يتبين أن نقله هذا دقيق .

كما يعتمد الآمدى فى الأبكار - أيضا - على أن القول بالجسمية يفضى إلى المحال، من حيث إن الجسم مركب من الاجزاء أو الجواهر الفردة ، وكل منها يصح قيام الصفات به من العلم وغيره ، وهذا يفضى إلى تعدد الآلهة والقدماء حقيقة ، أو إلى عدم اتصافه تعالى بتلك الصفات ؛ لأن كل جزء ليس أولى من الآخر ؛ ولأن المتحد لا يقوم بالمتعدد (٦). وهذه حجة استخدمها الرازى قبله أيضا، وهى تقوم على أساس غير مسلم به؛ وهو أن البنية ليست شرطا فى الشاهد للاتصاف بالصفات المذكورة (٧)، كما أنها تعتمد على نظرية الجوهر والعرض وقد انتقدها الآمدى فى (غاية المرام) كما سيأتى ، ولذا نجده فى هذا الكتاب الأخير يعرض عن هذه الحجة أيضا ، ويكتفى فى إبطال الجسمية بإبطال الجوهرية كما فعل الغزالى فى الاقتصاد (٨) : « فإنه متى انتفى أعم الشيئين انتفى الأخص قطعاً » (٩) .

(١) انظر : الأبكار ١/ ١٤٤ ب، وغاية المرام ٧٣ ب- ١٧٤ .

(٢) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٣) انظر : التمهيد للباقلانى ٢٣، ٤٢، ١٥٢ والشامل للجوينى ١/ ٥٧ - ٥٩ واصول الدين للبغدادى ٣٥ ، ٥٠ وتأسيس التقديس ص ٢٢ وشرح الاصول الخمسة ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٤) انظر : الموافقة ١/ ٥٠ وما بعدها ٢/ ٢٥٦ - ٢٥٩ وقارنه بما فى المآخذ ٢٣ ب ، ١٢٤ وغاية المرام ١٧٢

(٥) الموافقة ١/ ٥٥ . (٦) انظر : الأبكار ١/ ١٤٣ ب ، ١١١٤ .

(٧) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٤٨ . (٨) الاقتصاد ص ٢٦ .

(٩) غاية المرام ٧٣ ب وهذا أحد أدلته فى الأبكار أيضا ، انظر : ١/ ١٤٤ ب .

ويبدو أنه يطلق الجوهر على جزء الجسم المادى مطلقا ، ولا شك أن كل جسم مادى له أجزاء سواء قلنا بنظرية الجوهر الفرد أم لم نقل ، ومصطلح الجوهر موجود حتى عند منكرى نظرية الجوهر الفرد كابن سينا مثلاً (١) ، والآمدى فى « المآخذ » يستعرض معانى الجوهر وينفيها عن الله ؛ لأنها من خصائص الموجود المتحيز المتصف بالصفات المتغيرة ، أى الكائن المادى ، إلا معنى واحداً هو « الموجود لا فى موضوع » فهو سلب محض ومعناه أنه ليس كالصفة أو العرض الذى يحتاج إلى محل يقومه ، وهذا متحقق - من حيث المعنى - فى البارى جل وعلا ؛ لاستغنائه عن كل شىء . وهو فى « غاية المرام » يقبل هذا المعنى الأخير وإن كان يعارض فى تخصيص سلب الموضوع بحقيقة الجوهر ، كما يقبل قول من قالوا : إنه تعالى جوهر لا كالجواهر ، ويقول : إنه تسليم بالمطلوب ؛ من حيث إنهم نفوا كل المعانى المادية للفظ الجوهر ، فلم يبق إلا حرصهم على أنه تعالى ذات وموجود وهذا حق لا مرية فيه . غير أنه يقول لهم : إن إطلاق الأسماء على البارى تعالى يتوقف على الإذن الشرعى ولا يكفى فيه التجويز العقلى (٢) .

ولكن إذا كان الآمدى يرى بطلان الجوهرية ، فما أدلته على ذلك ؟

يعتمد الآمدى فى « غاية المرام » على حجتين لإبطال الجوهرية ؛ أولاهما : أنه لو كان البارى جوهرًا لكان إما واجباً بذاته أو ممكناً ، أو ممتنعاً ، لا جائز أن يكون ممتنعاً وإلما وجد ، ولا ممكناً وإلا لافتقر إلى مرجح خارج عن ذاته كسائر الممكنات ، ولا واجباً بذاته وإلا لجاز أن تتساءل ولماذا يختص هو بالوجوب دون سائر الجواهر المتحيزة (٣) ؟ .

والثانية أنه لو كان جوهرًا لم يكن القول بكونه مرجحاً لغيره من الجواهر بأولى من العكس (٤) ، فثبت أنه تعالى ليس بجوهر ، وأنه مخالف بحقيقته لسائر الجواهر . أما إن كان مراد مثبتى الجوهر تأكيد الوجود والذاتية والاستغناء ، مع اعترافهم بأنه لا مثل له ، وأنه مخالف بحقيقته لسائر الجواهر فهذا المعنى مسلم لهم ، ويقتصر الخلاف على جواز

(١) انظر : رسالة الحدود له حيث يعرف الجوهر ص ٨٨ ، وانظر : النجاة ١٠٢-١٠٤ حيث ينقد نظرية الجوهر

والعرض . (٢) انظر : ص ١٨٢-١٨٣ غاية المرام .

(٣) انظر : ص ١٨٢ غاية المرام ، والأبكار ١/ ١٤٤ ، ب .

(٤) انظر : ص ١٨٣ غاية المرام ، والأبكار ١/ ١٤٢ ، ب .

إطلاق هذا اللفظ عليه تعالى كما سبق بيانه . أما الوهم القائل بأن ماليس بجسم ولا جوهر ولا عرض فهو غير موجود فقد سبق الرد عليه .

ينبغي أن أذكر أخيراً أن الآمدى يعتمد على حجج أخرى لإبطال الجوهرية لا تختلف عما سبق ، وهو مسبوق في استخدام الحججتين السابقتين بغيره من المتكلمين كالجويني والرازي (١) ، ولكنه لم يتعرض للحجج العقلية التي اعتمد عليها الرازي (٢) ؛ من نحو قوله تعالى ﴿ واللّه الغنى وأنتم الفقراء ... ﴾ (٣) وهو ينسب القول بالجوهرية إلى الفلاسفة - وإن كان يستثنى منهم ابن سينا - وإلى النصاري (٤) ، وهو يتابع في ذلك الباقلاني والجويني والشهرستاني وغيرهم ، وقد قال بالجوهرية بعض مجسمة المسلمين ومنهم الكرامية كما نفاها بعض فلاسفة المسلمين ، غير ابن سينا ، كالكندي (٥) .

والآمدى في معرض نفى الجسمية يتعرض لإبطال أن يكون سبحانه وتعالى عرضاً وهي قوله شنيعة نسبت إلى بعض الكرامية (٦) ، ولذا نجد بعض المتكلمين يهتمون بالرد عليها كعبد الجبار (في شرح الأصول الخمسة) (٧) والجويني في (الشامل) (٨) والغزالي (في الاقتصاد) (٩) فيقول : إن معنى العرض ما يحتاج إلى المكان المقوم أو مالا بقاء له ، ولكن الله سبحانه وتعالى غنى عن كل ما سواه ولا يتطرق إليه العدم أزلاً ولا أبداً ، فوصفه بالعرضية محال (١٠) .

ولعل أقوى حجة عقلية في تنزيه الباري سبحانه عن الجسمية والجوهرية وما يتصل بهما من العرضية وغيرها هي التمسك بمبدأ التفرقة الفاصلة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وهي أجدى من هذه الحجج ذات التقسيمات الجدلية ، وإن كانت الحجة الثانية

(١) انظر : ١٨٣-١٨٥ من غاية المرام والتعليقات عليها .

(٢) انظر : غاية المرام ل ٧٠ ب والابكار ١/ ١٤٢

(٣) انظر : معالم أصول الدين ٢٩ ، ٣٠ وأساس التقديس ١٦ - ٤٥ ، والآية هي رقم ٣٨ من سورة محمد ﷺ

(٤) الابكار ١/ ١٤٢

(٥) انظر ١٨٢ غاية المرام وما هنالك من تعليقات . (٦) انظر الفرق بين الفرق ٢١٢ - ٢١٤ .

(٧) ص ٢٣٠-٢٣٢ . (٨) ص ٦٨/١ .

(٩) ص ٢٦ ، وانظر إجماع العوام له حيث يصرح بنفى الجسمية وكل لوازمها .

(١٠) انظر : غاية المرام ١٨٦ .

فيما سبق ترتبط بهذا المبدأ ، كما أن الرد على توهم المجسمة ، بأن كل ما ليس جسما ولا جوهرًا ولا عرضا لا يكون إلا عدما ، يجسد المبدأ نفسه بصورة واضحة أيضاً؛ فالله تعالى مخالف لسائر الموجودات الحادثة، في ذاته وصفاته وأفعاله ، فلا محل لقياسه عليها ، أو لمثاله لها ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (١) .

على أن الأمدى لا يكتفى في التنزيه بإبطال الجسمية ، بل يتتبع سائر لوازمها بالإبطال ، تحقيقاً للتنزيه وإبطالاً للتشبيه ، وهذا هو ما دعاه إلى الإلحاح في تأويل الصفات الخبرية .

* * *

٤- تأويل الصفات الخبرية

الصفات الخبرية هي تلك الصفات الإيجابية الواردة في الكتاب والسنة ، وليست داخلية في السبعة التي قال بها الأشاعرة ، وليس عليها دليل عقلي وراء النص ، بل قد يتوهم من إثباتها - بحسب ظواهرها - تشبيه الله تعالى بال مخلوقات ذوات الجرم والأبعاد والأنفعالات والتغيرات ، وذلك كالوجه واليدين والعينين والرضا والغضب ونحوها .

وقد ذكرت فيما سبق أن الأشاعرة المتأخرين - البغدادى ومن جاء بعده - اتجهوا إلى تأويل هذه النصوص بمعانى أخر تعود إلى الصفات السبع ، فالوجه هو الذات ، والعين هي البصر ، واليد هي القدرة .. الخ ، ونفوا أن تكون صفات قديمة لله عز وجل حتى مع نفى المماثلة ، كما قال المتقدمون منهم : له يد لا كالأيدى وعين لا كالأعين ووجه لا كالوجوه .. ونحو ذلك . وقد كان الآمدى واحداً من هؤلاء المتأخرين الذين منعوا أن تكون هذه الأمور صفات قديمة لله - تعالى ، وصرفوها عن المعنى الظاهر - ولو مع قيد عدم المماثلة - إلى معانى أخر تليق في نظرهم بالله - سبحانه ، المنزه عن أى شبه بالمخلوقين (١) .

وقد اختار الآمدى هذا الموقف مع علمه بمخالفته الشيوخ الأوائل من مؤسسى المذهب ، فهو يقول - بعد إثباته الصفات السبع - : « ومن الأصحاب من زاد على هذا ، وأثبت العلم برجوب صفات زائدة على ما أثبتناه ، وذلك مثل البقاء والوجه والعينين واليدين ، ومن الحشوية من زاد على ذلك حتى أثبت له نورا وجنبا وقدماء ، والاستواء على العرش والنزول إلى سماء الدنيا . وعند التحقيق فهذه الصفات مما لا دليل على ثبوتها . » (٢)

والأصحاب هنا هم الأشعرى والباقلانى وطبقتهما كما سبق بيانه (٣) ، قال الشيخ الأشعرى : « وإن الله مستور على عرشه كما قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، وإن

(١) انظر : ص ١٥٧-٢٠٠ من غاية المرام ، والأبكار ١/ ١١٣ - ١٢٠ .

(٢) انظر : غاية المرام ٥٨ ب .

(٣) راجع ما سبق عن تطور النزعة التنزيهية لدى الأشاعرة في بداية هذا الفصل .

له وجهاً كما قال : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ ، وإن له يدين بلا كيف كما قال : ﴿ خلقت بيدى ﴾ ، وكما قال : ﴿ بل يدها مبسوطتان ﴾ ، وإن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ .. » (١) .

أما الباقلاني فقد ثار الجدل حول قوله بالصفات الخبرية (٢) ، حتى نشرت نسخة أخرى لكتاب التمهيد في بيروت ، فتأكد قوله بهذه الصفات الخبرية من اليدين والعينين ونحوها صفات قائمة بالله سبحانه بلا كيف ولا تمثيل (٣) ، ثم كان البغدادي وبعده الإسفرائيني ثم إمام الحرمين هم أوائل القائلين بتأويلها إلى معانٍ آخر كما سبق ذكره .

وقد ذكرت البغدادي كبداية لهذا التطور ، وإن كان ابن تيمية يذكر أن أبا بكر فورك - وهو من طبقة الباقلاني ، وتوفي سنة ٤٠٤ هـ - بين هؤلاء المؤولة المتأثرين بالجهيمة والمعتزلة ، ويشير إلى كتاب له اسمه (التأويلات) - ويبدو أنه يقصد كتابه (مشكل الحديث وبيانه) - ويشبهه بتأسيس التقديس للرازي ، ولكن يبدو أنها كانت بداية محدودة لم تقنع ابن تيمية أن يجعله على رأس هذا الاتجاه فركز في مواضع عديدة من كتبه على إمام الحرمين الجويني (٤) ، والحق أن الجويني لم يكتف بالتأويل بل أوجبه ودعا إليه ، وقال إن التوقف عن التأويل بعد إحالة المعنى الظاهر لا يخلو من أخطار (٥) .

ولكن لهذا الاتجاه الأخير - وإن كان يمثل تطورا لدى الأشاعرة ، ويعتبر اقترابا من الاعتزال - أصلا في نشأة المذهب كما ذكرت من قبل ، وهو تأويل الشيخ الأشعري والباقلاني من بعده لكل ما يشعر بحلول الحوادث في ذاته - تعالى - متابعة لابن كلاب (٦) ، وذلك كالرضا والغضب والحب والكره ونحوها مما يستلزم التغير النفساني ، وهو جانب من الصفات الخبرية أوله المعتزلة وابن كلاب والأشاعرة ، وتمسك بإثباته الماتريدية والسلفيون كصفات أزلية (٧) ، قائمة بذاته تعالى . وكل ما في الأمر أن

(١) الإبانة (طبعة الهند) ص ٨ . (٢) انظر : التمهيد (ط مصر) ٢٦٤ - ٢٦٦ والموافقة ١٠ / ٢ ، ١١ .

(٣) انظر : فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٢٠٨ .

(٤) انظر : نشأة الفكر ١ / ٢٨٢ ، ٢٨٣ ومجموعة تفسير ابن تيمية ص ٣٢٠ والموافقة ١١ / ٢ .

(٥) انظر : الإرشاد ٤١ ، ٤٢ .

(٦) انظر : ما سبق في أوائل هذا الفصل ، وانظر : أيضا الأشعري أبو الحسن ١٩٧ ، ١٩٨ ، والتمهيد ص ٤٨ . (٧)

انظر : بحر الكلام ٧٣ والأشعري أبو الحسن ١٩٧ - ٢٠٠ والموافقة ١٢٦ / ٢ وما بعدها .

المتأخرين تمسكوا بالأصل الكلابى المذكور وهو نفى كل ما يستلزم الحدوث أو مشابهة المخلوقين عن الله عز وجل ، وصرفه إلى معانى أخرى تليق به ، ووسعوا من دائرة تطبيقه بحيث يشمل التغيرات النفسانية كالمقدمين منهم ، وسائر الصفات الخبرية التى توهم بظواهرها التبعية والجسمية أو التغير المادى، مما كان يقبله أسلافهم ، فتأولوها ونزهوا الله تعالى عن معانيها الظاهرة .

ويظهر من كلام الآمدى أن الذى دفعه إلى هذا الموقف سببان :

الأول : اعتقاده أن قبول المعنى الظاهر لهذه النصوص يفضى إلى التجسيم والتشبيه ، أو هو على حد تعبيره : « .. انخراط فى سلك نظام التجسيم ، ودخول فى طرف دائرة التشبيه ، وسنبين ما فى ذلك من الضلال ، وفى طيه من المحال، إن شاء الله . بل الواجب أن يقال : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ وهو السميع البصير^(١) » أى أنها عنده من لوازم الجسمية لا تنفك عنها، فيجب تنزيه الله سبحانه عن تلك المعانى الظاهرة ، تمسكا بمبدأ التفرقة الفاصلة بين عالمى الغيب والشهادة . .

الثانى : أنها مجرد نصوص نقلية قابلة للتأويل محتملة له ، فدالاتها غير قطعية ، « فالمستند فيها ليس إلا المسموع المنقول دون قضيات العقول^(٢) . » وهى مع ذلك محتملة لمعانى عدة : « فإن قيل بأن ما دلت عليه هذه الظواهر وأثبتناه من الصفات ليس على نحو صفاتنا ولا على ما نتخيل من أحوال ذواتنا ، بل مخالفة لصفاتنا كما أن ذاته مخالفة لذواتنا، وهذا مما لا يقود إلى التشبيه ولا يسوق إلى التجسيم . فهذا - وإن كان فى نفسه جائزا - لكن القول بإثباته من جملة الصفات يستدعى دليلا قطعيا ، وهذه الظواهر، وإن أمكن حملها على مثل هذه المدلولات، فقد أمكن حملها على غيرها أيضا، ومع تعارض الاحتمالات وتعدد المدلولات ، فلا قطع ، ومالا قطع فيه من الصفات لا يصح إثباته للذات^(٣) .

ومن الواضح أن الآمدى هنا يطبق منهجه فى عدم الاستدلال بالسمع على المسائل

(١) ل ٥٩ غاية المرام - ص ١٣٨ من النسخة المطبوعة ، وانظر : رد ابن تيمية على هذه الفكرة فى نقض المنطق

(٢) غاية المرام ص ١٣٦ .

ص ٤ .

(٣) نفسه ١٥٩ ، ب ص ١٣٨ من النسخة المطبوعة .

العقيدية التي يتطلب فيها اليقين ويتوقف عليها ثبوت صحة النبوة وصدق النبي وهما أساس الدليل النقلي .

ويتبين من النص السابق أيضا أن الآمدى - رغم وقوفه موقفاً معتدلاً من رأى السلف فى إمرار هذه النصوص كما وردت، مع نفى المماثلة بين الله وخلق (١) من حيث المبدأ - لا يقبل هو شخصياً القول بمضمون هذه النصوص حتى مع نفى الكيف والمماثلة؛ لأنها فى نظره ظنية الدلالة ، فلا تثبت بها الصفات الإلهية . وهذا قد يختلف عما يحكيه ابن تيمية عن الآمدى فى قوله : « وأما أبو المعالى وأتباعه فهؤلاء خالفوا الأشعرى وقدماء أصحابه فى الصفات الخبرية فلم يثبتوها ، لكن منهم من نفاها فتأول الاستواء بالاستيلاء وهذا أول قولى أبى المعالى ، ومنهم من توقف فى نفيها وإثباتها كالرازى والآمدى ، وآخر قولى أبى المعالى المنع من التأويل . » (٢) وإذا كان الآمدى يتوقف فعلاً فيما وراء الصفات السبع ، ولا يمنع من جواز وجود صفات غيرها من الناحية النظرية ، فهو قد جزم بشأن الاستواء وغيره من الصفات الخبرية بالتأويل ، ورفض اعتبارها صفات حتى مع اشتراط عدم المماثلة بين يد ويد واستواء واستواء، معتمداً على السبب الأخير من السببين السابقين .

ثم يأخذ الآمدى فى تأويل هذه النصوص السمعية؛ فاليدان : القدرة ، والعين : الحفظ والرعاية ، والوجه : الذات ومجموع الصفات ، والنور : الهداية ، والكشف عن الساق : ظهور أهوال القيامة ، والاستواء : التسخير والتصرف ، والنزول : تنزل اللطف والرحمة . إلى غير ذلك من المعانى التى يراها أليق بكمال الله - سبحانه من الظواهر التى تدل عليها هذه العبارات (٣) .

وقد بينت فى التعليقات التفصيلية على هذه النصوص أنه لا يكاد يخرج عما عرف عن المتأخرين من أصحابه وأن تفسيره لأكثر هذه النصوص يختلف عما قرره الشيخ الأشعرى نفسه فى « اللمع والإبانة » ، وما نقله عن ابن كلاب فى « المقالات » (٤) ، ولكنى أشير هنا إلى أنه أيضا لا يكاد يختلف مع تأويل المعتزلة لهذه النصوص نفسها ، كما نجده

(١) انظر : منهاج السنة ١٢٥/٢ وما بعدها ، وغاية المرام ١٣٤-١٤٣ .

(٢) مجموعة تفسير ابن تيمية ص ٣٢٠ .

(٣) انظر : ص ١٣٩-١٤٣ من غاية المرام وهوامشها ، والأبكار ١١١٥ - ١١٢٠ . (٤) السابق .

عند عبد الجبار فى « شرح الأصول الخمسة » ، الذى يوردها كشبه تعلق بها المشبهة من القائلين بالجسمية . مما يدل على اقتراب المذهبين واتفاقهما أخيراً حول هذه المسألة ، كما لاحظته ابن تيمية بحق فيما نقلناه عنه (١) .

واعتقد أن الآمدى كان على حق فى تأويل بعض هذه النصوص ، فهى فى لسان العرب أظهر فى مثل هذه المعانى وأقرب ، كتأويله كشف الساق باشتداد الهول (٢) ، وتقليب القلب بين الأصابع بالتصرف والتدبير (٣) ، والنور بالهداية (٤) ، والتفريط فى الجنب بالتقصير فى الطاعة (٥) ، ولذا فقد وافقه - أو وافق هو - عليها بعض المفسرين الأثريين كابن كثير ، وبعض المحدثين كالبيهقى ، وبعض الشيوخ المثبتين للصفات الخيرية كالشيخ الأشعرى والنسفى الماترىدى (٦) بل يحكى الغزالى بعض هذه التأويلات عن أحمد بن حنبل نفسه ، كتأويل حديث التقليب بين الأصابع (٧) .

ولقد كان الآمدى ذكياً ، إذ ختم حديثه عن هذه النصوص بقوله : « وليس تأويل هذه الظواهر وحملها على هذه المحامل بمستبعد ، كما حمل قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ وقوله ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ على معنى الحفظ والرعاية ، وكما حمل قوله - عز وجل - على ما أخبر به نبيه - عليه السلام - (من أتانى ماشياً أتيت إليه هرولة) على معنى التطول والإنعام ، فإن لم يُقَل بالثأويل ثمَّ وجب ألا يقال به ههنا ، وإن قيل به ههنا وجب أن يقال به ثمَّ (٨) ؛ إذ لا فرق بين الصورتين ، ولا فاصل بين الحالتين (٩) . والحقيقة أن المعية فى الآيتين أولت بالعلم ، وحكى ذلك ابن تيمية نفسه عن شيخ السلفية أحمد بن حنبل (١٠) ، كما فسر البيهقى الحديث الثانى بسرعة المغفرة والإجابة (١١) .

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر : غاية المرام ل ٦٠ = ص ١٤١ من المطبوعة . (٣) انظر : الأبهكار ١١٦ ، ب .

(٤) انظر : غاية المرام ١٦٠ = ص ١٤٠ من النسخة المطبوعة . (٥) السابق : ص ١٢٩ وهواشها .

(٦) انظر : غاية المرام ص ١٣٤ - ١٤٣ ، والتعليقات عليها .

(٧) انظر : إجماع العوام ضمن مجموعة القصص العوالى ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٨) وقد سبقه إلى هذا الإلزام الجوينى فى الإرشاد ص ٤٠ .

(٩) غاية المرام ل ٦١ = ص ١٤٣ من النسخة المطبوعة .

(١٠) انظر : الفرقان لابن تيمية ١٠٧ - ١٠٩ .

(١١) انظر : الأسماء والصفات للبيهقى ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

ولكن يبقى بعد هذا أن هناك تأويلات يمكن مناقشتها ، ولا تبدو متعينة ، ولا راجحة ، كتأويل قدم الجبار بمن سبق في علمه تعالى استحقاقهم للنار^(١) ، والاستواء بالتسخير والاقتدار^(٢) ، والنزول بالتلطف والإقبال^(٣) ، فإنها قد تحمل معانى أخر . بل إن تفسير العينين بالرعاية ، واليدين بالقوة ، والوجه بالذات مع الصفات ، كل أولئك يمكن مقابله ومعارضته بتأويلات أخرى^(٤) ، وليس في روح النص نفسه -- كما في النصوص التى ذكرتها قبل ذلك -- ما يوجب هذا التأويل أو يهدى إليه . فكان الأسلم التفويض وعدم الخوض فى تأويلها ، مادامنا ننزه الله سبحانه عن مشابهة المخلوق ، ونصفه بما وصف به نفسه دون كيف أو تمثيل . وإذا كان البعض يعتبر هذا ضرباً من التأويل أيضاً ، فهو على كل حال أحزم وأسلم من الإسراف فى التأويل ، الذى ما جلب غير ضعف العقيدة والاستهانة بالشرعية ، كما يقول ابن رشد^(٥) . وقد عدل إلى هذا الموقف كثير ممن أسرفوا على أنفسهم فى التأويل كالرازى والجوينى^(٦) ، ويسعنا فى هذا ما وسع السلف الذين ملأوا الأرض علماً وحضارة وخيراً^(٧) .

ولو صح ما يدعيه الآمدى من أنه لا يجد فرقاً بين ما اتفق على تأويله وما اختلف فى تأويله من النصوص ، فإنه أحرى أن يدفع العلماء إلى وضع قانون للتأويل ، تصان به هيبة الشريعة وحرمة نصوصها ، بدلاً من ترك الأمر للأهواء والميول المذهبية ، أو للثقافات المختلفة ، أو للترجيح الشخصى^(٨) ، وهو أمر استشعر الغزالى ضرورته ، ودعا إليه فى كتابه (إلجام العوام)^(٩) ، وحاول ابن رشد إنجازَه أو الإسهام فى تحقيقه فى خاتمة كتابه (مناهج الأدلة)^(١٠) ، وسعى إليه ابن تيمية وتلاميذه فقدموا قدراً من التوضيح لفكرة التأويل ومدى خطورتها^(١١) . ولا تزال هذه المسألة تنتظر جهوداً مخلصّة من الفكر الإسلامى المعاصر .

(١) انظر : ص ١٤١ غاية المرام . (٢) السابق . (٣) انظر : ص ١٤٢ غاية المرام .

(٤) انظر : مثلاً إلجام العوام ٢١-٢٣ .

(٥) انظر : الأشعرى أبو الحسن ١٩٩ - ٢٠٠ ومناهج الأدلة ١٧٣-١٨٥ .

(٦) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٢٠ وشرح الطحاوية ١٤٥ ، ١٤٦ والعقيدة النظامية ص ١٦ وطبقات السبكي ٣/ ١٦٣ ، ٢٦٤ ونقض المنطق ٢١-٢٦ والموافقة ١١/ ٢-١٢ .

(٧) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٨) انظر : مثلاً : اضطراب النسفى الماتريدى بين التأويل لبعض الصفات الخبرية كاخفىء ، والنزول والاستواء والقدم ، والإثبات لبعضها الآخر كاليد والنفس - بحر الكلام ١٩-٢٦ ، ٦٣-٦٤ .

(٩) انظر ص ٣٩ وما بعدها (طبعة المنيرية) . (١٠) انظر : مناهج الأدلة ص ٢٤٨ وما بعدها .

(١١) انظر : الموافقة ١/ ٤-١١ ونقض المنطق ٣-١٢ وشرح الطحاوية ١٣٢-١٣٧ .

٥- عدم حلول الحوادث بذاته تعالى

أ- ظهور المشكلة وموقف المتكلمين منها :

يربط الآمدى هذه المسألة بمسألة «الجسمية» إذ يقول فى ختام حديثه عن الأخيرة: «
فإذاً قد ثبت أن الهارى - تعالى - ليس بجوهر ولا عرض ، ولا محدث بل أبدى لم يزل
وسمى لا يزال ، وهو مع ذلك لا تحله الحوادث ولا تقوم به الكائنات (١) » .

ويبدأ الآمدى دراسته لهذه المسألة فى «الأبكار» بتحديد محل النزاع وهو
«الموجودات الحادثة بعد العدم» ثم يضيف مباشرة: « وهذا ما أجمع العقلاء على نفيه عن
الله تعالى سوى المجوس والكرامية» (٢) . وقد حكى المتكلمون قبله عن الكرامية قولهم
بحلول الحوادث بذاته تعالى (٣) ، وقد فصل الآمدى فى هذا المقام مقالته فى « غاية
المرام » و« الأبكار» (٤) ، أما المجوس فسيتحدث عن مقالته فى إطار خلق العالم وأفعال
واجب الوجود ، وأنه لا فاعل إلا الله تعالى (٥) . أما ادعاؤه لإجماع العقلاء على ذلك -
غير هذين الفريقين - ففيه نظر ؛ إذ قد عرف عن اليهود وتصورهم لله ما يستلزم قيام
الحوادث بذاته (٦) . بل إن ابن تيمية يقول فى الموافقة : « وهذا القول بقيام الحوادث هو
قول هشام بن الحكم وهشام الجواليقى وابن مالك الحضرمى وعلى بن سهم وأتباعهم ،
وطوائف من متقدمى أهل الكلام والفقه ، كآبى معاذ التومنى وزهير الأثرى وداود
الأصبهاني وغيرهم ، كما ذكره الأشعرى فى المقالات (٧) » ويذكر فى موضع آخر أنه
قول أبى البركات صاحب المعبر (٨) ، بل يصل إلى أن يقول : « بل أكثر طوائف المسلمين
يجوزون ذلك . » (٩) وهو يشبه فى هذا الرازى الذى ألزم به الجميع (١٠) .

(١) غاية المرام ١٧٤ = ص ١٨٦-١٨٧ من غاية المرام .

(٢) الأبكار ١ / ١١٤٦ .

(٣) انظر : نهاية الأقدام ١٠٣ ، ١١٤ والفرق بين الفرق ٢٠٢ - ٢١٩ والإرشاد ٤٤ - ٤٦ .

وانظر : أيضا نشأة الفكر د/ النشار ١ / ٦١٩ - ٦٤١ .

(٤) انظر : ص ١٨٠ غاية المرام ، والأبكار ١ / ٢٥٨ ب ، ٢٦٠ ب .

(٥) انظر : ص ٢٠٦ غاية المرام ، والأبكار ١ / ٢٢٥ - ٢٢٨ ب وانظر : أيضا التمهيد ٦٨ ، ٨٥ ونهاية الأقدام ٦٥ -

٦٩ ، ٦٧ . (٦) انظر : الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ٢٤٨ - ٢٦٨ .

(٧) الموافقة ٢ / ٩٣ . (٨) السابق ٢ / ١١٤ . (٩) السابق ٢ / ١٧٨ ، وانظر ١٨٤ ، ١٨٥ .

(١٠) انظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٢٦ .

ولقد ظل المسلمون لا يعرفون هذه البدعة ، فلما ظهرت تصدى لها المتكلمون من جميع الفرق ، وهذه حقيقة تاريخية سجلها ابن تيمية أيضاً « ولم ينطق أحد من سلف الأمة وأئمتها فى حق الله تعالى بذلك نفياً ولا إثباتاً ، بل قول القائل : إن الله جسم أو ليس بجسم أو جوهر أو ليس بجوهر أو متحيز أو ليس بمتحيز أو فى جهة أو ليس فى جهة ، أو تقوم به الأعراض والحوادث أو لاتقوم به ونحو ذلك ، كل هذه أقوال محدثة بين أهل الكلام المحدث لم يتكلم السلف والأئمة فيها (١) » .

وهذا نص هام يدل على أن ابن تيمية نفسه فى قوله بحلول الحوادث بذاته -تعالى- يخالف السلف ، و(يتكلم) فيما أعرضوا عنه ، مما أحدثه أهل الكلام المحدث ، وهى إحدى المسائل التى تفلت فيها مذهب السلف من قبضته العنيدة الجبارة ، وإن كان هو يحاول تبرير ذلك بقوله : « وقد يقع فى محاورته إطلاق هذه الألفاظ لأجل اصطلاح ذلك النافى ولغته ، وإن كان المطلق لها لا يستجيز إطلاقها فى غير هذا المقام » (٢) ، ولكن يبدو أن هذه الفكرة فى ذهنه أعمق من مجرد المشاكلة مع أسلوب النفاة ، ويرى أستاذنا الدكتور النشار أنه ذهب إلى قوله هذا متأثراً بالكرامية (٣) ، الذين أورثوه أشياء أخرى .

أما الأشاعرة فقد تصدوا للكرامية ومقاتلتها المنافية للتنزيه فى نظرهم ، « وشغلت المجادلات بين الاثنين الجامع الإسلامية جميعاً ، وملأت هذه المجادلات كتب الشعراء وإمام الحرمين والغزالي وفخر الدين الرازى والآمدى . » (٤) كما يقول أستاذنا الدكتور النشار .

وقد أشرت من قبل إلى أن الأشاعرة ورثوا هذا الأصل التنزيهى عن ابن كلاب الذى وافق فيه المعتزلة هو والحارث المحاسبى أيضاً ، كما روى ابن تيمية (٥) . ويقول ابن القيم فى (اجتماع الجيوش) عن ابن كلاب : « هو أول من عرف عنه إنكار قيام الأفعال الاختيارية بذات الرب -تعالى- » (٦) وقد أنكر من أجله قدم صفات الأفعال .

(١) الموافقة ١/ ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) الموافقة ١/ ١٤٥ .

(٣) انظر : نشأة الفكر ١/ ٢٨٩ -- ٢٩٣ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠ وانظر : أيضاً ابن تيمية السلفى ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٤) نشأة الفكر ١/ ٦٣٩ .

(٥) السابق : ١ / ٢٨٩ .

(٦) اجتماع الجيوش صفحة ١٣٥

وهنا ينبغي أن أشير إلى أن المرحوم الأستاذ الزركان كان يرى أن في القول بحدوث صفات الأفعال ما يفضي إلى القول بحلول الحوادث بذاته تعالى (١) ، والحق أن القول بحدوث صفات الأفعال كان توكيها لفكرة حلول الحوادث بذاته - سبحانه . ، فلو كان الخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة صفات قديمة قائمة بالذات ، وهي مع ذلك مرتبطة بالحوادث المتجددة ، لربما أفضى ذلك إلى حلول الحوادث بذات الله ، ولذا ذهب القوم - ابن كلاب والمعتزلة ثم الأشاعرة من بعدهم - إلى القول بأن هذه الأمور من أفعاله تعالى لا من صفات ذاته ، ولما كانوا يرون أن الفعل هو نفس المفعول ، ففي حالة الخلق ليس هناك إلا الخالق والمخلوق ، الأول قديم والثاني حادث ، وليس هناك ثالث - كما قالت الماتريدية مثلاً إن هناك خالقاً ومخلوقاً وتخليقاً - ومن ثم فإنه لا يأتي الإلزام المذكور ، ولا يتجدد في الذات شيء ، وإنما تتجدد الحادثات نفسها وتعلقات القدرة الإلهية بها (٢) فحسب .

ب- موقف الآمدى :

وقد جرى الأشعرية جميعاً على هذا الأصل إلى أن جاء الرازي فأكد في بعض كتبه (٣) ، وإن صرح في البعض الآخر بأن القول بحلول الحوادث يلزم الطوائف جميعاً بما فيهم الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة (٤) ، وحكى الآمدى عنه ذلك في المآخذ ، ولكنه أبرز أدلة المانعين (٥) ، ثم حرص هو بعده أن يتصدى لهذه المقالة التي تورط فيها الإمام ، ومال بها نحو الكرامية خصومه اللداء (٦) ، وتمسك الآمدى بفكرة الأشاعرة : إن التغير في التعلقات والمتعلقات لا يعنى تغيراً في الذات ، ولا في صفة من الصفات القائمة بها ، حتى يلزم مثل هذا . أما الشبهة التي عرضت للرازي ، ووقع من أجلها في قول أبي الحسين البصري : « العلم يتغير بتغير المعلوم » (٧) ، فقد سبق الجواب عنها بأن العلم

(١) فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٢٢٦ .

(٢) انظر : نشأة الفكر ٢٨٨ - ٢٩٣ وشرح العقائد النسفية ٣٠٨ - ٣٢٤ ونهاية الأقدام للشهرستاني ص

١١٥ . (٣) انظر : فخر الدين الرازي وآراؤه ص ٢٢٧ .

(٤) المصدر السابق ٢٢٦ . (٥) انظر المآخذ ل ٣١ ب ، ١٣٢ .

(٦) انظر : فخر الدين الرازي وآراؤه ٢٨٨ والموافقة ٦٥ / ٢ وابن تيمية السلفي ١٤١ ، ١٤٢ ، والابكار

١٤٥ / ١ ب - ١١٥٠ .

(٧) انظر : المآخذ ٣٢ ١ وفخر الدين وآراؤه ٢٢٨ .

الإلهى سابق على وجود المعلومات نفسها ، وهو لا يخضع للزمان فلا يتغير بتغيره ، وإنما تتغير المعلومات فقط (١) .

وأما شبهة الكرامية : عند حدوث المسموعات والمبصرات فهل يعلمها أم لا ؛ لاسبيل إلى الثانى لاستحالته ، فإذا علمها ثبت تجدد الإدراك فى ذاته ، وإلا كانت هى قديمة لامحالة - فالآمدى يرى أنها دعوى بلا دليل وتحكم مردول ؛ فإن لنا أن نقول : إن الإدراك قديم ، والمتجدد هو تعلقه بالمدرّك فقط عند حصوله ، فإن السمع والبصر صفتان قديمتان ولكن شرط تعلقهما بالمدرّكات هو وجود هذه المدرّكات بالفعل ، فإذا وجدت تعلقا بها . أى أنه يريد أن يقول إن قسمتهم التى ساقوها غير حاصرة ، فهناك قسم ثالث ، وهو أن تكون المدرّكات حادثة والإدراك قديما ، والمتجدد هو المدرّك والتعلق به فقط ، وهذا التعلق هو مجرد نسبة وإضافة بين الصفة ومتعلقاتها كما سبق ، فهو لا يمثل حدوث شىء حقيقى الوجود فى الذات الإلهية ، وليس للكرامية أن يستنكروا هذا منا . وقد قالوا بأن كل ما يحدث فى ذات الله يبقى ولا يفنى ، فإذا جاز الاتصاف بالإدراك مع عدم المدرّك فلا فرق بين أن يكون قد سبق له وجود ثم عدم - حسب قولهم - أو لم يسبق له وجود من قبل كما هو قولنا (٢) .

ويهتم ابن تيمية بدعوى الرازى المشار إليها آنفاً ، ويقف عليها جزءا كبيرا من كتابة (الموافقة) (٣) ، ويتعقب فيه ردود الآمدى على الرازى ، وردود غيره من الأشاعرة - كالجوينى - على الكرامية وينقضها (٤) . ويقول عن رد الآمدى المشار إليه فيما سبق : «إنه لافرق بين تجدد النسب وحدوث الحوادث إلا من حيث اللفظ ، وأن الدليل الذى يتمسك به الآمدى نفسه على بطلان حلول الحوادث بذات الله يمكن إجراؤه فى هذه النسب المتجددة والإضافات ، فلماذا يقبلها؟» (٥) ويحاول الاستدلال على أن ما ألزم به الرازى الجمهور هو قيام أمور وجودية حادثة بالذات ، ما دام يرى المبصرات ويسمع المسموعات بعد وجودها ولم يكن يراها من قبل (٦) . وقد بينت وجهة نظر الآمدى بهذا الصدد ، لكن الأستاذ الهراس فى دراسته عن «ابن تيمية السلفى» يعقب على إلزامه هذا

(١) راجع ما سبق فى صفة العلم ، و ١٩٢ من غاية المرام . (٢) انظر : غاية المرام ١٩٢...١٩٣ .

(٣) انظر : ٤١/٢ وما بعدها من الموافقة ؛ (٤) السابق ٩٤/٢ وما بعدها وخاصة ص ١٢٦ .

(٥) الموافقة ١٢٦ / ٢ (٦) انظر الموافقة ١٢٧/٢ وما بعدها .

للآمدى بأنه ينبى على أن لا واسطة بين الموجود والمعدوم، وأن لا فرق بين الموجود والوجودى والمعدوم والعدمى ، ولعل خصوم ابن تيمية لا يسلمون له بذلك (١) . وأعتقد أن حسم هذه المسألة لا يتم الا بالتمسك بعدم قياس الغائب على الشاهد ، والتفطن دائما إلى أن فكرة الزمان الإنسانية لا يمكن أن تنطبق على البارى تعالى ، فذاته أزلية دائمة غير زمانية ، فكذا صفاته وأفعاله أيضا ، فلا يمكن وصفها بالحدوث كالموجودات الزمانية (٢) . أما كيف تخرق هذه الأفعال - مع هذا - حدود الزمان والمكان ، أو كيف تتعلق هذه الصفات بالموجودات المتمكنة المتزمنة ، فهذا سر الخلق الإلهى الذى لا يمكن لابن تيمية ولا للمتكلمين الإحاطة به ، أو معرفة كنهه ؛ ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ (٣) .

لكن ابن تيمية يتمسك بما يحكيه عن أحمد بن حنبل « لم يزل الله متكلمًا إذا شاء . . الخ » (٤) ، وبرأيه هو فى التسلسل التعاقبى للآثار وعدم تناهيه ؛ بحيث يكون جنسه لا أول له وكل شخص منه حادثا ، وهذا أصله فى حلول الحوادث فى ذاته تعالى ، وأنه لا يستلزم حدوثه عز وجل ، بل هو مظهر كماله وقدرته وحياته الكاملة (٥) ، وينتهى منه إلى قوله بقديم « جنس الصفات والأفعال الإلهية مع حدوث آحادها طبقاً لإرادته تعالى واختياره ، وهو يمثل حجر الزاوية فى آرائه فى الصفات . . ويتخذ أساسا للتوفيق بين ما قام عليه الدليل من قدم الله تعالى بصفاته ، وما جاءت به النصوص من إرادته تعالى للمحدثات ، وعلمه بالمتجددات ، وسماعه لما يحدث من الأصوات . . ومن كونه يتكلم بحرف وينادى عباده تعالى بصوت ، إلى غير ذلك مما يدل على قيام الحوادث بذاته تعالى من السمع ، فضلا عن دلالة العقل الذى يحكم بأن من يقدر على هذه الأمور بإرادته واختياره أكمل ممن لا يقدر عليها بإرادته واختياره » (٦) .

ولكن هذا رأى الذى بنى عليه نظريته لا يبدو بيتاً بنفسه لواحد من أقرب الناس صلة

(١) ابن تيمية السلفى ١٤٢، ١٤٣ . (٢) انظر : شرح الطحاوية ٣٩٨ .

(٣) الآية ٥٦ من سورة الكهف ، وانظر : فى هذا مقدمة مناهج الأدلة ٤٥ - ٥٠ وشرح الطحاوية ٦٢ - ٦٤ .

(٤) انظر : الموافقة ١٥٥/٢ وما بعدها .

(٥) السابق ١١٥/٢ وما بعدها وابن تيمية السلفى ١٤٠ - ١٤٣ . (٦) ابن تيمية السلفى ١٣٦، ١٣٧ .

بفكر ابن تيمية ، فيتساءل كيف تكون الجملة أو الجنس قديما أزليا ، مع أن كل أفرادها حادثة بعد العدم ؟ وهل يمكن لعقولنا أن تتخيل هذا التسلسل التعاقبي في جانب الماضي إلى غير نهاية؟ (١) ويبدى عدم رضاه عن غلو ابن تيمية في هذه المسألة ومتابعته للكرامية فيها ، وإن كان ينه على الفرق بينه وبينهم من حيث يقولون بأن للحادث في ذاته ابتداء ، وأنه لا يقبل العدم بعد حصوله فيها ، بينما يرى هو أن الله تعالى لم يزل فاعلا خالقا بارادته واختياره ، فكمالاته قديمة بالجنس لا أول لها ، وإن كان كل فرد من أفرادها حادثا (٢) .

أما الآمدى فإنه كعاداته ينقد أدلة المتكلمين على بطلان قيام الحوادث بذاته - تعالى - أولاً :

(١) بادئا بدليل الأشاعرة المشهور : لو جاز قيام الحوادث بذاته لاستحال خلوها ، وما استحال خلوها من الحوادث حادث ، وذلك محال عليه تعالى . وقد اعتمد عليه الجوينى فى الإرشاد (٣) ، والغزالي فى الاقتصاد (٤) . ولكن الآمدى يرى أنه ضعيف جدا ، وذلك لاستناده إلى عدة قضايا خاطئة أو مشكوك فيها ؛ كقولهم ؛ كل ما لا يخلو عن الحوادث حادث وهذه يمكن الشك فيها (٥) ، ولئن سلمت فلا يلزم من كونه تعالى قابلا للحوادث ألا يخلو عنها ، إلا على أساس قاعدة أنه لا يخلو عن الاتصاف بالشئ أو ضده التى قال بها الأشعرى ، وقد سبق إبطالها بأن الضدين قد يرتفعان ، كما أنه لا يلزم من حدوث شئ أن يكون ضده حادثا مثله (٦) . وقد سبق للرازى ان انتقد هذا الدليل من بعض هذه الوجوه (٧) ، ونقل ذلك عنه ابن تيمية وزاد عليه (٨) ، وربطه بفكرة الجوهر والعرض التى يرى فسادها (٩) ، ويبدو الآمدى متأثرا فى نقده هذا برفضه لفكرة الجوهر والعرض .

(١) هو الأستاذ الهراس فى كتاب ابن تيمية السلفى ٥٠ ، ١٣٧ .

(٢) السابق ١٣٤ . (٣) ص ٤٥ . (٤) ص ٨٦ .

(٥) غاية المرام ١٧٤ ، ويتفق الآمدى فى تشكيكه فى هذه القاعدة مع ابن رشد (المنهاج ١٤١-١٤٤) وبلتقى معهما ابن تيمية (الموافقة ٩٧/٢ ، ٩٨) وابن أبى العز (شرح الطحاوية ٦٦ - ٧٤) .

(٦) انظر : الأبيكار ٤٦/١ ب وص ١٨٧-١٨٨ من غاية المرام .

(٧) انظر : فخر الدين الرازى واراؤه ص ٢٢٧ . (٨) انظر : الموافقة ٩٤/٢ - ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٦ .

(٩) السابق ١٠٥/٢ - ١٠٦ .

(٢) ثم يعرض الآمدى للدليل القائل : لو حلت الحوادث بذاته - تعالى - لكان متغيرا والتغير يحوج إلى مغير ومرجح ، والله منزّه عن ذلك . وقد اعتمد عليه الشهرستاني قبله (١) ثم جاء الرازى فأنكره واعتبره مصادرة على المطلوب ؛ لأنه يشبه القول : لو قامت به الحوادث لقامت به الحوادث فلا معنى للتغير إلا هذا (٢) .

ويرى الآمدى أنه دليل غير حاسم ، إذ قد يتمسك الخصم بأن المرجح لهذه التغيرات هو الذات نفسها ، فلم يلزم الاحتياج إلى الغير ، وهو المجمع على تنزيهه - تعالى - عنه (٣) .

ج - استدلاله الخاص :

وبعد أن نقد الآمدى حجج أصحابه على هذه المسألة وضعفها جميعا (٤) ، اختار هو الاعتماد على قاعدة الكمال :

لو جاز قيام الحوادث به ، فعند اتصافه بها هل أفاد كمالا لم يكن فيه ، أو نقصا ، أولا نقص ولا كمال ؟ لا سبيل إلى القول بالأخير ، فإن وجود الشيء في ذاته أشرف من عدمه ، فإذا وجد شيء لشيء وهو في نفس الوقت لا يسبب له نقصا ولا يفوت عليه كمالا آخر ، فلا محالة أن اتصافه به أولى من اتصافه بعدمه . كما لا سبيل إلى الأول ؛ لأنها لو أوجبت له كمالا للزم قدم هذا الكمال ضرورة ألا يكون الباري ناقصا قبل حصوله . فلم يبق إلا أن تفيده نقصا ، وهذا ظاهر البطلان ؛ إذ الباري لا يكون مشروفا ولا ناقصا بالنسبة إلى المخلوق كما سبق بيانه (٥) .

وقد سبق للرازى أن اعتمد على هذه الحجة في بعض كتبه ولكنه عاد فضعفها وأعرض عنها في البعض الآخر (٦) ، كما انتقدها ابن تيمية بأنه من الممكن أن يقال : إن ما اقتضت الحكمة حدوثه في الذات في وقت معين لم يكن عدمه قبل ذلك نقصا ، بل الكمال وجوده إذا اقتضت الحكمة وجوده ، وعدمه إذا اقتضت عدمه ، كما في الأفعال

(١) انظر نهاية الإقدام ١١٥ ، ١١٦ . (٢) انظر الموافقة ٢ / ١٠٠ .

(٣) انظر غاية المرام ٧٤ ب ١٧٥ والأبكار ١ / ١٤٧ . (٤) انظر : الأبكار ١ / ١٤٧ ب ١٥٠ .

(٥) انظر : عرضه لها في غاية المرام ١٩١ - ١٩٢ ، وفي الأبكار ١ / ١٤٨ ب .

(٦) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٢٧ والمآخذ ل ١٣٢ والموافقة ٢ / ٩٤ ، ٩٥ .

المنفصلة . أو إن الكمال هو جنس الأفعال الحادثة، فلا يلزم أن يكون كل حادث منها كمالات حتى يستحق القدم . ثم إن الحوادث يستحيل قدمها ، ولا توجد إلا متعاقبة ، وما استحال وجوده في القدم لا يكون عدمه نقصا . إلى وجوه أخرى ينتقد بها هذه الدلالة (١) .

وربما أمكن الدفاع عن حجة الآمدى ضد هجوم ابن تيمية ، ولكنه في نظري جهد ليس له ما يبرره ، وخير منه التمسك بالثفرقة بين الله وخلق ، وأنه سبحانه فوق مقولتي الزمان والمكان ، إنه - تعالى - متصف بكمالاته منذ الأزل ، وهو في الوقت نفسه فعال لما يريد ، كل يوم هو في شأن ، لا يشغله شأن عن شأن (يدبر الأمر يفصل الآيات (٢)) . أما تحديد كيفية الارتباط بين العلى المتعالى وبين الموجودات الكائنة الفاسدة ، بين الأزلى والمتزمن ، بين المطلق والمحدود ، فهو دخول في سر الخلق الإلهي بل في سر الذات نفسها ، ولا شك أن الكلام عن قدم الأفعال الإلهية وحدوثها ، وعن حلول الحوادث في ذاته وعدمه ، وإن كان الهدف منه عند النفاة هو التنزيه ، وعند المثبتين تأكيد الفعالية الإلهية والخلق المستمر ، هو في نفس الوقت خضوع للمعايير الإنسانية - وبخاصة فكرة الزمان - وقياس للغائب على الشاهد ، وهو سبب الكثير من المشكلات الكلامية ، وتنكب لطريق النظر الصحيح في الأمور الإلهية ؛ (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا) (٣) .

* * *

(١) انظر : الموافقة ١١٤ ، ١١٥ ، ١٧٨ - ١٨٥ (٢) جزء من الآية ٢ من سورة الرعد .
(٣) روى هذا الحديث الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب ، وغيرهما ، وفي إسناده نظر ، ولكن تعدد الروايات واجتماعها يقويه ، والمعنى صحيح كما - قال السخاوي - انظر تعليقات رشيد رضا على رسالة التوحيد ص ٤٨ .

٦- نفى الزمانية عنه تعالى

ليس معنى ما سبق أن الآمدى قد أغفل التفرقة بين الله وخلقه من حيث الزمان ، فهو يعقد فصلا في الابدكار لهذه المسألة (وجود الرب تعالى ليس فى زمان) (١) وينقل فيه اتفاق العلماء على ذلك ، غير أنه يضيف ملاحظة ذكية : « وإن كان مذهب المجسمة يجر إليه كما يجر إلى التحيز والمكان » (٢).

وقد سبق للكندى أن ربط بين الزمان والجسمية « فالزمان زمان الجسم أى مدة وجوده » (٣) ، كما ربط ابن حزم بين الزمان والحركة ؛ « لأن البارى تعالى ليس فى زمان ولا له مدة ، لأن الزمان إنما هو حركة كل ذى الزمان ، وانتقاله من مكان إلى مكان ، أو مدة بقاءه ساكنا فى مكان واحد ، والبارى تعالى ليس متحركا ولا ساكنا ولا شك أنه ليس فى زمان ولا له مدة » (٤).

وقد اختتم الآمدى هذا المبحث فى « المآخذ » بكلمة تروى عن الإمام عليّ فى جواب من سألته : أين الله ؟ فقال : من أين الأين لا يقال له أين (٥).

ويستدل الآمدى على نفى الزمانية عنه تعالى بأن الزمان لا يمكن أن يكون قديما لقيام الدليل على حدوث كل ما سوى الله تعالى ، فإن كان حادثا وقلنا بأن الله تعالى زمانى ، لزم حدوثه . أما إن قيل بجواز وجود البارى تعالى دونه ، فهو المطلوب ، ويثبت أن وجود البارى ليس بزمانى (٦) . وسيتبين هذا ويتأكد بتعريفه للزمان فى الفصل التالى .

ثم يقول الآمدى : نعم غايته أنه يصدق عليه أنه مقارن للزمان فى وقتنا ، وذلك لا يوجب كونه زمانيا ، كما أن وجوده فى الآن مقارن لوجود المكان ، وليس وجوده مكانيا (٧) .

وقد حكى الرازى اعتراف (المشبهة) بأن الزمان حادث ، وأن الله تعالى يوجد دونه ، وهو يحاول إلزامهم بمثله فى المكان أيضا (٨) . وقد سبق للشهرستانى أيضا أن

(١) انظر : الأبدكار ١٥٤/١ ب ، ١١٥٥ . (٢) السابق ١٥٤/١ ب .

(٣) انظر : الكندى وفلسفته ٦٢ وانظر أيضا : رسائل الكندى الفلسفية ١١٧/١ .

(٤) الفصل ١٨/١ . (٥) المآخذ ل ٢٥ ب . (٦) انظر : الأبدكار ١١٥٥/١ .

(٧) انظر : السابق ١١٥٥/١ . (٨) أساس التقديس ١٠ ، ١١ .

استخدم هذا الإلزام نفسه (١) .

وكل ما يؤخذ على الأمدى أنه لم يستخدم هذه القاعدة التنزيهية فيما يتعلق بأفعال الله أو حلول الحوادث بذاته ؛ فكما أن ذاته غير زمانية فكذلك صفاته وأفعاله فوق الزمان ، ولعل هذا كان أجدى عليه مما ساقه من دليل قابل للأخذ والرد فيما سبق .

٧- تنزيهه تعالى عن المكانية (مسألة الجهة)

إذا لم يكن بين المسلمين من قال بأن وجود الله - تعالى - زمانى ، فقد اختلفوا حول كونه فى المكان ، وحول استوائه على العرش ، وكونه فى جهة السماء أو فى جهة فوق :

أ- فبدأ المعتزلة بنفى الجهة والمكانية عن الله ، لأن كونه عدلاً لا يتم إلا بالغنى المطلق ، ومن ذلك استغناؤه عن الجهة والمكان وسائر لوازم الجسمية . أما الاستواء فهو الاستيلاء والغلبة ، والعرش نفسه قد يؤول بالملك^(١) . وقد تقول المعتزلة إنه تعالى ليس فى مكان ، أو إنه فى كل مكان ، ومعنى ذلك تنزيه ذاته عن المكان ، وأن علمه وتديره محيط بكل الامكنة ، كما يفيد قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ ، كما نقل ذلك عنهم الأشعرى فى مقالاته^(٢) . ومع ذلك فإن الأشعرى نفسه ، وآخرين^(٣) من خصومهم ، يهتمونهم بما يشبه الحلول والكون فى جميع الامكنة ، حتى الحشوش والأخيلة . وهى فى الحق تهمة جائرة ، لا تتفق مع منهج المعتزلة وموقفهم العام ، ولا مع ما يحكيه عنهم هؤلاء الخصوم أنفسهم .

ولو كان المعتزلة يقولون بأنه تعالى فى كل مكان بذاته ، لما احتاجوا إلى تأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء فقط ، كما ينقله عنهم الأشعرى وغيره^(٤) .

ب- أما الماتريدية فقد أنكروا الجهة والمكانية ، وأولوا النصوص المتعلقة بذلك كالاستواء وغيره بما لا يخرج عن تأويلات المعتزلة ومتأخرى الأشاعرة^(٥) ، وإن كان الماتريدى نفسه - مع نفيه للجهة والمكانية عن الله تعالى - يتحرج من تأويل الآيات المتعلقة بذلك^(٦) .

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة ٢١٣-٢٣٢ والإبانة للأشعرى ص ٤٣ ، والمغنى ٤/ ٧ - ١١ ، ٨٣ - ٩٩ ومقدمة مناهج الأدلة ٧٤ ، ٧٦ ومقالات الإسلاميين ٢١٦/ ١ - ٢١٨ .
(٢) ٢١٧/ ١ - ٢١٨ والآية هى رقم ٤ من سورة الحديد .
(٣) انظر : الإبانة ٤٣-٤٤ وبحر الكلام للنسفى الماتريدى ص ٢٦ ، ومقدمة مناهج الأدلة ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ .
(٤) انظر : الإبانة ص ٤٣ واجتماع الجيوش ٨٢ ، ١٤٦ .
(٥) انظر : بحر الكلام ص ٢٦ ، ٢٩ .
(٦) انظر : كتاب التوحيد للماتريدى ٣٢ ب وما بعدها وخاصة ٣٥ ب .

ج- وأما الشيعة الإمامية فقد نفى المتأخرون منهم الجهة والمكان عن الله - سبحانه (١) ، وهذا طبيعي بعد اختلاط الاعتزال بالتشيع ، ولكن من غالوا ومالوا إلى التجسيم قد لا يتفقون معهم ، وقد قال الطوسي . . وهو شيعي معتدل : « جميع المجسمة اتفقوا على أنه تعالى في جهة » (٢) ونقل الآمدي عن بعض هؤلاء الغلاة قوله بالمكان والاستواء الحقيقي (٣) ، كما نقل الأشعري عن الهشامية منهم - أتباع هشام بن الحكم : « أنه قد كان لا في مكان ، ثم حدث المكان بأن تحرك الباري فحدث المكان بحركته فكان فيه ، وزعم أن المكان هو العرش » (٤) ونسب البغدادى إلى الهشامية أيضاً القول بأنه تعالى في مكان مخصوص مماس له (٥) ، وهى نقول تحتاج إلى تمحيص .

د- وأما الصوفية فقد حكى الكلاباذى تنزيهم لله تعالى عن الجهة والمكان (٦) ، وروى القشيري عن أبي بكر بن فورك - المتكلم الأشعري - عن أبي عثمان المغربي الصوفى : « كنت أعتقد شيئا من حديث الجهة ، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبي ، فكتبت إلى أصحابنا بمكة أنى أسلمت الآن إسلاما جديدا » (٧) .

ولكن ابن القيم فى « اجتماع الجيوش » يتهم القشيري بالخروج عما عليه أئمة التصوف من إثبات الجهة والفوقية ، وشكك فيما حكاه القشيري عن ذى النون ، وروى ابن القيم عن شيوخ القوم نصوصا عديدة فى إثباتها (٨) .

ويبدو أن الصوفية كسائر الطوائف الكبار فيهم المثبتة المتمسكون بالنصوص القائلة هو فى السماء وعلى العرش مع عدم المماثلة أو التشبية ، وفيهم المؤولة النفاة للجهة والمكانية الحاملون لهذه النصوص على معانى أخرى ، ويمثل هؤلاء القشيري والكلاباذى ، وكلا الاتجاهين موجود فى أهل السنة ، فمن تمسك بالسلفية مال إلى الأول ، ومن تأثر بالكلام نزع إلى الثانى .

وقد قرر ابن عربى أن الاستواء على العرش لا يعنى أبدا ظرفية المكان (٩) .

(١) انظر : عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص ١٣ . (٢) شرح الطوسي للمحصل ص ١١٤ .

(٣) انظر : الأبيكار ٢/٢٥٦ ب . (٤) المقالات ١/١٠٢ .

(٥) أصول الدين ٨٦ . (٦) التعرف ص ٣٤ .

(٧) الرسالة القشيرية ، وانظر الأبيكار ١/١٥٠ . (٨) انظر اجتماع الجيوش ١٣٠ - ١٣٥ .

(٩) انظر الفتوحات ٢/٦٩٢ .

هـ - ومن الطبيعي أن ينفي الفلاسفة الإسلاميون كل ما يتعلق بالمكان والجهة وسائر لوازم الجسمية عن الله تعالى^(١) ، إلا أن ابن رشد مال في (مناهج الأدلة) إلى التفرقة بين الجهة والمكانية ، ومال إلى إثبات الأولى ونفي الثانية ، ورأى ألا تناقض في هذين القولين ، فإنه لا مكان وراء العالم ، والخلاء لا وجود له ، والله موجود ولكنه ليس بجسم ، فهو عند نهاية العالم ، ولكن لا مكان يحتويه . ولذا فقد أوصى بعدم تأويل النصوص الدالة على الجهة وأنه تعالى في السماء حفظاً لعقائد العامة ، ولأن العلماء يمكنهم فهمها على النحو الذي بينه . وينتقد أستاذنا الدكتور قاسم موقفه هذا ، ويرى أن من المشقة البالغة - حتى على العلماء - تصور موجود غير جسمي في جهة معينة^(٢) .

ويبدو أن ابن حزم قد سبق ابن رشد إلى هذا الرأي ؛ فإنه مع إنكاره أن يكون الله تعالى في مكان يذكر أن العرش هو منتهى الخلق ونهاية العالم ، وأن الله مستور على العرش^(٣) ، إذن فهو يثبت الجهة وينفي المكان . والجديد عند ابن رشد أنه يؤيد ذلك بأفكار أرسطية ويراها أحفظ لعقائد الجمهور ؛ لأن أكثر الناس لا يمكنهم تصور موجود ليس خارج العالم ولا داخله ، ولا مكان له ولا جهة ، فهذا عندهم هو المعدوم بعينه^(٤) .

و- ولكن طوائف من المسلمين قالت بالجهة ، وأن كونه تعالى فيها ككون الأجسام - كما يحكى الآمدى - ويعد منهم الكرامية ، الذين قالوا : إنه مماس للعرش وإنه يحيط من تحته . وقال بعضهم إنه يفضل على العرش بأربعة أصابع من كل جانب . وقد شبه الآمدى مقالاتهم هذه بما ذهبت إليه اليهود كما سبق ذكره . وذكر منهم أيضا مشبهة الحشوية ؛ مضر ، وكهمس ، والهجيمي ، الذين قالوا إنه تعالى يعانق المخلصين من المسلمين . وآخرين ممن قال بأنه تعالى محاذ للعرش من غير مماسة . ثم اختلفوا فقال بعضهم إن بينه وبينه مسافة متناهية ، وقال آخرون بل غير متناهية^(٥) . ولكن هؤلاء

(١) انظر المقصد الاسنى ص ١٠٥ والإشارات ٣ / ٤٣٦ .

(٢) انظر : مناهج الأدلة ص ١٧٦ - ١٨٥ ومقدمته ص ٧٩ - ٨١ . (٣) الفصل ٢ / ٩٨ ، ١٢٥ .

(٤) انظر : مناهج الأدلة ١٧٦ - ١٨١ ، وقد أورد ابن القيم كلام ابن رشد ليستدل على أن الحكماء والفلاسفة

أثبتوا علو الجهة ، انظر : اجتماع الجيوش ١٥٩ - ١٦١ .

(٥) انظر : الأبهكار ١ / ١٥٠ ، ب وغاية المرام ل ٧٦ ب = ١٩٣ من النسخة المطبوعة .

الحشوية جميعا اتفقوا على أنه فى الجهة وأنها جهة الفوق (١) .

ز- وقد تمسك الحنابلة بالاستواء على العرش والفوقية وأنه تعالى فى السماء دون تأويل، ونعوا على من قال إنه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه . ونصر ذلك ابن تيمية وتلاميذه (٢) ، ولكنه قال فى (الواسطية) : « وكل هذا الكلام الذى ذكره الله ، من أنه فوق العرش وأنه معنا، حق على حقيقته ، لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يسان عن الظنون الكاذبة ، مثل أن يظن أن ظاهر قوله فى السماء أن السماء تقله أو تظله ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان » (٣) . وذكر مثله فى (التدمرية) أيضا (٤) .

وهذا هو مذهب السلف ، إثبات العلو والفوقية والاستواء، وسائر ما جاء فى القرآن وصحيح السنة، دون صرفها إلى معانى أخرى، مما يقول به المتكلمون من الاستيلاء وغيره ، ولكن مع عدم المماثلة بين الله وخلق (٥) .

وقد نقل الأشعرى فى المقالات عن ابن كلاب « إن البارئ لم يزل ولا مكان ولا زمان، وأنه على ما لم يزل عليه ، وأنه مستو على عرشه كما قال، وأنه فوق كل شئ » (٦) .

وقال به هو أيضا فى الإبانة (٧) ، وقد نقل ابن القيم عن عدة كتب للأشعرى مثل قوله فى الإبانة ، ولكن بدون تصريح بلفظ الجهة أو المكان، مع إثبات كل ما جاء من الاستواء والعلو والفوقية ونحوها . بل إنه ليروى أيضا عن الأشعرى ما قاله ابن كلاب : « إن الله لم يزل لا فى مكان وهو اليوم لا فى مكان » (٨) . وهذا ما تؤكدته مئات النصوص التى نقلها ابن القيم عن أئمة السلف ومتقدمى الأشاعرة ، غير أنه يصرح أحيانا بلفظ الجهة ، وإن كان ينفى المكان (٩) . ويستغل فى ذلك تفرقة ابن رشد بينهما ، وأعتقد أنه لم يرد فى النصوص الشرعية كلمة (الجهة) ولا كلمة (المكان) ، وحتى إذا كان لفظ (الفوقية) يستلزمهما فيجب الاقتصار عليه ، كما هو دأب السلف فى مثل هذه المواطن (١٠) .

(١) انظر : غاية المرام ١٩٣-١٩٥ .

(٢) انظر : نقض المنطق ١١٩-١٢١ وشرح الطحاوية ١٥٧-١٦٣ واجتماع الجيوش الإسلامية ١٣٥ وما بعدها

(٣) الواسطية ١٦، ١٧ . (٤) الرسالة التدمرية ٥٢، ٥٦ .

(٥) مقدمة المناهج ٣٦، ٣٧ والأسماء والصفات ٤٠٥، ٤٣٣ . (٦) المقالات ١/٣٢٥

(٧) ص ٤٢ - ٤٧ . (٨) اجتماع الجيوش ١٤٤، ١٤٥

(٩) السابق ١٢٦، ١٦١-١٦٣ . (١٠) انظر : إجماع العوام ١٣ - ٢٤ .

ولقد غلا بعض الحنابلة في الإثبات حتى جنحوا إلى التشبيه والحسية ، وأكدوا العلو والاستواء حتى كاد يشبه التمكن الحقيقي ، وهذا خطأ منهم ، ولكن لا ينبغي نسبته إلى جميع الحنابلة أو إلى مذهب السلف (١) ، والآمدى ينسب في (غاية المرام) إلى الحشوية : « . . في الجهة ليس ككون شيء من الحوادث » (٢) . ونسب مثل ذلك أيضا إلى بعض المشبهة في الأبيكار (٣) ، ولعله بهذا يشير إلى الحنابلة ، أما تسميته إياهم بالحشوية (٤) فربما كان ذلك من آثار صراعهم معه ، ولا يختلف هذا عن موقف السلف إلا في التصريح بلفظ الجهة ، وهو مع القيد المذكور ينفي عنهم التشبيه أو التجسيم أو المكانية الحقيقية ، ويبقى الخلاف بينهم وبين من نفى الجهة والمكان مطلقا خلافا لفظيا ، وهي فكرة قالها الغزالي من قبل (٥)

والآمدى نفسه يصرح بهذا في (غاية المرام) : « فإن لم يكن متحيزاً ، ولا هو مما تحيطه الأبعاد والامتدادات ، ولا هو واقع في مسامطة الغايات والنهايات ، فلا معنى لكونه فيها إلا من جهة اللفظ فقط » (٦) كما قال في الأبيكار : « وإن كان في الجهة لا ككون الأجسام ، فالنزاع آيل للفظ دون المعنى ، والآمر في الإطلاق مستوقف على ورود الشرع . » (٧) ويلاحظ أن كلمة الآمدى « ولا هو واقع في مسامطة الغايات والنهايات » تعنى رفض تأويل الجهة بمثل ما يقوله ابن رشد وابن حزم ويميل إليه ابن القيم من وجوده تعالى عند حافة العالم .

جـ- أما الأشاعرة فقد بدأوا بإثبات الاستواء والعلو والفوقية دون كيف أو تمثيل ، ولكن دون تأويل أيضا كما سبق نقله عن الأشعرى . وتابعه في ذلك أصحابه وتلاميذه ، وتلاميذ أصحابه أيضا كالباقلانى ، الذى أثبت الاستواء أيضا وعارض تأويله بالاستيلاء والملك (٨) ، وإن كان ينفي المكانية صراحة عن الله تعالى ، وربما كان التصريح بنفيها هو الفرق الوحيد بينه وبين شيخه الأشعرى الذى وافق السلف ، وحكى قول أصحاب الحديث

(١) انظر : نقض المنطق ١٣٥ وما بعدها . (٢) غاية المرام ١٧٢ . (٣) الأبيكار ١/ ١٥٠ ، ب .
(٤) ومثله في هذا الجوينى في الإرشاد ٣٩ ، ٤٠ وقد سبق للمعتزلة أن سمو أهل السنة جميعا بالحشوية - انظر مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص ٩٦

(٥) إجماع العوام ص ٤٧ . (٦) غاية المرام ٧٧ ب . (٧) الأبيكار ١/ ١٥١ .
(٨) انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ١٤٦ ، ١٤٧ ، وفخر الدين الرازى وآرؤه ٢٥٣ ، والتمهيد ١٤٩ .

وأهل السنة فى المقالات، ثم قال : « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب » (١) . وهو يتفق فيه مع ابن كلاب كما سبق بيانه أيضاً .

ولكن هل اقتصر الباقلانى على عدم تأويل الاستواء ونفى المكانية ؟

إن الآمدى ينسب إليه القول بنفى الجهة أيضا إلا إذا قيدت بعدم التحيز (٢) . وإذا صح هذا فالباقلانى لا يقبل لفظ المكان ولا لفظ الجهة ، وإنما يقر الاستواء والفوقية والعلو لورود النص بها ، شريطة أن ينفى عنها كل معانى التحيز والتمكن بمكان مخصوص إذ هى من لوازم الجسمية ، ولعلنا نجد من مؤلفاته المفقودة ما يعين على تحديد أكثر لموقفه .

أما من بعد الباقلانى فقد جنحوا إلى نفي الجهة والمكان صراحة وإلى تأويل الاستواء ، واقتربوا بهذا من المعتزلة الذين قالوا بذلك من قبل ، ولعل أول من عرف عنه تأويل الاستواء ونفى الجهة من الأشاعرة هو الأستاذ أبو بكر بن فورك - توفى سنة ٤٠٤ هـ ، أى بعد وفاة الباقلانى بعام واحد - وقد روى القشيري عنه ذلك فى الرسالة كما سبق ، ويذكر الرازى أن ابن فورك تصدى لمحمد ابن الهيصم فى دعواه الجهة والاستقرار على العرش ، وقامت بينهما مناظرة حول هذا مما يدلنا على سر عناية بهذه المسألة ، واتجاهه إلى مزيد من التنزيه لمقاومة النزعة التجسيمية ، فضلا عن تأثره بأبى عثمان المغربى الصوفى (٣) ، وقد عبر هو عن اتجاهه هذا فى كتابه (مشكل الحديث وبيانه) (٤)

ثم جاء من بعده أبو إسحاق الإسفرائينى - المتوفى سنة ٤١٨ هـ - الذى روى عنه تلميذه الإمام أبو المظفر - توفى سنة ٤٧١ هـ - فى (التبصير فى الدين) (٥) نفي المكانية لأنها، تعنى النهاية والتحديد وهما محالان على الله ، ويؤول الاستواء بالاستيلاء والعرش بالملك كما سبق نقله عن المعتزلة . ثم جاء البغدادى أبو منصور - توفى سنة ٤٢٩ هـ - الذى رفض الجهة والمكان ، وأول العرش بمثل ما أوله الاسفرائينى ، واستدل مثله على نفي المكانية والجهة بنفى الحدود والنهاية عن الله ، ومثله الجوينى فى « الإرشاد » الذى ادعى أن « مذهب أهل الحق قاطبة أن الله سبحانه وتعالى يتعالى عن التحيز والتخصيص بالجهات »

(١) المقالات ١ / ٣٢٥ . (٢) الأبيكار ١ / ١١٥٠ .

(٣) انظر : تأسيس التقديس ٧٦ - ٩٨ ونهاية الاقدام ١٠٩ - ١١٤ ، وما مرفى ص ٣٤٨ .

(٤) ص ٤٥ - ٥٠ . (٥) ص ١٠٠ .

وهو يستدل على ذلك بفكرتى التحيز والتخصص ، وبالتناهي والاجتماع والافتراق ، ويؤول الاستواء بالاستيلاء ومعانى أخرى ، ولكنه لا يؤول العرش نفسه ، كما فعل البغدادى والإسفرائينى ، وهو يضيف إلى ذلك رفض التوقف الذى عرف عن السلف عن تحديد معنى الاستواء ولا يكتفى من خصمه بإحالة المعنى الظاهر للاستواء حتى يتجاوزه إلى معنى يليق به تعالى كالاستيلاء وغيره . وهذا لعمري معارضه صريحة لموقف السلف الذى عبر عنه مالك فى كلمته المشهورة ، ولكن الآمدى كما سبق ذكره لم يذهب إلى هذا الحد (١) . ولعل من نسبوا إلى الجوينى أنه أول أشعري وافق المعتزلة على رأيهم فى نفى الجهة قصدوا إلى هذا (٢) .

وقد جرى الغزالي على نهج أستاذه إلا أنه لا يسرف فى مسألة التأويل ؛ إذ كان يقيده بقيود ويحرمه على العامة كما أشرت من قبل (٣) ، وتابعهما الشهرستانى فى ذلك ، وزاد بأن ربط بين فكرة الجهة وفكرة حلول الحوادث بذاته تعالى ، ولو أن الآمدى ينتقده فى هذا الربط لأنه يرى ألا تلازم بينهما (٤) ، ثم جاء الرازى فتابع أسلافه الأشاعرة فى نفى الجهة والمكانية وتأويل النصوص المتعلقة بذلك ، واستدل على ذلك بالعديد من الأدلة (٥) غير أنه عاد فالتزم موقف السلف أخريات حياته وتوقف عن التأويل وأجرى هذه النصوص على ظواهرها مع التمسك بقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

ثم جاء الآمدى فجرى على رأى هؤلاء المتأخرين من الأشاعرة ، وقد ذكرت من قبل تأويله للاستواء بالاستيلاء والتصرف ، وإن كان يبقى لفظ العرش على ظاهره ، ويقول إن إثارة بالذكر لما أنه أعظم مخلوقات الله تعالى ، هذا ولم يعرف عن الآمدى أى تغير أو تعديل فى موقفه كالرازى أو الجوينى مثلاً ، غير أن الآمدى يمتاز على ذلك :

(أ) بموقفه المتسامح من القائلين بالجهة بالمفهوم الذى لا يستلزم الجسمية ولا التحيز

(١) الإرشاد ٣٩-٤٢ . (٢) انظر : مثلاً مناهج الأدلة ص ١٧٦ .

(٣) انظر : الاقتصاد ٣٢-٣٧ وإلجام العوام ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) انظر : نهاية الأقدام ١٠٥-١١١ وص ٧٧ من غاية المرام .

(٥) انظر : تأسيس التقديس ٥٦-٩٦ ، والأربعين ١٠٧-١١٥ ، وفخر الدين الرازى وآراؤه ٢٥٥-٢٦٢ ،

والمآخذ ١٢٥ ، ب .

وهو يشبه في هذا إلى حد كبير الإمام الغزالي الذي رأى أن التأويل مع كونه حقاً للعلماء فهو ليس بضروري ولا واجب ، متى نفينا المعنى الظاهر الموجب للتشبيه والجسمية (١) .

(ب) وبطريقة استدلاله على هذه المسألة، حيث يعتمد على بطلان التحيز والجوهرية بالنسبة له تعالى ، فقد عرض الآمدى للطرق التي استعملها الأصحاب قبله لإبطال الجهة وانتقدها جميعاً (٢) .

ومع هذا فإننا نجد في الأبيكار يعتمد على حجة قريبة مما أنكره على أصحابه (٣) ، ولكن يبدو أن الآمدى بعد مزيد من التأمل أعرض عنها وعدل في (غاية المرام) إلى دليل آخر ربما كان أوضح منها وأكثر بساطة يقوم على فكرة التحيز يقول فيه :

لو كان الباري في جهة فإما أن يكون متحيزاً بها أولاً : فإن لم يكن متحيزاً بها فمعناه أنه ليس بذي مكان ولا هو متحيز في جهة معينة ، ولا بأس بذلك إلا من ناحية إطلاق لفظ الجهة فقط، والأمرفيه يسير ، وإن كان متحيزاً بها كان جوهرًا أو مشاركاً للجوهر في بعض خصائصه، وقد سبق إبطال ذلك . ثم يستدل بعد ذلك ، على أن التحيز (٤) مسن خصائص الجواهر .

ويختم الآمدى بحثه لهذه المسألة بمناقشة فكرة الكرامية (٥) ؛ التي نراها تتكرر عند ابن تيمية وتلاميذه ، بل عند ابن رشد أيضاً : لو لم يكن في جهة لما كان خارج العالم ولا داخله ، وإثبات لوجود هذا حاله غير معقول ولا متصور ، فيجب كونه في جهة . ثم يشير إلى محاولة بعض الأصحاب - وهو الشهرستاني - التخلص منها بكونها مصادرة على المطلوب ، قائلاً : إن الإنصاف يقضى بأنها ليست كذلك . وهو بذلك يحترم الفكرة ويتصدى لمناقشتها بما نجده عند الغزالي وابن توموت (٦) والرازي من قبله ؛ من أن حكم الخيال غير مقبول في مثل هذا الشأن ، فما دام البرهان القاطع قد أثبت شيئاً فيجب قبوله

(١) انظر : الاقتصاد ص ٣٣ وإلجام العوام ١٣-٢٤ . (٢) انظر : الأبيكار ١/ ١٥٠ ، ب وما بعدها .

(٣) انظر : الأبيكار ١/ ١٥١ . (٤) انظر : غاية المرام ل ٧٧ ب .

(٥) انظرها والإجابة عنها بقريب مما هنا عند الرازي في تأسيس التقديس ٧٦-٩٨ ، والأربعين ١١٣-١١٥ ، وعند الشهرستاني في نهاية الأقدام ٢٠٩-١١٤ ، والغزالي في الاقتصاد ٣١-٣٥ ، والبغدادى في الفرق بين الفرق ٢٠٢-٢٠٨ ، وانظر الأبيكار ١/ ١٥٢ ب ١١٥٣ .

(٦) انظر : تاريخ فلسفة الاسلام د/ هويدى ١/ ٢٦٩ .

ولو عجزنا عن تخيله ، وإلا لما أمكن القول بوجود الصفات غير المحسوسة كالعلم والقدرة والإرادة ونحوها لعدم حصولها في الخيال وامتناع وقوعها في المثال (١) .

ويضيف الأمدى إلى ذلك شيئاً من التوضيح ، إن أردتم بالاتصال بين ذات الله والعالم قيام أحدهما بذات الآخر ، فنحن نقول إن الباري والعالم كل واحد منهما منفصل عن الآخر بهذا الاعتبار ، ولكن ذلك لا يوجب كون كل منهما في جهة ، اللهم إلا إذا صح قبولهما جميعاً للكون فيها . وليس قولكم هذا إلا « كما لو قال القائل : وجود شيء ليس هو بعالم ولا جاهل محال . فيقال : إنما هو محال فيما هو قابل لهما ، وكذا في كل ما هو قابل لأحد نقيضين ، فإن خلوه عنهما محال . أما إن وجد مالا يقبلهما أصلاً فخلوه عنهما ليس بمحال (٢) .

أما الأدلة النقلية التي يتمسك بها مثبتو الجهة كالأيات والأحاديث المتضمنة للفوقية والاستواء والنزول وكونه تعالى في السماء ، فإن الأمدى - كما هو دأبه - يقول عنها في غاية المرام : « إنها ظواهر ظنية ، ولا يسوغ استعمالها في المسائل القطعية ، فلهذا آثرنا الإعراض عنها ، ولم نشغل الزمن بإيرادها (٣) . » ويرى أستاذنا الدكتور محمود قاسم في هذا ضرباً من الهروب ، ولكنه في الأبحاث يورد (٤) كثيراً من النصوص القرآنية والنبوية ويؤولها تفصيلاً بما لا يخرج عن سبقه من الأشاعة والمعتزلة والماتريدية (٥) .

والآن .. هل لنا أن نقول : إن الإيمان بعلوه تعالى عن سائر خلقه ، واستوائه على عرشه ، دون تكييف ذلك أو محاولة للبحث عن كنهه ، أيسر للعقل المؤمن من شبهوا العرش بكرسى الملك ، أو من أولوه بمعانى الغلبة والسيطرة ؟ فالله تعالى هو المقوم للعرش ، وليس العرش هو المقوم له (٦) . وما دام الله - تعالى - مخالفاً للمخلوقات في ذاته وصفاته وأفعاله ، فيجب تنزيهه عن خصائصها من الحاجة إلى المكان أو الزمان ، ونحوها من صفات الموجودات الكائنة بعد العدم والمنتبهة إليه بعد الوجود ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٧) .

(١) انظر : غاية المرام ل ١٧٩ . (٢) غاية المرام : ل ١٧٩ .

(٣) السابق : ل ٧٩ ب . (٤) ١٠٣ / ١ - ١٥٤ ب .

(٥) انظر : بحر الكلام ٢٤-٢٧ ، وشرح الأصول الخمسة ٢١٣ - ٢٢٧ ، وتأسيس التقديس ٧٦ وما بعدها ،

وأصول الدين ٦٨ ، ٧٦ . (٦) انظر : مناهج الأدلة ص ٧٣ وما بعدها ، ١٧٠ - ١٨٥ .

(٧) الآية ١١ من سورة الشورى .

٨- إبطال الحلول والاتحاد

أ- القائلون بهما :

إذا بطلت الجهة والمكانية والتحيز والاتصال بالأجرام بالنسبة لله - تعالى ، فمعنى ذلك بطلان دعوى الحلول أو الاتحاد بين الله تعالى وبعض مخلوقاته ، التي ذهب إليها الرواقيون (١) من الفلاسفة - وقد عرفهم الآمدى وتحدث عن ذهابهم إلى قدم العالم كما سيأتى - كما ذهب إليها بعض أصحاب الديانات : كالنصارى ؛ وقد نسب إليهم الآمدى القول بالحلول والاتحاد ، وتتبع مقالاتهم فرقة فرقة على النحو الذى نجده عند الباقلانى فى التمهيد (٢) . وكالصابئة الحرائية ، وهم إحدى فرق الصابئة الأربعة التى تحدث عنها الآمدى فى الأبهكار (٣) ، وذكر من مقالاتها : « إن الله المعبود واحد فى ذاته ، وإنه أبدع أجرام الأفلاك وما فيها من الكواكب ، وجعل الكواكب مدبرا لما فى العالم السفلى . والإله تعالى يظهر فى الكواكب السبعة ، ويتشخص بأشخاصها عن غير تعدد فى ذاته ، وقد يظهر أيضا فى الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة . » (٤)

وقد ذهب إلى ذلك أيضا بعض المنتسبين إلى الإسلام وهم طوائف من غلاة الشيعة ؛ كالنصيرية والإسحاقية على نحو ما يحكى الآمدى فى الأبهكار (٥) . ويذكر الرازى أن هاتين الفرقتين هما أول من أظهر هذه المقالة فى الاسلام (٦) . وقد أنكر عليهم المعتدلون من الشيعة قولهم بالحلول والاتحاد ، بل عدوهم كفارا بالله - جل اسمه - وشرا من اليهود والنصارى والمجوس ، ومن جميع أهل البدع والأهواء المضللة (٧) .

وقد نسب عبد القاهر البغدادى الحلول إلى السبئية من قدامى الشيعة الذين قالوا : « بأن عليا صار إلها بحلول روح الإله فيه » وأضاف إليهم سبع فرق أخرى من غلاة

(١) انظر : عن الرواقية وميلها إلى الحلول العرب والفلسفة اليونانية لفروخ ١١٢ ، ١١٣ وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوست كرم ٢٢٦ - ٢٣٣ والفلسفة الرواقية للدكتور عثمان أمين ١٥٧ - ١٦٩ - ١٨٣ .

(٢) انظر : التمهيد ص ٧٨ - ٩٣ والأبهكار ١/ ١٥٦ ب - ١٦٢ ب .

(٣) الأبهكار ٢/ ١١٢٨ - ١٣٣ ب . (٤) الأبهكار ٢/ ١٣٣ ، ب . (٥) انظر : الأبهكار ١/ ١١٥٥ .

(٦) اعتقادات فرق المسلمين والمشرىين ص ٧٣ ، وانظر أيضا عنهم مقالات الإسلاميين ١/ ٧٤ وما بعدها ، والمواقف ٢٩/ ٨ ، ٣٠ ، وجمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته ص ١٥٥ ، ونشأة الفكرة ٢/ ٣٢٠ - ٣٢٢ .

(٧) انظر : الصلة بين التصوف والتشيع ١٥٢ ، و : عقائد الإمامية ص ٥٩ .

الشيعة؛ وهم البيانية والجناحية والخطابية والنصيرية والمقنعية والرزامية والبركوكية، بالإضافة إلى ثلاث فرق من الصوفية؛ هي: الحلمانية التي تقول بحلوله تعالى في الصور الحسنة من البشر وكانوا يسجدون لها، وقد حكى البغدادى مناقشة بينه وبين أحدهم، والحلاجية المنسوبة إلى الحلاج الذي يقول عنه عبد القاهر: إنه قد اختلف فيه المتكلمون والفقهاء والصوفية وإن كان أكثر المتكلمين على تكفيره لقوله بالحلول، وجماعة ثالثة ظهرت ببغداد، يدعون العذافرة نسبة إلى شيخهم، الذي سمي نفسه (الروح القدس) وادعى أن الاله حل فيه، وقد قتله الخليفة الراضى مع بعض أصحابه (١).

وقد نسب القول بالحلول والاتحاد إلى آخرين من الصوفية؛ منهم البسطامي (٢)، ومنهم أيضاً - فيما يرى ابن تيمية - ابن عربي والتلمساني وابن سبعين وابن الفارض (٣). وقد قال الأشعري في المقالات: «وفي النساك من الصوفية من يقول بالحلول وأن الباري يحل في الأشخاص» (٤). وسواء كانت هذه الاتهامات صحيحة أو غير ذلك، فإن كثيراً من الصوفية قد أنكروا على القائلين بالحلول والاتحاد وأبطلوا مقالاتهم كالقشيري والجنيد والغزالي وغيرهم (٥).

هذا ويضيف الأمدى إلى قائمة القائلين بالحلول والاتحاد بعض المشبهة، ويدخل في هذا مشبهة أهل السنة أيضاً، وقد أشار أستاذنا الدكتور النشار إلى أن مذهب الكرامية المجسم تمهيد طبيعي لفكرة وحدة الوجود، التي ظهرت فيما بعد في البيئة الإسلامية وأنها وضعت بالفعل فكرة الحلول (٦). وكان الإمام الغزالي قد لاحظ من قبل الارتباط بين فكرتي الحلول والجسمية (٧)، كما لاحظ الباقلاني العلاقة بين الاتحاد والجسمية في التمهيد (٨).

(١) انظر: الفرق بين الفرق ٢٤١ - ٢٥٠ ونشأة الفكرة ١/ ٢٠٨ - ٢٠٩ والكندى وفلسفته ص ٨٧، والتبصرة في الدين ص ١١٣ وما بعدها.

(٢) انظر: العقيدة والشرعية في الإسلام ١٥٥ - ١٨٥، والمقصد الاسنى ٩٩ - ١٠٣، وفخر الدين وآراؤه ص ٢٧٣ وما بعدها، وفي الفلسفة الإسلامية د/ مذكور ٤٢، ٤٣.

(٣) انظر: الفرقان لابن تيمية ١٠٠ - ١٠٩. (٤) المقالات ١/ ٨٠.

(٥) وان كان أستاذنا د/ هويدى ينسب إلى الجنيد أيضاً ضرباً من الحلول انظر له: محاضرات في الفلسفة الإسلامية ص ٧٦ وقارن: الفرقان لابن تيمية ص ١٠٠ والرسالة القشيرية ص ٣ - ٧ والمقصد الاسنى ٩٧ - ١٠٣، واللمع للطوسي ص ٤٩، ٥٠ والعقيدة والشرعية في الإسلام ١٧٥، ١٧٦.

(٦) انظر: نشأة الفكر ١/ ٦١٩ - ٦٣١. (٧) المقصد الاسنى ص ١٠١.

(٨) التمهيد ص ٨٧، ٨٨، ٩١.

وعلى كل فقد تصدى المتكلمون لهذه الأفكار المنحرفة « فى أمة آمنت بالتنزيه المطلق » (١) ، وفى مقدمتهم شيوخ الأشاعرة كالباقلانى والبغدادى والغزالى والرازى (٢) ، ومعهم الآمدى أيضا الذى يولى هذه المسألة أهمية خاصة؛ فيتتبع شبه القائلين بالحلول والاتحاد ويناقشها (٣) فى عناية وجدية وقوة، لولا ما يشوبها من لغة جدلية.

ب- إبطال الحلول : يورد الآمدى فى الأبيكار ثلاثة أدلة على هذا البطلان، نذكر منها واحدا يعبر عما تنسم به جميعا من الطابع الجدلى : لو حلت ذاته فى المحل فيما أن يكون هذا المحل قديما أو حادثا ، لا يجوز القول بالأول وإلا تعددت القدماء. فإن كان حادثا فحلولة فيه واجب أو جائز ، لا يجوز القول بالأول لأنه يلزم عليه أن يكون البارى ممكنا لأنه محتاج ، وأن يكون المحل قديما وقد فرضناه حادثا ، وأن يحتاج المكان إلى البارى ليخلقه ويحتاج إليه البارى ليحل فيه، وهذا دور فاسد. أما إن كان الحلول فى هذا المحل الحادث جائزا ، فإن كان البارى يتقوم به فهو ممكن الوجود لا واجب الوجود، وإن كان قائما بنفسه كان غير محتاج إلى المحل . وهى حجة معقدة قد يغنى عنها الاحتمال الأخير فقط ، لو كان البارى محتاجا الى المحل المقوم لما كان غنيا كما وصفه القرآن، أو لما كان واجب الوجود كما يقول الفلاسفة وبعض المتكلمين . وهو فى نظرنا كاف ومقنع، وإن سبق للرازى أن انتقد هذا الدليل ولم يترح اليه (٤).

على أننا نجد الآمدى فى المآخذ يلخص عن الرازى دليل الغزالى الذى بينه فى المقصد الأسنى (٥) . وهو يقوم على تحليل فكرة الحلول؛ إذ يقول: «الحلول» قد يعنى به الحصول فى الحيز تبعا لحصول المحل فيه، وقد يعنى به الاختصاص بالشئ والافتقار إليه. وهما على الله تعالى محال وقد سبق بيانه. ولأنه لو جاز حلولة لجاز حلولة فى كل معروض، وعدم دليل الحلول من ظهور آثار الإلهية لا يدل على عدمه (٦) . ولقد كان هذا الدليل أنسب لطريقة الآمدى فى (غاية المرام) إذ يعتمد فيه بشأن إبطال الجسمية

(١) نشأة الفكرة ١/ ٦٣١ وانظر : منهاج السنة ٣/ ٩٣ - ٩٦ .

(٢) انظر : المراجع السابقة لهؤلاء الأشاعرة والمغنى ١٥/ ٢٧٠ - ٢٧٩ وفخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٧٣ - ٢٨٣

(٣) الأبيكار ١/ ١١٥٥ - ١١٥٨ ب .

(٤) انظر فخر الدين الرازى ص ٢٧٧ - ٢٧٩ والمحصل ١١٣

(٥) المقصد الأسنى ٩٩ وما بعدها . (٦) المآخذ ل ٣١ ب .

ولوازمها على بطلان الجوهرية، غير أنه لم يعرض لمسألتي الحلول والاتحاد في هذا الكتاب .

ج- إبطال الاتحاد : أما مسألة الاتحاد فإنه يعتمد في الرد عليها - في الابتكار والمآخذ - على الدليل الذي نجده عند الرازي (١) والغزالي (٢) من قبل، وتوجد فكرته عند الباقلاني أيضا (٣) ، وعند ابن حزم في الفصل (٤) ، وعند ابن سينا في الاشارات والتنبيهات (٥) ؛ وخلاصته أن الحقيقتين المتحدتين إن بقيتا بعد الاتحاد اثنتين فهما شيعان لا شيء واحد، وإن عدمتا جميعا فلا اتحاد أيضا، لأنهما معدومان لا موجودان، وإن فنيت إحدهما وبقيت الأخرى صار المعدوم عين الموجود وهو محال (٦) .

ويشير الآمدى الى شبهة النصارى في الحلول والاتحاد؛ وهى ما ظهر من الخوارق على يد عيسى - عليه السلام - ولا يستطيعها البشر، فيحتاج عليهم بأن مثل ذلك قد وقع لغيره من الانبياء كموسى - عليه السلام - مثلا، فلم لم تقولوا بالوهيته؟ ويستعين هنا بفكرة أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول، لكى يلزمهم بالوهية موسى أيضا ، وإلا فهو يرى أن القول بذلك تلاعب بالعقل والدين (٧) .

ويذكر أيضا أن منهم طائفة قالت بأن المسيح عبد الله ورسوله، خلقه فى بطن مريم، وأنه ابنه بالتبني لا بالولادة . ونحن نجد مثل هذا عند ابن حزم، وهو على صلة أوثق بالإنجيل والمصادر المسيحية (٨) . على أن الآمدى يذكر من نصوص الإنجيل ما يدل على أن المسيح بشر مربيوب، يلجأ إلى ربه ويدعوه ويعتمد عليه، وليس إلها كما زعموا، وهى نفس النصوص التى نجدتها عند الباقلاني فى التمهيد (٩) . وهكذا يتتبع الآمدى سائر لوازم الجسمية من المكانية والزمانية ، وتغير الصفات، والقول بحلول الحوادث بذاته تعالى، والحلول والاتحاد، فينفىها عن الله تعالى لكى يحفظ له التنزيه المطلق . بل يضيف الى ذلك تأويل ما قد يوهم الجسمية كالكيد والعين ونحوهما، مما ورد فى

(١) انظر المحصل ١١٢ والمعال ٣٦ . (٢) المقصد الأسنى ص ٩٩-١٠٠ .

(٣) انظر التمهيد ص ٨٧ - ٨٩ . (٤) الفصل ١/ ٥٣ ، ٥٤ .

(٥) انظر الاشارات والتنبيهات ط الخبرة بمصر ص ٦٧ ، ٦٨ ، فى الفلسفة الاسلامية . منهج وتطبيقه ١/ ٥٣ .

(٦) انظر الابتكار ص ١١٥٩ ، ١٦١ ب ، والمآخذ ٣١ ب (٧) الابتكار ١/ ١٦٢ ب

(٨) انظر الفصل ١/ ٤٨ . (٩) انظر التمهيد ص ٦٤ - ٩٦ .

نصوص قطعية الثبوت ، فيؤولها بمعان أخر ويرفض كونها صفات قديمة .

ويضيف إلى ذلك أيضاً في كتاب المآخذ نفى النهاية والحد عن الله تعالى . ولكن هل يعنى ذلك أن نصفه - تعالى - باللا نهاية ؟ يقول الآمدى : إن لهذا المصطلح معنيين : أحدهما سلب الحد والطرف والمقطع التى لا تكون إلا للمقدار ، وهذا المعنى صادق على الله تعالى ، لأن هذه الأمور لا تكون إلا فى المقدار والعدد . والمعنى الآخر عدم انتهاء العدد والمقدار إلى حد ومقطع ، بل كل ما قدر من ذلك وجد شئ خارج عنه ، واللانهاية بهذا المعنى لا تطلق على الله - تعالى ، إلا عند بعض المجسمة الذين يقولون إن قادرته وعالميته متجددة متعددة وهى دائمة فلا حد لها فى الماضى ولا فى المستقبل (١) .

كما أنه فى هذا الكتاب نفسه ينفى عن الله تعالى اللذة ، حسية أو عقلية ، وينزهه عنها . وهذا يلتقى مع رأيه فى بطلان حلول الحوادث بذات الله ، ويدل أيضاً على تحفظه إزاء الفلسفة على الرغم من اشتغاله بدراساتها ، فقد نسب القوم إليه - تعالى - أنه ملئذ وأنه عاشق ومعشوق ، وأنه يبتهج بإدراك ذاته ، ونحو ذلك من التصورات الإنسانية (٢) . ولكن الآمدى يستدل على بطلان ذلك بأن علمه - تعالى - يختلف عن علمنا ، وإذن فلا يلزم منه الابتهاج كما يلزم من إدراكنا نحن للكمال أو الملائم كما يقول الفلاسفة (٣) . أما الألم ، جسمانياً أو عقلياً ، فهو يقول إن العقلاء مجمعون على تنزيهه تعالى عنه ، بل إنه فى الأبهكار ينفى عن الفلاسفة قولهم بأن الله ملئذ ؛ لأنهم لا يقولون إنه ملئذ بللذة ، وهى عندهم إدراكه لما يلائم ذاته من كمالاته ، فحاصله يرجع الى تفسير اللذة بالإدراك ، ونحن لا ننازع فيه من جهة المعنى ، بل من جهة الإطلاق اللفظى ، إذ هو متوقف على ورود الشرع ، ولا سبيل إلى إثباته (٤) .

(١) المآخذ ل ٢٩ ب ، ١٣٠ ، وانظر نفى النهاية عن الله فى اللمع للطوسى ١٠٧ ، ومشكل الحديث وبيانه ص ٣ المقدمة .

(٢) انظر عيون المسائل للغارابى ص ٥ ، والنجاة ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، والإشارات ٣/ ٧٨٢ - ٧٨٤ .

(٣) المآخذ ل ١٣٢ ب . (٤) الأبهكار ١/ ١٦٤ ب .

مسألة الرؤية

١ - طبيعة المسألة والخلاف حولها :

كل من أثبتوا الجسمية قائلون برؤيته تعالى بالأبصار يوم القيامة ، وكذا من أثبتوا الجهة وأنكروا الجسمية أو توقفوا فيها ، ومن هؤلاء الكرامية والمشبهة^(١) ، وطوائف من المحدثين وأهل السنة القائلين بالجهة^(٢) ، والحنابلة^(٣) ، والسالمية^(٤) ، والبكرية^(٥) ، وقدماء الشيعة ممن قالوا بالجسمية والجهة^(٦) . فهؤلاء جميعاً لا يجدون صعوبة في إثبات الرؤية لاعترافهم بالجسمية أو بالجهة؛ إذ أن نفاة الرؤية إنما يستندون إلى نفى الجسمية والجهة، ويرون الرؤية بالبصر لا تكون إلا للجسم ، ولما كان في مقابلة الرائي، ومن هؤلاء الجهمية ، والمعتزلة ، ومن تابعهم من الخوارج والشيعة^(٧) والنجارية^(٨) والفلاسفة^(٩) ، والآمدى يدعى إجماع الفلاسفة على نفى الرؤية^(١٠) . غير أن ابن سينا يحكم في آخر رسالته (فى القوى الإنسانية وإدراكاتها) يحكم بإمكان رؤية الله (بالبصر الأخرى) وجواز وقوعها^(١١) . وهؤلاء النفاة أيضاً منطقيون مع أنفسهم، ماداموا يرون أن الرؤية لا بد لها من شروط مادية معينة ، هى مستحيلة بالنسبة لله - عز وجل - ^(١٢) المنزه عن المادة والحس ولوازمهما .

ولكن الصعوبة الحقيقية إنما تواجه الأشاعرة المجمعين على نفى الجسمية عن الله تعالى، والذين قال المتأخرون منهم بنفى الجهة والمكانية أيضاً ، وأثبت قدمائهم الجهة والاستواء صفتين قديمتين ولكنهم أيضاً نفوا التمكن والاستقرار، ومع تمسكهم جميعاً بنفى الجسمية

-
- (١) انظر : المحصل ٣٧ ، والمآخذ ل ١٢٩ ، ب . (٢) شرح الطحاوية ص ١٢٦ .
 (٣) انظر : لمعة الاعتقاد لابن قدامة الحنبلى ص ٢٠ . (٤) انظر : بغية المراتد لابن تيمية ص ١١٥ .
 (٥) الفرق بين الفرق ص ٢٠٠ . (٦) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
 (٧) انظر : المآخذ ل ٣٠ ب ، وغاية المرام ١٥٩ ، والأبكار ١/ ١٢٥ ، ب ، وشرح الطحاوية ص ١٢٦ ، وشرح الأصول الخمسة ٢٣٢ وما بعدها ، والمغنى ٤/ ٤٨ وما بعدها .
 (٨) الفرق : ١٩٦ .
 (٩) انظر : المحصل ١٣٧ والإشارات والتنبيهات ٣/ ٤٣٥ - ٤٤٠ ، ومنهاج السنة ٣/ ٩٧ .
 (١٠) انظر : ص ١٥٩ من غاية المرام .
 (١١) انظر : الرسالة المذكورة ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعات ص ٦٩ ، ٧٠ .
 (١٢) انظر : المآخذ ل ١٣٠ ، ب ، والمغنى ٤/ ٩٨ وما بعدها ، ومنهاج الأدلة ص ١٨٥ ، ١٩٠ ، ومقدمته ص ٨١ ، ٨٢ .

وتشدد المتأخرين منهم فى نفى سائر لوازمها أيضا ، وتأويل ما قد يوهمها من النصوص ، فإنهم اتفقوا جميعا على إثبات الرؤية لله تعالى بالبصر يوم القيامة ، كما أخبرت بذلك النصوص الثابتة ، بلا كيف ولا إحاطة^(١) . ومن هنا نشأت الصعوبة التى كان لا بد لهم أن يواجهوها ، ويشاركهم فى ذلك الماتريدية أيضا^(٢) .

وقد أشار إلى هذه الصعوبة القاضى عبد الجبار المعتزلى^(٣) ، والفيلسوف ابن رشد^(٤) ، والإمام الرازى^(٥) ، ولعلها هى التى دفعت « ضرارا » من قبل ، و« حفصا » الفرد ، إلى ادعائهم الحاسة السادسة^(٦) ، التى تتيح للمؤمنين رؤية ماهية الله فى الآخرة^(٧) . وهى الصعوبة التى حملت المعتزلة على التعسف فى رفض الأحاديث المتكاثرة بحجة أنها آحاد ، وتأويل الآيات القرآنية^(٨) مع ما فى ذلك من صعوبات ، وحملتهم — أحيانا — على الاعتراف بضرب من الرؤية القلبية أو « المعرفة الضرورية » بالله سبحانه فى الآخرة على حد تعبير القاضى عبد الجبار^(٩) . وهى نفس الصعوبة التى جعلت ابن سينا يعترف ، أو لا يرى مانعا من « الشهود » أو الرؤية التى لاتشبه فيها ولا تكييف ، وهى ضرب من الكشف أو الإدراك يجعله الله فى عضو البصر الذى يكون بعد البعث^(١٠) . ويبدو أنه مسبوق فى هذا المعنى بالفارابى كما يقول ابن تيمية^(١١) .

وهذا الحل نفسه كمحاولة للجمع بين الرأيين السابقين ، هو الذى لجأ إليه بعض متأخري الأشاعرة ومنهم الآمدى فيما يبدو لى .

لقد لجأ بعض نفاة الجسمية المثبتين للرؤية ، فى حل هذا الإشكال نفسه ، إلى السمع

(١) الأشعرى أبو الحسن ص ٧٥ .

(٢) انظر : كتاب التوحيد للماتريدى ل ٣٧ ب ، وبحر الكلام ٢٧ - ٢٩ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ٢٣٢ ، ٢٣٣ . (٤) انظر : مناهج الأدلة ١٨٥ - ١٨٦ .

(٥) انظر : المحصل ١٣٧ .

(٦) انظر : نقد القاضى عبد الجبار لهذه الفكرة فى شرح الأصول ٢٥٣ ، ٢٥٣ .

(٧) انظر : الفرق بين الفرق ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٨) انظر : شرح الأصول ٢٣٣ وما بعدها والمغنى ٤ / ١٣٧ وما بعدها .

(٩) انظر : شرح الأصول ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، وانظر أيضا مقدمة مناهج الأدلة ص ٨٢ .

(١٠) فى القوى الإنسانية ضمن تسع رسائل لابن سينا ص ٦٩ ، ٧٠ .

(١١) انظر : منهاج السنة ج ٣ / ٩٧ .

والتمسك بإثبات الرؤية ، لأن النصوص الثابتة قد جاءت بها ، والاكتفاء بنفى التكييف والتشبيه والإحاطة عنها ، ومن هؤلاء أبو المعين النسفى^(١) ، وهو من أكبر أتباع أبى منصور الماتريدى ، والإمام الرازى فى بعض كتبه^(٢) ، أو إلى القول بضرب من الرؤية القلبية ، كما ذهب إليه أبو منصور الماتريدى وبينه أستاذنا الدكتور محمود قاسم فى مقدمته لكتاب (مناهج الأدلة)^(٣) .

أما الأشعرى نفسه ، والكثير من أصحابه ، فقد تمسكوا فى إثبات الرؤية البصرية - رغم تنافرها مع أصولهم ، واعترافهم بتعذر الشروط العادية للرؤية^(٤) - بالأدلة العقلية . وهو أمر بالغ العسر إلا باللجوء إلى بعض الحلول المشار إليها آنفاً ، وهو ما لم يحدث إلا من المتأخرين من أصحاب الأشعرى ، الذين سئموا ترديد حجج عقلية واهية يمثلها ابن رشد بالرجل المنافق الذى يدعى الفضيلة ، وليس به من حقيقتها شىء^(٥) .

أما الصوفية فهم يثبتون الرؤية ، ينقل ذلك القشيري عن التستري وغيره^(٦) ، بل يحكى الكلاباذى إجماع القوم عليه^(٧) ، ويربطها بعضهم بمعنى المحبة الإلهية والاشتياق إلى الله سبحانه ؛ قال أبو الحسن النورى : شاهد الحق القلوب ، فلم يرقبها أشوق إليه من قلب محمد - ﷺ ، فأكرمه بالمعراج ؛ تعجيلاً للرؤية والمكاملة^(٨) .

ومن عجب أن نجد ابن تيمية ، يربط أيضاً بين الرؤية وفكرة المحبة الإلهية ، ويؤكد لذة المؤمنين بالنظر إلى وجهه - تعالى - معتمداً على بعض الأحاديث ، ويهاجم المعتزلة والفلاسفة ومن تأثر بهم فى رأيه ؛ لإنكارهم ذلك : « والمنكرون لرؤيته من الجهمية والمعتزلة ينكرون هذه اللذة ، وقد يفسرها من يتأول الرؤية بمزيد العلم ، وهذا قول متصوفة الفلاسفة والنفاة ؛ كالفارابى وكأبى حامد وأمثاله ؛ فإن ما فى كتبه من الإحياء وغيره من لذة النظر إلى وجهه هو بهذا المعنى ، والفلاسفة تثبت اللذة العقلية ، وأبو نصر

(١) انظر : بحر الكلام ٢٧ - ٢٩ ، وانظر : أيضاً كتاب التوحيد ل ٣٧ وما بعدها ، والمواقف ٨ / ١٢٩ .

(٢) انظر : المحصل ١٣٨ والأربعين ١٩٨ وفخر الدين وآراؤه ص ٢٦٩ - ٢٢١ .

(٣) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٤) انظر : مناهج الأدلة ص ١٨٥ وما بعدها ، ومقدمته ص ٨٦ - ٨٨ .

(٥) مناهج الأدلة ص ١٨٥ ، ١٨٦ . (٦) الرسالة القشيرية ص ٤ ، ١٦٠ .

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٤٣ . (٨) الرسالة القشيرية ص ٤ ، ٥ .

الفارابي وأمثاله من الفلاسفة تثبت الرؤية واللذة وتفسرهما بهذا المعنى. (١). ثم يتهم الأشعرى والباقلاني والجويني وابن عقيل بإنكار هذه اللذة؛ لإنكارهم أن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ، ويرى أن هذا أثر من جهم وشيخه الجعد بن درهم، توارثه المتكلمون بعده من معتزلة وأشاعرة، ثم يبين أن أئمة السلف وجمهور الأمة متفقون على أنه تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ (٢).

وقد وجه أستاذنا الدكتور النشار أنظار الباحثين إلى أهمية نظرية الحب عند ابن تيمية (٣)، ولكنه يخطئه في اتهامه للأشاعرة، ويجب بأنهم عارضوا أن يُحَبُّ الله لذاته، ويُلتذ بالنظر إليه، ليعارضوا أقوال الصوفية في «العشق الذاتي»؛ أي أنه تعالى راعه بهاؤه وجماله في الأزل، فأحب أن يُعرف، فخلق الخلق (٤) لذلك، وما رددته الحشوية والمشبهة من أنه سبحانه سبيكة صافية، فالأشاعرة لا ينكرون محبة الله للناس ولا محبة الناس له، وإنما يقرون بلذة رؤيته، لا على أنها مجرد شعور حسي (٥)، بل على أنها ضرب من المعرفة.

ب- إثبات الرؤية :

يعرض الآمدي أدلة الأشاعرة على جواز الرؤية عقلا قبل إثبات الوقوع الفعلي، بادئا: بالدليل الأشعرى المشهور، وهو أن متعلق الرؤية من الموجودات المختلفة المتنوعة إلى جواهر وأعراض، إنما هو الذات والوجود، وأما ما سواه مما يقع به الاتفاق والافتراق بين الذوات فأمور لا تتعلق بها الرؤية. وإذا فالله تصح رؤيته لأنه موجود (٦). وهذا هو دليل الشيخ الأشعرى (٧) - بقريب مما نجده عند الجويني في الإرشاد - وهو الدليل الذي خالف

(١) منهاج السنة ٩٧/٣ . (٢) منهاج السنة ٩٧/٣ .

(٣) انظر : نشأة الفكر ١ / ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٤) حديث موضوع يورده الآمدي في الأحكام : انظر : ما سبق في ص ٤٢ من هذه الدراسة .

(٥) نشأة الفكر ١ / ٣٩٠ ، ٣٩١ . (٦) انظر : ص ١٥٩ من غاية المرام ، والأبكار ١ / ١٢٣ .

(٧) انظر : : الأمانة ص ١٨ ، ١٩ ، واللمع ص ٦٧ ، ٦٨ ، وقد تأثر به بعض الماتريدية انظر : شرح النسفية ٣٢٥

- ٣٣١ ، وانظر الإرشاد ١٧٧ .

فيه الأشعرى شيخه ابن كلاب الذى زعم أن مصحح الرؤية هو القيام بالنفس^(١). وتوارثه الأشاعرة من بعده^(٢)، وصاغوه فى صيغ عدة؛ ومنها الصيغة التى ينسبها الآمدى فى الأبكاري إلى الباقلانى، ولجدها مفصلة - فيما بعد - عند الشهرستانى^(٣). والصيغة المنسوبة للإسفرائينى، وقد فصلها الجوينى فى الإرشاد^(٤)، بخلاف يسير عما نقلناه فيما سبق^(٥). ومنها صيغة البغدادى التى عرضها فى أصول الدين^(٦). وقد عرض ابن رشد لهاتين الصيغتين الأخيرتين بالنقد فى (مناهج الأدلة)^(٧).

ومع اشتهاار هذا المسلك بصيغه المختلفة، فإن الأشاعرة أنفسهم أخذوا - منذ الغزالى - يحسون بضعفه، فالغزالى يستند عليه فى الاقتصاد^(٨)، ولكنه ينتقده فى (القسطاس المستقيم)^(٩)، ثم جاء الرازى فأوسع نقدا فى عديد من كتبه^(١٠)، والآمدى يتابع هؤلاء فى نقد هذا الدليل ويرى أن المعتمد عليه «منحرف عن سواء الطريق»^(١١)، ثم يحدد وجوه النقد التى يأخذها على هذا الدليل كما يلى :

١- أن تعلق الرؤية بجميع الجواهر والأعراض أمر يمكن النزاع فيه، ولم يقم عليه دليل حاسم.

٢- أنه يتعارض مع أصول الأشاعرة بعامة، والقائلين منهم بالأحوال بخاصة، وذلك لأننا لو اعتبرنا الوجود أمرا عاما مشتركا بين سائر الدوات فهو، عندئذ، حال لا تصح رؤيتها كما يصرح بذلك الجوينى مثلاً، وإن لم يكن مشتركا بأن كان الوجود نفس الموجود، فلا اشتراك عندئذ بين الدوات الموجودة شاهداً وغائباً فى وصف الوجود، حتى يكون هو متعلق الرؤية فيها جميعاً.

(١) انظر: أصول الدين للبغدادى ص ٩٧، والأبكاري ١/١٢٣، وانظر: نقد عبد الجبار لرأى ابن كلاب فى المغنى ١٨٠/٤ - ١٨٣.

(٢) انظر: أصول الدين للبغدادى ص ٩٨، ٩٩ والإرشاد للجوينى ١٢٧ والاقتصاد للغزالى ٣٨، ٣٩.

(٣) انظر: نهاية الأقدام ٣٥٧، والشهرستانى نفسه ينسبها إلى الباقلانى أيضاً ص ٣٦٢ من نهاية الأقدام.

(٤) انظر: الإرشاد ص ١٧٧ وما بعدها. (٥) انظر: ١٦٠ من غاية المرام.

(٦) أصول الدين ص ٩٨، ٩٩. (٧) انظر: مناهج الأدلة ص ١٨٧، ١٨٨.

(٨) انظر: الاقتصاد ٣٨، ٣٩.

(٩) انظر: القسطاس ص ٧٥، ٧٦ وانظر: مثل هذا النقد فى معارج القدس ١٣٥ - ١٤٠.

(١٠) انظر: المحصل ١٣٨، والمعالم ص ٥٩ - ٦٧ وفخر الدين وآراؤه ص ٢٦٦ وما بعدها.

(١١) ص ١٦٠ من غاية المرام.

٣- من الممكن أن يقال إن الرؤية إنما تتعلق بما به الاختلاف والافتراق بين الذوات لبالذوات نفسها ، كما قاله بعض المعتزلة . وردُّ الأشاعرة على هذا القول بأن المعتزلة لا يسلمون بتعلق العلم بهذه الأمور مستقلة عن الذوات رد ضعيف ؛ لأن الإدراك ، وهو أخص من العلم ، قد يتعلق بها من غير الجهة ، التي هي متعلق العلم ، هذا فضلا عن أن المعتزلة ليسوا مجمعين على منع تعلق العلم بالأمور المذكورة مستقلة عن موضوعاتها .

٤- ما المانع من أن يكون مابه الافتراق بين الذوات من جملة المصحح للرؤية ؟ وإذا كان هذا الفرض جائزا فلا بد لمن يأخذ بهذا الدليل من أن يثبت أن البارئ تعالى مشارك للذوات الموجودة في أمثال هذه الأمور التي يكون بها الافتراق ، وذلك مما لا سبيل إليه (١) . هذا وقد سبق للقاضي عبد الجبار أن نقد هذا الدليل من بعض هذه الوجوه ومن وجوه أخرى (٢) ، كما انتقده الرازي من وجوه عدة منها الوجه الثاني فيما سبق (٣) . أما ابن رشد فقد تناول في نقده ، ما يقرب من الوجهين الأخيرين ، إذ تمسك بأن الشيء إنما يُدرك بما فيه من لون خاص ، ولولا ذلك لما أمكن التفرقة بين الأسود والأبيض ، ولا جاز للبصر أن يدرك فصول الألوان ، ولاختلطت الأمور واستحال العلم ، ويقول « ولولا النشأة على هذه الأقاويل وعلى التعظيم للقائلين بها لما أمكن أن يكون فيها شيء من الإقناع ، ولا وقع التصديق بها لأحد سليم الفطرة » (٤) . ولكننا نجد في الآمدى واحدا من هؤلاء الذين غلبت فيهم سلامة الفطرة على دواعي التقليد .

ويتتبع الآمدى الصيغ الأخرى التي ظهر فيها هذا الاستدلال ، كصيغة الباقلاني التي يتبناها الشهرستاني في نهاية الأقدام ، وينقلها عنه الآمدى بالفاظها تقريبا (٥) ، ولا أرى موجبا لتفصيل نقده لها ، لأنها لا تكاد تختلف عن سابقتها من ناحية ، ولأن الشهرستاني نفسه يورد اعتراضات المعتزلة عليها (٦) ، ويحاول دفعها في غير طائل ، فيلجأ إلى السمع في جواز الرؤية وفي وقوعها جميعا (٧) .

(١) انظر : هذه الوجوه الأربعة في : الأبهكار ١/ ١٣١ ب ، وص ١٥٦-١٦٠ من غاية المرام .

(٢) انظر : المغنى ٤/ ٧٧ - ٨٩ وشرح الأصول الخمسة ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٣) انظر : فخر الدين وآراؤه ٢٦٧-٢٦٨ . (٤) مناهج الأدلة ص ١٨٩ .

(٥) انظر : نهاية الأقدام ٣٥٨ - ٣٦٠ وقارن ص ١٦١ غاية المرام .

(٦) انظر : نهاية الأقدام ٣٥٨ وما بعدها وقارن شرح الأصول الخمسة ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٧) نهاية الأقدام ص ٣٦٩ .

وهكذا ينتهى الفكر الأشعرى ، على يد قطبين من أقطابه هما الرازى والشهرستانى ، إلى الاعتراف بالعجز عن إثبات جواز الرؤية عقلا ، وعن إزالة التناقض الذى أشرت إليه فى أول هذا المبحث على نحو يرضى العقول ؛ ومما يؤكد ذلك أن الغزالى الذى لجأ إلى تأويل الرؤية على النحو الذى سنلتقى به عند الآمدى ، لم يفعل ذلك إلا بعد محاولات فاشلة لتصحيح الفكرة الأشعرية التقليدية : « كل موجود تصح رؤيته » ؛ وذلك عن طريق أفكار غير مقبولة كمثال المرأة الذى يرد به على المعتزلة فى اشتراطهم المقابلة بين الرأى والمرئى ، وكأنما يحس هو بضعفه فيقول : « وإياك إن تستحق هذا الإلزام » (١) .

وقد اعتبره ابن رشد من قبيل المغالطة « فإن المرئى هو الخيال لا الشخص ، وهو فى مقابلة الرأى فعلا » (٢) . ويحس الآمدى بما ينطوى عليه هذا المثال من مغالطة فيقول : « ومن الأصحاب من أورد فى دفع ذلك [أى اشتراط المقابلة والجهة] رؤية الإنسان نفسه فى المرأة ، لكن فيه نظر ، وهو مما لا يكاد يقوى » (٣) . على أن الغزالى لم يكن مبتكر هذا المثال ، فقد استند إليه الأشاعرة قبله بنحو قرن كامل ، إذ نجد القاضى عبد الجبار يعرض له فى المغنى وغيره من كتبه ، وينقده من زاوية غير التى عرض لها ابن رشد ، تنبنى على تفسيره للإدراك البصرى بأنه يتم بواسطة شعاع ينبعث من العين ويسقط على المرئى (٤) .

أما الآمدى فإنه يصر على إثبات جواز الرؤية بالعقل كأساس فى الاستدلال عنده ، ثم بالسمع كمؤيد له ومقنع لمن لا يقوى على استيعاب الدليل العقلى : « وعلى الجملة فلسنا نعتمد فى هذه المسألة [جواز الرؤية] على غير المسلك العقلى الذى أوضحناه ؛ إذ ما سواه لا يخرج عن الظواهر السمعية والاستبصارات العقلية ، وهى مما يتقاصر عن إفادة القطع واليقين ، فلا يذكر إلا على سبيل التقريب ، واستدراج قانع بها إلى الاعتقاد الحقيقى ، إذ رب شخص يكون انقياده إلى ظواهر الكتاب والسنة واتفاق الأمة أتم من انقياده إلى المسالك العقلية والطرق اليقينية ، لخشونة معركها وقصوره من مدركها » (٥) ، وتمسك الآمدى هنا بالدليل العقلى يدل على توسيعه لدائرة الدليل العقلى فى العقائد إلى أبعد مما

(١) الاقتصاد ٣٩ . (٢) المناهج ص ١٨٧ . (٣) غاية المرام ٦٧ ب .

(٤) انظر : شرح الاصول الخمسة ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، والمغنى ٤ / ٦٦ ، ٧٤ ، ١١٦ ، وانظر : نقد الرازى لهذا

المثال أيضا فى ص ١٣٩ من المحصل ، ٢١٣ من الأربعين . (٥) غاية المرام ل ٦٩ ب .

تصوره المعتزلة والمتأثرون بهم منهجيا ، فإن إثبات الرؤية أو نفيها ليس من المسائل التي يتوقف عليها صحة الوحي أو صدق الرسل ، ويمكن - بناء على هذا - أن يُستند فيها إلى الدليل السمعي دون دور أو تناقض كما صرح بهذا المعتزلة أنفسهم^(١) ، وبعض الأشاعرة كالجويني^(٢) ، أما هو فيرى أن السمع - حتى في هذه المسألة - قاصر عن إفادة اليقين ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فما الدليل العقلي الذي يختاره^(٣) .

يرى الآمدى أن الطريق السليم لبيان جواز الرؤية يتمثل في تفسير المقصود بالإدراك أو الرؤية في هذا المقام وذلك إحساس واضح منه بالصعوبة المشار إليها ، فإن الإدراك الحسى العادى في حياتنا هذه يثير كثيرا من الإشكالات التى تصعب الإجابة عنها أو تتعذر ، فإما أن نلتزم السمع ، وفى النفوس ما فيها ، وإما أن نوضح المقصود بالإدراك كى تزول هذه الإشكالات ، ويطمئن العقل بوسائله الخاصة إلى جواز الرؤية وإمكانها . ، وقد أثر الآمدى الطريق الثانى وبينه بقوله : « الإدراك عبارة عن كمال يحصل به مزيد كشف على ما يخيّل فى النفس من الشئ المعلوم من جهة التعقل بالبرهان أو الخبر »^(٣) .

ويوضح ذلك ويقربه بما نجد من التفرقة بين كون الشئ معلوما للنفس مع قطع النظر عن تعلق الحاسة الظاهرة به وبين كونه معلوما مع تعلق الحاسة به^(٤) . ثم يذكر أن الإدراك بهذا المعنى ليس إلا معنى يخلقه الله فى الحاسة المخصوصة ، بل إنه يستطيع - تعالى - خلقه فى أى عضو آخر ، لأن البنية الخاصة فى ذلك ليست بشرط لفعله تعالى حتى فى عالمنا هذا^(٥) . وإذا كان الأمر كذلك فما المانع من أن يخلق الله تعالى للمؤمنين به فى الآخرة زيادة كشف ومعرفة به - سبحانه - على ما حصل فى نفوسهم من معرفته بالبرهان والقطرة فى الحياة الدنيا^(٦) ١١٢

وينبغى أن نفطن هنا إلى أن الآمدى يتحدث عن لون من (الكشف) غير الذى نمارسه فى هذه الحياة بحواسنا العادية ، وإن كان كلاهما من خلقه تعالى طبقا للأصول الأشعرية ، ومادام الأمر كذلك فلا محل لاشتراط الظروف العادية للرؤية الحسية ، ولا

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٢٢٣ . (٢) انظر ما سبق فى الفصل الأخير من الباب الأول .

(٣) غاية المرام ل ١٦٧ . (٤) السابق

(٥) هذه فكرة أشعرية خالفها المعتزلة انظر : فى اشتراطهم البنية والرد عليهم : ترجيح أساليب القرآن لاهن

الوزير ص ١٧١ - ١٨٩ . (٦) غاية المرام ل ١٦٧ .

للحديث عن الموانع التي تحول دونها في هذه الحياة الدينا: «وبما حققناه يندفع مايهول به
الخصوم .. وهو قولهم إن الرؤية تستدعى المقابلة، والمقابلة تستدعى الجهة ، والجهة
توجب كونه جوهرًا أو عرضًا» (١) ؛ لأن «الإدراك ليس إلا نوعًا من العلوم يخلقه الله
تعالى في البصر ، وذلك لا يوجب في تعلقه بالمدرَك مقابلة ولا جهة أصلاً» (٢).

وبعد هذا البيان يستعين الآمدى بفكرة سبق لغيره من الأشاعرة استغلالها (٣) ،
ولكنها في هذا الإطار من الأفكار السابقة ذات مغزى خاص ، وهي أن من يعترف بكون
البارى رائيًا لنفسه لايسعه التمسك بالشروط العادية للرؤية ، لأن البارى تعالى بالاتفاق
ليس في جهة ولا هو في مقابلة نفسه ، أى أننا يمكن أن نتصور الرؤية الأخروية ، مع فريق
كبير من المعتزلة ، ضرباً من الرؤية دون مواجهة ، ولو أنها لا تقارن بصفة البصر الإلهية
إطلاقاً ، إلا أنها غير مشروطة بالشروط العادية للإدراك البصرى في حياتنا هذه (٤) .

غير أن الآمدى يربط هذا الكمال والإدراك بعضو البصر أو بالعين خاصة ، وهذا
لامانع منه بالنسبة لقدرة الله ، كما يؤكد ابن سينا فيما سبق ، كما أنه في الوقت ذاته مهم
بالنظر إلى النصوص الصحيحة التي صرحت برؤيته تعالى بالأبصار رؤية واضحة لا شك
فيها (٥) .

ويبدو أن هذا المفهوم قد أخذ يتسرب إلى الفكر الأشعرى قبل الآمدى ، إذ نجده عند
الرازى في بعض كتبه (٦) ، والغزالي في «الاقتصاد والاحياء» (٧) ، غير أن الرازى لم
يستثمره جيداً ولم يقتنع به فلجأ إلى السمع وحده ، كما أن الغزالي ، مع إفاضته في تفسير
الإدراك على هذا النحو ، يلجأ إلى الأدلة الأشعرية التقليدية ، ويحاول دعمها بما سبق ذكره
من مثال المرأة وغيره ، مما قد يوحي بعدم انقداح هذا المعنى عنده ، وإلا لما قارن بين الرؤية

(١) غاية المرام ل ٦٧ ب . (٢) نفس المصدر .

(٣) كالجوينى في الإرشاد ص ١٨١ ، والغزالي في الاقتصاد ص ٣٩ ، وانظر : رد المعتزلة على هذا الإلزام في المعنى
١٧٦/٤ إلى ١٧٩ ، وشرح الاصول الخمسة ٢٥٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، مما يدل على قدمه ، ونحن نجده فعلاً لدى

الأشعرى في الإبانة ص ١٩

(٤) انظر : غاية المرام ص ١٦٧ ، والأبكار ١/١٣٢ ب . (٥) انظر : ص ١٦٦ من غاية المرام .

(٦) انظر : الأربعين للرازى ١٩٠ ، ١٩١ والمحصل ١٣٧ والمعال ٥٩ ، ٦٠ .

(٧) انظر : الاقتصاد ٤٠ - ٤٢ ، والإحياء ٩٣/١ ومعارج القدس ص ١٣٥ - ١٤٠ .

العادية الحسية ورؤيتنا له - تعالى - فى الآخرة ، وقرر كغيره أنها إنما تتعلق بالوجود والذات فقط ، إلى غير ذلك من الأفكار، التى رفضها الآمدى كما سبق، وقرر أنها لا تقوى على محك النظر ويتعذر إثباتها جدا .

وبرغم هذا فإن الآمدى - ولاء منه لشيخه ومذهبه ، أو ترويجا منه لفكرته - يصر على نسبتها إلى أبى الحسن وإلى (أهل الحق) : « ومن عرف سر هذا الكلام عرف غور كلام أبى الحسن، فى قوله : إن الإدراك نوع مخصوص من العلوم ، لكنه لا يتعلق إلا بالموجودات . وإذا عرف ذلك فالعقل يجوز أن يخلق الله تعالى فى الحاسة المبصرة ، بل وفى غيرها ، زيادة كشف بذاته وبصفاته على ما حصل منه بالعلم القائم فى النفس ، من غير أن يوجب ذلك حدوثا ولا نقصا، وهذا هو الذى سماه أهل الحق إدراكا » (١) .

ولكن كلمات (السر) و (الغور) تكاد تشي بأن هذا تأويل لكلام أبى الحسن ، وليس مجرد نقل أو متابعة له (٢) . ومما يدل على اعتداد الآمدى بهذا التأويل ، ودوره فى اجتياز الصعوبة المشار إليها فى مطلع تناولنا لهذه المسألة، قوله : « ومن عرف ما نعى بالإدراك هان عليه الفرق ، وسهل لديه فهم معنى الرؤية ، واندفع عنه الإشكال وزال الخيال » (٣) . وهو يرى أن لا مبرر للخلاف حولها بعد هذا البيان « فالمنازعة - إذا - بعد تحقيق هذا المعنى وإيضاحه إما أن تستند إلى فساد فى المزاج ، أو إلى محض الجحد والعناد » (٤) . وهذا حكم قاس على نفاة الرؤية .

ويلجأ الآمدى لدعم الاستدلال العقلى على جواز الرؤية إلى الاستشهاد بأدلة النقل ، وينص على أنه إنما يسوقها للمؤمنين المصدقين بالوحى والرسالة ، ويفيض فى شرح الآية الكريمة ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ وغيرها مما يثبت جواز الرؤية بالنسبة لله تعالى (٥) . كما يستدل على وقوعها بالفعل بالنصوص أيضا ، وهو ما لا طريق له إلا السمع بعد ثبوت الجواز العقلى ، بإجماع المثبتين للرؤية من المتكلمين وغيرهم . ولا يكاد الآمدى يخرج فى تفسير هذه النصوص ، ورد تأويلات المعتزلة لها، عما نجده لدى أسلافه الأشاعرة (٦) .

(١) غاية المرام ٦٧ ب .

(٢) انظر : اللمع للأشعرى ٦١ - ٦٨ والإبانة ٢٠ - ٢٣ حيث نجد الأشعرى لم يتعرض لمثل ما ذكره الآمدى .

(٣) غاية المرام ص ١٧٠ (٤) غاية المرام ص ١٦٧ .

(٥) انظر : السابق ١٧١ ، والأبكار ١ / ١٣٤ ب إلى ١٣٦ ب .

(٦) انظر : غاية المرام ص ١٧١ - ١٧٨ ، والأبكار ل ١ / ١٣٦ - ١٤١ ب .

الفصل الثانى

(العالم)

تمهيد :

يبحث المتكلمون فى العالم باعتباره فعل الله وصنعه (١) أو باعتباره دليلاً عليه - تعالى - ولذا تباينت أنظارهم فيه تبعاً لاختلافهم حول الذات الإلهية ، صفاتها وأفعالها . مثلهم فى ذلك مثل الفلاسفة القدماء ؛ إذ تأثرت أبحاثهم فى الطبيعة بنظرياتهم الميتافيزيقية (٢) . ولعل الفصل بين المجالين لم يتم إلا فى الفلسفة الحديثة ، وبعد ظهور « العلم » بوسائله التجريبية ، ولذا فمن الواجب أن ننظر إلى هذه البحوث الكلامية فى الطبيعة أو العالم الآن كتراث عقلى له قيمته التاريخية والفكرية فحسب .

وستتناول فى هذا الفصل المباحث التالية :

- | | |
|-------|---------------------------|
| (١) | حدوث العالم وخلقته . |
| (٢) | طبيعة الأجسام وتغيراتها . |
| (٣) | الزمان والمكان . |
| (٤) | الحركة والسكون . |
| (٥) | العلية والعادة |
| (٦) | الحكمة والغاية . |

(١) انظر : الاقتصاد ص ٣ ، وغاية المرام لوحة ٢ ب ، ٧٩ ب وما بعدها ، ومناهج الأدلة ص ٢٠٣ وابن رشد

وفلسفته ص ١٦٦ ودراسات فى الفلسفة ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) انظر : شرح الطوسى على الإشارات ٣/ ٤٩٧ .

المبحث الأول

قدم العالم وحدوثه ، ومشكلة الخلق

أ- الخلاف حول المسألة :

اختلف المسلمون فى موضوع قدم العالم وحدوثه ، وفى علاقته بمبدعه وكيفية صدوره عنه ، ففريق قال بالحدوث والخلق عن طريق الإيجاد من العدم ، ويشمل جميع المتكلمين من أشاعرة وماتريدية ومعتزلة ، وعلماء السلف ، وبعض الفلاسفة والصوفية . وفريق آخر قال بقدم العالم ، وأن العلاقة بينه وبين الله هى علاقة المعلول بعلة ، أو المظهر بحقيقته ، ففسر الصدور بالفيض أو التجلى . ولعل أن الفريق الثانى كان متأثرا - بشكل أو بآخر - بفلسفات وأفكار من خارج البيئة الإسلامية^(١) .

والآمدى من رجال الفريق الأول الذين يصفهم هو بأنهم « أهل الحق من الإسلاميين وغيرهم من أهل الشرائع الماضين ، وجماعة من الحكماء المتقدمين »^(٢) . ويبدو من هذا النص أن الآمدى كان متأثرا بالفكرة التى شاعت بين المسلمين من أن الفلاسفة قبل أرسطو قائلون بحدوث العالم ، ومما يؤكد هذا قوله فى موضع آخر : « مذهب أهل الحق من المتشرعين أن كل موجود سوى الواجب بذاته فوجوده بعد العدم .. ووافقهم على ذلك جماعة الحكماء المتقدمين ، والأساطين السبعة من أهل ملطية وساميا وأثينية ، وإن كان لهم اختلاف فى المعلول الأول لواجب الوجود ، وكيفية صدور الكائنات عنه »^(٣) ، ونجد مثل هذا عند بعض من سبقوه أو جاءوا بعده^(٤) ، بل لقد نسب الفارابى إلى أرسطو القول بالحدوث^(٥) ؛ وزعم الشيرازى فى (الأسفار الأربعة) « أن القول بحدوث العالم مجمع عليه بين الأنبياء عليهم السلام والحكماء .. وأنهم متفقون على اعتقاد حدوث العالم بجميع جواهره وأعراضه ، وأفلاكه وأملاكه ، وبسائطه ومركباته »^(٦) ، وعند من هؤلاء الحكماء « أفلاطون وأرسطاطاليس »^(٧) .

(١) انظر : دراسات فى الفلسفة الإسلامية لاستاذنا د/ قاسم ص ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٤ وما بعدها ونشأة الفكر د/

النشار ٢٠٩/١ . (٢) غاية المرام لوحة ١٩٦ ، ب . (٣) الأبهكار ١٨٥/٢ .

(٤) انظر نهاية الأقدام ص ٥ ، ١٦٧ ، والتهافت ص ٨٦ ، ومنهاج السنة ١٠٠/١ ، والموافقة ٨٨/٢ - ٩٠ والأسفار الأربعة ٤٨٧ - ٤٩٥ .

(٥) انظر : الأصول الأفلاطونية - فيدون ص ٢٣١ ، ٢٤١ ، واللمعة للحلبى ص ٣٤ ، ونقد المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ص ٥-٣ . (٦) الأسفار الأربعة ٤٩٠ . (٧) السابق من ٤٩١ - ٤٩٥ .

والحق أنه لا أفلاطون ولا أرسطو ولا من سبقهما من فلاسفة اليونان عرفوا فكرة الخلق من العدم المحض ، بل العالم فى نظرهم - بمادته وصوره أو بمادته فى الأقل - قديم مساوق للإله فى وجوده، الذى يقتصر دوره على أن يكون هدفاً لحركة العالم وغاية لها، أو منظماً لمادة العالم مفيضاً للصور والأشكال عليها^(١).

أما أهل الشرائع الذين يذكروهم الآمدى فيبدو أنه يقصد بهم أهل الأديان السماوية كالنصرانية واليهودية ، وقد حكى عنهم ابن تيمية القول بحدوث العالم^(٢) ، ويرى بعض الباحثين^(٣) أن فكرة الخلق من العدم لا تنتمى إلى الكتب السماوية أو تعاليم الأديان الثلاثة ، بقدر ما تنتمى إلى اللاهوت اليهودى والمسيحى والإسلامى ، وقد سبق أن أشار ابن رشد^(٤) إلى أن ظواهر النصوص الدينية تدل على أن العالم خلق من مادة سابقة وفى زمان^(٥) ؛ وذلك لأنه ليس فى وسع الجمهور - وهم غالب من تتجه إليهم الرسائل - أن يدركوا الخلق الحقيقى ، أى من غير مادة ولا فى زمان ؛ إذ لا يعرفون لذلك مثلاً فى الشاهد . كما توجد هذه الفكرة عند الرازى أيضاً^(٦) ، بل إنها توجد عند بعض مفكرى السلف كابن تيمية^(٧) وابن أبى العز الحنفى^(٨) .

ثم يعرض الآمدى لمواقف المخالفين فى ذلك من القائلين بالقدم ، فيذكر منهم الفلاسفة ، وينص على المشائين والرواقيين^(٩) ، وقد علمنا أنه رأى أفلاطون وأرسطو وسائر فلاسفة الإغريق ، ثم يضيف الآمدى أنه قول « من تابعهم من فلاسفة الإسلاميين »^(١٠) ، ويعرض بعد ذلك فكرة الفارابى وابن سينا عن الحدوث الذاتى والقدم الزمانى^(١١) ، ويشرح فكرتهما « فى الصدور » فى موضع آخر من غاية المرام^(١٢) - : إن

(١) انظر : ابن رشد وفلسفته الدينية ١٦٦ ، ١٦٧ ، والأصول الأفلاطونية ص ٢٥٢ ، ونشأة الفكر ١/ ٤٧٢ ، ومذهب الذرة عند المسلمين ٣٥ وما بعدها . (٢) منهاج السنة ١/ ١٠٠ .

(٣) هو الدكتور حسام الدين آلوسى فى كتابه : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ٧ .

(٤) سبقه الى ذلك الفارابى ، انظر : اللعة ص ٢٤ . (٥) منهاج الادلة ٢٠٤ - ٢٠٧ .

(٦) انظر : فخر الدين الرازى وآرؤه ص ٣٦٨ - ٣٧٤ .

(٧) المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ٦٨ . (٨) انظر : شرح الطحاوية ص ٧٢ .

(٩) انظر : بشأن الرواقية فى هذه المسألة : الملل والنحل للشهرستانى ٣/ ٣٤ - ٣٧ ، والفلسفة الإغريقية ٢/ ١٢٦ - ١٦٥ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ٢٢٣ - ٢٢٩ ، والرواقية د/ عثمان أمين ١٥١ - ١٥٣ .

(١٠) غاية المرام ص ٢٤٦ . (١١) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ١٠ - ١٣ .

(١٢) انظر : غاية المرام ص ٢٠٨ .

المبدأ الأول واحد من كل وجه ، ولا يمكن أن يصدر عنه إلا واحد ، وإذا فالصادر الأول أو المبدع الأول هو عقل ، وعن هذا العقل الأول . . يصدر عقل ونفس وجرم الفلك الأقصى ، ثم تتدرج سلسلة الصدور حتى العقل العاشر المشرف على ما تحت فلك القمر ، وعن طريقه توجد العناصر والمركبات .

والآمدى ينسب فكرة الفيض إلى « المعلم الأول ومن تابعه من الحكماء المتقدمين ومن قفا أثره من فلاسفة الإسلاميين »^(١) ، ويبدو أنه وقع في اللبس الذي أصاب غيره من علماء العرب ، إذ نسبوا أفكار أفلوطين إلى أرسطو^(٢) ولذا نجده ينسب نفس هذه الأفكار في كتابه (الأبيكار) أيضا إلى « أرسطاطاليس ومن نصر مذهبه من اليونانيين وفلاسفة الإسلاميين كآبي نصر الفارابي ، وآبي عبد الله الحسين ابن سينا »^(٣) وهذان في الحقيقة هما أبرز رجال المدرسة الفلسفية الإسلامية المتأثرين بالفيض^(٤) ، وإن كان هناك غيرهم كثيرون خلطوا بين المشائية والأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة ، كالرازي الطيب^(٥) وإخوان الصفا في^(٦) المشرق ، وابن مسرة وابن باجه في المغرب^(٧) .

ولعل ابن رشد والكندى هما الفيلسوفان اللذان تنزها عن الفيض وخرجا على تفسير الخلق الإلهي بهذه الطريقة الأفلوطينية ، وقررا أن العالم خلق من العدم المحض وفي غير زمان ، وأن الله - تعالى - الذي خلقه على هذا النحو هو الذي يحفظ عليه دوامه وبقائه ، أى أنهما يقولان بالخلق المباشر والمستمر^(٨) . ولذا فإن الآمدى كان موفقا في تحديده للفارابي وابن سينا بدلا من رمى الفلاسفة بالقول بقديم العالم دون تفصيل .

(١) غاية المرام ل ٧٩ ب .

(٢) انظر : المراجع الخاصة بهذا اللبس وآثاره عند المسلمين بهامش ص ٢٠٨ من غاية المرام النسخة المطبوعة .

(٣) الأبيكار ٢ / ١٨٥ ، وانظر : أيضا محاضرات في الفلسفة الإسلامية د / هويدى ص ٦١ وما بعدها .

(٤) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ٨٥ - ٩١ .

(٥) انظر : تاريخ الفلسفة الإسلامية لديبور ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، محاضرات في الفلسفة الإسلامية ص ٦٨ ، ومذهب الدرة عند المسلمين ص ٣٥ وما بعدها . (٦) انظر : المراجع السابقة .

(٧) انظر : محاضرات في الفلسفة الإسلامية / هويدى ص ٧٦ ، وتاريخ فلسفة الإسلام له أيضا ٢٥٣ / ١ و ٢٥٧ وما بعدها .

(٨) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ١١٨ - ١٢٣ وابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٦٦ - ١٦٧ ومناهج الأدلة ١٩٣ - ٢٠٧ ، والكندى وفلسفته ص ٦٢ - ٧٥ ، وكتاب الكندى إلى المعتصم بالله ص ٨٥ وما بعدها .

ولكن هل كان الفلاسفة هم وحدهم الذين مالوا إلى القول بقدوم العالم في البيئة الإسلامية ؟ نستطيع القول بأن الاتجاه السائد والغالب على الفكر الإسلامى هو القول بالحدوث ، ولكن فكرة القدم قد تسربت إليه بنحو أو بآخر ، أو فى الأقل حامت كشبهة ، حول بعض الفرق أو الأفراد ، كالشيعة ، والصوفية ، والمعتزلة ، وبعض السلفيين كابن تيمية . وسأتحدث عن حقيقة موقف هؤلاء نظرا لتعرض الآمدى لموقفهم من مسألة القدم والحدوث ، أو لارتباط هذا الموقف بآراء الآمدى نفسه دون قصد منه إلى ذلك .

أولا - الشيعة :

لم يعرف عن الإمامية القول بقدوم العالم وينتصر علماءهم لفكرة الحدوث^(١) ، بينما صرح الزيدية بالخلق من العدم^(٢) . ولكن الإسماعيلية تأثروا بفكرة الفيض والقدم ، وقالوا - كما يحكى الآمدى - بالمبدأ الأول ، ثم العقل أو المبدع الأول ، ثم النفس التى عن حركتها صدرت البسائط ، وتوسط العناصر البسيطة كانت المركبات المختلفة ، ومنها الإنسان أشرفها جميعا^(٣) . وهو ما يتفق مع نصوص الإسماعيليين أنفسهم^(٤) .

ثانيا - الصوفية :

لم يعرض الآمدى لموقف الصوفية ، غير أن لهذا الموقف صلة بآرائه ولذا سنعرض له : يقول أكثر الصوفية بالحدوث والخلق من العدم ، وقد صرح بذلك الإمام الغزالى ، والسراج الطوسى ، والقشيرى^(٥) ، وروى ذلك عن الجنيد وغيره من الشيوخ^(٦) . ولكن بعض الصوفية مالوا إلى فكرة القدم واعتبروها مذهبهم ؛ يقول عبد الرحمن الجامى : « وأما الصوفية .. فجوزوا استناد الاثر القديم إلى الفاعل المختار ، وجمعوا بين

(١) انظر : الاسفار الأربعة للشيرازى ص ٤٩٠ وما بعدها ، ومعالم الفلسفة الإسلامية ص ٦٦ وما بعدها ، وعقائد الإمامية ص ١٨ .

(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٩ . (٣) الأبهكار ٢/ ٢٥٠ ب .

(٤) انظر : الرياض للكرمانى ص ١٤ - ٣٥ ، ١٠١ وما بعدها ، وتاريخ فلسفة الإسلام د/ هويدى ١/ ١١٦ - ١٢٤ .

(٥) انظر : اللمع للطوسى ٣٢ ، ٤٩ ، والرسالة للقشيرى ٣-٥ ، والإحياء للغزالى ١/ ٧٠ وما بعدها .

(٦) الرسالة للقشيرى ٣-٥ .

إثبات الاختيار والقول بوجوب الأثر القديم ، فإنهم قالوا : أفاد الكشف الصريح أن الشيء إذا اقتضى أمراً لذاته . . فلا يزال على ذلك الأمر ويدوم له مادامت ذاته ، كالقلم الأعلى فإنه أول مخلوق حيث لا واسطة بينه وبين خالقه يدوم بدوامه ، وكأنهم تمسكوا في ذلك بما ذكره الآمدى ؛ من أن سبق الإيجاد قصداً على وجود المعلول كسبق الإيجاد إيجاباً . . بأن يكون الإيجاد القصدي مع وجود المقصود زماناً ، ومتقدماً عليه بالذات « (١) » . ولعله يشير بذلك إلى قول الآمدى : « وليس يلزم من كونه متعلق الإرادة ومقتضى القدرة أن يكون حادثاً ، كما لا يلزم أن يكون قديماً ، بل القدم والحادث إنما يعرض لما هو متعلق الإرادة والقدرة بأمر خارج » (٢) .

ولا أدري مدى تأثير فكرة الآمدى هذه فيما انتهى إليه رأى هؤلاء الصوفية ، وإن كانت فكرته بعيدة كل البعد - فيما يبدو لى - عن التمهيد لقدم العالم ، على النحو الذى تأولوها عليه ، كما يفهم من كلام الجامى . وربما لزم توضيح ذلك ببيان مكان هذه الفكرة فى سياق تفكير الآمدى .

يناقش الآمدى استدلال بعض المتكلمين على حدوث العالم بمجرد كونه أثراً للفاعل المختار ، ويرى هو أن هذا الاستدلال غير حاسم ؛ فقد زعم مفكرون آخرون أن الله - تعالى - أبداع العالم ، ومع ذلك فهو قديم مساوق لله فى الوجود (٣) . يقول الآمدى : إن المفعول الحادث يجب أن يكون فاعله قادراً مختاراً ليخصصه بوقت وجوده ، ولكن لا يلزم أن يكون مفعول القادر المرید حادثاً بالضرورة ؛ لأنه ليس يلزم من ضرورة كونه مفعولاً أن يكون حادثاً (٤) ، كما يرى ابن تيمية - مثلاً - الذى يعتبر أن قضية حدوث كل مخلوق مصنوع بديهية مستغنية عن البرهان (٥) ، وإن كان - رغم هذا - يتهم الآمدى بأنه متأثر بابن سينا فى هذه الفكرة التى خالف بها أسلافه وسائر العقلاء فى نظره (٦) .

وأرى أن فكرة الآمدى مقبولة ، وهى تدل على إنصافه ، وهى ليست تنتسب لابن

(١) الدرة الفاخرة ص ٢٧٦ - ٢٧٧ . (٢) غاية المرام ١٠٢ ب .

(٣) انظر : الإشارات ٤٢٥/٣ وما بعدها ، وحوار بين الفلاسفة والمتكلمين ٦١-٦٣ .

(٤) انظر : غاية المرام ص ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، والمآخذ ٧٨ ب .

(٥) انظر : منهاج السنة ١/١٠٠ . (٦) تهميد النصيحة ٢٥٠ ، ٢٥١ .

سينا ، ولا للفارابي فقط^(١) ؛ فقد قال ابن رشد في المناهج : « وأما المقدمة القائلة بأن الإرادة لا يكون عنها إلا مراد محدث ، فذلك شيء غير بين »^(٢) . ويفيض في نقدها متمسكا بأن القول بالإرادة القديمة مع حدوث المرادات أمر يصعب تصوره ، ولم يصرح به الشرع ، والأظهر من ذلك أن الإرادة الفعلية لابد أن تقارن المراد^(٣) . وقد عارض الطوسي الإمام الرازي في زعمه اتفاق المتكلمين والفلاسفة على عدم صدور الأزلي عن الفاعل المختار ، وقال في ذلك : « إن المتكلمين بأسرهم صدروا كتبهم بالاستدلال على وجوب كون العالم محدثا ، وأن محدثه يجب أن يكون مختارا ، لأنه لو كان موجبا لكان العالم قديما ، وهو باطل بما ذكره أولا . فظهر أنهم ما بنوا حدوث العالم على القول بالاختيار ، بل بنوا الاختيار على الحدوث وأما الفلاسفة فلم يذهبوا إلى أن الأزلي يستحيل أن يكون فعلا لفاعل مختار »^(٤) .

فمن الواضح أن فكرة الآمدى ليست غريبة في الوسط الكلامي أو الفلسفي ، وكل ما يريده الرجل ألا يتمسك في إثبات الحدوث بمجرد كون العالم مفعولا لله القادر المختار ، بل لابد من البرهنة على ذلك ، كما فعل هو عن طريق إثبات التناهي وإبطال التسلسل أو بأى طريق آخر ، فإذا ثبت الحدوث فيمكن أن يرتب على ذلك وجوب كون المحدث مختارا ، لأنه لو كان موجبا للزم قدم مفعولاته .

أما ما يذكره عبد الرحمن الجامي من اعتماد أصحابه - أو احتمال حدوث ذلك - على فكرة الآمدى هذه ، فهو ما نعتقد أنه لم يخطر له على بال ، إن الآمدى لا يضع نظرية في قدم العالم ، ولا يريد أن يثبت صدور القديم عن الفاعل المختار ، بل هو يريد أن يقول إن فكرة قدم العالم مع كونه صادرا عن الله بالاختيار لا يبدو بطلانها بديها ، ولابد من إقامة الدليل على هذا البطلان ، وهذا أمر يبدو مقبولا ومبررا مادام كثير من العقلاء يقولون بالمقارنة بين العلة ومعلولها .

وإذا كان الآمدى يختتم الفصل الخاص بإبطال القدم بقوله : « فإذا القول بإبطال لزوم القدم إنما يلزم أن لو جاز صدور العالم مما صدر عنه بجهة القدرة والإرادة ، ولا يخفى

(١) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ٦١-٦٣ . (٢) مناهج الأدلة ص ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق . (٤) انظر : شرح الطوسي على الإشارات ٣/ ٤٩٧ .

جواز ذلك؛ لضرورة كون البارئ قادراً مريداً كما أسلفناه^(١). فهذا لا يعارض الفكرة التي نتحدث عنها، إذ معناه أن القدم إنما يكون لازماً وضرورياً فيما لو قلنا بأنه تعالى فاعل بالإيجاب؛ بناء على أن المعلول لا يمكن أن يتأخر عن علته الكاملة. ولكن مادامنا نقول بأنه فاعل بالقدرة والاختيار، فقدم مفعولاته وحدوثها هما في مقام الجواز، ولا يصح ادعاء أحدهما إلا بدليل يبين ذلك.

وأياً ما كان الأمر فقد ذهب بعض الصوفية إلى قدم العالم. ومن هؤلاء الإشراقيون الذين تأثروا بالأفلاطونية المحدثة إلى حد كبير، وفسروا الإبداع أو الصدور بقريب من رأيها في الفيض^(٢). ومنهم أصحاب وحدة الوجود الذين قالوا بالتجلى، وهو تمثل الإله في أشخاص العالم وتعيينه في المظاهر الوجودية، فالوجود حقيقة واحدة لها جانبان باطن وظاهر، فباطنه الحضرة الأحدية، وظاهره الموجودات المتكثرة التي هي تعيينات وتجليات لها، والعارف هو من شهد هذه الوحدة وتحقق بها^(٣). إن الشبه قوى بين الفيض الأفلوطيني^(٤) وبين صدور الأنوار عن نور الأنوار عند الإشراقيين^(٥)، والانبعاث عند الإسماعيلية^(٦)، والتجليات عند أصحاب وحدة الوجود^(٧).

تلك هي الطوائف الثلاث التي تسرب إليها، أو بالأحرى إلى بعضها، القول بقدم العالم: الفلاسفة والصوفية والشيعة، وبيان مدى صلة الآمدي بمقاتلهم هذه أوراها فيها. ويبقى بعد هذا أن المتكلمين جميعاً، من أشاعرة ومعتزلة وما تريدية وسلفيين، قائلون بفكرة الحدوث والخلق من العدم. ولا يؤثر على هذه الحقيقة ما نسب إلى المعتزلة وابن تيمية من الميل إلى قدم العالم، فسنبوضه الآن، ونبين علاقة الآمدي به بإذن الله.

(١) غاية المرام لـ ١١٠ - ب.

(٢) انظر: أصول الفلسفة الإشراقية د/ أبو ريان ص ١١ وما بعدها، والتصوف المقارن د/ غلاب ١١ - ١١٤، والحركة الفكرية ١١٣.

(٣) انظر: الفصوص ١/ ١١١، ١٣٢ - ١٣٤ والدرة الفاخرة ٢٧٩ وما بعدها.

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٢٩٢ وما بعدها.

(٥) انظر: أصول الفلسفة الإشراقية ص ١٠٠ وما بعدها.

(٦) انظر: كتاب الرياض للكرماني ص ١٠١ - ١١٠، ونشأة الفكر ٢/ ٥١٧ - ٥٢١.

(٧) انظر: موقف ابن عربي من العقل والمعرفة الصوفية - بحث لـ استاذنا الدكتور قاسم ألقى بجامعة أم درمان الإسلامية / ١٩٦٩ ص ١٥، ١٦، ودراسات في الفلسفة الإسلامية له أيضاً ص ٩٧ - ١٤٤.

ثالثا - المعتزلة :

أما المعتزلة فقائلون بحدوث العالم ، ولكن قولهم بشيئية المعدوم وكونه ذاتا وحقيقة فى حالة العدم ، جعل البعض يرميهم بالقول بقدّم العالم . ومن وجه إليهم هذه التهمة الإسفرايينى الأشعرى؛ إذ اعتبره «تصريحا بقدّم العالم» (١) . وقال البغدادي إنه يلزمهم ذلك ، وحكى عن الجبائى أنه اتهم الخياط - وكلاهما من شيوخ المعتزلة - بأن زعمه أن المعدوم يوصف فى عدمه بالجسمية يفضى إلى القول بقدّم الأجسام (٢) ، كما وصف ابن سبعين قولهم بالمعدوم بأنه «خروج عن الملة، وقول بقدّم العالم» (٣) . كما وجه هذه التهمة إلى المعتزلة أستاذنا الدكتور يحيى هويدى (٤) .

ولكننا نجد علماء آخرين ، فى القديم والحديث يدفعون عن المعتزلة تهمة القول بقدّم العالم ، وإن كانوا يرون فى هذه النظرية خطراً على فكرة الحدوث ، وضرباً من التقليد للقائلين بالقدم من الفلاسفة، أو عجزاً عن التحرر التام من الشبه التى دفعت بعض الأوائل إلى القول بقدّم العالم . ومن هؤلاء فى القديم الشهرستاني (٥) ، وابن رشد (٦) . وفى الحديث أستاذنا الدكتور محمود قاسم الذى قال عند بيان موقف المتكلمين من الحدوث : «فقال المعتزلة : إن الله يخلق العالم من العدم ، لكنهم انتهبوا كما قلنا إلى أن وصفوا العدم بأنه ذات ، ويمكن القول على نحو ما بأنهم لم يتخلصوا من تأثير أرسطو وأفلاطون» (٧) ، وكان قد أخذ عليهم فى موضع آخر أنهم «يغفلون عما يؤدى إليه هذا الرأى من القول بوجود مادة قديمة مع الخالق» (٨) .

ومن الإنصاف أن نقرر أن المعتزلة لم يقصدوا إلى القول بقدّم العالم ، ولا يمكن لهم أن يقبلوا ذلك ، وهم القائلون بأن أخص وصف الألوهية هو القدم ، وأن الذوات إذا اشتركت فى أخص الوصف اشتركت فى سائر الصفات كما سبق بيانه (٩) ، فلو قالوا

(١) انظر : نشأة الفكر ١/ ٤٦٩ ، وقد صرح الإسفرائينى بذلك فى كتابه التبصير فى الدين ص ٦٠ .

(٢) انظر : الفرق بين الفرق ١٦٥ . (٣) رسائل ابن سبعين ص ٨ .

(٤) انظر : محاضرات فى الفلسفة الإسلامية ٢٢-٣٠ . (٥) نهاية الأقدام ١٥٣، ١٥٩ .

(٦) انظر : مناهج الأدلة ١٣٩ . (٧) انظر : ابن رشد وفلسفته ص ١٦٧ .

(٨) نفس المصدر ١٩٣ ، وانظر : أيضا نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ١٠٩ .

(٩) انظر : الأبيكار ٢/ ١٨٣ ، ب وما سبق فى الأحكام العامة للصفات الإلهية، ص ٢٨١ .

بقدم العالم فى أى صورة لانتقض أصل المذهب وروحه ، وهو التوحيد وإفراد الله سبحانه بالقدم . فإذا أضفنا إلى هذا أن القوم يؤكدون حدوث العالم بكل ما فيه (١) ، بل يصرح القاضي عبد الجبار ببطالان القول بالهيولى ؛ «لأننا قد بينا أن الأجسام محدثة وأن القول بالهيولى ساقط ، وبيننا أن الأجسام إذا كانت محدثة فيجب جواز العدم عليها» (٢) ، وأن شيوخهم قد ألفوا فى الرد على أرسطو وغيره فى قوله بقدم العالم (٣) ، إذا لاحظنا ذلك كله علمنا براءتهم من القول بقدم العالم أو الرضا به . وإن المرء ليسعد حقاً إذ يجد أن أحد أعداء المتكلمين والمعتزلة خاصة ، وهو ابن تيمية ، يدفع عنهم تهمة القول بالقدم كما سيأتى (٤) . وينهج الأستاذ الدكتور النشار ، وموقفه النقدى من المعتزلة معروف ، نفس المنهج (٥) ، وتلك هى روح الإنصاف والنزاهة .

ولكن ما الدواعى التى أدت إلى ظهور مثل هذه الفكرة فى الوسط الاعتزالى خاصة ، مع تناقضها وصعوبة انسجامها مع «التوحيد» الذى هو شعار المذهب ؟ يرى أستاذنا الدكتور النشار أنه التقعر فى تفسير العدم ، أى مجرد إرضاء الطموح والرغبة العقلية فى خوض مسائل من (دقيق الكلام) ، دفعتهم إلى محاولة تصور الأشياء قبل أن تتصف بالوجود ، وتحقق فى عالم الواقع ، معتمدين على منهجهم العقلى القاصر الذى ينظر إلى المسائل من زاوية واحدة (٦) . ويبدو أن المسألة إلى جانب كونها تقعرًا عقلياً أو فضولاً فلسفياً لم يستكمل أدواته ، ترجع أيضاً إلى بذور عقلية ، توجد فى المدرسة الاعتزالية ، منها فكرة الإمكان الكلامية ، وفكرة التفرقة بين الماهية والوجود ، فالأشياء الممكنة لها ذوات أو مهاييا فى حال العدم — ولو أنها لدى المعتزلة مخلوقة أيضاً كما يحكى ابن تيمية (٧) — يفيض عليها الوجود الفعلى بخلق الله تعالى أيضاً ، وهذه المهاييا فى حالة العدم تتصف بالإمكان ، إن جاز هذا التعبير ، حتى تتعلق بها إرادة الله لتوجدتها ، فتبرز إلى الوجود الفعلى .

(١) انظر : المغنى لعبد الجبار (وهو أحد القائلين بالمعدوم) ، ١٥٣/٥ ، ١٥٤ .

(٢) المغنى ١٥٣/٥ ، وانظر : شرح الأصول الخمسة ١١١ .

(٣) انظر : نشأة الفكر ١/٤٧١ ، ٤٧٢ ، والموافقة ٢/٢٦٠ .

(٤) فى الصفحة التالية ، وانظر : الموافقة ٢/٢٦٠ . (٥) انظر : نشأة الفكر ١/٣٦٥ ، ٤٦٩ - ٤٧٢ .

(٦) نشأة الفكر ١/٤٦٩ وما بعدها . (٧) انظر الفرقان ص ١٠١ ، ١٠٢ .

ولقد كانت هذه هي الفكرة التي تسربت إلى ابن سينا - كما يلاحظ أستاذنا الدكتور قاسم^(١) - وانتهت به إلى تصور خاطئ للخلق الإلهي؛ «كان الله - سبحانه - يفكر على غرار الإنسان، فيخلق الماهية أولاً ثم يضيف إليها الوجود بعد ذلك»^(٢)، كما أنها جعلته يفشل في اجتياز الصعوبة التي واجهت مفكرى الإغريق من قبل، وهى : كيف تنشأ الأشياء من العدم المحض؟ فاضطروا إلى القول بقديم المادة الأولى، وقال هو بقديم الإمكان، الذى هو عنده ليس عدماً محضاً^(٣)، وقالت المعتزلة بالمعدوم. وكل هذا يلتقى - كما يلاحظ ابن رشد - على فكرة أن الخلق يتعلق بذات متوسطة بين العدم والوجود^(٤).

والحق أن فكرة المعدوم ليست، فى نظر المعتزلة، كما يقول أستاذنا الدكتور قاسم، فكرة مجردة من كل مضمون، لقد تطور بهم الأمر إلى وصف المعدوم بالجسمية، وقد لاحظ الآمدى هذا أيضاً؛ حيث يقول بعد عرض شبهة بعض الفلاسفة فى قدم العالم؛ بسبب سبق إمكانه على وجوده: «وهذه الشبهة فى إثبات المادة هى ما أوجبت للجمهور من المعتزلة اعتقاد كون المعدوم شيئاً، وذاتاً معينة، من غير أن يصفوه بالوجود، لكن منهم من أثبت له خصائص الوجود بأسرها»^(٥). وهناك من لاحظ العلاقة بين فكرة التفرقة بين الماهية والوجود، التى يقول بها جمهور المعتزلة^(٦)، وبين فكرة المعدوم التى ذهب إليها كثير من مشايخهم؛ يقول ابن الوزير اليماني: «وأما من قال: وجود الذات زائد عليها ومنفك عنها فزعم أن الحقائق متفرقة مع انتفاء الوجود عنها، وهم جمع من المشايخ كابى يعقوب الشحام، وأبى هاشم، وأبى الحسين الخياط، وأبى القاسم البلخى، وأبى عبد الله البصرى، وقاضى القضاة، وأبى رشيد، وابن متويه وأتباعهم»^(٧).

(١) انظر: ابن رشد وفلسفته ص ٩٢، ٩٣ ونظرية المعرفة ص ١١١ - ١١٤، وقد لاحظ ابن تيمية نفس هذه الملاحظة بالنسبة لابن عربى، انظر الفرقان ص ١٠١، ١٠٢.

(٢) انظر: ابن رشد وفلسفته ص ٩٣، ٩٤.

(٣) انظر: النجاة ص ٢٣، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٣٩ ورسالة الحدود ضمن سبع رسائل ص ٩٤.

(٤) انظر مناهج الأدلة ص ١٣٩، وانظر ص ١٦٧، ١٦٨ من ابن رشد وفلسفته.

(٥) غاية المرام ل ١٠٤ ب.

(٦) انظر: الأبهكار ل ١٥٣/١.

(٧) ترجيح أساليب القرآن ص ١٠٠.

وقد حاول بعض الباحثين الغربيين رد فكرة المعتزلة عن المعدوم إلى مصادر هندية، بالإضافة إلى الفكرة الأفلاطونية عن الهيولى، التى قال بها أو بقريب منها آخرون غير أفلاطون من مفكرى الأغريق^(١). وحقيقة المسألة أن كل هذه محاولات مختلفة متباينة الدوافع والأهداف لاجتياز المعضلة: كيف يمكن الانتقال من الوحدة إلى الكثرة؟ وهل من سبيل إلى ملء هذه الفجوة الرهيبة بين الإله فى وحدته الأزلية والعالم فى تزمه وتكثره؟ ومن ثم كان التشابه بين هذه الحلول كما يلاحظ ابن رشد. وربما كان الحل الأمثل لهذه المشكلة، من الناحيتين الفلسفية والدينية، هو التفرقة بين الفعل الإلهى - أى الخلق - وبين الأفعال الإنسانية أو أفعال المخلوقين، فهذه لا تتم إلا عن مادة وفى مدة وبآلة، أما الفعل الإلهى ففعل واحد مطلق من هذه القيود جميعاً؛ إذ هو بدء مطلق، ليس قبله زمان ولا مادة، وهو مباشر لا يحتاج إلى الاستعانة بواسطة، وهو فى الوقت نفسه مستمر متجدد سار فى جميع الكائنات، ليعطيها وجودها ويحفظه لها. وقد تنبه ابن رشد إلى هذا الحل، وأوضحه إلى حد كبير^(٢). ونحن نجده أو قريباً منه لدى شيوخ الأشاعرة ولدى الآمدى أيضاً.

والآمدى يتعرض فى (غاية المرام) لمسألة المعدوم ويناقشها، ويرفض رد الشهرستانى على المعتزلة لضعفه وعدم اتفاقه مع مبادئ المنطق، وخاصة مبدأ التقابل التام أو التناقض^(٣). كما يشير إلى رد آخر للرازى لا يرتضيه^(٤)، ثم يستدل الآمدى على تناقض الفكرة وما تؤول إليه من عدم التفرقة بين الوجود والعدم وهو محال^(٥)، وما توهموه من أن تعلق العلم بها يستلزم وجودها وهو خلط بين الوجود الخارجى والوجود الذهنى؛ فليس كل فكرة قامت بالذهن يجب أن يكون لها تحقق فى الخارج^(٦). ثم يبدى حكمه على المعتزلة فى اتجاههم إلى هذا رأى، وهو حكم معتدل، فيقول: إنهم يقولون بحدوث العالم، ولكنهم قلدوا الفلاسفة ونهجوا مناهجهم فانتهوا إلى ما يشبه القول «بالهيولى» غافلين عن تعارض ذلك مع فكرتهم عن الحدوث والخلق: «ومثار

(١) انظر: مذهب الدرة عند المسلمين ١١٤-١١٦.

(٢) انظر نظرية المعرفة ١١٨-١٢٣ ومقدمة المناهج ٢٢، ٢٣.

(٣) انظر: غاية المرام ل١٠٧ب - ١١٠ب.

(٤) انظر السابق، ونهاية الإقدام ٢٥١، ٢٥٢، والمنطق الصورى ص ٣١٢ وما بعدها.

(٥) انظر: غاية المرام ص ٢٧٤-٢٨٢، وقارن بالمحصل ص ٣٤، ٣٥. (٦) انظر: السابق.

الجهل .. إنما هو من تطفلهم سلوك مسلك الهيولانيين، ونسجهم على منوال الفلاسفة الإلهيين، وظنهم أن ذلك من اليقينيّات ، وأنه لا منافرة بينه وبين القول بحدوث الكائنات (١) .

ثم يقرر الآمدى ، فى إنصاف ، أن بعض المعتزلة أحس بخطورة هذه الفكرة فقال : بأننا نسمى المعدوم شيئا من حيث هو معلوم فقط ، والشيئية تسمية لفظية بحتة ، كما سمى القرآن بعض الأمور التى لم تقع بعد أشياء : ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ (٢) . والآمدى بهذا يشير إلى الكعبى من المعتزلة (٣) ، وآخرين ممن لم يأخذوا بالترقة بين الماهية والوجود كآبى الحسين البصرى وغيره (٤) . ورغم أنه يرى أن ذلك رجوع تام عن فكرة المعدوم الاعتزالية ، فهو يناقش هذه التسمية اللفظية ، ويرفض تفسيرهم للآية القرآنية المشار إليها وأمثالها بمثل ما ذكروه (٥) . وعلى كل فيجب أن يلقي عدول هؤلاء الرجال عن فكرة المعدوم الخاطئة ترحيبا وتقديرا لنزاهتهم وإنصافهم ، فقد سبق للأشعرى نفسه أن دان بهذه الفكرة ، بل ألف فى نصرتها ، ثم عدل عن ذلك كما يحكى عنه ابن عساكر : « والفنا كتابا فى باب شىء ، وأن الأشياء هى أشياء وإن عدمت ، رجعنا عنه ونقضناه . فمن وقع إليه فلا يعولن عليه » (٦) .

غير أن الآمدى ، وإن كان لا يتهمهم بالقول بقدم العالم ، يأخذ عليهم – فيما يتعلق بمسألة الخلق – قولهم بأن الإنسان خالق لأفعال نفسه ، ويرى أن ذلك يعارض رأى الحق ؛ وهو إسناد كل الممكنات والحادثات إلى الله تعالى مباشرة بلا واسطة .

رابعا : ابن تيمية :

أما ابن تيمية فقد رفض انتقادات الآمدى والرازى لأدلة بطلان التسلسل كما سبق بيانه (٨) ، وضعف أدلتهم وأدلة غيرهما من المتكلمين على حدوث العالم . ولذا فهم البعض موقفه هذا على أنه ذهب منه إلى قدم العالم ، وقد وجه هذه التهمة إلى ابن

(١) انظر ص ٢٤٨ وما بعدها من غاية المرام ، وانظر هذه الفكرة أيضا فى ابن رشد وفلسفته الدينية ص ٩٣ ، والفرقان لابن تيمية ص ١٠١ ، ١٠٢ . (٢) غاية المرام ل ١١٠ ب .

(٣) الحج : ١ . (٤) انظر الفرق بين الفرق ص ١٦٢ . (٥) انظر ص ٩٩ ، ١٠٠ من ترجيح أساليب القرآن .

(٦) انظر غاية المرام ص ٢٨٥ ، ١٨٦ . (٧) تبين كذب المفترى ص ١٣٣ .

(٨) انظر ما سبق فى أدلة وجود الله ، والموافقة ٢٠١/١ ، ١٨٥/٢ وما بعدها .

تيمية أبو بكر الحصني^(١)، كما نسب إليه جلال الدين الدواني في شرحه على العقائد العضدية أنه يقول عن العرش إنه قديم بالجنس حادث بالشخص، ووافقه على ذلك الشيخ محمد عبده وشرحه بقوله : « إن الله لا يزال يعدم عرشا ويحدث آخر من الأزل إلى الأبد حتى يكون الاستواء أزلا وأبدا^(٢) ». وقد عقب عليهما الشيخ الهراس في كتابه عن (ابن تيمية السلفي) بأن « مذهب ابن تيمية أن جميع حوادث العالم عنده قديمة الجنس حادثة الشخص ، لا فرق بين العرش وغيره^(٣) » .

وأعتقد أن هذا غير صحيح ، إن ابن تيمية يجوز قيام الحوادث بذاته تعالى كما سبق ذكره ، ويرى مع هذا أنه يمكن تصور ، بل حصول ، حوادث لا أول لها في ذاته تعالى ، ولذا فهو يزيّف كل أدلة إبطال التسلسل في الحوادث لدى الفلاسفة المتكلمين . أما المخلوقات التي تشمل كل موجود سوى الله وصفاته فهي مخلوقه لله تعالى ، ومسبوقه بعدمها ، ووجوده تعالى سابق على وجودها ، وما قالته الفلاسفة من المقارنة بين وجودها ووجوده باطل لا يقبله العقل ، كما صرح بذلك في الموافقة وغيرها من كتبه^(٤) .

وكل ما يريد الرجل تأكيده هو إثبات أن الخلق دائم ومستمر ، ولكن كل موجود ومخلوق فهو مسبوق بالعدم وموجود بقدرة الله وإرادته ، وليس مقارنا لخالقه في الوجود . وهذه حقيقة يرى أنها فطرية لا تكاد تحتاج إلى برهنة^(٥) ، فضلا عن اتفاق أكثر الخلق عليها « إن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون بأن كل ما سوى الله مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم^(٦) » .

ونحن نجد التصريح بحدوث العالم عند ابن حزم الظاهري^(٧) ، وابن كثير المفسر والمحدث^(٨) وابن أبي العز الحنفى^(٩) ، الذين يؤكدون أن هذا هو الموقف السلفي من تلك المسألة .

(١) دفع شبه من شبه ٦٠ ، ٦١ . (٢) شرح العقائد العضدية ١٧٦ .
 (٣) ابن تيمية السلفي ١٧٧ . (٤) الموافقة ٢/ ٢٤٩ و ٢٥٠ ، ومنهاج السنة ١/ ١٠٥ .
 (٥) منهاج السنة ١/ ١٠٢ وما مر في ص ٣٧٩ .
 (٦) السابق ١/ ١٠٢ ، وانظر أيضا نقد المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ص ٤٢ وما بعدها .
 (٧) انظر : الفصل ١/ ١٤ - ١٨ . (٨) انظر : تفسير ابن كثير ١/ ٥٧ .
 (٩) انظر : شرح الطحاوية ٦٧ ، ٦٨ .

ب- إبطال القدم :

يناقش الآمدى أولاً أدلة القائلين بقدم العالم من الفلاسفة ، أو من أهل الملل السابقة كالثنوية ، وكالمنجمين القائلين بأن الأفلاك هي الآلهة الفاعلة لهذا العالم ، والمديرة له^(١) . وهو يميز في الفلاسفة بين المعترفين منهم بالالوهية القائلين مع ذلك بقدم العالم ، وبين هؤلاء الذين لا يعترفون بقوة فاعلة من خارج الأشياء ممن يسميهم بالفلاسفة الطبيعيين ، مخالفًا بذلك تسمية الغزالي في (المنقذ)^(٢) ، وسيتبين موقفه من الفريقين فيما يلي :

١- يرى الآمدى أن حجة الفريق الأول -التي حملت أصحابه على الذهاب إلى القدم، وتفسير صدور العالم عن الله بطريق الفيض المتدرج - تركز على أصل واحد ؛ وهو منع صدور الكثرة عن الواحد ، ولذا يتوجه إلى إبطاله من نواحي عدة :

أولاً - أن فكرتهم عن وحدة المبدأ الأول الواجب الوجود من جميع الوجوه تنبع من قولهم بوحدة الذات والصفات ، وأنها مجرد نسب أو إضافات . وقد سبق إبطال ذلك وإثبات الصفات النفسية كمعان قديمة قائمة بذات الله تعالى^(٣) .

ثانياً - لو سلمنا لكم بوحدة المبدأ الأول فيجب طبقاً لقاعدتكم أن يكون ما يصدر عنه واحداً ، وكذا ما يصدر عن هذا المعلول الأول أيضاً ، وهلم جرا . ولكنكم لم تقولوا بذلك التسلسل الطولي ، بل زعمتم أن في هذه العقول الصادرة نوع كثرة تبرر أن يصدر عن كل منها عقل آخر وجرم الفلك التالي ونفسه أيضاً ، حتى إذا كان العاشر صدرت عنه كل الصور في عالم الكون والفساد^(٤) .

ثالثاً - هذا المعلول الأول أو العقل الأول إن كان واحداً فكيف صدرت عنه الكثرة؟ وإن كان سبب صدورها عنه كثرة النسب والإضافات فيه ؛ فهو باعتبار إضافته إلى واجب موجب لوجوده يوجب عقلاً ، وباعتبار صلته بمبدئه يوجب صورة ، وباعتبار كونه ممكناً

(١) انظر : ٢٤٨ - ٢٥٧ من غاية المرام (٢) انظر : المنقذ من الضلال ص ١٤٥ .

(٣) انظر ص ٣٨-٤٠ من غاية المرام ، والابكار ١/ ٥٤ ب ، وراجع ما سبق عن الصفات في الفصل الأول .

(٤) انظر غاية المرام ص ٢٠٣-٢٠٦ .

يوجب مادة. فلم لم تقولوا بصدور الكثرة عن واجب الوجود ، فإن السلوب والإضافات له أكثر من أن تحصى (١) .

ومما يلفت النظر في تصوير الآمدى لكيفية الصدور عند هؤلاء الفيضيين أنه يقرر أن في العقل الأول جهات أربعة لا ثلاثا ، تصدر عنها أيضا أمور أربعة . وقد أشار إلى ذلك في غاية المرام (٢) ، وأوضحه في الأبيكار، حيث يقول : « وهذا المعلول تتبعه جهات ، فإنه واجب بالواجب بذاته ، ويمكن بذاته ضرورة كونه معلولا ، وهو عالم بنفسه ، وبمبدئه . . وباعتبار هذه الجهات تصدر عنه الكثرة فباعتبار ماله من وجوب الوجود من مبدئه يوجب عقلا ، وباعتبار علمه بمبدئه يوجب نفس الفلك الأقصى . . وباعتبار علمه بنفسه يوجب صورة جرم الفلك الأقصى ؛ وباعتبار كونه ممكنا يوجب مادة جرم الفلك الأقصى ؛ ترتيبا للأشرف على الأشرف من الجهات ، والأحسن على الأحسن منها . وهذه الجهات فمثلها أيضا ثابت للعقل الصادر عن المعلول الأول ، وباعتبارها أيضا يصدر عنه عقل آخر ونفس لجرم فلك الكواكب ، ومادته وصورته . . » (٣) . ولا أدري مدى دقة فهمه لهذا الجانب من نظرية الفيض (٤) .

والآمدى مسبوق في هذه الانتقادات التي وجهها إلى نظرية الفيض ببعض الفلاسفة والمتكلمين ، منهم ابن حزم (٥) ، والجويني (٦) ، والغزالي (٧) ، والشهرستاني (٨) ، والرازي (٩) ، وابن ملكا البغداي (١٠) ، وابن رشد (١١) ، وغيرهم (١٢) .

-
- (١) السابق ، وقارن الأبيكار ٢١٩/١ ب ، ٢٢٠ ، ١٣٢/٢ - ٣٩ ب .
 (٢) انظر: غاية المرام ل ١٨٢ ، ويبدو أن لفكرة (الترتيب) في المعلول الأول أصلا عند الغزالي - انظر نقد المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ص ٣٩ ، ٤٠ .
 (٣) الأبيكار ٢١٩/١
 (٤) انظر في هذا الجانب من نظرية الفيض : نظرية المعرفة لاستاذنا الدكتور قاسم ٨٧ - ٩١ ، وحوار بين الفلاسفة والمتكلمين ٤٠ - ٥١ ، ١٧ - ١٩ والجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ٥٤/٢ - ٥٥ ، ٢٢٥ - ٢٤١ ونهاية الإقدام ٦٠ وما بعدها .
 (٥) الفصل ٤٤/٣ - ٤٦ .
 (٦) الإرشاد ١٣٤ - ٢٣٧ .
 (٧) في التهافت ١٤٥ وما بعدها .
 (٨) في الملل والنحل (بهامش الفصل) ٤٤/٣ - ٤٦ ونهاية الأقدام ٥٦ - ٦٥ .
 (٩) في المحصل ١٤٥ ، ١٤٦ ، والأربعين ٢٣٩ - ٢٤١ ، وانظر فخر الدين وآراؤه ٣٤٧ وما بعدها ، وشرح الإشارات للطوسي ٦٦٨/٣ - ٦٧٠ .
 (١٠) انظر : نقد المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ٦٩ - ٧١ .
 (١١) نظرية المعرفة عند ابن رشد ٨٥ - ٨٧ ، ١٠٣ - ١٠٨ ، وابن رشد وفلسفته ١٦٨ - ١٧٠ .
 (١٢) نشأة الفكر ١٧/٢ - ٥٢١ .

وقد بين ابن رشد أن هذه النظرية التي روج لها الفارابي وابن سينا وآخرون غيرهما لا تنتمي إلى أرسطو - كما توهم الآمدي وغيره - فإن المعلم الأول يجهز أن تصدر الكثرة عن الواحد دفعة واحدة^(١)، وأنها من الأقاويل الضعيفة في الفلسفة، وأن الغزالي محق في نقدها. بل ذهب إلى حد القول بأنها ليست سوى خرافة وأسطورة لا تقوم على أساس فلسفي^(٢)؛ ونجد مثل هذا الحكم عند الآمدي في عبارات أشد قسوة: «هذه العماية والجهالة قد تعظم نسبتها إلى الصبيان فضلا عما ينسب إلى شيء من التحقيق والغوص والتدقيق»^(٣)؛ لأنها «لا ترجع إلا إلى محض تحكمات باردة وخيالات فاسدة لا يرضى بها لنفسه بعض المجانين، فضلا عما يزعم أنه من المحصلين»^(٤).

٢- أما الفريق الثاني الذين يسميهم الآمدي الفلاسفة الطبيعيين فهم الذين قالوا: «إن ما نشاهده من حركات الأجسام البسيطة والمركبة، والآثار الصادرة عنها إنما هو لقوى موجودة في تلك الأجسام. وربما زاد الأقدمون منهم على ذلك وقالوا: إن أصل العالم أجزاء جسمانية صغار كرية في خلاء ممتد متشابه الأجزاء، وإنها (كذا) لم تزل تلك الأجزاء الجسمانية متحركة فيه؛ لاستحالة قرارها في جزء منه مع التشابه لعدم الأولوية، حتى اتفق أن تصادمت، وتحالفت وامتزجت، على هذا النحو الذي العالم عليه»^(٥). والآمدي هنا يربط بين هذا المذهب المادى الذى ينسب كل الموجودات وتغيراتها إلى الطبيعة، أى إلى القوى الذاتية للمادة نفسها دون أى مصدر خارجى، وبين أصوله القديمة فى نظريات الإغريق، وهو المذهب الذرى المنسوب إلى ديموقريطس وهو إمام الفلسفات المادية كما يلاحظ أستاذنا الدكتور محمود قاسم^(٦)؛ إذ الأصل عنده أن " ليس هناك قوة ولا إدراك أو عقل يوجه مثل هذه الذرات، التى تتحرك حركة دائمة على هيئة دوامة أزلية أبدية^(٧). وهذا ما يجمع سائر المذاهب المادية فى القديم والحديث سواء قالت بالذرات أم لم تقل بها.

هذا وقد تعرض الآمدي (فى المآخذ) لمذهب (ذى مقراطيس) وأشار إلى أن

(١) انظر: نظرية المعرفة ١٠٣-١٠٨. (٢) انظر: نظرية المعرفة ١١٠.

(٣) انظر غاية المرام ل١٨٨ ب. (٤) السابق ل١٨٢-ب.

(٥) الأبيكار ١/٢٢٠. (٦) فى كتاب (جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته) ص ١١٦ وما بعدها.

(٧) السابق ص ١١٧.

أرسطو أبطل هذا المذهب، كما أنه باطل عند المتكلمين؛ لإحالتهم وجود حوادث لا أول لها^(١).

ويتمسك الآمدى فى الرد عليه بأن كل الأجسام مشتركة فى الجسمية، فلم يختص كل منها ببعض الصفات دون بعض؟ إن التباين والتنوع فى أحوال الموجودات ودرجاتها وتأثيراتها المختلفة - مع اشتراكها فى الجسمية - «يدل على الاستناد إلى المؤثر الخارجى، لا بواسطة قوة فى الجسم. ويكون ذلك المخصص فاعلا مختارا، وهو البارى تعالى على ما حققناه. ويخص القائلين بقدوم الأجسام، وتحركها فى خلاء ممتد غير متناه، ما سنحققه من إبطال قدم كل موجود سوى الله تعالى، وامتناع وجود بُعد لا نهاية له فيما بعد»^(٢).

والرد على القول بالطبيعة بفكرة تنوع الآثار، وأن الفاعل بلا إرادة لا بد أن يجرى فعله على نمط واحد لا يتخلف أبدا، نجده - مع وجوه أخرى - عند الباقلانى فى التمهيد^(٣)، والنسفى الماتريدى فى بحر الكلام^(٤)، وعبد الجبار المعتزلى فى شرح الأصول الخمسة^(٥).

٣ - ثم يتصدى الآمدى للمنجمين القائلين بأن الكواكب هى الآلهة الصانعة لهذا العالم، ويسميه فى الأبهكار «الأحكاميين»^(٦)؛ ويبدو أنه يقصد بهم الصابئة ومن مال إلى ذلك رأى من الفلاسفة^(٧). وقد أفاض فى تصوير مذهب الصابئة فى الأبهكار^(٨)، وقدم عنهم معلومات دقيقة، يقول عنها الأب أنستاس الكرملى إنها تتفق تماما وعقائد الصابئة الذين يعيشون فى العراق المعاصر^(٩). وقد انتقد الآمدى ردود بعض الفلاسفة عليهم بقيام الدليل على أن الأول واحد من كل وجه لا يتعدد ولا يتكرر، وهى فكرة لا يرتضيها لخطورتها بالنسبة لمسألة الصفات كما سبق^(١٠). كما ينتقد بشدة ردود بعض

(١) انظر المآخذ ١٣ ب، ول ٥٩ ب. (٢) الأبهكار ١/١٢٢١.

(٣) ص ٥٢ وما بعدها. (٤) - ص ١٤.

(٥) ص ١٢١. (٦) - ص الأبهكار ١/١٢٢٣.

(٧) انظر الأبهكار ١/٢١٢ ب ٢٤٤٥ ب، ١٢٤٥، والتمهيد مقدمة المحققين ١٩، والنجاة ١٥٢ وما بعدها.

(٨) الأبهكار ١/١٢٨ - ١٣٣ ب.

(٩) انظر مجلة المشرق البيروتية مجلد ٤ لسنة ١٩٠١ م ص ٤٠٠ - ٤٠٣.

(١٠) انظر ما سبق عن تعدد الصفات ووحدتها، والنجاة ٢٥١، ٢٥٢.

الاشاعة عليهم^(١) ، ويتمسك بدليل التناهي الذى سبق عرضه فى إثبات واجب الوجود، ويضيف إليه اعترافهم بأن الأجرام السماوية عندهم مركبة من الصورة والمادة فهى إذن ممكنة ، فكيف تكون علة ومبدأ لسائر الموجودات^(٢) ؟ ويشفع ذلك بأفكار أخرى لمجدها عند من سبقوه من الأشاعرة مما لا يتفق مع نقده القاسى لهم^(٣) .

ثم يتعرض لفكرة من قال منهم بأن لهذه الكواكب مبدأ آخر قديما^(٤) - وهذا هو قول الصائبة فعلا - ولكنه أضاف الخلق والإبداع إليها ، فيقول إن من مال إلى هذا منهم « فليس له فى دعواه مستند غير الاستقراء ؛ أننا وجدنا التأثيرات المختلفة والامتزاجات المتقاربة وجميع ما فى عالم الكون والفساد من خير وشر لا يوجد إلا عند حركة كوكب مخصوص ، وذلك مما يوجب إسناده إليه وإحالة وجوده عليه ؛ إذ لو كان اتفاقيا لما دام »^(٥) ، فينبه أولا إلى أن هذا الاستقراء ناقص ظنى قد تند عنه ظواهر لم تقع تحت تجربتهم^(٦) ، كما أن مجرد الاقتران بين الحوادث الأرضية والاقترانات الفلكية لا يكفى لإثبات أن الأخيرة علة وسبب للأولى^(٧) ، وهو هنا يعتمد على فكرة « العادة » الشعرية وقد سبقه إلى مثل هذا الرد الباقلانى والرازى أيضا^(٨) .

٤- وأما الشنوية القائلون بالنور والظلام وأنهما مبدأان لسائر الحوادث، فيرد عليهم بأن النور والظلام المشاهدين ليسا إلا حادثين يحصلان بعد العدم ، وتجرى عليهما كل أحكام الحوادث فكذا ما يماثلهما فى طبيعته .

أما تمسكهم بوجود الخير والشر فى العالم ، فجوابه أن « مدلول اسم الشر ليس إلا عبارة عن عدم ذات أو عدم كمال ذات »^(٩) ، وإذن فهو ليس وجوداً حقيقياً أو معنى ذاتياً حتى تلزم إضافته إلى مبدأ خاص به ، ولو سلمنا لكم أنه ذات حقيقية فإن الموجود فى العالم ليس الخير المحض وليس الشر المحض فقط ، بل هنا أيضا ما هو مزيج منهما ، فلم

(١) انظر غاية المرام ل ١٨٣ . (٢) انظر الأبهكار ١/ ٢٢٣ ب .

(٣) انظر غاية المرام ص ٢١٢ ، والتمهيد ١٩ ، ٦٤ ، ٦٥ والأربعين ٢٤١ .

(٤) الأبهكار ١/ ٢٢١ . (٥) غاية المرام ١٨٣ ، وانظر الأبهكار ١/ ١١٣٣ - ١٢٢٥ .

(٦) الأبهكار ١/ ٢٢٣ . (٧) غاية المرام ١٨٣ ، والأبهكار ١/ ١٣٣ .

(٨) انظر التمهيد ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، والأربعين ٢٤١ . (٩) غاية المرام ٨٣ ب ، وانظر الأبهكار ١/ ٢٢٧ ب .

لا تكون المبادئ ثلاثة بدلا من اثنين ؟ حتى يستقيم الوجود طبقا لأصلكم^(١) . ثم يشير الآمدى إلى أن منهم من قال بذلك « كما حكى ذلك أيضا القاضي عبد الجبار فى شرح الأصول الخمسة^(٢) عن المرقونية » ، ثم يرد على هؤلاء الثلاثة بأن هذا الثالث إن كان من نوع الاصلين السابقين عادت المشكلة السابقة وفسد تفسيركم للوجود . وإن كان مغايرا لهما قديما سابقا عليهما ، فهو الإله القديم المريد المختار الذى خلقهما وسائر الموجودات الأخرى^(٣) .

والآمدى يتابع فى هذه الردود بعض من سبقوه من الأشاعرة^(٤) ، والمعتزلة^(٥) ، وغيرهم^(٦) . وإن كان فى تفسيره للشر أثر فلسفى واضح^(٧) ، كما سلفت الإشارة إلى ذلك .

جـ- الخلق المباشر :

إذا بطلت هذه الأقوال جميعا فالرأى الصحيح - كما يقول الآمدى فى غاية المرام - هو « ما ذهب إليه أهل الحق من الإسلاميين وغيرهم من طوائف المحققين أنه لا خالق إلا الله تعالى ، وأن وجوب وجود ما سواه ليس إلا عنه^(٨) » . ويقول فى الأبيكار : « إن جميع الممكنات مقدورة للرب تعالى من غير واسطة وإن حدوثها ليس إلا عنه ، هذا هو مذهب أهل الحق^(٩) » . كما يقول فى المتأخذ فى معرض الرد على من ذهب إلى أن الله تعالى جسم : « حكم الوهم والخيال غير مقبول فى أفعاله تعالى ؛ فإن إحداث الشئ ، من غير مادة ومدة وآلة وتغير فى ذات الفاعل وجلب منفعة ودفع مضرة فى حقه ، غير مقبول عند الخيال والوهم ، مع أن أفعاله كذلك باتفاق المسلمين^(١٠) » . هذا مع أنه يؤكد فى موضع

(١) ص ٢١٣-٢١٤ من غاية المرام . (٢) ص ٢٨٤ .

(٣) انظر غاية المرام ص ٢١٤ ، وشرح الأصول ٢٧٦ ، ٢٨٧ .

(٤) انظر التمهيد للباقلانى ٦٥-٦٧ ، ونهاية الأقدام للشهرستانى ٦٥-٦٧ .

(٥) انظر شرح الأصول الخمسة ٢٨٤ وما بعدها .

(٦) انظر النجاة ٢٨٤-٢٩١ ، ونهاية الأقدام ١٠١ ، وغاية المرام ل ١٢٩-٣٠٠ ب .

(٧) انظر نشأة الفكر ١/ ١٧٤ - ٢٢٠ ، ٢/ ٦٣ - ١٠٦ ، ٢٩٣ - ٢٤٦ - ٣٤٦ ، ٤٠١ - ٤٦٥ وانظر طبيعيات

الشفاء الفن الثالث ص ٥٣ .

(٨) غاية المرام ٧٩ ب . (٩) الأبيكار ١/ ٢١٢ ب . (١٠) المتأخذ ١٢٥ ب .

آخر من الكتاب نفسه أن الفعل الإنساني «لابد له من مادة يكون عنها ، ومن مدة يقع فيها ، ومن فاعل يتم به» (١) .

فإذا لاحظنا أن الرازي في كتاب (المطالب العالية) الذي يلخصه الآمدى في هذا الكتاب يقول بأن الله فاعل لكل شيء ، ولكن بواسطة العرش الذي يقابل عنده النفس الكلية عند الفيضيين ، وأنه توقف بشأن مسألة القدم والحدوث (٢) علمنا أن هذا الرأي وهو الخلق بلا مادة ولا مدة ولا آلة ، أى الخلق المطلق المباشر ، إنما هو رأى الآمدى نفسه الذى نجده فى كتبه الأخرى كالأبكار وغاية المرام .

وقد لخص الآمدى فى الكتاب المذكور عن الرازي عرضه لادلة القدم والحدوث الذى انتهى منه إلى أن المسألة مشكلة لا يمكن البت فيها برأى ، ولا تتوقف العقيدة الدينية الصحيحة على ذلك (٣) ، ولكنه كان بين الحين والحين يؤكد رأيه هو فى الحدوث ، فمن ذلك :

(أ) أنه لخص حجة القائلين بالقدم : إن كان العالم ممكناً فإمكانه سابق على وجوده ولا أول لهذا الإمكان ولا لصحة تأثير الفاعل فيه ، وهذا يناقض امتناع وجوده أزلاً . ثم عقب عليها بقوله : «قال الإمام هذه المعارضة صحيحة ، إلا أن المسألة مشكلة جداً ؛ لأنه إذا لم يكن لإمكان وجود العالم أول كان العالم ممكن الوجود فى الأزل ، وإنه مناقض لقولهم لا يمكن الوجود فى الأزل . وأنا أقول : لا يلزم عن دوام إمكان الشيء إمكان دوامه» (٤) . ويؤكد ابن تيمية لنا أن الآمدى لم يرتض دليل قدم الإمكان ورفض تهمة التناقض الموجهة إلى المتكلمين لقولهم بإمكان الحركة وأنها حادثة غير أزلية (٥) .

(ب) وأثناء شرحه للأسماء الحسنى يذكر أن معنى (البديع) خلقه تعالى للأشياء بلا مادة ولا مدة (٦) . وهذا المعنى الذى عبر عنه الآمدى ، من وجوب التفرقة بين الخلق

(١) المآخذ ١٢٨ ، ١٧١

(٢) انظر فخر الدين وآرؤه ص ٣٥٨ ، والمآخذ لوحة ٦٠ ب ، ٦١ ب ، حيث يلخص كلام الرازي فى ان الشرع لم يرد بتعريف هذه المسألة لغموضها وعدم توقف صحة النبوة عليها .

(٣) انظر المرجعين السابقين نفس الموضع . (٤) المآخذ ٦١ ب ، ٧١ ب .

(٥) الموافقة ٢١٥ ، ٢١٦ ، وقارن الأبكار ٩٥ / ٢ ب ، وانظر المآخذ ل ٦٢ ب ، ٦٩ ب .

(٦) المآخذ ٥٠ ب .

الإلهى للعالم من غير مادة سابقة وبين الأفعال الإنسانية المتصرفة فى مواد سابقة، نجده - زيادة على (المآخذ) - فى الأبحاث أيضا^(١) .

ويؤكد الأمدى موقفه من الخلق المباشر غير المسبوق بمادة ولا مدة فى (غاية المرام) أيضا ؛ إذ يجيب على شبه القائلين بقدوم العالم مستندا إلى نفس المبدأ الذى أكدده فى الأبحاث والمآخذ من التفرقة بين الغيب والشهادة :

أ- فهو يرد على الشبهة الخاصة بأنه لو كان العالم حادثا لكان بينه وبين خالقه مدة متناهية أو غير متناهية ، والأول يلزم عليه حدوث الله ، والثانى يلزم منه قدم الزمان وبالتالي قدم المتزنات أى قدم العالم^(٢) - بأن ذلك خضوع لحكم الوهم والخيال الذى يعجز عن تصور مدة لا مدة قبلها ويصر على الترامى إلى ما وراء حدود الزمان ، ولكننا لا نقبل حكم الوهم فى المسائل العقلية^(٣) . وستزداد هذه الإجابة وضوحا عندما نبين رأيه فى الزمان ، وأنه مجرد فرض بشرى، أو مقولة إنسانية .

ب- ثم يرد على الشبهة القائلة بأن ما يقع بعد العدم مسبق حتما بمادة ومدة، أما المدة فلأن له (قبلاً) لم يكن موجودا فيه ، ثم انقضى هذا (القبل) بحدوثه وتحققه وذلك هو معنى الزمان ، فالزمان قديم - وأما المادة فلأن المدة عرض يحتاج إلى ما يتقوم به - فلا بد إذن من مادة قديمة . ومن ناحية أخرى فإن كل موجود مسبق بإمكانه وهذا الإمكان أمر وجودى لا يقوم بنفسه فافتقر إلى مادة يقوم بها ، سواء كانت هذه المادة خالية من الصور تماما ، أو مصحوبة بصورتها ، وإن كانت قابلة للصور الأخرى على سبيل البديل^(٤) . وهو يشير بهذا إلى تصور كل من أفلاطون وأرسطو لأصل العالم^(٥) ، ثم يجيب بأن القبلية ليست إلا معنى سلبيا وهو أن الشيء لم يكن موجودا فكان ، وهذا المعنى لا يستلزم مدة أو زمنا يقارنه ولا مادة يحل فيها لأنه ليس بوجود حقيقى وإنما هو مجرد سلب .

أما زعمهم أن إمكان الشيء يسبق وجوده ، وهو لا يقوم إلا بمادة ، فإن بعض

(١) الأبحاث ٢/ ١٠٢ ب .

(٢) انظر غاية المرام ١٠٣ ب ، والمآخذ ١٧٥ - ١٧٧ ، ونهاية الأقدام ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) انظر غاية المرام ل ١١٠٥ ، ب . (٤) انظر غاية المرام ١١٠٧ .

(٥) انظر حوار بين الفلاسفة ص ١٠ ، ١١ .

الأصحاب يرد عليه بأن معنى كون العالم ممكنا أنه مقدور لله تعالى . ويرى الآمدى أن ذلك دور ، لأنهم يعرفون المقدور بأنه الممكن ، فكيف يقولون عن الممكن إنه المقدور ؟ وهذا نقد نجده عند ابن رشد فى (تهافت التهافت)^(١) . أما هو فيتمسك بأن الإمكان أيضا معنى سلبى يرجع إلى عدم لزوم المحال من وجود الشيء أو لا وجوده ، ثم يستعين بما يقوله الفلاسفة عن النفوس الإنسانية والصور الجوهرية فهى حادثة عندهم ولا مادة فيها على الإطلاق ، فبم كان يقوم إمكانها قبل حدوثها؟^(٢) . ونحن نجد أيضا مثل هذه الفكرة عند ابن رشد فيما يتعلق بطبيعة الأفلاك السماوية^(٣) .

وبعد هذه الردود يؤكد الآمدى فكرته فى الخلق المباشر من غير مادة أو زمان فيقول : فإذا قد ثبت أن الكائنات موجودة بعد مالم تكن ، ومسبوقة بالعدم من غير سبق مادة ولا زمان ، واندفع ما فى ذلك من الخيالات ، وبطل ما فيه من الإشكالات^(٤) .

د- الخلق المستمر :

كما قال الآمدى بالخلق المباشر ، فقد قال أيضا بالخلق المستمر ، فالموجود لا يحتاج إلى خالقه ليخلقه فحسب ، بل ليديمه أيضا ويحفظ عليه وجوده ، إذ أن وجوده فى ذاته ممكن فلو فرض عدم خالقه لحظة لباد وهلك ، «إذ ليس استناد الموجد إلى الموجد من جهة وجوده ، بل الصحيح أن استناده إليه ليس إلا من جهة إمكانه»^(٥) . وقد سبق للرازى أن نبه على هذه الفكرة أيضا^(٦) . وإذن فالله يوجد الموجودات بالفعل ، بمعنى أنه يحفظ عليها وجودها ، وهذا هو الخلق الدائم المستمر .

على أن أكبر تأكيد لفكرة الخلق المستمر عنده هو ما سنجده من تفسيره للعالم الطبيعى ، وما يحدث فيه من تغيرات تعود كلها إلى قدرة الله تعالى وحده ، وتدخله المباشر وقتا بعد وقت ، وكل ما يقدمه الآمدى من توضيح للمشاكل الأساسية الخاصة بهذا العالم الطبيعى من مكان وزمان وحركة وسكون وأسباب ومسببات إنما يؤكد هذه الفكرة ويدعمها .

(١) ص ٦٨-٧٠ ، وانظر أيضا غاية المرام ١٠٦ ب ، وحوار بين الفلاسفة ص ٢٣٣-٢٣٥ .

(٢) انظر غاية المرام ١١٠٧ . (٣) انظر نظرية المعرفة ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) غاية المرام ١١٠٧ ب . (٥) غاية المرام ١١١٠ .

(٦) انظر الأربعين ص ٧٩ .

وهو ينتقد فكرة (الكمون) النظامية ، لأنها تتعارض مع الخلق المتجدد وقتا بعد وقت (١) . وهو نفس النقد الذى نجده عند أبى المعين النسفى الماتريدى فى رده على مقالة النظام : « إن الله خلق الأشياء كلها ، ولم يبق شئ غير مخلوق ، حتى الثمار فى الأشجار مخلوقة إلا أنها غير ظاهرة . وقال أهل السنة والجماعة : قدر ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وإنما يخلقها فى كل وقت وأوان ، خلقها فيما مضى وفى المستقبل يخلقها ، يدل عليه قوله : ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ (٢) » .

هذا هو ما تؤكد كل كتابات الآمدى عن (أفعال الله تعالى) أو بعبارة أخرى (العالم) .

إن فكرة الأشاعرة عن الإله المتفرد بالخلق والإيجاد والاختراع والتأثير هى التى كانت تقود خطاه كما رأينا فى مباحث الصفات ، وهى التى أملت عليهم موقفه هذا بشأن خلق العالم خلقا مباشرا متجددا مستمرا بلا واسطة ولا آلة ولا شركة فى الجملة أو التفصيل ، وسنرى آثار هذا المفهوم فى المسائل الإنسانية أيضا .

هـ- أدلة الحدوث :

ليس العالم - وهو « كل موجود غير الله » (٣) - قديما إذن بل هو موجود بعد العدم ، وكائن بعد أن لم يكن (٤) ، أو كما يحكى الآمدى عن الشيخ أبى الحسن الأشعرى « إن وجوده مسبوق بوجود الأزلى » (٥) وهو ما ينسبه الآمدى أيضا إلى « أهل الحق من المتشرعين » (٦) ولكن ما الدليل على ذلك ؟

هنا نجد موقفا فريدا للآمدى ربما لم يقفه أشعرى قبله فيما نعلم ، لقد اعتمد الأشاعرة جميعا منذ شيخهم الأشعرى على دليل الجواهر والأعراض لإثبات حدوث العالم ، ودعمه بعضهم بفكرة الإمكان ، وأفردها البعض دليلا مستقلا على ذلك ، فنجد الشيخ الأشعرى يعتمد عليه فى اللمع : « ألا ترى أن الجسم لما لم يسبق الحوادث المحدثات وجب حدوثه بدخوله فى معنى الحدث » (٧) وتابعه على ذلك سائر الأشاعرة

(١) الأبهكار ٢/ ٤٤ ب . (٢) بحر الكلام ص ٢٥ ، وانظر أيضا نشأة الفكر ١/ ٥٨٨ وما بعدها .

(٣) الأبهكار ٢/ ٨٢ ب . (٤) انظر : غاية المرام ، ط ١٩٧١ ، ٢٧٤ .

(٥) الأبهكار ٢/ ٨٤ ب . (٦) الأبهكار ٢/ ١٨٥ .

(٧) اللمع ص ٧٦

بعده، كالباقلائي^(١) الذى فصله وأرسى دعائمه حتى نسب إليه البعض أنه هو الذى أدخله فى علم الكلام^(٢)، وهذا غير صحيح، كما سنبينه. كما نجده عند البغدادى^(٣) والجوينى، ونحن نجد عنده ما نجده لدى من سبقوه إلا أنه زاده تفصيلا؛ حيث اهتم بفكرة الإمكان وأبرزها كما سيأتى^(٤). وعند الغزالى فى الاقتصاد^(٥)، وإن كان يتحدث عن «الأجسام، والأعراض» وليس هذا بفرق يذكر، فالأجسام عنده هى المؤتلفة من الجواهر الفردة^(٦). وعند الشهرستانى الذى يفرد لمسألة الجوهر الفرد فصلا مستقلا فى آخر كتابه «نهاية الأقدام» عدد فيه أدلة إثباته ورد الشبه الواردة عليه ولكنه لم يعرض لما سيذكره الآمدى هنا من نقده^(٧). كما نجده عند الإمام الرازى معاصر الآمدى فى بعض كتبه^(٨)، وإن كان يركز على أحد عناصره وهى «حدوث الحركة والسكون» ويعرضها كدليل مستقل أحيانا^(٩).

والآمدى يذكرها مستقلة فى «الابكار» منسوبة إلى «بعض المتأخرين من أصحابنا»^(١٠)، ولكنه فى غاية المرام يجعلها جزءا من دليل الجوهر الفرد^(١١)، وهو ما نبه عليه الرازى نفسه من قبل^(١٢). كما نجد هذا الدليل لدى متأخرى الأشاعرة أيضا^(١٣). وقد كان هو عمدة المعتزلة من قبل، ولعلهم أول القائلين به، وقد ذكر القاضى عبد الجبار فى شرح الأصول الخمسة^(١٤) أن «أول من استدل بها أبو الهذيل وتابعه باقى الشيوخ».

(١) انظر : التمهيد ٤١-٤٤ .

(٢) انظر : كنوز الأجداد لكرد على ص ٢١٢ ودائرة المعارف الإسلامية مادة (باقلائي) .

(٣) انظر : أصول الدين ص ٣٥ - ٦٠ .

(٤) انظر : الشامل ٤٨/١ وما بعدها ، والإرشاد ١٢-٢٧ ، والجوينى إمام الحرمين ١٢٣-١٣٤ .

(٥) انظر : الاقتصاد ص ١٦ وما بعدها ، ونقد المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ص ٤١ - ٤٣ ، والتهافت ص ٢٥٠ .

(٦) انظر : الاقتصاد ص ٢٨، ٤٧ - ٤٩ .

(٧) انظر : نهاية الأقدام ٥٠٥ وما بعدها .

(٨) كالأربعين ص ٣ وما بعدها ، والمعالم ٢١-٢٦ والمحصل ٧٨ .

(٩) فخر الدين وآراؤه ٣٦٢ - ٣٦٥ . (١٠) الابكار ل ٩٣/٢ ب .

(١١) انظر : غاية المرام ل ١٠٢، ب . (١٢) فخر الدين وآراؤه ص ٣٦٣ .

(١٣) انظر : العقائد النفسية ص ١٧٤ وما بعدها ، والمواقف ٢٢٧ وما بعدها .

(١٤) انظر : ص ٩٥ - ١١٥ ، وانظر أيضا المغنى ٤/ ٤٢٢ - ٤٥٩ .

ويبدو أن أبا الهذيل قد استقى فكرة هذا الدليل من الوسط الفلسفى، فالفكرة قديمة عند الإغريق والهنود^(١)، وهذا مالا يستبعده الباحثون حتى من أشاد بفكرة الجوهر الفرد لدى المسلمين ونوه بأصالتها وملاحمها الخاصة^(٢)، وإن كان (بينس) يرجح المصدر الهندى خاصة^(٣). وعن المعتزلة تلقاه الأشاعرة ليأخذ صورته الكاملة كما يقول أستاذنا النشار^(٤)، كما تأثر به الماتريدية وغيرهم^(٥)، ولذا نجد الآمدى ينسبه إلى (المتكلمين)^(٦) على وجه الإجمال، وفى موضع آخر يقول: «ومما اعتمد عليه أيضا الجهابذة من المتكلمين وفضلاء المتقدمين المسلك المشهور والطريق المذكور: وهو أنهم حصروا العالم فى الجواهر والأعراض، ثم قصدوا لإثبات الحركة والسكون أولا، ثم لبيان حدثها ثانيا، ثم لبيان تناهيها ثالثا، ثم لبيان امتناع تجرد الجواهر عنها رابعا، ثم بنوا على ذلك أن العالم لا يسبق الحوادث، وكل مالا يسبق الحوادث فهو حادث»^(٧). وهذا هو دليل الجوهر والعرض فى صورته الكاملة كما نجده لدى الجوينى ومن جاء بعده. والآمدى يذكر قبل ذلك إحدى صور هذا الدليل وهى المعروفة بطريقة (الأكون الأربعة)، وخلاصتها أن الجواهر قابلة للاجتماع والافتراق والحركة والسكون وهى ظواهر طارئة عليها بدليل تبدلها وتغيرها فلا بد لها من علة خارجية أحدثتها وأحدثت ما تقوم به من الجواهر أيضا ويستحيل قدمها^(٨)، وهى صورة اعتزالية أيضا للدليل نفسه^(٩)، أخذها الأشاعرة عنهم منذ شيخهم الأشعرى^(١٠)، ثم يشير إلى أن المتكلمين قد استخدموا هذه الطريقة الأخيرة لإبطال القدم واستخدموا الطريقة الأخرى لإثبات الحدوث، وهما فى الحقيقة صورتان لدليل واحد، والهدفان متلازمان أيضا.

وقد أشار الشهرستانى أيضا إلى أن هذا الدليل استخدم أولا لإبطال قدم العالم، وأن الشيخ الأشعرى استخدم (طريقة الأكون) لهذا الغرض^(١١).

(١) انظر: مقدمة مناهج الأدلة ١٢-١٣، ونشأة الفكر ١/ ٥٣٠، ٥٣٨، ومذهب الذرة عند المسلمين ص ٩١ وما بعدها.

(٢) انظر: نشأة الفكر ١/ ٥٣٨، وتجديد الفكر الدينى لإقبال ١٥٢، ١٥٣.

(٣) انظر: مذهب الذرة ص ١١٦-١٢١. (٤) نشأة الفكر ١/ ٥٣٨.

(٥) انظر فخر الدين وآرؤه ص ٣٤٥، ومعالم الفلسفة الإسلامية ط بيروت سنة ٦١ ص ٦٧-٧٤.

(٦) غاية المرام ٩٦ ب. (٧) غاية المرام ١١٠٢- ص ٢٤٣ وقارن الأبيكار ٢/ ٩٤ ب، ٩٥ ب.

(٨) انظر: غاية المرام ٩٦ ب.

(٩) انظر: شرح الأصول الخمسة ٩٤-٩٦، وترجيح أساليب القرآن ص ٧٩، وموافقة صحيح المنقول ٢/ ٢٦٠.

(١٠) انظر: الشامل ١/ ١٣٤-١٣٦، ونهاية الأقدام ص ١١.

(١١) انظر: نهاية الأقدام ص ١١.

١ - نقده لدليل الجوهر والعرض :

والآن ما موقف الآمدى من هذا الدليل ؟

هذه إحدى المسائل التى يتضح فيها تطور فكر الآمدى بصورة واضحة ، وهى من أقوى الشواهد على تأخر « غاية المرام » فى التأليف عن كتاب « الأبيكار » ، فإننا نجد الآمدى فى هذا الكتاب الأخير يستعرض حجج الأشاعرة على حدوث العالم ويضعفها جميعا :

(أ) فدليل الإمكان يعرضه فى صور ثلاث^(١) ، وينقده من وجوه عدة ، أهمها عدم شموله لسائر الموجودات ، وخاصة مالم نشاهده كالنفوس والعقول والأجسام العلوية الفلكية التى لا نستطيع أن نحكم بتركبها أو تبدل صفاتها أو إمكانها ، كما نحكم على ما نعاينه ، ولكنه لم يشر إلى كل ما ذكره من نقد فى « غاية المرام » كما سيأتى .

(ب) ودليل ينسبه لبعض المتأخرين : لو كان العالم قديما لكان قدمه إما عين كونه جسما ، أو زائدا عليه ، والقسمان باطلان ، فثبت حدوثه - يرى أنه ضعيف جدا ، لأن هذا الكلام يمكن أن يقال فى جانب الحدوث أيضا^(٢) .

(ج) وأما حجة الحركة والسكون التى سبقت الإشارة إليها ، وهى جزء من دليل الجوهر والعرض ، فيرد عليها ما ذكره الآمدى من نقد لهذا الدليل فى غاية المرام^(٣) . وإن كان فى الأبيكار يتمسك به ويقول : « المسلك السابع المسلك المشهور للأصحاب ، وعليه الاعتماد ، وهو أن نقول العالم مؤلف من أجزاء حادثة .. الخ »^(٤) . وهو يشير إلى الاعتراضات الواردة عليه ، وأهمها الاعتراض على انحصار العالم فى الجواهر والأعراض ، ويشير إلى سبب هذا الانحصار^(٥) ، ثم يورد شبه القائلين بالقدم ويجيب عنها^(٦) جميعا ، مصرحا بأن دليل الجوهر والعرض هو معتمده فى إثبات حدوث العالم .

(١) انظر : الأبيكار ٢/ ٨٥ ب - ٨٩ ب ، ٩٠ ب - ٩١ ب

(٢) انظر : الأبيكار ٢/ ١٩٠ ب ، والموافقة لابن تيمية ٢/ ٢٤٤

(٣) انظر : غاية المرام ٩٩ - ١٠٤ ب ، والأبيكار ٢/ ٩١ ب - ١٩٣ .

(٤) الأبيكار ٢/ ٩٤ ب - ٩٥ ب . (٥) الأبيكار ١/ ٢٩٥ ب - ١٣٠٢ .

(٦) الأبيكار ٢/ ٩٥ ب وما بعدها .

وقد قال ابن تيمية في « الموافقة » - بعد أن أشار إلى الطرق السابق ذكرها ونقد الآمدى لها- : « ولهذا لم يعتمد الآمدى فى مسألة حدوث العالم على شئ من هذه الطرق بل بين ضعفها، واحتج بما هو مثلها أو دونها فى الضعف ، وهو أن الأجسام لا تنفك عن الأعراض ، والأعراض لا تبقى زمانين فتكون حادثة ، ومالا لا ينفك عن الحوادث فهو حادث ، وهذا الدليل مبنى على مقدمتين: على أن كل عرض فى زمان ، فهو لا يبقى زمانين فتكون حادثة ، وجمهور العقلاء يقولون: إن هذا مخالف للحس والضرورة، ولا يتفقون على امتناع حوادث لا أول لها، وقد عرف الكلام فى ذلك^(١).

وهذا مع نصوص الأبيكار السابقة يؤكد اعتماد الآمدى على هذا الدليل قبل تأليفه غاية المرام ، كما يدل أيضا على أن ابن تيمية لم يستحضر عند قوله هذا محتويات الكتاب الأخير، وإن كان قد أشار إليه فى نفس الكتاب^(٢) - كما سلفت الإشارة- وإلا لاهتم بذكر عدول الآمدى عن هذا الاستدلال .

أما فى « غاية المرام » فإنه يوجه إلى هذا الاستدلال انتقاداته على النحو التالى :

إن تقسيم الأجسام إلى جواهر وأعراض ، والحكم بتجدد الأعراض أو الصفات، وحدوثها بعد عدمها، وعدمها بعد حدوثها، قد يكون أمراً ممكناً فى الموجودات التى تقع فى نطاق تجاربنا الحسية ومشاهداتنا، ولكن تعميم ذلك على سائر الموجودات الكونية دونه عقبات يصعب اجتيازها ، فمن ذلك :

(أ) وجود الجواهر المجردة عن المادة وعلائقها كالعقول، أو عن المادة دون علائقها كالنفوس - كما يدعيه بعض الفلاسفة - لا يمكن نفيه بمجرد الدعوى ، وإقامة الدليل على هذا النفى « مما يطول ويصعب تحقيقه جدا على أرباب العقول »^(٣) .

.. (ب) الجواهر والأجسام العلوية الفلكية لا يمكن التثبت من قبولها للاجتماع والافتراق ، وأن ما قد يقع فيها من اجتماع وافتراق هو لعل خارجية وليس لذواتها، وليس حصول ذلك فى الأجسام الأرضية بموجب مثله فى تلك الأجسام العلوية ، إذ قد تكون هناك فوارق لا علم لنا بها ، وليس فى يد المتكلمين برهان على عدم هذه الفوارق، والطريق

(١) انظر : الموافقة ٢/ ٢٣١ . (٢) انظر : ما سبق فى الباب الاول ١٠٥-١٠٨ .

(٣) انظر : غاية المرام ١٩٧ ، والأبيكار ٢/ ٨٥ ب - ٨٧ ب ، والمآخذ ٥٨ ب .

إلى إثبات ذلك صعب عسير (١) .

(ج) عجزهم عن إثبات حدوث السكون ، فإنه لو سلم حدوث الحركة بناء على حدوث ما هو مشاهد منها وعلى بطلان تسلسل الحادثات ، فليس يلزم من ذلك حدوث السكون السابق عليها ، ومجرد انقضائه وبطلانه بالحركة اللاحقة له لا يدل على كونه حادثا ، فالتناهي من طرف لا يوجب التناهي من الطرف الآخر . ثم إن هذا السكون إذا كان وجوديا فلا مانع من القول بدوامه استنادا على الإرادة القديمة التي اقتضت دوامه ، وحين اقتضت هذه الإرادة انقطاعه بإيجاد الحركة البديلة له انقطع ، وذلك على نحو ما تقولونه في سائر الموجودات . ويجب أن يلاحظ أن هذا الاحتمال يقوم على فكرة الآمدى فى أن متعلق الإرادة ليس بالضرورة حادثا بعد العدم . أما لو قلنا بأن السكون أمر عدمى ومفهوم سلبى أى أنه ليس إلا عدم الحركة فلا يلزم من إبطاله بالحركة أن يكون هو حادثا إذ الحدوث لا يتحقق إلا مع الوجود ، فلو قلنا بحدوثه فمعنى ذلك أن الحركة الموجوده الآن مسبوقه بعدمها الذى هو السكون ، وأن هذا العدم أو السكون مسبوق بوجوده ، إذ هو حادث ، ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، ويفضى دليلكم إلى القدم وقد أقمتموه لإثبات الحدوث . أما إن لجأتم للتخلص من هذا المأزق إلى القول بأن هذا السكون لا أول له ، ولا يلزم من ذلك القدم لأنه غير وجودى ، فهو مقبول ومسلم ، ولكن يلزم عليه فساد أصلكم «إن ما ينقضى ويبطل يستحيل قدمه» ، وهو الذى رتبتم عليه قولكم إن حدوث الحركة يستلزم حدوث السكون السابق عليها ، وفى هذا إفساد الدليل كله لأنه يعتمد على حدوث جميع الأعراض (٢) .

إن هذا النقد الخطير المتعدد الجوانب جديد كل الجدة فى الوسط الأشعرى ، بعد ما بينته من اعتماد القوم على هذا الدليل وحده فى صوره المختلفة ، أو مع بعض أدلة أخرى مساعدة . وقد يكون الآمدى مسبوقا فى إعراضه عن هذا الدليل كطريق لإثبات وجود الله ، فإن الشيخ الأشعرى يستند فى هذا إلى طريقة حدوث الصفات وتغيرها ، ولعل هذا هو ما يريده ابن تيمية من عدول الأشعرى عن هذا الدليل وكتابه «لأهل الثغر» بذلك (٣) . إلا أن الرجل قد استدل به على حدوث العالم كما نقلته من نص كلامه ،

(١) انظر : غاية المرام ١٩٩ ، ب ، وانظر : الأبيكار ٩١/٢ ب ١٩٣ .

(٢) انظر : غاية المرام ١١٠٢ ، ب ، والمآخذ ١٧٩ - ٨١ ب ، والموافقة لابن تيمية ٢١٢/٢ - ٢١٤ .

(٣) انظر : الموافقة لابن تيمية ٢٠/١ ، ٢١ ، ومعارج الوصول ٧ ، ٨ ، وفتاوى ابن تيمية ٥/٢٥٤ .

وقد استدلل ابن تومرت على وجوده تعالى بأدلة القرآن الكريم من حيث الاختراع والعناية، ولكنه اعتمد في حدوث العالم على فكرة الجوهر والعرض أيضا^(١). أما رفع هذا الدليل تماما من المجال الميتافيزيقي، من إثبات وجود الله ومن إثبات حدوث العالم، والاقتصار في استخدامه على تفسير الموجودات الطبيعية المشاهدة كما سنبينه - فهذا مالا نجده إلا عند الآمدي فيما نعلم.

ولنا على النقد السابق جملة ملاحظات نلخصها فيما يلي :

أولاً- إن تمسك الآمدي بوجود الجواهر الروحانية المجردة ضد دعوى انحصار الموجودات في الجواهر والأعراض قد سبقه إليه الشهرستاني والرازي، غير أنهما وإن انتقدا هذا الدليل من هذه الناحية لم يرفضاه تماما كما فعل الآمدي في غاية المرام. بل استندا إلى دليل الإمكان ودليل الحركة والسكون وكلاهما صورة له أو جزء منه. وقد أشار ابن تيمية إلى نقد الرازي والشهرستاني والآمدي لهذا الدليل من ناحية عدم شموله للمجردات^(٢).

فالرازي سبق إلى انتقاد دليل الجوهر والعرض للمجردات^(٣)، والشهرستاني شبه قول بعض المعتزلة بإرادة الله المخلوقة لا في محل بقول الفلاسفة بالجواهر العقلية الموجود لافي محل كالعقول والنفوس^(٤). كما نجد مثل هذا أيضا عند ابن الوزير اليماني إذ ذكر أقسام الموجودات : المتحيز وصفة المتحيز وقسما ثالثا " ليس بمتحيز ولا صفة لمتحيز، هو الأرواح عند بعض أهل الكلام وإرادة الباري سبحانه وتعالى عند البهاشمة من المعتزلة^(٥). وقد نسب القول بالمجردات أيضا إلى النصير الطوسي^(٦).

على أن السهروردي المقتول - المعاصر للآمدي - قد انتقد دليل الجوهر والعرض من ناحية عدم شموله لما قام البرهان على وجوده وهي العقول التي لا تتغير أبدا^(٧)، كما عرف القول بالجواهر المجردة عن ابن سبئين والغزالي وابن عربي وغيرهم من الصوفية الذين

(١) انظر : تاريخ فلسفة الإسلام ١/ ٢٦٥ - ٢٦٧. (٢) بغية المراتد ص ٢٥، والمواقفة ٢/ ٢١٢.

(٣) الرازي : الأربعين ٦. (٤) الملل والنحل ١/ ٩٨، ٩٩. (٥) ترجيح أساليب القرآن ص ٨١.

(٦) انظر : معالم الفلسفة الإسلامية ص ٨٣، وقارن شرح التجريد للحلي مع حاشية توضيح المراد ص ٢٧٩ وما

بعدها. (٧) نقد المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ص ٨٥.

حرصوا على إثبات روحانية النفس^(١)، غير أن الآمدى وإن لم يقطع بوجود المجردات يرى صعوبة الاستدلال على نفيها^(٢).

ثانيا - أما النقد الثاني، وهو المتعلق بعدم تطبيق فكرة الجوهر والعرض على ما لم نشاهده من الأجرام السماوية، فنجد لدى ابن رشد في مناهج الأدلة^(٣)، وعلى كثرة ما وجه إلى دليل الجوهر والعرض من نقد فلم أجد هذا النقد لغيره فيما وقع لي، فلعل الآمدى متأثر به، أو يكون قد تأثر أيضا بما قرره ابن سينا وغيره من استحالة الخرق والالتقام على السماء^(٤)، غير أنه مما يبعد هذا استدلال الآمدى في الأبيكار على إبطال قول الفلاسفة: «إن الأفلاك غير قابلة للحركة المستقيمة والفساد»، وأنها بسيطة كرية لا تقبل الخرق والشق^(٥). أمثائر بما ذكره ابن رشد متابعاً لأرسطو من اختلاف مادة الجرم السماوى عن الأجرام الأرضية^(٦). أو بفكرته هو التى سبقه إليها الرازى فى عدم تماثل الأجسام^(٧) وسيأتى بيانها فيما بعد. أو أنه لا يريد أن يجازف بالحكم على غيب لم نشاهده ولم نعرف عن حقيقة تكوينه شيئا، والأرجح أن هذا النقد خاصة يرجع إلى تأثر الآمدى بابن رشد فى هذا الصدد.

ثالثا - أما نقده لحجة الحركة والسكون فقد سبقه به الرازى صاحب هذه الحجة الذى يحكى عنه الآمدى فى المآخذ: «قال الإمام هذا ما يحضرنى فى تقرير هذه الحجة بعد الأفكار المتوالية فى مدة أربعين سنة»^(٨) وهى عبارة توحى بأن الرجل، بعد استعراضه^(٩) لجوانب الضعف والقوة فى حجته، يستشعر أنها غير حاسمة ولا تخلو من اضطراب.

لقد تعرضت فكرة الجوهر والعرض لألوان من النقد من كثير من المفكرين، فمن

(١) انظر: تاريخ فلسفة الإسلام د/ هويدى ١/ ٣٣٤-٣٣٦، ومعالن الفلسفة الإسلامية ص ٨٣، ٨٤، وبحث أستاذنا الدكتور قاسم عن (الخيال عند ابن عربى) ص ٤، ٥ ط - دار سجل العرب، ومنهج وتطبيقه للدكتور مذكور ١/ ١٥٧، ١٥٨.

(٢) الأبيكار ٢/ ٨٦. (٣) انظر: مناهج الأدلة ص ١٤٢، ١٤٣.

(٤) انظر: النجاة ١٣٩، ١٤٠، وعيون المسائل للفرابى ص ١١، ١٣، والكندى وفلسفته ٦٠، ٦١.

(٥) الأبيكار ١٣١ - ٣٤ ب. (٦) نظرية المعرفة عند ابن رشد ص ١١٥، ١١٦.

(٧) انظر: الأبيكار ٢/ ٢٥ والمآخذ ١٦٥، ب والموافقة - ٢/ ٢٢٤. (٨) المآخذ ل ١٨١.

(٩) انظر: المآخذ ل / ٨٠، ٨١.

الفلاسفة ابن سينا^(١) ، والفارابي^(٢) ، والحسن بن سوار البغدادي^(٣) ، وابن رشد^(٤) وأبو البركات البغدادي^(٥) . ومن المتكلمين النظام^(٦) ، والشهرستاني والرازي كما سبق ، ومن الظاهرية ابن حزم^(٧) . ومن السلفيين ابن تيمية في كثير من كتبه^(٨) ، وابن أبي العز الحنفي أحد المتأثرين به^(٩) ، وابن الوزير اليماني^(١٠) .

ولكن الآمدى - فيما نعلم - هو أول أشعري يتعرض لنقده تفصيلا ، ثم يرى عدم استخدامه في إثبات وجود الله أو في حدوث العالم كما فعل أسلافه ، ولقد كان الرجل يحس بما في هذا الموقف من خطر الخروج على المألوف ، ولكن يكفيه إخلاصه ونزاهته وحرصه على الحقيقة وحدها ، فهو يقول بعد نقده لهذا الدليل وللدليل الإمكان : « وليس المقصود غير الإنصاف وتجنب طرق الاعتساف ، وإلا لما اهتممنا بالكشف عن هذه العورات ، ولا الإبانة عن هذه الغمرات ، وهذا إنما يعرفه الفطن الثبت الواعى لا الجاهل البعيد المتعامى^(١١) .

وأرى أنه كان موفقاً في إبعاد هذا الدليل عن المجال العقائدى ؛ لما أنه يقوم على فروض ليس من السهل البرهنة عليها ، ولأنه يعتمد إلى التعميم دون حجة علمية ، ولأنه يثير شكوكا من الأفضل أن تجنب العقائد أخطارها .

ولست أشك في أصالة فكرة الجوهر والعرض ومميزاتها من الناحية الفلسفية ، وأنها كما يلاحظ أستاذنا الدكتور النشار^(١٢) تؤكد فكرة الخلق المستمر ، وتدعم شمول القدرة الإلهية . ولكنى لا أرى بعد كل هذه الاعتراضات أنها حسمت مشكلة حدوث العالم ،

(١) انظر : النجاة ص ١٢٨ - ١٣٠ . (٢) عيون المسائل ص ١١

(٣) انظر : محاضرات في الفلسفة د/ هويدى ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) انظر : مناهج الأدلة ص ١٣٥ - ١٤٤ ومقدمته ص ١٢ - ١٥ .

(٥) انظر : نقد المشائية ص ٦١ - ٦٦ . (٦) انظر : نشأة الفكر ١/ ٥٦٨ - ٥٧٠ ، والفصل ٥/ ٩٢ .

(٧) انظر : الفصل ٥/ ٩٢ - ١٠٨ ، ومحاضرات في الفلسفة د/ هويدى ص ١٤ - ١٩ ، ونشأة الفكر د/ النشار ٥٣٤/١ .

(٨) راجع المواضع التى سلفت الإشارة إليها والموافقة ١/ ١٩٠ - ٢٣٠ ، ٢/ ٢١٩ وما بعدها ، وابن تيمية السلفى ٧١ - ٧٤ . (٩) انظر : شرح الطحاوية ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(١٠) انظر : ترجيح أساليب القرآن ص ٧٦ - ٨٦ . (١١) غاية المرام ١٠٢ ب ، ١١٠٣ .

(١٢) انظر : نشأة الفكر ١/ ٢٦٣ - ٢٦٥ ، ٥٣٣ - ٥٣٨ .

كما يقول بعض الباحثين^(١). أما إثبات وجود الله فلا يتوقف على ذلك وله أدلة أخرى أقرب إلى العقول والقلوب ، وأما تأكيد القدرة فقد زعم ابن حزم أن فى القول بعدم تنهاى التجزئة تأكيداً أكثر للقدرة الإلهية، وإذن فالمجال الوحيد الذى يمكن أن تصلح له هذه الفكرة هو مجال الأجسام الطبيعية، المشاهدة وتفسير تغيراتها المختلفة كما رأى الآمدى، وهذا مقبول منه فى عصره ، أما فى الوقت الحاضر فلعلنا فى غنى عن مثل هذه الفكرة بالتقدم العلمى المعاصر.

٢- نقده لدليل الممكن والواجب :

(١) يعرض الآمدى لدليل الممكن والواجب الذى كان جزءاً من دليل الجوهر والعرض فأفرد الجوينى دليلاً على حياله، فيتتبع فى «الابكار» صورته المختلفة عند الجوينى وغيره ، وينتقده من نفس الوجوه التى أخذها على دليل الجوهر والعرض كما سلفت الإشارة ، وهو فى غاية المرام ينسبه إلى الجوينى^(٢) أيضاً، ولكنه يشير إلى أنه ليس إلا تطويراً لدليل الجوهر والعرض أو جزءاً منه يعرض فى صورة جديدة . وقد نسبته إلى الجوينى أيضاً الشهرستانى^(٣) وابن رشد^(٤)، والآمدى يعرضه معتمداً على الإرشاد والنظامية فيما يبدو^(٥)، وتبدو فيه أفكار فلسفية كالكرات الأربع أو الخمس التى يتكون منها العالم^(٦).

وهو ينص فى غاية المرام على أن هذا الدليل معارض بالوجوه التى سبق ذكرها بشأن الجوهر والعرض بالإضافة إلى أنه يتطلب بيان تنهاى الأبعاد وإثبات الخلاء^(٧)، حتى يمكن تصور التيامن والتياسر بالنسبة لمكان العالم . وقد أشار ابن رشد إلى ارتباط فكرة الخلاء بفكرة الجوهر والعرض ، وبين صعوبة إثباته^(٨) . كما قرر ابن سينا من قبل أن فرض إمكان تغير الوضع والمكان والحركة يقتضى خلاء بالضرورة^(٩)، وبين فى موضع

(١) انظر : نقد المشائية الإسلامية بعد ابن سينا ص ١٦ وما بعدها .

(٢) انظر : غاية المرام ١٩٧، وقارن الإرشاد للجوينى ٢٨-٢٩ .

(٣) نهاية الأقدام ص ٢ . (٤) مناهج الأدلة ص ١٤٤ .

(٥) انظر : غاية المرام ١٩٧، وقارن الإرشاد ص ٢٨ ، ٢٩ ، والنظامية ص ١٣ ، والجوينى إمام الحرمين ص ١٨٦-١٨٨ .

(٦) انظر : الكندى وفلسفته ص ٦٠ ، ٦١ .

(٧) انظر : غاية المرام النسخة المطبوعة ص ٢٥٠ (٨) انظر : مناهج الأدلة ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٩) انظر : طبيعيات الشفاء - الفن الثانى ص ٢١ بتحقيق استاذنا د/ قاسم .

آخر فساد القول به^(١) . ولقد كانت المسألة موضع خلاف بين متقدمي المتكلمين كما يدل على ذلك قول الأشعري في المقالات : « واختلفوا فيمن مد يده وراء العالم على مقالتين : فقال قائلون يمتد مع يده فهذا يكون مكانا ليده ؛ لأن المتحرك لا يتحرك إلا في شيء ، وقال قائلون تمتد يده وتتحرك لا في شيء^(٢) . » والآمدى لا يدلي برأى في مسألة الخلاء ، ولكنه يشير إلى صعوبة إثباته ، فكيف يبنى الدليل على أساس غير مستقر تماما؟ وكلامه هنا يوحى بتأثره بابن رشد أيضا .

(ب) كما أنه ينتقد هذا الدليل بأنه يبنى على فكرة الجواز وتساوى الممكنات ، وهي فكرة اعتزالية^(٣) تسربت إلى الفلسفة ، وظهرت لدى الأشاعرة منذ الباقلاني^(٤) . ولقد كان لابن رشد فضل كبير في نقد هذه الفكرة وبيان تعارضها مع مبدأ الحكمة الإلهية ، ومع القوانين العلمية^(٥) . كما انتقدها ابن عربي في الفتوحات^(٦) ، وابن تيمية فيما بعد في عدة كتب له^(٧) . والآمدى يرى أن إثبات الفكرة « متعذر جدا »^(٨) ، وهو يؤكد هذا المعنى مرة ثانية في رده^(٩) على عرض الشهرستاني لدليل الإمكان ، عرضاً لم ينجح من الوقوع في نفس المحاذير التي ترتبت على دليل الجوهر والعرض واعترف بها نفسه كما سبق – ولذا يسخر منه الآمدى فيقول : « ولقد فرمما لا طاقة له به إلى ما لا قبل له به^(١٠) » .

ج – هذا وقد عرض الآمدى لفكرة أخرى – لها صلة بفكرة الإمكان^(١١) – حاول بها الشهرستاني إثبات الحدوث ، وذلك بأن زاد في أقسام التقدم والتأخر قسماً سادساً على

(١) الفن الثالث ص ٧٠ من طبيعيات الشفاء بتحقيق استاذنا د/ قاسم .

(٢) المقالات ١٠٧/٢ ، وانظر : في مسألة الخلاء وخلافهم حولها وأهميتها معالم الفلسفة الإسلامية ص ٧٣ ، ٧٤ ، وتجديد الفكر الديني لإقبال ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٩٣ ، وانظر : منهاج السنة لابن تيمية ط بولاق ٢٣/٣ والموافقة له ٢٠٤/١ (٤) انظر : التمهيد ص ٤٥ .

(٥) انظر : مناهج الأدلة ومقدمته ص ١٥ – ١٨ ، ١٤٤ – ١٤٧ ، ١٩٩ ونظرية المعرفة عند ابن رشد ١٠٣ – ١٠٩ (٦) الفتوحات المكية ٢/٢٨٩ .

(٧) انظر : تجريد النصيحة ص ٣٢٠ ، ومنهاج السنة ط بولاق ٢٣/٣ ، ٥٨ ، والموافقة النسخة المصورة ص ٣٧

(٨) غاية المرام ل ١٧٢ . (٩) انظر : السابق ٩٧ ب .

(١٠) السابق ١٩٨ ، وانظر : الأبهكار ١/١٤٤ .

(١١) انظر : السابق ١٠٠ ب ، ونهاية الأقدام ص ٨ ، ١٥ .

ما ذكره الفلاسفة من التقدم بالزمان والشرف والرتبة والطبع والعلية ، وهو التقدم بالذات والوجود ، وقرر أن تقدم الله على العالم هو تقدم بالوجود ، لما أن وجود المفيد يجب أن يكون متقدما على وجود المستفيد^(١) . وهو يرد عليه بأننا حتى لو سلمنا بزيادة القسم السادس - مع إمكان رده إلى الأقسام الخمسة - فلا يلزم التناقض من القول بوجوب تقدم الباري - تعالى - على العالم بالعلية ومن كونه معه بالوجود كما تدعيه الفلاسفة ، إذ هما من مرتبتين مختلفتين، وإنما يلزم التناقض أن لو قيل إنه سابق عليه بالوجود ومعه بالوجود^(٢) . ولا يفوتنا أن نذكر أن الآمدى كان في (أبكار الأفكار) قد قبل هذا التقسيم السداسي للتقدم والتأخر متأثرا بالشهرستاني فيما يبدو^(٣) ، ولكنه في غاية المرام لا يرى مسوغا لزيادة هذا القسم كما لا يرى له قيمة في إثبات حدوث العالم . مما يؤكد تطور آرائه فيما بين الكتابين المذكورين .

وإذا كان الآمدى يبطل كل الأدلة التقليدية على حدوث العالم فما عمدته في إثبات حدوثه ؟

عرفنا أنه في الأبكار يعتمد على دليل الجوهر والعرض، أما في غاية المرام فهو يعتمد على دليل التناهي - الذي اعتمد عليه في إثبات وجود الله تعالى - على أن نبدا بما نلاحظه من الموجودات المتغيرة الكائنة الفاسدة في عالمنا هذا ، وكذا ما نشاهده من الحركة اليومية الحاضرة للأجرام السماوية، ثم نستخدم الطريقة المذكورة - ويصفها الآمدى بالطريقة الرشيقية^(٤) - في إثبات تناهي هذه الحوادث المتعاقبة، وأن لها بداية، ويلزم من ذلك حدوث الأجرام العلوية نفسها بناء على تناهي ما قام بها من الحركات ، وهي لا تخلو من حركة أصلا باعتراف الخصوم القائلين بقدم هذه الأجرام . وهذا بدوره يستلزم حدوث العقول والنفوس المشرفة على تلك الأجرام والأفلاك وكذا حدوث المعلول الأول الصادر عن واجب الوجود ؛ لكون ما وجد عن هذا العقل وما وجد عن هذه العقول والنفوس أيضا وجد بالذات والإيجاب، فهو متأخر عنها بالذات ولكنه معها بالزمان باعترافهم^(٥) . وإذا ثبت حدوث العالم بكل أجزائه العلوية والسفلية ؛ فلا بد أن يكون

(١) انظر : السابق ١١٠١ . (٢) انظر : غاية المرام ل ١١٠٢ .

(٣) الأبكار ل ٨٢ / ٢ ب . (٤) انظر : غاية المرام ١١٠٣ .

(٥) انظر : غاية المرام ١١٠٣ .

صادرا عن خالقه بطريق الإرادة والاختيار ؛ إذ لو استند إلى ذات المرجح فقط لما تأخر عنه في الوجود لحظة واحدة ، أما إن قيل إن جميع أوقات الحدوث سواء بالنسبة إلى الإرادة فالآمدى يرد على هذا بأنه يشبه قول القائل « لم كانت الإرادة إرادة (١) » ، هكذا يتشبه الآمدى بهذا الرد ، الذى هو عمدة أكثر المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم (٢) ، وإن كان بعضهم قد أحس بضعفه فالتمس إجابات أخرى (٣) . وهى فى نظرى من أضعف النقط فى مذهب ؛ إذ تؤول إلى الترجيح بدون مرجح وهو مبدأ لا يقبله الآمدى (٤) .

ولكنه يعتمد على هذه الفكرة أيضا فى رده على شبهة القائلين بقدم العالم ، بناء على أن كل ما يستند إليه العالم متحقق منذ الأزل فلم يتأخر وجوده ؟ وهو ما يعرف بدليل العلة التامة ؛ فيقول : « لا مانع من أن يكون حدوث العالم مستندا إلى إرادة قديمة اقتضت حدوثه فى الوقت الذى حدث فيه ، واقتضت استمرار عدمه إلى ذلك الوقت أيضا فعند ذلك لا يكون الحدوث والتجدد لتجدد شئ ولا لعدمه » (٥) . هذا فضلا عن أن الدليل - وهو دليل التناهى الذى اعتمد عليه الآمدى فى بيان وجود الله وحدوث العالم - قد دل على استحالة وجود العالم أزلا ، ووجود الشئ يتوقف على جوازه أولا ، ولكن استحالة ما لا يتناهى لا تتعارض مع جواز المتناهى ، وإرادة الله إنما تتعلق بالجائزات لا بالمستحيلات (٦) .

* * *

(١) انظر : السابق .

(٢) انظر : الاقتصاد ٥١ ، ٦٣ ، ٦٤ وشرح الأصول الخمسة ١١٦ ، والمآخذ ١٧٢ ، ونهاية الأقدام ٤٠ - ٤٢ ، وحوار بين الفلاسفة والمتكلمين ص ١٢ .

(٣) انظر : الأربعين ٤٢ ، ٤٣ . (٤) انظر : الأبهكار ل ١ / ٤٧ ، ٢ / ٤٦ ، المآخذ ١٦٥ ب .

(٥) غاية المرام ل ١١٠ .

(٦) انظر : غاية المرام ١٠٥ ب ، حيث يرد على فكرة (الجود) التى قال بها ابن سينا والفارابى وبنيا عليها قدم العالم .

المبحث الثانى

طبيعة الأجسام وتغيراتها :

ومع أن الآمدى لا يرتضى فكرة الجوهر والعرض أساسا للبرهنة على جود الله ولا على حدوث العالم، ويرى أنها قد تصلح - بل استخدمت عند بعضهم - دليلا على قدم العالم^(١)، فإنه انتهى إلى قبولها فيما يتعلق بالأجسام الطبيعية فى عالمنا هذا الأرضى ، لا فيما يخص الموجودات المغيبة عنا كالأجرام السماوية التى لا نعرف طبيعة تكوينها الحقيقى .

ونصوبه كثيرة فى هذا الصدد ، فمن ذلك :

أ- أنه يقول فى (غاية المرام) - وهو الكتاب الذى انتقد فيه فكرة الجوهر والعرض - بعد عرضه لهذا الدليل : « وهذه الطريقة وإن أمكن فيها بيان وجود الأعراض، وكونها زائدة على الجواهر، وإبطال القول بالكمون والانتقال ، فقد يصعب بيان امتناع عرو جوهر عنها^(٢) . » ومعنى هذا أنه يسلم بتكون الأجسام الأرضية من جواهر وأعراض، وينتقد تعميم الفكرة فى سائر الموجودات الأخرى .

ب- ويقرر - فى نفس الكتاب ، بعد عرضه لطريقة الأكوان الأربعة - أنه ليس يلزم من جواز تبدل الاجتماع والافتراق على بعض الجواهر السفلية مثله فى الجواهر العلوية ، فإنه لا مانع من أن يكون ذلك لها باعتبار خصوصياتها^(٣) ، وهذا يعنى تسليمه بفكرة الجواهر والأعراض فيما يتعلق بالأجسام الأرضية .

ج- ومن ذلك تعريفه للجسم فى أكثر من موضع بأنه « كل ما ائتلف من جوهرين فصاعدا^(٤) » .

والقول بتركيب الأجسام الطبيعية من مادة أصلية تقوم بها وأعراض تحل فيها، نجده عند بعض معارضى فكرة الجوهر والعرض الكلامية؛ كابن تيمية مثلا^(٥) .

(١) انظر : غاية المرام ١١٠٢ . (٢) السابق . (٣) السابق ٩٧ ب .

(٤) غاية المرام ٦٦ ب ، وانظر : مثل ذلك فى الأبهكار ١/ ٢١٠ ب ، ١٢١١ .

(٥) انظر : الموافقة ١/ ٢٦١ ، ٢٦٢ .

وربما كان هذا هو المجال الذى يمكن أن تؤدي فيه هذه الفكرة دوراً مناسباً فى تصور العالم باعتباره مخلوقاً لله تعالى بجملته وتفصيلاته ، مرتبطاً بقدرة خالقه - تعالى - وإرادته فى كل لحظة من لحظات وجوده . وهو الهدف الذى من أجله سادت هذه الفكرة فى الأوساط الإسلامية ، وإن كان إقحامها على مسألتى وجود الله وحدوث العالم كاد يحول دون ذلك أو يغطى عليه^(١) .

فإن الله يخلق الأجزاء أو الجواهر، ثم تفنى بفناء أعراضها المتجددة فيعيد خلقها ، فوجودها يستند فى كل الأحوال والأزمنة إلى التدخل الإلهى ، « وهذا هو الخلق الجديد أو الخلق المستمر »^(٢) كما يفهمه الأشاعرة ، وهو جوهر الفكرة فى هذا البناء المذهبى الخاص . غير أن الأمدى وإن أخذ بفكرة الجوهر والعرض هنا فإنه يدخل عليها بعض التعديلات :

(أ) فالأشاعرة جميعاً يقولون بتجانس الجواهر ، وأما هو فيميل إلى تباينها ، وهو بعد أن يشير إلى اتفاق الأشاعرة وأكثر المعتزلة على أن الجواهر متماثلة متجانسة ، لا اشتراكها فى التحيز وقبول الأعراض ، والقيام بالنفس ، يتساءل : وما المانع من كون الجواهر مختلفة بذواتها وإن اشتركت فيما ذكرتموه من الصفات ؟ فإنه لا مانع من اشتراك المختلفات فى خواص تعمها^(٣) .

(ب) وهو يحكى إجماع المتكلمين على أنها لا شكل لها^(٤) ، لكنه يقول : إن فيما وقع عليه اتفاق المتكلمين ، من نفى الشكل عن الجوهر الفرد ، نظراً ؛ فإنه إذا كان الشكل هو ما يحيط به حد واحد أو حدود على ما قيل - والحد هو النهاية - فلا يخفى أن الجوهر الفرد له نهاية وحد محيط به . . إلا أن يكون إطلاق الشكل عندهم على ما يحيط به حد أو حدود من المركبات ، فالجوهر الفرد على هذا لا يكون مشكلاً^(٥) . أى أنه يميل إلى أنها ذات شكل ولكنها ليست فى شكلها كالأجسام المركبة .

(١) انظر : نشأة الفكر د/ النشار ١/ ٥٣٨ وما بعدها ، ومحاضرات فى الفلسفة الإسلامية للدكتور هويدى ص ٤٣

- ٤٥ . (٢) نشأة الفكر ١/ ٥٣٨ ، ٥٣٩ . (٣) الأبيكار ١٦/ ٢ .

(٤) انظر : الأبيكار ١١٦/ ٢ ، ب ، وانظر : نشأة الفكر ١/ ٥٣١ ، ٥٣٢ . (٥) الأبيكار ١٦/ ٢ ب .

(ج) ثم يتحدث عن الأجسام المركبة من الجواهر، وتناهى أبعادها، ومالها من الصفات^(١)، ويعرض أدلة تماثل الأجسام واختلافها، وينقد الطرفين دون أن يدلى برأى^(٢)، ولكننا نعلم أن الجواهر إذا كانت غير متجانسة - كما يقول - والأجسام مركبة منها، فالأجسام إذن غير متجانسة. وقد أشرت من قبل إلى أنه صرح في «الآخذ» بعدم تماثل الأجسام.

وقد اهتم ابن تيمية بفكرة عدم تماثل الأجسام، وتحمس لها، حتى ليقول: «ومن تصور الأمور وعرف ما يقول علم أنه ليس بين هذا الجسم المعين وهذا الجسم المعين قدر مشترك موجود في الخارج أصلاً، بل كل منهما متميز عن الآخر بنفسه المتناولة لذاته وصفاته، ولكن يشتركان في المقدارية، وغيرها من الأحكام اللازمة للأجسام»^(٣).

ولكن ابن تيمية مسبوق في هذا بالآمدى والرازى وآخرين من المتكلمين، وإذن فليس من الدقة أن ينسب الاستاذ الهراس^(٤) إلى المتكلمين - عدا النظام - القول بأن الأجسام بأسرها متماثلة؛ فلا يتميز عندهم جسم عن جسم إلا بما يخلقه الله فيه من أعراض. بل إن ابن تيمية نفسه يحكى غير ذلك عنهم، ويذكر اعتراض الآمدى والرازى على أدلة تماثل الأجسام^(٥).

وكما يفسر الآمدى بناء الأجسام على أساس فكرة الجواهر والأعراض، فإنه يستند إليها أيضاً في تفسير التغيرات التي تطرأ عليها، فالله تعالى يخلق الجواهر لتبقى، أما الأعراض فمتجددة «لأننا نعلم بالاضطرار أن ما شاهدناه بالأمس من الجبال الراسية والسموات والأرض هو عين ما نشاهده اليوم، وكذلك نعلم بالاضطرار أن من فاتحنا في كلام هو عين من ختام الكلام معه، وأن عين زوجة الإنسان بالأمس وأولاده وأمواله ومعارفه هي الباقية اليوم وغداً، وأيضاً فإنه لو كانت الجواهر متجددة لما مات حتى.. وذلك مكابرة للعقل، وأن الدليل إنما دل على امتناع بقاء الأعراض»^(٦).

وفي موضع آخر يتحدث عن تجدد الأعراض فيقول: «مذهب أهل الحق من الأشاعرة

(١) انظر: السابق ل ١٦ ب وما بعدها. (٢) الأبهكار ٢/ ٢٥٠ وانظر: شرح الأصول الخمسة ٩٠.

(٣) الموافقة ٢/ ٢٦٢. (٤) انظر ابن تيمية السلفى ص ١٨٠.

(٥) انظر: الموافقة ٢/ ٢٦٣. (٦) الأبهكار ٢/ ١٦، ب.

أن الأعراض بجمليتها غير باقية ولكن الله تعالى قادر على خلق كل واحد من آحادها في أى وقت شاء من غير تخصيص بوقت دون وقت»^(١) . ويستعرض أدلة الأصحاب وينقدها، ويؤيد الدليل القائل: لو أمكن بقاء العرض في الزمن الثانى لما تصور عليه العدم فيه ، وكذلك فى الذى يليه، ويليه واللازم فممتنع بالإجماع وبشهادة المحس^(٢) . ويجيب من عارض ذلك ، وهو اعتراض يتردد كثيرا عند ابن تيمية^(٣) ؛ بأننا نشاهد استمرار السواد والبياض بقوله: « ذلك لا يدل على اتحاد المشاهد لجواز أن يكون أمثالا متعاقبة من غير تخلل فاصل كما نشاهده من الماء الدافق من أنبوب كأنه متصل لانقطاع له وهو من أمثال متجددة»^(٤) .

ويعقد الأمدى فصلا آخر فى « الأبكار » لأقوال الفلاسفة فى كون العناصر وفسادها واستحالتها ومناقضتهم فى ذلك ، فيبدأ بتعريف الكون عندهم بأنه (استبدال حال الشئ من العدم إلى الوجود دفعة واحدة)^(٥) والفساد عكسه ، « وأما الاستحالة فتبدل حالة مادة بأخرى يسيرا يسيرا لا دفعة واحدة كالتسخن بعد التبرد أو التبرد بعد السخونة»^(٦) .

ثم يشير إلى أن منهم من أنكر الكون والفساد والاستحالة ، وفسر كل ذلك بكمون ظاهر أو ظهور كامن^(٧) ، وقد سبق للآمدى أن أبطل فكرة الكمون ورأى أنها تؤدي إلى اجتماع النقائص كما قال غيره من الأشاعرة^(٨) ، ثم يلاحظ الآمدى أن تفسير تغيرات المواد أو الاجسام بما يسمونه الكون والفساد والاستحالة ينبنى على رأيهم فى تركيب الاجسام من المادة والصورة^(٩) ، وهو ما سبق أن عارضه ولم يوافق عليه^(١٠) ، ومن ثم لا يقبل ما بنى عليه « وأما القول بالكون والفساد لصورها الجوهرية والاستحالة

(١) الأبكار ٢/ ٤٤ ب .

(٢) الأبكار ٢/ ٤٥ ب .

(٣) الموافقة ٢/ ٢٦٠ - ٢٦٣ .

(٤) الأبكار ٢/ ٣٥ ب .

(٥) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٦) انظر : الأبكار ٢/ ٦٤٨ ، وما بعدها ونشأة الفكر ١/ ٥٦٧ ، ٥٦٨ وانظر : أيضا فى الرد على الكمون

بحر الكلام ص ٥٥ وشرح الأصول الخمسة ١٠٤ - ١٠٨ ، وما سبق فى ص ٢١٣ .

(٧) انظر : الأبكار ٢/ ١٣٦ .

(٨) انظر : الأبكار ١/ ٢٠٨ ب - ٢١٠ ب .

لكيفياتها العرضية وإن كان أشبه الأقوال عندهم وعليه اعتماد المحصلين منهم، وربما احتجوا فقالوا يدل عليه ما نشاهده في بعض البلاد الباردة من تكاثف الهواء وانعقاده بالبرد مطرا من غير تصاعد أبخرة . . وما نشاهده من تبدل الكيفيات الملموسة على العناصر كتبدل برد الماء بالحرارة . . وما ذكروه من انعقاد الهواء مطرا - فلا يسلم أنه كون وفساد بل الرب تعالى يخلق المطر مع بقاء الهواء بحاله» (١) وإن سلم انعقاد الهواء مطرا فلا نسلم أنه كون وفساد، بل زوال عرض وحدوث عرض، والجواهر الهوائية والمائية بحالها. إنها محاولة لتفسير الطبيعة على نحو يخالف المفهوم الأرسطي، ويهدف إلى إسناد كل التغيرات فيها إلى قدرة الله تعالى وإرادته المباشرتين، وفكرة الجواهر والعرض تبدو وسيلة مناسبة لتحقيق هذا الهدف، ولكننا نلاحظ أنها لا تتسق مع ما يميل إليه الآمدى من عدم تماثل الجواهر والأجسام، وإن كانت أكثر انسجاما مع فكرة جمهور المتكلمين عن تجانس الجواهر والأجسام وأن اختلافها بالاعراض فقط.

* * *

المبحث الثالث

المكان والزمان :

من أهم الأعراض التى تقوم بالأجسام ما يعرف لدى المتكلمين بالأكوان الأربعة؛ وهى الاجتماع والافتراق والحركة والسكون^(١) .. والكون هو « ما يوجب اختصاص الجوهر أو الجسم بحيزه أو مكانه »^(٢) ، وقد أجمع العقلاء على وجود المكان خلافا لطائفة من قدماء الفلاسفة، فإنكارهم يقرب من جحد الضرورة^(٣) ؛ « فإننا نرى الأشياء تتبادل المحال ونعلم أن الجسم الثانى قد حل فيما كان الأول حالا فيه، وهذا هو المعنى به. »^(٤) ثم يعرض لتعريف المكان فيقول : « وقد اختلف الناس فيه : فمن قائل هو ما يستقر الشيء عليه كمقعد الإنسان من الأرض .. فقال أفلاطون مكان الجسم هيولاه؛ فإن المكان ما كان قابلا لتعاقب الأجسام عليه . ومنهم من قال : مكان الجسم صورته . ومنهم من قال مكان الجسم هى الأبعاد التى بين غاياته . ومنهم من قال المكان هو السطح الباطن للجسم الحاوى المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوى .. ومنهم من قال المكان هو الخلاء »^(٥) .

ويناقش الآمدى هذه الآراء جميعا ليخلص إلى قوله : « فالأشبه بالمكان أنه السطح، على ما قال به الفلاسفة . و ما هو اللائق بأصول أصحابنا أن المكان إنما هو الجواهر المجتمعة المحيطة بالجواهر أو الجسم المحاط به، وإن كنت لم أجد فى ذلك عنهم نصاً لا فى هذا ولا فى غيره فيما يرجع إلى معنى المكان، ولعل غيرى قد اطلع عليه »^(٦) . وقد ذكر الأشعرى هذا القول الأخير ضمن خمسة أقوال للإسلاميين فى تعريف المكان ، ولكن سردها حاكياً دون أن يشير إلى رأيه الخاص ، والآمدى يفتن ههنا إلى أن التطبيق المنطقى لفكرة الجواهر والأعراض يفضى إلى تجزؤ المكان وأنه مجموعة جواهر متجاورة، ولما كان التجاور والالتزام نفسه عرضاً كالاتفاق ؛ فإن التماسك البادى فى الأمكنة إنما هو بخلق الله تعالى^(٧) .

(١) انظر : الأبهكار ٢/ ١٤٨ وشرح الأصول الخمسة ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) الأبهكار ٢/ ٤٨ ب . (٣) نفس المصدر ص ٤٩ ب .

(٤) الأبهكار ٢/ ٤٩ ب ، ١٥٠ . (٥) الأبهكار ٢/ ٥٠ ب ، ١٥١ .

(٦) الأبهكار ٢/ ١٥٢ . (٧) انظر المقالات ٢/ ١١٥ ، ١١٦ .

ثم يعرض الآمدى بعد ذلك لأمر يتصل بمسألة المكان وهو وجود الخلاء ، ولكنه يستعرض حجج المثبتين له والنفاة، ويورد عليها الإشكالات قائلا فى النهاية : « فالمسألة عند الطرفين غير يقينية عندى ، ومن ظهر له اليقين فعليه باعتقاده »^(١) . وقد سبق أن أشرنا إلى اعتراضه على دليل (الممكن والواجب) بأنه يقوم على افتراض خلاء وراء العالم وهى مسألة مشكوك فيها فى نظره ، فنجد الآمدى يتوقف فى المسألة (فى الأبدكار) ، ثم يميل فى (غاية المرام) إلى قريب من موقف الفلاسفة .

أما الزمان : « فقد اختلف الناس فيه ، فمنهم من قال إنه لا وجود له أصلا ، ومنهم من قال إنه موجود . ثم اختلف القائلون بالوجود ؛ فمنهم من قال إنه لا وجود له فى غير الأذهان ، ومنهم من قال إنه موجود فى الأعيان »^(٢) . ثم يقول : « ومن هؤلاء من قال إنه جوهر لكنه متجدد ، وآخرون قالوا إنه جوهر باق وهو جرم الفلك . وأما من قالوا إنه عرض ، فقال بعضهم هو عبارة عن نسبة لموجود لم يزل ولا يزال إلى ما ليس بأزلى ويزول ، وقال آخرون إنه مقارنة لموجود لموجود ، وقال آخرون منهم بل هو مقدار الحركة الفلكية . »^(٣) .

ثم يناقش الآمدى هذه الآراء جميعا مفضلا رأى الأخير - وقد نسبته الأشعرى فى المقالات إلى الجبائى^(٤) - : « فإذا ليس هو إلا مقدار الحركة وهو ما تطابقه الحركة وتقع فيه . . وهو على التقضى والتجدد وبين كل جزءين منه آن وهو نهاية الزمان ومقطعه . . وليس بجوهر ؛ لأنه لو كان جوهر لم يخل إما أن يكون من الجواهر المحسوسة أولا . . فإن كان الثانى خرج عن أن يكون فيه الجوهر المحسوس . . وإن كان محسوسا فلا بد وأن يكون فى زمان ، فإن كان نفسه ، فهو محال ، وإن كان فى غيره لزم التسلسل . فقد ثبت أن الزمان عرض ، ومن جملة الأعراض مقدار ، ومن المقادير متصل ، ومع اتصاله فعلى التقضى والتجدد ، فهو أحد أنواع الكم . وبطل كل ما قيل من المذاهب فيه »^(٥) .

(١) الأبدكار ٥٣/٢ ب .
(٢) الأبدكار ٦١/٢ ب .
(٣) انظر : الأبدكار ٦١/٢ ب .
(٤) انظر مقالات الإسلاميين ١١٦/٢ .
(٥) الأبدكار ٦٢/٢ ب - ١٦٣ .

ونحن نلاحظ أن ما رجحه الآمدى هنا يلتقى مع ما نسبته إلى الأصحاب فى شأن المكان ؛ من حيث تأكيد الخلق الإلهى المتجدد لهذا العرض المتجدد، لحظة بعد لحظة ؛ الذى يبدو سيالا كالماء الدافق من الصنبور ، كما يمثل الآمدى لتتابع الأعراض، فهى ليست إلا أمثالا متجاوزة يخلقها الله سبحانه شيئا بعد شئ، فيحفظ عليها دوامها ودوام الكائنات التى تعرض لها؛ «إن العادة فقط هى التى تظهر لنا الكون واحدا فى امتداده، ولكنه فى الحقيقة فى تغير مستمر وغلbian دائم، والقدرة الإلهية فاعلة أبدا» (١) .

ومع تفضيل الآمدى لهذا رأى فإنه لا يطمئن إليه كل الاطمئنان ويقول : «واعلم أن هذا هو أشبه ما قيل فى الزمان، ومع هذا ففيه نظر ؛ إذ لقائل أن يقول لا نسلم أن المفهوم من الزمان أمر وجودى» (٢) ، ويفيض الآمدى فى بيان هذا الاعتراض وما يترتب على كون الزمان وجوديا من مشكلات ، إلى أن يقول : «وهذه المحالات إنما لزم من القول بوجود الزمان فلا وجود ، وعلى هذا فلا بعد فى قول القائل : إن الزمان هو ما يقدره المقدر ويفرضه الفارض من مقارنة موجود لموجود .. وإن سلمنا أنه موجود لكن ما المانع أن يكون وجوده فى الأذهان لا فى الأعيان» (٣) .

وهكذا ينتهى الآمدى فى تحليله إلى أن الزمان مجرد فكرة إنسانية ينتزعها الذهن من جريان الحوادث الكونية ونسبة بعضها إلى بعض ، وإذن فالزمن لا ينشأ إلا مع حدوث العالم ووجود الإنسان الذى يفترض هذه الفروض ، ويلقى بتصوراته على الوجود . وهو رأى يتسق تماما مع فكرته التى أكدها مرارا عن خلق العالم ؛ من أنه يتم من غير مادة وفى غير زمان، ومارد به على القائلين بالقدم ؛ من أن الزمان جزء من العالم فكيف يتقدم عليه، وأن وجوده تعالى غير زمانى، بل هو أزلى خارج عن حدود الزمان والمكان سابق على وجودهما . إنها التفرقة بين "الأزل" و "الزمان" التى يرى أستاذنا الدكتور محمود قاسم أنها الطريق السليم إلى حل معضلة القدم والحدوث، والتى سبق للكندى وابن رشد أن قالا بها فى قوة ووضوح (٤) ، وقد نجدها عند بعض قدامى المتكلمين (٥) .

(١) نشأة الفكر ١/ ٥٣٩ . (٢) الأبهكار ٢/ ١٦٣ . (٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) انظر : ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٠١ ، ١٧٤ .

(٥) انظر : مقالات الإسلاميين للأشعرى ٢/ ١١٦ ، ١١٧ ، واللغة للحصنى بتحقيق الكوثرى ص ٢٨ ، والمآخذ ١٧٥ ، ٧٦ ب .

المبحث الرابع

الحركة والسكون :

يبدأ الآمدى فى « الأبهكار » بتعريف الحركة عند الفلاسفة فيقول : « والذي عليه إجماع الفلاسفة أن الحركة معنى وجودى، وعبروا عنها بأنها استبدال حالة قارة فى المحل بأخرى يسيرا يسيرا لا دفعة واحدة »^(١)، ويذكر أنها عندهم تشمل الانتقال المكانى، والتغير فى الكيف كالأسوداد والاحمرار التدريجى، وفى الكم كالنمو والاضمحلال والذبول والتكثف والتخلخل. وأما السكون فعبارة عن عدم الحركة فيما من شأنه أن يكون قابلا لها^(٢).

ولكنه ينتقد هذا التعريف الفلسفى على أساس من نظرية الجوهر والعرض وما يترتب عليها من تفسير للمكان - كما سبق بيانه^(٣) - فيقول : « وما ذكره فى رسم الحركة فغير صحيح ؛ فإننا لو فرضنا مكانين لا يفصلهما ثالث ، وفرضنا جوهرًا تحرك من أحدهما إلى الآخر ، فإما أن يقال بأن تلك الحركة متجددة أو غير متجددة ، فإن قيل بالتجدد ، فكل جزء منها لابد وأن يقطع جزءًا ومكانًا غير ما يقطعه الآخر، ويلزم من ذلك أن يكون بين المكانين المفروضين أمكنة أخرى ، وهو خلاف الفرض. وإن قيل بعدم التجدد فلم يصح ما ذكره فى حد الحركة من الاستبدال يسيرا يسيرا »^(٤).

غير أن تفسير الفلاسفة للحركة مرتبط بتصورهم للمادة وقبولها للتجزؤ - ولو فرضا - إلى مالا نهائية له ، خلافا لما يراه المتكلمون من استحالة التجزؤ إلى مالا نهائية له فعلا أو وهماً. ولارتباط فكرة الحركة بالمادة وبنائها لنجد النظام حين قال ببطلان الجوهر الفرد وإمكان التجزؤ إلى مالا نهائية ، ذهب إلى تفسير الحركة بما سماه « الطفرة » ، وهو أن الجسم قد يكون فى مكان ثم يطفر منه إلى غيره دون أن يمر بما بينهما^(٥). وقد عارض الآمدى فكرة الطفرة ، ثم ذكر أن « الأصحاب » ، ومعهم أكثر العقلاء^(٦)، على أن اسم

(١) الأبهكار ٥٣/٢ ب . (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) راجع ما مر فى ص ٤١٧ . (٤) الأبهكار ٥٣/٢ ب .

(٥) انظر : الفرق بين الفرق ١١٣ - ١٢٣ ونشأة الفكر ١/٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٦) فى رسائل الخوان الصفا قسم ٢ الرسالة الأولى ص ٨ أن هذا هو تعريف الحركة عند جمهور الناس وهى قاصرة على حركة النقلة .

الحركة والسكون لا يطلق على غير الحصول فى المكان والخروج عنه ، ثم قالوا بأن الخروج من المكان الأول والدخول فى الثانى هو الحركة، أما الكون الثانى فى الزمان الثانى سواء فى المكان الأول أو فى المكان الثانى بعد الانتقال إليه فسكون . واختلفوا فى بعض التفاصيل كحالة الجوهر أول خلقه ؛ أهو متحرك أم ساكن ؟ وكذا حول كونه الأول فى المكان الثانى ؛ هل هو حركة أو سكون ؟ إلى غير ذلك . والآمدى يعارض من يقول إن الكون الأول فى المكان الثانى سكون - مع أن هذا هو قول أئمة المذهب كالقاضى والإمام أبى المعالى - كما يذكر الآمدى - لأنه هو نفس الخروج من المكان الأول وهو حركة بالاتفاق فكيف يكون سكونا به (١) ؟ .

ونلاحظ على هذا التعريف أنه يربط الحركة بالمكان وبالزمان ، وأنه يقوم أصلا على فكرة الجواهر والأعراض ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أنه يعتبر السكون أمرا وجوديا وهو الحصول فى المكان زمنا ثانيا ، مع أنه يعتبره فى « غاية المرام » مجرد عدم الحركة ، ويعارض من فسروه بأنه معنى وجودى ، ويبطل على أساس ذلك حجة الحركة والسكون التى تساق لدعم الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث العالم كما مر بنا ، فهل تطور رأى الرجل واقترب من تفسير الفلاسفة للحركة والسكون ؟ هذا ما لا تسعفنا فيه النصوص ، وإن كان كلامه فى « غاية المرام » يعتبر بادرة تطور فى النظر إلى هذه المسألة العويصة (٢) .

* * *

المبحث الخامس

العلية وفكرة العادة :

إذا كانت الأجسام مكونة من جواهر وأعراض تقوم بها ، فكيف تتعاقب هذه الأعراض المختلفة من حركة أو سكون أو اجتماع أو افتراق أو غير ذلك من الأعراض على الموجودات المختلفة ؟ هل يتم ذلك بمحض الصدفة أم يخضع لنظام مطرد وقانون محكم ؟ .

هنا يلجأ الأشاعرة - ومعهم الآمدى - إلى فكرة " العادة " وملخصها :

(أ) أن الله تعالى هو الفاعل والمؤثر بقدرته المباشرة في كل ما يحدث ويتجدد في الكون من أعراض وغيرها ، ولا تأثير للأجسام بعضها في بعض سواء بتماثلها أو تباينها من حيث عناصرها الأولى ؛ يقول الآمدى : « وإن سلمنا اختلاف طبائع العناصر وصورها ، ولكن لا نتصور فعل البعض في البعض وانفعاله عنه ، فإننا قد قلنا إنه لا فاعل ولا مؤثر غير الله » (١) .

(ب) ولكن جرت عادته تعالى أن يربط كل حادث من هذه الأمور بجملة علامات أو مناسبات أو ظروف تصاحبه ، فهو دائما مقارن لها ، ويمكن تسميتها أسبابا بهذا المعنى ، وهو أن الله تعالى لا يخلق المسبب إلا عند حصول السبب ، فهو حاصل بقدرته الله لا بنفس السبب ، وإن كانا متلازمين في الوقوع . والآمدى يذكر ضمن ردوده على القائلين بتأثير الأجرام السماوية : « .. ولو قدرت صحته ، وأن وقوع الآثار الحادثة ملازم لحركات الكواكب والأفلاك ، فغير لازم أن تكون هي عللها والأسباب الموجهة لها ، لما أنه لا مانع من أن يكون الخالق والبارئ هو الله تعالى وقد أجرى العادة بوجود الحوادث ووقوع التأثيرات عندها » (٢) .

(ج) وأن هذا الترابط أو الاتساق بين الأسباب الظاهرية ومسبباتها مطرد دائما فيما يتعلق بتجاربنا وعاداتنا بشأن الظواهر الكونية ، ولكنه ليس بلازم ولا ضرورى في ذاته من وجهة النظر العقلية ؛ فإن للعقل أن يفترض - دون أن يقع في التناقض - أن الله تعالى الذى

(٢) غاية المرام ١٨٣ = ص ٢١٢ من النسخة المطبوعة .

(١) الابكار ٢/ ١٣٨ ، ب .

أجرى العادة بحصول الأشياء على هذا النحو قد يغير هذا النظام المعتاد ويستبدله بغيره على سبيل الإعجاز المؤقت أو على سبيل الدوام إذا سبق في علمه ذلك . والآمدى يصرح أن مثل هذا التغير مستحيل بالنسبة إلى عاداتنا ، ومعنى هذا تأكيد مبدأ الاطراد والنظام ، ولكنه ممكن عقليا بالمعنى الذى أسلفنا . والغرض من ذلك تأكيد القدرة الإلهية ، وبيان إمكان المعجزات ، فهو يريد على من أرادوا الطعن فى دلالة المعجزة بناء على قول الأشاعرة بفكرة العادة هذه : « إن من أصلكم جواز انقلاب العوائد ، واطراد مالم يعهد ، وعند اطرادها فلا يخفى أنها تخرج عن أن تكون معجزة ، وإذا كان كذلك فما الذى يؤمننا من اطراد معجزته ، وعموم وقوعها بعد تحديه بنبوته »^(١) بقوله فيما بعد : « وفيما ذكره من تجويز انخراق العادات فى زمننا فهو إنما يستحيل بالنظر إلى العادات لا بالنظر إلى العقلية »^(٢) .

إن فكرة الإعجاز نفسها تؤكد خضوع هذا العالم لنظام مطرد وتلك هى فكرة « القوانين العلمية » بالمعنى الحديث ، وفى تحليل القاضى الباقلانى لمعنى العادة يصل هذا المفكر الأشعرى إلى حقائق هامة ، منها تأكيد لفكرة « الاطراد » ، وبيان أن هناك مستويات للنظم المعتادة ، أو بعبارة أخرى للقوانين فى هذا الكون ، وأنها جميعا قابلة للانخراق ، إذا ما شاء واضعها - وهو الله تعالى - ، ذلك أن العادة إنما هى تكرر علم العالم بوجود الشيء المعتاد على طريقة واحدة ؛ إما بتجدد صفته وتكررها ، أو ببقائه على حال واحدة .. فالشئ المعتاد هو الأمر المتكرر على وجه واحد ، والعادات على ضروب فمنها عادة يستوى فيها جميع الناس ، ومنها ما ينفرد به بعض الناس دون بعض .. ومنها ما يكون عادة لأهل عصر دون غيرهم ، ومنها ما يكون عادة للملائكة دون الإنس ، وعادة للجن دون الملائكة والإنس ، وربما كان عادة للإنس دون غيرهم ، فالصعود إلى السماء والنزول منها ليس خارقا لعادة الملائكة ومسترقى السمع من الجن ، وإن كان مثله خارقا لعادة الإنس .. وكذلك فليس انبساط الجن وانقباضه ناقضا لعادة الجن ، ولكن مثله ناقض لعادة الإنس ، فهذا يبين أنه لا يجب تساوى الخلق أجمعين فى العادات ولا فى انخراقها^(٣) .

(١) غاية المرام ١١٢٣ = ٣٢٢ من النسخة المطبوعة . (٢) السابق ١١٢٨ = ٣٣٥ من النسخة المطبوعة .

(٣) انظر : كتاب البيان للباقلانى (ط بيروت) من ص ٥١ - ٥٣ وانظر : له ايضا التمهيد ٥٧ - ٥٩ .

وهذا الفصل الواضح الذى نجده عند الباقلانى بين الاطراد المسلم به لدى الأشاعرة وبين العلية الجوهرية التى ترى فى الأشياء قوى فاعلة مؤثرة بعضها فى البعض الآخر وهى غير مسلم بها، نجده عند أشعرى متأخر كشارح المواقف الذى يقول : « ولا علاقة بين الحوادث المتعاقبة إلا باطراد العادة بخلق بعضها عقب بعض ، كالإحراق عقب مماسة النار ، والرى بعد شرب الماء ، فليس للمماساة والشرب مدخل فى وجود الإحراق ، بل الكل واقع بإرادته واختياره تعالى^(١) » ويقرر - فى نفس الوقت - فى موضع آخر أن « إمكان نقائص ما جزمنا به من الأمور المعتادة لا ينافى الجزم بوقوعها ، أى وقوع تلك الأمور العادية جزماً مطابقاً للواقع ثابتاً لا يزول بالتشكيك ، فقد ثبت أن الجزم فى العاديات صحيح ومقبول ، وليس فيها احتمال النقيض القادح فى الجزم ، وأما احتمال النقيض بمعنى إمكانه الذاتى فليس بقادح فيها^(٢) .

إن فكرة العادة الأشعرية فكرة دقيقة تتسق مع أصول المذهب القائمة على شمول القدرة وحرية الإرادة الإلهيتين وأن أخص وصف لله هو الخالقية أو القدرة على الإيجاد^(٣) . وهى ترتبط أيضاً بمسألة النبوة والمعجزات ، وإن لم يكن هذا هو الهدف الأوحد من ورائها . وهى فى نفس الوقت ، لا تعارض العلم الذى يقوم على أن الطبيعة تخضع لنظام مطرد يبنى على اتساق محكم « فالمنهج العلمى - كما يقول أستاذنا الدكتور قاسم - يعتمد على مبدأ الحتمية القائل بأن الطبيعة تخضع لنظام مطرد عام ، وقد كان العلماء ينظرون حتى القرن الماضى إلى هذا المبدأ على أنه مطلق ، لكن تغيرت نظرتهم إليه فى القرن الحالى ، فأدخلوا فى حسابهم فكرة الاحتمال فأصبحت الحتمية نسبية لا مطلقة^(٤) ، وهذه نقطة أوفاهما أستاذنا بياناً فى عمل آخر له^(٥) ، ولكن الجديد فى البحث الذى ننقل عنه هنا أنه يحكى عن ابن عربى فكرة قريبة من فكرة العادة الأشعرية . . فالعلاقات السببية . . أمور معتادة قد وضعها الله فى الكون ، فاذا تنبأ الفلكى بالخسوف والكسوف فلا يقال إنه حصل علماً ؛ لأن الأحوال التى يبنى عليها إنما هى عن وضع إلهى

(١) المواقف بشرح الشريف ٢٤٢/١ . (٢) السابق ١٧٢/١ .

(٣) انظر : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين للألوسى ١٠٨-١١٠ .

(٤) فى بحث عن (الخيال عند ابن عربى) ص ٧٠ ، ٧١ .

(٥) انظر له : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٥٨ - ٧٣ .

وترتيب عالم حكيم استمرت به العادة ، فى حين أن العالم المؤمن يرى « أن الأمور لابد من أن تقع دائما على هذا النحو إن أبقي الله الترتيب على حاله ، وسيره فى المنازل على قدره ولم يخرق العادة به »^(١) . وهكذا لا ينفرد الأشاعرة بهذه الفكرة ، وهى أن الارتباط السببى عادى ، لا ينبع من قوة جوهر الأشياء وطبيعتها ، بل يستند إلى إرادة العالم الحكيم الذى خلقها^(٢) . وإن كان ابن عربى حريصا على تأكيد أهمية الأسباب وتأثيرها بإذن الله تعالى وحفظه لها أسبابا مؤثرة ، وينتقد هؤلاء المتظاهرين بإهمال الأسباب وهم عبيد لها فى الحقيقة^(٣) .

ويرى أستاذنا الدكتور النشار أن تكون فكرة العادة على أساس الاقتران بين ما يعتقد فى الحقيقة سببا وما يعتقد مسببا قد تم خلال بحث طويل فى المدرسة الأشعرية متسقا مع روح القرآن والسنة ومأخوذا منهما ، وكانت الغاية من وضع فكرة العادة معارضة فكرة العلية الأرسطاطاليسية وإقامة تصور للطبيعة مخالف لها^(٤) ، كما يشير إلى أن من أهدافها أيضا معارضة فكرة المعتزلة « إن الأسباب موجبة لمسبباتها » والتى تجسمت فى مبدأ التولد الطبيعى وفى فكرتهم عن خلق أفعال العباد^(٥) ، هذا وقد تعرض الآمدى لفكرة « التولد » الاعتزالية وناقشها طويلا فى الأبيكار^(٦) ، وبعد أن استعرض أدلة الأصحاب على إبطالها ونقدها قال : « فالواجب أن يكتفى فى إبطال التولد على العموم بما أسلفناه من الدليل فى امتناع وجود موجد غير الله تعالى وأن كل موجود ممكن فوجوده ليس إلا بالله تعالى »^(٧) .

أما أبو المعين النسفى الماتريدى فإنه يؤكد نفس الفكرة فى قوله : « وعندنا أن الدواء سبب والشفاء من الله ، ورؤية الشفاء من الدواء أو الطبيب كفر — بل الشفاء من الله — لأنه اتخذ شريكا مع الله فى الشفاء . والكسب والرزق من الله تعالى ورؤية الرزق من

(١) الخيال عند ابن عربى ٧١، ٧٢ .

(٢) انظر : فى بيان هذه الفكرة والدفاع عنها وعدم تعارضها مع العلم كتاب (القول الفصل) للمرحوم الشيخ مصطفى صبرى ٣٠ وما بعدها وانظر : أيضا (المجددون فى الإسلام) للمرحوم الاستاذ أمين الخولى ص ٥١ ،

٥٢ . (٣) الخيال عند ابن عربى ٧٣ .

(٤) تشاة الفكر ١/ ٣٨٨ . (٥) السابق ٥٤٦ - ٥٤٩ . (٦) ١/ ٢٧٢ - ٢٧٥ .

(٧) الأبيكار ١/ ٢٧٥ ، وانظر : نقد ابن حزم لفكرة التولد لفكرة العادة الأشعرية أيضا فى الفصل ٥ / ٥٩٠ - ٦٠٢ .

الكسب كسر ، ولبس الثياب سبب دفع الحر والبرد ، ودافع الحر والبرد هو الله تعالى» (١).

وربما كانت فكرة معمر عن المعاني اللامتناهية ، التي تصحب كل حادث في الكون وتعطى الفعل لما تحله من الأشياء ، عدولا عن الموقف الاعتزالي إلى ما يشبه موقف الأشاعرة (٢) .

كما أن الأشاعرة مع قولهم بالعادة - وربما بسبب قولهم بها - استطاعوا أن يسهموا في كشف المنهج الاستقرائي العلمي المعبر عن الروح العربي الإسلامي كما يرى أستاذنا الدكتور النشار (٣) .

ورغم هذا فقد تعرضت فكرة العادة الأشعرية للنقد في القديم والحديث ، فكان الحنابلة يرمونهم بأنهم القائلون بأن النار لا تحرق والماء لا يروى ، مما اضطر العز بن عبد السلام للرد عليهم في عقيدته التي رواها السبكي في طبقاته (٤) ، وقال فيها : « والعجب أنهم يذمون الأشعرى بقوله إن الخبز لا يشبع والماء لا يروى والنار لا تحرق . وهذا كلام أنزل الله معناه في كتابه ، فإن الشبع والرى والإحراق حوادث انفرد الله بخلقها . وما رميت إذ رميت - وأنه هو أضحك وأبكى ... الخ (٥) . » وكان من أكبر المعارضين لهذه الفكرة ابن حزم (٦) ، وكذا ابن رشد وابن تيمية ، وأستاذنا الدكتور النشار يعتبر معارضة هذا الأخير للفكرة الأشعرية « سقطة منه مبعثها التعصب (٧) » ، مع أن الرجل يعترف بالأسباب ويقرر مع ذلك أن الله خالق كل شيء ، فهو الذي جعلها أسبابا بقدرته وإرادته ، كما يخلق المسببات بأسبابها ؛ فيخلق السحاب بالريح والمطر بالسحاب والنبات بالمطر ، والأشياء تضاف إلى خالقها باعتبار وإلى أسبابها باعتبار ، فهي من الله مخلوقة له في غيره ، كما أن جميع حركات المخلوقات وصفاتها منه ، وهي من العبد صفة قائمة به . . فلا شركة بين العبد وبين الرب لاختلاف جهة الإضافة (٨) .

-
- (١) بحر الكلام ص ٣٦٠ - ٣٧٢ .
 (٢) نشأة الفكرة ١/ ٥٨٣ - ٥٨٥ .
 (٣) مناهج البحث ٢١٧ - ٢١٨ .
 (٤) انظر : الطبقات للسبكي ٨٥/ ٥ وما بعدها .
 (٥) الطبقات ٩١/ ٥ .
 (٦) الفصل ٤/ ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢١٩/ ٥ ، ٦٠ .
 (٧) انظر : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ونشأة الفكر ١/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .
 (٨) مناهج السنة ٢/ ٢٦ ، وانظر : ابن تيمية السلفى ١٨٠ - ١٨٢ .

وقد سبقه ابن رشد إلى هذا المعنى وبيان عدم التعارض بين ما أجمع عليه المسلمون من أنه لا فاعل إلا الله وبين وجود الأسباب المؤثرة في الطبيعة ، إذ هو مخترع الأسباب ، وكونها أسبابا مؤثرة هو بإذنه وحفظه^(١) ، ويرى « الأستاذ الهراس » أن ابن تيمية متأثر فعلا بابن رشد في هذه المسألة ، وفي الحق أن ابن رشد وفّى هذه المسألة حقها ، وأعطى لفكرة النظام - أو بعبارة أخرى فكرة القوانين المستندة إلى الإرادة الإلهية - وضوحا وقوة قد لا نجد لها عند غيره ، ويكفى أنه اعتمد عليها في إثبات وجود الله ووحدانيته ، وفي بيان حدوث العالم ، وفي كثير من المسائل الإنسانية كالقضاء والقدر والجور والعدل وغيرها^(٢).

ويبدو لي أن فكرة الأشاعرة عن العادة - وإن لم تكن هي المعبر الوحيد عن روح الإسلام في هذا الصدد - مقبولة وناجحة إلى حد كبير؛ فهي ترعى جانب القدرة الإلهية وشمولها كما أنها لا تعارض الأساس العلمي القائم على اتساق الكون واطراد الظواهر الكونية ، كما أنها في الوقت نفسه تربط الضمير المؤمن بالله عز وجل فلا يركن إلى سواه .. وقد لاحظ ابن تيمية من قبل هذا المعنى ولكنه رأى فيه ضرباً من (الفناء) ، قد يكون ممهداً لمزاعم الاتحادية وأصحاب وحدة الوجود ، وذلك عن طريق الانتقال من أنه لا فاعل إلا الله إلى أنه لا موجود إلا الله^(٣) . وهي فكرة لها أخطارها على العقيدة الدينية نفسها^(٤).

أما فكرتهم عن الحكمة أو الغائية في الكون فهي موضوع الفقرة التالية .

(١) انظر : مناهج الأدلة ومقدمته ١١٧ - ١١٩ ، ٢٣١ - ٢٣٣ .

(٢) انظر : في هذا كتاب أستاذنا الدكتور قاسم عن ابن رشد وفلسفته الدينية ، وكتاب مناهج الأدلة لابن رشد بتحقيقه مع مقدمته في نقد المدارس الكلامية .

(٣) انظر : رسالة الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص ١٢ وما بعدها .

(٤) انظر : في هذا تاريخ فلسفة الإسلام للدكتور هويدى ١/ ١٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٦ .

المبحث السادس

الحكمة والغاية :

تقوم هذه المشكلة أصلاً على تصور المتكلمين للإرادة الإلهية ، أهى مطلقة لا تخضع لمعايير الحسن والقبح والعدل والظلم ؟ أم هى مرتبطة بمراعاة الحكمة والعدل والمصلحة^(١) ؟ ونحن نعلم أن القرآن يصرح بوصفه تعالى بالحكمة : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾^(٢) ، ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾^(٣) ، وهو يشير فى مواطن أخرى إلى أن ما قد يبدو خلواً من الحكمة أو المصلحة من أفعاله ، تعالى ، هو فى الحقيقة أكثر انطباقاً معها ، كما نجده فى قصة الخضر وموسى عليه السلام^(٤) .

ولكن المعتزلة وضعوا أصلهم فى العدل بمعنى موافقة أفعاله تعالى لما يقتضيه العقل من المصلحة والحكمة والحسن ، وعدم صدور القبيح أو الشر عنه تعالى ، وبنوا على ذلك قولهم بوجوب الصلاح والأصلح^(٥) عليه تعالى .

فجاء الأشاعرة ليقولوا بعدم تعليل أفعاله تعالى ، وبنفى الأغراض والحكم والمصالح عنها ، فالله تعالى يريد ما يشاء ، ويفعل ما يريد وليس فى الأشياء حسن أو قبح ، ولا يجب عليه تعالى شئ قط ، فلا صلاح ولا أصلح ؛ إذ هو متصرف فى ملكه فكل ما يفعله عدل على كل حال^(٦) .

والمسألة ترتبط - كما يبدو - بعدة أسس كلامية سنعرض لها فى إيجاز لنبين موقف الآمدى منها ، وهى مسألة التحسين والتقييح العقليين ، ومسألة إيجاب الصلاح والأصلح على الله ، ثم ما يترب على ذلك أخيراً من نفى الحكمة والغرض عن أفعال الله - تعالى - أو إثباتهما .

(١) انظر هذه الفكرة فى مقدمة مناهج الأدلة لاستاذنا الدكتور قاسم ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) الآية الأولى من سورة هود . (٣) الآية الثامنة من سورة التين .

(٤) انظر : تفسير هذه الآيات عند ابن كثير ٣ / ٩١ وما بعدها ، وفى إثبات الحق لابن الوزير ٣٧٨ .

(٥) انظر : شرح الاصول الخمسة ٣٠١ وما بعدها ، نشأة الفكر ١ / ٤٧٩ - ٤٨١ .

(٦) انظر : اللعة للحلى ٤٤ ، ٤٥ وموقف البشر لمصطفى صبرى ١٤٠ ونشأة الفكر ١ / ٤٧٩ .

أولا - الحسن والتقبيح :

هل فى الأشياء قبح أو حسن ذاتى ، وهل يسع العقل إدراكهما وحده ، وما دور الشرع فى ذلك ؟

لعل المعتزلة هم أول من أثار تلك المشكلة متأثرين فى هذا بموقفهم من العقل وأحكامه من جهة ، وبحرصهم على تأكيد الأصل الأول لهم وهو التوحيد من جهة أخرى ، فالله منزّه عن الظلم وفعل القبائح حتى لا يشبه المخلوق^(١) . وإذن فلا محل للقول بأنهم متأثرون فى هذا بأفلاطون كما يقول الدكتور البير نصرى نادر ، فإن هذه المسألة قد بدأت على يد واصل نفسه وأنها « مشتقة من التوحيد - أعنى فكرة الله عند المعتزلة - إذ يعتبرونه تعالى كلى الكمال »^(٢) ، كما يقول الدكتور نادر نفسه .

والآمدى يرى بحق أن موقف المعتزلة من مسألة الحكمة ووجوب الصلاح والأصلح على الله ناشئ من قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين^(٣) ، وهو يعارضهم فيما ذهبوا إليه ، ولكنه يعرض رأيهم أولا ثم يتصدى للرد عليه بعد ذلك ، فهم يرون أن الحسن والقبح أمر ذاتى فى الأشياء وأن العقل يدرك ذلك بالبدهة أو النظر ، وقد تخفى عليه أشياء فيكشف عنها الشرع ، لكنه سبيل لإدراكها فقط ، لا لإنشائها^(٤) .

ويذكر الآمدى أنه قد اتفق معهم فى رأى الفلاسفة الإسلاميون والكرامية والخوارج^(٥) ونقله هذا دقيق^(٦) . ولكننا نستطيع أن نضيف أيضا (فى القول بأن من الحسن ما يكون ذاتيا وأنه قد يدرك عندئذ بالعقل) الماتريدية^(٧) والشيعة الإمامية^(٨) وابن رشد^(٩) وابن تيمية^(١٠) الذى نسب القول به إلى أكثر الأمة^(١١) ، وابن الوزير

(١) انظر : نشأة الفكرة ١ / ٤٨٠ ، ومقدمة مناهج الأدلة ص ٨٩ . (٢) فلسفة المعتزلة ٢ / ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) انظر : غاية المرام ٢٢٤ - ٢٤٥ ، والابكار ١ / ١٧٤ ب .

(٤) انظر : الابكار ١ / ١٧٤ ، ب وص ٢٢٤ من غاية المرام .

(٥) انظر : ص ٢٣٣ من غاية المرام ، والابكار ١ / ١٧٤ ب .

(٦) انظر : المراجع السابقة ، ونشأة الفكر ١ / ٣٨٨ ، إنباء الحق ١٩٣ - ١٤٧ ، ومنهاج السنة ١ / ١٢٤ .

(٧) انظر : بحر الكلام ١٥ - ١٧ ، ومقدمة مناهج الأدلة ٩٩ - ١٠١ .

(٨) انظر : عقائد الإمامية ١٨ - ٢٠ . (٩) انظر : مناهج الأدلة ومقدمته ١٠١ - ١٠٠ ، ٢٣٤ - ٢٣٩ .

(١٠) انظر : الاحتجاج بالقدر ١٤ - ١٧ وابن تيمية السلفى ١٨٣ .

(١١) انظر : فتاوى ابن تيمية ٥ / ٢٤٧ .

اليمانى الذى نبه على تقارب الأشاعرة والمعتزلة فى هذا الصدد ونوه بدور الرازى فى ذلك ، ونقل عن الزركشى فى شرح جمع الجوامع قوله : « إن القبح واستحقاق الذم عليه ثابت بالعقل ، وأما العقاب فمتوقف على الشرع ، وهو الذى ذكره أسعد بن على الزنجانى من أصحابنا الشافعية ، وأبو الخطاب من الحنابلة ، وذكرته الحنفية وحكوه عن أبى حنيفة ، وهو المنصور لقوته من حيث الفطرة وآيات القرآن المجيد وسلامته من الوهن والتناقض »^(١) . أما ابن حزم فقد مال إلى قريب من موقف الأشاعرة^(٢) ، وأما الزيدية فانقسموا بين الاتجاهين^(٣) .

وهكذا نجد أن أكثر الطوائف تميل إلى جانب المعتزلة فى هذه المسألة ، غير أن الكثير منهم لا يوافقونهم على ما بنوه على ذلك من عدم إراداته تعالى للشر وخلق له ، أو من وجوب بعض الأفعال عليه تعالى صلاحاً أو أصلح .

والآمدى يعرض بعد ذلك رأى الأشاعرة أو (أهل الحق) كما يراه : إن كلا من الحسن والقبح ليسا بذاتيين للأشياء ، وإن الحسن ما أذن فيه الشرع ووعد بالثواب عليه ، والقبح بعكسه . ولكنه يضيف بعد ذلك أن تحسين العقل وتقبيحه خاضع لأمر عرضية ونسب إضافية ؛ « فالحسن إذا ليس إلا ما أذن فيه أو مدح على فعله شرعاً ، أو ما تعلق به غرض عقلاً ، وكذلك القبح فى مقابلته »^(٤) .

ويبدو أن الآمدى يحس أن هذا ضرب من التطور فى المذهب الأشعرى ، ولذا يحاول تأويل مذهب القدماء من أسلافه : « إن الحسن والقبح ليس إلا ما حسنه الشرع أو قبحه » ، بأنه ضرب من التوسع فى العبارة ؛ " إذ لا سبيل إلى جحد أن ما وافق الغرض من جهة المعقول ، وإن لم يرد به الشرع المنقول ، أنه يصح تسميته حسناً »^(٥) . والذى يقوله الآمدى صحيح بالنسبة إلى متأخرى الأشاعرة أى الجوينى ومن بعده^(٦) ، ولكننا لا نجد هذا المعنى فى لمع الأشعرى ولا تمهيد الباقلانى ولا أصول البغدادى ، فهو اتجاه تطورى نناه

(١) انظر : إنبار الحق ٣٧٧ - ٣٧٩ . (٢) انظر : الفصل ٣/ ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٨ ، ١٨٧ .

(٣) انظر : مقالات الإسلاميين ١/ ١٣٨ ، ١٣٩ . (٤) غاية المرام ٩١ ب . (٥) غاية المرام ٩١ ب .

(٦) انظر : الإرشاد للجوينى ٢٦١ ، والاقتصاد للغزالى ٩٦ ، ونهاية الاقدام للشهرستانى ٣٧١ - ٣٧٣ ، والمعالم للرازى ٨٣ - ٨٥ .

الرازي فيما انتهى إليه من القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، ورده إلى ثلاثة أمور هي :
البلوغ أو القصور عما هو كمال في نظر العقل ، وموافقة الغرض أو مخالفته ، وفعل ما
يستوجب الذم والعقاب أو المدح والثواب . وقرر أن العقل يستطيع أن يدرك وحده
الأمرين الأولين ، وأن الكمال والنقص هما ذاتيان باتفاق كحسن العلم وقبح الجهل .

بل لقد ذكر الأستاذ الزركان أن الرازي مال أخيرا إلى وجهة نظر المعتزلة المتأخرين،
وهم الذين قالوا إن الحسن والقبح ليسا لذوات الأشياء ، ولكن لما تقع عليه من الوجوه
والأحوال ، ونسب ذلك إلى القاضي عبد الجبار^(١) ، وبالرجوع إلى « المغني » نستخلص
ذهابه إلى أن من الحسن والقبح ما يكون ذاتيا وما يكون عارضا ، وكلاهما يدرك بالعقل
وحده أحيانا، وبالشرع أحيانا^(٢) ، وهو على أى حال تطور كبير واقترب من موقف
الاشاعرة ، واتفاق تام مع من ذكرنا من السلفية والصوفية والمحدثين ومن الفلاسفة ،
وتأكيد لما لا حظ به الوزير من تقارب الطوائف حول هذه المسألة .

وقد يشفع لنا هذا في ترك المناقشات التي يوردها الآمدى هنا في مواجهة المعتزلة ومن
وافقه ، ولكننا نشير إلى نماذج منها كمعالم لتفكيره في هذا الصدد .

أ- يقرر الآمدى أن المرء لو خلى ودواعي نفسه ، وتجرد من مؤثرات مجتمعه وأعراف
قومه ومن ميوله ومنافعه الشخصية ، لما حكم بتحسين شيء مما يحسنه ، أو لاختلف
حكمه في هذا ، ويسوق بعض الشواهد على ذلك كتحریم البراهمة ذبح الحيوان وجواز
ذلك عند المسلمين ، وقد نجد مثل هذه الفكرة لدى رجال علم النفس الاجتماعي^(٣) أو
بعض علماء الأخلاق المحدثين، ولكنه يبدو - من ناحية أخرى - فرضا خياليا لا سبيل إلى
تحقيقه ، فضلا عن أن مفكرين آخرين يقولون إن أصول الفضائل الإنسانية مستقرة في فطرة
البشر، ولم يوجد قط من يقول بقبح الصدق والوفاء وحسن الكذب والخيانة، وإن صح
ذلك بالنسبة إلى بعض التفصيلات والصور التطبيقية التي يمكن القول بأنها نسبية حقا^(٤)

(١) انظر : فخر الدين وآرؤه ٥٢٣ وما بعدها ، وقد حكي الآمدى هذا الرأي في المآخذ (١٥٣) .

(٢) انظر : المغني ١٣٥/١١ وما بعدها ، ١٤٩/١٤ - ١٦١ ، ١٩ / ٥٥ وما بعدها .

(٣) انظر : مقدمة في علم النفس الاجتماعي ط ١٩٦٩ ترجمة أستاذنا د/ قاسم ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٤) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ٩٣ ، ٩٤ ، وجمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته ١٣١ - ١٤٦ ، ٢١٥ .

ومنها ما يتمسك به الآمدى كمثال الوشاية بمظلوم وإسلامه لظالمه ونحو ذلك^(١) ، على أن غيره من المتكلمين قد ناقشوا هذه الأمثلة من قديم^(٢) ، هذا فضلا عن أن الآمدى يتناقض أحيانا فيما يورده من أمثلة ، فهو يناقش قبح الجهل ويقول : إننا لم ننف الجهل عنه - تعالى - لمجرد قبحه عقليا بل لقيام الدليل القاطع على اتصافه بالعلم المحيط ، ولكننا حتى لو تساهلنا في قبول كلامه هذا^(٣) ، نذكر أنه استدل على العلم بالإرادة وأثبت هذه الأخيرة بقاعدة الكمال ؛ وهي أن كونه غير مرید نقص في ذاته بالنسبة لمن اتصف بالإرادة ، وهذا اعتراف بالتحسين العقلي على نحو ما قال به الرازي من قبل^(٤) .

ب- يحاول الآمدى التعمق في تفسير الأحكام الإنسانية وما قد تتعرض له من مؤثرات فيذكر حب المرء لذاته ، وإيثاره ما ينفعها على ما يضرها ، وميل الإنسان إلى تعميم الأحكام والغفلة عما ينقض ذلك من الوقائع لندرتة^(٥) ، وهي نظرة لا تخلو من عمق ودقة ، وقد تكون صحيحة بالنسبة إلى كثير من الأحكام الإنسانية ، إلا أنه مسبوق فيها بالإمام الغزالي وغيره^(٦) ، كما أنها على أية حال لا تهدم ما سبقت الإشارة إليه من الاتفاق على أمهات الفضائل ، أو على جمال الفضيلة ، وقبح الرذيلة بعامة ، والآمدى نفسه لا يجد بأسا من التسليم بمثل هذا الاتفاق ، ولكنه يتمسك بأنه لا يدل على أن سبب الاتفاق هو الحسن الذاتي للأمر المتفق عليها^(٧) . ونقول له هنا : وخصومك أيضا يسلمون بأن الحسن والقبح قد يكون راجعا إلى غير الذات من الوجوه والأحوال ، فلم يعد للخلاف بينكما مجال .

ج- والشئ المؤسف أن الآمدى يلجأ في جدله هذا إلى ذكر أمثلة من الظواهر الكونية التي هي في نظره لاغرض فيها ، ولا جدوى من ورائها في حياة الإنسان المادية أو الروحية ؛ بدليل تسببها في هلاك الكثير من الناس ، وإعراض أكثر الخلق عن الاعتبار بها ، وكفرهم بخالقها . وهذا كلام يبدو متهافتا ، فالعلماء الذين يكابدون البحث يقررون أن الأرض

(١) انظر : ص ٢٣٧ من غاية المرام ، والأبكار ١ / ١١٧٧ .

(٢) انظر : شرح الأصول الخمسة ٣٠٢ - ٣٠٨ . (٣) انظر : ص ٢٣٩ من غاية المرام = ل ١٩٣ .

(٤) انظر : ما سبق في ص ٤٣٢ . .

(٥) انظر : ص ٢٣٧ من غاية المرام ، والأبكار ١ / ١١٧٨ - ١٨٠ ب .

(٦) انظر : الاقتصاد ٩٧ - ١١٠ ونهاية الأقدام ٢٧٢ ، ٢٧٣ والدراسات النفسية عند المسلمين ص ١٨٠ .

(٧) انظر : ص ٢٣٩ من غاية المرام .

بيئة صالحة مهياة لحياة الإنسان وازدهارها ، وأن هناك عناية فى الكون لا يمكن أن تنسب إلى الصدفة أو الاتفاق^(١) ، وهو ما يقرره القرآن الكريم صراحة فى مثل قوله - سبحانه : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾^(٣) ، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم الْأَرْضَ ذُلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾^(٤) .

وقد بين ذلك ابن رشد واعتمد عليه بعض المتكلمين من قبل فى إثبات وجود الله ومنهم الشيخ الأشعرى نفسه ، فضلاً عن أن هذا الكلام يتعارض مع ما يقرره الأمدى من حسن كل ما يصدر عن الله تعالى : «واتفقوا (أى الأشاعرة) على أن فعل الله تعالى حسن بكل حال ، وأنه موصوف بذلك أبداً وسرمداً وافق الغرض أو خالف ، وأن ذلك مما لا يتغير ولا يتبدل بنسبة أو إضافة ... وأما ما كان من أفعال العقلاء فموصوفة بالحسن والقبح باعتبار موافقة الأغراض ومخالفتها أو بمعنى أن لهم فعلها»^(٥) . فكيف يجره الجدل إلى مثل ذلك؟ إنه يريد أن يكشف عن عجز العقل عن اكتشاف الحكمة أو مناط الحسن فى مثل هذه الأمور، لإفساد أصل المعتزلة العقلى الذى يراه خطراً على العقيدة ، ولكن المعتزلة أنفسهم - بالإضافة إلى تعديلهم لقاعدتهم هذه - كانوا أهدى سبيلاً ، إذ قرروا أن الله تعالى فاعل للحسن وعالم به ، ولا يخلو إما أن يفعله لاحتياجه إليه ، وذلك مستحيل ... أو يفعله لحسنه ، فإذا بطل أحد الوجهين بقى الآخر^(٦) . كما أجهدوا عقولهم «فى بيان وجه حسن ابتداء الله تعالى لخلق الخلق وإنشاء الأيام ، وفى وجه الحكمة فى التكليف»^(٧) ونحو ذلك مما تقف أمامه عقول الأشاعرة - ولو لدواعى الجدل المذهبى - جامدة أو جاحدة .

حقاً إن العقل قد لا يكون هو الأداة المثلى لتبين وجوه الجمال والحسن والإبداع فى هذا الوجود ، ولقد أخفق المعتزلة أحياناً بسبب قصور منهجهم فى بيان الحكمة فيما تصدوا له ؛ كقولهم فى حكمة التكليف إنها ترجع إلى التمتع بالشواب بلا منة من الخالق ،

(١) انظر : مناهج الأدلة ٢٥ ، ٢٦ والمنطق الحديث ومناهج البحث ص ٧٣ - ٧٧ .

(٢) الآية ٣ من سورة الجاثية . (٣) الآية ١٣ من سورة الجاثية .

(٤) الآية ١٥ من سورة الملك . (٥) الأبيكار ١ / ١٧٦ ب .

(٦) شرح الأصول الخمسة ص ٣٠٧ . (٧) انظر : المغنى ١١ / ١٠٠ وما بعدها .

وهو كلام سخيّف حقاً يلوذ الآمدى منه «بجناب الجبروت ، ويستعيد بعظمة الملكوت»^(١) ، والمعتزلة أنفسهم قد أحسوا بضعفه واختلفوا حوله^(٢) ، ولكنها على كل حال محاولة مخلصة وإن كانت قاصرة .

وربما كانت البصيرة والاندماج الروحي والوجد الصوفي هي البديل الحق عن العقل فى هذا المقام ، وهو ما نجده لدى الصوفية ، وخاصة ابن عربى - معاصر الآمدى - الذى يقول أستاذنا الدكتور محمود قاسم فى أحد أبحاثه عنه : «يجب الاعتراف هنا أن السياق النفسى لمعرفة الله عن طريق هذا الوجد الصوفى المشبوب بالخيال ربما كان أكثر إنسانية، أو أقل جفافاً من البرهنة العقلية على وجود الله ، كذلك البرهنة التى نجد لها لدى المتكلمين والفلاسفة . أليس لنا أن نتساءل إذا ما كان وصف الوحي لله بصفات شبيهة بصفات الإنسان من ضحك وفرح وتعجب وتبشش واستواء على العرش ونزول وبصر وعلم وكلام وهولة . . أقرب إلى إثارة الخيال منه إلى قبول العقل . ويستشهد أستاذنا بقول ابن عربى : «وهذا كله خارج عن الدلالة العقلية ، إلا أن نتأوله فيقبله العقل، ثم يقارن موقفه بموقف الرومانتيكيين فى أوروبا حيث سعموا البرهنة العقلية على وجود الله ، وعزفوا عن استخدام التفسير الآلى للكون عند نيوتن كدليل على وجوده تعالى ، إنهم لا يريدون إلها يستدل عليه بالعقل ، بل يريدون إلها يشعر به وجدانهم ، فالخيال عندهم هو النبع المتدفق للطاقة الروحية»^(٣) ، ويشير أستاذنا إلى سر النعمة العالية التى نجد لها لدى الشيخ الأكبر فى تمجيد العالم ومظاهر الجمال فيه؛ إذ هو عنده مجلى الأسماء الإلهية والصورة الظاهرة للحقيقة الباطنة الأحدية ، ومن ثم كان الوجود كله خيراً لا شراً فيه؛ إن الوجود خير محض ، وإن ما نراه نقصاً أو شراً ليس إلا عرضاً لا وجود له فى ذاته ، ويستشهد لذلك قائلاً : «إن استقامة القوس فى اعوجاجها»^(٤) .

ويبدو أن روح ابن عربى هذه قد امتدت فى تلاميذه ، ومنهم جلال الدين الرومى صاحب المثنوى الذى يقول عنه أحد علماء الهند المعاصرين : «كان العالم الإسلامى فى حاجة إلى شخصية تستطيع أن تنفخ بقلبها الولوع وعاطفتها القوية روحاً جديدة فى

(١) انظر غاية المرام ل ١٩٤ = ص ٢٤٠ . (٢) انظر : نهاية الاقدام ٤٠٥ .

(٣) انظر : الخيال عند ابن عربى ص ٤٩ ، ٥٠ . (٤) السابق ص ٢١ .

المجتمع الذى طغى عليه العقل على حساب العاطفة.. شخصية تستطيع أن تؤسس كلاما جديدا لا يصرع العقول ، ولا يكتفى بإفحام المجادلين ، بل يحل العقد النفسية والفكرية التى خلفها علم الكلام ، ويملا القلوب سكية وإيمانا ، لقد وجد هذا الرجل المطلوب فى شخصية مولانا جلال الدين الرومى^(١) . « فهل كان العالم الإسلامى يمر حينئذ بمرحلة من الإعراض أو النفور من المناهج العقلية ، بعد أن مل طرائق المتكلمين وجدلهم وخلافاتهم الحقيقية والوهمية ، فالتفت إلى نعمة جديدة ورجال جدد من شعراء الحب الإلهى وعلى رأسهم جلال الدين الرومى ، وأصحاب الوحدة وشيوخهم الأكبر ابن عربى ، والاتحاديين ونقيبهم ابن الفارض ، وصوفية السنة وعلى رأسهم الجيلانى والشاذلى وأبو العباس المرسى وأمثالهم ؟

لعل هذا العامل نفسه هو سر ظهور المدرسة الأخرى التى اقتسمت مع الصوفية وبقيت المدارس الكلامية ؛ وبخاصة الأشعرية والماتريدية ، النفوذ على العقل المسلم حتى اليوم^(٢) ، وهى مدرسة ابن تيمية الذى تحدث كثيرا عن الحب^(٣) ، وعنى تلاميذه بالتصوف ، وكانت جرعة الإثبات فى حديثه عن الله أكثر من جرعة النفى والتنزيه ، حتى لينكر أستاذنا الدكتور على النشار « ما ينبثق من روح اللذة الحسية من وصف ابن تيمية لربه »^(٤) . واقتران هاتين النزعتين فى مدرسة ابن تيمية يذكركنا بقول ابن عربى « لولا طريق التشبيه ما أحب الله أحد »^(٥) ، ويدعوننا إلى مراجعة المنهج الكلامى المسرف فى التنزيه والتجريد الخالى من روح الحب ونفحة الخيال فى نظراته إلى الخالق والخلق أو العالم والله ، وهو الأمر الذى تنبغى معالجته بالعودة إلى القرآن الكريم الذى تستهدف آياته إقامة صلة حميمة ودود ، بين ضمير المؤمن والكون كله من ناحية ، والخالق سبحانه وتعالى من ناحية أخرى .

ثانيا - مسألة الصلاح والأصلح :

رغم اتفاق المعتزلة على الحكمة والغرض وتعليق أفعاله تعالى بالحكم والمصالح^(٦) ،

(١) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ٢٥٦ .

(٢) انظر : " تمهيد " للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٣) انظر : نشأة الفكر للنشار ١ / ٣٨٨ - ٣٩١ . (٤) انظر نشأة الفكر للنشار ١ / ٣٩١ .

(٥) الخيال عند ابن عربى ص ٥٥ .

(٦) انظر : المغنى ١١ / ٥٨ - ١٣٣ ، وشرح الاصول الخمسة ٣٠١ - ٣١٣ .

فقد اختلفوا فقال البصريون منهم بوجوب الصلاح فقط ، وقال البغداديون بوجوب الأصلح أيضا على الله تعالى^(١) ، والآمدى يشير إلى هذه الحقيقة ويستغل هذا الخلاف ليضرب بعضهم ببعض ، فيورد حجج البصريين ضد إخوانهم من موجبي الأصلح^(٢) ، كما يذكر اختلافهم حول بدء الخلق وتهيئة أسباب التكليف هل هو واجب أم لا ، فالبصريون على عدم الوجوب ، والبغداديون يقولون بالوجوب وهو ما يتفق مع المصادر الاعتزالية نفسها^(٣) .

ويعرض الآمدى فى مقابلة ذلك وجهة نظر أصحابه : « إن البارى تعالى خلق العالم وأبدعه لا لغاية يستند الإبداع إليها ، ولا حكمة يتوقف الخلق عليها ، بل كل ما أبدعه من خير وشر ونفع وضر لم يكن لغرض قاده إليه ، ولا لمقصود أوجب الفعل عليه ، بل الخلق وأن لا خلق له جائزان ، وهما بالنسبة إليه سيان »^(٤) .

وهذا موقف يتسق مع نفيهم للتحسين والتقبيح ، ومع حرصهم على تأكيد حرية الإرادة وشمول القدرة الإلهيتين ، ومع نفيهم للعلية والإيجاب . ولكنه يبدو لى ، من بعض جوانبه ، غير متفق تماما مع تكرار معنى الغائية الذى نجده واضحا فى كثير من آيات القرآن ، ومع التصريح بالحكمة والغرضية فى كثير منها : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا - الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء - وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . . . ﴾^(٥) إلى آخر هذه الآيات الناطقة بالحكمة وأن العالم أعد لحياة الإنسان وازدهاره وتمهيد طريقه إلى معرفة ربه وتحقيق سعادته العاجلة والآجلة .

وأقول « من بعض جوانبه » ؛ لأن للأشاعرة الحق فى أن ينتقدوا موقف المعتزلة فى الإيجاب على الله ، فهذا خطأ فاحش ، وتطبيق للمعايير الإنسانية على الله تعالى ، وقد رأينا أن كثيرا من المعتزلة أنفسهم يتحرجون فى تطبيق هذا المبدأ ولا يذهبون به إلى مداه كما فعله البغداديون منهم ، وإذا كان الآمدى قد حرص على أن يحلل معانى « الواجب »

(١) انظر : المغنى ٣٣/ ١٤ - ١٨٠ ، والملل والنحل ٥٦/ ١ ، ٥٧ .

(٢) انظر غاية المرام ١٨٨ ، والابكار ١٩١/ ١ ب - ١٩٤ .

(٣) انظر : المغنى ١٤ / ١١٠ - ١٣٧ . (٤) غاية المرام ل ١٨٨ = ص ٢٢٤ .

(٥) الآيات على التتابع : ٥٦ الذاريات ، ١١٥ المؤمنون ، ٢٢ البقرة ، ٢٧ ص .

ليبين أن أيا منها لا ينطبق عليه تعالى (١) « فقد سبقه الأشاعرة منذ شيخهم في الحملة على المعتزلة من هذه الناحية ، ورميهم بسوء الأدب مع الله تعالى (٢) . وهي حملة لا ينفردون بها بل نجدها على أشد ما تكون عند ابن حزم الظاهري (٣) والماتريدية (٤) والسلفيين (٥) . ولا شك أن المعتزلة يسرفون على أنفسهم في هذا مهما حاولوا تخفيفه وتبريره (٦) ، ولكن الشيء الذى لا يقنع أيضا محاولة الآمدى نفى الغرض والحكمة والصلاح عن الله تعالى وأفعاله - بناء على استحالة عود الغرض إلى ذاته لأن معنى ذلك تكمله به ، وهي فكرة لها أصل عند الفلاسفة الإسلاميين (٧) ، ولا إلى المخلوق نفسه فإن تجربة الحياة نفسها تحمل كل عاقل على أن يتمنى أن لو لم يوجد (٨) ، وهي روح تشاؤمية تحدثت عنها في ختام المسألة السابقة ، وإن كان الآمدى يستشهد لذلك ببعض أقوال للسلف قالوها في مواقف خاصة بحيث لا تمثل وحدها روح الإسلام (٩) ، وربما كان أصدق منه تعبيرا قوله سبحانه : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾ (١٠) وقوله يصف المؤمنين : ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ﴾ (١١) .

والآمدى يستشعر خطر نفى الحكمة بعد أن وصف الله تعالى نفسه بالحكيم وبعد أن نطقت آيات القرآن بما يؤكد الحكمة الإلهية؛ فنجده يقول : «إننا لا ننكر كون البارى تعالى حكيما ، وذلك يتحقق بما يتقنه من صنعته ويخلقه على وفق علمه به وبإرادته» (١٢) ، لكنه لا يتمثل فى الغرض والمقصود وأن تكون له غاية من فعله فهو غير قابل لذلك أصلا . والغريب أن يضرب لذلك مثلا الرياح فى هبوبها والمياه فى خريها فهى

(١) انظر : ص ٢٢٩ من غاية المرام .

(٢) انظر : اللمع للأشعرى ١١٦-١٢٢ ، والإرشاد ٢٦٨-٢٧٢ ، والاقتصاد ٩٤ ، ٩٥ ، ونهاية الأقدام

ص ٣٨٢ - ٣٩٠ . (٣) انظر : الفصل ٩٨/٣ ، ٩٨ - ١٦٤ - ١٨٨ .

(٤) انظر : شرح النسفية ٢٩٢ ، ومقدمته مناهج الأدلة ٩٩ - ١٠١ .

(٥) انظر : الاحتجاج بالقدر ص ١٤ - ١٧ ، وشرح الطحاوية ٨٦

(٦) انظر : ص ٢١٣ من القسم الثانى ، والمغنى ١٣ / ٤٠٥ - ٤٣٠ ، وشرح الاصول الخمسة ص ٤٨٣ .

(٧) انظر : الإشارات والتنبيهات ٣ / ٥٤٧ - ٥٥٩ .

(٨) انظر : غاية المرام ص ٢٢٧ ، والابكار ١ / ١٨٨ ، ب . (٩) السابق

(١٠) الآية ٢ من سورة الملك . (١١) الآية ١٩١ من سورة آل عمران . (١٢) غاية المرام ل ١٩١ .

لا توصف بالعبث وإن لم يكن لها هدف لأنها غير قابلة لذلك^(١). وقد نقلت هذا المعنى فى تأويل الحكمة عن «الأبكار» من قبل ، وهو معنى نجده عند غيره من الأشاعرة^(٢) ، وإن حاول بعضهم الخروج عليه كما هى الحال عند الإمام الغزالى فى بعض كتبه^(٣) ؛ فإنه إذا كان من سوء الأدب أن نقول بوجوب الشئ على الله صلاحا أو أصلح^(٤) ، فلا يختلف عن ذلك أن ننفى عنه الحكمة التى أثبتها لنفسها مجرد تأكيد عموم القدرة والمشقة .

وإنى لأعتقد أن الماتريدية^(٥) ، وابن رشد^(٦) ، وابن تيمية^(٧) ، وابن الوزير اليمانى^(٨) ، وابن أبى العز الحنفى^(٩) ، وابن عربى^(١٠) ، الذين أنكروا تطرف المعتزلة والأشاعرة كليهما - أكثر توفيقا فى التعبير عن الروح القرآنية فى هذه المسألة التى تدعو إلى التفتح للحياة والاعتداد بالدور الخاص الذى يلعبه الإنسان - كل إنسان - على مسرحها ، طلبا للخلود والسعادة الدائمة فى جوار خالقه ، فكل ما فى الوجود ينم عن حكمة ويهدف إلى غاية ويؤدى وظيفة . وإن بدا لنا الأمر أحيانا على غير هذا النحو ؛ بسبب قصور عقولنا عن الإحاطة بالحكمة فى كل شئ ، وبتفاصيل هذه الحكمة التى لا يحصيها إلا مبدع العالم بأسراره ونظمه ، ومن قبل عرتب الملائكة فى قولهم : ﴿ اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ ورد عليهم سبحانه وتعالى : ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾^(١١) ، وإلا فهل يستوعب عقل نظام الكل وكيفية

(١) السابق .

(٢) انظر : المراجع على هذه المسألة فى هامش ص ٢٣٢ من غاية المرام ، وراجع ما سبق فى ص ٤٣١ .

(٣) انظر : القسطاس المستقيم ص ١١٩ ، ورسالة الحكمة فى مخلوقات الله - مجموعة الفرائد ص ١٥-٩٦ ومعارج القدس ١٤٦ ، والمقصد الأسنى ص ٣٣ ، ٣٧ .

(٤) انظر : الأبكار ١/ ٢٠٤ ، ب والمآخذ ١٥٣ ، ب ونشأة الفكر ١/ ٥٦٠ - ٥٦٥ ، ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٥) راجع : ما مر فى الصفحة السابقة . (٦) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ١٠١ - ١٢٦ .

(٧) انظر : منهاج السنة بولاق ١/ ١٢٤ - ١٢٩ ، وابن تيمية السلفى ص ١٨٣ - ١٩١ .

(٨) إثبات الحق ١٤٠ وما بعدها . (٩) شرح الطحاوية ٥٣ - ٥٧ .

(١٠) انظر : الفصوص ٢/ ١١٩ - ١٢٢ .

(١١) الآية ٣٠ من سورة البقرة ، وانظر : ص ١٠٢ من مناهج الأدلة

معلولاته على الوجه الأبلغ فى النظام (١) ، اللهم إلا إذا خرج من إنسانيته كما يرى ابن
رشد (٢) ؟

لقد وقفت مع الآمدى وأصحابه فى مسألة العلية عن اقتناع كامل . . وأرى أن
مفارقتة هذه المرة أمر لا مناص منه .

* * *

(١) معارج القدس ص ١٤٦ .

(٢) انظر : مقدمة المناهج ٤٤ ، ٤٥ .

الفصل الثالث

الإنسان

ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| المبحث الأول : النفس . | المبحث الرابع : النبوة . |
| المبحث الثاني : المعرفة . | المبحث الخامس : البعث . |
| المبحث الثالث : الفعل . | المبحث السادس : الإمامة . |

المبحث الأول

النفس

(أ) تعريفها :

يتعرض الآمدى لمسألة النفس عند الكلام عن « المعاد أو البعث » ، وهل هو جسمانى أو نفسانى أو يشمل الجسم والنفس معا ؟ .

غير أنه فى كتابيه : « غاية المرام ، والأبكار » لا يقدم لنا تعريفا محددا للنفس ، وإن كان فى كتابه (المبين فى شرح معانى الحكماء والمتكلمين) يعرفها التعريف الأرسطى المشهور (١) : « وأما النفس فعبرة عن كمال لكل جسم طبيعى من شأنه أن يفعل أفعال الحياة » ثم يضيف : « هذا رسم النفس على وجه تشترك فيه النفس الفلكية والنباتية والحيوانية والإنسانية . . فإن قيدت الرسم المذكور بالنمو والتغذى والولادة كان رسما للنفس الإنسانية » (٢) ويبدو أن فيها سقطا ؛ لأن هذه الأمور يشترك فيها كل ما سوى النفس الفلكية . وهو يفرق بين النفس وبين الحياة التى يعرفها بقوله « عبارة عن مبدأ فى النوع هو مصدر الأفعال المختلفة » (٣) ، وبينها وبين الروح التى يعرفها بقوله : « أما الروح فعبرة عن جسم لطيف بخارى منشؤه القلب وهو منبع الحياة والنفس » (٤) . وهذه تفرقة نجدها لدى ابن سينا ولدى بعض المتكلمين (٥) .

ولكن ينبغى ألا نعد كلامه فى هذا الكتاب معبرا عن رأيه الحقيقى فى مسألة النفس وحقيقتها ، فهو إنما يشرح مصطلحات القوم ، سواء وافق عليها أم لا . وقد سبق لفلاسفة الإسلام أن قبلوا هذا التعريف الأرسطى ، ولكنهم فيما يتعلق بطبيعة النفس وحقيقتها مالوا كثيرا نحو أفلاطون ، كما أوضح ذلك أستاذنا الدكتور محمود قاسم (٦) وأستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور (٧) .

(١) انظر : فى النفس والعقل د / قاسم ص ٧٠ ، ٧١ ، وفى الفلسفة الإسلامية د / مدكور ص ١٥٩ ، ١٦٠

(٢) المبين ل ١١ ب . (٣) السابق . (٤) المبين ل ١٣ ب .

(٥) فى الفلسفة الإسلامية د / مدكور ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ومقالات الإسلاميين ٢ / ٢٧ - ٢٩ .

(٦) انظر : دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ٣٥ - ٣٧ ، ٤٣ .

(٧) فى الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه ١ / ٢٠٩ ، ٢٤٢ .

أما الآمدى فإنه يرى أن النفس موجودة ، وأنها غير الجسم ، وأن البعث والإعادة لهما جميعا، وإن كان لا يعطى رأيا واضحا فيما يتعلق بحقيقة النفس وطبيعتها ، غير أن دراسته لهذه المسألة لا تخلو من فوائد، كما لا تخلو من بعض المآخذ ، فلنعرض آراءه بصدد هذا .

(ب) طبيعتها :

اختلف الإغريق حول طبيعة النفس ، فذهب بعضهم إلى كونها مادة أو جسما، وقال آخرون بأنها من طبيعة روحانية مغايرة للمواد، وتوسط البعض بين هؤلاء^(١) وهؤلاء، وقد انقسم المسلمون فى هذه المسألة إلى هذه الاتجاهات الثلاثة أيضا، بالإضافة إلى فرقة رابعة أنكرت وجود النفس جملة، ولم تعترف بغير البدن والجسد^(٢) . والآمدى يلخص هذه الآراء فى الأبيكار « بالبيان الموجز الشامل لمعانيها »^(٣) ، وهو يصنفها على نحو قريب مما سبق فيقول : « اختلف الناس فى معنى النفس الإنسانية ، فمنهم من قال إنها عرض، ومنهم من قال إنها جوهر، ومن قال إنها عرض اختلفوا ، فمنهم من قال إنها عرض خاص من الأعراض ، ولم يعينه ، وهذا هو مذهب جماعة من المتكلمين وقد نصره الإمام الهراسى من أصحابنا وغيره »^(٤) . ويذكر الآمدى حججهم التى تقوم على أن المخلوقات جميعا، إما أجسام أو أعراض، والنفس ليست جسما، وإلا كان كل جسم نفسا، ضرورة تماثل الأجسام ؛ فهى عرض^(٥) . ونلاحظ أنه لو كان أبو الحسن الأشعرى من القائلين بهذا رأى لكان بعيدا ألا يشير الآمدى إلى ذلك فى الوقت الذى ينص على الهراسى خاصة . وقد قال أبو الهذيل العلاف من قديم « بأن النفس عرض »^(٦) .

ثم يذكر القائلين القائلين بعرضيتها من غير المسلمين : « ومن قدماء الفلاسفة من قال إنها المزاج الخاص بأبدان نوع الإنسان ... من تفاعل الكيفيات الملموسة فيها ، وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .. ومنهم من قال إنها من جملة القوى الفعالة فى

(١) دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ٣، ٤ وفى النفس والعقل ص ٢٣، ٢٢، ٣٣ ، وفى الفلسفة الإسلامية د / مذكور ١ / ١٥٣، ١٥٤، ١٨٠ - ١٨٤، ١٩٥ - ٢٠٢ .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢ / ٢٨، ٢٩ ، والمحصل للرازى ١٦٣ ، وشرح المواقف ٧ / ٢٥٠ ، والمغنى ١١ / ٣١٠ .

(٣) الأبيكار : ل ٢ / ٢٠٨ ب . (٤) الأبيكار ٢ / ٢٨ ب .

(٥) السابق، وانظر : : الدراسات النفسية عند المسلمين ١٠٨ - ١١٣ وانظر : مقالات الإسلاميين ٢ / ٢٧ .

(٦) انظر : : فلسفة المعتزلة ، ٥٧ / ٢ .

الأجسام ، ومنهم من قال : النفس صفة الحياة ، ومنهم من قال إنها عبارة عن الشكل الخاص والتخطيط» (١) .

ثم يعرض للقائلين بجوهريتها : « أما من قال إنها جوهر : فمنهم من قال إنها جوهر مركب فتكون جسما ، ومنهم من قال إنها جوهر بسيط لا تركيب فيه ، فأما من قال إنها جسم فقد اختلفوا ؛ فمنهم من قال إنها عبارة عن هذه الجثة الخاصة المركبة من الجواهر والأعراض القائمة بها ، وهى ما يشير كل واحد إليها بقوله نفسى .. وهذا هو مذهب جماعة من المتكلمين» (٢) .

ويضيف الآمدى : « أما قدماء الفلاسفة فمنهم من قال إنها جسم فى داخل هذه الجثة ، ثم اختلف هؤلاء ؛ فمنهم من قال إنها جسم مركب من العناصر ، مصيرا منه إلى أن النفس مدركة للمركبات ، وإنما يدرك الشئ بشئ يشبهه (٣) .. ومنهم من قال إنها مجموع الاخلات الأربعة ، مع تناسب مخصوص بينها فى كمياتها وكيفياتها . ومنهم من قال إنها الدم .. ومنهم من قال إنها عنصر من العناصر (٤) .. ثم اختلف هؤلاء فقال فلوطرخيس : إنها النار السارية فى هذا الهيكل (٥) . وقال ديوناس إنها الهواء المستنشق . وقال تاليس إنها الماء . وذهب الأطباء إلى أن النفس هى الروح ؛ وهى جسم لطيف بخارى ناشئ من التجويف الأيسر من القلب منبث فى جميع البدن ، هو منبع الحياة والنفس (٦) » . وهنا يذكر أن أبا بكر الباقلانى قد أخذ بهذا رأى أو قريب منه قائلا : « وقد أشار القاضى إلى ما هو قريب من هذا القول وهو أن قال : النفس عبارة عن أجسام لطيفة متشابكة بالأجسام الكثيفة أجرى الله العادة بالحياة مع بقائها» (٧) . وينبغى أن أشير هنا إلى أن إمام الحرمين قد قال بذلك أيضا (٨) ، وقد انتقده ابن سبعين لذلك ،

(١) الأبهكار ٢/ ٢١٠ ب .

(٢) السابق ، وانظر : مقالات الإسلاميين ٢/ ٢٨ ، وقد قال الجبائيان بمثل هذا ونصره عبد الجبار فى المغنى ٣١١/ ١٢ وما بعدها .

(٣) هذا رأى أمبيدوقل صاحب العناصر الأربعة انظر : منهج وتطبيقه ص ١٩٥ .

(٤) هذا ما يعرف لانكسيمانس ، انظر فى النفس والعقل ص ٥ والعرب والفلسفة اليونانية ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) يعرف هذا رأى لهيراقليطس ، وقريب منه لديمقريطس ، انظر فى النفس والعقل ص ٥ ، ودراسات فى الفلسفة الإسلامية لاستاذنا د/ قاسم ص ٤٣ ، وانظر أيضا الملل والنحل ٣/ ٩٥٨ ، والعرب والفلسفة اليونانية ٣٧-٤١ ونشأة الفكر ١/ ٥٧٣ .

(٦) الأبهكار ٢/ ١٢٠٢ .

(٨) الإرشاد ص ٣٧٧ .

(٧) السابق .

بينما أثنى على ابن فورك والباقلاني لقولهما بروحانية النفس ، وإن كان يقول إن الباقلاني رمز إلى ذلك ولم يصرح به (١) ، بينما نجد أن ابن حزم ينسب إليه القول بعرضيتها (٢) .

وقد ذهب إلى قريب من هذا الرأي ابن القيم ونسبه إلى جمهور المحدثين وأهل السنة ، بل إلى الصحابة ، ونصره بأدلة كثيرة (٣) ، كما قال ابن حزم في الفصل : « وذهب سائر أهل الإسلام والمثلل المقررة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان ، عاقلة مميزة مصرفة للجسد . وبهذا نقول » (٤) ، وهو يقرر في الفصل أن النفس موجودة ، وهى غير البدن ، وأنها المدركة العاقلة المدبرة له ، وأنها المخاطبة المكلفة بالشرائع ، ويصر مع ذلك على جسميتها ، وإن كانت جسما متميزاً بخواصه (٥) ؛ حيث يقول : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسما ، ممن ينتمى إلى الإسلام بزعمه ، فقول : يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة ، ويفيض فى بيان ذلك (٦) . وقد نسب الإمام الرازى هذا الرأي إلى (المحققين) من المتكلمين (٧) .

وقد سبق للنظام - وهشام بن الحكم من قبله (٨) - أن ذهب إلى القول بأن الإنسان « هو الروح وهو الحياة المشابكة لهذا الجسد ، وأنه فى الجسد على جهة المداخلة (٩) » ، وقد رد الشهرستاني رأيه إلى الطبيعيين من الفلاسفة ، ويرى أستاذنا الدكتور النشار أنه متأثر بالرواقية وبأفلاطون وغيرهما ، ويضيف الدكتور « ألبيرنادر » إلى ذلك ديمقريطس وأمثاله من الإغريق الماديين (١٠) . والآمدى يرد الفكرة إلى الأطباء (١١) . وقد تتبع الأستاذ الدكتور مذكور فكرة (الروح الحيوانى) عند أرسطو وجالينوس . وما انتهت إليه عند ابن سينا الذى كان أميل إلى أرسطو منه إلى جالينوس الطبيب الذى كان يرى أن مركز هذه الروح وما يرتبط بها من الوظائف النفسية والعقلية هو الرأس لا القلب . ولعل

(١) انظر : تاريخ فلسفة الإسلام ١ / ٣٣٥ . (٢) الفصل ٥ / ٧٤ .

(٣) انظر : كتاب الروح لأبن القيم ص ٢٧١ وما بعدها . (٤) الفصل ٥ / ٧٤ .

(٥) الفصل ٥ / ٧٤ - ٩١ . (٦) الفصل ٥ / ٩١ وما بعدها . (٧) الأربعين للرازى ص ٢٦٧ .

(٨) انظر : نشأة الفكر د / النشار ١ / ٢٣٦ وما بعدها ، حيث يشير إلى أصل فكرتهما فى الرواقية ، وتأثرهما بأفلاطون وبعض الهنود ، ويوجد قريب من هذه الفكرة عند كليمان المفكر المسيحي السكندري (١٥٠ -

٢١٧م) ، انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية لكرم ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٩) المغنى ١١ / ٣١٠ ، وانظر : أيضا كتاب فلسفة المعتزلة ٢ / ٧٦ - ٨٠ .

(١٠) فلسفة المعتزلة ٢ / ٧٨ ، ٧٩ . (١١) انظر : الأبهكار ٢ / ١٢٠٩ .

الآمدى يشير إليه إذ يقول بعد ذلك مباشرة « ومنهم من قال إن النفس عبارة عن الروح الكائنة فى الدماغ الحاملة للقوى الحساسة الباطنة وهو الحس المشترك ، والمصورة ، والمخيلة ، والوهمية ، والحافظة » (١) ثم يشير الآمدى بعد ذلك إلى أن من المتكلمين من قال إن « النفس هى الأجسام الأصلية فى كل بدن من الأبدان دون الأجزاء الفاضلة » (٢) فهؤلاء هم القائلون بتركبها من الفلاسفة والمتكلمين .

أما الداهبون إلى بساطة النفس فطائفتان أيضا فى نظر الآمدى :

أولاهما : من قال : إنها جوهر فرد متحيز وهذا مذهب طائفة من الشيعة ، ومعمر من المعتزلة ، والإمام الغزالى من أصحابنا ، كما يقول .

(ب) والأخرى من قال : إنها جوهر بسيط معقول ، غير متحيز ، مجرد عن المادة دون علائقها « وهذا هو مذهب الفحول من الفلاسفة اليونانيين ، ومن تابعهم من فلاسفة الإسلاميين ، وأرباب التناسخ » (٣) .

ولا أدرى علام اعتمد الآمدى فى تحديد رأى الغزالى ومعمر ، فقد نص القاضى عبد الجبار فى المغنى (٤) والأشعرى فى المقالات (٥) ، والبغدادى فى الفرق بين الفرق (٦) ، على أن معمر يقول بجوهر غير متمكن ولا متحيز ولا يماس شيئا ولا يماسه شيء . وقد نص ابن حزم فى الفصل (٧) على أن هذا هو قول بعض الأوائل . وهذا بعينه هو ما قال به الإمام الغزالى أيضا (٨) . وهو الرأى الذى يقول به سائر فلاسفة الإسلام (٩) ، والصوفية أيضا فيما يحكى ابن سبعين (١٠) . وإن كان الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور يحدد ذلك بمن بعد الغزالى منهم (١١) . ونحن نجد فعلا فى رسالة القشيرى ما يشبه قول الباقلانى وابن القيم (١٢) . ويرويه الكلاباذى أيضا عن بعض الشيوخ وإن كان هو يهرب من بيان طبيعتها

(١) الأبهكار ٢/٢٠٢ ، وانظر : الأربعين للرازى ص ٢٦٦ . (٢) الأبهكار ٢/١٢٠٢ .

(٣) نفس المصدر والصفحة . (٤) المغنى ١١/٣١١ .

(٥) المقالات ٢/٢٦٦ . (٦) الفرق بين الفرق ص ١٤٠ .

(٧) الفصل ٥/٧٤ .

(٨) انظر : النفس والعقل ص ٣٦ ، ١٠٦ وما بعدها ، ومنهج وتطبيقه ص ٢١٠ ، ٢١١ ، والدراسات النفسية عند المسلمين ص ١١٨ ، والأربعين للرازى ص ٢٦٧ .

(٩) انظر : النفس والعقل ص ٧٠ وما بعدها ، وابن رشد وفلسفته الدينية ١١٠ وما بعدها .

(١٠) انظر : تاريخ فلسفة الإسلام ١/٣٣٥ .

(١١) انظر : فى الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه ١/٢١١ . (١٢) الرسالة القشيرية ص ٤٥ .

ويقول : « إن الروح معنى في الجسد مخلوق كالجسد »^(١) ، ومثل هذا عند السراج الطوسي من قبل^(٢) . ويبدو لي أن الآمدى قد التبس عليه رأى الإمام الغزالي ، بسبب هجوم هذا الأخير على الفلاسفة ؛ لقولهم : إن النفس جوهر روحاني قائم بنفسه لا يتحيز ، مع أن الغزالي لم يكن فى ذلك إلا مجادلا يبغي إفساد طرائقهم مع أخذه بنفس فكرتهم^(٣) . أما الشيعة فقد نسب الإمام الرازى إلى أكثر أجناسهم القول بروحانية النفس وتجردها^(٤) .

ج - نقد الآمدى لهذه الآراء :

وبعد أن يستعرض الآمدى الآراء على هذا النحو يتجه إلى نقدها بادئا بالقائلين بعرضيتها ، ومثليا بمن ذهب إلى أنها جسم مادي مركب ، ثم بمن قال إنها جوهر فرد ، وأخيرا من قال بأنها جوهر روحاني مجرد :

أ- فأما القائلون بعرضيتها فإنه يسألهم : « ولماذا لا تكون النفس جوهر فردا كما قال الغزالي أو غيره ، أو جوهر مجردا عن المادة كما قالت الفلاسفة ، وقد بينا أن إبطال ذلك صعب جدا^(٥) ؟ ، ولماذا لا تكون جسما كما قال الآخرون ؟ أما تمسككم بتجانس الأجسام فقد بينا ضعف هذه المقالة »^(٦) .

ثم إن العرض لا يبقى زمانين ، وهذا بالنسبة إلى النفس « محال » ، وخلاف ما نعقله من أنفسنا^(٧) فضلا عن أنه يؤدي إلى محالات عديدة ؛ أهمها تعارضه مع مبدأ الخلود والجزاء^(٨) . وأثناء مناقشته للعرضية يتحدث عن زعم أنها « المزاج » فيقول : « إن فكرة المزاج نفسها باطلة كما أوضحنا فى (دقائق الحقائق) ، وبتسليم وجوده جدلا فهو مجرد عرض ، وتلزم عليه سائر المحالات السابقة^(٩) » . ومثله القول بأنها من جملة القوى « فإن القوى عرض والنفس لا تكون عرضا كما تقدم^(١٠) » . وبهذا نفسه - كما يقول الآمدى

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٦ . (٢) انظر : اللمع للطوسي ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٣) انظر : التهافت ص ٢٤٧ وما بعدها ، وفى النفس والعقل د / قاسم ص ٧٠ - ٧٢ .

(٤) انظر : الأربعين ص ٢٦٧ . (٥) الأبيكار ٢ / ٢٠٨ ب . (٦) السابق .

(٧) السابق . (٨) انظر : الأبيكار ٢ / ٢٠٨ ب ، ١٢٠٩ .

(٩) انظر : الأبيكار ٢ / ١٢٠٩ . (١٠) السابق .

– يبطل القول بكونها هي الحياة أو الشكل الخاص فضلا عن بطلان هذا القول الأخير بحالة الموت ، « فإن النفس مفارقة للبدن بالإجماع مع بقاء الشكل الخاص » (١) .

ب – وأما القائلون بجسميتها فيعارضهم بما سبق من بطلان العرضية ؛ لأن الجسم لا يخلو عن عرض وقد تبين أن العرض لا يمكن أن يدخل في حقيقة النفس (٢) . وأما تمسك هؤلاء بأن « النفس مدركة للمركبات ، وإنما يدرك الشيء بشيء يشبهه ، فيلزم عليه ألا تكون النفس مدركة لما تتركب من العناصر وطبيعته مخالفة لطبيعتها » (٣) ثم يفيض في بيان شمول الإدراك للمخالف والموافق من الأشياء .

وأما القائلون بأنها الأخلاط الأربعة مع تناسب مخصوص ، أو الدم ، أو أحد العناصر الأربعة ، أيا كان فتحكم لا برهان عليه ، وغاية ما يتمسكون به اشتراك النفس مع هذه الأشياء في بعض خصائصها وهذا لا يدل على أن طبيعتهما واحدة (٤) ، وأما القائلون بأنها « الروح على ما ذكره الأطباء » فليس أولى من غيره ، وتمسكهم بأنها منبع الحياة « فغايتها الملازمة بينهما ، وليس في ذلك ما يدل على أن الروح هي النفس الإنسانية » (٥) . وبهذا نفسه يبطل قول من قال إنها الروح الكامنة في الدماغ (٦) .

ج – وأما القائلون بأنها « جوهر فرد ، كما ذهب إليه الإمام الغزالي وغيره ، فلا يخفى أن الجواهر – على أصله – متماثلة ، فلو جاز أن يكون بعض الجواهر الفردة نفسا إنسانية لجاز ذلك في غيره من الجواهر . . ضرورة التماثل (٧) . » وهذا نقد قوى في حد ذاته ، إلا أنه حرب في غير معترك ، إذ لم يصح أن الإمام الغزالي – ومن ذكرهم الآمدى معه – قائلون بهذا الرأي كما بينته فيما سبق .

د – وأما ما ذهب إليه الفلاسفة من أنها جوهر روحاني مجرد فقد سبق للآمدى أن اعترف بصعوبة إبطاله ، ولكنه يحاول ذلك في « الأبكار » و « غاية المرام » .

١ – فيعرض برهان « الإدراك العقلي » الذي يوصف بأنه « أعنف برهان استدلال به ابن

(١) نفس المصدر والصفحة . (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الأبكار ٢/ ٢٠٩ ، ب . (٤) انظر : الأبكار ٢/ ٢٠٩ ، ب .

(٥) انظر : الأبكار ٢/ ٢٠٩ . (٦) نفس المصدر والصفحة . (٧) الأبكار ٢/ ٢١٠ .

سينا على روحانية النفس» (١) وخلاصته : أن النفس تدرك من المهاييا العقلية ما لا انقسام له فهي إذن غير منقسمة ولا متجزئة بطبيعتها ، أى أنها غير مادية ، إذ الأجسام المادية قابلة للتجزؤ عندهم إلى ما لا نهاية له (٢) .

ولكن الآمدى يقول : إن هذا مبنى على تصورهم للإدراك العقلى (٣) . على أنه حلول المدرك أو انطباع صورته فى نفس المدرك ، وليس الأمر كذلك ، بل مجرد إضافة ونسبة بينهما . على أنه لا يلزم تجزؤ البسيط بسبب حلوله فى المتجزئ ، فالإضافة عندهم عرض قائم بالجسم كالأبوة فى ذات الأب والبنوة فى ذات الابن ، وهى مع ذلك بسيطة ، ثم إن القوة الوهمية باعترافهم من القوى الجسمانية ومع ذلك فهى وسيلة لإدراك معنى جزئى فى صورة الذئب يدعوها إلى الهروب منه أى أنه أمكن حلول البسيط فى المتجزئ مع بقاءه بسيطاً ، وإدراك المتجزئ للبسيط مع اختلاف طبيعتهما من هذه الناحية . وقريب من هذا النقد عند الرازى (٤) قبله ، ويبدو أن كليهما متأثر بالإمام الغزالى فى التهافت (٥) .

٢- ثم يعرض للدليل القائم على عدم التوازى بين النفس والجسم ؛ إذ يشيخ الجسم بمرور الزمن ، وتضعف قواه الحسية من كثرة الاستعمال ، بينما تزداد النفس وقواها العقلية نضجاً ، ولا تضعف بضعفه ، وإذن فهى روحية لا جسمية (٦) . ويقرر أن هذا ضرب من قياس التمثيل دون دليل جامع ، إذ ما المانع من أن تكون النفس « مدركة بآلة جرمانية أقوى وأثبت من القوى المدركة الحساسة فلذا لا تكل بكلالها » (٧) ؟ وقد سبقه الرازى بنقد هذا الدليل ولكن من جهة أخرى (٨) ، وإن كان قد استدل به فى بعض كتبه على روحانية النفس (٩) . أما الإمام الغزالى فقد انتقده من نفس الوجوه التى ذكرها الآمدى مما يوحى بتأثره به (١٠) .

-
- (١) انظر : فى الفلسفة الإسلامية للأستاذ الدكتور مذكور ١ / ٢٠٦ ، وما بعدها .
 (٢) انظر : الأبهكار ٢ / ١٢٠٢ - ١٢٠٤ ، وغاية المرام ١١١ ب ، وقارن بالنجاة لابن سينا ص ٢٧٥ ، وانظر : أيضاً عرض أستاذنا د / قاسم له فى « النفس والعقل » ص ٨٦ - ٨٨ ، ١٠٢ - ١٠٤ ، والأستاذ الدكتور مذكور فى « الفلسفة الإسلامية » ١ / ٢٠٣ - ٢٠٥ .
 (٣) انظر : الأبهكار ١٢١٠ ب ، ١١٢ من غاية المرام . (٤) انظر : الأربعين للرازى ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .
 (٥) انظر : التهافت - ط الحلبي سنة ١٩٤٧ - ٢٥١ ، وقارن غاية المرام ١١٤ .
 (٦) انظر : الأبهكار ١ / ٢١٠ ب وانظر : أيضاً فى النفس والعقل ٨٨ - ٩٠ ومنهج وتطبيقه ١ / ٢٠٧ .
 (٧) الأبهكار ١ / ٢١٠ ب . (٨) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ٤٨٠ .
 (٩) المصدر السابق ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ . (١٠) التهافت ٢٦١ - ٢٦٦ .

ثم يتتبع الآمدى باقى أدلتهم بالنقد^(١) ، ثم يعمد إلى إلزامهم بأصولهم فيقول : « كيف ينكر كون النفس مادية ممكنة ، مع ما عرف من أصلهم أن جهة الإمكان لا تقوم إلا بمادة ، والنفس ممكنة الوجود لا محالة »^(٢) . وهذا إلزام قوى لمن يقول بحدوث النفس كما هى الحال عند أرسطو ومن تبعه ، ويقول أيضا بفكرة أن الإمكان ليس عدماً محضاً ، وبالتفرقة بين الماهية والوجود ، كما هى الحال عند ابن سينا فعلاً .

د- موقفه الخاص :

قد يفهم من هجوم الآمدى على رأى الفلاسفة فى روحانية النفس أنه قائل بماديتهما ، ولكن ما القول فى هجومه أيضا على من زعم أنها جوهر أو جسم أو عرض ؟ ومعارضته من مال إلى ذلك من الأصحاب وغيرهم ؟

إنه يريد فقط بيان ضعف الأدلة التى يستند إليها أصحاب هذه الآراء جميعا ، وهو فى هذا قريب الشبه بالإمام الغزالى الذى صرح بأن هدفه من نقد الفلاسفة فى هذه المسألة نفسها إنما هو معارضة « دعواهم معرفة كون النفس جوهرًا قائمًا بنفسه ببراهين العقل ، ولسنا نعترض على دعواهم اعتراض من يُبعد ذلك عن قدرة الله - تعالى - أو يرى أن الشرع جاء بنقيضه ، بل ربما نبين فى تفاصيل الحشر والنشر أن الشرع مصدق له ، وإنما ننكر دعواهم دلالة العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه »^(٣) .

والآمدى لا يصرح بميله إلى فكرة روحانية النفس كما فعل الغزالى ؛ إذ : « لا سبيل إلى القطع فى شىء مما قيل من المذاهب فى حقيقة النفس الإنسانية المدركة العاقلة ، وإن كان الحق غير خارج عنها ، فعليك بالاجتهاد فى تعيينه وإظهاره ، هذا ما عندى فى ذلك ، ولعل عند غيرى غيره »^(٤) .

ولكن ألا تشى هذه العبارة بأنه يحاول إخفاء رأيه ؟ وإلا فكيف يقطع بأن الحق غير خارج عما ذكر ؟ أعتقد أن الآمدى - الذى لم يتردد فى الخروج عما قرره أصحابه الأشاعرة فى مواطن كثيرة من أبرزها نقده لأدلة الجوهر والعرض ، والممكن والواجب ، والتمانع ، وغيرها ، وفى قبول بعض الأفكار الفلسفية ؛ ومنها فكرته عن طبيعة الشر

(١) انظر : الأبيكار ٢/٢١٠ ب ، ٢١١

(٢) غاية المرام ل ١١٥

(٣) التهافت ص ٢٤٧ .

(٤) الأبيكار ٢/٢١١ .

وجوده فى العالم مما سبق بيانه - لا يقرر ذلك تقية ولكن عن إنصاف وتواضع حقيقيين .
 أما الملاحظة السابقة فسببها أن القوم قد استقصوا كل الاحتمالات الممكنة فعلا ، وإلا
 فماذا تكون النفس إن لم تكن جوهرًا روحيا ، أو ماديا ، أو جسما ، أو عرضا فى جسم ؟
 اللهم إلا أن نقول إنها من أمر الله ، ونعترف بأنها فى الدنيا آلة العقل والإدراك ، وأنها باقية
 خالدة « بعد فوات البدن كما ثبت ذلك سمعا بقوله - تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا . .
 الآية ، وقوله عليه السلام : « إن أرواح المؤمنين فى حواصل طيور خضر معلقة تحت
 العرش » (١) ولا يضرنا فى عقيدتنا جهل حقيقتها مادام الشرع لم يعين ذلك والعقل لا
 يقطع به (٢) ، ولعل هذا هو ما اكتفى به الآمدى . وإن كان المرء لا يعدم لديه ميلا أو تقديرا
 خاصا لفكرة روحانية النفس من شواهد ذلك ما قرره مرارا ، وسلفت الإشارة إليه ، من
 صعوبة إبطال هذه الفكرة ، كما أنه سبق أن انتقد دليل الجوهر والعرض لعدم شموله
 للمجردات وعجز المتكلمين عن بيان استحالتها ، كما أنه فى مبحث النبوة يقارن بين
 علاقة الملك بالصور التى يتمثل فيها ، وبين علاقة النفوس الإنسانية بأبدانها (٣) . واعتقد
 أن هذا المثال الأخير له مغزى كبير فيما نحن بصددده .

هـ - حدوث النفس :

يشير الآمدى إلى اختلاف الفلاسفة ، القائلين بروحانية النفس ، حول قدمها
 وحدوثها ، ويشير إلى أن أرسطو وأتباعه هم الذين قالوا بالحدوث ، ورغم اقتناعه
 بفكرتهم فإنه يناقش الطرفين فيما قدموه من أدلة لا ترقى فى نظره إلى مستوى البراهين
 الحاسمة (٤) .

ويناقش أدلة القدم ، وأهمها أن النفس قديمة لقدم علتها وهى العقل الفعال ، وأن
 النفس بطبيعتها غير قابلة للفساد ، لأن الذى يكون ويفسد إنما هو المواد ، والنفس ليست
 مادية ، بل هى روحية ، وإذن فهى أزلية . ويعارض الآمدى حججهم الأولى بقوله : « ما
 المانع - أي من حدوثها - على أصلهم فى توقف فعل الفاعل بذاته وتأثيره فى معلوله على
 تهيهؤ القابل واستعداداته له (٥) » وأما الحجة الثانية فمبنية على فرض محتمل ولكنه ليس

(١) غاية المرام ١١٥٥ . (٢) انظر : الدراسات النفسية عند المسلمين ص ١٠٨ .

(٣) انظر : غاية المرام ل ١١٢٤ . (٤) انظر : الأبكار ١ / ٢١١ ب وما بعدها .

(٥) الأبكار ٢ / ٢١١ ب .

قطعيًا مجزوماً به (١).

كما يناقش أدلة الفلاسفة القائلين بالحدوث ممهداً لذلك بقوله : إنه « وإن كان قولاً حتماً لكن لا بد من تتبع حجج قائله » (٢). ومن أهمها القول بأن النفس لا توجد قبل البدن لأنه لا تعين لها بدونه . وهذه فكرة يرى الآمدى أنها يمكن أن تكون مستنداً للقائلين بفناء النفوس مع الأبدان ، ويرى أنه لا مانع من أن تكون النفوس متميزة بذواتها بصرف النظر عن الأبدان (٣) . والحق أن هذه الفكرة التي ورثها المسلمون عن أرسطو كان لها أثرها السيئ على فكرة الخلود، كما هو الحال عند الفارابي (٤).

أما حجتهم الثانية القائلة بأنها لو وجدت قبل الأبدان لكانت معطلة عندئذ ولا تعطل في الطبيعة (٥) - فيرى الآمدى أنها تقوم على أساس مشكوك فيه ، إذ يمكن أن يكون فعلها مشروطاً بحالة الاقتران بالبدن، أما عند عدم الاقتران فلا فعل لها ولا انفعال، ثم إنه يتعارض مع قولهم بأن النفوس الساذجة التي لم تتكامل بمعرفة الحق كأنفس الأطفال والمجانين تبقى بلا نعيم ولا عذاب؛ أي أنها تكون معطلة (٦) . وهذه الفكرة الأخيرة لها أثرها عند الكندي والفارابي وابن سينا ولعلها انحدرت إليهم من أفلاطون (٧).

وهو في النهاية يؤثر الاستدلال على حدوث النفس بدليل التناهي الذي سلف بيانه في إثبات وجود الله وحدوث العالم ، ويرى أن هذا هو « الأليق بالمنهاج الإسلامي » (٨) من هذه الأفكار المشكوك فيها .

و - مصدرها :

لكن إذا كانت النفس حادثة فعمن صدرت ؟ هل من العقل الفعال كما يرى بعض

(١) نفس المصدر والصفحة . (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) انظر : الأبهكار ٢/ ٢٠٥ ب ، ٢١١ ب ، ٢١٣ .

(٤) انظر : في النفس والعقل د/ قاسم ص ٧٤ ، ٩٦ ، ٢٤٣ .

(٥) انظر : الأبهكار ٢/ ٢٠٤ ب ، غاية المرام ١١٤ .

(٦) انظر : الأبهكار ٢/ ٢١٢ ، غاية المرام ١١٣ .

(٧) انظر : النجاة ٢٩١ ، والإشارات والتنبيهات ٣/ ٧٣٧ - ٧٤١ ، ٧٧٠ - ٧٧٨ ، وفي النفس والعقل د/ قاسم

ص ٣٧ - ٤٢ ، ١٥٩ - ١٦١ ، والأصول الأفلاطونية - فيدون د/ النشار ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٨) انظر : غاية المرام ل ١١٦ .

الفلاسفة الإسلاميين المتأثرين بالأفلاطونية المحدثة (١) ؟

لقد مربنا في مسألة «خلق العالم» وغيرها أن الآمدى يعارض فكرة الفيض جملة وتفصيلا ، فمن الطبيعي أن ينكر مثل هذا الرأي هنا أيضا ، ولذا نجد يقول في الأبيكار : «قولهم إن علتها العقل الفعال .. قلنا لا نسلم وجود العقل الفعال فضلا عن كونه علة ..» (٢) . وقد سبق للآمدى أن انتقد قول الفلاسفة «إن الأفلاك ذوات أنفس وإنها متحركة بالإرادة النفسية» ، وهو يرى أن ذلك مجرد رجم بالغيب . وأن المحرك للأفلاك ولغيرها هو الله - تعالى - ، وأنه خلق فيها الحركة المناسبة لها فلا قسر أو مخالفة للطبع ، ولكن لا مبدأ فيها للحركة يمكن أن نسميه نفسا كما زعموا (٣) ، إن النفس صادرة صدوروا مباشرة عن الله سبحانه ، وليس هناك واهب للصور ولا مهيمن على عالم النفوس أو غيرها سواه ، وهذا هو الاتجاه الطبيعي للأشاعرة يحافظ عليه الآمدى (٤) ، ولو تهاون فيه بعض الأشاعرة وعجزوا عن التنزه الكامل عن المؤثرات الفيضانية (٥) .

والآمدى إذا كان ينكر صدور النفس من هذا العقل الفعال كما زعموا فهو ينكر أيضا أن يكون هو غايتها في الصعود والاتصال بالعالم العلوى ، إذ تتخلص من شوائب الحس وأدران المادة لتتعم باللذة الدائمة في جوار رب العالمين (٦) ، وهو ما عرف عندهم أيضا بنظرية «السعادة أو الاتصال» (٧) . فهو لا يسلم أصلا بوجود العقل الفعال ، كما أنه يرفض الربط بين النعيم وفكرة التخلص من الجسد ، ويراه حقا للنفس وللجسد كليهما (٨) . وهو يقول بالمعاد في صورته الإسلامية التي جاءت بها النصوص الشرعية كما سيتبين فيما يلى . وكل ما يأخذه عن فكرة (السعادة) المشار إليها هو أن أبلغ شرف يحصله الإنسان في حياته هذه هو تحصيل المعلومات والإحاطة بالمعقولات ، وأن هذا هو طريق السعادة الأبدية وكمال النفوس الإنسانية ، وهو معنى يتردد عادة في مقدمات كتبه أو أكثرها (٩) . ولكنه يقف عند هذا الحد لا يتجاوز به إلى دعوى الاتصال بالعقل الفعال أو غيره من النفوس والعقول ، بل هو لا يسلم بوجودها .

(١) انظر : بشأن هذه الفكرة الهامش رقم ٣ على الصفحة ٢٨٨ من غاية المرام = ١١٢ .

(٢) الأبيكار ٢/٢١٣ ب . (٣) الأبيكار ٢/٣٢ ب ، ١٣٣ . (٤) انظر : غاية المرام ص ٢١ = ١٩

(٥) انظر : فخر الدين وآراؤه ص ٤٩٠ ، ٤٩٢ . (٦) انظر : غاية المرام ١١٣ ، ب .

(٧) انظر : منهج وتطبيقه د/ مذكور ص ٣٧ - ٣٩ ، ٥٧٥٥٣٥ ، ٦١ - ٦٣ وفي النفس والعقل د/ قاسم ص ٢٢٦ وما بعدها ونظرية المعرفة عند ابن رشد له أيضا ص ١١٩ - ١٢٢ .

(٨) انظر : غاية المرام ص ٢٩٢ = ١١٣ ب ، ص ٢٩٩ - ١١٦ ، ب . (٩) انظر : غاية المرام ل ٢ ب ، أبيكار الأفكار ل ١٢ .

المبحث الثانى المعرفة

(أ) أهمية المعرفة وطريقها :

يرى الآمدى أن الصفة الأولى للنفس هى الإدراك والتعقل ، وأن كمالها الخاص بها وسعادتها الأبدية تكون بتحصيل المعلومات ، والإحاطة بالمعقولات كما مر بنا فى أكثر من موضع .

والمعرفة فى نظره جهد من جانب الإنسان لتحصيل كماله ، عن طريق اكتشاف مايجهله من أمور الوجود ، ووسيلته الأولى فى ذلك هى الحس ، وعلى أساس المعلومات الحسية المباشرة يمكن التآدى إلى حقائق أخرى نظرية ، إذا ما سلك المرء الطريق العقلى السليم فى تنظيم معلوماته واستثمارها ، يقول الآمدى فى أوائل كتابه (كشف التموهيات) :

« .. لأن النفس فى مبدأ الفطرة تكون خالية عن جميع العلوم ، ثم إنه تحصل لها العلوم الضرورية بسبب إحساس الحواس بالحركات ، ثم إنه بتلك العلوم الضرورية تكتسب النفس سائر العلوم النظرية ، فاستعمال الحواس لحصول العلوم الضرورية هو المرتبة الأولى ، وترتيب العلوم الضرورية وتركيبها بحيث يتآدى منها إلى العلوم النظرية هو المرتبة الثانية ، والوصول منها إلى تحقيق تلك النظريات هو المرتبة الثالثة ، ولا شك أن التوفيق من الله تعالى هو الأمر المقرب إلى السعادة الأبدية ، ولما كانت الحواس وسيلة فى تحصيل الضروريات التى هى أساس النظريات لاجرم كانت الحواس توفيقاً من الله تعالى ، وهو المعنى بقوله (١) : أحمد الله على حسن توفيقه » (٢) .

(ب) حقيقة العلم وأقسامه :

ولكن ما حقيقة العلم ؟

يجيب الآمدى على ذلك فى القاعدة الأولى من كتابه « أبكار الأفكار » التى

(١) القائل هو ابن سينا فى الإشارات الذى يشرحه الآمدى فى كتابه هذا .

(٢) كشف التموهيات ل ٢ ب .

خصصها لبيان (حقيقة العلم وأقسامه) ، ويستعرض تعريفات الفلاسفة و«الأصحاب» للعلم ، كالقول بأنه إدراك المعلوم على ما هو به ، أو إثبات المعلوم على ما هو عليه ، أو ما يعلم به الشيء ، أو ما يصبح به صدور الفعل عمن قام به متقنا محكما ، أو أنه عبارة عن انطباع صورة المعلوم فى النفس ، وينسب الأول للشيخ الأشعرى والثانى لبعض الأصحاب ، والثالث لأبى القاسم الإسفرائينى ، والرابع لأبى بكر بن فورك . والآخر للفلاسفة .

وينتقدها جميعا من وجوه عدة على أسس منطقية ، أى من جهة توفر الشروط اللازمة فى الحد فى كل منها أو عدم توفرها^(١) ، ثم ينتهى إلى تعريفه المختار : « العلم عبارة عن صفة يحصل لنفس المتصف بها تتميز حقيقة ما غير محسوسة ، حصولا لا يتطرق إليه احتمال كونه على غير الوجه الذى حصل عليه »^(٢) وربما كان فى هذا التعريف أثر من أرسطو^(٣) فالعلم عنده هو العلم الكلى^(٤) .

والآمدى يرى أن العلم بهذا المعنى حاصل ومتحقق باعتراف كافة العقلاء إلا السوفسطائية ، وهو ينقسم إلى قديم وهو علم الله تعالى ، وإلى حادث وهو علم البشر ، وهذا ينقسم إلى ضرورى وكسبى « فالعلم الضرورى هو العلم بالحادث الذى لا قدرة للمخلوق على تحصيله بالنظر والاستدلال ، كالعلم بالمحسوسات بالحواس الظاهرة كالسموعات والمبصرات ، أو بالحواس الباطنة كعلم الإنسان ببلذته وألمه . . والعلم بالأمور العادية كعلمنا بأن الجبال المعهودة لنا ثابتة ، وكالعلم بالأمور التى لا يجد الإنسان نفسه خالية عنها ، كالعلم بأنه لا واسطة بين النفى والإثبات ، وأن الضدين لا يجتمعان »^(٥) .

وهنا يعرض الآمدى لدعوى بعض المعتزلة^(٥) ، وهى أن جميع العلوم ضرورية غير كسبية ، ويذكر أن من هؤلاء من قال إنها جميعا تقع بلا نظر أو استدلال ، وأن منهم من قال إنها غير مقدورة للعباد ولكن منها ما يقع بدون نظر ، ومنها ما حصوله عن نظر ولكن

(١) انظر : الأبهكار ١/٢ ب - ١٤ .

(٢) الأبهكار ١/١٤ وهو يكرر نفس التعريف فى أول (الإحكام فى أصول الأحكام) ١/١٥ .

(٣) انظر : المنطق الصورى د / النشر ص ١٨ ، ١٨٦ . (٤) الأبهكار ١/٤ ب .

(٥) انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشرىكين للرازى ص ٤٣ ، والملل والنحل للشهرستانى ١/٩١ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

والأبهكار ٣/٢٤٥ ب ، ١٢٤٧ .

عند تمام النظر يقع العلم ضروريا غير مقدور عليه ، ومنهم من قصر ذلك على العلم بالله وصفاته والعقائد الصحيحة ، وزعم أن ما وراء ذلك قد يكون نظريا . ثم يعرض الآمدى لوجهة نظر مقابلة ، فيقول : « قال بعض الجهمية : جميع العلوم نظرية لا ضرورة فيها »^(١) وقال بعض المتأخرين^(٢) : ما كان من العلوم التصورية فهي ضرورية ، وما كان من العلوم التصديقية فمنقسمة إلى ضرورى ونظرى »^(٣) .

ثم يتحول الآمدى لبيان رأى الذى يختاره فيقول : « والذى عليه المحصلون : أنه ليس كل علم ضروريا ؛ إذ هو خلاف ما يجده كل عاقل من نفسه . . ثم لو كانت العلوم كلها ضرورية لما ساغ الخلاف فيها من الجمع الكثير من العقلاء . . ولما وجد واحد من نفسه الخلو عنها ، وعلى هذا يبطل قول من فصل بين العلوم المتعلقة بالله تعالى وغيرها . . ومن قال بكون العلم ضروريا مع حصوله عن النظر فلا نزاع معه فى غير التسمية ، ومن قال بالفرق بين التصور والتصديق فقد احتج عليه بحجج أبطلناها فى كتاب « دقائق الحقائق »^(٤) . . على أن الرازى قد كفانا مثونة مناقشة هذه الحجج بعدوله عنها فى كتب أخرى^(٥) ، وقد أكد الآمدى موقفه من التصورات ، وأن بعضها نظرى وبعضها ضرورى فى كتابه « كشف التموهيات »^(٦) .

وأما التعلم الكسبى فهو المقدور بالقدرة الحادثة ، وهو الحاصل عن نظر واستدلال ، أى بترتيب مقدمات واستخلاص نتائج ، ولكن ألا يمكن حصول هذا النوع بطريق الضرورة ؟ أى بأن يخلقه الله تعالى فى قلب عبده بلا نظر أو استدلال ؟ يذكر الآمدى خلاف « الأصحاب » فى ذلك ، ويؤيد هو من أجازوا ذلك ، وإن كانت العادة الجارية ألا يقع العلم النظرى إلا عن نظر واستدلال « وأما المعتزلة فموافقون على الجواز فى الكل ، غير أنهم يمنعون من الوقوع فى البعض كالعلم بالله تعالى وصفاته ، من حيث إن العلم بالله

(١) الأبهكار ١/ ١٥١ .

(٢) يقصد الإمام الرازى الذى قال بهذا فى بعض كتبه ، بل ذهب فى بعضها إلى أن سائر العلوم ضرورية ، ورجع فى بعض آخر إلى ما سيختاره الآمدى هنا - انظر : الأربعين ص ٤٧٨ - ٤٧٩ وفخر الدين الرازى وآراؤه ص ٥٠١ - ٥٠٧ .

(٣) الأبهكار ١/ ١٥٠ .

(٤) السابق ، نفس الصفحة . (٥) انظر : المعالم للرازى ص ٣ ، ٤ وفخر الدين وآراؤه ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(٦) كشف التموهيات ل ٨ ب .

تعالى وصفاته واجب على العبد ، فلو لم يكن ذلك مقدورا لكان الإيجاب قبيحا»^(١).
وأما عكس ذلك وهو وقوع الضرورى نظريا فمنعه قوم مطلقا ، وأجازه قوم مطلقا ، وفصل
الباقلانى فى بعض أقواله بين ما هو من كمال العقل فمنع أن يقع نظريا، وما ليس كذلك
فأجاز حصوله نظريا ، وإليه يميل الآمدى^(٢) . ثم ينتهى الآمدى إلى أن العلم النظرى
لا بد أن يستند إلى علم ضرورى مباشرة أو بطريق غير مباشر حتى تكون قاعدة الفكر هى
المعلومات الضرورية^(٣) ، وقمته أو ثمرته المطالب النظرية تصورية كانت أو تصديقية^(٤) .

ثم يعرض الآمدى لأمور هى من سمات العلم الحادث ، منها أنه قد يقع الشئ
معلوما للإنسان من وجه ومجهولا له من وجه آخر ، أو من نفس الوجه ولكنه معلوم بالقوة
مثلا ومجهول بالفعل ، وأنه قد يعرف الشئ على وجه الإجمال مع جهله بتفاصيله ، وينبه
الآمدى إلى أن ذلك محال بالنسبة إلى علم الله سبحانه^(٥) .

(ج) الحواس والإدراك الحسى :

وإذا كانت المدركات الحسية هى قاعدة المعرفة ؛ إذ أكثر الضروريات منها أو ترجع
إليها ، فإن الآمدى يعقد فصلا « لحل العلم » ؛ فيقسمه - بحسب المعلوم كليا أو جزئيا -
إلى النفس التى هى محل المدركات الكلية ، وإلى الحواس التى هى محل المدركات الجزئية
؛ وهى عبارة عن قوى جسمانية قائمة بأجزاء خاصة من البدن بعضها ظاهر وبعضها باطن
، فأما القوى الظاهرة فهى الحواس الخمس المعروفة^(٦) ، ويعرف الآمدى كلا منها على
النحو الذى نجده عند (ابن سينا) وبقریب من ألفاظه^(٧) ، ثم يتكلم عن القوى الباطنة :
الحس المشترك ، والمصورة ، والمتخيلة ، والمتوهمة ، والحافظة ، ويبين أماكنها من دماغ
الإنسان على النحو الذى نجده عند ابن سينا أيضا^(٨) .

ويشير الآمدى إلى أن بعض « متفلسفة المتأخرين » زعم أن المدرك للكليات والجزئيات

(١) الأبهكار ٦/١ ب (٢) الأبهكار ٥/١ ب - ٦ ب . (٣) السابق ١/١٣٤ .

(٤) السابق ١/٣٠ ب (٥) السابق ١/٣٠ ب . (٦) انظر : الأبهكار ١/١١ ب

(٧) انظر : الأبهكار ١/١١٢ ، وغاية المرام ١٢١-١٣٣ = ١٥٣-١٥٨ . والإشارات والتبسيهات ٢/٣٤٣ ،
٧٠٩/٣ . والنجاة ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٨) انظر : الأبهكار ١/١١٢ ، والنجاة ١٦٠ - ١٦٣ ، ومنهج وتطبيقه ١/٢١٦ .

إنما هو النفس بذاتها، وأن القوى الظاهرة والباطنة غير مدركة ، بل هي آلة في إدراك النفس لهذه المدركات^(١)، ويبدو أنه يشير بذلك إلى ما نسب للنظام: «أن النفس تدرك المحسوسات من هذه الخروق التي هي الأذن ، والفم ، والأنف ، والعين ...»^(٢)، أو إلى قول (ابن ملكا) البغدادي بأن النفس هي التي تفعل سائر الأفاعيل بذاتها ، وإذا لم تتمكن النفس من القيام بفعل معين ، فليس ذلك لفقدان قوة معينة ولكن لانعدام الآلة ، وهو الرأي الذي أخذ به الإمام الرازي في بعض كتبه^(٣) ، ثم يقول الآمدي في النهاية أن هذا هو قول الفلاسفة «وأما أصحابنا فالهنية المخصوصة عندهم غير متوسطة»^(٤).

ويشير الآمدي بعد ذلك إلى القول بأن القلب له وظيفة في حصول الإدراكات المختلفة - وهو قول ذهب إليه الإمام الرازي^(٥) - فيقول : « وهل ذلك مما يقوم بالقلب أو غيره ؟ فمما لا يجب عقلا ولا يمتنع لولا دل عليه الشرع بقوله تعالى : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب »^(٦) ؛ أي أنه يوافق على هذا القول ويرى في القرآن ما يشير إليه .

ولكن هل معنى ذلك أن الآمدي يبطل الوظيفة الخاصة بكل حاسة ، ويرى إمكان وقوعها بغيرها من الحواس أو بأى جزء من البدن ؟ إن الجواب بالإيجاب هنا دون تفصيل غير سليم ، فلئن كان هذا ممكنا ؛ فبالنظر إلى الناحية العقلية ، أو بعبارة أخرى بالنظر إلى قدرة الله ، فإنها لا تتوقف في إحداث الإحساس الذى نسميه (رؤية) على ذلك العضو ذى التركيب الخاص الذى نسميه (العين) ، ونعتبره وسيلة الرؤية ، ولكن بالنظر إلى ما جرت به العادة واستقامت عليه أمور حياتنا ، فإن ذلك غير ممكن ، والإبصار إنما يكون بالعين أو فى العين لكل ما من شأنه أن يرى ، كما أن الشم بالأنف ، أو فى الأنف ، لكل ما من شأنه أن يشم ... إلخ ، غير أن ذلك كله إنما يتم بخلق الله تعالى فى هذه الأعضاء . وتلك فكرة أشعرية عرضها الآمدي بالتفصيل ، ورد على ما يرد عليها من إشكالات فى «غاية المرام» ، ولم تحل دون أن يقول الأشاعرة ببعض أفكار فى تفسير الإدراك الحسى أكثر دقة من الناحية العلمية مما قاله المعتزلة فى هذا الصدد^(٧) .

(١) انظر : الأبهكار ١/ ١١٢ .

(٢) انظر : فلسفة المعتزلة ص ١١ ، ١٢ .

(٣) انظر : فخر الدين وآراؤه ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

(٤) انظر : الأبهكار ١/ ١٢ ، وغاية المرام ص ١٣٩ - ١٤٠ ل ٥٦ .

(٥) انظر : فخر الدين وآراؤه ، ص ٥٠٠ . (٦) الأبهكار ١/ ١١٢ ، ب .

(٧) انظر : غاية المرام ص ١٢٩ - ١٣١ والتعليق بهامشها

وإذن فالإدراك الحسى يقع بخلق الله تعالى فى هذه الأعضاء المخصوصة عند توفر الشروط المعتادة للإدراك ، وقد يكون للقلب مدخل فى ذلك أيضا ، أما الأمور النظرية التى تحتاج إلى نظر وبحث ، فإن العقل هو الطريق إليها ؛ إذ هو وسيلة النظر وتحصيل المطالب النظرية (١) .

د- المعرفة العقلية :

والآمدى يعتد بالمعرفة العقلية ، ويرى أن أشرف المعارف الإنسانية - وهى أصول العقيدة - تستند إليها أساسا ، وإنما يُعتمد على السمع فى فروع الأحكام الشرعية وفى مسائل العقيدة المتصلة بالشواهد والعقوبات أو المعاد وما يكون فيه بصفة عامة . وإن كان العقل عنده ليس هو الطريق الوحيد إلى العلم ، فهناك النقل والأخبار ، والحواس ، والوحى ، والإلهام الإلهى أيضا ، فقد مر بنا أنه يجيز - بصفة عامة - أن تحصل كل المعارف النظرية للعباد اضطرابا ، أى بإلهام من الله دون نظر أو استدلال ، وهو يرى أيضا أن حظ الناس من العقل أو قدرتهم على النظر ليست واحدة ؛ ولهذا فهو يبيح للعوام أن يقلدوا فى العقائد ، ويرى صحة الاعتقاد الموافق للحق ، ولو من غير دليل (٢) .

والآمدى يرفض نظرية الفيض جملة وتفصيلا ، ولا يعترف بوجود ما يسمونه «العقل الفعال» ، فلا محل عنده للقول بأن المعرفة العقلية تفيض على النفوس أو العقول من هذا العقل ، أو من هذا الملك المشرف على فلك القمر وما دونه - كما تخيلوه (٣) - وهو فى هذا واقعى تماما ، كما يظهر من النص الذى أورده أول هذا المبحث ؛ فالإدراك الحسى أولا ، ثم التفكير العقلى ثانيا ، هما طريق الوصول إلى المطلوبات النظرية فى النهاية ، دون تدخل إلا من القدرة الإلهية المباشرة التى تتدخل فى هذه الخطوات جميعا ، فتدخل هذه القدرة فى المرحلة الأولى بخلق الإدراك الحسى فى محل الإدراك من عين أو أذن أو نحوها متى توفرت شروطه ، وقد ذهب إلى مثل ذلك الشيخ المعتزلى (أبو الهذيل العلاف) من قبل ، كما يوجد قريب منه لدى بعض الفلاسفة الغربيين (٤) .

(١) انظر : الأبيكار ١/ ١٦ ، (٢) انظر : الأبيكار ١/ ٢٧ ب ، ١٢٨ ، ٢/ ٢٦٠ - ٢٦١ ب .

(٣) انظر : كتاب نظرية المعرفة عند ابن رشد لاستاذنا الدكتور محمود قاسم ص ٦- ١١ .

(٤) فلسفة المعتزلة ج ٢ ٢٥-٢٧ ؛ حيث ينسب الدكتور نادر مثل هذا إلى القديس أو غسطين وإلى مالبرانش .

أما تدخلها فى المرحلة الثانية ؛ وهى مرحلة التفكير العقلى للوصول إلى النتائج النظرية، فإن الآمدى يرى كجمهور الأشاعرة ، أن العلم لا يتولد حتما عن النظر فى الدليل كما قالت المعتزلة ، ولا يحصل بالإيجاب كما قال الفلاسفة ، وإنما يحصل بخلق الله تعالى ، وتبعاً لمشيئته ، ولئن كان هذا فيضاً فهو فيض مباشر عن الله - سبحانه - مرتبط بالأسباب العادية فى الوقت نفسه، وهى تحصيل المقدمات وترتيبها فى العقل من أجل التوصل إلى معرفة جديدة ، أما النتيجة الأخيرة وهى العلم المطلوب فإنها تكون بخلق الله تعالى .

ووجه الارتباط بين الترتيب السليم للمقدمات والنظر الصحيح فيها وبين العلم بالنتيجة ، هو - كما يعبر الآمدى - « التضمن » ، وهى عبارة دقيقة لا تنفى التلازم ، أو الاقتران الدائم ، بين العلم والنظر ، ولكنها فى الوقت نفسه تنفى الارتباط الذاتى أو الضرورى بينهما ، المرتبط بفكرة « الحتمية » أو السببية بمعناها الميتافيزيقى الذى لا يسلم به الأشاعرة ، وهو يرد على المعتزلة فى قولهم بتولد العلم عن النظر الصحيح بأن فكرة التولد نفسها باطلة ؛ إذ كل الحوادث مستندة إلى القدرة الإلهية مباشرة ، وعلى ما ذهب إليه الفلاسفة - من القول بأن النظر الصحيح موجب للعلم بالمنظور فيه ؛ أى أنهما متلازمان تلازم العلة والمعلول - بأن هذا مخالف لأصولهم ؛ لأن كل متلازمين على هذا النحو عندهم لابد أن يقرنا فى الوجود ، مع أن النظر يسبق العلم فى الوجود ، وينتهى من ذلك إلى قوله : « فالحق ما اختاره أصحابنا من أن النظر يتضمن العلم بالمنظور فيه »^(١) .

هكذا يعرض الآمدى فكرة « التضمن » ، فى طبيعة العلاقة بين المقدمات ونتائجها فى المعرفة العقلية النظرية، فى مواجهة فكرتى « الحتمية » و « التولد » .

* * *

(١) الأبهكار ١/ ١٢٣ - ٢٤ ب ، وانظر : فى هذه المسألة فخر الدين الرازى وآرؤه ٥٠٥ - ٥٠٧ ، وانظر أيضاً

المبحث الثالث الأفعال الانسانية

(أ) طبيعة المسألة :

يقرر الآمدى أن البحث فى هذه المسألة « موضع غمرة ومحز إشكال »^(١) ، والسبب فى هذا ؛ تعارض الشواهد الدالة على عموم قدرته تعالى وإرادته ونفوذ قضائه وقدره ، مع الأدلة المؤكدة لمسئولية الإنسان عن أعماله التى يشعر هو نفسه بحريته فى اختيارها ، وبإسهامه فى كسبها وإحداثها ، وهو تعارض تومىء إليه آيات القرآن نفسها ﴿ إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ﴾^(٢) - ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهذى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾^(٣) كما يشير إليه العديد من الأحاديث النبوية^(٤) ، ولذا شاع بين المسلمين - ووردت بذلك الآثار - أن القدر سر من أسرار الله تعالى^(٥) .

ولغموض المسألة وتعارض الأدلة بشأنها كثر الخلاف حولها ، وتعددت الآراء فيها منذ عهد مبكر ؛ فتمسك معبد وغيلان بالنصوص والأدلة المثبتة لحرية الإنسان وقدرته على أفعاله ؛ وغلوا فى ذلك حتى قالوا إن الأمر أنف ، كأنما ينفون العلم القديم وشمول القدرة الإلهية^(٦) ، وتمسك الجهم وأصحابه بالأدلة المقابلة لذلك فنفوا كل قدرة أو اكتساب للعبد^(٧) . وهكذا نظر كل فريق إلى جانب من المسألة ونوع من الأدلة دون سائر ذلك ، وربما لم يفتن أحد إلى أن تعارض الأدلة العقلية والنقلية حول هذه المسألة قد يكون مفتاح الحل الموفق لها ، إلا ابن رشد الذى اعتبر أن ذلك هو الحكمة المقصودة من هذا التعارض الظاهري^(٨) الذى لاحظته بعض العلماء قبله فاكثفوا بالقول : « إن القرآن يدل على

(١) غاية المرام ل ١٨٤ = ص ٢١٤ ، وانظر : الأبهكار ١ / ٢٣٨ .

(٢) الآية ١١ من سورة الرعد . (٣) الآية ٩٣ من سورة النحل .

(٤) انظر : ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٨٤ ، وموقف البشر تحت سلطان القدر للشيخ صبرى ص ١١٠ وما بعدها ، وإيثار الحق على الخلق ص ٣٠٤ وما بعدها . (٥) انظر : موقف البشر ص ٦٠ ، ٦١ .

(٦) انظر : إيثار الحق ص ٣٠٤ - ٣٠٧ ، ونشأة الفكر ١ / ٣١٠ وما بعدها ، وأصول الدين ص ١٣٤ ، ومقدمة مناهج الأدلة ١٠٧ - ١٠٨ .

(٧) انظر : الأبهكار ٢ / ١٢٦٥ ، ونشأة الفكر ١ / ٣٨٤ وما بعدها ، والمغنى ١٤ / ٢٩٨ و ٢٩٩ .

(٨) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ١٠٦ - ١١٠ ، وابن رشد وفلسفته ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

الاختلاف ، فالقول بالقدر صحيح وله أصل في الكتاب ، والقول بالإجبار صحيح وله أصل في الكتاب»^(١) ، وهو رأى يتسم بالسذاجة وإيثار الدعة والراحة ، وقف عند ظاهره بعض المستشرقين فاعتبروه تناقضاً^(٢) ، وحاول الأشعرى رفعه فانتهى إلى ما يشبه الجبر، كما سنبينه فيما بعد .

(ب) آراء المتكلمين (الأشاعرة والمعتزلة) .

١- ثم جاءت المذاهب الكلامية فاخترت المعتزلة القول بأن « أفعال العباد المختارين مخلوقة لهم ، وأنها غير داخلية في مقدورات الرب - تعالى - ، كما أن مقدورات الرب غير داخلية في مقدوراتهم »^(٣) ، كما يحكى عنهم الآمدى وهو متفق مع ما يقرره المعتزلة أنفسهم»^(٤) ، الذين اختاروا أن يطلقوا حرية الإنسان في أفعاله ، وأن يفصلوا بين نطاقى القدرة الإلهية والقدرة الإنسانية ، ورأوا في هذا تبريراً لمسئولية الإنسان عن عمله طبقاً لمبدئهم الذى اشتهروا به - بعد التوحيد - وهو العدل^(٥) ، وقرروا من أجل ذلك أن القدرة الإنسانية تكون قبل الفعل ، وأنها قدرة على الشيء وعلى ضده^(٦) ، أى أن الله - تعالى - خلق الإنسان مريداً قادراً ثم فوض إليه أعماله يخلقها بقدرته ويحددها بإرادته ، والله سبحانه قادر على سلب ذلك منه ، وتعجيزه عنه ، ولكن سبق قضاؤه بذلك ، وجرت به حكمته لئلا يقبح التكليف^(٧) .

ورغم قوة هذا الرأى وما يتسم به من جرأة فإنه - فيما يبدو - لم يحل المشكلة ، ولم يمنع العقول أن تتساءل : « لو كان المرء هو الذى يخلق أفعاله لكان معنى هذا أن مشيئة الله سبحانه تقف عند حد محدود ؛ أى أنها لا تنصب على نوع معين من الأفعال ، وهذا مخالف لما أجمع عليه المسلمون من أنه لا خالق إلا الله^(٨) . ولذا وجدنا كثيراً من علماء

(١) قال بذلك العنبرى من المحدثين ، انظر : الاعتصام للشاطبى ١ / ١٤٧ .

(٢) جولد تسيهر فى العقيدة والشرعة فى الإسلام ص ٧٩ - ٩٠ . (٣) غاية المرام ل ١٨١ .

(٤) انظر : المغنى ٣ / ٨ - ٥٩ ، وشرح الاصول الخمسة ٣٢٣ - ٣٤٤ ، وانظر غاية المرام ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٥) انظر : مقدمة الأستاذ الدكتور ابراهيم مذكور للجزء الثامن من المغنى للقاضى عبد الجبار ، ومقدمة مناهج الادلة لاستاذنا د / قاسم ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٦) انظر : مقالات الإسلاميين ٢ : ٢٧٥ وفلسفة المعتزلة ٢ / ٦٠ ، ٦١ .

(٧) انظر : اللعة للحلبى ص ٦٩ ، وشرح الاصول الخمسة ٣٤٠ - ٣٤٤ .

(٨) انظر : ابن رشد وفلسفته الدينية لاستاذنا د / قاسم ص ١٨٤ - ١٨٥ .

الطوائف المختلفة يعارضون المعتزلة^(١) ويبحثون عن حلول أخرى للإشكالية التي ظلت في حاجة إلى مزيد من المحاولات .

والآمدى - وهو يعارض رأى المعتزلة ويراه مخالفا لما أجمع عليه المسلمون من أنه لا خالق إلا الله تعالى^(٢) - ينتقد ردود أصحابه من الأشاعرة وغيرهم على هذا الرأى ، ولا يستنكف من بيان ما تتضمنه من ضعف^(٣) ، حتى ما ينسب منها للأشعرى نفسه^(٤) . ويختار هو ردا إجماليا يتجه إلى نقطة الضعف الرئيسية لدى المعتزلة ، ويعتمد على « قاعدة الكمال » الأساسية عنده فيقول : « لو لم يكن فعل العبد ، بله غيره من الموجودات الحادثة ، مقدورا للرب ، وداخلا تحت قدرته ؛ للزم أن يكون البارى - تعالى - ناقصا بالنسبة إلى من له القدرة عليه »^(٥) . وهى فكرة لجد إشارة إليها فى الإبانة للأشعرى^(٦) ، كما نجد لها واضحة عند أبى المعين النسفى الماتريدى^(٧) ، وعند شارح الطحاوية ابن أبى العز الحنفى فيما بعد^(٨) ، ويدعمها الآمدى بفكرة الأشعرى المعروفة ؛ وهى وجوب إحاطة الفاعل علما بتفاصيل ما يفعل ، الأمر الذى نفتقده فى أفعال العباد^(٩) ، وهى تبدو لنا ضعيفة ؛ إذ قد يكفى فى قصد الإنسان إلى فعله تصوره الإجمالى له دون إدراكه لتفاصيله وجزئياته .

والآمدى يتتبع براهين المعتزلة بالنقد وأهمها :

(أ) ما قد يسمى برهان (الشعور بالحرية)^(١٠) : « وهو أنا ندرك بالضرورة وقوع الأفعال على حسب الدواعى والأغراض .. ولولا صلاحية القدرة الحادثة للإيجاد لما أحس

(١) انظر : مثلاً الأربعين للرازى الأشعرى ص ٢٢٧ ، والغنية للجبلانى ص ٦٧ ، وشرح الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، وإشار الحق لابن الوزير الزيدى ص ٢٩٢ وما بعدها ؛ حيث ينقل عن بعض أئمة الزيدية وعلماء العترة معارضتهم لمقالة المعتزلة أن إرادة الله تعالى وقدرته لا تشمل أفعال العباد ، ويسميها « هفوة المعتزلة الكبرى » ، وانظر فى نقد موقف المعتزلة بعامة نشأة الفكر د/ النشار ١/ ٤٨٢ وما بعدها . (٢) انظر غاية المرام ١٨٤ وما بعدها . (٣) السابق ٨٤ = ص ٢١٤ .

(٤) انظر ص ٢١٧ من غاية المرام ، والابهكار ١/ ١٢٥٩ ، ب ، وانظر : معهما اللمع للأشعرى ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٥) غاية المرام ل ٨٥ ب = ص ٢١٧ ، وانظر : الابهكار ١/ ٦١٥ ب ، ٢١٦ ب .

(٦) انظر : الإبانة ص ٦٩ . (٧) انظر : بحر الكلام ص ٩ ، ١٠ .

(٨) انظر : شرح الطحاوية ص ٤٥٠ ، ٤٥١ . (٩) انظر : الأشعرى أبو الحسن ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٦٣ .

(١٠) انظر : فلسفة المعتزلة ٢/ ٦٤ .

من النفس ذلك . وأيضاً فإن الإنسان يجد من نفسه تفرقة بين الحركة الاضطرارية والحركة الاختيارية»^(١) . وبعد أن يعرض الآمدى الدليل على هذا النحو يقرر أنه منتقض طرداً وعكساً ، « من حيث إن الأشياء منها ما يقع على حسب الدواعى ولا يضاف إلى القدرة الحادثة . . كما فى حصول الرى عند الشرب ، والشبع عند الأكل . . ومنها ما لا يقع على حسب الداعية والغرض ، وذلك كما فى أفعال النائم والغافل . . ومع ذلك هى مضافة إلى القدرة الحادثة . . »^(٢) على أن فكرة الدواعى هذه كانت سبباً لاتهام المعتزلة بتهمة غريبة ، وهى الميل نحو الجبر ، فإنه إذا كان حصول الفعل ضرورياً عند وجود القدرة وتحقق الداعية ، والدواعى نفسها مخلوقة لله تعالى - فإين الحرية إذن؟^(٣) وأما التفرقة بين الحركة الضرورية والاختيارية ، فهو قد ينفى الجبر ، ولكنه لا يثبت الخلق والتأثير ؛ إذ قد يكون مناط التفرقة هو الكسب الذى نقول به .

(ب) أما الدليل الشرعى^(٤) القائل « بأن أفعال العباد لو كانت مخلوق لغيرهم كان التكليف فى نفسه باطلا ، فإن حاصله يرجع إلى المطالبة بفعل الغير . . . »^(٥) فإنه يكفى فى المسؤولية الاكتساب لا الخلق ، على أن بعض العلماء يجيز التكليف بغير المقدور ، وإن كان الآمدى قد حقق هذه المسألة كما مر بنا من قبل فى مسألة القدرة^(٦) .

ويتوج الآمدى هذا الموقف الموضوعى من رأى المعتزلة بالدفاع عنهم ضد من رماهم بالمجوسية ؛ إذ أثبتوا فى الكون قدرتين فاعلتين^(٧) ، ويضعف الحديث المتعلق بذلك ، ويدفع اتهامهم بالكفر ؛ إذ أن الخلاف معهم لا يتناول أصلاً من أصول العقيدة ، بل هو فى مسائل تفصيلية ليست مما طالبنا النبى - ﷺ - بالإيمان به ، فلا يكفر المخالف فيها^(٨) .

(١) غاية المرام ٨٦ = ص ٢١٩ ، وقارن المغنى ١٤ / ٤٠ ، ٨ / ١٣ - ٤٣ .

(٢) غاية المرام ل ٨٧ = ٢٢١ .

(٣) انظر هذا النقد عند البغدادى فى أصول الدين ص ٢٦ - ٢٨ ، والرازى فى الأربعين ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، والشيخ مصطفى صبرى فى كتابه « موقف البشر تحت سلطان القدرة » ص ١٣٧ وما بعدها .

(٤) انظر : فلسفة المعتزلة ٢ / ٦٤ - ٦٦ ، المغنى ٨ / ١٩٣ - ١٩٦ ، وشرح الأصول الخمسة ٣٣٢ - ٣٣٦ .

(٥) غاية المرام ص ٢٢٠ = ل ٨٦ ب .

(٦) انظر السابق ص ٢٢٢ = ل ٨٧ ب ، وما مر فى هذه الدراسة ص / ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٧) انظر : هذه التهمة عند ابن حزم الظاهرى فى الفصل ٣ / ٥٤ ، ٧٠ ، ٣٤٠ - ٣٥٧ ، والاشعرى فى الإبانة ص ٧٣ ، والجيلانى فى الغنية ص ٦٧ ، والقشبرى فى الرسالة ص ٣ ، ٤ .

(٨) انظر : الأبهكار ٢ / ٢٥٨ ب ، ١٢٥٩ .

وهذه روح سمحة أجدر بالتقدير من محاولة القاضى عبد الجبار دفع هذه التهمة عن أصحابه وإلحاقها بالاشاعرة ، لقولهم بأن القدرة على الشئ ليست قدرة على ضده « وأن المؤمن لا يقدر إلا على الإيمان وأن الكافر لا يقدر إلا على الكفر ، وهذا هو أحد وجوه المضاهاة بين مذهب المجبرة ومذهب المجوس ، لأنهم يقولون النور مطبوع على الخير . . والظلمة مطبوعة على الشر . وإذا تقرر ذلك صح دخولهم تحت قول النبى ﷺ القدريه مجوس هذه الامة . . » (١) .

٢- ثم جاء الأشعرى الذى حاول التوفيق بين الجوانب المختلفة لهذه المسألة باختياره موقفاً وسطاً بين الجبرية والمعتزلة ، وهو القول (بالكسب) ، وهو مصطلح قد لجدته قبله عند أبى حنيفة (٢) ، أو بعض أتباعه (٣) ، ولكن الأشعرى ينفرد بتحديدده على النحو الذى يعرضه الآمدى بقوله : « إن أفعال العباد مضافة إليهم بالاكتساب وإلى الله - تعالى - بالخلق والاختراع ، وإنه لا أثر للقدرة الحادثة فيها أصلاً » (٤) ، فللعبد قدرة واستطاعة بالنسبة إلى أفعاله الاختيارية ، ولكنها قدرة مقارنة للفعل لا سابقة عليه ، وليس لها أثر فى إيجاد الفعل وإحداثه ، بل هو واقع بقدرة الله تعالى وحدها (٥) . مقارنا لقدرة العبد الحادثة . وهذا هو معنى قول الأشعرى فى المقالات « والحق عندى أن معنى الاكتساب هو أن يقع الشئ بقدرة محدثة فيكون كسباً لمن وقع بقدرته » (٦) . بدليل ما يقرره فى نفس الكتاب « إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله . . وإنه لا خالق إلا الله ، وإن سيئات العباد يخلقها الله ، وإن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل ، وإن العباد لا يقدر أن يخلقوا منها شيئاً » (٧) ، على أن المسألة ليست مسألة النصوص وحدها ، فإن القدرة الحادثة لا يمكن أن يكون لها دخل فى الإيجاد والتأثير ، فإن أخص وصف لله عنده ، هو الخلق والإيجاد والاختراع .

.. وهكذا يسعى الأشعرى نحو الوسط فلا يبلغه ، إذ يبقى قريباً من الجبر إلى حد كبير ، فما دامت القدرة الإنسانية لا تؤثر فى الفعل فما قيمتها . . ؟ وما مناط المسؤولية الإنسانية

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٢٨٧ - ٢٨٨ . (٢) انظر : نشأة الفكر د / النشار ١ / ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٣) انظر : فخر الدين وآراؤه ص ٥٣٠ ، وشرح الطحاوية ٨٤ . (٤) غاية المرام ل ١٨١ = ص ٢٠٧ .

(٥) انظر : السابق ٢١٩ ، والابكار ١ / ٢٣٨ وما بعدها .

(٦) مقالات الإسلاميين ٢ / ١٩٩ ، وانظر : تعليق استاذنا د / قاسم على هذا النص فى مقدمة مناهج الأدلة ص ٢٠٨ .

(٧) المقالات ١ / ٣٢١ .

إذن ؟ أهو مجرد الاقتران الذى اعتبره البعض من غرائب أهل الكلام كحال أبى هاشم وطفرة النظام ؟ لقد وصف الأشاعرة من أجل هذا (بالمجبرة) من جانب المعتزلة ، نقل هذا الرازى ، وحاول رده بأن الجبرى من ينفى القدرة ، ولكننا ننفى الخلق^(١) ، ولكنه هو شخصيا يقول بضرب من الجبر، ويصف أصحابه الأشاعرة أحيانا بأنهم جبرية^(٢) ، ولقد نفى ابن الوزير وغيره تهمة الجبر عن الأشاعرة^(٣) ، والمنفى هو الجبر المحض ، ولكن الأشاعرة أنفسهم يعترفون بلون من الجبر أو قدر منه فى مذهب شيخهم رغم دفاعهم عنه ، ومن هؤلاء فى القديم أبو الحسن الأمدى^(٤) ، وفى الحديث الشيخ مصطفى صبرى^(٥) ، والشيخ حمودة غرابة^(٦) ، وإن كان أستاذنا الدكتور النشار ينفى الجبرية تماما عن الكسب الأشعرى ، ويرد على ابن تيمية فى وصفه الأشعرى بالتجهم^(٧) .

ولقد كانت هذه نقطة ضعف بارزة فى موقف الأشعرى جعل كبار أصحابه منذ وقت مبكر يحاولون تعديله وتطويره حتى انتهى بهم الأمر إلى قريب من موقف المعتزلة :

(أ) فالباقلانى كما يحكى الأمدى لم يثبت للقدرة الحادثة أثرا فى الفعل ، بل أثبت لها أثرا فى صفة زائدة على الفعل ، ثم اختلف قوله فى الأثر الزائد ؛ فقال تارة إنه لا أثر للقدرة القديمة فيه أصلا ، وقال تارة بالتأثير ، وأثبت مخلوقا بين خالقين^(٨) .

(ب) وقد نقل عن الإسفرائينى أنه قال فى نفس الفعل ما قاله القاضى فى القول الثانى فى الأثر الزائد^(٩) وقد نسب مثل هذا أو قريب منه إلى ابن فورك أيضا^(١٠) .

(١) انظر : اعتقادات فرق المسلمين للرازى ص ٦٨ .

(٢) لنظر فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٥٣٢ (٣) انظر : ترجيح أساليب القرآن ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٤) انظر : الأبيكار ٢/ ٢٥٦ ؛ حيث يقول الأمدى : «الجبر عبارة عن نفي الفعل عن العبد حقيقة وإضافته إلى الرب تعالى ، غير أن الجبرية تنقسم إلى جبرية خالصة وهى التى لا تثبت للعبد فعلا ولا كسبا كالجهمية ، وإلى جبرية متوسطة وهى التى لا تثبت للعبد فعلا لكن تثبت له كسبا كالأشعرية والنجارية والضرارية والحفصية» .

(٥) انظر : موقف البشر ٢٨ ، ١٤٦ وما بعدها .

(٦) انظر : الأشعرى أبو الحسن ص ١٦٢ وما بعدها . (٧) انظر : نشأة الفكر ١/ ٣٨٥ .

(٨) انظر : غاية المرام ل ١٨١ = ص ٢٠٧ ، ل ٨٧ = ٢٢٢ ، وإشار الحق ٣١٨-٣٢٠ ، واللمعة للحلبى ٤٨-٥١ ، وشرح التفثازانى على النسفية ٧٦ وانظر : التعليق رقم ١ بها .

(٩) غاية المرام ل ٨٧ ب = ٢٢٢ ، وقارن نهاية الأقدام ٧٧-٧٨ ، وإشار الحق ٣١٧ .

(١٠) انظر : نهاية الأقدام ٧٤ - ٧٨ .

(ج) أما التطور الحقيقي فكان على يد الجويني الذي ذهب - كما يقرر الآمدى - فى بعض تصانيفه إلى تأثير القدرة الحادثة فى إيجاد الفعل ، ولم يجعل للقدرة القديمة فيه تأثيرا إلا بواسطة إيجاد القدرة الحادثة عليه^(١) . وهو يشير بذلك إلى العقيدة النظامية التى قرر فيها أن الفعل يقع بتأثير القدرة الإنسانية وحدها التى هى مخلوقة لله تعالى بعد توفر دواعيه وأسبابه^(٢) ، بينما كان فى «الإرشاد» يجرى على التقليد الأشعرى^(٣) ، ولا يكاد الجويني فيما انتهى إليه يختلف عن المعتزلة إلا فى تسميته ذلك كسبا لا إيجاداً ، وفى عدم ذهابه إلى أن مقدورات العباد لا تدخل فى مقدورات الله تعالى ، بل هى عنده مقدورة لله مخلوقة له بحكم خلقه للعبد وقدرته الحادثة^(٤) .

(د) ثم بدأ التراجع فى المذهب شيئا فشيئا حتى عادوا مرة أخرى إلى موقف شيخهم الأول على يد الآمدى وبعض من سبقوه : فالغزالي يرجع إلى مثل قول الباقلاني فى بعض كتبه ، فيرى أن المؤثر هو مجموع قدرة الله - تعالى - وقدرة العباد ويسمى ذلك كسبا^(٥) .

(هـ) أما الشهرستاني فيقول بنفى تأثير القدرة الحادثة ، وينتقد من عدل عن هذا الموقف من شيوخ المذهب كالجويني والإسفرائيني والباقلاني^(٦) .

(و) والرازي يتحرر قليلا فيجعل للقدرة الحادثة دخلا فى التأثير ، وبجانب الدواعي والمؤثرات الخارجية ، ولكنه يرى عند تحقق هذا أن الفعل ضرورى الحصول ، أى أننا بإزاء جبر من نوع خاص يصرح الرازي نفسه به ، إذ يقول إن الإنسان مضطر فى صورة مختار ، وربما يؤكد هذا هجومه المتكرر على موقف المعتزلة ومحاولة إلزامهم بالجبر بناء على فكرة الدواعي كما سلفت الإشارة^(٧) .

(١) غاية المرام ص ٢٢٠ ل ٨٨ ب .

(٢) انظر : العقيدة النظامية ص ٣٠ وما بعدها ، وانظر أيضا شفاء العليل لابن القيم ص ١٧٥ .

(٣) انظر : الإرشاد ص ٢١٠ .

(٤) انظر : إنباء الحق ص ٢٩٢ ، والمغنى ٨/ ١٩٣-١٩٦ ، ونهاية الأقدام ٨٣ ، والابكار ١/ ٢٥٧ ب .

(٥) انظر : الأربعين للغزالي ص ١٣ نشر الجندى القاهرة . (٦) انظر : نهاية الأقدام ص ٥٣ - ٨٩ .

(٧) انظر : غاية المرام ص ٢٩٩ ، وقارن الأربعين للرازي ٢٢٧ .

ز- موقف الآمدى :

ثم يأتى الآمدى فيعود تماما إلى موقف الأشعرى ، ويعرف الكسب على النحو الذى نجده عنده ؛ إذ ينفى كل أثر للقدرة الحادثة فى أفعال صاحبها^(١) ، وينتقد من مال من الأصحاب إلى غير ذلك ، بمثل ما عارض به المعتزلة ، بالإضافة إلى أفكار أخرى، وهى استلزامه لوقوع مقدور بين قادرين وهو ما يراه باطلا^(٢)، وأن التأثير فى صفة الفعل دون أصله - كما ينسب للباقلانى - قد يعنى التفرقة بين الوجود والماهية وهذا مخالف للمختار فى المذهب ، إلى اعتراضات أخرى^(٣)، ويبدو لى أن الآمدى كان متأثرا فى موقفه هذا بالإمام الرازى فهو ينقل عنه كلمته « الإنسان مجبور فى صورة مختار »^(٤)، ويحكى أدلته على ذلك دون أن يحاول التعقيب عليها كمعادته فيما ينكره من آرائه^(٥).

والآمدى رغم عده الأشاعرة فى الجبرية ، وإن كان يسميهم « الجبرية المتوسطة » كما أسلفت ، يذكر لنا أنه اختار مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ؛ لأنه « هو الطريق العدل والمسلك المتوسط بين طرفى الجبر المحض وإثبات خالق غير الله تعالى ، بتوفيقه بين دليل القدرة الحادثة ودليل انتفاء خالق غير الله تعالى .. »^(٦) وهو يحدد هذا المذهب بقوله : « مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى أنه لا تأثير للقدرة الحادثة فى حدوث مقدورها ولا فى صفة من صفاته ، وإن أجرى الله تعالى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها ، فيكون الفعل خلقا من الله تعالى إبداعا وإحداثا ، وكسبا من العبد لوقوعه مقارنا للقدرة .. »^(٧) وربما كان الشئ الوحيد الذى يضيفه الآمدى إلى نظرية الأشعرى هو أن القدرة الحادثة من شأنها التأثير وإن لم تؤثر بالفعل ، « فإنه لا معنى لكون الشئ مقدورا بالقدرة غير إمكان تأثير القدرة فيه .. »^(٨) غير أن الأدلة قامت على انفراده تعالى بالتأثير فلم تؤثر القدرة الحادثة بالفعل مع إمكان حصول ذلك^(٩). وهذا رأى يرويه المتأخرون عنه ؛ فيقول

(١) انظر : غاية المرام ص ٢٢٣ = ل ٨٧ ب ، وقارن اللع ٧١-٧٩ ، ونهاية الاقدام ٧٣-٧٩ ، وشرح العضدية

١٧٢-١٧٩ ، وشرح النسفية ٣٥٠-٣٧٩ ، وفيها يورد تعريف الآمدى للكسب ص ٣٦٢-٣٦٣ .

(٢) انظر : الأبهكار ١ / ٢٤٠ أو ما بعدها .

(٣) انظر : غاية المرام ص ٢٢٢ = ل ٨٧ ب ، والأبهكار ١ / ٢٥٧ ب ، ١٢٥٨ ، ١٢٨٧ ، ب .

(٤) المآخذ ل ٣٥ . (٥) انظر : المآخذ ل ١٣٤ وما بعدها .

(٦) الأبهكار ١ / ١٢٧٢ . (٧) السابق ١ / ٢١٥ ب .

(٨) الأبهكار ٢ / ٢٥٧ ب . (٩) انظر : الأبهكار ١ / ٢٥٨ وما بعدها .

الخيالى فى حاشيته على شرح النسفية : « وفى كلام الآمدى أن القدرة الحادثة من شأنها التأثير ، لكن عدم التأثير بالفعل لوقوع متعلقها بقدرة الله تعالى »^(١) ، وقد روى السيالكوتى هذا رأى ونسبة للآمدى أيضا ، وكذا الجلال الدوانى إلا أنه لم يصرح بنسبته إلى الآمدى^(٢) . ولكننا نستطيع أن نقول مع الجوينى كما يحكى عنه الآمدى نفسه : « إن إثبات قدرة لا أثر لها بوجه كنفى القدرة »^(٣) وإن كان الآمدى نفسه يحاول إقناعنا ؛ إذ يذكر فعل المضطر المكره ثم يقول : « وهذا بخلاف فعل العبد المختار فإنه وإن لم تكن قدرته مؤثرة فى إيجاد غير أنه قائم بمحل قدرته ، وواقع على وفق إثباته وإرادته وهو معنى كونه مقدورا له »^(٤) ، غير أننا نستطيع أن نقول للآمدى أيضا إن هناك محاولات أخرى لغير الأشعرى ربما كانت أقرب إلى الوسطية المنشودة وأبعد من الجبر المحض وإثبات خالق غير الله تعالى .

٣- آراء أخرى :

(١) من أبرزها محاولة الماتريدية ؛ فقد فرق أبو منصور الماتريدى بين معنيين لقدرة العبد أو استطاعته ، أولهما سلامة الأسباب وصحة الآلات وهذه سابقة على الفعل ، والآخر ما يقع الفعل به وتلك مخلوقة لله مقارنة للفعل^(٥) ، وقد لا نجد هنا فارقا كبيرا عن الموقف الأشعرى ، ولكن التميز الحقيقى للماتريدية فى تأكيد حرية الإرادة أو المشيئة الإنسانية حتى ليقولون - كما يحقق الشيخ مصطفى صبرى - إن الله خلق العبد ذا إرادة ، وأما ممارسته لتلك الإرادة - أى المشيئة الجزئية المتعلقة بأفعاله المختلفة - فإنها من فعله ولا تتوقف على خلق الله - تعالى - . ومن هنا يحكم بأن الماتريدية بعيدون عن الموقف الأشعرى ، بل وأكثر تحقيقا لحرية الإنسان من المعتزلة ، لأن هؤلاء - فى رأيه - تورطوا فى الجبر بناء على فكرتهم عن « الدواعى » كما سلفت الإشارة^(٦) . وقد نلمس هذا المعنى من قول النسفى : « العبد مخير مستطيع فإذا وجد منه الجهد والقصد والنية والاكتساب فى المعصية يجرى خذلان الله مع نيته وقصده فيستحق العقوبة على فعل نفسه . وإذا وجد جميع ذلك فى الطاعة يجرى عون الله وتوفيقه مع فعله »^(٧) . هذا مع تصريحهم بأن الله

(١) انظر : شرح النسفية ص ٣٧٠ . (٢) انظر : شرح العضدية ص ١٧٢ . (٣) الأبيكار ١/ ١٢٥٨ .

(٤) الأبيكار ١/ ٢١٥ ب . (٥) انظر : كتاب التوحيد للماتريدى ل ١١٣٥

(٦) انظر : موقف البشر ص ٥٦ - ٥٨ - ٧٣ - ٩٨ ، ١٤٤ - ١٤٦ .

(٧) بحر الكلام ص ٣٧ ، وانظر أيضا ص ١٠ - ١٢

— تعالى — خالق كل شيء ومن ذلك أفعال العباد^(١)، فهذا موقف وسط يختلف عما اختاره المعتزلة وجمهور الأشاعرة خلافاً لما اشتهر من أن الماتريدية يتفقون غالباً مع الأشاعرة^(٢).

(٢) كما أن الحنابلة والسلفية — بوجه عام — يعارضون الجبر، ويؤكدون ألا خالق إلا الله — تعالى، وهم يثبتون — في الوقت نفسه — أن العبد فاعل لأفعاله مؤثر فيها بما منحه الله من قدرة واستطاعة؛ روى هذا عن أحمد بن حنبل^(٣)، وصرح به ابن قدامة^(٤)، وابن الجوزي^(٥)، وابن تيمية^(٦)، وابن القيم^(٧)، وابن أبي العز الحنفى^(٨)، دون أن يحاولوا تحديد نصيب الإنسان من فعله كما حاول ذلك المتكلمون الآخرون فكانوا أكثر واقعية وحكمة.

(٣) وقريب من الموقف السابق، نقل عن بعض الصوفية — كالجيلاني مثلاً — إذ عارض كلا من الجبرية والمعتزلة^(٩)، وعلم تلاميذه كما يحكى ابن تيمية عنه وعن شيخه الدبلمى — أن «الرجل من يكون منازعاً للقدر لا موافقاً له»^(١٠)، هذا وقد نزع بعض الصوفية إلى الموقف الأشعري، ونسب إلى بعض منهم الذهاب إلى الجبر كما ذكره الاستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى عن ابن عربى^(١١)، مع أننا نجد عنده قريباً من كلام الجيلاني: «فإن الرضا بالقضاء لا تقدر فيه الشكوى إلى الله ولا إلى غيره، وإنما تقدر في الرضا بالمقضى ونحن ما خوطبنا بالرضا بالمقضى، والضر هو المقضى وما هو عين القضاء»^(١٢)، كما نجد ينتقد كلا من الأشاعرة والمعتزلة، ولا يرى مانعاً من نسبة الأفعال للمخلوقين مع كونها — في الوقت نفسه — أفعال الله سبحانه بلا اشتراك^(١٣)، وربما كان جوهر المسألة

(١) المرجع السابق ص ٣٨ . (٢) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ١١ - ١١٦ .

(٣) انظر : طبقات ابن أبى يعلى ١/ ٢٩٩ . (٤) انظر : لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص ٢٠، ٢١ .

(٥) انظر : تلبس إبليس ص ٣٥٣ . (٦) انظر : الرسالة الواسطية ص ٢١ .

(٧) انظر : شفاء العليل ص ١٠ وما بعدها . (٨) انظر : شرح الطحاوية ص ٨٠ وما بعدها .

(٩) انظر : الغنية ص ٣٠ . (١٠) انظر : الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص ١٣ .

(١١) انظر : الرسالة للقشيري ص ٥ .

(١٢) الفصوص ١/ ١٧٤، وانظر التصوف الثروة الروحية في الإسلام — ط أولى — ص ١٩٦ .

(١٣) انظر : الفتوحات ٣/ ٢١٢، وانظر ايضاً ١/ ٤٥٨ .

عنده أن العبد مهما حاول فهو محكوم بطاقاته وإمكاناته التي قدرت له ، وأنه لا يستطيع على كل حال أن يكون إلا نفسه . وهذا ربما كان قريبا من موقف ابن رشد .

(٤) وأما ابن رشد فقد اهتدى بتأمله للنصوص والشواهد المتعارضة في هذه المسألة – كما سلفت الإشارة – إلى أن « الله وهبنا قوة نستطيع بها فعل أحد المتضادين ، وهي قوة غير محدودة ، وهي التي نطلق عليها اسم الإرادة ، ومع هذا فليس لهذه القوة غير المحدودة حريتها الكاملة ، ذلك لأنها تتأثر بالأسباب الخارجية التي وضعها الله في متناول أيدينا ، فهذه الأسباب تساعد على تمام أفعالنا أو تحول دون نفاذها . . . ، ومعنى هذا أن أفعال الإنسان ليست اختيارية تماما ولا جبرية تماما وإنما هي تجمع كما نرى بين الاختيار والجبر في آن واحد »^(١) . وكأنما يريد ابن رشد أن يقول لنا عن الحرية ما يقوله فيلسوف معاصر « . . . أن نستخرج من شروط الحياة نفسها ما يعيننا على تحقيق مصيرنا . . . ، وأن نأخذ على عاتقنا في شجاعة متبصرة مسئولية وجودنا ؛ فنحاول أن نخلق من مظاهر عبوديتنا وسائل للتحرر ، ونعمل على أن نخلع على حياتنا معنى شخصيا أصيلا . . . »^(٢) .

كلمة أخيرة :

وهكذا أجدني مضطرا لأن أقف بعيدا عن موقف الآمدى واتجاهه المذهبي في هذه المسألة أيضاً كما فعلت في مسألة الحكمة ، وفي مسألة (الصفات الخيرية) ، وأرى أن من الخير في هذه المسألة أن يلجأ المرء إلى الموقف السلفى الذى يقوم على ألا خالق إلا الله تعالى ، وأن العبد مع هذا فاعل لأفعاله حقيقة ، ولقدرته تأثيرها ، دون بحث عن مدى هذا التأثير أو حقيقته ، مع الإيمان بسبق العلم وشمول القدرة والإرادة الإلهيتين ، وعندئذ تكون عقيدة القضاء والقدر قوة دافعة كما كانت في الماضى ، لا عاملا مثبطا كما حدث في العصور المتأخرة ، الأمر الذى حدا ببعض المفكرين المحدثين إلى النزوع إلى موقف

(١) ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٨٧ ، وانظر : مقدمة مناهج الأدلة ١١٦ - ١١٩ ، ومناهج الأدلة ٢٢٣ - ٢٣٣ .

(٢) مشكلات فلسفية - مشكلة الحرية د/ زكريا إبراهيم ص ٢٤٩ ، وانظر أيضا هذا المعنى عند أستاذنا الدكتور / قاسم في مقدمة مناهج الأدلة ص ١١٩ .

المعتزلة^(١) . ولا ضير على المسلم في عقيدته أن يأخذ بأى من الآراء السابقة متى سلّم بأن الله خالق الإنسان وقدرته ، وأن العبد ليس مجبراً تماماً على فعله ، وهذا ما يجمع المسلمون عليه منذ إنقراض الجبرية الأوائل ، وإن كان من الخير أن نتخلص مما قد يكون في ثنايا هذه المذاهب الكلامية من تطرف أو ضعف . ولعل أقرب المذاهب بعد ذلك وأدناها إلى الصواب مذهب ابن رشد ، فهو يقوم على نصوص القرآن ، ويرضى العقل والضمير في وقت معا .

* * *

(١) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ٦ وتجديد التفكير الديني لإقبال ص ١٢٧ وما بعدها ، وموقف البشر ص ١٣ وما بعدها .

المبحث الرابع

النبوة

١- إمكان النبوة ووجه الحاجة إليها :

يتناول الآمدى هذه المسألة الهامة من جانبين : جانب نظرى يتعلق بجواز النبوة وبيان إمكانها وحاجة الناس إليها ، وما يتعلق بذلك من تفسير لمعنى النبوة ، والمعجزة ، ونحوها من المباحث النظرية ، وجانب تطبيقى فى بيان وقوع الرسالة فعلا ؛ وذلك بتحقيق بعثة النبى - محمد ﷺ - وصدق رسالته .

ويستهل الآمدى كلامه عن الجانب الأول بالإشارة إلى حقيقة النبوة وأنها لا ترجع إلى صفة من صفات النبى ، ولا حلة من أحواله استحقها بكسبه وعمله ، ولا ترجع إلى شئ آخر فى شخص النبى يستوجب النبوة ، بل هى مجرد هبة من الله - تعالى - ونعمة منه على عبده ، وهى اجتناب منه واصطفاء يتمثل فى قوله له : «إنك رسولى ونبى»^(١) ، وكون النبوة هبة غير مكتسبة هو ما يقرره العلماء المسلمون من مختلف المذاهب الإسلامية^(٢) .

وينتقل الآمدى بعد ذلك مباشرة إلى بيان جواز النبوة عقلا ، غير أنه ينزع فى تصور هذا الجواز منزعا أشعريا إذ يقول «إن النبوات ليست واجبة أن تكون ولا ممتنعة أن تكون ، بل الكون وأن لا كون بالنسبة إلى ذاتها وإلى مرجحها سيات ، وهما بالنظر إليه سيات»^(٣) . وإذا كان هو ينسب - بعد ذلك - إلى الفلاسفة والمعتزلة وحدهما القول بوجوب النبوة ، فإننا نجد النفسى الماتريدى يقول فى عقائده «وفى إرسال الرسل حكمة»^(٤) . وهو تعبير مخفف عن ضرورة الرسالة ، دون التورط فى الإيجاب على الله كما صرحت المعتزلة بذلك^(٥) ، وقد نجد عند الفيلسوف ابن رشد قريبا من هذا أيضا^(٦) .

(١) انظر : ١٢٢١ من غاية المرام = ٣١٧ من النسخة المطبوعة .

(٢) قارن بأصول الدين للبغدادى ١٥٣ ، والبيان للباقلانى ٤٣-٥٠ ، والفصل لابن حزم ٧١-٧٧ ، وشرح الطحاوية لابن أبى العز ٩٥ ، والعضدية بشرح محمد عبده ٣٢٢ ، ومناهج الأدلة لابن رشد ٢٠٨-٢٢٢ ، والفرقان لابن تيمية ٨٥-١٠٥ ، والمغنى لعبد الجبار ٩-١٩ ، والقول الفصل لمصطفى صبرى ١٤٧-١٥٤ .

(٣) انظر : ل ١٢١ ب من غاية المرام = ص ٣١٨ .

(٤) انظر : شرح النسفية ٤٥٧-٤٥٩ .

(٥) انظر : مقدمة مناهج الأدلة ص ١٠٠ . والمغنى ١٥/٢٥ وما بعدها .

(٦) انظر : ابن رشد وفلسفة الدينية ص ١٨٠ .

ولكنه يشمر للطعان - كما يعبر - ضد هؤلاء القائلين بالوجوب ، ويعرض فكرة المعتزلة والفلاسفة فيمزج بين « فكرة اللطف » الاعتزالية ، « وفكرة العناية » الفلسفية ، وما يشهد به الواقع من حاجة الناس جميعا إلى قائد يخضعون له ونظام يتبعونه . وكل ذلك يوجب أن يكون لهم « مشرع يخاطبهم ويفهمهم من نوعهم .. ثم يجب أن يكون .. مؤيدا بالمعجزات .. بحيث يكون ذلك موجبا لقبول قوله ، والانقياد له فيما يسنه ويشعره .. ليتم لهم النظام ، ويتكامل لهم اللطف والإنعام ، وذلك كله فالعقل يوجبه لكونه حسنا»^(١) . وهذا هو المقام الثانى الذى يجمع فيه الآمدى بين أفكار الفلاسفة والمعتزلة فى معرض واحد ، وقد سبق مثل هذا فى مسألة الصفات وعدم زيادتها على الذات ، وعلى كل فإن الآمدى يتمسك فى الرد عليهم بالموقف المبدئى الأشعرى الذى سلف بيانه فى إنكار كل حسن أو قبح ذاتيين للأشياء ، وفى رفض وجوب الصلاح أو الاصلاح ، وفى نفى الحكمة والغاية عن أفعال الله - تعالى ، ومنها إرساله الرسل والأنبياء^(٢) .

ولكن ينبغى أن نذكر هنا أن الآمدى يذكر فى رده على نفاة النبوة أن النبى يأتى بما تعجز العقول عن الوصول إليه أو لا تستقل به وحدها ، مما لا تتم السعادة إلا به^(٣) . وهذا قريب مما يقول به هؤلاء الذين يعارضهم بفكرة « الجواز » الأشعرية التقليدية .

وبواصل الآمدى بعد ذلك مناقشاته لشبه خصوم الرسائل ؛ فيوضح هذه الأفكار الثلاثة : حقيقة النبوة ، وإمكانها ، ووجه الحاجة إليها . كما يتعرض لبيان حقيقة المعجزة ووجه دلالتها على صدق النبى ، والفرق بينها وبين ألوان السحر والتخييل ونحوه :

(١) فيرد على شبهتهم الخاصة بتعذر علم النبى بمرسله واتصاله به ، لأن الوساطة بينهما إن كان روحانيا فكيف ينطق ويحمل الكلام ، وإن كان جسمانيا شاهده الناس جميعا^(٤) - بقوله : « ليس المطلوب لهذا الشخص من قبل الله تعالى بمستحيل ، ولا نزول الوحى إليه مع الأمين جبريل ؛ فإنه غير بعيد أن تشمله عناية المبدأ الأول بتكميل فطرته ..

(١) غاية المرام ل ١٢١ ب ، ١١٢٢ = ص ٣١٩ من النسخة المطبوعة .

(٢) انظر : غاية المرام ل ١٢٩ = ص ٣٣٩ (٣) انظر : غاية المرام ل ١٢٤ ، ب = ص ٣٢٦ .

(٤) انظر : غاية المرام ل ١٢٣ ب = ص ٣٢٤ .

بحيث يتهيأ لقبول هذه الأسرار ويستعد لدرك هذه الأنوار ، فيرى ملائكة الله على صور مختلفة ، ويسمع وحيها وحده دون غيره من الحاضرين ..»^(١) إلى هنا والكلام عادى ، ولكن الآمدى يضيف إلى ذلك - ليقرب للأفهام ظاهرة نزول الملك وتمثله للأنبياء فى صورة محسوسة - قوله : « الذى يظهر أنها أنوار روحانية وجواهر عقلية ، تظهر فى الخيال على اختلاف تلك الأشكال .. فإذا اشتد صفاء نفسه بحيث صارت متصلة بعالم الغيب ؛ انطبعت تلك الأشكال فى القوة الخيالية .. ثم انطبع ما حصل فى الخيال من الإدراكات الظاهرة فى الخواص الباطنة ، فإذا ذاك يرى من الأشخاص والصور ، ويسمع من الأصوات ما تتقاصر عن الإحاطة به قوى البشر ، فما يراه من الصور هى ملائكة الله ، وما يسمعه من الكلام هو كلام الله ووحيه الموحى به إليه»^(٢) .

والحق أن فى كلامه هذا ملامح واضحة من نظرية النبوة وتفسير الوحي لدى الفلاسفة الإسلاميين وخاصة عند الفارابى^(٣) ، من حيث ربطهما بقوة الخيال وتفسير ما يبدو من الصور أو يُسمع من الأصوات على هذا النحو ، مما نجد له أثراً - أو نظيراً - عند إخوان الصفا^(٤) ، وعند ابن عربى^(٥) ، وربما عند الغزالى أيضاً^(٦) فى بعض كتبه ، وبصورة أوضح عند الرازى^(٧) فخر الدين ، وعند طوائف أخرى من المسلمين وغيرهم^(٨) .

حقاً إن الآمدى يعارض - كما مر بنا^(٩) - فكرة الفلاسفة عن الوحي ، وهو هنا لم يصرح بأهم أركانها ؛ وهى أن مصدر الوحي هو العقل الفعال وهى فكرة اشتد فى معارضتها كما بيناه من قبل ، وهو يؤكد فى أكثر من موضع أنه لا يقصد أكثر من ضرب

(١) غاية المرام ل ١٢٣ ب = ص ٣٢٤ - ٣٢٥ . (٢) غاية المرام ل ١٢٤ = ص ٣٢٥ .

(٣) قارن بالإشارات والتنبيهات ٤ / ٨٧٦ - ٨٨٦ ، وفضائح الباطنية ٤٠ - ٤٣ ، ومنهج وتطبيقه للدكتور مذكور / ٨٠ - ١١٥ .

(٤) انظر الرسائل ٣ / ٣٣ ، ٤ / ١٧٨ ، ١٨١ ، ومنهج وتطبيقه ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٥) انظر : بحث استاذنا د / قاسم عن «الخيال عند ابن عربى» ص ٩٤ وما بعدها .

(٦) انظر : القسطاس المستقيم ص ٣٩ ، ٤٥ ، ومعارج القدس ١٠٩ - ١١٢ ، ١١٧ - ١٢٨ ، ومنهج وتطبيقه ص

١٣١ - ١٣٢ . (٧) انظر : فخر الدين وآراؤه ص ٥٥٧ - ٥٦٤ .

(٨) انظر : منهج وتطبيقه ص ١٢٣ وما بعدها . (٩) انظر ما سبق فى ص ٤٥٤ ..

المثل لتقريب الفكرة من الأذهان^(١) ، وخاصة عندما يمثل حالة الاتصال السابقة بما يراه النائم أو يتخيله المصروع^(٢) ، ولكن يبقى بعد هذا أنه متأثر في محاولته الرد على من استبعدوا حدوث الروحى بالمفهوم الفلسفى المشار إليه ، وهو مفهوم لا يخلو من المشكلات من وجهة النظر الدينية^(٣) ، وما كان أحراه أن يأخذ فكرة الروحى فى بساطتها وكما يفهمها جمهور المسلمين من التلقى عن الملك المبعوث من الله تعالى على نحو واضح لا إشكال فيه ، حتى لقد رآه بعض المسلمين أحيانا أو رأوا آثار لقائه على شخص النبى - ﷺ - دون أن يربط ذلك بالخييلة ، أو يقرن بينه وبين الظواهر المرضية ، مما لا تدعو إليه ضرورة ، وربما جلب من المشكلات أكثر مما يحقق من الإقناع ، ولعلها إحدى ما تمسك به خصومه الذين اتهموه - لدوافع الحقد - باعتناق (دين الاوائل)^(٤) .

(٢) وشبهة أخرى يقول فيها هؤلاء النفاة إن ما يأتى به الرسول إن كان فى نفسه معقولا ففى عقولنا غناء عنه ، وإن كان غير معقول فهو غير مقبول ، فالبعثة - على كل حال - لا تفيد^(٥) . فيتصدى لهم الآمدى قائلا : « لا مانع من أن يرد النبى بما هو فى نفسه معقول ، ويكون تحذيره وترغيبه تأكيدا ، ويكون ذلك بمثابة إقامة أدلة متعددة ومدلول واحد ، وهو لا يسمى عبثا »^(٦) . ويقرر الآمدى هذا الجواب فى (الابكار) أيضا بمزيد من التفصيل ، ويعارض هناك رأى أبى هاشم فى أن الرسول لا يرد إلا بما تعجز عنه العقول ، وهو جواب نجده من قبل عند الباقلانى فى التمهيد^(٧) . على أن المهمة الأساسية للنبى هى أن يأتى : « بما لا تستقل به العقول ، بل هى متوقفة فيه على المنقول ، وذلك كما فى مسالك العبادات ومناهج الديانات ، والخفى مما يضر وينفع من الاقوال والافعال ، وغير ذلك مما تتعلق به السعادة والشقاوة فى الاولى والاخرى ، وتكون نسبة النبى إلى هذه الاحوال كنسبة الطبيب إلى تعريف خواص الادوية والعقاقير التى يتعلق بها ضرر الابدان ونفعها ، فإن عقول العوام قد لا تستقل بدركها ، وإن عقلتها عندما ينبه الطبيب

(١) انظر غاية المرام ١١٢٤ ، ١٢٥ = ص ٣٢٨ ، ٣٢٥ من المطبوعة .

(٢) راجع ما مر فى ص ٣٨٨ - ٣٩٠ . (٣) انظر منهج وتطبيقه ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٤) راجع ما مر فى ص ٥٦ وغيرها (٥) انظر غاية المرام ل ١١٢٤ - ب = ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٦) غاية المرام ل ١١٢٤ .

(٧) انظر : الابكار ١٣٩ / ٢ ب ، ١١٤١ ، والمغنى ١٥ / ١٧ - ٣٠ ، والتمهيد ص ١٠٧ - ١١٢ .

عليها^(١)»، وفكرة تشبيه النبي بالطبيب، والعلاج الروحي والاجتماعي بالعلاج البدني - نجدها عند الغزالي والشهرستاني وابن رشد وابن تيمية^(٢)، ومن قبل ذلك عند القاضي عبد الجبار المعتزلي^(٣)، أما التركيز على أن المهمة الأولى للنبي هي التشريع المحقق لسعادة البشر في الدنيا والآخرة، فنجده بصورة أوضح وأقوى عند ابن رشد^(٤).

وينبغي أن نلاحظ أيضاً: أن مالا تستقل به العقول يشمل ما تعجز عن الوصول إليه وإن عقلته عندما تنبه عليه كما يقول الآمدى، ويشمل أيضاً ما قد تصل إليه، ولكن ليس على النحو الآتم، ولكنه على أية حال لا يعنى ما يناقض العقول، أو يتعارض معها تعارضاً حقيقياً، وقد سبق أن نقلت عن القاضي عبد الجبار رده على خصوم الرسالة بالترقية بين مالا يصل إليه العقل، وما يتناقض مع العقل^(٥).

ويواصل الآمدى مناقشته لشبه هؤلاء النفاة مؤكداً إمكان الوحي وجوازه^(٦)، وما أظن أنه كان يواجه في عصره خصوماً حقيقيين في هذا الشأن، ولكنه جرى على عادة المتكلمين فيما يبدو، وبرغم ما قد لجمه في مثل هذه المناقشات من جدوى، فرمما كان أعظم أدلة الجواز هو ثبوت الوحي والتنبؤ كظاهرة تاريخية قد لا يقوى على إنكارها من لا يؤمن بنبي معين، أو باى نبي على الإطلاق، وهو المعنى الذى نجده عند ابن رشد^(٧) الذى انتقد فكرة الإمكان الأشعرية التى يلح عليها الآمدى هنا، ولا شك أن الوقوع هو أقوى دلائل الجواز كما يقولون. وهو المعنى الذى وقع عليه الآمدى نفسه فى محاولته إثبات صفة الكلام؛ إذ اعتمد على تحقق ظاهرة الوحي نفسها من الوجهة التاريخية وإجماع الملبين على ذلك، بصرف النظر عن اختلاف الرسل والرسالات^(٨)، ولكن فاته

(١) غاية المرام ل ١٢٤ ب، وانظر نفس الفكرة فى الأبيكار ١٤٨/٢ ب، ١٢٩٥.

(٢) انظر غاية المرام ل ١٢٤ ب، والاقتصاد للغزالي ١١٣-١١٤، ونهاية الأقدام للشهرستاني ٣٩٦، وموافقة صحيح

المنقول لابن تيمية ١/ ١-١٤، ومناهج الأدلة لابن رشد ١٨٠-١٨٤.

(٣) انظر: المغنى ١٥/ ١٩-٢١.

(٤) انظر: مناهج الأدلة ١٨٠-١٨٤، وابن رشد وفلسفته الدينية ١٨٠، ١٨٣.

(٥) راجع ما سبق فى الباب السابق - الفصل الثالث.

(٦) انظر غاية المرام ١٢٣ ب- ١٢٥ ب، والأبيكار ٢/ ٢٩٥ ب.

(٧) انظر: مناهج الأدلة ٢٠٨-٢١٧، وابن رشد وفلسفة الدينية ص ١٧٩، ١٨٠.

(٨) انظر: ما مر فى إثبات صفة الكلام.

أن يستغله هنا في إثبات الرسالة وإمكانها على النحو الذى لجده عند ابن رشد ، وعند سلفي متأخر هو ابن أبى العز الحنفى فى شرحه للعقيدة الطحاوية^(١) .

ب- المعجزة كطريق لإثبات صدق النبى :

يرى الآمدى - وهو فى معرض الرد على نفاة النبوة بناء على تعذر معرفة صدق النبى من كذبه^(٢) - أن الله سبحانه قادر على أن يعرف الخلق صدق الرسول فى دعواه النبوة - بأن يخلق لهم علما ضروريا بذلك ، أو بالإخبار عن كونه رسولا ، كما قال تعالى فى حق آدم للملائكة ﴿إِنى جاعل فى الأرض خليفة﴾^(٣) ، وقد يكون التعريف للصدق بإظهار المعجزات. على يد مدعى النبوات على وجه تدين له العقول السليمة بالإدعان والقبول^(٤) .

وهو يرى أن هذه الخوارق دليل واضح على صدق النبى ، بل إن دلالتها مع مراعاة ما يحتف بها من القرائن ضرورية قطعية ؛ «إذ العقل الصريح يقضى بأن ظهور الخارق للعادة مقارنا لدعوته وعجز الناس عن معارضته ، مع توافر دواعيهم على مقابله ، وإفحامه فى رسالته ، ينهض دليلا قاطعا على صدق مقالته»^(٥) ويؤكد ذلك فى (الابكار)^(٦) ، بل يقرر فى «غاية المرام» أن : «العلم بصدق المتحدى بالنبوة عند اقتران المعجز الخارق للعادة بدعوته واقع لكل عاقل بالضرورة»^(٧) ومن ثم يكون جحودها مكابرة سواء شهدها المرء بنفسه أو نقلت إليه^(٨) نقلا صحيحا .

والتأكيد على المعجزات والخوارق كطريق لإثبات صدق النبى قدر مشترك بين جميع المتكلمين^(٩) ، غير أن البعض يذهب إلى حد القول بالآ طريق لإثبات صدق النبى إلا المعجزة^(١٠) ، والآمدى لم يذهب إلى هذا الحد ، كما أعرض عن قول الحشوية بعدم

(١) انظر : شرح الطحاوية ص ٩٣ ، ٩٤ . (٢) انظر : غاية المرام ل ١٢٤ ب = ص ٣٢٧ .

(٣) جزء من الآية ٣٠ من سورة البقرة . (٤) غاية المرام ل ١٢٤ ب - ١١٢٥ .

(٥) السابق ١١٢٥ = ص ٣٢٧ - ٣٢٨ . (٦) انظر : الابكار ٩٤/١ ب .

(٧) غاية المرام ١٢٥ ب . (٨) السابق ١١٢٦ .

(٩) انظر : غاية المرام ص ٣٢٩ ، وقارن ابن حزم فى الفصل ٧٤/١ ، والغزالي فى الاقتصاد ١١٥ ، وعبد الجبار فى المغنى ٢٣٤/١٥ ، ونهاية الأقدام للشهرستانى ٣٤٣ - ٣٤٥ .

(١٠) نجد ذلك عند الباقلانى فى البيان ص ٣٤ ، ٣٥ والجوينى فى الإرشاد ص ٣٣١ .

الحاجة إلى برهان أو معجز يدل على صدق الرسول^(١).

وقد انتقد ابن رشد الإلحاح على الخوارق الكونية في هذا الصدد - وإن لم ينكر كونها طريقاً لظهور صدق النبي - وبين أن المهمة الأولى للنبوة هي وضع الشرائع ، فالإعجاز الحقيقي هو ما كان متصلاً بهذه الناحية ، أى الإعجاز التشريعي أو الداخلى كما يسميه ، لا الخوارق الكونية التى يعتبرها معجزات برانية، تشبه من يستدل على كونه طبيباً بالطيران فى الهواء ، أو السير على الماء ، لا بعلاج المرضى وإبراء المصابين^(٢). وهى فكرة سبق أن تكلم عنها الإمام الغزالى فى « المنقذ » و« القسطاس »^(٣) ، كما سبق للباقلانى والبغدادى أن نوها بالإعجاز التشريعي فى القرآن الكريم ، مع اعتدادهما بالخوارق الكونية^(٤) .

وقد قرر لنا ابن عربى أن الإيمان بالرسول لا تكفى فيه دلالة المعجزات ، لأننا نعلم بحسب الإخبار الإلهى ، وبحسب الواقع التاريخى ، أن الرسول قد وجدوا ما وجدوه من تكذيب قومهم وعدائهم ؛ فالإيمان بالرسول يحتاج ضرورة إلى شئ أكثر من المعجزات ؛ وهو نور الإيمان الذى يصفه ابن عربى بأنه ضرب من التجلى الإلهى .. غير أن ذلك لا يمنع من أن بعض الناس يؤمن بصدق الرسول المؤيد بالمعجزات^(٥) ، وقد حكى هو عن نفسه أنه بدأ بالطريق الأخير حتى تحقق له بالكشف ما كان قد أخذ به تقليداً : « .. ترجح لنا أن نقلد هذا المسمى برسول الله والمسمى أنه كلام الله ، حتى كان الحق سمعنا وبصرنا ؛ فعلمنا الأشياء بالله ، وعرفنا هذه التقاسيم بالله ، فكانت إصابتنا فى تقليد هذا الأمر بالاتفاق ، لأننا قلنا مهما أصاب العقل أو شئ من القوى أمراً ما على ما هو عليه فى نفسه إنما يكون بالاتفاق^(٦) » .

كما نجد بعض مفكرى السلف - وهو ابن أبى العز الحنفى - يقرر أيضاً أن المعجزة

(١) انظر : الأبيكار ٢/ ١٢٥٦ - ١٢٥٧ - ١٢٥٧ .

(٢) انظر : مناهج الأدلة ص ٢١٥ - ٢٢ ، وابن رشد وفلسفته ص ١٨٢ .

(٣) انظر : المنقذ من الضلال ١٨٢ - ١٨٤ ، والقسطاس المستقيم ص ٥٨ - ٦٠ ، ٧٠ .

(٤) انظر : اعجاز القرآن للباقلانى ج ١ / ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٣ ، وأصول الدين للبغدادى ص ١٨٣ .

(٥) عن بحث أستاذنا د/ قاسم (موقف ابن عربى من العقل والمعرفة الصوفية) ص ٣ ، ٤ .

(٦) الفتوحات ٢/ ٢٩٤ .

ليست هي الطريق الوحيد للدلالة على صدق النبي ، وإن كانت هي الطريقة المشهورة عند أهل النظر والكلام : « لا ريب أن المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات »^(١) ، ثم يبين أن هناك الدليل الموضوعي من محتويات الرسالة وأحكامها ، والدليل الشخصي من سلوك الرسول وأخلاقه ، والدليل التاريخي بتتبع أحوال النبي ومقارنتها بأحوال الأنبياء السابقين وآثارهم وما أنزله الله تعالى بخصومهم من العقوبات والنذر^(٢) .

ولعمري إنها لطرق واضحة ميسرة لكل عاقل يسعى إلى الحق تضاف إلى طريق الإعجاز الكوني ، والذي أود أن أذكره هنا أن أصحابها لم يعترضوا على طريق المعجزات والحوار ، وهل الإعجاز التشريعي إلا ضرب من خرق العادة أيضا ، وإن كان في مجال فكري أو معنوي لا مادي . أما النزعة الحديثة التي بدت عند بعض المعاصرين من التهوين من أمر المعجزات الحسية ، أو التشكيك فيها أو تفسيرها بحيث لا تتعارض مع القوانين الطبيعية ، فليست إلا نوعاً من التأثير بالاحتمية الطبيعية التي سادت الفكر الأوروبي في القرن الماضي ، وعدل عنها أصحابها أنفسهم^(٣) . وفي الفكر الإسلامي الحديث محاولات لتأكيد طريق المعجزات ، مع تمهيد طرق أخرى لإثبات النبوة وتحقيق صدق النبي^(٤) ، وبعضها متأثر بالنزعة العلمية المشار إليها أيضاً .

ج - خصائص المعجزة والفرق بينها وبين السحر ونحوه :

ولكن إذا كانت المعجزة فعلاً خارقاً للعادة فالسحر وضرورب الحيل والشعوذة تبدو أفعالا خارقة للعادة أيضا ، فما الفرق بين خارق وخارق ؟ هذا سؤال وارد يعرض له الآمدى بين شبه المخالفين ، وهو سؤال مازال موضع اهتمام الباحثين في ظواهر علم الاجتماع الديني .

(١) شرح الطحاوية ص ٨٧ . (٢) نفس المرجع ٨٧ - ١٠٢ .

(٣) انظر : القول الفصل ص ٧-١٣ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٣٤ ، ١٦٠ - ١٨٩ وما سبق في ص ٤٢٣ وما بعدها عن نظرية العادة وبحث «الخيال عند ابن عربي» لاسأذنا الدكتور قاسم ص ٧٠ ، ٧١ .

(٤) انظر : تجديد التفكير الديني د / إقبال ص ٥-٣٥ ، والظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ص ٣٠ وما بعدها ، والاسلام والعقل د / عبد الحليم محمود ص ١٠٤ وما بعدها .

وقد حاول بعض الباحثين التفرقة بين الدين والسحر بالطابع الروحي المتجه إلى الخير والعبادة ، والحريص على الروح الجماعية في الدين على العكس من السحر في هذه الأمور كلها^(١) . وقد سبق لابن سينا أن لاحظ أن الاتجاه إلى الخير في أصحاب المعجزات يقابله النزعة الشريرة عند السحرة^(٢) . كما نجد عند ابن أبي العز الحنفى محاولة للتمييز بينهما ؛ على أساس آخر؛ هو أن الأنبياء دائماً متّحدون فيما يدعون إليه ، بينما يتنازع السحرة وأمثالهم ويتنافسون ، كما أن الأنبياء يتسمون بالتقوى اليقين «وأما أصحاب السحر والحيل فزائل التزوير لائحة على وجوههم»^(٣) . وقد عرض القاضي عبد الجبار المعتزلى لهذه المسألة أيضا ؛ فقرر أن صفات النبي وأخلاقه المثلى تدل على تميز حاله عن أصحاب الحيل^(٤) ، كما أن الحيل يمكن تعلمها فلا تعتبر خارقة : «وقد عُلِمَ أنه لا بد فيمن عرف العادات وسمع الأخبار واختبر الأحوال أن يفصل بين المعتاد من الأمور وبين خلافه»^(٥) ، أما الكرامات فقد أنكرها – كأصحابه المعتزلة – حتى لا تلبس بالمعجزات فتضعف دلالتها^(٦) ، وهو ما دعا ابن حزم الظاهري أيضا إلى إنكار كرامات الأولياء وتأويل ما ورد منها في خبر صحيح^(٧) ، ومال إلى هذا بعض متقدمى الأشاعرة أيضا ، وهو أبو اسحق الإسفرائينى^(٨) .

أما الآمدى فإنه يجيب على هذا السؤال جوابا إجماليا بأن " أحدا من العقلاء لا يجوز انتهاء السحر والطلسم وغيره من الصنائع إلى فلق البحر وإحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص^(٩) .

أما التفصيل « فيستدعى تحقيق المعجزة وبيان خواصها .. فهى كل ما قصد به إظهار صدق المتحدى بالنبوة المدعى للرسالة .. ولا يجوز أن تكون صفة قديمة ولا مخلوقة للرسول ، ولا عامة الوقوع بحيث يستوى فيها البر والفاجر ، ولا أن تكون متقدمة على دعواه .. ولا متأخرة عنها، إلا أن تكون واقعة عل نحوما يخبر به عنها ، بأن يقول صدق

(١) انظر : مبادئ علم الاجتماع الدينى لروحية باستيد ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ص ٥٢ - ٥٥ .

(٢) انظر : الإشارات والتنبيهات ٣/ ٨٩٨ ، ٨٩٩ .

(٣) شرح الطحاوية ص ٦٧ ، وانظر : ايضا ترجيح اساليب القرآن ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤) انظر : المغنى ١٥/ ٢٧٤ - ٢٨٩ . (٥) المغنى ١٥/ ٢٦٧ .

(٦) انظر : المغنى ١٥/ ٢٤١ ، ٢٤٢ وما بعدها . (٧) انظر : الفصل ٤/ ٢ ، ٩ - ١١ .

(٨) انظر : الأبيكار ٢/ ٢٣١ ب ، ١١٣٢ ، ومناهج الأدلة ص ٢١٣ .

(٩) غاية المرام ل ١١٢٧ = ص ٣٣٢ .

ظهور الشيء الفلاني في وقت كذا على صفة كذا ، فإن المعجزة إنما تدل على الصدق من حيث إنها تنزل منزلة الخطاب بالتصديق»^(١) .

وإذن فما لم يكن خارقا للعادة من الأفعال فلا إشكال فيه ، وما ظهر من الخوارق على يد نبي فلا إشكال فيه أيضا^(٢) ، وأما على يد غيره من ساحر أو ولي ، فقد أنكر بعض المتكلمين من الاشاعرة والمعتزلة إمكان وقوع ذلك ، والآمدى يخطئهم ويتمسك بالنصوص الثابتة الدالة على وقوع الكرامات ، ويرى أنها لا تلتبس بالمعجزات ؛ إذ ليس من شرط المعجزة ألا يأتي بها أحد ، وإلا لما جاز للنبي أن يأتي بما أتى به نبي سابق ، ولم يقل بذلك أحد ، بل شرطها أن تقع موقع التصديق له في دعواه^(٣) ، وهو - أى الولي - لم يدع النبوة . أما الساحر أو الكاهن ونحوهما إذا ادعيا الرسالة فلا يمكن ظهور المعجزة بخصائصها السابقة على يده ، ولكن الآمدى لا يطلقها دعوى بلا دليل كما فعل بعض المتكلمين^(٤) ، ولكنه يستدل عليها بقوله : « قد بينا أن إظهار المعجزة على يده في مقرر دعواه ، وحصولها على وفق مقالته ، ينزل منزلة التصديق بالقول بآنك صادق فيما تقول ، فلو كان الرسول كاذبا ؛ لكان المصدق له كاذبا ، وقد بينا استحالة ذلك في حق الله تعالى^(٥) . . . » فهذا جمع بين النقيضين . . وبهذا يتبين ضعف قول بعض الأصحاب بجواز ظهور المعجزة على يد الكذاب^(٦) .

د- إثبات نبوة محمد ﷺ :

يشير الآمدى إلى المنكرين لنبوته - ﷺ - بسبب عدم الاعتراف بمعجزاته ، كالنصارى وغيرهم من المعترفين بالبعثة المجوزين للنسخ ، أو بسبب إنكار النسخ كاليهود ، وإلى المعترفين بالنبوة المحمدية المنكرين لعمومها كالعيسوية^(٧) . ثم يأخذ في الرد على الجميع متمسكا بأمرين : القرآن الكريم ، والمعجزات المادية مثل « حنين الجزع ، وسلام الغزالة ، وكلام الدراع المسموم ، وتسبيح الحصى ، ولا محالة أن هذه كلها من الخوارق

(١) السابق ل ١١٤٧ - ب = ٣٣٢ - ٣٣٤ . (٢) السابق ص ٣٣٤ .

(٣) انظر : السابق ٤٣٥ ، والابكار ١١٤٤/٢ .

(٤) انظر : مناهج الأدلة ٢١٢ ، ٢١٣ وص ٣٢٢ من غاية المرام . . (٥) غاية المرام ل ١٢٨ ب .

(٦) السابق . (٧) غاية المرام ١١٣٠ = ص ٣٤١ .

للعادات ، وليست مما يدخل تحت وسع شئ من المخلوقات ، وأنه نبي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»^(١) وهذا ما نجده عند القاضي عبد الجبار فى المغنى^(٢).

وفىض الأمدى فى بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم ؛ من حيث ألفاظه وبلاغته ، ومعانيه وأحكامه ، واشتماله على أخبار السابقين وأحوال الماضين ، «مع ما عرف من حال النبى ﷺ من الأمية وعدم الاشتغال بالعلوم والدراسات ، بل وما فيه من الإخبار عما تحقق بعد ما أخبر به من الغائبات»^(٣) . ويؤكد ذلك عجز العرب - مع رسوخ قدمهم فى البيان وحرصهم على رد دعوى النبى ﷺ بكل سبيل - عن معارضته والإتيان بمثله فخضعوا جميعا لهذا البيان المعجز ، سواء من آمن أو من لم يؤمن ، أما من حدثته نفسه بالمعارضة ، فقد أعلن فضيحة نفسه ، وهنا يورد الأمدى نماذج من ترهات مسيلمة التى غدت مضحكة العقلاء ومستهزا الأدباء . وفىض الأمدى فى بيان وجوه الإعجاز بما يشبه ما عند غيره من المتكلمين^(٤) ، وترجع لدى أنه متأثر فيه بالباقلانى فى «إعجاز القرآن»^(٥).

ويتعرض الأمدى بعد ذلك لشبه المخالفين حول ذلك ، فيسخر من تشكك البعض منهم فى ظهور القرآن على يد النبى - ﷺ - أو أنه تحدى به العرب وأنها عجزت فعلا عن معارضته فكل ذلك مما علم بالضرورة والنقل المتواتر . . ولا حجة لإنكاره «ومن فعل ذلك فقد رفع نقاب الحياء عن وجهه وارتكب جحد الضرورة»^(٦) ، ثم يرد على تشككهم فى أمر المعجزات الحسية كانشقاق القمر وتسبيح الحصى بأنه - فى نظره - متواتر حقيقة ، وحتى «لو سلم عدم تواتر كل منها فلا محالة أن عموم ورودها يوجب العلم بصدور المعجزات عنه جملة ، كما نعلم بالضرورة شجاعة عنتر وكرم حاتم»^(٧) أى أنها من قبيل المتواتر المعنوى ، وهو يتابع فى هذا الجواب غيره من الأشاعرة^(٨) . ثم يرد على طوائف

(١) غاية المرام ل ١٣١ ب = ص ٣٤٥ ، وانظر بشأن المعجزات المذكورة : القول الفصل للشيخ مصطفى صبرى ٤١ -

١٤٥ ، وشرح الطحاوية للحنفى ٨٧ - ٩٦ ، والآثار الباقية للبيرونى ١٨ - ٢٠ .

(٢) انظر : المغنى ١٥ / ١٩٧ - ٢١٧ . (٣) غاية المرام ص ٣٤٥ .

(٤) انظر : غاية المرام ص ٣٤٤ ، والابكار ٢ / ١٤٨ وما بعدها .

(٥) غاية المرام ص ٣٤٣ - ٣٤٦ . وانظر : الابكار ٢ / ١٦٤ ب . وقارن الباقلانى : إعجاز ص ٢١ وما بعدها .

(٦) ص ٣٥٠ من غاية المرام . (٧) ص ٣٥٧ من غاية المرام .

(٨) انظر : التمهيد ص ١٠١ ، ١٠٢ ، وأصول الدين ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، وانظر : غاية المرام ص ٣٥٧ .

المبحث الخامس

البحث

١- نقده لموقف الفلاسفة الإسلاميين من فكرة الخلود :

يهتم الآمدى اهتماما بالغاً بنقد فكرة الفلاسفة الإسلاميين عن النفس وطبيعتها ، وما يتصل بذلك من آرائهم حول خلودها ومصيرها ، وقد سبق الكلام عن النقطة الأولى ، أما بالنسبة لمسألة الخلود ، فإنه ينسب إليهم القول بأن « النفس الإنسانية باقية بعد الأبدان ، ولا يلزم فواتها من فواتها ، ولا لسبب خارج »^(١) ، ولكنه يعرض لأدلتهم التي برهنوا بها على خلود تلك النفس وبقائها بالنقد والاعتراض :

(١) فيشرح أولاً ذلك الدليل القائم على طبيعة العلاقة بين النفس والبدن ، وأنها ليست علاقة جوهرية بل هي عارضة ، ولذا فلا موجب لأن تفنى النفس عند فناء البدن^(٢) ، وقد يسمى دليل (الانفصال) ، وهو يرجع في أصله إلى أفلاطون^(٣) ، وإن كان الآمدى يعرضه على النحو الذى نجده فى كتب ابن سينا تماماً^(٤) . ثم يتحول إلى نقده قائلاً : إنه يتعارض مع استدلالهم على حدوث النفس ، وتمسكهم فى ذلك بأن النفس لا تميز لها بدون البدن ، وبأنها لو وجدت قبله لكانت معطلة عن الفعل والانفعال^(٥) ، « ولو جاز القول بوجودها وتكثرها بعد الأبدان ، لما كان لها من النسب إليها ، لحاز القول بتكثرها ووجودها قبل وجود الأبدان لما ستنسب إليها »^(٦) ، على أنه « لا مانع من أن يكون فواتها مستنداً إلى إرادة قديمة اقتضت عدمها عند فوات البدن ، كما اقتضت وجودها عند وجوده »^(٧) . وقد لاحظ الغزالي من قبل تناقض هذا الدليل مع أدلة حدوث النفس ، الأمر الذى يلاحظه أيضاً بعض العلماء المعاصرين ، كالاستاذ الدكتور

(١) غاية المرام ل ١١١١ ، وانظر : الأبهكار ٢/ ٢١٤ .

(٢) انظر : الأبهكار ٢/ ٢١٤ ، ب ، غاية المرام ص ٢٨٦ .

(٣) انظر : فى النفس والعقل ص ٥٠ - ٥٩ ، ومنهج وتطبيقه ص ١٩٤ - ١٩٧ ، ٢٣٥ وما بعدها ، والأصول الأفلاطونية «فيدون» ص ٤٢ وما بعدها .

(٤) انظر : النجاة لابن سينا ١٨٧ - ١٨٨ ، وطبيعيات الشفاء له ٢٦ - ٣٢ ، ومنهج وتطبيقه للدكتور مذكور /

٢٣٢ (٥) انظر : ص ٢٩٣ من غاية المرام ، والأبهكار ، ل ٢/ ٢١٣ ب .

(٦) انظر غاية المرام ص ٢٩٥ ، وانظر : الأبهكار ٢/ ٢١٤ ، ب . (٧) السابق .

بيومي مذكور ، الذي أورد في نقد هذا الاستدلال كل ما نقلته عن الآمدى من أفكار^(١).

(ب) ثم يعرض الآمدى للدليل القائم على بساطة النفس^(٢) ، وامتناع قبولها للكون والفساد بناء على ذلك ، ويرى الآمدى أن فكرة بساطة النفس لا تعدو أن تكون فرضا «ممكنا ومقدورا لله - تعالى -»^(٣) ، ولكن يعوزه الدليل «فهو مما لا يدل على وقوعه عقل ، ولا أشار إليه نقل»^(٤) . وقد قال الأستاذ الدكتور بيومي مذكور عن هذا الدليل الذي قرر أنه كان أكثر براهين ابن سينا حقا وأعظمها تأثيرا فيمن جاءوا بعده : «... إنما هو فرض يفترضه ابن سينا ويعوزه الدليل ، وهو موضع البحث والمناقشة ومثار الأخذ والرد»^(٥) .

ثم يشير الآمدى إلى أن هذا المبدأ «البسائط لا تفسد» يتناقض مع ما يراه الفلاسفة بشأن «الصور الجوهرية» ، فهي مع بساطتها قابلة للكون والفساد ، فما يمنع أن تكون النفس كذلك «في جانب قبولها للاتصال بالبدن والانفصال عنه؟»^(٦) كما أنه «يناقض مذهبهم في إدراك القوة الوهمية لما تدركه من المعنى الذي يوجب نفرة الشاة من الذئب ، فإنه لا محالة غير متجزئ ... ومع ذلك فهي نفسها لا تدركه إلا بآلة جرمانية ، ولهذا قضى بفواتها عند فوات البدن ، فما هو الاعتذار لهم أيضا في إدراك القوة الوهمية بالآلة الجرمانية لما ليس بمتجزئ ، هو اعتذارنا في إدراك ما ندركه مما ليس بمتجزئ»^(٧) . على أنه يلزمهم أن تكون النفس مادية مادامت «جهة الإمكان لا تقوم إلا بمادة ، والنفس ممكنة الوجود ولا محالة»^(٨) ، ولا أدل على ذلك من اعترافهم بحدوثها بعد عدمها ، والواجب لا يقبل العدم .

(ج) ثم يتعرض الآمدى في كتاب «الابكار» خاصة للدليل القائل «إن علة النفس الفاعلية هي العقل الفعال ، وهو باق ، إذن فهي خالدة» ، ثم يعترض عليه بإبطال وجود العقل الفعال نفسه ، فضلا عن أن يكون هو الفاعل للنفس أو غيرها^(٩) ، وقد عرض

(١) انظر : منهج وتطبيقه ص ١٩٤ - ١٩٧ وقارن غاية المرام ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

(٢) انظر : غاية المرام ص ٢٨٦ . (٣) السابق ص ٢٨٦ . (٤) السابق .

(٥) منهج وتطبيقه ١ / ٢٣٣ . (٦) ص ٢٩٥ من غاية المرام ، وانظر : الابكار ٢ / ٢١٤ ب .

(٧) ص ٢٩٦ من غاية المرام . (٨) السابق ، وانظر : الابكار ٢ / ١٢٠٩ .

(٩) انظر : الابكار ٢ / ١٢٠٦ ، ٢١١ ب ، وغاية المرام ص ٢٨٨ .

الأستاذ الدكتور مذكور لهذا البرهان السينوي فقال : «إن قيمة هذا البرهان إنما تستمد من الميتافيزيقا السينوية ، وهى قائمة على نظرية العقول العشرة، التى لا يقرها الفلك ولا الطبيعة الآن فى شىء»^(١).

وفى صدد نقده لبرهنتهم الفاشلة - فى نظره - على خلود النفس ، يعرض لما رتبوه على ذلك من نعيم وشقاء روحيين فقط ، ومن تقسيمهم للنفس التى يتناسب حظها من السعادة فى آخرها مع ما حصلته من المعرفة وحقيقته من الكمال فى دنياها ، وما يستلزمه ذلك من أن "الأنفس الساذجة" كأنفس الصبيان والمجانين لا نعيم لها ولا شقاء ؛ «بل حالها بعد المفارقة - وإن كانت حالة حصول الالتذاذ - كحالها قبل المفارقة»^(٢) ، ومن أن الأبدان يستحيل معادها إذ «أن ذلك مما يفضى إلى القول بوجود أبعاد وامتدادات لا تتناهى»^(٣) . وأما «ماورد به السمع من حشرها وأحكام معادها ، فإنما كان ذلك لأجل الترغيب بما يفهمونه ويعقلونه ؛ لأجل صلاح نظامهم»^(٤) .

وهنا يفصح الأمدى عن هدفه من نقد أدلتهم على الخلود ، فإن ما ادعوه من خلود النفس لا يتعارض مع النصوص الشرعية ولا البداهة العقلية ، وهم وإن كانوا قد تخيلوه تخيلا وعجزوا عن البرهنة عليه عقلا ، فهو «ليس بمستبعد عقلا ولا شرعا؛ إذ ليس فيه تناقض عقلى ولا محذور شرعى ، وإنما الداهية الدهياء والمصيبة الطخياء استنهاك جانب الشرع المنقول والرد لما جاء به الرسول من حشر الأجساد ، وما أعد لهم من النعيم والألم فى المعاد»^(٥).

وهذا نقد مازال الفكر الإسلامى يوجهه بحق إلى القوم منذ الغزالى^(٦) ، وحتى العصر الحاضر^(٧) ، ولكنه ينبغى ألا ينسينا هذا ما قدمته المدرسة الفلسفية الإسلامية على يد ابن رشد من الاستدلال الناجح على قضية خلود النفس ؛ حيث اعتمد على ما يمكن

(١) منهج وتطبيقه ١ / ٢٣٤ . (٢) ص ٢٩١ - ٢٩٢ من غاية المرام .

(٣) السابق ، وانظر : الأبيكار ٢ / ١٢٠٠ - ٢٠١ ب .

(٤) غاية المرام ص ٢٩٢ وقارن بآين سينا فى تسع رسائل ١٢٠ - ١٣٢ ، والنجاة ٣٠٤ - ٣٠٨ .

(٥) غاية المرام ١١١٥ = ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٦) انظر : تهافت الفلاسفة ص ٢٧٢ وما بعدها ، والنقد من الضلال ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٧) انظر : منهج وتطبيقه ص ٢٣٤ ، وابن رشد وفلسفته الدينية ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

تسميته بالدليل الغائى ، وهو يشبه الدليل الخلقى عند أفلاطون ، ولكنه يستنبطه - موقفاً - من آيات الكتاب الكريم كقوله - تعالى - : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين ﴾ (١) ، والدليل الآخر الذى يشبه ما سبق تسميته بدليل الانفصال ، ولكنه يربطه دون تعقيد بقول الله عز وجل : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها ﴾ (٢) ، فقد سوى سبحانه بين الموت والنوم فى تعطيل فعل النفس ، وهذا التعطيل لا يرجع إلى فساد فى جوهرها ، وإنما لفساد البدن الذى كانت تتخذ آلة لها (٣) .

وقبل أن يبين الآمدى فكرة « أهل الحق » عن البعث والمعاد الجسماني والنفسى يعرض لمقالة (التناسخية) (٤) ، ويشير إلى رد الفلاسفة الإسلاميين عليها (٥) ، ويتمسك هو فى الرد عليها بأنها ستفضى إلى أن أولى النفوس وآخرها فى سلسلة التناسخ سوف لاتخضع أى منهما لقانونهم المزعوم ؛ فإن الأولى حلت بدنا لم تستحقه بعمل سابق ، والأخرى سوف تلزم بدنا لا تجد بعده غيره (٦) ، هذا فضلاً عن مخالفة ذلك « لما ورد به الشرع من أحكام المعاد وحشر الأنفس والأجساد » (٧) .

٢- أما مذهب « أهل الحق » فى مسألة البعث والمعاد :

فهو - كملأمة الآمدى - أن « إعادة كل ما عدم من الحوادث فجائز عقلاً وواقع سمعاً ، ولارق فى ذلك بين أن يكون جوهرًا أو عرضاً ، فإنه لا إحالة فى القول بقوله للوجود ، وإلا لما وجد ، بل ما قبل الوجود فى وقت كان قابلاً له فى غير ذلك الوقت أيضاً ، ومن أنشأه فى الأولى قدر على أن ينشئه فى الأخرى ، كما قل - تعالى - فى كتبه المين الوارد على لسان الصادق الأمين ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٨) » .

(١) الآية ٥٦ من سورة الزمر . (٢) الآية ٤٢ من سورة الزمر أيضاً .

(٣) انظر : هذين الدليلين فى كتاب مناهج الأدلة ص ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ابن رشد وفلسفته الدينية ٢١٠ .

(٤) انظر ص ٢٩٧ - ٢٩٨ من غاية المرام = ١١٥ ب .

(٥) انظر السابق ، والأبكار ١٢١٢/٢ ، وقارن أيضاً الإشارات والتنبيهات ٧٧٩/٣ - ٧٨١ .

(٦) غاية المرام ١١٥ ب ، الأبكار ٢٤٥/٢ ب .

(٧) ص ٢٩٩ من غاية المرام ، وانظر التبصير فى الدين ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٨) ص ٣٠٠ من غاية المرام ، الآية هى رقم ٧٩ من سورة يس .

وهنا يعرض الآمدى لمن زعم من الأصحاب - وهو الباقلانى^(١) - ومن المعتزلة أيضا، استحالة إعادة الأعراض أو بعض منها ، ويناقشه ، ويتمسك فى إثبات البعث والحشر الذى هو « عبارة عن إعادة الخلق بعد العدم ونشأتهم بعد الرم »^(٢) ، وما يتبعهما من حشر وحساب وثواب وعقاب ، وما يتصل بهذا من سؤال القبر وعذابه ، أو المرور على الصراط ، أو الورود على الحوض ، ومن الشفاعة للمؤمن العاصى ، وغير ذلك مما اصطلاح على تسميته « بالسمعيات » ، يتمسك فى ذلك كله بالدليل السمعى ؛ حتى ليستشهد فى (الابكار) على البعث الجسمانى بما يقرب من خمسين آية من القرآن الكريم وبضعة أحاديث نبوية^(٣) . ولا يرى للعقل فى ذلك مجالا إلا فى بيان عدم استحالة أو تناقضه مع أى نظر عقلى صحيح : « فكل ذلك ممكن فى نفسه أيضا ، وقد وردت به القواطع السمعية والأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ؛ فوجب التصديق به والإذعان لقبوله »^(٤) . بل إنه ليربط مسألة الإيمان بالنصوص الشرعية أيضا ، كما مر بنا آنفا .

ويرى الآمدى أن الصعوبات التى تعرض لبعض المفكرين من مسلمين أو غير مسلمين حول إعادة بعض الكائنات ، إنما تنشأ عن « الجهل بمعنى الإعادة ، والغفلة عن معنى البعث ، وليس المعنى به غير الخلق ثانيا كما فى الخلق الأول ، وتسميته إعادة إنما كان بالإضافة إلى النشأة الأولى »^(٥) . وقد سبق لابن رشد أن قرر أن هذا رأى فى فهم البعث والإعادة « أليق بالخواص » ، ورجحه لوجه عدة^(٦) .

ويتحدث الآمدى - تفصيلا - عن هذه الأمور السمعية المشار إليها من « الحشر والنشر ، وعذاب القبر . . ونصب الصراط والميزان ، وخلق النيران والجنان ، والحوض والشفاعة . . والثواب والعقاب »^(٧) بما لا يخرج عما نجده عادة لدى أى متكلم أشعرى^(٨) ، ويهمنى أن أنوه هنا بعدة أمور :

(أ) يتهم الآمدى المعتزلة جملة بإنكار بعض هذه السمعيات كعذاب القبر وسؤاله ،

(١) السابق . (٢) ص ٢٩٩ = ل ١١٦ من غاية المرام . (٣) انظر : الابكار ٢ / ١٢٩٨ - ١٢٠٠ .

(٤) ص ٣٠١ من غاية المرام = ل ١١٧ . (٥) ص ٣٠١ من غاية المرام = ل ١١٦ ب .

(٦) انظر : ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ من مناهج الأدلة . (٧) غاية المرام ١١٧ = ص ٣٠١ .

(٨) انظر : ص ٣٠١ من غاية المرام = ل ١١٧ وما بعدها .

ونصب الصراط والميزان ، ونحو ذلك من المسائل السمعية . ويدعون الإنصاف أن نرد هذه التهمة عن جمهورهم طبقا لنصوص المعتزلة أنفسهم الذين يثبتون هذه الأمور ، ويقبلون كثيرا من النصوص الواردة بشأنها ، وإن اختلفوا فى بعض التفاصيل المتعلقة بها ، ككون الصراط أرق من الشعرة وأحد من السيف مثلا، بناء على موقفهم من النصوص المتعلقة بتلك التفاصيل ، وهذا شيء ، وما ينسبه إليهم الآمدى شيء آخر ، وهذا أحد المواضع القليلة التى يتحامل فيها الآمدى على المعتزلة^(١) وهو مسبوق فى هذا بشيخه الأشعرى والعديد من أهل السنة^(٢) .

(ب) يتحدث الآمدى بشأن بيان مصير المسلم فى الآخرة عن أمور ثلاثة ، وهى : مسألة الشفاعة لعصاة المؤمنين فى الآخرة . ثم بيان حقيقة الإيمان نفسه ؛ وأنه التصديق والإذعان بما جاء به الرسول وليس مجرد اللفظ باللسان كما زعم البعض من المرجئة أو الكرامية ، ولا القيام بالعبادات وأداء الطاعات كلها كما زعم آخرون من الخوارج والمعتزلة . والمسألة الأخيرة - وهى مرتبطة بسابقتها - هى مسألة التوبة التى يصلح بها المؤمن ما عساه يقع فيه من أخطاء بحيث لا تحول هذه الأخطاء دون اطراد حياته الدينية أو سعادته الآخوية .

والحق أن الآمدى فى هذه المسائل الثلاث يعارض فى قوة تساهل المرجئة وأمثالهم وتشدد المعتزلة وأضرابهم ، ويفصح عن وجهات نظر معتدلة ، فيها روح إنسانية عطوف أكثر فهما للإنسان وضعفه ، وحرصا على مصيره ومستقبله من أن يضيع بهفوة أو غلطة مهما بلغت ، ما دامت لا تنقض أصل الإيمان ، وموقفه أكثر تجاوبا مع قول الله سبحانه ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾^(٣) . لقد اشتهر بين المفكرين المعاصرين دفاع المعتزلة عن الإنسان واعتدادهم به وبشخصيته ، ولكن النزعة العقلية بصرامتها وجفافها جعلتهم ، فى هذه المسائل المذكورة آنفاً ، أبعد ما يكونون عن « الروح الإنسانى » كما نفهمه فى هذه الأيام ، ويبدو الأشاعرة والسلفيون وأهل السنة بوجه عام

(١) انظر شرح الأصول الخمسة ٧٣٠ - ٧٣٨ ، وقارنه بما هنا وما فى الأبهكار ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٢) انظر المقالات للأشعرى ٢ / ١٠٤ والاعتصام للشاطبى ٣ / ٣٢٨ وشرح الطحاوية للحنفى ٣٤٦ - ٣٦٠ .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

أولى منهم بهذا الوصف فى هذا المقام (١) .

(ج) لا يعرض الآمدى لمسألة بقاء الجنة والنار وخلودهما - بإبقاء الله لهما - صراحة ، وإن كان هذا هو ما يفهم من كلامه (٢) ، وتلك مسألة اضطربت فيها أقوال العلماء ، وزلت أقدام البعض منهم ؛ فقد نقل عن جهم بن صفوان القول بفناء الجنة والنار، وحكى ذلك الأشعرى فى المقالات، ثم أتبعه بقوله: « وقال أهل الإسلام جميعا: ليس للجنة والنار آخر وإنهما لا تزالان باقيتين .. وليس لذلك آخر ولا لمعلوماته ومقدوراته غاية ونهاية » (٣) . وهذا ما نجده فعلا لدى الماتريدية (٤) ، والحنابلة (٥) ، والظاهرية (٦) ، والمعتزلة أيضا (٧) . ولكن شبهة جهم التى يشير إليها الأشعرى قد عرضت أيضا للعلاف من المعتزلة ؛ فقال بسكون حركات أهل الجنة والنار (٨) . وينسب البعض (٩) إلى ابن تيمية الذهاب إلى فناء النار، وأنها من المستثنى فى قوله سبحانه ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ (١٠) . ومسألة فناء الخلودين أو أحدهما فكرة لها أصل قديم عند اليهود والصابئة (١١) ، وعند الرزادشتية أيضا (١٢) . وقد قصر بعض الإسماعيلية الخلود على أهل الجنة (١٣) ، ونسبه ابن حزم إلى قوم من الروافض (١٤) . وقد سبق أن أشرت إلى فكرة بعض الفلاسفة عن مصير النفوس الساذجة (١٥) . وحتى فى الفكر الإسلامى الحديث نجد لهذه المسألة صدى ؛ فقد عرض الدكتور إقبال لمسألة الخلود فى الفكر الفلسفى الحديث وبين أنصارها وخصومها ، ثم عرض لموقف القرآن منها ، وتجاوز فى التأويل ، فقال إن مسألة « أبدية النار » التى جاءت فى بعض الآيات لا تعنى إلا حقبة من الزمان - يشير إلى الآية ٢٣ من سورة « النبأ » : ﴿ لاثنين فيها أحقابا ﴾ - هى تجربة للتقويم وليست هاوية من عذاب مقيم » ،

(١) انظر : ص ٣٠٦ - ٣١٤ من غاية المرام = ١١٨ - ١٢١ . (٢) انظر : ص ٣٠٧ من غاية المرام .

(٣) المقالات ١/ ٢٢٤ . (٤) انظر : بحر الكلام ص ٦٦ . (٥) انظر : اللعة لابن قدامة ص ٢٤ .

(٦) انظر : الفصل ٨٣/ ٤ . (٧) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٦ - ٦٨٧ .

(٨) انظر : الانتصار للخياط ١٨ - ٢٠ ، ونشأة الفكر ١/ ٥١٥ - ٥١٩ .

(٩) انظر : دفع شبه من شبه للحصنى ص ٥٨ ، ٦٠ ، وانظر أيضا إظهار الحق على الخلق ص ٢٤٦ ، والدرة

المضية للسبكي الكبير ٦٠ - ٧٩ ، وليس فى مؤلفات ابن تيمية التى تيسرت لى ما يؤيد ذلك .

(١٠) الآية ١٠٧ من سورة هود . (١١) انظر : نشأة الفكر ١/ ٥٢٠ .

(١٢) انظر : تاريخ جهانكشاي - مقدمة الباحث ص ١٢٤ . (١٣) نفس المصدر والصفحة .

(١٤) الفصل ٨٣/ ٤ . (١٥) راجع ما مرفى ص ٤٥٣ .

وذلك لأنه يرى أن صراع النفس أو الذات الإنسانية لدعم وجودها والتغلب على عوامل انحلالها لا يتوقف بالموت ، بل يبدأ مرحلة ذات طابع جديد^(١) .

ولكن ، أيا ما كان موقف هؤلاء ، فإن الآمدى يجرى فى الاتجاه العام للفكر الإسلامى ، وهو بقاء الجنة والنار وخلودهما ، لا عن استحقاق للبقاء ولكن بإبقاء الله عز وجل لهما ، دون أن يؤثر ذلك فى كونه هو الأول والآخر - سبحانه وتعالى - والمتفرد بالازلية والابدية الذاتيتين^(٢) .

* * *

(١) انظر : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام لحمد اقبال ص ١٢٨ - ١٤١ .

(٢) انظر الابكار ل ٢ / ١٢٢٠ وما بعدها .

المبحث السادس

الإمامة

تمهيد :

يبدأ الآمدى كلامه على مسألة «الإمامة» - فى كل من «الأبكار» و «غاية المرام» - بالإشارة إلى أنها ليست من أصول الدين بل هى من فروعه ، وأنه إنما يتعرض لها فى كتاب خاص بهذه الأصول جربا على عادة المؤلفين فى علم الكلام^(١) . ويضيف فى «غاية المرام» أنه لولا ذلك لما عرض لها فإنها لا تهتم كل مكلف ، ولا يضره - فى عقيدته - الجهل بها ، فضلا عن أن الخائض فيها - ولو تحرى الإنصاف والتحقيق - عرضة للوقوع فى الخطأ ، والإساءة إلى السلف ، وإثارة الفتن والشحناء . وأنه لهذا سيقصر على بيان أصولها دون توسع أو إطناب^(٢) ، وهو معنى ، قد لجده عند بعض الأشاعرة ممن سبقوه أو جاءوا بعده^(٣) ، جدير بالتنويه لما يوحى به من سماحة وإنصاف .

وهو يقسم الكلام عنها إلى : قسم نظرى أو فقهى ؛ عن حقيقتها ، وشروطها ، وأحكامها المختلفة ، وقسم تطبيقى أو تاريخى ؛ حول إمامة الخلفاء الراشدين وبيان صحتها . وسنحاول هنا بيان المعالم الرئيسية لبحرته تلك ، مع التنويه بما قد تتضمنه من اتجاهات خاصة ، والإحالة فيما يتعلق بالتفاصيل على مواضع ذلك من كتبه .

- ١ -

(أ) تعريف الإمامة وبيان غايتها :

يناقش الآمدى فى «الأبكار» تعريف الإمام الرازى للإمامة بأنها «رياسة فى الدين والدنيا عامة لشخص من الأشخاص»^(٤) ، مفضلا عليه أنها «عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول - عليه السلام - فى إقامة قوانين الشرع ، وحفظ حوزة الملة ، على

(١) انظر : الأبكار ٢/ ٢٦٢ ب ، وغاية المرام ١٣٧ ب = ص ٣٦٣ . (٢) السابق .

(٣) انظر : الإرشاد للجوينى ص ٤١٠ ، والاقتصاد للغزالى ص ١٣٤ ، وشرح النسفية للتفتازانى ص ٤٨٠ ،

والمقائد العضدية للدوانى ص ٣٠٤ . (٤) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٦٠٤ .

وجه يجب اتباعه على كافة الأمة»^(١) ؛ لأن الأول يشمل النبوة أيضا .

وهذا التعريف يحدد في الوقت نفسه مهمة الإمام ، وغاية الإمامة ، وهي تنحصر في أمرين :

أ- إقامة الشريعة الإسلامية ، وحماية الدين والدفاع عنه .

ب- القيام بشئون المسلمين وتحقيق سعادتهم وأمنهم والدفاع عنهم .

واستدلال الآمدى على وجوب الإمامة يؤكد هذين الغرضين ويشرحهما .

وقد نجد اثر هذا التعريف عند ابن خلدون في المقدمة ، والسعد التفتازانى في شرح النسفية^(٢) . ثم يشير الآمدى إلى أن الإسماعيلية قالوا بالوجوب لكون الإمام معرّفاً بالله تعالى ، وقالت الإمامية بالوجوب لا لتعريف الله ، بل لإقامة القوانين الشرعية ، وحفظها عن الزيادة والنقصان^(٣) ، وإذن فالشيعة الإمامية أيضا مع الأشاعرة وأهل السنة في غاية الإمامة ، وإن اعتبروها هم من الأصول ، بحيث لا تبرأ ذمة المكلف بدون معرفة الإمام وموالاته^(٤) ، كما أن الزيدية يقولون بمثل ذلك أيضا^(٥) . ولكن هناك فرقا بين الزيدية وأهل السنة من ناحية ، وبين الإمامية من ناحية أخرى - رغم اتفاقهم جميعاً على أن من مهمة الإمام حفظ الشريعة - وهو أن الإمامية يرونه طريقاً إلى معرفة أحكام الشريعة ، أما الآخرون من زيدية وسنية فيقولون إنه ينفذها فقط ، أما مدارك الأحكام الشرعية فلا مدخل له فيها إلا بوصفه مجتهدا كغيره من المجتهدين^(٦) .

ب- وجوب الإمامة :

يتحدث الآمدى بعد ذلك عن وجوب الإمامة ، وطريق معرفة هذا الوجوب ، وعلى من تجب ؟

(١) الأبهكار ١٢٦٣ ، وقارن النسفية للتفتازانى ص ٤٨٠ ، ٤٨٤ ، والمقدمة لابن خلدون ١٩٠ ، ١٩١ ، وانظر أيضا النظريات السياسية الإسلامية ١١٧ - ١٢٣ ، ٢٧٦ - ٢٧٨ .

(٢) انظر المقدمة ١٩٠ ، ١٩١ وشرح النسفية ٤٨٠ ، ٤٨٤ . (٣) انظر الأبهكار ١٢٦٣ / ٢ .

(٤) انظر : عقائد الإمامية ص ٤٩ وما بعدها ، والمحصل للرازي ١٨١ ، ١٨٢ .

(٥) انظر : شرح الأصول الخمسة ٧٥١ ، والمغنى ٢٠ (ج ١) / ٤٦ وما بعدها ، والروض الباسم لابن الوزير ٩ / ٢

وما بعدها . (٦) انظر : الأبهكار ١٢٦٣ / ٢ .

فأما بالنسبة لوجوب الإمامة فهو يذكر أن جمهور المسلمين متفقون على وجوبها ، إلا بعض القدرية والخوارج - على حد تعبيره في غاية المرام - الذين قالوا إنها لا تجب لاشرا ولا عقلا^(١) ، وهو يوضح ذلك في «الابكار» بأن القائلين بنفى الوجوب «منهم من قال بنفى الوجوب مطلقا ، وإنما ذلك من الجائزات ، كالأزارقة والصفورية وغيرهم من الخوارج . ومنهم من قال بأنه لا يجب مع الأمن وإنصاف الناس بعضهم من بعض لعدم الحاجة إليها ، وإنما يجب عند الخوف ، كأبي بكر الأصم . ومنهم من عكس الحال كالفسوطي وأتباعه»^(٢) .

وقد حدد القاضي عبد الجبار رأى الأصم على هذا النحو ، واعتبره غير خارج على الإجماع المنعقد على وجوب الإمامة ، كما ذكر أن خلاف الخوارج لا يחדش الإجماع المنعقد على ذلك أيضا^(٣) .

وأما بالنسبة للمسألتين الأخريين ، فقد ذكر الآمدي أن «مذهب أهل الحق من الإسلاميين أن إقامة الإمام واتباعه فرض على المسلمين شرعا لا عقلا»^(٤) ، وكلمة «أهل الحق» هنا تشمل - مع الأشاعرة - أكثر المعتزلة^(٥) ، كما صرح به الآمدي في الأبكار^(٦) - غير أن الجاحظ ، والكعبى ، وأبا الحسين البصرى ذهبوا إلى وجوبها بالسمع والعقل معا^(٧) - كما تشمل أكثر الزيدية أيضا^(٨) ، وإن كان الإسفراينى - عصام الدين - في حاشيته على شرح النسفية يذكر أن أكثر المعتزلة على وجوبها بالعقل ، ولم أجده عند غيره^(٩) .

أما الإمامية والإسماعيلية من الشيعة ، فيرون أنها واجبة على الله - تعالى - لكونها لطفا بالخلق وطريقا إلى سعادتهم وهدايتهم كالنبوة^(١٠) .

(١) انظر : ص ٣٦٤ من غاية المرام = ١٣٧ ب (٢) انظر : الأبكار ٢ / ١٢٦٣ .

(٣) انظر : المغنى ١٢٠ / ٤٨ وما بعدها ، وانظر أصول الدين للبغدادى ص ٢٧١ .

(٤) غاية المرام ل ١٣٧ = ص ٣٦٤ . (٥) انظر : المغنى ١٢٠ / ١٧ - ٤٠ .

(٦) انظر : الأبكار ٢ / ١٢٦٣ . (٧) انظر : المعالم للرازى ص ٥٤ .

(٨) انظر : الأصول الخمسة ص ٧٥١ ، والمغنى ١٢٠ / ٣٨ والروض الباسم لابن الوزير ص ٤٠ .

(٩) شرح النسفية ٤٨٢ .

(١٠) راجع ما مر في الصفحة السابقة ، وانظر : عقائد الإمامية ص ٤٩ وما بعدها ، والمغنى ١٢٠ / ٤١ .

ج - الاستدلال على وجوبها :

وإذا كانت الإمامة واجبة بالشرع، على ما هو المذهب الحق في نظر الآمدي ؛ إذ أنه لا وجوب قبل ورود الشرع، ولا إيجاب على الله - سبحانه - كما سبق بيانه^(١) ، فما الأدلة الشرعية على الوجوب؟ يجيب الآمدي : « الدليل القاطع على وجوب قيام الإمام ، واتباعه شرعا ، ما ثبت بالتواتر من إجماع المسلمين في الصدر الأول بعد وفاة رسول الله - ﷺ - على امتناع خلو الوقت عن خليفة وإمام»^(٢) ، ويذكر موقف أبي بكر يوم السقيفة وإجماع الصحابة يومها على ضرورة إقامة إمام ، وإن اختلفوا في التعيين^(٣) ، واستمرار العمل على هذا الإجماع « ... ثم كذلك العصر الثاني والثالث وهلم جرا إلى زماننا هذا ، لم يزل الناس ينسجون على منوال الصدر الأول ويتبعون آثارهم»^(٤) .

وعلى الرغم من أن الآمدي يرى صحة الإجماع وانعقاده ولو بدون مستند^(٥) ، فإنه يؤكد وجوب الإمامة شرعا بالتنبيه على أن الصحابة في إجماعهم هذا كانوا يستندون إلى القاعدة الشرعية؛ التي عبر عنها علماء الأصول فيما بعد بقولهم « لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » ؛ « فإننا نعلم أن مقصود الشارع من أوامره ونواهيه، في جميع موارد ومصادره، من شرح الحدود والمقاصات، وشرح ما شرع من المعاملات والمناكحات وأحكام الجهاد .. إنما هو لإصلاح الخلق معاشا ومعادا، وذلك كله لا يتم إلا بإمام مطاع من قبل الشرع؛ بحيث يفوضون أزمته في جميع أمورهم إليه»^(٦) .

ويستشهد على ذلك بأحوال الفتن والحروب الأهلية التي تنجم عن اختفاء سلطة الدولة ؛ حيث كل مشغول بحفظ نفسه تحت قائم سيفه ، وذلك مما يفضي إلى ذهاب الدين وهلاك الناس أجمعين ، ومنه قيل : « الدين أس والسلطان حارس ، الدين والسلطان توأمان»^(٧) ، ولهذا نرى العربان والخارجيين عن حكم السلطان كالذئاب الشاردة ؛ لا يبقى بعضهم على بعض ، ولا يحافظون على سنة ولا فرض ، وليست دواعيهم إلى

(١) انظر : شرح الاصول الخمسة ص ٧٥١ ، والمغنى ١٢٠ / ٣٨ وما مر في الفصل الأخير من الباب الأول .

(٢) انظر : ص ٣٦٤ من غاية المرام . (٣) انظر : ص ٣٦٥ من غاية المرام ، والابكار ٢ / ٢٦٣ ب .

(٤) انظر : ص ٣٦٥ من غاية المرام ١٣٨ ا-ب . (٥) انظر : الإحكام في اصول الأحكام ١ / ٣٧٥ .

(٦) ص ٣٦٦ من غاية المرام = ل ١٣٨ ب

(٧) السابق، وفيه أثر واضح للإمام الغزالي - انظر الاقتصاد ١٦٣ .

صلاح أمورهم وتشوفهم إلى العمل بموجب دينهم بمن عن السلطان ؛ إذ السيف والسنان قد يفعل مالا يفعله البرهان^(١) وهذه الفكرة يمكن أن تكون دليلا مستقلا . ويخلص الآمدى من ذلك كله إلى القول بالوجوب الشرعى : « فإذا نصب الإمام من أهم مصالح المسلمين ، وأعظم عماد للدين ، فيكون واجبا شرعيا اللهم إلا أن يعنى بكونه واجبا عقليا أن فى فعله فائدة ، وفى تركه مضرة ، فذلك مالا سبيل إلى إنكاره »^(٢) .

ثم يدخل فى مناقشات مستفيضة حول انعقاد الإجماع فى هذه المسألة ، وحجتيه ، والدليل على ذلك ، لما أن الشيعة وغيرهم قد عارضوا فى ذلك كله^(٣) وينبغى أن أذكر هنا أن القاضى عبد الجبار قد شرح هذين الدليلين على وجوب الإمامة فى « المغنى »^(٤) ، وبين أن عليهما اعتماد شيخيه الجبائين ، ورد على الاعتراضات الواردة عليهما على النحو الذى لجدده موجزا لدى الآمدى فى كتابيه « الأبكار » و« غاية المرام »^(٥) ، ويتمسك ابن خلدون - فى المقدمة - بالإجماع خاصة^(٦) .

د- طريقة تولية الإمام وخلعه :

طرق اختيار الإمام كما يحددها الآمدى فى « الأبكار » ثلاثة : الاختيار أو الشورى ، والنص أو التعيين من الله تعالى أو رسوله - ﷺ - ، ثم الخروج والدعوة ممن هو أهل للإمامة ، ويحدد الآمدى أصحاب كل طريق من هذه الطرق ، فى قوله : « اتفق المسلمون على أن ذلك لا يخرج عن التنصيب ، والاختيار ، والدعوة إلى الله تعالى ممن هو أهل للإمامة ، مع اتفاقهم على أنه لو وجد التنصيب ، من الرسول - عليه السلام - على شخص أو من الإمام ، ثبت كون المنصوص عليه إماما . ثم اختلفوا بعد ذلك فذهب الإمامية وأكثر طوائف الشيعة إلى أنه لا طريق غير التنصيب من الرسول والإمام . وذهبت الإبشاعة ، والمعتزلة ، وجميع أهل السنة والجماعة ، والسليمانية والبترية من الزيدية ، إلى أن الاختيار أيضا طريق فى إثبات كون الإمام إماما ، وذهبت الجارودية من الزيدية إلى أن

(١) انظر ص ٢٧٤ من غاية المرام = ل ١١٤١ .

(٢) ص ٣٦٧ من غاية المرام ، وانظر : الفكرة فى الأبكار ٢/ ٢٦٥ والاقتصاد للزغالى ١٣٤ .

(٣) انظر : ص ٣٦٧ - ٣٧٥ من غاية المرام . (٤) المغنى ١٢٠ / ٤١ - ٩٨ .

(٥) انظر : الأبكار ٢/ ١٢٨٤ - ٢٩٣ ب ، وغاية المرام ل ١١٣٩ - ١٤١ ب - ص ٣٦٧ - ٣٧٥ من غاية المرام .

(٦) انظر : المقدمة ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

الإمامة في ولد الحسن والحسين شوري ، فمن خرج منهم داعياً إلى الله تعالى وكان عالماً فاضلاً فهو إمام» (١) .

وينبغي أن نذكر أن موافقة الآمدي - وأهل السنة - على ثبوت الإمامة بالنص النبوي - كما قد يفهم من عبارته السابقة - هو مجرد افتراض محض ؛ إذ لا يعقل من مسلم أن يخرج على أمر النبي ﷺ لو ثبت ، ولكن هذا النص لم يتحقق في الواقع ، بدليل قوله بعد ذلك : « والمعتمد لأصحابنا أنهم قالوا قد ثبت أن نصب الإمام بعد النبي - ﷺ - واجب شرعاً ، وقد أجمعت الأمة على أن طريق إثبات كونه إماماً لا يخرج عن النص والاختيار والدعوة ، والقول بالتنصيب والدعوة ممتنع ، فتعين القول بالاختيار (٢) . » ثم يستدل على صحة هذا الطريق وحده على النحو الذي نجده في « غاية المرام » أيضاً (٣) ، وإن كان يعتمد في الكتاب الأخير إلى الإيجاز ، ولكنه ينتهي فيه من مناقشة أدلة الشيعة على التنصيب إلى قوله : « وإذ ثبت أن مستند التعيين ليس إلا الاختيار - وهذه العبارة توجد حرفياً في الأبكار أيضاً - (٤) فذلك مما لا يفتقر إلى إجماع أهل الحل والعقد . . بل الواحد من أهل الحل والعقد - والاثنان - كاف في الانعقاد ، وجوب الطاعة والانقياد » (٥) . ثم يستشهد لذلك بطريقة تولية أبي بكر وعثمان بن عفان عن طريق فرد أو عدة أفراد ، ويقول إنه قد جرى العمل على ذلك في كل العصور (٦) .

والآمدي هنا يشير إلى أنه من الممكن أن يمثل الأمة كلها عند البيعة الخاصة عدة أفراد ؛ فيختاروا الإمام وينصبوه ، وهم في هذا ممثلون لرأي الأمة ما دامت راضية عن مختارون ومستعدة لإقرار هذا الاختيار في البيعة العامة . وإلا فلا يعقل أن يقوم شخص - أو عدة أشخاص من أهل الحل والعقد - فيبايع رجلاً عند موت الإمام ؛ فيصير بذلك إماماً دون موافقة الآخرين مع إنكار الأمة لهذا الاختيار . ويدل على ذلك الفهم حكاية الآمدي قول

(١) الأبكار ٢/ ١٢٦٦ ، ب ، وقارن حكاية الآمدي للمذاهب هنا بما في المغنى ١٢٠ / ص ٩٩ وما بعدها ، ومقالات الإسلاميين ١/ ٨٩ ، ١٢٧ - ١٣٧ ، وفلسفة المعتزلة ٢/ ١٤٨ وما بعدها ، وعقائد الإمامية ص ٤٩ وما بعدها ومقدمة ابن خلدون ١٩٦ - ٢٠٢ .

(٢) الأبكار ٢/ ٢٦٦ ب ، وقارن الأبكار ٢/ ٢٦٦ ب .

(٣) انظر : الأبكار ٢/ ٢٦٦ ب - ١٢٨٣ ، وغاية المرام ١٤١ ب - ١٤٤ = ص ٣٧٥ - ٣٨١ .

(٤) الأبكار ٢/ ١٢٨٣ . (٥) غاية المرام ل ١٤٣ ب - ص ٣٨١ .

(٦) انظر : ص ٣٨١ ، ٣٨٢ من غاية المرام والأبكار ٢/ ١٢٨٣ ، ب .

الباقلانى « ويجب أن يكون ذلك بمحضر من الشهود وبينة عادلة؛ كفا للخصام ووقوع الخلاف بين الأنام ، وادعاء مدع عقد الإمامة سرا متقدما على عقد من كان له جهر عيانا »^(١) ، ويوافقه على هذه الفكرة بقوله - فى غاية المرام - : « وهو لا محالة واقع فى محل الاجتهاد »^(٢).

إنها فكرة التمثيل التى زادها الغزالى إيضاحا بقوله عنبيعة عمر لأبى بكر يوم السقيفة : « ولو لم يبايعه غير عمر ، وبقي كافة الخلق له مخالفين ، أو انقسموا انقساماً متكافئاً لا يتميز فيه غالب عن مغلوب ؛ لما انعقدت له الإمامة »^(٣) . ونجد له مثل هذا فى الاقتصاد^(٤) أيضاً .

وهذا يشرح لنا أمر الوصية بالخلافة أو « ولاية العهد » ، كالتى كانت من أبى بكر لعمر رضى الله عنهما ، والتى فهم منها بعض الباحثين^(٥) اعتراف الأشاعرة بالنص كطريق لإقامة الإمام ، واستدل على هذا بالنص الذى نقلته عن الآمدى أول هذه الفقرة ، مع أنه لا يعدو فى نظرهم صيغة من صيغ الاختيار ، متى حظى هذا الترشيح من الإمام السابق برضا الأمة ، كما يقول الامام الغزالى : « ففى بيعته وتفويضه كفاية عن تفويض غيره ولأن المقصود أنه يجمع شتات الآراء لشخص مطاع ، وقد صار بمبايعة هذا المطاع مطاعاً »^(٦) . أما إذا لم تقبل الأمة هذا الترشيح ، أو هذه التوصية ، فلا يصير المعهود إليه بمجرد ذلك إماماً ، بل يرد الأمر إلى الأمة ممثلة فى أولى الحل والعقد ، كما يقول ابن تيمية فى (منهاج السنة) عن أول واقعة من هذا القبيل : « ولو قدر أنهم لم ينفذوا عهد أبى بكر ، ولم يبايعوه لم يصير إماماً »^(٧) .

حقاً إن فكرة « التمثيل » لم تبلور أو تنضج فى التفكير الفقهى للمسلمين ، ولعلها لا تزال بحاجة إلى جهود معاصرة ، ولكن أساسها واضح لديهم كما يبدو من هذه

(١) غاية المرام ل ١٤٣ ب ، ١١٤٤ = ص ٣٨٢ ، وانظر : التمهيد ١٧٩ .

(٢) غاية المرام ص ٣٨٢ ، وقارن الأبيكار ١٢٨٣/٢ .

(٣) فضائح الباطنية ، ط الدار القومية ١٩٦٤ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٤) انظر : الاقتصاد ص ١٣٦ ، ١٣٧ . (٥) انظر : فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٦٠٢ .

(٦) الاقتصاد ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٧) منهاج السنة ، بولاق ١/ ١٤٢ ، وانظر فى هذا النظريات السياسية الإسلامية ص ١٩٤ - ١٩٧ .

النصوص، وقد وضعها الآمدى بكلمته الموجزة : « وهو لا محالة واقع فى محل الاجتهاد » على عاتق المجتهدين المسلمين .

إن الإمامة فى نظر أهل السنة عقد بين الأمة - مباشرة أو عن طريق ممثليها - ومن يقع عليه الاختيار ، كما يصرح الآمدى فى غاية المرام^(١) ، ولا أدل على كونها عقدا بين الأمة وحاكمها من ثبوت حقها فى خلعه - حتى لو اشترط هو غير ذلك - إذا ما أساء السيرة أو فقد شيئا من شروط الإمامة ، يقول الآمدى : « ولهم أن يخلعوه وإن شرط غير ذلك ، إذا وجد منه ما يوجب الاختلال فى أمور الدين وأحوال المسلمين وما لاجله يقام الإمام »^(٢) .

هذا هو الحكم الشرعى ، وإن كان الآمدى - جريا على عادة أهل السنة - لا ينسى حالة الضرورة ، وهى تغلب بعض الفاقدين لشروط الإمامة على هذا المنصب الخطير ؛ فيوصى بتقدير « المفسدة » ، اللازمة من إقامته ، وعدم إقامته ، ويدفع أعلاهما بارتكاب أدناهما^(٣) . وهذا تفكير واقعى كثيرا ما تدعو إليه تقلبات الأمم وتطوراتها ، على ألا يعد الاستثناء حالة دائمة ، وإنما هو كما يشبهه الآمدى : « كما فى أكل الميتة بالنسبة إلى حالة الاضطراب »^(٤) .

وإذا كانوا يقولون بطاعة المتغلب فهم يقيّدونها بما لا معصية فيه لله ، « إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، ويوجبون فى الوقت نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل رد الأمر إلى نصابه متى تيسر ذلك بدون فتنة ؛ يقول الغزالى : « ونقطع أنه يجب خلعه إن قدر على أن يستبدل عنه من هو موصوف بجميع الشروط من غير إثارة فتنة وتهيج قتال »^(٥) ؛ فقد نهى النبى ﷺ عن معاونة الظلمة فى ظلمهم ، ولكنه أوصى بتحمل المظالم الفردية ، ونهى عن إثارة الفتنة العامة إلا « أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان »^(٦) ، وأوجب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ « . . وعلى أن نقول بالحق

(١) انظر : ص ٣٨٢ من غاية المرام . (٢) انظر : ص ٣٨٥ من غاية المرام . (٣) غاية المرام ١١٤٥ .
(٤) ص ٣٨٦ من غاية المرام ، وانظر : فضائح الباطنية ١٩٢ - ١٩٤ ، وشرح الطحاوية ٣١٤ - ٣١٧ ، ومقدمة ابن خلدون ١٩٣ - ١٩٤ ، ومقالات الإسلاميين ١٣٨/٢ .
(٥) الاقتصاد ص ١٣٧ .

(٦) متفق عليه من رواية عبادة بن الصامت - انظر : رياض الصالحين ، للنووى ص ٥٠ .

أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم» (١) .

هذا، وقد تحدث الآمدى في خاتمة كتابه «الأبكار» عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقرر أنه واجب على كل مكلف متى توفرت شروطه ، وأنه لا يتوقف على إذن الإمام العدل واستنابته كإقامة الحدود ، وأنه واجب بالشرع لا بالعقل كما زعم الجبائي وابنه ، واستدل على ذلك بنصوص الكتاب والسنة (٢) . ثم بين أنه واجب على كل مكلف عالم بما يأمر به أو ينهى عنه ، سواء كان عدلاً أو فاسقاً ، وإن كان من الأفضل أن يقوم بذلك العدل ليحسن أثره . وأنه يجب ألا ينهى عن محرم ، ولا يأمر إلا بواجب مقطوع به ، أما المسائل الاجتهادية فلا يتعرض لها بالأمر أو الإنكار . وأنه فرض عين إذا لم يقم به غيره ، وفرض كفاية في غير هذه الحال . وأنه يجب أن يتم بلا بحث أو تعرض لحرمان الآخرين . وأخيراً أن من شروط الوجوب أن يغلب على ظنه حصول ما يأمر به وتغيير ما ينهى عنه ، وإلا فلا يجب عليه ذلك ، ولكنه يستحب على كل حال ؛ إظهاراً لشعائر الإسلام (٣) .

إن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رسالة حية دائمة لحماية المجتمع من الشرور والانحرافات ، يقوم بها كل أفرادها بحسب ظروفهم وطاقاتهم ، وقد كان لها شأن عظيم في مذهب المعتزلة حتى عدت أحد أصوله الخمسة التي لا يعتبر المرء معتزلياً إلا بها ، وإن كانت الأحكام التفصيلية لهذه المسألة لا تكاد تختلف عند المعتزلة عنها لدى أهل السنة (٤) .

هـ- شروط الإمام :

يورد الآمدى في «الأبكار» وفي «غاية المرام» الشروط المتفق على وجوب توافرها في الإمام ، وهي ترجع إلى العمل بالشرعية والكفاءة في الإدارة ، مع شروط الأهلية الشرعية العامة للتصرف في شئون الغير؛ من إسلام وبلوغ وعدالة وحرية، بالإضافة إلى اضطراره بتصريف شئون المسلمين فعلاً ، ونفوذ أمره فيهم (٥) . وهو في هذا لا يختلف عن غيره

(١) جزء من الحديث السابق ، (٢) انظر : الأبكار ٢ / ٣١٠ ب .

(٣) انظر : الأبكار ١ / ١٣١١ ب .

(٤) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ١٤٢ - ١٤٨ والأبكار ل ٢ / ٣١٠ وما بعدها .

(٥) انظر : الأبكار ٢ / ٢٨٣ ب ، ١٢٨٤ ، وغاية المرام ١٤٣ ب ، ١٤٤ = ص ٣٨٠ - ٣٨٣ .

من الأشاعرة وأهل السنة بعمامة^(١) ، غير أنى لاحظت تطور رأيه فى « غاية المرام » بالنسبة لشرط العلم عما صرح به فى « الأبهكار » ؛ إذ قال فى هذا الكتاب الأخير : « الأول أن يكون مجتهدا فى الأحكام الشرعية بحيث يستقل بالفتوى فى النوازل ، وإثبات أحكام الوقائع نصا ، واستنباطا ؛ لأن من أكثر مقاصد الإمامة فصل الخصومات ، ورفع المخاصمات ، ولن يتم ذلك دون هذا الشرط ، ولا يكفى أن يقال باكتفائه بمراجعة الغير فى ذلك ؛ إذ هو خلاف الإجماع »^(٢) . ولكنه يتحول إلى رأى آخر أكثر اعتدالا وتوافقا مع الظروف المتباينة للأمة ، وليس خارجا عن الإجماع الذى يحكيه فى « الأبهكار » ، ويحكيه ابن خلدون أيضا فى المقدمة^(٣) ، وهو « أن يكون من العلم بمنزلة قاض من قضاة المسلمين »^(٤) ، وهو الرأى الذى مال إليه الغزالى من قبل فى الاقتصاد^(٥) .

ثم يعرض بعد ذلك للشروط المختلف فيها ، وأهمها شرط « القرشية » ، فيقرر فى « الأبهكار » أنه قد ذهب جميع أهل السنة والجماعة إلى أنه لا بد أن يكون الإمام قرشيا ، ومعهم بعض المعتزلة ، وجميع الشيعة وخالف فيه بعض الخوارج ، والمعتزلة^(٦) . ثم يشير إلى إجماع الصحابة عليه حين ذكرهم أبو بكر بحديث « الأئمة من قریش » ويقول : « ولولا انعقاد الإجماع على ذلك لكان الشرط فى محل الاجتهاد »^(٧) . ولقد تخلص الآمدى من هذا التحرج فى « غاية المرام » فقطع بكونه فى محل الاجتهاد : « ولعمري إن مثل هذا الشرط واقع فى محل الاجتهاد »^(٨) . ولعله نظر إلى ظروف العصر وصعوبة تحقق القرشية ، أو أن المقصود بها إنما هو الشوكة والاستتباع للناس ، أى العصبية السياسية كما فسرهما ابن خلدون فيما بعد^(٩) .

وعلى كل فإن الآمدى فى رأيه الأخير مسبق بالقاضى الباقلانى كما يحكى عنه ابن خلدون : « ومن القائلين بنفى اشتراط القرشية أبو بكر الباقلانى ، لما أدرك ما عليه عصبية

(١) انظر : غاية المرام ١٤٤-ب = ص ٣٨٢-٣٨٤ . (٢) الأبهكار ٢/٢٨٣ ب .

(٣) المقدمة ص ١٩٣ . (٤) ١٤٤١ من غاية المرام = ص ٣٨٣ . (٥) انظر : الاقتصاد ص ١٣٦ .

(٦) انظر : الأبهكار ٢/٢٨٤ ، وقارن مقالات الإسلاميين ٢/١٣٤ ، ١٣٥ والمغنى ٢٠ (الجزء الثانى) /

١٧٦-١٨٣ ومنهاج السنة ٢/٨٥-٨٦ ومقدمة ابن خلدون ١٩٤ .

(٧) الأبهكار ٢/٢٨٤ . (٨) غاية المرام ١٤٤-ب = ص ٣٨٤ . (٩) انظر : المقدمة ص ١٩٤-١٩٦ .

قريش من التلاشى والاضمحلال ، واستبداد ملوك العجم ، فأسقط شرط القرشية ، وإن كان موافقا لرأى الخوارج ، وبقي الجمهور على القول باشتراطها^(١) . ومن سبقوا الآمدى فى إسقاط الالتزام بهذا الشرط أيضا إمام الحرمين الذى أبدى تشككه فيه ، حيث يقول : « وللاحتمال فيه عندى مجال »^(٢) . ومع أن الرازى جرى على اشتراط القرشية ، فإنه فى بعض المواضع ينقد الحديث « الأئمة من قريش » من حيث سنده قائلا إنه آحادى كما أن الألف واللام فيه قد لا تكون للاستغراق^(٣) .

وهكذا يقف الآمدى مع هذه الطائفة من المفكرين المسلمين القائلين بإسقاط هذا الشرط أو وضعه موضع الاجتهاد ، وهى عبارة دقيقة تعفى المسلمين من التزام هذا الشرط بصفة دائمة ، وتخضع العمل به للملابسات والظروف المتغيرة ، تقربه من معنى الشوكة والاستتباع ، أو « العصبية » كما عبر ابن خلدون فيما بعد .

ثم يناقش الآمدى بعد ذلك أقوال الشيعة ، حول عصمة الإمام ، وعلمه بالغيب ، وكونه أفضل المسلمين ، محيطا بجميع أحكام الدين ، إلى غير ذلك من الصفات التى اشتراطوها فى الأئمة أو أسبغوها عليهم ، متمسكا بأنه لم يدل عليها نقل ولا عقل ، مستدلا بالوقائع التاريخية التى تدل على أن الأئمة - وعلى رأسهم على بن أبى طالب نفسه - عرضة للخطأ ومجانبة الصواب أحيانا ، ولا لوم عليهم فى ذلك ؛ فهم مجتهدون مستحقون للأجر على كل حال ، ولكنهم ليسوا معصومين ولا عالمين بالغيوب كما زعم هؤلاء^(٤) .

- ٢ -

أما الجانب الثانى من بحوث الآمدى فى الإمامة ، فهو بيان لصحة إمامة الراشدين الأربعة ، ورد لما وجه إليهم من اتهامات فى استحقاقهم لها ، أو قيامهم بواجباتها ، منها بفضائل كل منهم على النحو الذى لجده عند غيره من الأشاعرة ، ومفكرى أهل السنة بوجه

(١) المقدمة ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ويبدو أن ابن خلدون يعتمد على مؤلفات للباقلانى ليست بأدبنا الآن ، فإنه فى التمهيد يشترط القرشية صراحة - انظر : التمهيد ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الإرشاد ص ٤٢٧ . (٣) فخر الدين الرازى وآراؤه ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٤) انظر : ص ٣٨٤ - ٣٨٦ من غاية المرام ، والأبكار ٢ / ١٢٨٤ - ٢٩٥ ب ، وقارن عقائد الامامية ٤٩ وما بعدها .

عام^(١)، غير أن هناك أفكاراً جديدة بالتنويه يبيديها الآمدى فى خلال ذلك، منها :

(أ) تحقيقه مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ واجتماع كلمتهم ، ورد ما نسب إلى بعضهم كالإمام على كرم الله وجهه من امتناع عن بيعة أبى بكر الصديق؛ لأسباب زعموها، والآمدى يرفضها،^(٢) كما رفضها محققو المؤرخين والعلماء^(٣) .

(ب) وحرصه على تجنب الخوض فى الفتنة ، وما شجربين الصحابة من أحداث ، مع التمسك بحسن الظن بهم جميعاً ، لمكانتهم المشهود بها ؛ ولأن السكوت عما لا يلزم خير من الخوض فيما لا يعنى ، متمسكا بما نسب إلى بعض السلف : « تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلنطهر منها ألسنتنا »^(٤) .

(ج) وحرصه أيضاً على الدفاع عن الإمام على ، كرم الله وجهه ، ورد ما نسب إليه المتعصبون من تهمة ، بل إنه ليبدى إجلالاً وتمجيذاً فائقاً له ؛ إذ يقول « ولا يخفى أن علياً كان مستجعماً للخلال الشريفة ، والمناقب المنيفة ، التى بعبعضها تستحق الإمامة ، وأنه اجتمع فيه من فضائل الصفات ، وأنواع الكمالات ، ما تفرق فى غيره من الصحابة ، فهو أعلمها ، وأعبدها ، وأزهدها ، وأفصحها ، وأسبقها إيماناً ، وأكثرها مجاهدة بين يدي رسول الله ﷺ »^(٥) . مما قد يدعو بعض المتعصبين إلى نسبته لميول شيعة .

(د) غير أنه يعود فى فصل خصصه للتفضيل بين الصحابة فينص على أن مذهب أهل السنة تفضيل أبى بكر على عمر ، وعمر على عثمان ، وعثمان على على ، وعلى على باقى العشرة المبشرين بالجنة ، ثم العشرة على باقى الصحابة^(٦) . ويرد على من زعم من الروافض وغيرهم تقدم على على سائر الصحابة ، ويؤكد هذا فى آخر صفحات كتابه « غاية المرام » ، وإن كان ينص فيها على « أن مستند ذلك - أى التفضيل - ليس إلا

(١) انظر : ص ٣٨٧ من غاية المرام وما بعدها ، الأبيكار ٢/ ٢٥٥ وما بعدها وقارن منهاج السنة ٢/ ١٧٥ - ١٨٩ ، وأصول الدين للبغدادى ٢٨١-٢٨٣ ، والفصل لابن حزم ٤/ ١٠٩ - ١١١ ، والمغنى لعبد الجبار ١٢٠ / ٣٢٨ - ٣٩٦ ، ٢٠ ب / ١٨٤ - ٢٧٤ .

(٢) انظر غاية المرام ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، والأبيكار ٢/ ٩٥ ب - ٣٠٠ ب .

(٣) انظر : العواصم من القواصم لابن العربى ص ٣٧ ، ٣٨ ، والفصل لابن حزم ٤/ ٩٦ - ٩٨ ، وتاريخ الطبرى ٣/ ٢٠٠ وما بعدها . (٤) انظر : الأبيكار ٢/ ٣١٠ ب . (٥) الأبيكار ٢/ ٣١٠ ب .

(٤) انظر : الأبيكار ٢/ ١٣١١ .

الظن»^(١) ، وهو يريد أن يقول : إن مسألة التفضيل ليست مبنية على أدلة قطعية، ولا هي مما يطلب اعتقاده حتمًا، وأن الخطأ فيها ، لا يضر المرء في عقيدته، كما قال ابن تيمية : « إنها ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة^(٢) » .

وبهذا يتم الباب الثانى ، والآخر ، من دراستنا للآمدى المتكلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(٢) الواسطية ص ٢٦ .

(١) غاية المرام ل ٤٦ ب = ص ٣٩١ .

فهارس الكتاب

١. فهرس الآيات القرآنية .
٢. فهرس الأحاديث والآثار .
٣. فهرس الشعر .
٤. فهرس الأعلام .
٥. فهرس الطوائف والفرق .
٦. فهرس الأماكن .
٧. فهرس المكتبات .
٨. فهرس المدارس .
٩. فهرس المصادر .
١٠. فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	الصفحة	ص	
البقرة	٢٢	٤٤١	٢٧	٤٤١
	٣٠	٤٨٤ / ٤٤٣	٧٥	٣٣٦
	٢٢٥	٢٠٠	٧	٢٤٦
	٢٥٥	٤٩٤	٤٢	٤٩٤
آل عمران	١٢٦	١٠٠	٥٣	٤٩٦
	١٦٩	٤٥٦	٥٦	٤٩٤
	١٩١	٤٤٢	٣١	٢٤٦
	١٩٢	١١٥	١١	٢٦٩
المائدة	١٧	٣٢٩	١١	١٤٥، ١٣٤
	٦٤	٣٣٦		٣٢٤، ٢٣٧
	١٢٠	٢٦٢		٣٢٧، ٣٢٥
	١٤٣	٣٧٦		٣٣٧، ٣٣٤
الأعراف	١٧٢	١٨١		٣٥٩، ٣٥٧
الأنفال	١٧	٤٣١	٣	٢٧٨
التوبة	٦	٢٧٦	١٩	٢٧٨
يونس	١٠١	١١١	٣	٤٣٨
هود	١	٤٣٣	١٣	٤٣٨
	١٠٧	٤٩٧	٣٨	٣٣
الرعد	٤	١٧٩	٥٦	٤٤١
النحل	٤٠	٩٤	٥٨	٢٦٢
	٩٣	٤٦٧	٣٥	١٩٥
	١٢٥	٦٧	٤٣	٤٣١
طه	٥	٣٣٥	١٤	٣٣٦
	١١٠	٢٠٠	٢٧	٣٣٦، ٣٢٥
الأنبياء	٢٢	٣١٠، ١٥٩	٢٩	٤٠١
		٣١٢، ٣١١	٣	١٩٥
		٣١٦، ٣١٣	٤	٣٥١، ٣٣٩
المؤمنون	٩١	٣١٣، ٢٠٤	٧	٣٣٩
		٣١٩	٢	٤٤٢
القصص	٨٨	٣٢٥، ٢٣٧	١٤	٢٥١
فاطر	٤٥	٢٦١	١٥	٤٣٨
يس	٧٩	٤٩٤	٢٣	٤٩٧
	٨٢	٩٤	٨	٤٣٣
			١	٢٣٧، ٢٠٨
			الإخلاص	

فهرس الأحاديث والآثار

رقم	الحديث	الصفحة
١	أن تروا كفرا بواحا	٥٠٦
٢	إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر	١٦١
٣	إن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر	٤٥٦
٤	إن الله ينزل إلى السماء الدنيا	٤٢٦
٥	إنك رسولى ونبيى	٤٧٩
٦	الأئمة من قريش	٥٠٨ / ٥٩
٧	القدريّة مجوس هذه الأمة	٤٧١
٨	تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا	٣٣٨
٩	عليكم بدين العجائز	١١٢
١٠	لا تجتمع أمتي على ضلالة	١٣٧
١١	من أتاني ماشيا أتيت إليه هرولة	٣٣٩
١٢	وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم	٥٠٧ / ٥٠٦

الأثر

١	الاستواء معلوم والكيف مجهول	٢١١
٢	من أين الأين لا يقول له أين	٣٤٥

فهارس الشعر

الصفحة	شطر البيت
٣٩	حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
٤٩	ولا تكله إلى كتب تنبيهه
٥٤	فلا فضيلة إلا من فضائله

فهرس الأعلام

العلم	الصفحات
آدم	٤٨٩
الكنى	
أبو الهذيل	٢٤٠
أبو تمام	٤٩
أبو شامة	٤٨
أبو الأسود الدؤلي	٣٩
أبو البركات	٣٤١
أبو الحسن	٢٩ / ٢٣١ / ٢٦٨ / ٢٨٢ / ٢٩١ / ٢٩٧ / ٢٩٩ / ٣٧٦
أبو الحسن التميمي	٣٢٥
أبو الحسين البصري	٢١ / ٢٣ / ٦٣ / ١٧٨ / ١٨٥ / ٢٣٩ / ٢٥٠ / ٢٩٣ / ٢٩٤
	٣٤٣ / ٣٩٠ / ٥٠١
أبو الخطاب	٥٦ / ٤٣٥
أبو الفدا	٢٨
أبو المظفر	٤١ / ٤٤ / ٤٧ / ٥٠ / ٥١
أبو الهذيل	٣١٩ / ٣٢٨ / ٤٠٢ / ٤٠٣ / ٤٤٨ / ٤٦٤
أبو بكر الأصم	٥٠١
أبو بكر الحضي	٣٢٦ / ٣٩٠ / ٣٩١
أبو بكر الصديق	٢٠٢ / ٥٠٢ / ٥٠٤ / ٥٠٥ / ٥٠٨ / ٥١٠
أبو بكر الفاروقي	٦٥
أبو حنيفة	٢١٥ / ٢١١ / ٢٦٨ / ٤٣٥ / ٣٧١
أبو رشيد	٣٨٨
أبوريدة	١٦٠
أبو شامة	٢٣ / ٥٠ / ٥١
أبو عبد الله البصري	٣٨٨
أبو عبد الله بن مجاهد	٢٩٨
أبو عثمان المغربي	٣٥٢ / ٣٥٦

٤٧٦	أبو علا عفيفي
٤٨٢ / ٤٧٢ / ٣٨٨ / ٣٠٨	أبو هشام
١٨٥	أبو يعلى " القاضي "
٣٦٩	أبو الحسن النوري
٣٥٦	أبو المظفر
٢٨٧	أبو جهل
٤٦	أبو عمرو بن الصلاح
	الهمزة
٨٤	أحمد إتش
٩٣	أحمد الأشهب الفيومي
٢٩٤ / ٢٦٩ / ٢٦٧ / ٢١٧ / ٢١٥ / ٢٠٩ / ١٢٤ / ١٨	أحمد بن حنبل
٤٧٦ / ٣٤٥ / ٣٣٩ / ٣٢٦ / ٣٢٥ / ٢٩٧	
٨٥	أحمد بن محمد أمين
٣٨٠ / ٣٧٩ / ٢٤٩ / ١٧٨ / ١٧٧ / ١٧٥ / ٧٨ / ٧٩ / ٧٤	أرسطو
٤٥٠ / ٤٠٨ / ٣٩٩ / ٣٩٥ / ٣٩٤ / ٣٨٧ / ٣٨٦ / ٣٨١	
٤٦٠ / ٣٥٧ / ٤٥٦ / ٤٥٥	
٧٣ / ٧١ / ٣٣	أسعد الميهني
٩٦	أسين بلاسيوس
١٢	أغناطيوس
٤٤٧ / ٤٣٤ / ٤٢١ / ٣٩٩ / ٣٨٠ / ٣٧٩ / ١٩٢ / ١٦٠	أفلاطون
٤٧٦ / ٤٥٧ / ٤٥٠	
٤٩٣ / ٤٩١	
٣٨١ / ١٧٧	أفلوطين
٤٥٠ / ٤٣٤	ألبير نصري نادر
١٠	ألفونس
٨٧	أنستاس الكرملّي
٤٩٠ / ٢٧٧	إبراهيم (النبي)
٤٥١ / ٤٥٠ / ٤٣٧	إبراهيم مذكور
٩٧	إحسان عباس

٤٨١ / ٣٨١	إخوان الصفا
٤٩٠	إدريس
٦٨	إسماعيل البغدادي
٣١	إسماعيل بن علي
٩٩	إسماعيل جلبلي
	اللقب
٢٦٥ / ٣٠٣ / ٢١	ابن أبي الحديد
٤٤٣ / ٤٠٩ / ٣٩١ / ٣٨٠ / ٢٦٩ / ٢٣٠ / ١٩٥ / ١٣٧	ابن أبي العز
٤٨٧ / ٤٨٥ / ٤٨٤ / ٤٧٦ / ٤٦٩	
٣٧	ابن إياس
٥٣ / ٥٢ / ٥١ / ٥٠ / ٤٩ / ٤٨ / ٤٣ / ٤٢ / ٣٥ / ٢٧	ابن أبي أصيبعة
٩١ / ٨٦ / ٨٣ / ٨٠ / ٧٩ / ٧٨ / ٧٢ / ٧١ / ٦٩ / ٥٤	
١٠٢ / ٩٨ / ٩٣	
١٦	ابن البيطار
٤٧٦ / ٣٢٦ / ٣٢٤ / ٣٢٣ / ٣٠١ / ٦٦ / ١٦	ابن الجوزي
٢٦٥ / ٧٠ / ٦٥ / ٦٣ / ٤٩	ابن الحاجب
٣٢٨	ابن الحكم
٣٢٥ / ١٨٦	ابن الزاغوني
٦٣ / ٢٣	ابن الساعاتي
٢٧	ابن الشحنة
١٧ / ١٢	ابن الصلاح
٢٠	ابن العز
٤٤٠ / ٣٦٢ / ٢٤	ابن الفارض
٤٥٠ / ٣٥٥ / ٣٥٤ / ٣٥٢ / ٣٤٢ / ٢٢٦ / ٢٣٠ / ١٢٤	ابن القيم
٤٧٦ / ٤٥١	
٢٢٠	ابن المطهر
٥٢	ابن المظفر
٩١ / ٨٦ / ٧١ / ٢٨	ابن الملقن
٦٤ / ٥٧ / ٥٦ / ٣٤ / ٣١ / ٣٠	ابن المنى

١٥	ابن النفيس
٣٥٦ / ٣٢٧ / ٢٢٧	ابن الهيثم
٢٠٣ / ٢٠٢ / ٢٠١ / ١٧٩ / ١٧٨ / ١٣٨ / ١٣٦ / ١١٨	ابن الوزير
٣٨٨ / ٢٦٥ / ٢٦١ / ٢٤٨ / ٢٤٢ / ٢١٧ / ٢٠٨ / ٢٠٥	
٤٧٢ / ٤٤٣ / ٤٣٦ / ٤٣٤ / ٤٠٩ / ٤٠٧	
٣٨١	ابن باجة
٤٠٧ / ٣٥٨ / ١٧٩ / ١٢٧ / ١٩	ابن تومرت
٧٦ / ٧٥ / ٧٤ / ٥٨ / ٥٢ / ٤٩ / ٤٦ / ٤٥ / ٢٣ / ٢٠ / ١٩	ابن تيمية
١٢٤ / ١١٩ / ١١٨ / ١١٣ / ٩٤ / ٩٢ / ٩٠ / ٨٦ / ٧٩ / ٧٨	
١٥٥ / ١٥٣ / ١٥٢ / ١٣٩ / ١٣٨ / ١٣٧ / ١٣٥ / ١٣٤	
١٨٦ / ١٨٥ / ١٨٤ / ١٨١ / ١٧٨ / ١٦٩ / ١٦٦ / ١٥٦	
١٩٦ / ١٩٥ / ١٩٤ / ١٩٣ / ١٩٢ / ١٩١ / ١٩٠ / ١٨٨	
٢٢٣ / ٢٢١ / ٢١٧ / ٢١٥ / ٢١٣ / ٢١٢ / ٢٠٢ / ٢٠٠	
٢٦٧ / ٢٤٧ / ٢٤٦ / ٢٤٤ / ٢٣٨ / ٢٣٦ / ٢٣٠ / ٢٢٦	
٣٠٠ / ٢٩٩ / ٢٩٨ / ٢٩٧ / ٢٨٠ / ٢٧٥ / ٢٧٠ / ٢٦٨	
٣٢٦ / ٣٢٥ / ٣٢٠ / ٣١٢ / ٣١٠ / ٣٠٧ / ٣٠٤ / ٣٠٣	
٣٤١ / ٣٤٠ / ٣٣٩ / ٣٣٨ / ٣٣٦ / ٣٣١ / ٣٣٠ / ٣٢٧	
٣٦٢ / ٣٥٨ / ٣٥٢ / ٣٤٨ / ٣٤٧ / ٣٤٦ / ٣٤٤ / ٣٤٢	
٣٨٧ / ٣٨٥ / ٣٨٣ / ٣٨٢ / ٣٨٠ / ٣٧٠ / ٣٦٩ / ٣٦٨	
٤١١ / ٤٠٩ / ٤٠٧ / ٤٠٦ / ٤٠٥ / ٣٩٨ / ٣٩١ / ٣٩٠	
٤٤٣ / ٤٤٠ / ٤٣٤ / ٤٣٢ / ٤٣١ / ٤١٨ / ٤١٧ / ٤١٥	
٥١١ / ٥٠٥ / ٤٩٧ / ٤٨٣ / ٤٧٦ / ٤٧٢	
٣٤	ابن ثابت
٣٢٥	ابن حامد
٥٧ / ٥٣ / ٥٢ / ٤٨ / ٣١	ابن حجر
١٥٢ / ١٤٤ / ١١٨ / ١١٣ / ١١٠ / ١٠٩ / ٩٧ / ٩٦ / ٦٨	ابن حزم
٣١٥ / ٢٧٣ / ٢١٣ / ٢٠٢ / ١٨٩ / ١٦٩ / ١٥٦ / ١٥٥	
٣٩٣ / ٣٩١ / ٣٦٤ / ٣٥٥ / ٣٥٢ / ٣٤٩ / ٣٢٩ / ٣١٩	
٤٩٧ / ٤٨٧ / ٤٥١ / ٤٥٠ / ٤٤٢ / ٤٣٥ / ٤٣١ / ٤١٠ / ٤٠٩	

١٦٨ / ١٥٣ / ١٥٢ / ٨٧ / ٦٦ / ٦٥ / ٦٤ / ٦٣ / ٦٢	ابن خلدون
٥٠٩ / ٥٠٧ / ٥٠٣ / ٥٠٠	
٩١ / ٨٦ / ٧٨ / ٧٥ / ٦٩ / ٤٨ / ٤١ / ٣٩ / ٣٥ / ٢٨ / ١٥	ابن خلکان
١٣٨	ابن دقيق العيد
١٥٢ / ١٤٨ / ١٤٥ / ١٣٥ / ١١٩ / ٩٩ / ٩٨ / ٤٠ / ١٦	ابن رشد
١٨٢ / ١٧٨ / ١٧٧ / ١٧٠ / ١٥٩ / ١٥٧ / ١٥٦ / ١٥٥	
١٩١ / ١٩٠ / ١٨٩ / ١٨٨ / ١٨٥ / ١٨٤ / ١٨٥ / ١٨٤	
٢٤٠ / ٢٣٨ / ٢٣٦ / ٢٣٣ / ٢٣٠ / ٢٢٠ / ٢٠١ / ١٩٢	
٢٥٧ / ٢٥٦ / ٢٥٥ / ٢٤٨ / ٢٤٦ / ٢٤٧ / ٢٤٤ / ٢٤١	
٣١١ / ٢٩٤ / ٢٩٣ / ٢٨٨ / ٢٨٥ / ٢٧٧٥ / ٢٦٨ / ٢٥٩	
٣٤٠ / ٣٣٠ / ٣٢٩ / ٣٢٤ / ٣٢٠ / ٣١٩ / ٣١٣ / ٣١٢	
٣٨١ / ٣٧٢ / ٣٧١ / ٣٦٨ / ٣٥٨ / ٣٥٥ / ٣٥٤ / ٣٥٣	
٤١٠ / ٤٠٩ / ٤٠٨ / ٤٠٠ / ٣٩٤ / ٣٩٣ / ٣٨٩ / ٣٨٦	
٤٤٤ / ٤٤٣ / ٤٣٨ / ٤٣٤ / ٤٣٢ / ٤٣١ / ٤٢٣ / ٤١١	
٤٩٥ / ٤٩٣ / ٤٨٥ / ٤٨٤ / ٤٨٣ / ٤٧٩ / ٤٧٨ / ٤٧٧ / ٤٦٧	
٤٥١ / ٤٤٩ / ٤٠٧ / ٣٨٦ / ٣٦٢ / ٢٤	ابن سبعين
٩٣	ابن سليمان الكتكائي
١٥	ابن سناء الملك
١٨٤ / ١٨٢ / ١٧٨ / ١٧٧ / ١٧٥ / ١٦٦ / ١٦٣ / ١٦٢	ابن سينا
١٩٩ / ١٩٣ / ١٩٢ / ١٨٩ / ١٩٢ / ١٨٩ / ١٨٨ / ١٨٦	
٢٥٧ / ٢٥٥ / ٢٤٩ / ٢٤٦ / ٢٣٩ / ٢١٧ / ٢١٦ / ٢٠١	
٣٦٤ / ٣٣٢ / ٣٣٠ / ٣٢٠ / ٢٩١ / ٢٨٥ / ٢٦٩ / ٢٦٤	
٣٨٨ / ٣٨٤ / ٣٨٣ / ٣٨١ / ٣٨٠ / ٣٧٥ / ٣٦٨ / ٢٦٧	
٤٥٤ / ٤٥٣ / ٤٥٠ / ٤٤٧ / ٤١٠ / ٤٠٩ / ٤٠٨ / ٤٩٤	
٤٩٢ / ٤٩١ / ٤٨٧ / ٤٦٢ / ٤٥٧ / ٤٥٥	
٥٧ / ٣١	ابن شاتيل
٢٩٩	ابن شاذان
١٥	ابن شداد
٨٦ / ٧٥ / ٧٢ / ٧١ / ٦٨ / ٣٧ / ٣٣ / ٣١ / ٢٨	ابن شهبه

٥٦	ابن شهر آشوب
٥٠ / ٤٥	ابن صلاح الشهرزوري
٢١٤ / ٢١٣ / ٢١١ / ٢٠٦ / ٢٠٢ / ١٨٦ / ١٦٩ / ٤٦ / ٢٤	ابن عربي
/ ٣٦٢ / ٣٥٢ / ٢٤٦ / ٣٢٤ / ٣٢٠ / ٣١٣ / ٢٣٣ / ٢٢٠	
٤٠٧	
٤٤٣ / ٤٤٠ / ٤٣٩ / ٤٣٠ / ٤٢٩	
٤٨٥ / ٤٨١	
٣٩٠ / ٣٢٧ / ١٢٤ / ٧٣ / ٥٠ / ٢٠ / ١٥	ابن عساكر
٣٧٠ / ٣٢٥ / ٣٠١ / ١٨٦	ابن عقيل
٨٥ / ٧٣ / ٦٤ / ٦١ / ٥٧ / ٣٣ / ٣١	ابن فضلان
٤٧٢ / ٤٦٠ / ٣٥٦ / ٤٥٠ / ٣٥٢ / ٣٣٦ / ٢٩٩	ابن فورك
٤٧٦	ابن قدامة
٣٩١ / ٣٣٩ / ٨٦ / ٧٥ / ٦٧ / ٥٢ / ٥١ / ٤٤ / ٤١ / ٣٧ / ١٢	ابن كثير
٣٨١ / ٢٦٨ / ٢٦٧ / ٢٤٧ / ٢١٥ / ٢١١ / ١٢٤ / ١٢٣	ابن كلاب
٣٤٠ / ٣٣٨ / ٣٣٦ / ٣٠٤ / ٣٠٣ / ٢٩٨ / ٢٩٧ / ٣٨٢	
٣٥٦ / ٣٥٤ / ٣٤٣ / ٣٤٢	
٢٥	ابن كمونه
٣٤١	ابن مالك لاحضرمي
٣٨٨	ابن متويه
٣٤	ابن مرقص
٣٨١	ابن مسرة
٤٦٣ / ٣٩٣	ابن ملك البغدادي
١٦	ابن ميمون
١٥	ابن واصل
٥٩	الآمدي
	(على بن محمد)
١٩١ / ٩٠	الأرموي
٣٤	الأزجر البغدادي
٤٩ / ٤٥ / ٤٤ / ٤٣ / ١٢ / ١١	الأشرف

١٣٢ / ١٢٧ / ١٢٤ / ١٢٣ / ١٠٩ / ٨٥ / ٦٥ / ٥٣ / ٣٢ / ٢١
 ٢١٦ / ٢٠٩ / ٢٠٤ / ٢٠٣ / ١٧٨ / ١٧٥ / ١٦٩ / ١٤٥
 ٢٤٧ / ٢٤٤ / ٢٤١ / ٢٤٠ / ٢٣٧ / ٢٣٣ / ٢٣٠ / ٢٢٣
 ٢٨١ / ٢٧٢ / ٢٧١ / ٢٧٠ / ٢٦٦ / ٢٦٥ / ٢٥٣ / ٢٤٨
 ٣٢٩ / ٣٢٨ / ٣٢٦ / ٣١١ / ٣٠٠ / ٢٩٨ / ٢٩٠ / ٢٨٦
 ٣٤٦ / ٣٤٢ / ٣٤١ / ٣٣٩ / ٣٣٨ / ٣٣٦ / ٣٣٥ / ٣٣١
 ٣٩٠ / ٣٧٠ / ٣٦٩ / ٣٦٢ / ٣٥٥ / ٣٥٤ / ٣٥٢ / ٣٥١
 ٤٣١ / ٤٢٨ / ٤٢١ / ٤١١ / ٤٠٦ / ٤٠٣ / ٤٠١ / ٣٩٩
 ٤٧٣ / ٤٧٢ / ٤٦٩ / ٤٦٨ / ٤٦١ / ٤٥١ / ٤٣٨ / ٤٣٥
 ٤٩٧ / ٤٩٦ / ٤٩٥ / ٤٧٥ / ٤٧٤

الأشعري

١١

الأفضل

١٨٦

الألوسي

٣٢٧

الأهوزي

٣٣٦ / ٣١٣ / ٢٩٩ / ٢٧٠ / ٢٢١ / ٢٠٩ / ١٤٤ / ١٤٣
 ٥٠١ / ٤٧٣ / ٤٧٢ / ٤٦٠ / ٣٨٦ / ٣٧١ / ٣٥٧ / ٣٥٦

الإسفرابيئي

٩٠

الإيجي

١٦٩ / ١٦٠ / ١٥٣ / ١٤٥ / ١٢٤ / ١١٠ / ١٠٩ / ٦٥ / ١٩
 ٢٣٨ / ٢٣٣ / ٢٢٩ / ٢٢٧ / ٢٢٦ / ١٩٩ / ١٨٥ / ١٨١
 ٣٠٨ / ٣٠٤ / ٣٠٣ / ٢٩٩ / ٢٩٨ / ٢٩٠ / ٢٦٧ / ٢٤٠
 ٣٥٦ / ٣٣٣ / ٣٥٥ / ٣٣٦ / ٣٣٥ / ٣٢٩ / ٣٢٥ / ٣٢٠
 ٣٩٦ / ٣٩٥ / ٣٧٢ / ٣٧١ / ٣٦٤ / ٣٦٣ / ٣٦٢ / ٣٦١
 ٤٥٠ / ٤٤٩ / ٤٣٥ / ٤٢٩ / ٤٢٨ / ٤٢٦ / ٤١١ / ٤٠٢
 ٤٨٢ / ٤٨٥ / ٤٧٤ / ٤٧٢ / ٤٦٥ / ٤٦٢ / ٤٥٩ / ٤٥١
 ٤٩٥ / ٤٩٠ / ٤٨٩ / ٤٨٥

الباقلائي

٢٩٩

الباهلي (أبو الحسن)

٩٣

البخاري

٣٢٧

البريهاري

٦٣

البزدوي

٩١ / ٨٣

البستاني

٣٦٢	البسطامي
٩٨ / ٣٧ / ٣٦ / ٣٢ / ١٩ / ١٨	البغدادي (عبد الطيف)
٩١ / ٨٤ / ٨٣ / ٨١ / ٧٨ / ٧٥ / ٧٤ / ٧٢ / ٦٩ / ٥٥ / ٣٤	البغدادي (عبد القاهر)
٣٥٧ / ٣٥٢ / ٣٣٥ / ٣٣٠ / ٣١٢ / ٣٠٣ / ٢٤٠ / ١٨١ / ١٣٦	
٤٨٥ / ٤٥١ / ٤٣٥ / ٤٠٩ / ٤٠٢ / ٣٨٦ / ٣٧١ / ٣٦٣ / ٣٦٢	
٩٠	البغوي
٣٨٨ / ١٥٢	البلخي (أبو القاسم)
٤٨ / ٢٨	البهنسي
٦٠ / ٥٩	البيضاوي
٣٣٩ / ٣٠٠ / ٢٨٠ / ٢٠٦	البيهقي
٣٦٩	التستري
٣٦٢	التلمساني
٣٤١	التونسي
٥٠١ / ٢٤٢ / ٢٣٩	الجاحظ
٢٥٠ / ٢٢٩ / ٢٢٧ / ٢٢٦ / ٢١٤ / ١٦٨ / ١١٣ / ١٠٩ / ٢٣	الجبائي
٣١٩ / ٣٠٤ / ٣٠٠ / ٢٩٧ / ٢٨٩ / ٢٨٨ / ٢٨٤ / ٢٧٨	
٥٠٧ / ٣٨٦	
١٤٢ / ٩٠ / ٨٤	الجرجاني
٣٧٠	الجعد بن درهم
٣٩١ / ٤٧٥ / ٢٠٢	الجلال الدواني
٣٨٢ / ٣٦٢ / ٢٤٦ / ٢٠٢	الجنيد
٤٩٧ / ٤٦٧ / ٣٧٠ / ٢٥٠	الجهم بن صفوان
٣٢٨	الجواليقي
١٣٤ / ١٢٥ / ١٢٤ / ٩٨ / ٦٣ / ٥٩ / ٥٨ / ٥٠ / ٢٣ / ١٩	الجويني
١٦٩ / ١٦٨ / ١٥٧ / ١٥٣ / ١٥٢ / ١٤٦ / ١٤٥ / ١٣٦ / ١٣٥	
٢٠٤ / ٢٠٣ / ١٩٩ / ١٩٠ / ١٨٧ / ١٨٦ / ١٨٢ / ١٧٩	
٢٥٤ / ٢٤٩ / ٢٣٨ / ٢٣٣ / ٢٢٧ / ٢٢٦ / ٢٢٠ / ٢٠٦	
٣٣٣ / ٣٢٩ / ٣٠٨ / ٣٠١ / ٣٠٠ / ٢٩٩ / ٢٨٢ / ٢٥٦	
٣٤٧ / ٣٤٦ / ٣٤٤ / ٣٤٣ / ٣٤٢ / ٣٤٠ / ٣٣٨ / ٣٣٦	

٤٢٦ / ٤٠٢ / ٣٩٣ / ٣٧٤ / ٣٧١ / ٣٧٠ / ٣٥٧ / ٣٥٦	
٤٧٥ / ٤٤٩ / ٤٣٥	
٤٧٦ / ٤٤٠ / ٢٣	الجيلاني
٣٤٢ / ٢٠٢ / ١٢٤	الحارث المحاسبي
٩٣	الحسن أبو بكر القدسي
٢١	الحسن بن الصلاح
٢٩١	الحسن بن الهيثم
٤٠٩	الحسن بن سوار البغدادي
٥٠٤	الحسين بن علي
٣٦٢	الحلاج
٢٦٥	الحلي الشيعي
٤٣٣	الخضر
١٦٠	الخضيري
١٠٣ / ١٠٢	الخونجي
٣٨٨ / ٣٨٦	الخياط (أبو حسين)
٤٧٥	الخيالي
٩٠	الدلجي (شمس الدين)
٤٧٦	الدلمي
٢٥٤ / ٥٨ / ٥٣ / ٥٢ / ٥١ / ٥٠ / ٤٨ / ٤٧	الذهبي
٧٤ / ٦٩ / ٦٥ / ٥٨ / ٥٣ / ٢١ / ٢٠ / ١٩ / ١٨ / ١٧ / ١٦	الرازي
٩٣ / ٩٢ / ٩٠ / ٨٨ / ٨٦ / ٨٤ / ٨٣ / ٨٢ / ٨١ / ٧٩ / ٧٨	
١٣ / ١٣٧ / ١٣٣ / ١٢٦ / ١٠٤ / ١٠٢ / ١٠٠ / ٩٩	
١٨٤ / ١٨٣ / ١٨٢ / ١٨١ / ١٧٩ / ١٧٨ / ١٧٦ / ١٥٣ / ١٤٧	
٢٠٨ / ٢٠٧ / ٢٠٦ / ٢٠٢ / ١٩٩ / ١٩٨ / ١٩٤ / ١٩٣ / ١٨٦	
٢٥٠ / ٢٤٩ / ٢٣٩ / ٢٣٨ / ٢٣١ / ٢٢١ / ٢١٣ / ٢١٢ / ٢١١	
٢٩٥ / ٢٨٧ / ٢٨٤ / ٢٧٢ / ٢٦١ / ٢٥٤ / ٢٥٣ / ٢٥٢ / ٢٥١	
٣٢٥ / ٣٢٠ / ٣١٤ / ٣١١ / ٣١٠ / ٣٠٨ / ٣٠٥ / ٣٠١ / ٢٩٩	
٣٤٣ / ٣٤٢ / ٣٤١ / ٣٤٠ / ٣٣٨ / ٣٣٦ / ٣٣٣ / ٣٣١ / ٣٣٠	
٣٦٣ / ٣٦١ / ٣٥٨ / ٣٥٧ / ٣٥٦ / ٣٤٩ / ٣٤٧ / ٣٤٦ / ٣٤٤	

٣٨٩ / ٣٨٤ / ٣٨٠ / ٣٧٥ / ٣٧٣ / ٣٧٢ / ٣٧١ / ٣٦٩ / ٣٦٤
 ٤٠٩ / ٤٠٨ / ٤٠٧ / ٤٠٢ / ٤٠٠ / ٣٩٨ / ٣٩٦ / ٣٩٣ / ٣٩٠
 ٤٦٣ / ٤٦١ / ٤٥٤ / ٤٥٢ / ٤٥٠ / ٤٣٧ / ٤٣٦ / ٤٣٥ / ٤١٧
 ٥٠٩ / ٤٩٩ / ٤٨١ / ٤٧٤ / ٤٧٣ / ٤٧٢

٣٦٢ الراضي (الخليفة)

٢٣ الرفاعي

٤٣٦ / ٣٤٣ / ٣١٤ / ٢٩٥ / ٢٨٤ / ١٩٨ / ٨٣ / ٨١ / ٧٨ الزركان

٤٣٥ / ١٣٨ الزركشي

٨٦ / ٧٥ / ٦٨ / ٢٨ الزركلي

٤٣٥ الزنجاني

٨٩ / ٨٦ / ٧٢ / ٦٧ / ٥٣ / ٥٠ / ٤٩ / ٤٨ / ٤٤ / ٢٧ / ٢٠ السبكي

٤٣١ / ٢٦٥ / ٢٥٤ / ٩٣ / ٩١

٣٨٤ / ٣٨٢ السراج الطوسي

٥٠٠ / ٣١٣ / ٢٢١ / ١٨٩ / ٩٠ السعد التفتازاني

٤٠٧ / ١٨٦ / ٧٩ / ٣٦ / ٣٥ / ٣٤ / ٢٤ / ٢٣ / ١٦ السهرودي

٤٧٥ / ١٤٠ السيانكوتي

٢٣ السيد البدوي

٥٦ السيد المرتضي

٧٧ السيد عيسى المفلوف

١٣٣ / ٧٩ / ٤٨ / ٢٨ / ١٨ السيوطي

١٠١ السيوفي

٤٤٠ / ٢٤ / ٢٣ الشاذلي

٤٢٩ / ١١٨ الشاطبي

٢٠٢ / ٥٧ / ٤٧ / ١٨ الشافعي

٣٩٢ الشحام

٥٦ الشريف الرضي

٧١ الشريف المراغي

١٠٣ الشريف المرتضى

٣٢ الشعرائي

٩٢ / ١٠٤ / ١٢٦ / ١٤٧ / ١٥٨ / ١٦٩ / ١٨١ / ٢٠٩ / ٢١٩	الشهرستاني
٢٢٠ / ٢٢٧ / ٢٢٨ / ٢٣١ / ٢٤٠ / ٢٤٣ / ٢٤٨ / ٢٥٠ / ٢٤٩	
٢٥٤ / ٢٥٨ / ٢٦٤ / ٢٦٨ / ٢٧٠ / ٢٧٢ / ٢٧٣ / ٢٧٤ / ٢٨٠	
٢٨٢ / ٢٨٨ / ٣٠١ / ٣١٢ / ٣٢٠ / ٣٢٨ / ٣٢٩ / ٣٣٠ / ٣٣٣	
٣٤٧ / ٣٥٧ / ٣٥٨ / ٣٧١ / ٣٧٢ / ٣٧٣ / ٣٨٦ / ٣٨٩	
٣٩٣ / ٤٠٢ / ٤٠٣ / ٤٠٧ / ٤٠٩ / ٤١٠ / ٤١١ / ٤١٢ / ٤٥٠	
٤٨٣	
١٩٢ / ١٩٣ / ٣١٩	الشيرازي (صدر الدين)
٤٩	الصاحب فخر القضاة
٣٢٨	الصادق
٤٣	الصالح (نجم الدين)
	أيوب
٦٥	الصفدي
٣٢ / ٩٠ / ٣٢٤	الطحاوي (أبو جعفر)
٢٠٢	الطرطوشي
١٥ / ١٨ / ٢١ / ٣٧ / ٨٢ / ٨٣ / ١٩٩ / ٣٠٤ / ٣١٣ / ٣٥٢	الطوسي (أبو الفتح)
٤٠٧ / ٤٥١	
١١	الظاهر بن صلاح الدين
١١ / ١٣ / ١٤ / ٤٠ / ٤١ / ٢١١	العادل
١٧ / ١٨ / ٢٠ / ٢٢ / ٢٣ / ٤٢ / ٤٤ / ٤٧ / ٤٨ / ٤٩ / ٥٠	العز بن عبد السلام
٦٤ / ٢٧٣ / ٤٣١	
٩٨	العزیز بن الظاهر
٣٦ / ٣٧ / ٩٨	العزیز بن صلاح الدين
٢١٤ / ٢٥٠ / ٤٩٧	العلاف
١٥	العماد الأصفهاني
١٥	العماد الكاتب
٤٩	العماد بن السلماس
١٦ / ٢٣ / ٣٣ / ٣٨ / ٥٨ / ٦١ / ٦٣ / ٦٥ / ٦٦ / ٧٤ / ٩٦	الغزالي
٩٨ / ١١٣ / ١١٩ / ١٢٤ / ١٣٥ / ١٣٧ / ١٤٦ / ١٤٩ / ١٥٣	

١٨١ / ١٧٩ / ١٧٠ / ١٦٧ / ١٦٠ / ١٥٨ / ١٥٧ / ١٥٦ / ١٥٥
 ٢٠٢ / ٢٠١ / ١٩٩ / ١٩١ / ١٩٠ / ١٨٩ / ١٨٦ / ١٨٥ / ١٨٤
 ٢٣٨ / ٢٣٦ / ٢٣١ / ٢٢١ / ٢١٣ / ٢٠٨ / ٢٠٧ / ٢٠٦ / ٢٠٤
 ٢٧٥ / ٢٧٣ / ٢٧٢ / ٢٧١ / ٢٦٥ / ٢٦١ / ٢٥٧ / ٢٥٤ / ٢٣٨
 ٣٣١ / ٣٢٩ / ٣١٢ / ٣١١ / ٣٠١ / ٢٩٣ / ٢٨٨ / ٢٨٢ / ٢٧٧
 ٣٦٣ / ٣٦٢ / ٣٥٨ / ٣٥٧ / ٣٥٥ / ٣٤٦ / ٣٤٢ / ٣٤٠ / ٣٣٣
 ٣٩٤ / ٣٩٣ / ٣٩٢ / ٣٨٢ / ٣٧٥ / ٣٧٣ / ٣٧١ / ٣٦٩ / ٣٦٤
 ٤٥٥ / ٤٤٥ / ٤٣٥ / ٤٥٢ / ٤٥١ / ٤٤٣ / ٤٣٧ / ٤٠٧ / ٤٠٢
 ٥٠٨ / ٥٠٦ / ٥٠٥ / ٤٩٣ / ٤٩١ / ٤٨٥ / ٤٨٣ / ٤٨١ / ٤٧٣
 ٢٨٥ / ٢٦٩ / ٢٣٩ / ٢١٧ / ٢١٥ / ٢٠١ / ١٧٧ / ١٧٥
 ٣٨٤ / ٣٨١ / ٣٨٠ / ٣٧٩ / ٣٧٠ / ٣٦٩ / ٣٦٨ / ٣٦٠
 ٤٨١ / ٤٥٧ / ٤٠٩ / ٣٩٤

الفارابي

٥٧ / ٥٦ / ٣١

القاسم بن سلام

١٥

القاضي الفاضل

١٧٠ / ١٥٨ / ١٥٣ / ١٥٢ / ١٤٥ / ١٤٢ / ١١٩ / ٦٣ / ٥١
 ٢٩٣ / ٢٩١ / ٢٨٨ / ٢٨٥ / ٢٥٣ / ٢٢٣ / ٢٢٢ / ٢٠٣ / ١٧٩
 ٣٧٢ / ٣٦٨ / ٣٣٩ / ٣٣٣ / ٣١٩ / ٣١٤ / ٣١٢ / ٣٠٥ / ٢٩٥
 ٤٨٧ / ٤٨٣ / ٤٧١ / ٤٥١ / ٤٣٦ / ٤٠٢ / ٣٩٧ / ٣٩٥ / ٣٨٧
 ٥٠٣ / ٥٠١ / ٤٨٩

القاضي عبد الجبار

٢٤٤

القديس أوغسطين

٤٥١ / ٣٨٢ / ٣٦٩ / ٣٦٢ / ١٥٦ / ٣٥٢ / ٣٠٠

القشيري

٨٢

القطب التحتاني

٦٢ / ٤٥ / ٤٤ / ٣٨ / ٣٦ / ٣٥ / ٣١ / ٣٠ / ٢٨ / ٢٧ / ١٥

القفطي

٨٦ / ٨٢ / ٨١ / ٧٥ / ٦٩

٣٠٣ / ٢٩٨ / ١٢٤

القلاسي (أبو العباس)

٥٠١

القوطي

٤٥ / ٤٤ / ٤٣ / ٤٠ / ٢٩ / ٢٠ / ١٤ / ١٢ / ١١ / ١٠

الكامل

٣٢٥

الكرامي (أبو محمد)

٥٠١ / ٣٩٠ / ٣١٥ / ٢٨٤ / ٢٣٩

الكعبي

١٨٠ / ٢٠٢ / ٣٥٢ / ٤٥١	الكلاباذى
١٧	الكمال بن يونس
١٧٧ / ١٧٨ / ٢٠١ / ٢١٥ / ٣١٠ / ٣٣٣ / ٣٤٩ / ٣٨١ / ٤٢٣	الكندى
٤٥٧	
١٧٩ / ١٨١ / ٢١٦ / ٢٣٦ / ٣٥١ / ٣٦٩ / ٤٣٩ / ٤٧٥	الماتريدى (أبو منصور)
٤٣٩	المثنوى
١٦	المحتسب
٦٤	المراغى
٤٤٠	المرسى أبو العباس
٤٣	المسعود بن الصالح
١١ / ١٢ / ١٤ / ٢٢ / ٤١ / ٤٢ / ٤٣ / ٦١ / ٦٨ / ٨٠ / ٩٧	المعظم عيسى
١٠٥	
٣٢٥	المغيرة بن سعيد
١٥	المفضل الأبهري
١١ / ١٢ / ١٤ / ٤٠ / ٤١ / ٨٠	المنصور بن تقى الدين
٦٤	المهنى
٣٢	الموفق الأشعرى
٤٧٧	الموقف السلفى
٤٨٠	الموقف الأشعرى
١١ / ١٢ / ٣٤ / ٤٣ / ٤٤ / ٤٦	الناصر داود
٢٣٩	النجار
٩٣ / ١٧٩ / ١٧٧ / ٢٣٠ / ٣٣٥ / ٣٦٩ / ٣٩٥ / ٤٠١ / ٤٣٠	النسفى الماتريدى
٤٦٩ / ٤٧٥ / ٤٧٩	
٢٤ / ٦٤ / ١١٨ / ١٢٦ / ١٦٦ / ١٦٨ / ٢٠٩ / ٣٠٠ / ٣٤٢	النشار (د. على سامى)
٣٧٠ / ٣٨٧ / ٤٠٣ / ٤٠٩ / ٤٣٠ / ٤٣١ / ٤٤٠ / ٤٧٢ / ٤٥٠	
٢٣٩ / ٤٠٩ / ٤١٧ / ٤٢٥ / ٤٣٢ / ٤٦٣ / ٥٠١	النظام
٤٥	النعمى
٣٢٧	الهجيمى
٣٤٤ / ٣٩١ / ٤١٧ / ٤٣٢ / ٤٤٨	الهراس

٦٩ / ٧١ / ٧٥ / ٧٨ / ٨٦ / ٩١ / ٩٩	اليافعى
٢٣ / ٢٤	اليونينى (عبد الله)
٣٩٥	أنستاس الكرملى
١٧٧	بارمنيدس
٢٨ / ٣٥ / ٣٦ / ٥٩ / ٦٧ / ٧٢ / ٧٥ / ٧٦ / ٧٧ / ٧٨ / ٨٣	بروكلمان
٨٥ / ٨٦ / ٨٧ / ٩٨ / ١٠٢ / ١٠٣	
٨٤	بويج (الأب)
٤٠٣	بينس
٤٩٢ / ٤٩٣	بيومى مدكور
٥٢	تقى الدين سليمان
١١ / ١٤ / ١٥ / ٣٧	تقى الدين عمر
٧٤ / ٤٥٠	جالينوس
٢٦٧ / ٤٧٧	جبريل (الأمين)
١٥٢	جعفر بن حرب
١١ / ٢٢	جلال الدين (السلطان)
٢٤ / ٤٣٩ / ٤٤٠	جلال الدين الرومى
٤٢	جمال الدين المصرى
١٠	جمال الدين بن خوارزم
٥٣ / ٥٤	جمال الدين محمد
٤٨٩	حاتم الطائى
٧٥ / ٧٨ / ٧٩ / ٩٢	حاجى خليفة
٣٦٨	حفصة
٧٨	حمزة بن يوسف
٤٧٢	حمودة غرابية
٨٩	خليل بن كيكادى
٣٤١	داود الأصبهانى
٥٩	داود باشا
٧٤ / ٣٩٤ / ٤٥٠	ديمقريطس
٤٤٩	ديوناس

٣٥٢	ذو النون
٢٢	ركن الدين
٨٦	روزنتال
٣٤١	زهير الأثرى
٤٢ / ٢٧	سبط ابن الجوزى
٩١ / ٦٨	سر كيس
٥٩	سليمان باشا
١٦	شرف الدين محمد
٥٢	شمس الدين بن عمر
٤٩٠	شيث
٨٦	صالح أحمد العلى
٣٧ / ٣٥ / ٢٤ / ٢٣ / ٢٢ / ١٨ / ١٤ / ١٣ / ١٢ / ١٠ / ٩	صلاح الدين الأيوبى
٤٢	
٤٣	صواب
٢٦٨ / ٢٥٠ / ٢٠٣ / ١٩٩	ضرار بن عمرو
٣٨٤ / ٣٨٣ / ٣٨٢	عبد الرحمن الجامى
٢٣	عبد الرحيم القنائى
٥٦	عبد الزهراء الحسينى
٣١	عبد الغنى المقدسى
٢٨	عبد الله الشرفاوى
٢٨١	عبد الله بن سعيد
٨٨	عبد الله بن وبرى
	زاده
٣٢	عبد الله محيى الدين
٥٦	عبد الواحد الأمدى
٥١٠ / ٥٠٤	عثمان بن عفان
٣٤١	على بن سهم
٢٩٩	على بن مهدى الطبرى
٥٦ / ١٧٩ / ٢٠٢ / ٣٤٩ / ٣٦١ / ٥٠٩ / ٥١٠	على بن أبى طالب

٥١٠ / ٥٠٥	عمر بن الخطاب
٤٨٩	عنتر
٣٦٤ / ١٨٨ / ١٥٣	عيسي (المسيح)
٤٦٧	غيلان
٣٢	فخر الدولة بن المطلب
٦٣	فخر الدين بن الخطيب
٤٤٩	فلوطرخين
٨١	قنوالي (الأب)
٨٦ / ٧٥ / ٦٧	كحالة
٢٤ / ١٥	كوكبوري
٣٥٧ / ٢١٥ / ١٣٦ / ٥٣	مالك
٥٩	محمد أسعد أطلس
٨٢	محمد الأصفهاني
٥٦	محمد الكاظم
٩٣	محمد بازلي الكردي
٨٢	محمد بن سعيد اليمني
١٢٤ / ١٢٣ / ١٢٢ / ١١٩ / ١١٨ / ١١٤ / ١١٣ / ٨٩ / ٢٠	محمد بن عبد الله
١٧٨ / ١٦٧ / ١٦١ / ١٣٩ / ١٣٧ / ١٣٦ / ١٣٥ / ١٢٦	(رسول الله)
٢٧٧ / ٢٧٦ / ٢٧٥ / ٢٧٤ / ٢٦٧ / ٢٦٥ / ٢٦١ / ١٨١	
٤٧١ / ٣٧٣ / ٣٦٩ / ٣٣٩ / ٣٣٨ / ٣٢٦ / ٢٨٣ / ٢٧٨	
٤٨٧ / ٤٨٦ / ٤٨٥ / ٤٨٤ / ٤٨٢ / ٤٨٠ / ٤٧٩ / ٤٧٣	
٥٠٣ / ٥٠٢ / ٤٩٩ / ٤٩٦ / ٤٩٤ / ٤٩٣ / ٤٨٩ / ٤٨٨	
٥١٠ / ٥٠٦ / ٥٠٤	
٩٣	محمد بن محمد داود
٣٩١ / ٢٣٠ / ٢٠٢	محمد عبده
٢٤٨ / ٢٣٧ / ٢٣٢ / ١٨٦ / ١٧٠ / ١٦٠ / ١٥٧ / ٤٦	محمود قاسم
٣٩٤ / ٣٨٨ / ٣٨٦ / ٣٦٩ / ٣٥٩ / ٣٥١ / ٣١١ / ٢٥٧	
٤٤٧ / ٤٣٩ / ٤٢٩	
٣٦٤	مريم بنت عمران

٤٤	مسعود بن محمود
٥٨	مسلم
٤٨٩	مسيلمة
٨٨	مصطفى الحمامي
٤٧٥ / ٤٧٢	مصطفى صبري
٤٦٧	معيد
٤٥١ / ٤٣١	معر
٣٢٧ / ٣٢٦	مقاتل بن سليمان
٨٥	مهر شاه
٤٣٣ / ٣٦٤ / ٢٧٩	موسى (النبي)
٢٤	موسى بن ميمون
٣١	موفق الدين ابن قدامة
١٣	نظام الملك
٢٨٢	نوح (النبي)
١٣ / ١٠	نور الدين زنكي
٤٣٩	نيوتن
٣٤١	هشام الجواليقي
٤٥٠ / ٣٥٢ / ٣٤١ / ٣٢٨ / ٢٥٨ / ٢٥٥ / ٢٥٠	هشام بن الحكم
٤٣٤ / ٢٣٧ / ٢١٤	واصل بن عطاء
٨٤	ولهم كوتش
٢٩	ياقوت
١٧٧	يحيى النحوي
٣٨٦	يحيى هويدى
٤٥	يعقوب (النبي)
١٠	يعقوب بن يوسف
٢٤٤	يوحنا النحوي

فهرس الطوائف والفرق

الصفحات	الطائفة - الفرقة
١٩	أشاعرة المغرب
٤٣٩ / ٤٣٢	أصحاب الوحدة
٥٠١ / ٤٩٤ / ٤٣٥	
٤١٧ / ٣٩٧ / ٣٧٩ / ٣٧٦ / ٢٨٤ / ٢٦٩ / ٢٦٧ / ٢٤٩ / ٢٣٩ / ٢١١ / ١١١	أهل الحق (الأشاعرة)
٥٠١ / ٤٩٤ / ٤٣٥	
٣٢٦ / ٢٩٨ / ٢٨٠ / ٢٦٨ / ٢٦٥ / ٢٤٧ / ٢٣٦ / ١٢٣ / ٢٢ / ١٨ / ١٧ / ١٣	أهل السنة
٥٠٦ / ٥٠٤ / ٥٠٣ / ٥٠٠ / ٤٩٦ / ٤٥٠ / ٤٠١ / ٣٦٧ / ٣٦٢ / ٣٥٦ / ٣٥٢	
٥١١ / ٥١٠ / ٥٠٩ / ٥٠٨ / ٥٠٧	
٥٠١	الأزارقة
١٨ / ٢٠ / ٢٤ / ٣٤ / ٣٥ / ٣٨ / ٣٩ / ٤٠ / ٤١ / ٤٥ / ٤٨ / ٥٨ / ٦٣ / ٦٥	الأشاعرة
٨٥ / ٨٩ / ٩٢ / ٩٧ / ٩٩ / ١٠٧ / ١٠٩ / ١١١ / ١١٣ / ١١٤ / ١١٦ / ١١٨	
١١٩ / ١٢٣ / ١٢٤ / ١٢٧ / ١٢٨ / ١٢٩ / ١٣١ / ١٣٦ / ١٣٧ / ١٣٩ / ١٤٠	
١٤٣ / ١٤٤ / ١٤٥ / ١٤٦ / ١٤٧ / ١٤٨ / ١٤٩ / ١٥٠ / ١٥١ / ١٥٢ / ١٥٣	
١٥٨ / ١٦٠ / ١٦٥ / ١٦٨ / ١٦٩ / ١٧٥ / ١٧٩ / ١٩٧ / ١٩٨ / ٢٠١ / ٢٠٤	
٢٠٥ / ٢٠٧ / ٢٠٩ / ٢١٠ / ٢١١ / ٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٤ / ٢١٦ / ٢٢٠ / ٢٢١	
٢٢٤ / ٢٢٥ / ٢٢٦ / ٢٣١ / ٢٣٦ / ٢٣٧ / ٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤١ / ٢٤٤ / ٢٤٧	
٢٤٨ / ٢٥٢ / ٢٥٤ / ٢٥٦ / ٢٥٨ / ٢٦١ / ٢٦٤ / ٢٦٦ / ٢٦٧ / ٢٦٨ / ٢٧٢	
٢٧٧ / ٢٨٠ / ٢٨٥ / ٢٨٦ / ٢٨٧ / ٢٨٨ / ٢٩٠ / ٢٩٤ / ٢٩٥ / ٢٩٦ / ٢٩٧	
٢٩٨ / ٢٩٩ / ٣٠٠ / ٣٠١ / ٣٠٣ / ٣٠٧ / ٣٠٨ / ٣١٢ / ٣١٥ / ٣٢٠ / ٣٢٧	
٣٢٩ / ٣٣٠ / ٣٣١ / ٣٣٥ / ٣٣٦ / ٣٤٢ / ٣٤٣ / ٣٤٦ / ٣٥١ / ٣٤٥ / ٣٥٠	
٣٥٧ / ٣٥٩ / ٣٦٣ / ٣٦٧ / ٣٦٨ / ٣٧٠ / ٣٧١ / ٣٧٢ / ٣٧٣ / ٣٥٦ / ٣٧٤	
٣٧٥ / ٣٧٦ / ٣٧٩ / ٣٨٥ / ٣٨٩ / ٣٩٦ / ٣٩٧ / ٤٠١ / ٤٠٢ / ٤٠٣ / ٤٠٤	
٤١٣ / ٤١٦ / ٤١٨ / ٤٢٢ / ٤٢٧ / ٤٢٨ / ٤٢٩ / ٤٣٠ / ٤٣١ / ٤٣٢ / ٤٣٣	
٤٣٥ / ٤٣٦ / ٤٣٨ / ٤٤١ / ٤٤٢ / ٤٤٣ / ٤٥٥ / ٤٥٨ / ٤٦٣ / ٤٦٥ / ٤٦٨	
٤٧٢ / ٤٧٤ / ٤٧٦ / ٤٨٣ / ٤٨٧ / ٤٨٨ / ٤٨٩ / ٤٩٦ / ٤٩٩ / ٥٠٠ / ٥٠٣	
٥٠٩ / ٥٠٨ / ٥٠٥	
٣٩٥	الإحكاميين
٣٦١ / ٣٢٨	الإسحاقية
٣٢٩	الإسكافية
٥٠١ / ٥٠٠ / ٤٩٧ / ٣٨٥ / ٣٨٢ / ٢٤٩ / ٢١٧ / ٢٠٥ / ١١٩ / ٢٥ / ٢٢ / ٢١	الإسماعيلية

٣٨٥ / ٢٤	الإشراقيين
٥٠١ / ٥٠٠ / ٤٥٣ / ٤٣٤ / ٣٨٢ / ٣٥٢ / ٢١٨ / ٢١٧	الإمامية
٤٤٠ / ٤٣٢	الاتحادية
٣٠١ / ٢٩٧ / ٢٤٩ / ٢١٧ / ١١٩ / ١١٧	الباطنية
٤٩٠ / ٤٣٦ / ١٧٠	البراهمة
٣٦٢	البركوكية
٣٧٠	البكرية
٤٠٧	البهاشمة
٣٦٢	البهيسانية
٤٩٤	التناسخية
٣٩٦ / ٣٩٢	الثنوية
٥٠٣ / ٤٢٢	الجبالية
٤٧٨ / ٤٧٦ / ٤٧٥ / ٤٧٢ / ٤٧١ / ٢١	الجبورية
٣٦٢ / ٣٢٩ / ٣٢٨	الجناحية
٤٦١ / ٣٦٩ / ٣٦٧ / ٣٣٦ / ٢٩٨ / ٢٥٨ / ٢٥٠ / ٢٢٥	الجهمية
٢٢	الحائطية
٢٨٠ / ٢٧٩ / ٢٧٠ / ٢٦٨ / ١٧٨ / ١٤٢ / ١٢٣ / ١٢٢ / ١١٨ / ٢١ / ١٨	الحشوية
٤٨٤ / ٣٧٠ / ٣٥٥ / ٣٥٣ / ٣٣٥ / ٣٢٧ / ٣٢٦ / ٣٢٥ / ٢٩٩ / ٢٩٧	
٣٢٩	الحطائية
٣٦٢	الحلاجية
٣٦٢	الحلمانية
٢٧٠ / ٢٤٧ / ٩٧ / ٦١ / ٥٦ / ٤٩ / ٤٥ / ٤٤ / ٣٢ / ٣١ / ٣٠ / ٢٩ / ٢٣ / ٢٠	الحنابلة
٤٧٦ / ٤٣٥ / ٣٦٧ / ٣٥٥ / ٣٥٤ / ٣٢٦ / ٣٢٥ / ٣٠١ / ٣٠٠ / ٢٩٩ / ٢٧١	
٤٩٧	
٤٣٥ / ٢٣	الحنفية
٣٦٢ / ٣٢٩ / ٣٢٨ / ٢٢	الخطابية
١٦٠ / ١٥٩ / ١٥٧	الخلف
٥٠٩ / ٥٠٨ / ٥٠١ / ٤٩٦ / ٤٣٤ / ٣٦٧ / ٢٧١ / ١١٥ / ٢٠	الخوارج
١٣٥ / ١٦	الدهرية
٣٢٩	الذمية
٥١٠ / ٤٦٧ / ١٦	الرافضة

٣٦٢ / ٣٢٩	الرزامية
٤٥٠ / ٣٨٠ / ٣٦١ / ٧٤	الرواقية
٤٩٧	الزراذشتية
٣٢٨	الزراقية
٥٠٤ / ٥٠٣ / ٥٠١ / ٥٠٠ / ٤٣٥ / ٣٨٢ / ٢٤٧ / ٢١٧ / ١٧٩	الزيدية
٣٦٧ / ٣٢٧	السالمية
٣٦١ / ٣٢٨ / ٢٢	السبلية
١٣٦ / ١٣٤ / ١٣٣ / ١٢٥ / ١٢٤ / ١١٨ / ١١٧ / ١١٥ / ١١٤ / ٢٤ / ٢٠ / ١٦	السلف - السلفية
٢٧١ / ٢٧٠ / ٢٦٩ / ٢٦٨ / ٢٦٧ / ٢١٥ / ٢١٤ / ٢١٢ / ٢٢٠ / ١٩٤ / ١٣٨	
٣٥٢ / ٣٤٢ / ٣٤٠ / ٣٣٨ / ٣٣٦ / ٣٢٧ / ٣٢٦ / ٣٢٤ / ٣٠٠ / ٢٩٧ / ٢٨٠	
٤٤٢ / ٤٣٦ / ٤٠٩ / ٣٨٥ / ٣٨٢ / ٣٨٠ / ٣٧٩ / ٣٧٠ / ٣٥٧ / ٣٥٥ / ٣٥٤	
٥١٠ / ٤٩٩ / ٤٩٦ / ٤٨٥ / ٤٧٦	
٥٠٣	السليمانية
٤٦٠	السوفسطائية
٤٣٥ / ٢٧١ / ٩٧ / ٦١ / ٥٧ / ٤١ / ٣٥ / ٣٢ / ٣١ / ٣٠ / ٢٧ / ٢٣ / ٢٢ / ١٥	الشافعية
٣٢٩ / ٣٢٨ / ٣٢٥ / ٢٣٩ / ٢٣٦ / ٢١٨ / ٢١٧ / ١٣٤ / ٢٢ / ٢١ / ٢٠ / ١٦	الشيعة
٥٠٩ / ٥٠٨ / ٥٠٤ / ٥٠٣ / ٥٠١ / ٤٥٢ / ٤٥١ / ٣٨٥ / ٣٨٢ / ٣٦٧	
٣٦١	الشيعة القدامى
٣٦١	الشيعة المعتدلون
٤٩٧ / ٤٩٠ / ٣٩٦ / ٣٩٥ / ٦١ / ٢٧٠ / ٨٧ / ٢٩	الصابئة
٢٩٨ / ٢٢٣ / ١٤٧	الصفالية
٥٠١	الصفورية
٢٠٢ / ١٨١ / ١٨٠ / ١٣٦ / ١١٩ / ١١٧ / ٤٦ / ٢٥ / ٢٤ / ٢٣ / ١٣ / ١٢	الصوفية
٣٨٣ / ٣٨٢ / ٣٧٩ / ٣٧٠ / ٣٦٩ / ٣٦٢ / ٣٥٢ / ٣٢٠ / ٣٠٨ / ٣٠٠ / ٢٤٧	
٤٧٦ / ٤٥١ / ٤٤٠ / ٤٣٩ / ٤٣٦ / ٤٠٧ / ٣٨٥	
٤٥٠ / ٢٥٢	الطبيعيون
٤٩٧ / ٤٠٩ / ٣٠١ / ٢٣٤ / ٤٦	الظاهرية
٣٦٢	العذافرة
٤٩٠ / ٤٨٨	العیسوية
٣٢٩ / ٢٢	الغرابية
١٤	الفاطمي
١٦٩ / ١٦٦ / ١٥٦ / ١٤٠ / ١٣٦ / ١٣٠ / ١١١ / ١٠٩ / ٧٩ / ٧٦ / ٢١ / ١٦	الفلاسفة

٢١٩ / ٢١٧ / ٢١٤ / ٢١١ / ٢٠٥ / ١٩٩ / ١٩٥ / ١٩٣ / ١٨٦ / ١٨٣ / ١٨٢
 ٢٤٩ / ٢٤٧ / ٢٤٥ / ٢٤٤ / ٢٤٣ / ٢٣٩ / ٢٣٧ / ٢٣٦ / ٢٣١ / ٢٢٥ / ٢٢١
 ٢٠٧ / ٢٠٥ / ٢٩٧ / ٢٩٣ / ٢٧٧ / ٢٧٦ / ٢٧٥ / ٢٧٠ / ٢٦٩ / ٢٥٤ / ٢٥٣
 ٢٦٤ / ٢٦٣ / ٢٦١ / ٢٤٣ / ٢٣٣ / ٢٢٠ / ٢١٨ / ٢١٤ / ٢١٣ / ٢١٠ / ٢٠٨
 ٢٩١ / ٢٨٩ / ٢٨٨ / ٢٨٤ / ٢٨٢ / ٢٨١ / ٢٨٠ / ٢٧٩ / ٢٧٠ / ٢٦٩ / ٢٦٧
 ٤٢١ / ٤١٨ / ٤١٢ / ٤٠٩ / ٤٠٨ / ٤٠٧ / ٤٠٥ / ٤٠٠ / ٣٩٥ / ٣٩٣ / ٣٩٢
 ٤٥٣ / ٤٥٢ / ٤٥١ / ٤٥٠ / ٤٤٩ / ٤٤٨ / ٤٣٩ / ٤٣٦ / ٤٢٦ / ٤٢٥ / ٤٢٢
 ٤٨١ / ٤٨٠ / ٤٧٩ / ٤٦٥ / ٤٦٤ / ٤٦٣ / ٤٦٢ / ٤٦٠ / ٤٥٨ / ٤٥٧ / ٤٥٦
 ٤٩٧ / ٤٩٢

٣٠٨ / ٢٦٩ / ٢٥٧ / ٢٥٠ / ٢٣٩ / ١٧٧ / ١٧٦ / ١٧٠ / ١٣٨ / ١١٧ / ٧٤
 ٤٩١ / ٤٨١ / ٤٥٨ / ٤٥١ / ٤٤٧ / ٤٤٢ / ٤٣٤ / ٣٨١ / ٣٨٠ / ٣٥٢ / ٣٣٣
 ٤٩٤

الفلاسفة الإسلاميون

٢٩٤ / ٢٩٢

الفلاسفة الطبيعيون

٢٩١ / ٢٩٠

الفلاسفة المتكلمون

٢٩٨ / ٢٩٣

الفيضيون

٥٠١ / ٢٠ / ١٦

القدرية

٢٢٣ / ٢٩٧ / ٢٨٥ / ٢٧٦ / ٢٤٠ / ٢٢٧ / ٢٢٦ / ٢٢٢ / ١٨١ / ٢١ / ٢٠
 ٤٣٤ / ٢٦٢ / ٣٥٨ / ٣٥٣ / ٢٤٦ / ٢٤٤ / ٢٤٣ / ٢٤٢ / ٢٣٣ / ٢٢٨ / ٢٢٧
 ٤٩٦

الكرامية

٣٠٠ / ٢٢٢

الكلابية

٢٦٨ / ٢٥٦ / ٢٤٧ / ٢٢٢ / ٢١٦ / ٢١١ / ٢٠٧ / ١٧٩ / ١٦٠ / ١١٨ / ١١٧
 ٣٦٨ * / ٣٥٩ / ٣٥١ / ٣٤٣ / ٣٣٦ / ٣٢٩ / ٣١٢ / ٣٠٧ / ٢٩٤ / ٢٨٦ / ٢٨٥
 ٤٩٧ / ٤٧٦ / ٤٧٥ / ٤٤٣ / ٤٤٢ / ٤٣٤ / ٤٠٠ / ٣٨٥ / ٣٧٩

الماتريدية

٢٧١

المالكية

٤٣١ / ١١٧ / ٨

المتنشفة

١٤١ / ١٤٠ / ١٣٨ / ١٣٦ / ١٣٥ / ١٣٢ / ١١٧ / ٩٢ / ٦٣ / ٦٢ / ٢٣ / ١٧
 ١٦٠ / ١٥٨ / ١٥٧ / ١٥٥ / ١٥٣ / ١٥١ / ١٤٥ / ١٤٨ / ١٤٦ / ١٤٣ / ١٤٢
 ١٨٥ / ١٨٣ / ١٨٢ / ١٨١ / ١٨٠ / ١٧٩ / ١٧٨ / ١٧٧ / ١٦٨ / ١٦٦ / ١٦١
 ٢٠٥ / ٢٠٤ / ٢٠٣ / ١٩٩ / ١٩٨ / ١٩٥ / ١٩٠ / ١٨٩ / ١٨٨ / ١٨٧ / ١٨٦
 ٢٣٧ / ٢٣٥ / ٢٣٣ / ٢٣١ / ٢٣٠ / ٢٢٩ / ٢٢٨ / ٢٢٣ / ٢٢٢ / ٢١٣ / ٢٠٦
 ٢٧٧ / ٢٧٤ / ٢٧١ / ٢٦٥ / ٢٥٦ / ٢٥٤ / ٢٥٢ / ٢٥٠ / ٢٤٩ / ٢٤٨ / ٢٤٤
 ٣١١ / ٣١٠ / ٣٠٨ / ٣٠٥ / ٣٠١ / ٢٩٨ / ٢٩٧ / ٢٩٤ / ٢٨٩ / ٢٨٦ / ٢٨٤

المتكلمون

٣٥٤ / ٣٤٦ / ٣٤٥ / ٣٤٢ / ٣٤١ / ٣٣٣ / ٣٣٠ / ٣٢٠ / ٣١٦ / ٣١٤ / ٣١٣
 ٣٨٧ / ٣٨٦ / ٣٨٥ / ٣٨٤ / ٣٨٣ / ٣٧٩ / ٣٧٧ / ٣٧٦ / ٣٧٠ / ٣٦٣ / ٣٦٢
 ٤١٩ / ٤١٧ / ٤١٦ / ٤١٣ / ٤١١ / ٤٠٩ / ٤٠٧ / ٤٠٣ / ٣٩٥ / ٣٩٣ / ٣٩٠
 ٤٥٠ / ٤٤٩ / ٤٤٨ / ٤٤٧ / ٤٤٠ / ٤٣٩ / ٤٣٨ / ٤٣٧ / ٤٣٣ / ٤٢٥ / ٤٢١
 ٤٨٨ / ٤٨٤ / ٤٨٣ / ٤٧٦ / ٤٧٢ / ٤٦٨ / ٤٥٦ / ٤٥١

٢٩٩

المثبتة

٣٦٥ / ٣٥٢ / ٣٤٩ / ٣٣٤ / ٣٣٣ / ٣٢٩ / ٣٢٨ / ٣٢٧ / ٢٩٩ / ٢٩٧ / ١٤٥
 ٤٦١ / ٣٦١

المجسمة

المجوس

المحدثون

٣٢٦ / ٣٠٠ / ٢٩٨ / ٢٨٠ / ٢٦٩ / ٢٤٧ / ٢٣٩ / ١٨١ / ١٣٣ / ٥٨ / ٤٥
 ٤٧٠ / ٤٦٧ / ٤٣٦ / ٣٥٦ / ٣٥٥ / ٣٣٩ / ٣٢٧

٣٩٧

المرتونية

٤٩٦

المرجئة

٣٢٥

المسامرة

٤٦٨

المستشرقون

٣٨٠

المشانيون

المشبهة

المعتزلة

٣٧٠ / ٣٦٧ / ٣٦٢ / ٣٥٥ / ٣٤٩ / ٣٢٨ / ٣٢٧ / ٢٩٧ / ٢٦٨ / ٢١٥ / ٢١
 ١١٧ / ١١٦ / ١١٣ / ١١١ / ١٠٩ / ١٠٧ / ٦٣ / ٢٣ / ٢١ / ١٩ / ١٨ / ١٦
 ١٤٦ / ١٤٥ / ١٤٤ / ١٤٣ / ١٤٢ / ١٣١ / ١٣٠ / ١٢٨ / ١٢٧ / ١٢٥ / ١٢٤
 ١٧٩ / ١٧٧ / ١٧٥ / ١٦٩ / ١٦٨ / ١٦٠ / ١٥٦ / ١٥٢ / ١٥١ / ١٥٠ / ١٤٧
 ٢١١ / ٢١٠ / ٢٠٩ / ٢٠٨ / ٢٠٧ / ٢٠٦ / ٢٠٥ / ٢٠٤ / ٢٠٣ / ٢٠١ / ١٩٩
 ٢٣١ / ٢٢٨ / ٢٢٧ / ٢٢٥ / ٢٢٤ / ٢٢٣ / ٢٢٢ / ٢٢٠ / ٢١٨ / ٢١٥ / ٢١٤
 ٢٥٠ / ٢٤٨ / ٢٤٧ / ٢٤٦ / ٢٤٥ / ٢٤٣ / ٢٤٠ / ٢٣٩ / ٢٣٨ / ٢٣٧ / ٢٣٦
 ٢٧٧ / ٢٧٦ / ٢٧٥ / ٢٧٢ / ٢٧١ / ٢٧٠ / ٢٦٥ / ٢٦٤ / ٢٦٣ / ٢٥٦ / ٢٥٥
 ٢٩٣ / ٢٩٢ / ٢٩١ / ٢٩٠ / ٢٨٩ / ٢٨٨ / ٢٨٦ / ٢٨٥ / ٢٨٤ / ٢٨٢ / ٢٨٠
 ٣١٣ / ٣١٢ / ٣١٠ / ٣٠٧ / ٣٠٤ / ٣٠١ / ٣٠٠ / ٢٩٩ / ٢٩٨ / ٢٩٧ / ٢٩٤
 ٣٤٢ / ٣٣٧ / ٣٣٦ / ٣٣١ / ٣٣٠ / ٣٢٩ / ٣٢٨ / ٣٢١ / ٣١٩ / ٣١٥ / ٣١٤
 ٣٧٣ / ٣٧٢ / ٣٧٠ / ٣٦٩ / ٣٦٨ / ٣٦٧ / ٣٥٩ / ٣٥٧ / ٣٥٦ / ٣٥١ / ٣٤٣
 ٣٩٠ / ٣٨٩ / ٣٨٨ / ٣٨٧ / ٣٨٦ / ٣٨٥ / ٣٨٢ / ٣٧٩ / ٣٧٦ / ٣٧٥ / ٣٧٤
 ٤٣٩ / ٤٣٨ / ٤٣٦ / ٤٣٥ / ٤٣٤ / ٤٣٣ / ٤٣٠ / ٤١٦ / ٤٠٧ / ٤٠٣ / ٣٩٢
 ٤٦٩ / ٤٦٨ / ٤٦٥ / ٤٦٣ / ٤٦١ / ٤٦٠ / ٤٥١ / ٤٤٣ / ٤٤٢ / ٤٤١ / ٤٤٠
 ٤٨٧ / ٤٨٠ / ٤٧٩ / ٤٧٨ / ٤٧٦ / ٤٧٥ / ٤٧٤ / ٤٧٣ / ٤٧٢ / ٤٧١ / ٤٧٠

٥٠٨ / ٥٠٦ / ٥٠٣ / ٥٠١ / ٤٩٧ / ٤٩٦ / ٤٩٥ / ٤٨٨	
٢٢ / ١٠ / ٩	المفول
٣٦٢	المقنعية
٢٢٨ / ١٦٦ / ١٥٨ / ١٥٦ / ١٥٥	المناطق
٣٩٥ / ٣٩٢	المنجمون
٢٢	المنصورية
١٨	الموحدون
٣٦٧ / ٢١	النجارية
٤٨٨ / ٣٩١ / ٣٨٠ / ٣٦٤ / ٣٦١ / ٣٣٣ / ٣٢٣ / ١٥٣ / ٣٤ / ٢٥	النصارى - المسيحية
٣٦٢ / ٣٦١ / ٣٢٩ / ٣٢٨	النصيرية
٣٤٨ / ٣٢٨	الهاشمية
٢٩	الهلينية
٤٩٧ / ٤٩٠ / ٣٨٨ / ٣٩١ / ٣٨٠ / ٣٦١ / ٣٥١ / ٣٤١ / ٣٢٥ / ٣٢٣ / ٢٥	اليهود
٤٤٠	صوفية السنة
٣٦٢ / ٣٦١	غلاة الشيعة
٣٦٩	متصوف الفلاسفة
٢٩٩	مجسمة الكرامية
٢٨٤	معتزلة بغداد

فهرس الأماكن والبلدان

الصفحات	البلد - المكان
١٢ / ٢٩ / ٣٠ / ٤٣ / ٤٤ / ٤٥ / ٥٤ / ٥٥ / ٥٦ / ٥٧	آمد
٨٦ / ٨٧	آيا صوفيا
٧٤ / ٣٧٩	أثينة
١٥	أربل
٢٢	ألموت
٤٣٩	أوروبا
٧٨	إبروين
٧٨	إنجلترا
٧٤ / ٨١ / ٨٤ / ٩٣ / ٩٨ / ١٠٢	استانبول
٩	الأندلس
٢٩	الإسكندرية
١٤٥ / ٥٩	البصرة
٤٠٦	الثغر
٨٥ / ٩٨ / ١٠٢	الحجاز
٨٧	السليمانية
٩ / ١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ / ١٤ / ١٦ / ٢٠ / ٢٢ / ٢٣	الشام
٣٢ / ٣٥ / ٣٦ / ٣٩ / ٤٠ / ٤٨ / ٦٤ / ٧٣ / ٧٧ / ٨٦	
١٢ / ١٣ / ٢٠ / ٢٨ / ٣٥ / ٥٦ / ٣٩٥	العراق
١١ / ١٢ / ١٧ / ١٥ / ١٦ / ١٨ / ٣٦ / ٤٠ / ٤٦ / ٤٩	القاهرة
٦٢ / ٧٧ / ٨٠ / ٨٦ / ٨٧ / ٩٢ / ٩٣ / ٩٨	
٣٥	الكرخ
٤٣	الكرك
٨٠ / ٨١	المتحف البريطاني
١٨ / ١٩ / ٤٠ / ٤٨١	المغرب
١٠	المغرب العربي
٣	الموصل
٥٤ / ٤٣٩	الهند

٧٨ / ٧٧ / ٥٤	الولايات المتحدة
	الأمريكية
٣٨٠	اليونان
٧٢	باريس
٨٦ / ٨١	برلين
٣٥ / ٣٢ / ٣١ / ٣٠ / ٢٣ / ٢١ / ٢٠ / ١٢ / ١١ / ٩	بغداد
٣٥٢ / ٣٩٩ / ١٠١ / ٨٥ / ٧٣ / ٧١ / ٦٥ / ٥٩ / ٥٧ / ٥٦	
٤٤ / ٤٣ / ١٢ / ١١ / ٩	بيت المقدس
٣٣٦ / ٨٧ / ٧٧ / ٧٦	بيروت
٩٩ / ٩١ / ٩٠ / ٩٠ / ٩١ / ٨٥ / ٨١ / ٧٠ / ٦٢	تركيا
٢٦	تغلب
٣٨	جامع الظافر
٤٢	جامع بني أمية
٣٦	جامع عمرو بن العاص
٧٨ / ٥٦	جامعة برنستون
٢٩	حران
٣٥ / ٩	حطين
٩٨ / ٣٦ / ٣٥ / ٣٢ / ٢٤ / ١٦ / ١٥ / ١١	حلب
٨٣ / ٨٠ / ٥٤ / ٥٢ / ٤١ / ٤٠ / ٣٦ / ١٤ / ١٢ / ١١	حماة
١٠٥ / ١٠٤ / ١٠١	
٨٠	حيدر آباد
٣٢٧	خراسان
١٦	خوارزم
٣٦ / ٣٢ / ٣١ / ٢٢ / ٢٠ / ١٥ / ١٤ / ١٢ / ١١ / ١٠	دمشق
٤٩ / ٤٧ / ٤٦ / ٤٥ / ٤٤ / ٤٣ / ٤٢ / ٤١ / ٤٠ / ٣٨	
٧٧ / ٧٥ / ٧٠ / ٦٨ / ٦٤ / ٦١ / ٥٧ / ٥٤ / ٥٢ / ٥٠	
٣٢٦ / ٣٠٠ / ١٠٥ / ١٠٤ / ٩٨ / ٩٧ / ٨٤ / ٧٩	
٤٩ / ١١	دمياط
٢٩	ديار بكر
٣٧٩	ساميا

٥٠٥ / ٥٠٢	سقيفة بني ساعدة
٥٦	سوريا
١٠	طليطلة
٨٢	طهران
٤٦	عكا
١١	غزنة
٩٣	فارس
٥٢ / ٤٧	قاسيون
٥٠٩ / ٥٠٨	قريش
٨٧	كوبريللي
٨٠	لندن
٩ / ١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ / ١٦ / ١٧ / ١٨ / ٢٠ / ٢١	مصر
٢٢ / ٢٣ / ٢٤ / ٢٥ / ٢٦ / ٢٨ / ٢٩ / ٤٠ / ٤٨	
٦٤ / ٦٨ / ٦٩ / ٧٠ / ٨٠ / ٨٢ / ٨٦ / ٩٧ / ١٠٤ / ١٢٨	
٣٢٧	
٣٥٢ / ١١٥	مكة
١٠٢ / ٩٦ / ٨٥	مكتبة المدينة
٧٨	مكتبة برلين
٧٨	مكتبة مانشيستر
٣٧٩ / ٧٤	ملطية
٢٩	نصيبين
١١	نهر جيحون
٢٩	نهر دجلة

فهرس المكتبات

الصفحات	اسم المكتبة	رقم
٩٥ / ٨٧ / ٨٦ / ٨٣ / ٧٨	آيا صوفيا	١
٩٣	الأزهر	٢
٧٢ / ٧٠	الأهلية - باريس	٣
٥٩	الأوقاف العامة - بغداد	٤
٧٧ / ٧٥ / ٥٦	البارودي - بيروت	٥
٩٣	البازلي	٦
١٠١ / ٩٣ / ٦٧ / ٤٩	التيمورية - القاهرة	٧
٧٠ / ٦٨	الجامع الأحمدى	٨
٨٧ / ٦٨	السليمانية	٩
٨٤	الشيخ محمد قناوى	١٠
٨٨ / ٨٧ / ٨٦ / ٨٢ / ٨١ / ٨٠	المتحف البريطانى	١١
١٠٢ / ٩٨ / ٨٥	المدينة - الحجاز	١٢
٧٨	الهندي للمخطوطات العربية	١٣
٨٦ / ٨١ / ٧٨	برلين	١٤
٨٧	بيروت	١٥
٨٢ / ٨١	جار الله	١٦
٧٨	جامعة ابروين	١٧
١٠٣ / ٧٨ / ٧٧ / ٦٢	جامعة برنستون	١٨
٩٢ / ٨٨ / ٨٠	دار العلوم	١٩
٨٤ / ٧٠ / ٦٨	دار الكتب الظاهرية	٢٠
٨١ / ٧٤ / ٧٣	دار الكتب العمومية - استنبول	٢١
١٠١ / ٩٥ / ٩٠ / ٨٨ / ٨٧ / ٧٠	دار الكتب المصرية	٢٢
٩١	سراي - تركيا	٢٣
١٠١	شهيد على - تركيا	٢٤
٨٤	على أميري	٢٥
١٠٠ / ٩٩ / ٨٨ / ٨٧	فيض الله	٢٦

٢٧	كوبريللي	٩٣ / ٨٧
٢٨	لاله لي - تركيا	٩٣ / ٩٠
٢٩	مانشستر - إنجلترا	٨٧
٣٠	متحف الفن الإسلامي	١٨
٣١	معهد المخطوطات - القاهرة	٩٩ / ٩١ / ٨٠
٣٢	مهر شاه سلطان	٨٥
٣٣	نور عثمانية	٩٣
٣٤	يحيى أفندي	٩٣
٣٥	يكي جامع - تركيا	٦٨

فهرس المدارس

رقم	اسم المدرسة	الصفحات
١	التقوية	١٨
٢	الدوائية	٦٣
٣	الصوية	١٨٤
٤	العادليات	١٨
٥	العادلةية	٥٨ / ٥٤ / ٤٦ / ١٨
٦	العززية	٦٥ / ٥٤ / ٥١ / ٥٠ / ٤٩ / ٤٨٨ / ٤٦ / ٤٥
٧	المأمونية	٣٤
٨	المستنصرية الكبرى	٣٧
٩	المشائية	٢٢
١٠	المنصورية السلطانية	٤٥
١١	الناصرية	٤١ / ٢٢
١٢	دار الذهب	٤٣ / ٣٦
١٣	منازل العز	٤١ / ٤٠ / ١٨

فهرس المصادر

اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة والتحقيق
<u>الهمزة المفتوحة</u>		
أبو الهذيل العلاف	الغرابي (الشيخ على)	دار الفكر الحديث - ١٩٥٤م
أحسن التقاسيم	المقدسي	ط بريل بلندن - ١٩٦٧م - نشر
أساس التقديس	(أبو عبد الله محمد بن أحمد)	المستشرق جب
أصول الدين	الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)	ط كردستان العلمية - القاهرة -
	البخداي	مطبعة الدولة - إستانبول - ١٩٢٨م
	(أبو منصور عبد القاهر بن طاهر)	
أصول التشريع الاسلامي	على حسب الله	دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٥
أعل ما يطلب	ابن يومرت	الجزائر - ١٩١٣م نشرة جولد
	(محمد بن تومرت المهدي)	تسبير
أعلام الفلسفة العربية	اليازجي (جمال اليازجي وآخر)	ط بيروت ١٩٥٧م
أفلوطين عند العرب	بدوي (أد / عبد الرحمن)	ط مكتبة النهضة المصرية -
		١٩٥٥م
أنوار التنزيل وأسرار التأويل	البيضاوي	ط الميمنة - القاهرة - ١٩٠٢م
المشهور	(ناصر الدين عبد الله بن عمر)	
<u>الهمزة المكسورة</u>		
إتمام الدراية لقراء النقاية	السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)	ط النقدم - مصر
(بهامش مفتاح العلوم)		
إحياء علوم الدين	الغزالي (حجة الإسلام)	ط الأزهرية - مصر - ١٣١٦هـ
إخبار العلماء بأخبار الحكماء	القفطي	ط الخانجي - ١٣٢٦هـ - مخطوطة
	(جمال الدين على بن يوسف)	دار الكتب ٥٧ خ .
إعجاز القرآن	الباقلائي (أبو بكر محمد الطيب)	ط مصطفى البابي الحلبي - ١٩٥١م
		القاهرة
إعجاز القرآن فسي مذهب	الفكيكي (توفيق)	المجلس الأعلى للشنون الإسلامية -
الشيعة الإمامية		جماعة التقريب ١٩٦٦م
إلجام العوام	الغزالي (حجة الإسلام)	النسخة المنيرية - القاهرة -
		مجموعة القصور العوالي
إيثار الحق على الخلق	ابن الوزير	ط الأدب والمؤيد - ١٣١٨هـ
	(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم)	
إيضاح الدلالة في عموم	ابن تيمية (أحمد عبد الحلیم)	مصر - ١٣٦٩هـ تعليق الشيخ
الرسالة		/ منير الدمشقي

الألف

ط ١ مكتبة طنطا	الهراس (الشيخ محمد خليل)	ابن تيمية السلفي
ط الأنجلو المصرية - ١٩٦٤م	قاسم (أد / محمود قاسم)	ابن رشد وفلسفته الدينية
دار الطباعة والنشر الإسلامية - ١٩٥٣م	غرابية (د حمودة)	ابن سينا بين الدين والفلسفة
ط الإمام - نشر زكريا على يوسف	ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر)	اجتماع الجيوش الإسلامية
النهضة المصرية - ١٩٣٨م / د	الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)	اعتقادات فرق المسلمين
على النشار		والمشركين

المحلى بال

ليزبرج - ١٩٢٣م - نشرة سخاو	البيروني	الآثار الباقية من القرون الخالية
ط الجندي	(أبو الريحان محمد بن محمد)	الأربعين
ط حيدر آباد - ١٣٥٣هـ	الغزالي (حجة الإسلام)	الأربعين في أصول الدين
ط حجر - الهند - ١٢٨٢هـ	الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)	الأسفار الأربعة
	الشبرازي	
مطبعة السعادة - مصر - تعليق /	(صدر الدين محمد بن إبراهيم)	الأسماء والصفات
زاهد الكوثري	البيهقي	
ط الرسالة - القاهرة - ١٩٥٣م	(أحمد بن الحسين النيسابوري)	الأشعري أبو الحسن
دار المعارف ط ٣ - ١٩٦٥م	غرابية (د حمودة)	الأصول الأفلاطونية
طبعة ثالثة	النشار (أد على سامي)	الأعلام
القاهرة - ط ١	الزركلي (خير الدين)	الأمر في الشريعة الإسلامية
ط حيدر آباد الدكن	محمد سلام مذكور	الإبانة عن أصول الديانة
	الأشعري	
	(على بن إسماعيل - الإمام)	
ط الحلبي - مصر - ١٩٥١م	السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)	الإتقان في علوم القرآن
دار الخانجي - ١٩٥٠م / د / يوسف	الجويني	الإرشاد إلى قواعد الأدلة في
وأخر	(إمام الحرمين)	أصول الاعتقاد
دار المعارف - ١٩٥٧م / د / دنيا	ابن سينا	الإشارات والتنبيهات
	(أبو علي الحسين بن عبد الله)	
مكتبة السنة المحمدية - القاهرة	ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)	الاحتجاج بالقدر
ط - القاهرة ١٩٤١م - مؤسسة	الأمدي	الأحكام في أصول الأحكام
الحلبي - ١٩٦٧م	(أبو الحسن علي بن أبي علي)	
مطبعة السعادة - مصر - رشيد	الشاطبي	الاعتصام
رضا	(أبو إسحاق إبراهيم بن موسى)	
ط المحمودية التجارية - القاهرة	الغزالي (حجة الإسلام)	الاقتصاد في الاعتقاد

ط صبيح - القاهرة	شاكر	الباعث الحثيث إلى علم
	(الشيخ أحمد ..)	مصطلح الحديث
مطبعة السعادة - ١٩٣٢م	ابن كثير	البداية والنهاية
	(عماد الدين إسماعيل بن كثير)	
ط القاهرة - ١٩٦٢م	الوكيل (عبد الرحمن)	البهائية - تاريخها وعقائدها
ط بيروت - ١٩٥٠م	الباقلائي (أبو بكر محمد الطيب)	البيان
ط الخانجي مصر - ١٩٥٥م الشيخ	الاسفراييني	التبصير في الدين
زاهد الكوثري	(أبو المظفر)	
ط مكتبة النهضة المصرية -	بدوي (أد / عبد الرحمن)	التراث اليوناني في الحضارة
١٩٤٦م		الإسلامية
ط نهضة مصر - القاهرة -	غلاب (أد / محمد)	التصوف المقارن
١٩٥٦م		
ط الحلبي - ١٩٦٠م - عبد الحلیم	الكلاباذي	التعرف لمذهب أهل التصوف
محمود وطه سرور	(تاج الإسلام أبو بكر محمد)	
ط المطبعة الوهبيّة - القاهرة -	الجرجاني	التعريفات
١٢٨٣هـ	(السيد الشريف على بن محمد)	
ط القومية - مصر	القرطبي	التفسير
ط ٢ النأجلو المصرية - ١٩٥٥م	عبد الحلیم محمود	التفكير الفلسفي في الإسلام
دار الفكر العربي القاهرة - ١٩٤٧م	الباقلائي	التمهيد في الرد على الملاحدة
الخضيري أبي ريده	(أبو بكر محمد الطيب)	والرافضة
ط أولى . بولاق - ١٣١١هـ	محمد مختار باشا	التوفيقات الإلهامية
ط الحلبي - مصر	السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)	الجامع الصغير
القاهرة - ١٩٤٨م	البهي	الجانب الإلهي في التفكير
	(أد / محمد ...)	الإسلامي
سلسلة أعلام العرب ع ٤٠ - القاهرة	فوقية حسين	الجويني إمام الحرمين
١٩٦٥م		
ضمن الرسائل الفرائض - ط	الغزالي	الحكمة في مخلوقات الله
الجندي - القاهرة	(حجة الإسلام)	
ط مكتبة مصر القاهرة	بدوي	الحياة الأدبية في عصر
	(أد / أحمد أحمد)	الحروب الصليبية في مصر
ط أولى - نهضة مصر	بدوي	الحياة العقلية في عصر
	(أد / أحمد أحمد)	الحروب الصليبية في مصر
الرسالة - القاهرة / بحث المجلة	حلمي	الحياة العلمية في مصر والشام
التاريخية المصرية ع ٧	(أد / محمد حلمي أحمد)	في القرنين ٧/٦ هـ

ط السعادة - مصر	المكي	الحيدة
	(عبد العزيز بن يحيى بن مسلم)	
ط بولاق ١٣٠٤ هـ	على مبارك	الخطط التوفيقية
ط النيل - مصر ١٩٦٠ م	المقريزي	الخطط المقرئية
	(أحمد بن على بن عبد القادر)	
ط سجل العرب - القاهرة -	قاسم	الخيال عند ابن عربي
١٩٦٩ م	(أد/ محمود قاسم)	
ط الثرقى - دمشق - ١٩٥١ م	النعمي (عبد القادر بن محمد)	الدارس في تاريخ المدارس
مكتبة وهبة - مصر - ١٩٦٣ م	العثمان	الدراسات النفسية عند
	(د / عبد الكريم)	المسلمين
ط محيي الدين الكردي - القاهرة	الجامي	الدرة الفاخرة (ملحق بكتاب
	(ملا عبد الرحمن)	أساس التقديس للرازي)
	القرافي	الذخيرة
ط كلية الشريعة - مصر	أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)	الذيل على الروضتين
القاهرة ١٩٤٧ م	ابن تيمية (أحمد عبد الحلیم)	الرسالة التدمرية
ط الإمام - مصر	ابن تيمية (أحمد عبد الحلیم)	الرسالة القبرصية
ط أنصار السنة المحمدية	القشيري	الرسالة القشيرية
مكتبة محمد على صبيح ١٩٥٧ م	(أبو القاسم عبد انكریم بن هوازن)	
ضمن الرسائل الفرائض - ط	الغزالي	الرسالة اللدنية
الجندي - القاهرة	(حجة الإسلام)	
ط ٣ - مكتبة السنة المحمدية -	ابن تيمية	الرسالة المدنية
١٣٦٥ هـ	(أحمد عبد الحلیم)	
ط الرياض	الكرماني	الرياض
ط عيسى البابي الحلبي - ١٩٥٤ م -	ابن ماجه	السنن
مصر - محمد فؤاد عبد الباقي	(محمد بن يزيد الربيعي القزويني)	
دار العرب للبستاني ٦٠ / ١٩٦١ م	الجويني	الشامل في أصول الدين
هيلموت كوليفر	(إمام الحرمین أبو المعالی عبد الملك)	
دار الكتاب المصري - ١٩٦٩ م د /	ابن سینا	الشفاء - الفن الثاني والفن
محمود قاسم	(أبو على الحسين بن عبد الله)	الثالث من الطبوعات
ط الزهراء - بغداد - ١٩٦٣ م	الشيبي (د / كامل مصطفی)	الصلة بين التصوف والتشيع
ط الكويت / صلاح المنجد	الذهبي (شمس الدين)	العبر في خبر من غير
ج ١ ط بيروت - ١٩٦٠ م	عمر فروخ	العرب والفلسفة اليونانية
ط الأنوار - مصر - ١٩٤٨ م زاهد	الجويني (إمام الحرمین أبو المعالی	العقيدة النظامية
الكوثري	عبد الملك)	

العقيدة الواسطية	ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)	مكتبة السنة المحمدية
العقيدة والشرعية في الإسلام	جولد تسيهر	دار الكتاب العربي - ١٩٥٩ د /
	(أجناس المستشرق)	يوسف موسى وآخرون
العمل بالحديث وشروطه عند الإمامية	مغنية	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -
	(الشيخ محمد عبد الجواد)	جماعة التقريب ١٩٦٠م
العواصم من القواصم	ابن العربي	ط السلفية - مصر - محب الدين
	(محمد بن عبد الله المالكي)	الخطيب ١٣٧٥
الغنية لطالبي طريق الحق	الجيلاني (الشيخ عبد القادر)	ط الموسوعات - القاهرة - ١٩٠٤م
الفتوحات المكية	ابن عربي (محيي الدين)	ط الحلبي - ١٣٢٩هـ
الفرق بين الفرق	البغدادى	مطبعة المعارف - مصر - ١٩١٠م
	(أبو منصور عبد القاهر بن طاهر)	- محمد بدر
الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان	ابن تيمية	ط محمد على صبيح - الشيخ /
	(أحمد عبد الحليم) .	محمود عبد الوهاب فايد
الفصل في العلل والأهواء والنحل	ابن حزم	ط الأدبية - مصر - ١٣١٧هـ
	(أبو محمد على بن محمد الظاهري)	مطبعة البيان العربي - مصر
الفلسفة الإغريقية	غلاب (أد / محمد)	النهضة المصرية - القاهرة -
الفلسفة الرواقية	عثمان أمين	١٩٤٩م
القاديانية ثورة على النبوة	الندوي	رسالة صغيرة طبعت بالقاهرة -
المحمدية والإسلام	(أبو الحسن الندوي)	١٩٥٣م
القاموس المحيط	الفيروز آبادي	ط الحسينية - ١٩١١م - القاهرة
	(مجد الدين محمد بن يعقوب)	
القسطاس المستقيم	الغزالي	ضمن القصور العوالي - ط الجندي
	(حجة الإسلام)	- القاهرة
القضاء والقدر	ابن تيمية	مكتبة أنصار السنة المحمدية -
	(أحمد عبد الحليم) .	١٩٦٣م
القول الفصل	صبري (الشيخ مصطفى)	ط الحلبي ١٣٦١هـ
الكافي في معرفة علماء المذهب الشافعي	البهنسي	نسخة مجلة المشرق - بيروت ع ٢
الكتاب التذكارى لمحيي الدين		- ١٩٥٤ ضمن المجلد ٤٨
ابن عربي		ط القاهرة - الكتاب العربي -
الكشاف عن غوامض التنزيل	الزمخشري	١٩٥٠م
	(جار الله محمد بن عمر)	المكتبة التجارية الكبرى - مصر -
الكندي وفلسفته	أبو ريدة (أد / محمد عبد الهادي)	١٩٥٣م / ١٩٥٤م
الآلئ المصنوعة	السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)	دار الفكر العربي - ١٩٥٠م
		القاهرة ١٣٥٢هـ

ط القاهرة - ١٣٥٧ هـ	ابن الأثير الجزري (عز الدين بن محمد)	اللباب في تهذيب الأنساب
ط القاهرة ١٩٦٠ م	الطوسي (أبو نصر عبد الله السراج)	اللمع
ط الأنوار - القاهرة - ١٩٣٩ م	الحلبي (إبراهيم بن مصطفى)	اللمعة فسي تحقيق مباحث الوجود والحدوث والقدر ...
ط الأستانة ١٢٩٠ هـ	الرازي (قطب الدين محمود بن محمد)	المحاكمات بين الفخر الرازي والنصير الطوسي
ط القسطنطينية - ١٨٦٩ م	أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن علي)	المختصر في تاريخ البشر
ط القاهرة ١٩٨٩ م	عبد الأمير الأعمى الغزالي (حجة الإسلام)	المصطلح الفلسفي عند العرب المضنون الصغير
ضمن القصور العوالي - ط الجندي - القاهرة	الغزالي (حجة الإسلام)	المضنون به على غير أهله
ضمن القصور العوالي - ط الجندي - القاهرة	زهدي جار الله عبد الوهاب عبد اللطيف	المعتزلة المعتصر من مصطلحات أهل الأثر
دمشق - ١٩٦٤ م محمد حميد الله ج ٢٠، ١٧، ١٥، ١٤، ١٢، ١١، ٨، ٤	أبو الحسين البصري عبد الجبار (القاضي أبو الحسن بن أحمد)	المعتمد المغني في أبواب التوحيد والعدل
المؤسسة المصرية للتأليف ط المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة	ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون)	المقدمة
ط الفنية المتحدة - القاهرة	الغزالي (حجة الإسلام)	المقصد الأسنى
ط الأدبية - القاهرة - ١٣١٧ هـ	الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم)	الملل والنحل (بهامش الفصل لابن حزم)
دار المعارف ١٩٦٥ م	النشار (أد / على سامي)	المنطق الصوري منذ أرسطو
ط الأنجلو المصرية - ١٩٦٢ م - عبد الحليم محمود	الغزالي (حجة الإسلام)	المنطق من الضلال
نشر الكردي - القاهرة ١٩٣٨ م	ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله)	النجاة
ط دار الكتب المصرية - ١٩٣٦ م	ابن تغري بردي الأتابكي	النجوم الزاهرة
ط السنة المحمدية - عبد الرزاق حمزة	ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)	الواسطة بين الخلق والحق

الباء		
بحر الكلام	النسفي	ط القاهرة - ١٩٢٣م
	(أبو المعين النسفي الماتريدي)	
بدائع الزهور في وقائع الدهور	ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفى)	دار الشعب - ١٩٦٠
بغية المرقاد (ضمن فتاوى ابن تيمية)	ابن تيمية	ط كردستان العلمية القاهرة - ١٣٢٩هـ
	(احمد عبد الحليم)	
التاء		
تاريخ الطبري	الطبري (محمد بن جرير)	ط مطبعة الحسينية - القاهرة
تاريخ الفلسفة اليونانية	كرم (يوسف كرم)	ط القاهرة
تاريخ المساجد الأثرية	حسن عبد الوهاب	دار الكتب المصرية - ١٩٣٦م
تاريخ اليعقوبي	اليعقوبي (احمد بن أبي يعقوب)	ط بيروت - ١٩٦٠م
تاريخ دول الإسلام	الصدفى (رزق الله منقريوس)	ط الهلال بالجالة - مصر ١٩٠٧م
تاريخ علماء المستنصرية	معروف (ناجى معروف)	ط بغداد - ١٩٥٩م
تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية	هويدى	ج ١ ط القاهرة
	(اد / يحيى)	
تبیین كذب المفتري	ابن عساكر (أبو القاسم)	ط دمشق ١٣٤٢هـ
تجديد التفكير الدينى في الإسلام	إقبال	لجنة التأليف والترجمة - ١٩٥٥م
تجريد الكلام	(د / محمد إقبال - الشاعر المفكر)	ترجمة عباس محمود
تحرير القواعد المنطقية	الطوسي (نصير الدين)	ط طهران ١٢٨٥هـ
	الرازي	ط الحلبي / د بيسان
	(قطب الدين محمود بن محمد)	
تراث الإسلام	توماس أرنولد - مع مجموعة مستشرقين	ط لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٤٦م
ترجيح أساليب القرآن	ابن الوزير	ط المعاهد - مصر - ١٣٤٩هـ
تسع رسائل في الحكمة	(أبو عبيد الله محمد بن إبراهيم)	ط هندية بمصر - ١٩٢٨م
	ابن سينا	
	(أبو على الحسين بن عبد الله)	
تعليقات على كتاب جامع الرسائل لابن تيمية	محمد رشاد سالم	ط القاهرة ١٣٨٩هـ
تفسير العلامة أبو السعود	أبو السعود (محمد بن محمد)	ط العصور بمصر - ١٩٢٨م
تفسير القرآن العظيم	ابن كثير	ط الحلبي - القاهرة
	(عماد الدين إسماعيل بن كثير)	
تلبيس إبليس	ابن الجوزي	المطبعة المنيرية - القاهرة نشر وتعليق منير الدمشقي
	(جمال الدين عبد الرحمن)	
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية	مصطفى عبد الرزاق	ط ثانية - القاهرة - ١٩٥٩م

تهافت التهافت	ابن رشد (الحفيد)	دار المعارف - ١٩٦٤ / د سليمان دنيا
تهافت الفلاسفة	الغزالي (حجة الإسلام)	ط الحلبي ١٩٤٧ م - د. سليمان دنيا
تيسير الوصول إلى علم الأصول	محمد الطيب النجار - أستاذ أصول الفقه بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر	القاهرة - ط ١
<u>الجيب</u>		
جامع الأصول	ابن الأثير الجزري (أبو السعادات)	ط القاهرة
جامع الرسائل	ابن تيمية (أحمد عبد الحلیم)	ط القاهرة - ١٣٨٩ هـ
جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته	قاسم (أد / محمود قاسم)	ط الأنجلو المصرية
جمهرة خطب العرب	أحمد زكي صفوت	ج ١ ط أولى مصر
جهد الفريضة في تجريد النصيحة	السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)	ضمن صون المنطق والكلام - ط مصر
جواهر القرآن	الغزالي (حجة الإسلام)	مكتبة الجندي - القاهرة - ١٩٦٤ م
<u>الحاء</u>		
حاشية على شرح العقائد العضدية	محمد عبده (الشيخ)	المكتبة الخيرية - القاهرة
حاشية على شرح العقائد النسفية	السيالكوتي (عبد الحكيم)	ط صبيح - مصر ١٩٣٩ م
حاشية على شرح العقائد النسفية	الخيالي (أحمد بن موسى)	ط صبيح - مصر ١٩٣٩ م
حسن المحاضرة	السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)	ط القاهرة ١٩٠٩ م
حوار بين الفلاسفة والمتكلمين	الأوسي (د / حسام محي الدين)	مطبعة الزهراء ببغداد - ١٩٦٧ م
حي بن يقظان لابن سينا وابن الطفيل والسهرودي	أحمد أمين	دار المعارف بمصر - ١٩٥٩ م
<u>الدال</u>		
دائرة المعارف الإسلامية	البستاني (المعلم بطرس)	ط دار الشعب - القاهرة
دائرة معارف البستاني	البستاني (المعلم بطرس)	ط بيروت - ١٨٧٦ م - وكذا ١٩٥٦ م
دراسات في الفلسفة الإسلامية	قاسم (أد / محمود قاسم)	ط دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧ م
دفع شبه من شبه	الحصني (أبو بكر ثقي الدين ابن محمد)	ط الحلبي - القاهرة - ١٣٥٠ هـ

ديوان أبي الأسود الدؤلي	الدؤلي (أبو الأسود الدؤلي)	ط بغداد - ١٩٥٤م / عبد الكريم الدجيلي
ديوان الأخطل	الأخطل	المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٨٩١م
ديوان جرير	(غويث بن غوث - الشاعر) جرير بن عطية الخطفي	ط دار صادر - بيروت - ١٩٦١م
ديوان حسان بن ثابت	حسان بن ثابت (شاعر الرسول) الراء	دار صادر بيروت - ١٩٦١م
رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا	إخوان الصفا	ط القاهرة المكتبة التجارية الكبرى - ١٩٢٨م
رسائل الحدود	ابن سينا	ضمن تقع رسائل
رسائل الكندي الفلسفية	(أبو علي الحسين بن عبد الله) الكندي	ط القاهرة - ١٩٥٠م - محمد عبد الهادي أبو ريذة
رسالة التوحيد	(أبو يوسف يعقوب بن إسحاق) محمد عبده (الشيخ)	مكتبة القاهرة - ١٩٦٠م نشر رشيد رضا الطبعة ١٧
رسالة الحسن بن الهيثم في الضوء	ابن الهيثم	جمعية المعلمين - ١٩٣٨ - عبد الحميد مرسي
رموز الكنوز	(أبو علي الحسن) مجهول	مكتبة الأزهر - ١١١٠هـ
روضة الطالبين	الغزالي	ضمن الرسائل الفرائض - ط الجندي - القاهرة
روضة المناظر (بهامش ج ٧ - ج ٩ من تاريخ ابن المنير)	ابن الشحنة	ط بولاق ١٢٩٠هـ
رياض الصالحين	(محب الدين بن محمد) النووي	ط القاهرة
	(محيي الدين يحيى بن شرف) السين	
سنن الترمذي	الترمذي	ط القاهرة - ١٩٥٠م
	(أبو عيسى محمد بن عيسى) الشين	
شرح أو تلخيص المحصل	الطوسي	ط الحسينية - ١٣٢٣هـ - مصر
	(نصير الدين)	
شرح ابن عقيل	ابن عقيل	ج ١ ط التجارية - مصر - ١٩٣١م
	(بهاء الدين عبد الرحمن)	- محيي الدين
شرح الأصول الخمسة	عبد الجبار	ط وهدية - القاهرة - ١٩٦٥م - د عبد الكريم العثمان
	(القاضي أبو الحسن بن أحمد)	

شرح الإشارات	الطوسي	دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٠م
شرح الإشارات - شرح	(نصير الدين)	- د دنيا
النصير الطوسي	الرازي	ط الخيرية - مصر ١٣٢٥هـ
شرح التجريد	(فخر الدين محمد بن عمر)	ط حجر - طهران - ١٢٨٥هـ
شرح الطحاوية	القوشجي	دار المعارف - ١٣٧٣هـ
شرح العضدية	(علاء الدين بن محمد علي)	ط الخيرية - مصر ١٣٢٢هـ
شرح العقائد النسفية	ابن أبي العز الحنفي	ط محمد علي صبيح - القاهرة -
شرح العقيدة الأصفهانية	(علي بن علي بن محمد)	١٩٣٩م
شرح المواقف	الدواني	ضمن مجموعة فتاوى ابن تيمية ط
شرح نهج البلاغة	(جلال الدين محمد بن أسعد)	القاهرة - ١٣٢٩هـ
شفاء العليل في مسائل القضاء	الفتازاني	مطبعة السعادة - مصر - ١٣٢٥هـ
والقدر والحكمة والتعليل	(سعد الدين ..)	دار الكتب العربية - القاهرة ١٩١١م
ضحى الإسلام	ابن تيمية	دار الكتاب العربي - مصر
	(أحمد عبد الحليم)	
	الجرجاني	
	(السيد الشريف بن محمد)	
	ابن أبي الحديد	
	(عز الدين)	
	ابن قيم الجوزية	
	(محمد بن أبي بكر)	
	<u>الضاد</u>	
	أحمد أمين	مكتبة النهضة المصرية - ١٩٦١م
		ج ١ ج ٢
	<u>الطاء</u>	
طبقات الحنابلة	ابن أبي يعلى	ط السنة المحمدية - ١٩٥٢
طبقات الشافعية	(أبو الحسن محمد بن محمد)	ط الحسينية - القاهرة
	السبكي	
	(تاج الدين عبد الوهاب بن علي)	
	<u>العين</u>	
عقائد الإمامية	المظفر (محمد رضا المظفر)	مطبوعات النجاح القاهرة ١٣٨١هـ
عقيدة أهل السنة	ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)	مكتبة السنة المحمدية
عقيدة في التوحيد	محيي الدين بن عربي	ط القاهرة
علم التاريخ عند المسلمين	فرانز روز نثال	ط المثني ببغداد - ١٩٦٣م ترجمة
		صالح العلي

- عيون الأنبياء في طبقات الأطباء
ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم)
الفارابي (أبو النصر)
ط بيروت - ١٩٥٦م ط القاهرة - ١٣١١هـ
ضمن مجموعة من طبع السلفية بمصر ١٩١٠م

الغين

- غاية المرام
الأمدي (سيف الدين)
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - د / حسن الشافعي

الفاء

- فتاوى ابن الصلاح
ابن الصلاح (أبو عمر بن عبد الرحمن)
ط كردستان العلمية القاهرة - ١٣٢٩هـ ط القاهرة
فتاوى ابن تيمية
ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)
فتح البدي بشرح مختصر الزبيدي
الشرقاوي (الشيخ عبد الله)
فصوص الحكم
ابن عربي (محيي الدين)
فضائح الباطنية
الغزالي (حجة الإسلام)
فلسفة المعتزلة
نادر (د / ألبير نصري)
في الفلسفة الإسلامية
مذكور (أد / إبراهيم بيومي مذكور)
في القوى الإنسانية
ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله)
في النفس والعقل لدي فلاسفة قاسم
(أد / محمود قاسم)
الإسلام والإغريق
الغزالي (حجة الإسلام)
فيصل التفرقة
الغزالي (حجة الإسلام)

القاف

- قصة النزاع بين الدين والفلسفة
د / الطويل

الكاف

- كتاب الاختصار والرد على ابن الراوندي
الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد)
المكتبة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٥٧م

- كتاب الروضتين في أخبار
الدولتين أبو شامة
(عبد الرحمن بن إسماعيل)
كتاب الرياض الكرماني
(أحمد بن عبد الله الإسماعيلي)
كتاب الكندي إلى المعتصم بالله الكندي
(أبو يوسف يعقوب بن إسحاق)
كتاب اللمع في الرد على أهل
الزيغ والبدع الأشعري
(علي بن إسماعيل - الإمام)
كتاب المبين في شرح معاني
الحكماء والمتكلمين الامدي
(أبو الحسن علي بن أبي علي)
كشف الظنون عن أسامي
الكاتب والفنون حاجي خليفة
(مصطفى بن عبد الله كاتب جلي)
اللام
لب اللباب في تاريخ الأتساب السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)
لسان العرب ابن منظور
(جمال الدين محمد بن جلال الدين)
لسان الميزان ابن حجر (العسقلاني أبو الفضل)
أحمد بن علي
لمعة الاعتقاد ابن قدامة (الفقيه الحنبلي)
الميم
مؤلفات ابن سينا قنواني (الأب جورج شحاته)
مجمع الأمثال الميداني
(أحمد بن محمد النيسابوري)
مجموعة الرسائل والمسائل ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)
مجموعة تفسير ابن تيمية ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)
محاضرات في الفلسفة هويدى
الإسلامية (د . يحيى)
محصل أفكار المتقدمين الرازي
والمؤخرين (فخر الدين محمد بن عمر)
مختصر التحفة الإثنا عشرية الألوسي
(محمود شكري)
مدارج السالكين ابن القيم الجوزية
(شمس الدين محمد بن أبي بكر)
مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي (عبد الله بن أحمد)
القاهرة ١٣٧٧هـ - د حلي
دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٠ م
نشر عارف تامر
ط الحلبي - ١٩٤٨ م - د الأهواني
ط الخانجي - القاهرة - ١٩٥٥ م د /
حمودة
نسخة بمجلة المشرق - بيروت ع ٢
- ١٩٥٤
ط بولاق - ١٢٧٤هـ
ط أوربا ١٩٤٣ م - بطرس يوحنا
المطبعة الأميرية ببولاق - ١٨٨٢
١٨٨٩ م
ط حيدر اباد - ١٣٣٠هـ
مكتبة السنة المحمدية - القاهرة
ط دار المعارف - ١٩٥٠ م
المطبعة البهية - القاهرة - ١٣٤٢هـ
ط المنار - ١٩٣٢ م - القاهرة
ط بومباي - ١٩٥٤ م
النهضة المصرية - القاهرة -
١٩٦٥ م.
ط الحسينية بمصر سنة ١٣٢٣هـ
ط الفلسفية - مصر محصب الدين
الخطيب
مطبعة المنار - ١٩٣٢ م - القاهرة
ط الحلبي - القاهرة

ط النهضة المصرية - ١٩٤٦م	بينس (د / س بينس)	مذهب الذرة عن المسلمين
ط حيدر آباد - ١٢٣٩هـ	اليافعي (محمد بن عبد الله)	مرآة الجنان
ط حيدر آباد - ١٩٥١م	سبط ابن الجوزي	مرآة الزمان في تاريخ الأعيان
	(شمس الدين بن المظفر)	
ط الحلبي - مصر - ١٩٥٤م	البغدادي	مراسد الإطلاع في أسماء
	(صفى الدين ..)	الأمكنة والبقاع
ضمن القصور العوالي - ط الجندي	الغزالي	مشكاة الأنوار
- القاهرة	(حجة الإسلام)	
ط كردستان العلمية - القاهرة -	ابن فورك (أبو بكر محمد بن الحسن	مشكل الحديث وبيانه
١٣٢٦هـ	الأصبهاني)	
مكتبة مصر ط سنة - ١٩٦٣م	ابراهيم	مشكلات فلسفية - مشكلة
	(د / زكريا ..)	الحرية
دار الطباعة الحديثة - ١٩٦٣م	فؤاد زكريا	مشكلات فلسفية - مشكلة
		الحرية
ط النجف ١٩٦٦م	عبد الزهراء الحسيني الخطيب	مصادر نهج البلاغة وأسانيده
ع ٢٦٩ من سلسلة الألف كتاب ط	العريني	مصر في عهد الأيوبيين
دار الكيلاني الصغير	(أد / السيد الباز)	
ط الاستقامة - مصر	الغزالي (حجة الإسلام)	معارج القدس
ط دار الزيني للطباعة والنشر -	ابن تيمية	معارج الوصول إلى معرفة
القاهرة	(أحمد عبد الحلیم)	أصول الدين وفروعه
ط الحسنية - ١٣٢٣هـ	الرازي	معالم أصول الدين (بهامش
	(فخر الدين محمد بن عمر)	المحصل)
بيروت ١٩٦٠م	مغنية (الشيخ محمد عبد الجواد)	معالم الفلسفة الإسلامية
ط الخانجي بمصر - ١٩٠٦م	ياقوت	معجم البلدان
	(ابن عبد الله الرومي الحموي)	
ط الترقى - دمشق - ١٩٦٠م	كحالة (عمر محمد كحالة)	معجم المؤلفين
ط القاهرة - ١٩٢٨م	سركيس	معجم المطبوعات العربية
	(يوسف إليان سركيس)	
ط حيدر آباد - ١٣٢٨هـ	طاش كبري زاده	مفتاح السعادة
ط - جامعة فؤاد الأول - ١٩٥٣ -	ابن واصل	مفرج الكرب في أخبار بني
د الشيال	(جمال الدين محمد بن سالم)	أيوب
ط دار النهضة المصرية - ١٩٥٠م	الأشمري	مقالات الإسلاميين واختلاف
محيي الدين عبد الحميد	(علي ابن إسماعيل - الإمام)	المصلين
القاهرة - ١٩٦٥	قاسم (أد / محمود قاسم)	مقدمة كتاب مناهج الأدلة

القاهرة ١٩٦٠م	النشار (أد / على سامي)	مناهج البحث عند مفكري الإسلام
مطبعة صبيح بالقاهرة	الأمدي	منتهى السؤل في علم الأصول
	(أبو الحسن على بن أبى علي)	
القاهرة - ١٩٦٥	هويدى (أد / يحيى)	منطق البرهان
ط الأنجلو المصرية د / محمود قاسم	ابن رشد (الحفيد)	مناهج الأدلة
المطبعة الأميرية بولاق - ١٣٢١ -	ابن تيمة	مناهج السنة النبوية
نشرة د / محمد رشاد	(أحمد عبد الحليم)	
ضمن القصور العوالي - ط الجندي	الغزالي	مناهج العارفين
- القاهرة	(حجة الإسلام)	
ط دار المعارف - مصر	الجويني	منهج الزمخشري في تفسير القرآن
	(مصطفى الصاوي)	
ط السنة المحمدية - ١٩٥١م ونسخة	ابن تيمية	موافقة صحيح المنقول
لدي د / محمد رشاد	(أحمد عبد الحليم)	
ط القاهرة - ١٩٣٣م	صبرى	موقف البشر تحت سلطان القدر
	(الشيخ مصطفى)	
ط السعادة - مصر - ١٣٢٥هـ	الذهبي	ميزان الاعتدال في نقد الرجال
	(شمس الدين)	
<u>النون</u>		
ج ١ ط ٣ - ١٩٦٥ ج ٢ ط ٢ - ١٩٦٤	النشار	نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام
	(أد / على سامي)	
ط الانجلو المصرية	قاسم	نظرية المعرفة عند ابن رشد
	(أد / محمود قاسم)	
ط السنة المحمدية - ١٩٥١م /	ابن تيمية	نقض المنطق
محمد عبد القادر حمزة وآخر	(أحمد عبد الحليم)	
ط المثني بغداد - الفريد جيوم	الشهرستاني	نهاية الإقدام في علم الكلام
	(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم)	
<u>الهاء</u>		
ط استانبول - ١٩٥٥م - ١٩٥١م	البغدادي (إسماعيل باشا ..)	هداية العارفين
<u>الواو</u>		
النهضة المصرية - ١٩٤٨م / الشيخ	ابن خلكان	وفيات الأعيان
محمد محيي الدين	(شمس الدين أحمد بن إبراهيم)	

<u>المخطوطات</u>		
أبكار الأفكار في أصول الدين	الأمدي	
اسماء الحكماء	(أبو الحسن علي بن أبي علي)	
المطالب العالية	القفطي	دار الكتب المصرية ٥٧ تاريخ
تلخيص المطالب العلية	الرازي (فخر الدين)	معهد المخطوطات - ٢١٨ توحيد
	الأمدي	معهد المخطوطات - ٣ توحيد
طبقات الشافعية الوسطى	(أبو الحسن علي بن أبي علي)	
طبقات الشافعية	السبكي	معهد المخطوطات ١١٢٧ تاريخ
غزو الحكم دور الكلم	ابن الملقن	دار الكتب المصرية
طبقات الشافعية	عبد الواحد الأمدي	لاله - تركيا ١٨٧٨
طبقات الشافعية	ابن شبه (تقي الدين)	دار الكتب - ٥٦٨ تاريخ
كتاب التوحيد	الشرقاوي عبد الله (شيخ الاسلام)	دار الكتب - ٥٧٨ تاريخ
	الما تريدي	مصور كمبردج - دار الكتب -
	(أبو منصور)	٢٦٣٣٨ - القاهرة
كشف التمويهات	الأمدي	نسخة مصورة عن نسخة المتحف
مختصر المطالب العالية	(أبو الحسن علي بن أبي علي)	البريطاني بلندن
	الخونجي	دار الكتب - ٨٤٠ علم الكلام
	(أفضل الدين)	
مرشد الأنام	الحسيني (أحمد بك)	دار الكتب - ١٥٢٢

<u>اسم الرسالة</u>	<u>الباحث</u>	<u>الكلية - سنة الإجازة</u>
--------------------	---------------	-----------------------------

أبو جعفر الطحاوي	عبد المجيد محمود	دار العلوم - ١٩٦٤
تاريخ جهاد نكشاي	الجويني (علاء الدين)	آداب عين شمس - ١٩٦٧
دولة الإسماعيلية في إيران	السعيد (سعيد جمال الدين)	آداب عين شمس - ١٩٦٧
عقائد الإمامية الاثنى عشرية	السنهوتى (محمد الأنور)	دار العلوم
فخر الدين الرازي وآراؤه	الزركان (محمد صالح)	دار العلوم - ١٩٦٣

<u>الدكتوراه</u>		
نقد المشائبة الإسلامية بعد ابن سينا	شرف	آداب إسكندرية - ١٩٦٨
	(محمد جلال الدين)	

دار العلوم - ١٩٦٥م - ألقى بحلقة الأبحاث بالكلية .	<u>الأبحاث</u>	هویدی (ا.د/ یحیی)	محمد بن تومرت
دار العلوم - مقدم للدكتور/ محمود قاسم		شلبی (سعد شلبی)	مؤلفات الأشعرى

الفهرس الموضوعي

- ٤ - ١ - المقدمة
- ١٧٠ - ٥ - الباب الأول
- [سيف الدين الآمدي : عصره ، وحياته ، وثقافته وإنتاجه ، ومنهجه]
- ٧ - تمهيد
- ٢٥ - ٩ - الفصل الأول (عصره)
- ١٣ - ٩ - أولاً : من الناحيتين السياسية والاجتماعية
- ٢٥ - ١٣ - ثانياً : من الناحيتين الثقافية والدينية
- ٢١ - ١٣ ١ - أهم الظواهر العلمية والثقافية
- ١٥ - ١٣ أ - ظاهرة المدارس
- ١٦ - ١٥ ب - رعاية العلوم غير الدينية
- ٢١ - ١٦ ج - ركود الدراسات العقلية والفلسفية
- ٢٥ - ٢١ ٢ - من السمات البارزة في الحياة الدينية
- ٢٢ - ٢١ أ - التقارب المذهبي
- ٢٣ - ٢٢ ب - استقرار المذاهب الأربعة المعروفة
- ٢٥ - ٢٣ ج - غلبة روح التصوف
- ٢٥ د - التسامح الديني
- ٥٤ - ٢٧ - الفصل الثاني (حياة الآمدي)
- ٢٧ • اسمه ولقبه
- ٢٨ • كنيته ، تاريخ مولده
- ٢٩ • موطنه
- ٣٠ • الآمدي في بغداد - شيوخه ودراساته
- ٣١ • تحوله عن المذهب الحنبلي
- ٣٣ - ٣٢ • دور ابن فضلان في حياته
- ٣٥ - ٣٤ • اتصاله بنصاري بغداد
- ٣٧ - ٣٥ • الرحلة الأولى إلى الشام
- ٤٠ - ٣٧ • رحلته إلى مصر
- ٤٨ - ٤٠ • إقامته الثانية في الشام

٤٧ - ٤٨	• موته
٤٨ - ٥٠	• تلاميذه
٥٠ - ٥٣	• صفاته وأخلاقه
٥٣ - ٥٤	• حياته الخاصة
٥٥ - ١٠٥	- الفصل الثالث (ثقافته وإنتاجه العلمي)
٥٥ - ٦٠	أولاً - العلوم التي أتم بها استكمالاً لثقافته
٥٥ - ٥٦	(أ) النحو واللغة
٥٦ - ٥٧	(ب) الفقه
٥٧	(ج) القراءات
٥٧ - ٥٨	(د) الحديث
٥٨ - ٦٠	(هـ) التفسير
٦٠	(و) الطب
٦٠ - ١٠٢	ثانياً - العلوم التي أحاط بمباحثها
٦١ - ٧٤	(أ) أصول الفقه وما يتعلق به
٦٤ - ٦٧	٢ الجدل والخلاف
٦٧ - ٧١	- مؤلفاته الأصولية
٧١ - ٧٣	- مؤلفاته في الجدل والخلاف
٧٣ - ٨٥	(ب) الفلسفة
٨٥ - ٧٤	- مؤلفاته الفلسفية
٨٥ - ١٠٢	٣ (ج) علم الكلام
٨٦ - ١٠٢	- مؤلفاته الكلامية
١٠٢ - ١٠٥	- مؤلفات مجهولة الموضوع
١٠٦ - ١٧٠	- الفصل الرابع (منهجه)
١٠٧	- تمهيد
١٠٩	(أ) موقفه من النظر العقلي
١٠٩	- النظر العقلي والعلم
١١٠	- حقيقة النظر العقلي
١١١	- وجوب النظر
١١٢ - ١٢٠	- اعتراضات أخرى ضد النظر

١٦١ - ١٢١	(ب) موقفه من المناهج الكلامية الأخرى
١٢١	- تمهيد
١٤١ - ١٢١	(١) - الدليل السمعي
١٢٧ - ١٢٣	أولاً : الأشاعرة بين النقل والعقل
١٢٨ - ١٢٧	ثانياً : فكرة " الدور " عند المعتزلة
١٣١ - ١٢٩	ثالثاً : مدى التزام الأمدي بهذا الموقف المنهجي
١٤٠ - ١٣١	رابعاً : نقد هذا الموقف من الدليل السمعي
١٣٣ - ١٢٢	١ - مسألة ظنية الثبوت
١٣٤ - ١٣٣	٢ - مسألة ظنية الدلالة
١٣٧ - ١٣٥	٣ - مسألة الدور
١٤١ - ١٣٧	٤ - تقديم العقل على السمع عند التعارض
١٤٨ - ١٤١	(٢) قياس الغائب على الشاهد
١٤٤ - ١٤١	(أ) شيوعه لدى المتكلمين ونقد الأمدي له
١٤٧ - ١٤٤	(ب) نقد هذا القياس قبل الأمدي
١٤٨ - ١٤٧	(ج) مدى التزام الأمدي بموقفه منه
١٥٠ - ١٤٨	(٣) الاستقراء
١٥٣ - ١٥٠	(٤) انتفاء المدلول لانتفاء دليله
١٥٥ - ١٥٣	(٥) موقفه من أساليب الجدل
١٥٧ - ١٥٥	أ - الاعتماد على مسلمات الخصوم
١٥٩ - ١٥٧	ب - طريقة القسمة والتشقيق الجدلي
١٦١ - ١٥٩	ج - طريقة الخلف
١٧٠ - ١٦٣	(ج) موقفه من المنطق الأرسطي
٥١١ - ١٧١	الباب الثاني (آراؤه الكلامية)
٣٧٦ - ١٧٣	- الفصل الأول (آراء الأمدي المتعلقة بالله)
١٧٤	- المبحث الأول : الاستدلال على وجوده تعالى
١٧٦ - ١٧٥	١ - الماهية والوجود
١٨٢ - ١٧٦	٢ - طرق الاستدلال على وجوده تعالى
١٩٧ - ١٨٢	٣ - استدلال الأمدي على وجود الله
٢٣٤ - ١٩٧	- المبحث الثاني [الصفات الإلهية - أحكامها العامة]

١٩٧	- تمهيد
٢٠٣ - ١٩٨	أولاً : هل يمكن معرفة حقيقة ذاته تعالى ؟
٢٠٥ - ٢٠٣	ثانياً : هل للباري - تعالى - " وصف أخص " به يتميز عن سائر المخلوقات ؟
٢٠٩ - ٢٠٥	ثالثاً : الأسماء الحسنى وعلاقتها بالصفات
٢١٣ - ٢٠٩	رابعاً : أقسام الصفات وعددها
٢٢٣ - ٢١٣	خامساً : الصفات الإيجابية وعلاقتها بالذات
٢٣٠ - ٢٢٣	سادساً : الصفات وطريقة إثباتها
٢٣٣ - ٢٣٠	سابعاً : هل الصفات متغيرة فيما بينها ؟
٢٩٦ - ٢٣٥	- المبحث الثالث (الصفات النفسية أو معرفة الإثبات)
٢٣٨ - ٢٣٥	- تمهيد عام
٢٤٨ - ٢٣٩	(١) صفة الإرادة
٢٤٠ - ٢٣٩	(أ) الآراء حولها
٢٤٠	(ب) تعريفها
٢٤١	(ج) الاستدلال عليها
٢٤٢	(د) إيضاحات
٢٤٣	(هـ) صعوبات القول بالإرادة القديمة
٢٤٧ - ٢٤٦	(و) وحدة الإرادة
٢٤٨ - ٢٤٧	(ز) تعقيب
٢٤٩	(٢) صفة العلم
٢٥٠ - ٢٤٩	(أ) الآراء حولها
٢٥٣ - ٢٥٠	(ب) الاستدلال عليها
٢٥٥ - ٢٥٣	(ج) العلم معنى وجودى قديم
٢٥٩ - ٢٥٥	(د) مشكلات حول العلم
٢٦٦ - ٢٦١	(٣) صفة القدرة
٢٦١	(أ) معناها
٢٦٢	(ب) الاستدلال
٢٦٤ - ٢٦٢	(ج) شمول القدرة الإلهية وانفرادها بالتأثير
٢٦٦ - ٢٦٤	(د) تعلق القدرة بخلاف المعلوم

٢٨٣ - ٢٦٧	(٤) صفة الكلام
٢٧١ - ٢٦٧	(١) الخلاف حولها
٢٧٥ - ٢٧١	(ب) إثبات الكلام صفة ذاتية لله تعالى
٢٨٤ - ٢٧٥	(ج) الكلام النفسى معناه ووحدته وقدمه
٢٩٢ - ٢٨٤	(٥) (٦) السمع والبصر
٢٨٦ - ٢٨٤	(أ) المذاهب فيهما
٢٨٧ - ٢٨٦	(ب) إثباتهما
٢٩٢ - ٢٨٧	(ج) شبهات حول إثبات السمع والبصر
٢٩٦ - ٢٩٣	(٧) صفة الحياة
٢٩٤ - ٢٩٣	(أ) الآراء حولها
٢٩٦ - ٢٩٤	(ب) الاستدلال عليها
٢٩٧	المبحث الرابع -:- الصفات السلبية
٣٠٢ - ٢٩٧	تمهيد - نزعة التنزيه والتأويل وتطورها عند الأشاعرة
٣٠٦ - ٣٠٣	(١) القدم والبقاء
٣٠٦ - ٣٠٥	- الاستدلال عليهما
٣٢١ - ٣٠٧	(٢) الوجدانية
٣٠٧	- معناها
٣٠٨	- الاستدلال عليها
٣١٠ - ٣٠٨	(أ) - استدلال الفلاسفة
٣١٤ - ٣١٠	(ب) استدلال المتكلمين
٣٢١ - ٣١٤	(ج) استدلال الأمدي
٣٢٤ - ٣٢٣	(٣) نفى الجسمية عن الله تعالى
٣٢٥ - ٣٢٣	(أ) طبيعة المسألة
٣٣٠ - ٣٢٥	(ب) مثبتو الجسمية وحكمهم
٣٣٤ - ٣٣٠	(ج) إبطال الجسمية
٣٤٠ - ٣٣٥	(٤) تأويل الصفات الخبرية
٣٤٨ - ٣٤١	(٥) عدم حلول الحوادث بذاته تعالى
٣٤٣ - ٣٤١	أ - ظهور المشكلة وموقف المتكلمين منها
٣٤٧ - ٣٤٣	ب - موقف الامدى

٣٤٨ - ٣٤٧	ج - استدلاله الخاص
٣٥٠ - ٣٤٩	(١) نفي الزمانية عنه تعالى
٣٦٠ - ٣٥١	(٧) تنزيهه تعالى عن المكانية مسألة (الجهة)
٣٦٦ - ٣٦١	(٨) إبطال الحلول والاتحاد
٣٦٣ - ٣٦١	أ - القائلون بهما
٣٦٤ - ٣٦٣	ب - إبطال الحلول
٣٦٦ - ٣٦٤	ج - إبطال الاتحاد
٣٧٦ - ٣٦٧	- مسألة الرؤية
٣٧٠ - ٣٦٧	١ - طبيعة المسألة والخلاف حولها
٣٧٦ - ٣٧٠	ب - اثبات الرؤية
٣٤٤ - ٣٧٧	الفصل الثاني (العالم)
٢٧٧	- تمهيد
٤١٤ - ٣٧٩	- المبحث الأول [قدم العالم وحدثه ومشكلة الخلق]
٣٩١ - ٣٧٩	أ - الخلاف حول المسألة
٣٨٢	أولاً : الشيعة
٣٨٦ - ٣٨٢	ثانياً : الصوفية
٣٩٠ - ٣٨٦	ثالثاً : <u>المعتزلة</u>
٣٩١ - ٣٩٠	رابعاً : ابن تيمية
٣٩٧ - ٣٩٢	ب - إبطال القدم
٤٠٠ - ٣٩٧	ج - الخلق المباشر
٤٠١ - ٤٠٠	د - الخلق المستمر
٤٠٣ - ٤٠١	هـ - أدلة الحدوث
٤١٠ - ٤٠٤	١ - نقده لدليل الجوهر والعرض
٤١٣ - ٤١٠	٢ - نقده لدليل الممكن والواجب
٤١٩ - ٤١٥	- المبحث الثاني (طبيعة الأجسام وتغييراتها)
٤٢٤ - ٤٢١	- المبحث الثالث (المكان والزمان)
٤٢٦ - ٤٢٥	- المبحث الرابع (الحركة والسكون)
٤٣٢ - ٤٢٧	- المبحث الخامس (العلية وفكرة العادة)
٤٤٤ - ٤٣٣	- المبحث السادس (الحكمة)

- ٤٤٠ - ٤٣٤ أولاً : الحسن والقبيح
- ٤٤٤ - ٤٤٠ ثانيا : مسألة الصلاح والأصلح
- ٥١١ - ٤٤٥ -الفصل الثالث (الإنسان)
- ٤٥٨ - ٤٤٧ - المبحث الأول (النفس)
- ٤٤٨ - ٤٤٧ (أ) تعريفها
- ٤٥٢ - ٤٤٨ (ب) طبيعتها
- ٤٥٥ - ٤٥٢ (ج) نقد الأمدي لهذه الآراء
- ٤٥٦ - ٤٥٥ (د) موقفه الخاص
- ٤٥٧ - ٤٥٦ (هـ) حدوث النفس
- ٤٥٨ - ٤٥٧ (و) مصدرها
- ٤٦٥ - ٤٥٩ - المبحث الثاني (المعرفة)
- ٤٥٩ (أ) أهمية المعرفة وطريقها
- ٤٦٢ - ٤٥٩ (ب) حقيقة العلم وأقسامه
- ٤٦٢ - ٤٦٢ (ج) الحواس والإدراك الحسي
- ٤٦٥ - ٤٦٤ (د) المعرفة العقلية
- ٤٧٨ - ٤٦٧ - المبحث الثالث (الأفعال الإنسانية)
- ٤٦٨ - ٤٧٦ (أ) طبيعة المسألة
- ٤٧٥ - ٤٦٨ (ب) آراء المتكلمين (الأشاعرة والمعتزلة)
- ٤٧٧ - ٤٧٥ (ج) آراء أخرى
- ٤٧٨ - ٤٧٧ - كلمة أخيرة
- ٤٩٠ - ٤٧٩ - المبحث الرابع (النبوة)
- ٤٨٤ - ٤٧٠ ١ - إمكان النبوة ووجه الحاجة إليها
- ٤٨٦ - ٤٨٤ ب- المعجزة كطريق لإثبات صدق النبي
- ٤٨٨ - ٤٨٦ ج - خصائص المعجزة والفرق بينها وبين السحر
- ٤٩٠ - ٤٨٨ د - إثبات نبوة محمد
- ٤٩٨ - ٤٩١ - المبحث الخامس (البعث)
- ٤٩٤ - ٤٩١ (١) نقده لموقف الفلاسفة الإسلاميين من فكرة الخلود
- ٤٩٨ - ٤٩٤ (٢) مذهب " أهل الحق " في مسألة البعث والمعاد
- ٥١١ - ٤٩٩ -المبحث السادس (الإمامة)

٤٩٩	- تمهيد
٥٠٠ - ٤٩٩	(أ) تعريف الإمامة وبيان غايتها
٥٠١ - ٥٠٠	(ب) وجوب الإمامة
٥٠٣ - ٥٠٢	(ج) الاستدلال على وجوبها
٥٠٧ - ٥٠٣	(د) طريقة تولية الإمام وخلعه
٥١١ - ٥٠٧	(هـ) شروط الإمام

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٦ / ١٤٤ / ٨